

قصص الأنبياء

ومعها :

صلى الله
عليه
وسلم

سيرة الرسول

لداعية العصر

فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى

اعتنى به

محمد سامح عمر

إبراهيم عبد الستار على

الناشر

حسن محمود

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

1426 هـ - 2006 م

رقم الإيداع : 13766 / 2005

I.S.B.N. : 977- 310-191 - 6

الناشر

دار القدس

ت : ٤٢٣٩٥٥٧ - ٠١٢٢٦٣٢٨٧٥

الإهداء

اعترافاً بالفضل والجميل
لأصحاب الفضل

إلى الأستاذ / سامي محمد الشعراوي

الناشر
حسن محمود

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الكتاب

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، وصلوات الله وتسليمه على نبيه الأمين ،
الذى حمل وحيه ، وأداه إلينا كاملاً ، مبيناً ، لا عوج فيه ، فعلّمنا به من الجهالة ،
وهدانا به من الضلالة ، وجمعنا به بعد الفرة ، وجعل لنا فى الدنيا والآخرة مكاناً لا
تكره الأم .

وبعد ، فإن للقصص القرآنى أهمية عظيمة للفرد المسلم ، فهو يعرفنا بقصص الأمم
الغابرة ؛ لتتخذ منه العظة والعبرة ، ولنعرف ما لاقاه أنبياء الله - عليهم السلام - فى
سبيل إرساء دعائم التوحيد ونشر منهج الله الذى يرتضيه سبحانه وتعالى .

وإن من العلماء الأجلاء الذين كان دوراً كبيراً فى الدعوة فضيلة الداعية
محمد متولى الشعراوى ، رحمه الله تعالى ، فقد حُبب إلى القلوب جميعها من خلال
أسلوبه الشيق فى الإلقاء عبر وسائل الإعلام السموعة أو المرئية أو المقروءة ، وما نحن
نقدم للقارئ الكريم « قصص الأنبياء » ومعه « سيرة الرسول ﷺ » .

أما عن علمنا فى هذا الكتاب الجليل المبارك فكان على النحو التالى :

* تصحيح النص تصحيحاً لغوياً دقيقاً ، مع ضبط ما يُشكل على القارئ فى بعض
عبارات الكتاب .

* تخريج الآيات القرآنية تخريجاً وافياً .

* ترتيب القصص ترتيباً زمنياً بدءاً من آدم (أبى البشر) عليه السلام ، وانتهاءً بخاتم
الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ .

* قمنا بوضع بعض التعليقات اليسيرة المفيدة ، ولم نطل فى ذلك نظراً لضخامة
العمل .

* قمنا بوضع ما رأينا السياق يقتضيه بين معكوفين ، وكذلك إضافة بعض العناوين التفصيلية .

* وتحييماً للفائدة قمنا بجمع القصص التي لم يُعْرَج عليها الشيخ رحمه الله ، وأشرنا إلى أماكن عزوها ، وخاصة «البداية والنهاية» ، و«قصص الأنبياء» لابن كثير .
* وفي النهاية قمنا بعمل فهرس تفصيلي للكتاب .

نسأل الله عز وجل أن يجعل هذا العمل في ميزان حسنات فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى ، وأن يجزيه خير الجزاء ، وأن يغفر تقصيرنا ، إنه ولى ذلك والقادر عليه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الناشر

قصة آدم عليه السلام وبداية خلق الإنسان

خلق الله تعالى آدم بيده ، فكلنا مخلوقون بقانون الخلق ، ولا بد أن يجتمع رجل وامرأة لهم الخلق وفقاً لسنة الله تعالى في خلقه ، وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِمْ رُوحِي فَتَعْبُوا لِي سَجِدِينَ﴾ [ص : ٧٢] إذن .. فالتسوية من عند الله ، والروح من عند الله ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى لإبليس : ﴿قَالَ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [ص : ٧٥] : أى أن آدم ليس مخلوقاً كغيره من البشر ، ولكنه مخلوق مباشرة بيد الله تعالى .

وكلمة « آدم » حينما نتكلم بها نجد أنها في النحو مذكرة ، والمذكر يقابله المؤنث ؛ لقد خلق الله تعالى الذكورة والأنوثة ؛ لأن من تزاوجهما سيخرج النسل .

إذن .. كان ولا بد من التمييز بين النوعين للجنس الواحد ؛ فالذكر والأنثى هما بنو آدم ، ومنهما ينشأ التكاثر ، لكن العجيب أن الله تعالى حين سمي « آدم » ، ونطقناه اسماً مذكراً ، وسمى « حواء » ، ونطقناه اسماً مؤنثاً ، جعل سبحانه الاسم الأصيل الذى وجد منه الخلق هو « نفس » لقد قال الحق : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَكُمْ وَبَيْنَ نَفْسٍ وَنَحْسٍ رِجَالًا كَثِيرًا وَنَسَاءً وَأَتَّفَقُوا عَلَى اللَّهِ الَّذِي سَاءَ لَوْ يَدْعُ الْأَرْحَامُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَبِّبًا﴾ [النساء : ١] .

لقد سمي الحق تعالى آدم بكلمة « نفس » وهى مؤنثة .

إذن .. فليس معنى التأنيث أنه أقل من معنى التذكير ، ولكن التذكير هو فقط علامة لتضع الأشياء فى مسمياتها الحقيقية ، إن الحق سبحانه وتعالى يطلق على كل إنسان منا « نفس » ، وهى كلمة مؤنثة ، وأن الحق قال عن آدم أنه « نفس » رغم أنه مذكر ، إلا أنه سُمي بالمؤنث وهى « نفس » ولم يقل الحق : خلقكم من نفس واحد بل قال : ﴿وَاحِدَةً﴾ .

وحيثما تكلم الحق سبحانه وتعالى فى موضع آخر قال : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات : ١٣] .

وكلمة « النَّاسُ » تعنى مجموع الإنسان . وهكذا نعرف أن كلمة إنسان تطلق مرة على

للمذكر، ومرة أخرى على المؤنث، إذن فالخلق تبارك وتعالى قد أورد مرة لفظاً مذكراً، ومرة أخرى أطلق لفظاً مؤنثاً. وذلك حتى لا نقول إن المذكر أحسن من المؤنث، ولكن ذلك وسيلة لتفاهم فقط.

والله سبحانه وتعالى حينما تعرض لقصة آدم عليه السلام في سورة «البقرة» لم يوضح لنا كيف تم خلق حواء، ولكن الخالق الأعز الأكرم أدخل حواء في خطابه لآدم عليه السلام: ﴿وَقُلْنَا يٰٓآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْغَالِبِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].

ويوضح الحق لنا أن كل خلق من خلقه إنما هو خلق من زوجين: ﴿يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾. [النساء: ١].

إن حواء لو كانت ضلعاً من آدم لقال الحق تعالى: جعل منها زوجها. ذلك أن الجعل يعنى الأخذ من نفس المادة وصناعة ما يريد، وهو الحق المالك لكل الكون.

إن قول الحق تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾. هو تعبير عن خلق جديد مستقل، إننا عندما نأخذ مسألة الخلق هذه في ضوء الأفكار والمعتقدات الباطلة السائدة الآن كالشيوعية وغيرها، فإننا نجد أن قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾. كان المقصود به الرد على من سوف يأتون بعد زمن رسالة رسول الله ﷺ ونزول القرآن الكريم هؤلاء الذين قالوا: إن الحياة قد نشأت بقانون الصدقة. لكن هناك فيلسوفاً فرنسياً هو «مونييه» أراد أن يرد على من قالوا: إن الحياة قد نشأت بقانون الصدقة: تساءل ذلك الفيلسوف قائلاً: كيف يكون أمر الخلق صدقة؟ وهو أمر محكوم بنظام دقيق وقوانين محكمة، أم المعقول أن توجد صدفتان في آن واحد؟ صدقة تخلق رجلاً، وصدقة تخلق امرأة من جنس الإنسان، وتختلف مع الرجل في النوعية بحيث لو التقى الرجل بالمرأة لنشأ عن لقائهما جنين قد يكون رجلاً وقد يكون امرأة بعد أعوام تكاد تكون معروفة، هل هذا الأمر المنظم بدقة يمكن أن يكون صدقة؟ هل يمكن لهذا النظام الدقيق الذي أوجد اللقاء بين الرجل والمرأة على لذة ومتعة واشتهاء ليكون بهذا اللقاء عمران الكون على أسس وقواعد محسوبة من التكليف.. هل يمكن أن يكون ذلك الأمر صدقة؟ إذا كانت

الصدفة تملك هذا القدر من التنظيم الدقيق فأنا أسميها الله تعالى ١ . هكذا يقول الفيلسوف الفرنسي .

إنه يرفض أن يكون مع الملاحدة الذين يرفضون نظام الكون والخضوع لقوانين التكليف ؛ فيصل بالاستنباط العقلي إلى قدرة الخالق جل وعلا .

وعلى هذا يمكننا أن نفهم قوله تعالى : ﴿وَوَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ . أى خلق حواء مثلما خلق آدم ، وكما أوضح لنا الحق تعالى أنه خلق آدم من طين ، فكذلك خلق حواء ، ولنا أن نفهم أن كلمة زوج لا تعنى الرجل فقط ، ولكنها أيضًا تعنى المرأة ، فالمرأة زوج ، والرجل زوج ، وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات : ٤٩] .

إن كلمة زوج تطلق على الرجل عندما يتزوج ، وتطلق أيضًا على امرأته تمامًا ، كما أن كلمة توأم تطلق على الوليد الذى يشاركه وليد آخر فى نفس الرحم ويسميان توأمين ، وذلك أنه من الخطأ الشائع أن تقول زوج على الرجل والمرأة معًا ، إن المرأة والرجل معًا هما زوجان ، وهكذا نفهم من سياق قوله تعالى : ﴿وَوَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أى أن حواء قد خلقها الله خلقًا مستقلًا كما خلق آدم ، ولنا أن نتأمل حكمة الخالق الذى ربط الرجل والمرأة برباط تحمل مسئولية عمران الكون ، بأن تبدأ المسئولية بينهما برغبة ولذة ، ثم تعب وتضحيات فى سبيل الأبناء ، إن التأمل للحظة لقاء الرجل بالمرأة فى فراش الزوجية والاستمتاع الحسى فى حدود أوامر الله ، هذا التأمل يجعلنا نقول : إنه لولا عطاء الحق تعالى لنا من انسجام وحنان ومودة وترباط ولذة ؛ لما كان قادرًا على تعمير الكون .

إن قمة اللقاء الذى يحدث منه التوالد مصحوبة بلذة ، وذلك من حكمة الخالق جل وعلا حتى لا يهرب الإنسان من تعمير الكون بالذرية التى تخلفه عملاً فى الأرض .

إن الذى يقولون : إن الخلق تم صدفة ، ويتم بالصدفة . هم جهلاء بحقيقة العلم وبجوهر الإيمان ، أى صدفة تلك التى تملك القدرة على خلق بويضة من مبيض المرأة تنزل إلى الرحم فى وقت لا يعلمه إلى الله تعالى وحده ١٢ ، ويأتيها الإخصاب من حيوان منوى خلقه الله تعالى ضمن ملايين الحيوانات المنوية فى الكيس الحامل لهذه الحيوانات بالجهاز التناسلى للرجل ، ثم يحدث الإخصاب وتكوين العلقه فالمضغة وكساء العظام لحمًا ، ثم إنشاء الإنسان ليولد ليكون

من الميلاد ذكر وأنثى وشعوباً وقبائل ، لذلك لا يمكن أن تكون صدفة ؛ لأن الصدفة لا نظام لها ، أما خلق الإنسان فله نظام حكيم وضعه إله قادر خالق ، قدر لكل خلق زماناً ومكاناً وهدفاً ، إنه يخلق على هدى وعلى قدر .

إن الإحصاء المادي هو دليل إيمان بالله تعالى ، إن التعداد السكاني يزداد ، ولو أردنا معرفة تعداد سكان الأرض في القرن السابق لوجدناهم أقل بكثير من زماننا هذا ، ولو عدنا إلى الوراء لأكثر من قرن لوجدنا التعداد ينقص أكثر ، ولو استمرت عملية قياس السكان بالقياس إلى الأزمان الماضية فلا بد أن نصل إلى آدم وحواء ليثبت صدق قول الله جل وعلا : ﴿وَمِنْ كُلِّ نَفْسٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ . هذا في أمر خلق آدم وحواء .

قصة خلق الإنسان

وفي سورة البقرة : يقص علينا ربنا تبارك وتعالى قصة الخلق الإنساني فيقول جل وعلا : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَكَادُمُ الْأَنْفُسُ فِي أَصْفَائِهِمْ وَتِلْكَ الْأَنْفُسُ ظَنَّنُوا لَوْلَا أَلَمُ الْأَوَّلِينَ فَلَا تَوَسَّيْهُمْ فَبَدَّلَ الْأَسْمَاءَ قَالُوا أَتَمَّ الْقَوْلُ لَكُمْ فِي أَنْفُسِ الْكَافِرِينَ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة : ٣٠ - ٣٣] .

هنا تكون بداية التأمل ، هي قول الحق تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ . إن التنبيه هنا لكل قارئ للقرآن الكريم أن له خالقاً ورباً ، هذا الخالق الرب اسمه «الله» ، إنه اسم لواحد الوجود صاحب القدرة المطلقة في كونه وخلقته .

عندما تأمل هذا القول نجد أنه يتضمن عدة نقاط :

أولاً : بلاغاً من الله تعالى للملائكة أنه جاعل في الأرض خليفة .

ثانياً : أن الملائكة لم يسألوا عن الأرض كأنهم على علم مسبق بها ، ولم يسألوا عن الخليفة بل فهموا عن الله تعالى مراده .

ثالثاً : أن استدراك الملائكة كان على الإنسان نفسه الذي أخبرهم الله تعالى أنه خليفته ،

فهم يرون أنه سوف يفسد في الأرض ويسفك الدماء ، ومن ذلك نستنبط أن الملائكة كانوا على علم بوجود الأرض ، ومن ذلك نستنبط أيضاً أن الملائكة رأَت خلقاً آخر عاش على الأرض وأُفِدَ فيها ، فكأنهم عاشوا التجربة من قبل ، ولكن عليهم أن يذعنوا لأمر الله تعالى الذي يأمر فلا يعصيه أحدٌ ، والله تعالى حينما أخبر الملائكة فهو لم يخبر كل جنس الملائكة ، إنما أخبر هؤلاء الملائكة الذين لهم صلة بخدمة الخليفة القادم على الأرض ، وصيانتَه وحفظه ؛ كالمسهرات أمراء ، والحافظَة ، والرقيب ، والمعيد .

وعندما تأمل قول الحق تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ ﴾ . فإن التأمل لكلمة ﴿ خَلِيفَةً ﴾ يوضح لنا أن الإنسان إنما جاء ليخلف بعضه بعضاً ، ونههم أيضاً أن الخليفة هو من استحلّه الله تعالى في الأرض وجعل الأشياء تنفعل له ؛ يوقد النار فتشتعل ، ويورع الأرض فتنبت ، ويستأنس الحيوان فيأنس له الحيوان ، ويستخدم الأنعام في الطعام والتنقل يأخذ منها اللبن ليشربه والصوف ليفزله فتخضع الأسباب للإنسان ، وغفل الإنسان عن حقيقة وضعه على مر التاريخ ، ونسى أنه مستخلف في الأرض ، وطمأن أنه الأصل الأصل في الكون ، وتخضع لوهم أنه حالد في الأرض وليس مستحلقاً فيها له ميلاد وموت .

فالخلق سبحانه وتعالى خلق آدم بعد أن خلق الكون وبقية المخلوقات ، ونحن لا ندعي أن آدم هو أول من عمر هذا الوجود .

وما آدم هي منطق العقل واحد ولكنه عند القياس أودام
فمن الممكن أن يكون هناك خلقاً كثيراً قد سبقوا آدم في الوجود ، ولكن آدم هو أول الجنس البشري ، وعندما خلقه الله تعالى علمه الأسماء كلها حتى يستطيع أن يتعامل مع مجريات الأحداث في الكون ، فآدم لو لم يكن قد تعلم الأسماء كلها لما استطاع أن يتحدث مع ولد من أولاده ، ولما استطاع على سبيل المثال أن يقول لابن من أبنائه : انظر هل أشرقت الشمس أم لا ؟

إذن .. كان لا بد لآدم من معرفة الأسماء كلها ، ولا بد أن هناك من علمه إياها ؛ لأن اللغة هي المحاكاة ، فلا أحد يستطيع أن يتكلم إلا بعد أن يكون قد سمع ، فلو لم يسمع آدم من أبيه ، والآباء سمعوا من الأجداد ، وتتوالى المسألة إلى أن تصل إلى آدم ، فمن سمع آدم حتى يتكلم ؟ إنها مسألة يجب أن يعترف بها كل إنسان عاقل ، فمن الذي أسمع

آدم ليتكلم بأول كلمة ؟ لا بد أنه الله تعالى .

يقول تعالى : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة : ٣١] والواحد ما عندما يعلم ابنه الكلام ، فهو لا يعلمه الأفعال ، لكن يعلمه الأسماء ، أما الأفعال فلا أحد يعرف كيف تعلمها ، إن الواحد منا يعلم ابنه أسماء الأشياء ، يقول الإنسان لابنه : هذا كوب ، وهذه منضدة ، وذلك طبق ، وهذا طعام ، لكن لا أحد يقول لابنه . « شرب » معاها كذا ، و « أكل » معاها كذا . إن الذى يتعلمه الطفل أولاً هو الأسماء ، هذه هى اللبنة الأولى ، وبعد ذلك تأتى المزاوالت والممارسات فيتعمم الإنسان الأفعال .

إذن .. الله تعالى قذف بالإلهام كل الأسماء فى قلب ووجدان وإدراك آدم ؛ بدليل أن « المسميات » قد تم عرصها على الملائكة فلم تعرف أسماءها ، ولم تتعرف الملائكة على المسميات ، وذلك من طلاقة قدرة الله تعالى عندما ألهم آدم فتعلم آدم الأسماء ، وعند تلك النقطة يتساعل البعض عن السر فى اختلاف اللغات من مكان إلى آخر رغم أن الخالق الأكرم قد علم آدم أسماء المسميات الموحودة فى الكون ، فلماذا إذن هناك ألوان من اللغات والألسنة ؟ والإجابة هى : إن تنوع فترات التاريخ ، وتتبع انتشار الإنسان على الأرض يجعلنا نجد أن كل مجموعة من اللغات تقترب من بعضها لتكون لغة واحدة ؛ فالفرنسية والإنجليزية والإيطالية مأخوذة عن اللاتينية ، والعبرية والسريانية لهما علاقة باللغة العربية ، بل إن اللهجات التى يتكلم بها العالم العربى تنزع فى اللغة الواحدة .

وهكذا عرف أن النعمة هى وسيلة لمعرفة أسماء الأشياء ، وهكذا عرف أن الله قد قذف بالإلهام أسماء الأشياء فى إدراك آدم ﷺ ، وكان إدراك آدم توفيقاً ، أى أنه عرف كل اسم لكل مسمى كما خلقه الله تعالى ، ثم نزل إلى الأرض لتتطور هذه المسميات ويعمل العقل الإنسانى لتطوير وتحديد الأشياء بما استدعى أن يصح لها أسماء مشتقة مما تلقاه آدم ﷺ من الحق سبحانه وتعالى .

الجنة التى دخلها آدم ﷺ هل هى جنة الخلد ... أم جنة فى الدنيا ؟

الحق سبحانه وتعالى يقول ﴿وَبَقَادُمْ أَشْكُرْ أَنْتَ وَرَبُّكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْغَالِيَيْنِ﴾ [الأعراف : ١٩] ، كثير من العلماء قالوا : إن المقصود بالجنة هى

جنة الخلد في الآخرة ، وهنا تساءل الناس ، كيف يمكن أن يدخل إبليس جنة الطائعين لله تعالى وهو عاصي ؟ وكيف يمكن أن يدخل جنة الخلد ثم يخرج منها ، مع أن الله تعالى قد كتب أن كل من يدخلها لا يخرج منها ؟ فنزل لهؤلاء جميعاً إنكم لا تفتنوا إلى مدلول كلمة جنة ، فهذا شيء يسمى : غلبة الاستعمال . ذلك أن اللفظ يكون له معان متعددة ، ولكنه يؤخذ عادة وعرفاً على معنى واحد ، بحيث إذا سمع اللفظ انصرف الذهن إلى هذا المعنى بالذات ، ومن هذا المدلول حين يسمع كلمة جنة ، ينصرف ذهنه إلى جنة الآخرة ؛ لأنها هي الجنة الحقيقية . ولكن حينما يأتي اللفظ في القرآن الكريم لا بد أن نعرف استعماله ، لأن المشكل هو الله تعالى .

ومن الجائز أن يكون للفظ في اللغة معان متعددة ، ولكنه في الدين يأخذ المعنى الشرعي الاصطلاحي ، مثلاً حين تسمع كلمة الحج ، تقول إن معناها : أن تقصد بيت الله الحرام . ولكن الحج في اللغة معناه : التقصد فقط ، وإذا قصدت الذهاب إلى مكان تقول : حججت إليه . فلما جاء الإسلام أصبح المعنى الإسلامي الفقهي الشرعي لكلمة الحج هو أن تقصد بيت الله الحرام لأداء المناسك ، وكلمة صلاة مثلاً معناها في اللغة الدعاء ، ﴿ وَصَلَّى عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة ١٠٣] . أى ادع لهم ، فلما جاء الإسلام أحلها إلى معنى العبادة المبدوعة بالنكير المحنومة بالتسليم بكل شروطها . هذه هي الصلاة . وهكذا أصبح لهذه الألفاظ معانٍ فقهية إسلامية بحيث إذا أردنا أن نستخدمها في معناها اللغوي الأصبي لا بد أن نبين ذلك للناس . وهذا ما جعل العلماء يذهبون إلى أن كلمة جنة ساعة أن نطلق بها ينصرف المعنى إلى جنة الآخرة . ولكن الجنة في اللغة معناها : الستر ، ولذلك يطلق على المكان الذي فيه أشجار غريبة ومتنوعة تستر الإنسان وهو يمشى فيها كلمة : الجنة ؛ وفي نفس الوقت فإنها بشمارها الكثيرة المتنوعة تعطي الإنسان ضروريات وكماليات الحياة ؛ ولذلك فهي تستره عما جاورها ، ويستطيع أن يبقى فيها مستتراً ولا يخرج ، فهي ستر دائم يعيش فيه مستوراً ويجد فيها حاجته ، هذا هو المعنى اللغوي للفظ الجنة .

فإذا جئنا إلى القرآن الكريم وجدنا أن القرآن استخدم الجنة في المعنيين ، معناه اللغوي ومعنى جنة الآخرة ، وإذا قرأنا القرآن الكريم مجد ما يلي : ﴿ أَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْصَابٍ ﴾ [البقرة ٢٦٦] . وقرول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ كَمْ مَثَلٍ جَنَّاتٍ يَرْزُقُونَ

أَصَابَهَا وَابِلٌ ﴿البقرة: ٢٦٥﴾ . وقوله جل جلاله . ﴿وَأَصْرَبَتْ لَهُمْ مَخْلًا زَمْزَمَی جَعَلْنَا لَأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَخَفَضْنَاهُمْ نَحْلًا وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا رِجْعًا﴾ [الكهف: ٢٢] . وقوله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لِسُلَیْمَیْنِ فِی مَسْكِنِهِمَا ءَیَّةٌ حَتَّانِیْنِ عَنْ یَمِیْنٍ وَشَمَالٍ كُلُّوَا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُمْ لَمَّا دَخَلُوا طَیْبَةً وَرَبُّ غَفُورٌ﴾ [سبا: ١٥] .

نلاحظ هنا أن الاستخدام في الآيات الثلاث للفظ «جنة» لا يعنى جنة الآخرة ؛ بل يعنى جنت الدنيا ، على أن بعض العلماء يقول : إن الله سبحانه وتعالى قد فرق بين جنت الدنيا وجنة الآخرة ، فلفظ الجنة يطلق على جنة الآخرة وحدها ، ولفظ جنة من غير الألف واللام يطلق على جنت الدنيا .

نقول لهم : إن هذا القول غير صحيح بدليل قوله تعالى : ﴿إِنَّا يَكُونُ لَهُمْ مَخْلًا كُلُّوَا أَعْنَبٍ نَجْمَةٌ﴾ [القلم: ١٧] . والحديث في الآية عن جنة أو حديقة لها ثمار في الدنيا . إذن .. فالألف واللام لا يميزان اللفظ ولا يجعلانه يصرف إلى جنة الخلد في الآخرة . وبعض العلماء يضيف : إن الله تعالى أدخل آدم وزوجه جنة الخلد ، وعندما عصيا أُرْزِلَهما إلى الأرض ، ولو أنهما لم يصيبا لظلّا في الجنة .

نقول لهؤلاء : أنتم أبطلتم مرادات الله في خلق آدم ، لم يقل الله تعالى إنه خلق آدم ليعيش في الجنة ؛ بل خلقه ليعيش في الأرض ؛ وذلك مصداقاً لقوله تعالى : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِی الْأَرْضِ خَلِیْفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] .

إذن .. فأدم مخلوق للأرض ليعمرها ويعيش فيها ، ولذلك لا يقول أحد : إن لو سم يرتكب معصية لبقى في الجنة . وكان السؤال الذى يجب أن يسأل هو أنه ما دام آدم خلق خليفة لله تعالى في الأرض ، فلماذا سكن الجنة أولاً ؟

نقول : إن لذلك حكمة ، فأدم خلق ليتلقى المنهج من الله تعالى في : «فعل ولا تفعل» ، ففعل كذا فإن لم تفعله مسدت الأرض ، ولا تفعل كذا فإن فعلته مسدت الأرض . وما لا يظهر منه فساد تركه الله تعالى مباحاً في أن يفعله آدم وذريته أو لا يفعلوه ، فمنهج الله أساساً يجمع أن تفعل ما يحدث الفساد في الأرض ، وأأمرك أن تفعل ما يجمع الفساد في الأرض ، ولكن هل ترك آدم هكذا دون أن يوجد من يحاول أن يعسد عليه منهج الله ؟ لا . لقد جاء الشيطان

ليفسد منهج الله في نفس آدم ، فيرى له أن يفعل ما نهى الله عنه ، وألا يفعل ما أمره الله به ، وإذا قال الله لآدم : صلّ [له] الشيطان ترك الصلاة ، وإذا قال الله له : لا تشرب الخمر . زير له الشيطان أن يشرب الخمر .. [ههـ] عملية أفساد للمنهج ، والله سبحانه وتعالى يريد لخليفته في الأرض أن يتبع منهجه حتى يسعد في الدنيا والآخرة .

ولذلك كان لا بد أن يتم تدريب آدم بالتجربة العملية على ما سيحدث له إذا أطاع المنهج ، وما سيحدث إذا عصاه ، كان لا بد أن يتلقى تدريباً عملياً في « الفعل ولا تفعل » ، فالمنهج لا بد أن تأتي معه التجربة حتى يكون التطبيق صحيحاً .

أى افعل ما تشاء بالنسبة للتمتع بشمار هذه الجنة وخيراتها ، ولا تفعل أى : لا تقترب من الشجرة ، وهكذا منهج الله تعالى في الأرض ، يبيح لنا الكثير والكثير جداً ، ويحرم علينا القليل والقليل جداً . وحذر الله سبحانه وتعالى آدم من عدوه وهو إبليس ، فقال تعالى : ﴿ قُلْنَا يَتَكَاذِبُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِرِجْلِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ [طه : ١١٧] . ذلك أن عداوة إبليس ثابتة بامتناعه عن تنفيذ أمر السجود لآدم ، ثم بعد ذلك بما أظهره من نوايا : ﴿ قَالَ فِيمَا أَعْمَيْتَنِي لَأَسْذَنَّهُ ثُمَّ جِئْتُ بِكُفْرَانٍ لَّأَسْتَكْبِرَ ﴾ إلى آخر الآية الكريمة [الأعراف : ١٦]

إذن ... لا بد أن نعم أن الجنة التي عاش فيها آدم ليست هي جنة الخلد ؛ لأن الحياة في جنة الخلد لا تأتي إلا بعد التكليف ، فهي جزاء لاتباع منهج الله تعالى ، وليست سابقة على هذا المنهج ، كما أن جنة الآخرة هي جنة الخلد ، من يدخلها لا يخرج منها أبداً ، وآدم مخلوق للأرض ، إذن ... فالجنة التي عاش فيها آدم هي مكان أعدّه الله سبحانه وتعالى له ليتم تدريبه فيه على المنهج ، أمراً بقوله تعالى : ﴿ فَكَلَّمْنَا ﴾ وبهاً بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا ﴾ .

هل كان السجود لآدم ﷺ بأمر الله تعالى ؟

قال تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِمْ رُوحِي فَسَعَوْا لِمَ مَسْجِدِينَ ﴾ [ص : ٧٢] . قال بعض العلماء : إن أمر الله تعالى بالسجود هنا المراد به هو التحية والتعظيم وليس السجود الفعلي ، لأن السجود لعير الله مهى عنه .

ولكن السجود هنا لا بد أن يؤخذ بمعنى السجود ... لماذا ؟ لأن الملائكة لم تسجد لآدم ، وإنما سجدت لأمر الله تعالى بالسجود لآدم ، تماماً كمسألة القبلة عندما أمرنا الله تعالى أن نتجه

في الصلاة إلى المسجد الأقصى ، لم يكن المسلمون يسجدون لمسجد الأقصى ، ولكن لأمر الله تعالى في الاتجاه إليه ، فلما تغير الأمر وأصبحت الكعبة هي القبلة اتجه المسلمون إلى الكعبة ، ولكنهم لا يسجدون للكعبة ذاتها ، ولكن لأمر الله سبحانه وتعالى بالسجود في اتجاه الكعبة إذن .. السجود هنا لأمر الخالق ، والعمل بالنية ، والنية في سجد الملائكة لم تكن لعبادة آدم ، ولكن لصاعة أمر الله ، وأمر الله لا بد أن يطاع .

وبعض الناس يسأل : لماذا كان سجد الملائكة لآدم ؟ نقول : إن الله تعالى سحر الكون كله لآدم وذرته ، وسخر من الملائكة من يخدمون آدم وذرته ؛ منهم استبرأت أمرا الدين يقومون بتنفيذ أوامر الله بالنسبة للإنسان ، ومنهم الحفظة الذي يكتبون كل ما يحدث من البشر ، فكان سجد الملائكة هو سجد ألق و معرفة ، والذين سجدوا هم الموكلون بخدمة الإنسان في الأرض ، أما الملائكة العائون المقربون إلى الله فإنهم لم يسجدوا ، بدليل قول الله سبحانه وتعالى لإبليس حينما رفض السجود : ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ [ص ٧٥] .
أي : من الملائكة العائنين الذين لم يشعلهم أمر السجود
[إذن كان السجود لآدم بأمر الله ولأجل أنه أمر سبحانه وتعالى] .

إبليس .. لم يكن من الملائكة

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ [الكهف ٥٠] .

فقوله تعالى : ﴿ كَانَ مِنَ الْجِنِّ ﴾ . أخرج من جنس الملائكة . وقوله تعالى ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ تأكيد أن إبليس من الجن ؛ لأن الجن كالإنسان مخلوق له اختيار ، يستطيع أن يعطى ، ويستطيع أن يعصى ، ومادام له اختيار فإنه ليس من الملائكة ؛ لأن الملائكة ليس لهم اختيار ، فهم : ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التعريم : ٦] . وهكذا نجد أن قوله تعالى : ﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ ﴾ لا يدل على أن إبليس من الملائكة ؛ لأن الملائكة لا يستطيعون المعصية .

وبعض الناس يقول : إن النص القرآني فيه التزام بأن إبليس من الملائكة بدليل قوله تعالى : ﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَهُ يَكُ مِنَ الْمَكِيدِينَ ﴾ ، ولكننا لا بد أن نحمل نص الالتزام على

النص القرآني: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ ، وهكذا تأتي هذه الآية لتعطينا حكماً ، [وهو أن] إبليس كان من الجن .

فإذا أضفنا إلى ذلك أن الملائكة ليس لهم اختيار ؛ ولذلك فإن الإس أو الجن الذي يكون قادراً على المعصية ويطيع ، ويأمر الله عن طواعية واختيار يكون في هذه الحالة أعلى منزلة من الملك ؛ لذلك كانوا يسمون إبليس : طاووس ملائكة ؛ لأنه كان يزهو في حضور الملائكة بإلزام نفسه بمتهج الله تعالى ، فكان يزهو على الملائكة بأنه صالح أن يطيع أو أن يعصى ولكنه تمير بالطاعة ، وهذا الغرور هو الذي أوقع إبليس في المعصية ، ومادام إبليس قد تلقى أمر السجود ؛ فلا بد أنه حضر البلاع الأول حين قال الله سبحانه وتعالى : ﴿أَسْجُدُوا لِأَدَمَ﴾ وسجد المغطورون على الطاعة ، وهم الملائكة ، وكان من المروض أن يسارع في الامثال لأمر الله أولئك الذين لهم اختيار على الطاعة أو المعصية ، وهؤلاء قد يكونون أدنى خلقاً من حيث المادة من الملائكة ، ولكنهم يكونون أكثر قربى إلى الله تعالى ؛ لأنهم ألزموا أنفسهم بالطاعة اختياراً وحجاً لله تعالى .

وهكذا إذا كان أمر السجود قد شمل الملائكة ، وهم أعلى خلقاً في المادة إذ لهم خلقوا من نور ، فلا بد أن يشمل الجن الذي خلق من نار حتى ولو لم يصح عليه ، ولكن مادام إبليس من الجن ، فقد علمت عليه طبيعة الاختيار ففسق عن أمر ربه .. ماذا ؟ أحده الكبرياء حتى في أمر الله تعالى ، فجاء في القرآن : ﴿مَّا سَجَدُ لِيَنَّ خَلَقْتُ طَيْسًا﴾ [الإسراء ٦١] ثم يقول : ﴿خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَنِي مِن طِينٍ﴾ [الأعراف ١٢] ، استكباراً واستعلاءً على مَنْ خَلَقَهُ .. أتوجد معصية أكبر من ذلك ؟

وقوله تعالى : ﴿مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ﴾ ، أي من الذي حجز بينك وبين السجود ؟ ولا توجد ؟ آلاء رائدة أو ؟ آلاء صفة ، بل إنها لتؤكد ما المعنى بأن إبليس امتنع عن السجود من نفسه دون أن تقهره قوه على الامتناع .

وقوله تعالى : ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف ١٢] . دليل يقطع باليقين أن أمر السجود يشمل إبليس ، وإلا ما قال له الله سبحانه وتعالى : ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ .

إذن .. إبليس كان داخل في الأمر الذي صدر للملائكة بالسجود .

وجاء الرد من إبليس . ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ ، ولكن الحق تبارك وتعالى لم يسأل إبليس : ما هي منزلتك بالنسبة لآدم ، ولكنه سأله ما منعك ؟ وكان الجواب يقتضى أن يقول : سمعت قهراً ، أو أنا ممتنع عن السجود ، ولكنه قال : ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ ؛ فكان إبليس كان يبحث في ذهنه عن مبرر أو سبب لعدم السجود ، وعندما قال إبليس : ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ . كان هذا كبيراً ومعاندة ؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى خلق ، وهو الذى يعرف من هو خير من من . ولكن إبليس أراد أن يعدل الأمر على الله تعالى ، ويرد الأمر على الخلق بينما هو مخلوق ، فكأنه - عليه نعمته الله - يُخطئ الحق سبحانه وتعالى في أمره ويقول له : ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ ، فكيف تأمر الأعلى أن يسجد للأدنى ؟

وهكذا أخذ الكبر من نفس إبليس درجة جعلته يعتقد - والعياد بالله - أنه أعلم من الحق سبحانه وتعالى ، وأن من حقه أن يعدل الأمر على الله تعالى ، ويحبره بما يجب أن يفعل ، ولم يكن جراً [لهذه] المعصية أقل من الطرد من رحمة الله .

ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿فَأَهْبِطْ مِنْهَا﴾ . والهبوط : معناه الاتصال من منزله الأعلى إلى منزلة أدنى . وبعض العلماء يحاول أن يستدل على ذلك أن الجنة التي وجد فيها آدم وإبليس كانت في أعلى عليين ، ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿فَأَهْبِطْ مِنْهَا﴾ .

ولكننا نقول : إن الهبوط لا يستدعى مكاناً أعلى ومكاناً أسفل ، وفرق بين هبوط المكان وهبوط المكانة ؛ لذلك عندما قال الحق سبحانه وتعالى لبني إسرائيل : ﴿أَقِمْوْا مِصْرًا﴾ [البقرة : ٦١] . لم يكن بنو إسرائيل يعيشون في مكان في السماء ، بل كانوا فوق الأرض ، وعندما قال الله تعالى لنوح : ﴿فِيْلَ يَنْتُحِ أَهْبِطْ بِسُكُنِكَ مِثًا وَرَكْنِكَ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمُومٍ مِّنْ مَّكَانٍ﴾ [هود : ٤٨] . كان يعنى الهبوط من السمية ، ولا يقتضى ذلك النزول من مكان أعلى إلى مكان أدنى .

وعلى أية حال فإن الهبوط قد يكون من مكان إلى مكان ، أو من مكانة إلى مكانة ، فكان إبليس كان في حصرة الملائكة عندما أرم نفسه بالطاعة ، ولما عصى وأصر على المعصية نزل من مكانه الذي كان فيه إلى أسفل السافلين . ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿قَالَ فَأَهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف : ١٣] .

مَكَانَ اللَّهِ تَعَالَى قَدْ أَعْطَانَا حَيْثِيَّة طَرَدَ إِبْلِيسَ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَإِبْلِيسَ قَدْ تَكَبَّرَ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ ، فَلَا مَتَاعَ عَنْ أَمْرِ الْمَعْبُودِ مِنَ الْعَابِدِ هُوَ نَوْعٌ مِنَ الْكَرْبَاءِ عَلَى الْمَعْبُودِ ، وَمَا دَامَ إِبْلِيسَ قَدْ تَكَبَّرَ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَهُوَ لَيْسَ أَهْلًا لِأَيِّ مَكَانَةٍ عَالِيَةٍ ، مَكَانَ طَاعَةِ إِبْلِيسَ قَبْلَ مَعْصِيَةِ السَّجُودِ هِيَ الَّتِي أَعْطَتْهُ مَكَانَةً عَالِيَةً ، وَمَعْصِيَةِ إِبْلِيسَ فِي أَمْرِ السَّجُودِ هِيَ الَّتِي جَعَلَتْهُ فِي أَسْفَلِ السَّافِلِينَ ، إِذَنْ فَلَيْسَ مَنَا مِنْ هُوَ لَهُ مَرَلَةٌ عَالِيَةً بِذَاتِهِ ، وَلَكِنْ الْعَمَلُ وَالطَّاعَةُ هُمَا اللَّذَانِ يَعْطِيَانِ الْإِنْسَانَ عِلْوًا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَالْمَعْصِيَةُ هِيَ الَّتِي تَعْطِيهِ الْمَرَلَةَ السَّقْلَى ، وَفِي هَذَا حِكْمَةٌ مِنْ اخْتِصَافِ سَبْحَانِهِ وَتَعَالَى ، فَالْجَانُ لِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ نَارٍ يَتَارِقُ بِالسَّرْعَةِ وَاسْتِرَاقُ الْخَوَاجِرِ وَالنَّفَاقِ مِنَ الْجُدْرَانِ وَالنَّفَاقِ مِنْ جِسْمِ الْإِنْسَانِ . كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « إِنْ الشَّيْطَانُ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ » . [فَهُوَ] مِثْلُ الْمَيْكُرُوبِ ، تِلْكَ طَبِيعَةُ الْمَادَّةِ الَّتِي حَلَقَ مِنْهَا الْجَانُ ، مَادَّةُ النَّارِ ، فَأَنْتَ إِذَا جَلَسْتَ خَلْفَ حِجَارٍ ، وَوَضَعْتَ فِي النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى تَفَاحَةً ، لَا تَسْتَطِيعُ التَّفَاحَةُ أَنْ تَتَعَدَّى بِشَكْلِهَا وَلَوْنِهَا وَطَعْمِهَا الْجِدَارَ ، وَتَنْمُذَ إِلَيْكَ ، وَلَكِنْ إِذَا كَانَتْ هُنَاكَ نَارٌ خَلْفَ الْجِدَارِ فَإِنَّ حَرَارَتَهَا وَإِشْعَاعَهَا يَتَعَدَّيَانِ إِلَيْكَ ، لِأَنَّ طَبِيعَتَهَا الشَّمَاعِيَّةُ .

وَلَكِنْ الْخَلْقُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَرَادَ أَنْ يَعْلِمَنَا دَرَسًا لِلْجَنِّ وَالْإِنْسِ مَعًا ، فَقَالَ لَا تَعْتَقِدُوا أَنَّ الْعَنْصَرَ الَّذِي تُخَلِّقْتُمْ مِنْهُ يَعْطِيكُمْ تَمَيِّزًا ؛ بَلْ إِرَادَةُ الْخَالِقِ وَحْدَهَا هِيَ الَّتِي تَعْطِي هَذَا التَّمَيِّزَ .

غواية الشيطان .. وتوبة آدم ﷺ

بِقَوْلِ الْخَلْقِ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ فَذَلَّلْنَاهَا بِرَوْحِنَا فَلَمَّا ذَاكَ الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهَا سَوَاءُ تَبَاهَا ﴾ [الْأَعْرَافُ ٢٢] . كَلِمَةُ دَلَّى مَا حُذِذَتْ مِنْ دَلَى رَجُلِيهِ فِي الْبَرِّ أَيْ : أَرْلَهُمَا فِي الْبَرِّ لِيَرَى إِنْ كَانَ فِيهَا مَاءٌ أَمْ لَا أَوْ دَلَى حَبْلُ الدَّلْوِ أَيْ : أَنْزَلَ الدَّلْوَ فِي الْبَرِّ بَحْثًا عَنِ الْمَاءِ . وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ مَرَّةً وَمَرَّةً . وَالغُرُورُ هُوَ الْإِعْرَاءُ الَّذِي يُوَفِّعُ الْإِنْسَانَ فِي الْمُخَالَفَةِ . وَهُنَا لَنَا وَقْعَةٌ .. عِنْدَمَا أَقْسَمَ إِبْلِيسَ لِآدَمَ وَحَوَّاءَ اعْتَقَدْنَا أَنَّهُ يَصْصَحُهُمَا ، وَلَكِنْ الْمَسْأَلَةُ لَمْ تَكُنْ مَجْرَدَ الْأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ ؛ بَلْ لَا يَدُ أَنْ إِبْلِيسَ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ خَدَعَهُمَا لِيَقْتَرِبَا مِنَ الشَّجَرَةِ ، ثُمَّ رِيَسَ لِهَمَّا ثَمَارُهَا ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ أَعْرَاهُمَا بِالْأَكْلِ ، أَيْ أَنَّ الْمَعْصِيَةَ تَتِمُّ عَلَى مَرَاوِجٍ وَلَيْسَ عَلَى مَرَحَلَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَتُسْحَقُ عَوْدًا وَعَوْدًا كَالْخَمِيرِ ؛ وَلِذَلِكَ فَإِنَّا لَا يَدُ أَنْ نَنْتَبِهَ إِلَى أَنَّ اقْتِرَابَنَا مِنْ أَمَاكِنِ الْمَعْصِيَةِ لَا يَدُ أَنْ يَوْقِعَنَا فِيهَا ، وَالْعَمَلُ الْمُؤْمَنَةُ تَتَبَيَّنُ الْخَلْقَ بِمَجْرَدِ الْوُقُوعِ فِي الْمَعْصِيَةِ وَلَا تَتِمَّادَى فِيهَا ، وَلِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ

وتعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ﴾ . ولم يقل « بما أكل » من الشجرة ؛ لأن الأكل يقتضى إعادة المعصية مرات ومرات ، بينما مجرد التدوق يتبين منه أنها حدثت مرة واحدة فقط ، أى أن المعصية لم تتكرر ؛ بل حدث لنتبه بمجرد حدوثها ، ولم يكن هناك إصرار على المعصية ، يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَطَافَا بِحَصْبَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الشَّجَرِ ﴾ [الأعراف : ٢٢] . والخصف هو أن تدارى شيئاً بشيء آخر كما تدارى خرقاً فى الثوب بقطعة القماش ، ولا بد أن تكون قطعة القماش أوسع قليلاً من الخرق . ولذلك كانت المدارة ليست بورقة من أشجار الجنة ؛ بل بأكثر من ورقة حتى تدارى مسطرة العورة وطففا معناها - شرعاً فى العلم ، وحيثذا ماذا حدث ؟ قال تعالى : ﴿ وَقَادَرْنَاهَا رَهْمًا أَلَزَّ أَهْنَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لُكْمًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفَّاءٌ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [الأعراف : ٢٢] . ذلك أنه من عدل الله تعالى ألا تقع عقوبة إلا بتحذير ، ولذلك يقول الحق : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ١٥] .

أى أن الله تعالى لا بد أن يحذرننا أولاً من المخالفة ويقول : إن الجراء سيكون كذا وكذا . وإذا تمت المخالفة أصبح العقاب حقاً وعدلاً . ولذلك لا يوجد فى التشريع الإلهى ما يسمى بالقوايس بأثر رجعى ، فلا تحريم فى العدل الإلهى إلا ببص ، والنص هو بهى الله تعالى عن أن يقربا الشجرة ، وتحذيره لهما من أن الشيطان عدو [لهما] . وقال الحق : ﴿ أَلَزَّ أَهْنَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ ﴾ . ولم يقل . لقد نهيتكما عن هذه الشجرة . لأنه لم يشأ أن يجعل الهى خيراً منه ؛ بل أراد أن يأخذ الحكم من أمواههما . [فقد كان] من الممكن أن يقول . نهيتكما عن هذه الشجرة . أو : أن نهيتكما عن هذه الشجرة . ولكنه لم يستهم بالإثبات ؛ بل استفهم بالنفى وقال : ﴿ أَلَزَّ أَهْنَكُمَا ﴾ . لأن الجواب من أمواههما سيكون : نعم أنت يا ربنا نهيت ؟ وفى هذا تأكيد للخبر على وجه التأكيد واليقين .

حيثذا وقف آدم وحواء أمام الله تعالى مقررين معترفين بالخطأ والمخالفة وقالوا ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنَّ لَنَا تَغْفِيرًا لَنَا وَتَرْحَمَةً لَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٣] .

تلك هى الكلمات التى قال الله سبحانه وتعالى عنها : ﴿ فَلَقِيَ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ فَكَانَتْ نَقَابَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة : ٣٧] وهذه الكلمات هى اعتراف بالذنب ، واعتراف بأن الله تعالى حق ، وقوله حق ، وأن آدم وحواء لم يستطيعا أن يحملا نفسيهما على اتباع النهج فظلما نفسيهما ، ثم طلبا من الله تعالى المعفرة والرحمة لئلا يكونا من الخاسرين .

الحكمة من معصية آدم عليه السلام وتوبته

إن الله تعالى ذرّب آدم عليه السلام قبل أن يباشر مهمة لاستحلاف في الأرض تدريجاً يؤهله لمسئولية الاستحلاف في الكون ، وكان التدريب في مكان يكفل الحياة والراحة والأمن ، وما كان الله تعالى ليُرْحَ بِآدم في ذلك الكون الواسع دون أن يدرجه أولاً على مهمته .

أوصح الله تعالى له الأوامر ، وأجس له النواهي ، وحذره من الشيطان . ولم يكتفِ الخائف الرحيم بذلك ، بل قدم لآدم الفرصة للتوبة إن أصابته العملة ، وأعلمنا الحق كيف أن الشيطان قد نأر لنفسه من آدم ، لقد عصى الشيطان ربه فلم يسجد لآدم ، وأراد أن يستأثر بآدم ليرفعه هو وأبناءه في الخطيئة . ولقد به الله تعالى آدم لعداوة إبليس ، ومع ذلك وسوس إبليس لآدم وقادة إلى الخطأ .

ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فَلَقَّ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ فَنَاقَبَ عَلَيْهِمَا وَنُفِثَ فِيهِمَا فَخَسِبَا وَذُكِّرَا إِلَى آدَمَ كُلِّ مَعْرُوفٍ ﴾ [البقرة ٣٧] .

ومعنى ذلك أن الله تعالى خلق التوبة ، وأنه يقلبها ؛ لذلك فلا وجود لواسطة بين الله تعالى وبين البشر ، ولا وجود لإسناد بمفرده قادر على أن يحمل عن البشر خطاياهم ، فخطأ آدم تم تصويبه ، أما الخطيئة التي يرتكبها أى كائن من البشر فالخلاق يعاقبه عليها ، وما فعله آدم ليس خطيئة إنما [هو] خطأ ، أما الخطيئة كالقتل وسفك الدماء والدس بين الناس ، وإثارة الوقيعة بينهم ، فالعقاب عليها إما في الدنيا أو في الآخرة ؛ ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى .

﴿ قُلْ أَغْنَى اللَّهُ عَنْيَ رِبِّيُّهُ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَتَّبِعُوا هَوْلًا بَلْ هُوَ آيَاتٌ بِلَا حِسَابٍ وَلَا يَرْجِعُ إِلَى مَنْ يَشَاءُ أَلَمْ يَعْلَمْ بِإِذَا رُفِعَ السُّورَةُ أُنزِلَتْ إِلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ أُمَّمَ بَنِي آدَمَ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْآيَاتِ يَذُرْ عَلَيْهَا الذُّرَّ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْآيَاتِ يَخَذَلِ اللَّهُ عَهْدَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ وَيَجْعَلِ اللَّهُ لِكُلِّ أَفْوَاجٍ مَتْرُكًا ﴾ [الأنعام ١١٤] .

ويجب ألا ينظر أبناء آدم إلى أبيهم آدم كأول من ارتكب الخطيئة ، ذلك أن آدم لم يرتكب خطيئة ، ولكنه ارتكب خطأ ، فهو ابن للعبث والسهو ، إن خطأ آدم ليس من دنوب الاستكبار على الله كدنب إبليس ، ذلك أن آدم قال هو وحواء [معترفين بخطيئتهما] ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف ٢٣] ، ها كيف استعمر آدم ربه ؟

لقد تحدث آدم إلى ربه بانكسار ؛ لذلك قاب الله عليه ، وتساءل كثير من العلماء عن الكلمات التي علمها الله لآدم حتى يقربها فيتوب عنه ، قال بعض العلماء إن آدم قال :

« اللهم لا إله إلا أنت ، سبحانك وبحمدك ، أستغفرك وأتوب إليك ، ثب على إنك أنت الثواب الرحيم » . وقال بعض آخر من العلماء إن آدم قال : « اللهم لا إله إلا أنت ، سبحانك ربى وبحمدك ، رب إني ظلمت نفسي طلقاً كثيراً ، فتقبل توبتى يا خير التوابين » .

ونحن لا نقف عند نص الكلمات التي قالها آدم عليه السلام ، راحياً التوبة .

لكن نقول : إن آدم عليه السلام ، أقر بطاعة مطلقة لحق الخالق الأكرم في التشريع .

فطاعة آدم إِدْن هي الاختيار وانكسار واعتذار ورغبة هي أن يقبل الله توبته [لماذا] ؟ محبة منه في الله الخالق ، ولو نظرنا إلى هذا الموقف - موقف طلب آدم التوبة - لوجدناه مبدأ نورانياً مُهِمّاً في حياة الجماعة ، إن طلب آدم للتوبة ، وقبول الله لتوبته ، إنما هو وضع أساساً هاماً لمسيرة الإنسان ، إن مرتكب الذنب سوف يجد باب التوبة مفتوحاً ، فيقبل على الله بانكسار ، ولا يتمادى في معصيته .

ولو أن باب التوبة لم يكن مفتوحاً ، لناه كل صاحب ذنب ، ولفسدت الدنيا ، ولكن يجب أيضاً ألا يُقبل على طاعة الله بمرور واستكبار . ويجب ألا يخطئ أحد ذلك الخطأ الذي قد يقع فيه البعض فيقول بمرور حاشا لله . وماد الله عندي ؟ إن له عندي العبادة وها أناذا أعبد . إن الله تعالى لا يريد مثل هذا اللون من الإقبال على عبادته ، إن الله يحب أن يقبل الإنسان على عبادته وهو محب لله الذي فرض هذه العبادة ، ذلك أن العبادة ليست شكلاً تؤديه بدون مضمون ، إن العبادة إجراء كامل من الخضوع التام لله تعالى شكلاً ومضموناً ، فهناك حكمة من خلق الإنسان ، وله خاصية الاختيار ، ويسمى مقهوراً على العمل الصالح فالحكمة هي أن الله تعالى أراد الإنسان حراً في اختيار الطاعة أو العصيان ، حتى يقبل الإنسان وهو طائع بحب ، أو يعصى باختياره فينال عقابه .

ولنا أن نعرف أن الإنسان بطبيعته ليس خيراً مطلقاً ، ولا شراً مطلقاً ، ونحن نرى في الحياة نماذج متنوعة من البشر ، [فنجد إنساناً] يتميز بعمل الخير ، لكنه في إحدى المرات قد يعمل عملاً خارجاً عن دائرة عمل الخير ، و نرى إنساناً آخر يتميز بعمل الشر ، لكنه قد يقوم بعمل خارج عن دائرة الشر ؛ ولهذا كان الثواب وكان العقاب ، قد يسهو الطائع فيرسل ، فيعود إلى الله تعالى مستغفراً ، وقد يجرب العاصي طاعة الله تعالى فيدخل في رحاب الله طالباً

المعصية والتوبة ، وبعض البشر من العاصين يقولون بينهم وبين أنفسهم ، سنعمل ذلك العمل الخير لأنه بسيط على الإنسان ، وقد يغفر الله تعالى لنا به المعاصي ، وقد نجد رلة بسيطة لبعض من يعملون الخير ، فيسترها الله عن عيون الناس إكراثاً لعمل الخير .

ولذلك يقول بعض الصالحين ممن ذاقوا حلاوة الإيمان : «رُبَّ معصية أورثت دُلاً وانكساراً ، حير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً» . كأنهم عرفوا أن الخالق أوجد الذلة لنفس البشرية حتى يعتدل ميزانها ، ولا تدخل في باب التيه بالعبادة .

كذلك أراد الله تعالى لآدم عليه السلام ، أن يوجد في الأرض وهو غير محمل بعبء معصيته نعمة الغفلة ، وكان الحق تبارك وتعالى يقول لآدم . إياك أن تجعل معصيتك في بالك لتصدك عن حركة الحياة ، وحذ هذه الكلمات لتعلمها لأبنائك من بعدك حتى إذا عصي واحد منهم فإن باب التوبة مفتوح . يقول لنا العزيز العفور : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ يَأْفِقْ فَقَدْ أَفْرَقَهُ إِنَّمَا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٨] .

وكذلك فقد أخبر سبحانه أن للتوبة شروطاً ، لنسمعها في قوله تعالى في الآيتين : ﴿ رَأَيْمُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُشْعُرُوا ﴾ وَالْأَسْمَاءُ أَحْسَنَ مَا أُتِرَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الزمر : ٥٤ ، ٥٥] .

إن التوبة تستدعي أن ينيب ويرجع الإنسان إلى ربه ، وأن يسلم الإنسان بكل جوارحه لله ، وأن يسرع الإنسان بالتوبة قبل أن يفاجأ بالعذاب في الحياة الدنيا أو في الآخر ، ولا بد أن يتبع التائب أفضل ما برل من الخالق إلى المخلوقات ، وهو القرآن الكريم ، ونحن نعرف من قصة آدم أنه تاب إلى الله ، وأن الخالق هو الثواب الرحيم ، وكان الله في حديثه عن آدم يقول لنا : إنني ثواب ، لم أقبل توبة آدم وحده ، ولكني أقبل توبة أي عبد مكمل بأهله آدم . ولما أن نعرف أن حديث الله عن نفسه أنه « ثواب » يتضمن التوجيه المباشر لكل عاص أن يسرع بالتوبة إليه ، وإلى تلقى رحمته . وهو يعمر الدروب جميعاً لمن يسلم قلبه وجوارحه إليه

إن الخالق يستر على عباده رحمة بهم وترعيتاً لهم في التوبة إليه ، ولكن عندما يريد الأمر من الحد ، فإن الله يأخذ العبد بذلك الدب الذي ارتكبه ، لذلك فانغمس الواعي هو من يسمح

قول أنى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه : « والله إنى لا آمن مكر الله » . إن صاحب هذا القول هو الصديق ، الذى أسلم وجهه لله فرز دعوة الرسول ﷺ له ، وصدقته يوم أن كذبه الناس ، هذا الصديق لا تفعل غيره عن مراقبة نفسه ، خشية أن يرتكب معصية فيعاقبه الله تعالى عليها ؛ لهذا فكل ما عليه أن يعرف أن الله تعالى : ﴿ لَا تَأْخُذْكُمْ بِهِ وَلَا تَمْنُوا ﴾ [البقرة : ٢٥٥] وأنه : ﴿ أَلَمِ الْيَوْمُ ﴾ .

العبرة من قصة آدم عليه السلام

الله سبحانه وتعالى فى قصة آدم كلها يريد أن يبين لنا أن آدم يمثل فى عنصرين ، فى أنه بشر يصيب ويخطئ ، ويخالف مسجع الله ثم يتوبه فيتوب ، ولكن الله تعالى أراد أن نعلم أن فى آدم أيضًا عنصر النبوة المعصوم من الخطأ فاجتنب وجعله نبيا ، فآدم كبشر أكل من الشجرة معصى ، وآدم كنبى بلغ ذريته الرسالة ؛ ولذلك يجب أن نفطس إلى النص القرآنى ﴿ وَصَوَّرَ آدَمَ رِجْلَهُ مَوَكَّاتٍ ﴾ [طه : ١٢١] وهذه طبيعة البشر [وإلى قوله تعالى] : ﴿ ثُمَّ لَعَنَهُ رَبُّهُ فَأَبَى عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ [طه : ١٢٢] إذن ... فالاصطفاء جاء بعد المعصية . آدم فيه بشرية تحطى وتصيب ، وفيه نبوة معصومة ، وهذه تتمثل فى الأنبياء من ذريته الذين عصموا من المعصية ؛ لذلك لا يصح لنا أن نقول كيف معصى آدم وهو نبى ؟ نقول : تنبه أن النبوة لم تأت إلا بعد أن عصى آدم وناب وتقرب الله تعالى توبته ، وهو يمثل مرحلة البشرية كلها منذ خلقه إلى يوم البعث .

والبشرية تنقسم إلى قسمين : بشر يعلمهم الله تعالى منهجه فيطيعون ويعصون ويتوبون ، وأنبياء يعلمون عن الله تعالى منهجه ، وهؤلاء عصمهم الله تعالى من الخطأ والذين يقولون : إن آدم كان مخلوقا ليمش فى الجنة ، وأنه مرل إلى الأرض بسبب المعصية نقول لهم : أهموا عن الله تعالى ساعة خلق آدم ، قال الله جل جلاله : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] إذن .. فمهمة آدم الأساسية فى الأرض هى المقام فى طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه ، والفترة التى قضاهها فى المكان الذى أطلق عليه « الجنة » كانت تدريجا على مهمته فى الأرض ، فلا نقول : إنه طرد من الجنة بسبب المعصية . لأن المعصية أعقبتها توبة مقبولة ثم نبوة ، أما الجنة فكانت مرحلة من مراحل الإعداد للخلافة فى الأرض .

طرف من قصة إدريس عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿وَأَدْرِكُنِي الْمَكْتَبَ إِدْرِيسَ إِنَّكَ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ۖ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم ٥٦، ٥٧] إدريس عليه السلام هو أول نبي بعد آدم عليه السلام ، وهو إدريس ابن برت بن شيث بن آدم ، وجاء بعده من الأنبياء نوح ثم الخليل إبراهيم ومنه سلسلة النبوات بعد ذلك عليهم جميعا أفضل الصلاة والسلام .

والصديق هو الذي يبلغ في تصديق كل ما يحىء به الحق ، ويجعل الله تعالى له فرقاتاً ، بحيث إذا سمع الحق يصدقهُ ؛ لأن الكلام إذا كان موافقاً للحق ومن الحق فلا يتصادم معه شيطان في الدخول على العقل ، فالشيطان يدخل بين الناس ولكن انشء الوارد من الحق سبحانه لا يستطيع الشيطان أن يدخل فيه .

ومعنى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ . يقصد به مكاناً في السماء ، أو رفعة معنوية ، أو حسية ؛ لأن الذي خلقه أخبرنا بذلك ، فإياك أن تسأل عن ماهية الرفعة لأن هذه رفعة عند من رفعه سبحانه وتعالى .

ذكر قصة نوح عليه السلام

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِذْ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود : ٢٥٠] عندما تقرأ اللام في ﴿وَلَقَدْ﴾ تعرف أنه قسم . و﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ معناها قول الحق تبارك وتعالى : وعزني وجلالي لقد أرسلت نوحا . إذن فاللام للقسم وبقي الآية جواب القسم في أن الحق قد أرسل نوحا إلى قومه ، على أننا لا بد أن نقف عند كلمة : « قوم » فبعض الناس يعتقد أن القوم هم القبيلة أو العشيرة أو أهل البدة . نقول : إن القوم هم الرجال خاصة من هؤلاء ، والرجال هم المواجهون بالرسالات السماوية ، والمرأة محتجة مستورة تسمع إما من أبيها ، وإما من أخيها ، وإما من زوجها ، ولقد احتجت النساء على ذلك في عهد رسول الله ﷺ وقلن له : غلبا عليك الرجال فاجعل لنا يوما من أيامك نعطا فيه . أي أن الاحتجاج جاء من أن رسول الله ﷺ كان وقتئذ كله مع الرجال وأن النساء يردن أن يجلسن معه ويسألنه في أمور دينهن ، فجعل لهن يوما ، ولكن افترض في المرأة أنها ستر ، وأن الذي ينقل إليها المسح إما زوجها ، وإما أبيها ، وإما أخوها ، وهؤلاء يسمعون من رسول الله ﷺ ثم يذهب كل واحد منهم لينقل ما سمعه لأهله .

وإذا كان كل رسول قد واجه قومه فمعنى ذلك أنه قد واجه الرجال خاصة من قومه . لماذا ؟ لأن « القوم » من قائم على كذا ، أو قيم على كذا ، وهذا عمل الرجال ، ولذلك قال الشاعر العربي :

وما أدري ولست أخل أدري أقوم آل حصن أم نساء

إذن .. فالقوم المراد بهم الرجال ، والقرآن الكريم يبيّن بذلك في قوله تبارك وتعالى . ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْزَنْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَمَّهَ أَنَّ يَكُونُوا حَرْبًا يَمُوتُ وَلَا يَمُوتُ وَلَا يَسْأَلُ عَنْهُ أَنْ يَكُنْ حَرْبًا يَمُوتُ﴾ [الحجرات : ١١] فكأن النساء لا يدخلن في القوم ، والرجال هم الذين يواجهون دعوة الرسل بالمقارمة والتصلب ، وبالإنكار والجمود ، بل بالحروب

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِذْ قَوْمِهِ فَقَالَ يَقُولُوا أَتَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ إِنَّكُمْ لَعَنَافَتُمْ حَتَّىٰ كُنْتُمْ عَصِيْبِرًا﴾ [الأعراف : ٥٩] . نجد في هذه الآية ثلاثة أحكام :

الأول . فى العقيدة فى الإله أنه إله واحد . وما دام إلهًا واحدًا ؛ يأتى الحكم الثانى . وهو أن نعبده ؛ لأنه لا إله غيره وهو واجب العبادة .. والعبادة هى أن نطيع أمره ونستبى عما نهانا عنه ، وإذا لم نفعل ذلك ؛ يأتى الحكم الثالث : وهو أننا سنواجه بعذاب يوم عظيم ، هو عذاب يوم القيامة ، أو عذاب يوم عظيم يسبق يوم القيامة ، يوم أعرف الله قوم نوح بأنطوفان . والخوف : هو شيء مستقبل يحشاه ويحاف أن تلقاه ، فكأن نوحًا يبه قومه إلى أن العاصيان سيأتى لهم بما يحشونه وما لا يستطيعون دفعه ، وأنه قلق عليهم من ذلك ؛ ولذلك فهو يحاول أن ينجيهم ، وهكذا تتحدد الأحكام الثلاثة فى السورة وهى : أنه لا إله إلا الله ، وما دام لا إله غيره فهو واجب العبادة . وعبادته تكون فى طاعة ما أمر به واجتناب ما نهى عنه ، وإن لم نفعل فهناك عذاب عظيم ينتظرنا .

من هذه الأحكام الثلاثة .. من الذى يعزع ؟ الذى يزعجهم هم الطغاة والجبابرة والسادة وأعيان القوم ؛ لأن لهم السيادة ، والباقيون عبيد يعبدون أوامرهم ، فإذا جاء هذا الذين ليسوا برب الناس فى عبادة إله واحد .. الكل عبادهم ؛ فإنه سيأخذ العروش من تحتهم ؛ لأن الأمر سيكون لله واليهى والخضوع لله ، ولا حضوع ولا أمر ولا نهى لعبد من العباد ، لذلك فالذى يتصدى للوقوف ضد منهج الله دائمًا هم السادة أو المترون ، لذلك فإنهم أول من تصدى لدعوة نوح ، وأول من يتصدى لأى دعوة من أى نبى ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى . ﴿ قَالَ أَلَمْ لَا مِنْ قَوْمٍ أَنَا لَرَبِّكَ فِي صَلَاتِ مُبِينٍ ﴾ [الأعراف : ٦٠] والملائكة هم سادة قومه وأعيانهم وأشرفهم الذى يملأون العيون هبة ، ويملأون القلوب هبة ويتصدرون المجالس ، هؤلاء تخافوا على هيبتهم وعلى سلطانهم فمادى يفعلون ؟ قلبوا الميزان وقالوا عن منهج الحق : إنه ﴿ صَلَاتِ مُبِينٍ ﴾ ، أى عية عن الحق ، ومُبِينٌ أى محيط بحيث لا نستطيع أن نتعد ولا أن نفلت منه .

ماذا قال نوح ﷺ لقومه ؟ يحبرنا الحق سبحانه وتعالى أنه قال لهم . ﴿ قَالَ بَنَوْا لِي سَفِينًا مِثْلَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ [الأعراف : ٦١] ولكن هؤلاء الحكام الذى واجهوا دعوة الحق من أولها بالمقاومة قالوا : ﴿ إِنَّا لَرَبِّكَ فِي صَلَاتِ مُبِينٍ ﴾ وكان الرد يقتضى أن يقول نوح : أنا لست فى صلال ولكنه قال : ﴿ لَيْسَ بِي صَلَاتٍ ﴾ . فلماذا استخدم الحق سبحانه وتعالى ﴿ صَلَاتٍ ﴾ بدلًا من « صلال » . حدث ذلك حتى يعرف أن كل حرف من القرآن يأتى على قدر حصى تمامًا ، وأن

هذا كلام الله تعالى وليس كلام بشر . هم يقولون لروح : أنت ﴿بِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ . فيرد عليهم : ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ .. لماذا ؟ لأن الضلال يشمل ضلالات كثيرة ، ولكن نوحاً لا يريد أن يسمى عن نفسه الضلال فقط ، بل يقول : ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ أى ليس عدى صلاة واحدة ، وهكذا نفى مجرد وجود ضلالة واحدة عنده ، ونفى الأقل يسمى بها الأكثر ، كما تأتى لإنسان وتقول له : هل لديك تمر من تمر المدينة ؟ وإذا قال لك : ليس عدى من تمر المدينة ؟ فقد يكون عنده قمرة أو اثنتان أو ثلاث [من أى تمر آخر] . ولكن ليس عدى ولا قمرة واحدة . أى ليس عنده ولا قمرة واحدة من التمر [بصيغة عامة] ، وبهذا يكون الأقل قد نفى الأكثر .

ولكن لماذا جاء هذا النفي القاطع فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿قَالَ يَنْقُورُ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ . لأن مسجع الله لم يأت به نوح من عنده ، فنقول إنه عليه الهوى ولو فى صلاة واحدة أو أن هناك شيئاً غاب عنه . ولكن المسجع جاء من عند الله سبحانه وتعالى ، وما دام نوح هو الرسول المبلغ ، والله سبحانه وتعالى هو صاحب المنهج ، وما دام المنهج من عند الله فلا يمكن أن تكون فيه ضلالة واحدة ولا شبهة ضلالة ؛ ولذلك يأتى نوح ^{عليه السلام} بحجيات أن ما يبلغه للناس من مسجع ليس به ضلالة واحدة فيقول : ﴿رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ * أبلغكم رسالتى ربي وأصبح لكم آخراً من الله ما لا تعلمون ﴿ [الأعراف . ٦١ ، ٦٢] . وهكذا جاءت الحجة من أن المسجع الذى بلغه نوح لقومه ليس فيه ضلالة واحدة ولا شبهة ضلالة ؛ لأن نوحاً رسولاً ، وما دام رسولاً فهو مبلغ عن الله تعالى ، والله مسجعه هو الهدى ، ونوح ليس رسولاً من ملك أو حاكم أو عظيم ، ولكنه رسول من رب العالمين أى من سيد العالمين ، أى من الذى خلق .. الذى خلق لكل خلقه مقومات الحياة .

ذلك أن كل نعم الحياة التى تحفظ للإنسان حياته على الأرض من ماء وهواء وشمس وقمر وورع كلها من الله سبحانه وتعالى ، ولا يستطيع مخلوق مهما يبلغ شأنه أن يدعى مجرد ادعاء أنه هو الذى خلق هذه النعم ، وهذه النعم التى وضعها الله تعالى فى الأرض هى عطاء ربوبية ، أى عطايا لكل خلق الله ؛ المؤمن منهم والكافر ، فالشمس لا تفرق فى أشعتها بين مؤمن وكافر والأرض تنعمل لمن يزرعها . آمس بالله تعالى أم جحد وجوده ؛ وما دام الله قد أوجد هذه النعم ، وسحر كل هذا الكون لخدمة الإنسان ، فقد وصح له سبحانه ليصلح حياته على الأرض ؛

لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى خلق السماوات والأرض وأمدّ الناس بأرراقهم حتى الكافرين منهم لم يكن ليضع مهجاً إلا ليصلح حياة الإنسان الذى خلقه وجعل كل هذا الكون فى خدمته

نكأن نوحاً عليه السلام بعد أن نفى أن هناك شبهة ضلالة فيما يقول قال إن هذا الكلام ليس من عدى ولكنه من عند الله وما أنا إلا مبلغ ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿أَتِلْفَكُم رَّبِّي وَأَنْصَحُكُمْ﴾ والبلاغ هو إنهاء الأمر إلى صاحبه ، [تقول] . بلغت المكان الفلانى . أى انتهيت إليه . والبلاغة هى النهاية فى أداء العبارة الجميلة . ومعنى ﴿أَتِلْفَكُم﴾ أى أنهى إليكم ما حملنى الحق سبحانه وتعالى من منهج هداية لحركة حياتكم ، ولكن ألم يكن يكفى أن يقول نوح : رسالة ربى . بدلاً من أن يقول : ﴿رَبَّنَا ارْحَمْهُ﴾ . نقول . إن كل رسول من الرسل يأتى بمنهج يكون فى الأمور الثابتة محتوياً على منهج الرسل الذين سبقوه ، حتى لا يقال : إن رسولاً [معيناً] جاء لينقض رسالة رسول قبله . فالذى قاله آدم هو الذى قاله نوح ، هو الذى قاله شيث ، هو الذى قاله إدريس عن وحدانية الله تعالى وأنه لا إله إلا هو الواجب العبادة فى هذا الكون .

فمعنى قوله تعالى : ﴿أَتِلْفَكُم رَّبِّي﴾ أن ما جعله الله تعالى مهجاً لأهل الأرض من الأمور الثابتة المستقرة سواء جاءت على لسان من سبقوه فى الرسالات ، أو ستأتى على لسان الأنبياء الذى سيُسلون بعد ذلك ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿شَرَحَ لَكُمْ مِنَ الَّذِينَ مَّا وَصَّى بِهِمْ نُوْحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِمْ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَكُلُوا مِنْ حَلَالِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [الشورى ١٣] إذن ففى الأمور المستقرة الثابتة ، والأحكام التى لا تتغير ، رسالات الله كلها واحدة ، أو أن يكون معنى ﴿رَبَّنَا ارْحَمْهُ﴾ أنه يتلقى كل يوم رسالة من الله تعالى ، وكلما جاءت رسالة بلعها إلى قومه ؛ لأنه لو قال : رسالة ربى . فكأن من اللازم : إما أن تنزل الرسالة عليه مرة واحدة فى وقت واحد ، وإما أن يقيها عبده ولا يلعبها للناس إلا إذا اكتملت ، ولكن كلما نزل إلى نوح شيء من الله تعالى يقوم بإبلاغه فيكون كل بلاغ عن الله رسالة ، وإما لأن موضوع الرسالات أمر يتشعب بقدر ما تحتاجه الحياة من مصالح ، وهناك رسالة أوامر ، ورسالة نواهي ، ورسالة للوعظ ، وما تحتاج إليه الحياة من مصالح ، وهناك رسالة للإنذار ، ورسالة للقبض .. وهكذا تعدد رسالات الله تعالى .

وبذلك جاء قول الحق سبحانه وتعالى ﴿أَتُفَكِّمُكُمْ رَسُولِي﴾ ليشمل كل هذه المعاني، أما قول الحق سبحانه وتعالى ﴿أَتُفَكِّمُكُمْ رَسُولِي وَأَصْحُ لَكُمْ﴾. فذلك استكمال لبلاغ كل رسول، فالبلاغ يقتضي أن يبعث الرسول قومه بمهج الله والمطلوب منهم، ثم بعد ذلك ينصحهم أن يعملوا بهذه المنهج؛ لئلا يواصوا الله ويسجوا من عذابه، فلا بد بعد البلاغ من النصح، وإن كان النصح خارجاً عن معنى البلاغ؛ لأن البلاغ معناه أن يبلغ رسالة الله ويتبهر كل شيء، ولكن الرسول يظل يُرْعِب قومه في المنهج ويحببه إليهم ويطلب منهم أن يتبعوه ويترفق معهم في الكلام، والنصح: هو أن تبين للإنسان المصلحة في العمل وتبين نيتك أمامه بأنها نية حسنة، وعندما تنصح إنساناً بأن يفعل كذا، فإنك إما أن تنصحه بعمل يعود نفعه عليك أو يعود النفع عليه هو، فإذا كانت النصيحة بأمر يعود نفعه عليك فهي لا تحلو من الغرض، وإذا كانت النصيحة في أمر يعود عليه هو بالنفع، ففي هذه الحالة تكون نصيحة خالصة بنية صادقة، ولذلك لم يقل الحق أنصحكم، ولكن قال ﴿وَأَصْحُ لَكُمْ﴾؛ ليبين أن هذه النصيحة هي لصالح القوم، وأن الرسول لا يستفيد منها شيئاً، فما دام قد بلغ فهو قد أدى الأمانة، ولكن النصيحة ريدة في هداية الناس إلى الطريق المستقيم وترعيهم فيه.

ثم يبين الحق سبحانه وتعالى حيثيات النصح فيقول ﴿وَأَعْلَمُ مِنْ أَلَّو مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. أي أن موسى يقول لقومه: نبي أعلم من الله تعالى أشياء لا تعلمونها أنتم؛ ولذلك محرم عليكم مما ينتظركم من الله؛ لأنكم كفرتم بآياته قد جعلني أنصحكم، ليست نصيحة أداء واجب، ولكنها نصيحة من يعلم بما علمه الله، أي أن هذا العلم الذي علمه الرسول ليس عنده من إنسان حتى يكون مشكوكاً في أنه قد يحدث أو قد لا يحدث، أو يكون قابلاً للصدق والكذب، أو يكون علماً غير مؤكد الحدوث، ولكن هذه علم يقيني من الله سبحانه وتعالى، ولكننا نقول: إن العلم الذي تبلغه الرسل للناس ليس هو كل علم الله تعالى، ولا هو كل ما علمه الله للرسل، فهناك أشياء يحصها الله سبحانه وتعالى بها رسله ويربهم ما يشتهيهم. وأن قوله سبحانه وتعالى ﴿وَأَعْلَمُ مِنْ أَلَّو مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ مقصود به أن الله أعلم نوحاً بالطوفان الذي سيأخذ به الكفار والمكذبين من قومه، وأن في هذه الآية إشارة إلى ذلك.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى ﴿أَوْ يَحْشُرُ أَنْ جَاءَ كُرٌّ مِنْ رَبِّكَ عَلَى رَجُلٍ مَكْرُ﴾ [الأعراف ٦٣] والحق سبحانه وتعالى قال: ﴿أَوْ يَحْشُرُ﴾ وكان يمكن أن يقول أعجبتم.

باستخدام همزة الاستفهام ، ولكن استخدام واو العطف معناه : أن هناك عطفاً على جملة قادمة ، فلو استخدمت همزة الاستفهام لكان السياق يقتضى أن يقال : أكدبتهم به وعجبتم من أن الله قد أنزل ذكراً على رجل منكم ؟

إذن .. فاستخدام الواو للعطف جاء أولاً ، فالواو للعطف والهمزة للاستفهام ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ ذَكَرْ مِنْ رَئِكَمُ ﴾ نحن نعرف أن الذكر والتذكر صيد النسيان ، وأن الشيء يكون على اليان أو على اللسان فيذكره الإنسان ، أو يتجاوز بالي ولساني فأنساه ، ولكن الذكر في القرآن به معاني كثيرة ، وعلى قمة هذه المعاني أن الذكر يراد به القرآن ، وذلك مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ سَبُحُوتُهُ عَلَيْكَ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران : ٥٨] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] ، وقوله جل جلاله : ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر : ٦] .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَوْ يَحْسَبُ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَئِكُمْ عَلَى نَجْوَى مِنْكُمْ ﴾ فأى معانى الذكر فيها وجه العجب ؟ إن العجب هو إظهار الدهشة من حدوث شيء على غير ما تقتضيه مقدمات الأمور ، حيث تدعج كيف حدث هذا ؟ ولكن إذا كانت الأمور تسير بطريقة رتيبة ؛ المقدمات تدل على النتائج ، فلا توجد دهشة ولا يوجد عجب ، وفي ذلك قرأنا قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ تَبَّ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝ بَلْ يَحْسَبُونَ أَن جَاءَهُمْ مُّسَدِّدٌ مِّنْهُم مِّمَّنْ قَالِ الْكُفْرُونَ هَذَا مُؤْتَىٰ ۖ ﴾ [ق : ١ ، ٢] ما وجه العجب هنا ؟ إن الله قد أرسل إلى القوم منذراً أى رسولاً من جنسهم .. ووجه العجب هنا أنهم كانوا يريدونه ملكاً ، ولكن ما هو الذى تعجبوا منه فى هذه الآية .. أن الرسول قد جاء يبلغهم بأن هناك إلهاً واحداً واجب العبودية هو الله سبحانه وتعالى ، وليس هذا أمراً عجيباً ؛ لأن الإنسان إذا تأمل فى الكون ورأى هذه الهندسة البديعة الحكيمة البالغة الدقة التى لم يوجدها الإنسان ، وإنما وجد الإنسان ليحدها موجودة قبله ونحدهم ، كان لابد أن يلفته هذا ليبحث عن صنع هذا الكون البديع البالغ الدقة فى الصنع ، فإذا جاء لهم رسول ليخبرهم بأن الله الذى خلق الكون بكل أجناسه ، وسحر كل الأجناس لخدمة الإنسان ، فأجناس الكون هى الجماد والنبات والحيوان والإنسان ، والجماد يخدم النبات والحيوان والإنسان ، والنبات يخدم الحيوان والإنسان والإنسان يخدم الإنسان

إذن .. فكل ما فى الكون مُستخّر لخدمة الإنسان ، وكل ما فى الوجود لم يُوجد به بشر ، ولكنه خلق أولاً ثم بعد ذلك خلق الإنسان ، فكان يجب حينئذ أن يتنبه العقل لكى يبحث عن خالق كل هذه النعم ، فإذا جاء رسول وقال - إن الله هو الذى خلق . فكان لابد للناس أن يرحبوا بهذا الرسول ويصدقوه ، ويؤمنوا بما يقول .

عناد قوم نوح وتكذيبهم له

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا سُقُونَ ﴿الشعراء ١٠٥ ، ١٠٦﴾ والقوم كسمة تطلق على الرجال ، لأنهم هم الذين يقومون بمصالح حركة الحياة ، فالقوم غير النساء ، ولذلك قد سبقنا : إن الله تعالى عندما أخبر آدم عليه السلام بأن الشيطان عدو له ولزوجته ، فى قوله سبحانه : ﴿ فَقُلْنَا يَنْقَادُمْ إِنَّ هَذَا عَدُوُّ لَكَ وَلِرَوْحِكَ فَلَا يُخْرِجُكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ [طه ١١٧] كان السياق يقتضى أن يقول : فلا يخرجكما من الجنة فتشقى . ولكنه قال ﴿ إِنَّ هَذَا عَدُوُّ لَكَ وَلِرَوْحِكَ فَلَا يُخْرِجُكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ ؛ لأن الرجل هو الذى يتعب ويشقى فى حركة الحياة ، والإسلام كرم المرأة وأراحها من شقاء حركة الحياة وجعل لهما مهمة أخرى غير الشقاء !

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ قوم نوح كذبوا بوحى فقط ، فلماذا قال إلههم كذبوا المرسلين ؟ قالوا : لأن رسل الله تعالى إنما جاءوا بأصول ثابتة تتصل بالعقيدة والأخلاق لا تتغير من رسول إلى رسول ، فالأخلاق والعقائد وأصول الأحكام كلها أمور ثابتة ، فمن كذب رسولا ، فقد كذب كل الرسل ، ولذلك يقول ربنا سبحانه : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ [البقرة : ٢٨٥] والاختلاف فى منهج الرسل هو اختلاف فى التشريعات التى تقتضيتها تطورات المجتمعات ، لكن العقائد والأخلاق وأصول الأحكام أمور ثابتة لا تتغير ، فإلّاذى يُكذّب رسولا فى هذه الأشياء كأنه كذب كل الرسل .

وكلمة : ﴿ أَخُوهُمْ نُوحٌ ﴾ معناها أنه واحد منهم ليس عريثا عنهم ، فهم يعرفون شأته وسلوكه وأخلاقه .

وكلمة : ﴿ أَخُوهُمْ نُوحٌ ﴾ جاءت لتحزن قلوبهم وتعرفهم أن بهم به ماصيتا يعرفونه . ويعرفون

أخلاقه وسلوكه ، وهذا أدعى أن يؤمنوا به ويصدقوه .

بعد ذلك تأتي العبارة التي قالها كل رسول لقومه وهي قوله تعالى : ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ وهذه الكلمة معناها : اتقوا الله ، مثلما تقول لأبيك المهمل : ألا تستدكر . معاها استدكر . وهذا الأسلوب من أدوات التحضيم التي تخص على الفعل مثل : لولا تكرم أباك ، هلا تمل ضيفا عدى ، ألا تستقبل أحاك بالبشاشة . كل هذه أساليب تحث على فعل هذا الشيء . إذن معنى ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أنكر عليكم أن تكونوا غير متقين ؛ لذا أطلب منكم أن تتقوا الله لأنكم أنكرتم التقى ، ومادتم أنكرتم التقى فأنتم تريدون الإثبات ومعنى ذلك أن الله رحم غفلة القوم وأرسل لهم رسولا أمينا ، هذا الرسول جاءهم من عند الله تعالى ليعطيهم منهج حياتهم كما أراده الله الذي خلقهم . فالرسول يقول لهم : اتقوا الله الذي أرسلني إليكم ، أحمل إليكم وسائل التقوى وأنا رسول أمين ، فحدوا أوامر الله ونواهيه واسمعوها مني حتى تقولوا لله وتطيعوه ، قال تعالى : ﴿إِن لَّكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُواهُ﴾ [الشعراء : ١٠٧ ، ١٠٨] . كل رسول يقول هذا الكلام ، ما الحق سبحانه وتعالى ذكر في هذه الآية شيئا لم يذكره في الآيات السابقة مع موسى وإبراهيم عليها السلام ، وهو قوله تعالى : ﴿وَمَا أَمْلَأُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء : ١٠٩] . حين تقول لإنسان : إنك لن تأخذ به أجرا على شيء عملته له . بمعنى ذلك أن هذا العمل كان يستحق الأجر عليه ؛ لأنه شيء نافع لك ، فأنا لم آخذ عليه أجرا لأنك ستقيمه بمقاييسك البشرية ، وأنا لست زاهدا في الأجر ولكني سأحد أجري من الله . فهذا دليل على أنه عمل جليل لا يستطيع البشر أن يقيّموه ؛ لأنني سأتيكم بهداية تسعدكم في دنياكم وتسعدكم في آخركم .

ومعنى : ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ . أى ما أجرى إلا على رب العالمين .

وهذا الموضوع : مثلما يكون لك صديق عزيز وأرسل إليك هدية مع سائق تاكسى يعرفه وقال له : أوصل هذه الأمانة إلى فلان .. فحين يأتيك السائق بالهدية تريد أنت أن تعطيه أجرة التاكسى . فإن كان أمينا يقول لك : شكرا لأن الذى أرسلنى إليك بالهدية أعطاني أجرى . هذا مثل لله تعالى المثل الأعلى ، ربما سبحانه وتعالى يعطى الأجر على شيء لا يعود عليه بالنعيم ، ولكنه يعود على الخلق إذا آمنوا وأطاعوا ، فهذا كرم ما بعده كرم وساعة يقول الرسول

لقومه . ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [الشعراء ١١٠] . ليس معنى هذا أنها طاعة داتية للرسول ، ولكن يطيعونه ؛ لأنه رسول من عند الله تعالى ، وطاعته طاعة لله تعالى .

بعد أن خاطب نوح قومه ودعاهم إلى طاعة الله ، وأخبرهم أنه لا يطلب منهم أجراً ماذا كان ردهم عليه ؟ قال تعالى : ﴿ قَالُوا اتَّؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ ﴾ [الشعراء : ١١١] .
الأردلون جمع رذل : والرذل هو الرديء من الشيء . فهم يقولون له : كيف تؤمن بك وقد اتبعك ضعاف الناس وفقراؤهم ؟ وفي آية أخرى قالوا له : ﴿ وَمَا نَرُكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاؤُنَا بِأَدْوَىٰ أَرَأَيْكَ ﴾ [هود : ٢٧] . وهم يقصدون بالأردل ، الناس الفقراء أصحاب الحرف الضعفاء الذين لا يؤبه لهم ، وهؤلاء دائماً هم جسود الرسالة في البداية ؛ لأنهم المطلحون من المجتمع الفاسد فيكونون متلهفين على أي أحد يأتي ليعدر موازين المجتمع . وانظروا إلى عدم فهم القوم لدعوة نوح ، الطاعة ، حيث قالوا له : ﴿ اتَّؤْمِنُ لَكَ ﴾ . مع أنه يدعوهم إلى الإيمان بالله تعالى وليس به هو ؛ لأنه مجرد رسول يحمل إليهم مذهب الله تعالى ودعوته ، وقد يكون معنى ﴿ اتَّؤْمِنُ لَكَ ﴾ بمعنى تصدقك

وروح الطاعة رد عليهم يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ وَمَا عَلِمَ بِمَا كَانُوا يَسْأَلُونَ ﴾ [الشعراء ١١٢ - ١١٥] أي أن الإيمان لا دخل له بالمعنى والفقر والقوة والضعف ، لأن الإيمان عمل وسلوك ، وربما هو الذي يحاسب الناس على أعمالهم ، وما دام الحسب على الله وهؤلاء عجلوا بالإيمان ، فلا بد أن الله سيحريهم غير الجراء ، كما أنسى لا يمكن أن أطرد المؤمنين بالله تعالى ، لأنني نذير من عند الله أنذركم بالشر قبل وقوعه

بعد ذلك يقول تعالى : ﴿ قَالُوا لَيْسَ لَكَ تَنْتَهَ يَسُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ . أي . يبدوا أنه لا فائدة من الكلام معك يا نوح ، ولكن هذا إنذار لك : لكن لم تنته عما تدعيه من دعوتك إلى عبادة الله وتقريبك للأردل من الناس لترجمتك . وهذا تهديد لنوح من قومه ، وهذا معناه أنهم قوم أقوياء لهم بطش وجبروت وطغيان ، ولكن ماذا يفعل نوح ؟ لابد أن ينجأ إلى ربه ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَدْ جِئْتُكَ بِكُلِّ بَشَرٍ مِّنْ نَّاسٍ مُّشْرِكٍ ﴾ [الشعراء ١١٧ ، ١١٨] انظر إلى أدب النبوة ، شكاً لربه من تكذيبهم ولم يشك من

تهديدهم له بالرجم ؛ لأن الله عالم بحاله ومطلع عليه ، ولأنه يهيمه أن يصدقه قومه ويؤمنوا بما جاء به . والفتح في الشيء يكون إما حسياً وإما معنوياً . فالهاب إذا كان معلقاً بالأفعال فمعنى فتحه : أن تزيل هذه المغاليق حتى يفتح ، هذا بالنسبة للفتح الحسى ، وقد يكون معنوياً بمعنى أن يفتح الله عليك بالخير المادى والعلمى .

فقول نوح عليه السلام : ﴿ فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجَّيَ وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ معناه : يا رب احكم بيني وبينهم ، ونجى أنا والمؤمنين معي من كيدهم . فاستجاب الله تعالى لدعائه ونجاه من شرهم ، قال تعالى ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴾ ثم أخرجنا بقدر الباقين [الشعراء ١١٩ ، ١٢٠] .

وقال تعالى : ﴿ وَتَصْنَعُ الْفُلُوكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [هود - ٣٨] فالله سبحانه كان يراقب بيه نوحاً ويوجهه في صناعة السفينة ، قال تعالى : ﴿ وَأَصْنَعُ الْفُلُوكَ بَأَعْيُنِنَا وَوَحْيُنَا وَلَا تَعْجَلْ فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ [هود - ٣٧] . فربما سبحانه وتعالى لا يترك حلفه يتصرفون من تنقاء أنفسهم ، ولكن يوجههم ويراقبهم ولا يغيب عنه شيء ، وكلمة ﴿ الْفُلُوكَ الْمَشْحُونِ ﴾ . دلت على أن الفلك قد يطلق ويراد به واحد ، وكلمة مشحون تدل على أن نوحاً عليه السلام كان معه عدد كبير من الأنواع ؛ لأن السفينة مازادت مشحونة فمعنى ذلك أنها كانت مكتظة بالناس وغيرهم من الأنواع لأخرى ، وهذا يدل على أنها كانت مصنوعة لتسع لعدد معين من الناس هم ثمانون رجلاً وثمانون امرأة ومعهم الأصناف الأخرى من الحيوانات والطيور وغيرها ، وبعد أن ركب نوح وأتباعه السمية تدفق الماء من السماء والأرض ، قال تعالى : ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُثَمَرٍ ﴾ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ [القمر ١١ ، ١٢] وبعد ذلك نجى لله المؤمنين وأغرق الكافرين .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ [الشعراء ٨ ، ٩] أى أن في هذا الذى حدث لأمر عجيب يجب أن يلتفت إليه الناس ولا يهيب عن باليهم ، وإذا كان المعاندون قد عرقو جميعاً فعلى من يقى أن يعتبر بما حدث لمن عاند رسولاً من رسل الله وخالفه ، ومع ذلك فإن الله تعالى عزيز لا يعلى ، رحيم يغفل نوبة التائب مهما فرط في حب الله تعالى .

نوح عليه السلام يحذر قومه

قال الحق سبحانه وتعالى ﴿إِنْ كَانَ كِبَرَ عَلَيْكَ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِحَاثِبِ اللَّهِ فَقُلِ اللَّهُ قَوْلُكَ فَاجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ [يونس ٧١] نوح عليه السلام قال : إنه قد توكل على الله تعالى ، ومادام قد توكل على ربه ، فإنه قد استعان بمن سيحقق له النصر على الكافرين ، فهو عليه السلام يعلن بإصرار أنه لن يتنزل عن الدعوة ، وأن الله تعالى هو ناصره ورصيده ، وهو الذي أرسله ومبطل يحمل دعوته .

ثم بعد ذلك يقول لهم أما أنتم فأجمعوا أمركم أي اجتمعوا وقرروا ما تريدون أن تصعوه معي ، وأنتم لن تضروني شيئاً ، خذوا أمركم كجماعة وليس كأفراد ، اجتمعوا على قلب رجل واحد واتمقوا ، إذن فتوله تعالى : ﴿فَاجْمَعُوا أَمْرَكُمْ﴾ أي اجتمعوا على أمر رجل واحد ، وإن كان بينكم خلاف فاطر كوه وانتهوا إلى اتفاق

وظل نوح عليه السلام يدعو قومه إلى الله تعالى ألف سنة إلا خمسين عامًا .. وهي مدة طويلة تعرض لأجيال متعددة . والجيل العقلي ينقسم إلى عشرين سنة ، أي عندما يبلغ الإنسان سن العشرين يضح عقفه ويستطيع أن يستوعب المنهج ، فيدخل في دعوة نوح ، فكم جيل من الأجيال حاول نوح أن يهديه ؟ حوالي خمسين جيلًا ، ومع ذلك لم يؤمن به إلا من تخمهم سعية واحدة ، ومعهم الحيوانات والطيور أيضًا . ونوح خاطب أجيالًا محتفة ، ولكنها كانت كلها متأثرة بما يقوله الآباء للأبناء ، وباليئة التي شئوا فيها .

أعلن نوح توكله على الله تعالى الذي أرسله لأنه سيسره .. ومادام توكل على الله فلا يجوز عليه أحد من خلق الله ؛ لأن الله فوق الخلق جميعًا ، والخلق كله جماده وبناته وحيوانه ، إنما سيكون من جنود الله ، وإذا أردنا دليلًا واقعيًا على ذلك ، فهو قصة ابن نوح عندما خرج مع الكفار ورفض نصيحة نوح عليه السلام بأن يركب ، وقال كما يروى لنا القرآن الكريم : ﴿سَوَّيْتُ لَكَ جَبَلًا يَعْصِيكَ مِنْ الْمَاءِ﴾ [هود ١٢] إذن .. فلا بد أن ابن نوح نظر فرأى جبلًا عاليًا ظن أنه يستطيع أن يحميه من الطوفان ، ولكنه عمل عن جدي آخر من جنود الله وهو الموج الذي حال بينه وبين أبيه فأغرته ، وكل خلق الله هم جنود لله ، لأن الله له ما في السماوات وما في الأرض ولكن الذي خرج عن المراء الشرعي لله في الطاعة والمعصية

للمهيج هو الإنسان ، وخرج بمشيئة الله ، أى أنه نخرج ، لأن الله أراد أن يكون محتاراً .
 طلب نوح الطغيان من قومه أن يجتمعوا ويجمعوا أمرهم .. هذا يقول رآيه ، وهذا يقول
 رآيه ، إلى أن يتفقوا على أمر .. كيف يملكون البشر نوح ، ونوح الطغيان فى هذا يتحدى قومه ،
 فيقول لهم ختيموا على أمر واحرصوا على أن تنفذوه ، فهو حين يقول لهم : ﴿ فَأَجْمَعُوا ﴾
 أمركم ، ففى هذا تحد ؛ لأنه كان يجب أن يحرص على أن يكونوا مختتمين ، حتى لا ينتهوا
 إلى رأى لأنهم أعداء له ، ولكنه واثق من أنه مادام قد توكل على ربه ، فإن أحداً لن يصل إليه ،
 ولم يقل لهم نوح الطغيان : أجمعوا أمركم فقط . بل قال : وشركاءكم . ومضى وشركاءكم ،
 أى ما تشركون به من دون الله ، أى استعصوا بكل القوة التى تستعصون بها من دون الله ، فإنها
 لن تعيدكم شيئاً . والقول هنا بالاستعانة بالشركاء هو الاستهزاء بأى قوة يحاولون الاستعانة
 بها ، لأنها إفك وباطل لن يفيدهم شيئاً .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾ إذن فالتحدى الأول هو
 أن يجمعوا أمرهم ، والتحدى الثانى هو أن يستعصوا بالشركاء الذين يمكن أن يعيروهم ،
 والتحدى الثالث ألا يكون الأمر عمة ، والغمة منها الغمام ومنها الإغماء الذى هو فقد الوعي أو
 ستر العقل ، فالعمة هى ستر الشيء ، أى أن نوحاً قال لهم : لا تتبعوا أنفسكم وتحاولوا أن
 تحتفروا فى مكان بعيد حتى تتفقوا ، بل اعلوا ما تريدون فى العلن وأمام الجميع ، ولا تخفوا
 على ما اتفقت عليه ، بل اعلوه ، لا تخفوا واملوا كل شيء بوضوح وصراحة وعلانية وتحد ،
 ويقول تعالى : ﴿ ثُمَّ أَقْصُوا إِلَيَّْ ﴾ أى إذا وصلتكم إلى قرار فننفذه ، وهناك فرق بين : قضى
 إليه ، وقضى عليه .. ما هو المرق ؟ قضوا إليه . أى أنهم من الجائر أن يجمعوا الأمر ويصدروا
 الحكم ، ثم بعد ذلك يشاركون عن التنفيذ أو يؤجلوه . ولكن نوحاً يقول لهم : ﴿ أَقْصُوا ﴾
 إلى ، أى : احكموا على حكمنا نافذاً ؛ لأن الحكم على الشيء لا يقتضى بالضرورة التنفيذ ،
 بل يمكن أن يقتضى على شخص مع إيقاف التنفيذ .. إذن فالحكم شيء ، والحكم والتنفيذ
 شيئان .. ولكن أقصوا إلى ، أى أصدروا الحكم ونفذوا ما نصيتم به ، أى لا تصدروا
 حكمكم ، ثم تقولوا : لا تنفيذ . لا تراجعوا فى الحكم الذى أصدرتموه .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلَا تُظَاهِرُوا ﴾ أى لا تؤجلوا الحكم إلى غد أو بعد غد ، لا تمهلوا
 فى التنفيذ ، بل نفذوا على الفور ، وهل يوجد تحد أكبر من ذلك ، تحد للخصم المعاند ، وهم

الأغلبية من قوم نوح ، وهو نوح بفعل الباب أمام آية مساومة ، أو مصالحة أو عدول ، بل ينير في الخصم التحدى للتصمد ، مع أن الخصم كثرة ، ونوحا والمؤمنين قلة ، والإمكانات التي يمكنها الكفار كبيرة وكثيرة ، والإمكانات التي يملكها نوح والمؤمنين ضعيفة .. فلماذا هذا التحدى ؟

أولاً : لأن نوحاً قد توكل على الله تعالى ، فلا توجد قوة في الكون تستطيع أن تصل إليه .
ثانياً : لأن نوحاً ظل يعظهم ويهديهم ألف سنة ، لا خمسين عاماً ، ولم تنفع هذه المدة الطويلة في هدايتهم أو تخليصهم من الكفر ويتحذرون طريق الإيمان
ثالثاً : لأن الله تعالى أوحى إلى نوح أن هؤلاء القوم الكافرين من يؤموا مهما دعاهم .
وفي ذلك يقول الحق جل جلاله : ﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا نُوحٌ إِنَّهُ لَأَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَرَقَدًا ؕ آمَنَ فَلَا يَتَّبِعُهُ بِمَآ كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [هود : ٣٦] وهكذا بعلم الحق سبحانه وتعالى الأرنبي لم تكن هناك فائدة من استمرار الدعوة ؛ لأن هؤلاء الكافرين قد ملأ الكفر قلوبهم وختم الله سبحانه وتعالى عليها ، فهم لن يؤمنوا .

إذن .. فكان لابد أن يأتي فاصل ، وأن يكون العاصل قوياً ، وأن يعرف الكفار أن الله سبحانه وتعالى هو الحق ، وأن يبالوا الجزاء على كفرهم وعنادهم ، فليصعوا كما يريدون ، وليتآمروا كما شاءوا ، فقد حق عليهم عذاب السماء .

بشرية الرسول ضرورة

قال الله تعالى إن قوم نوح قالوا له لما دعاهم لعبادة الله وحده : ﴿ مَا رَبَّنَا إِلَّا شَرٌّ عَالَمِينَ ﴾ . هذا الاعتراض حجة عليهم وليس حجة لهم ، واعتراض فيه غباء من القوم وليس فيه شيء من الفكر أو الحكمة ، فبشرية الرسول ضرورة لإبلاغ الرسالة ، فالرسول كبشر عاش مع قومه سموات قبل أن يكلف بالرسالة ، اشتهر خلالها بحسن الخلق والأمانة وكل خلق حميد ، حتى عرفه قومه وعرفوا أنه لا يكذب ، وأنه إنسان يتصف بالصفات الحميدة حتى إذا كُلف بالرسالة كانت المقدمات تؤكد صدق بلاغه عن الله تعالى .

والرسول قدوة يُطَبَّق المنهج عملياً أمام الناس ، وهم يقتدون به ، أى يفعلون مثله ولو كان من غير البشر ، فلو كان منكاً مثلاً لقالوا : يا رب هذه مخلوق من مبر ، مفطور على الطاعة ،

طبيعة خلقه تعصمه من نزوات البشر، ونحن متخلقون من طين، لنا شهوات، ولنا معصومين. كيف يمكن أن يكون الممطور على الطاعة المخلوق من نور قدوة لنا؟ ونحن مخبوقون من طين، مختارون في الطاعة والمعصية، لا يمكن أن يكون هذا الرسول قدوة لنا. إذن فبشرية الرسول حتمية ومن تمام الرسالة.

ثم تَمْضِي الآية الكريمة تقول ﴿وَمَا مَنَعَكَ إِلَّا الْيَمِينُ هُمْ أَرَادُوا لَنَا﴾ والأرادل هم نفاية الشيء أو أدناه، وهم القوم المطحونون من الفساد، وهؤلاء بسبب ظلم الأغبياء والأقوياء لهم، هم أول من يسارع إلى الإيمان بالرسول؛ لأنهم يرون في منهج السماء الذي يحمله دفقًا للظلم عنهم وإعادة لحقوقهم، وما من ثورة اجتماعية إلا كان أول الذين ينضمون إليها ويؤيدونها وتقوم على أكتافهم أولئك المطبوعون للمطحونين، أما المترفعون فلماذا لا يؤيدون الثورة؟ هم يريدون أن يهيئ الحال على ما هو عليه، لأنهم في عزه وترف ومال، ولذلك فإن المترفين في أي نظام هم الذين يهربون بحياة من أي ثورة تتم؛ لأنهم هم المقصودون بالثورة لتوقف ظلمهم، وتزعزع مهم مكانتهم الاجتماعية وتزيل ظلمهم عن الساس.

وقوله تعالى: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ أي ظاهر الرأي أو أول الرأي، أي أنهم آمنوا بمجرد إبلاغهم المنهج، ولم يناقشوه أو يشعروا ليدرسوه، ولكن هؤلاء الكفار الذين يتهمون أول من آمنوا بوح بأهم أرادل القوم وأنهم لم يتعمقوا في المنهج ويدرسوه، يقول لهم إنيهم عند الله تعالى ليسوا أرادل؛ لأن المقاييس الحقيقية للأشياء ليست بمقاييس التي عندكم وهي المال والجاه والسلطان وكل ما يعطيكم السيادة، فالمرء بأصغريه قبله ولسانه، وهؤلاء الأراذل، الواحد منهم أفضل عند الله تعالى من ألوف الكافرين، إذن فهم ليسوا أرادل كما تدعون، ولكن لهم مقام كبير عند خالقهم يوم القيامة، أما قولكم: إنهم سارعوا إلى الإيمان. فلائهم وجدوه يدافع عن الحق، ويساوى بين الناس، ويخلص المجتمع من آفاته وشروبه، فانطلقوا إلى الإيمان، وأصبح لهم رأي، إن المسألة ظاهرة واضحة لا تحتاج إلى تعمق أو جدل. ولكن أنتم بكمركم تريدون أن تحتلقوا أسبابًا لعدم الإيمان، وتريدون أن تجادلوا بالباطل، إذن فمقاييسكم هابطة؛ لأنكم ترون الحق ولا تؤمنون به، وليس هناك عند الله أرادل وعجلة من القوم إلا بالإيمان. والحرفة الصغيرة تنعكس إذ امتنع صاحبها عن عمله. فلو لم يوجد ذلك الذي يظف الطريق لامتدأ بالقمامة وأصبح مصدرًا لأمراض تصيبها جميعًا وتهلكنا؛ بل إن الذي يمسح لك الحذاء يقوم

بملي هام ليحفظ لك مظهرك اللائق في المجتمع بدلاً من أن تمشي بحذاء متسخ ، وذلك الذي يقوم بتسليك الحجاري لو أنه امتنع عن عمله ؛ لانتشرت الأمراض والأوبئة بين الناس ، وإياك أن تحقر أي عمل مهما كان صغيراً ، فهذا العمل الصغير ومن يقومون به هو الذي يعصيك ثمر الحياة ويجعل حياتك مريحة ، أنت سيد في بيتك ، ولكن هذه السيادة هي من عمل الآخرين ، هم الذين يجهدون لتحقيقها لك ، ولو تحنوا عليك ما استطعت أن تكون سيداً ، فلا تحقر أي عمل في المجتمع .

ثم يقول الحق : ﴿ وَمَا رَأَى لَكُمْ عَلَيْكَ مِنْ فَضْلٍ تَلْ نَنْقُصُكُمْ كَدِيدَكُمْ ﴾ . قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَأَى لَكُمْ عَلَيْكَ مِنْ فَضْلٍ ﴾ قول يوضح لنا فكر هؤلاء الكافرين البعيد عن الحقيقة ، فكما يتبين فإن المترفع صاحب النفوذ لكل الناس فصل عليه ، ولكي تعرف أن منطق الكافرين واحد اقرأ قول الحق عن كفار قريش عندما أرادوا أن يوردوا حججهم بعدم الإيمان برسالة محمد قالوا : كما يروى لنا القرآن الكريم ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَالِمٍ ﴾ [الزمر ٣١] إذن فهم اعترفوا بصحة القرآن ، ولكن سبب عدم إيمانهم : أنهم كانوا يريدون أن ينزل القرآن على واحد من أغنياء قريش وعظمائها .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا رَأَى لَكُمْ عَلَيْكَ مِنْ فَضْلٍ ﴾ . لو علم هؤلاء الناس ما معنى الفضل ما قالوه ، فالفضل هو الزائد على الحاجة ، والفضل يقتضي فاصلاً ومفضولاً عليه ، وكل إنسان فاضل ومفضول عليه ، فكل منا فاضل في مهنته أو حرته أو ماله ، وكل ما مفضول عليه في مواهب أخرى .. هذا هو الفصل .

فكل من له فضل في الأمر الزائد على حاجته ، فيكون العالم كنه مرتبط ارتباط تبادلي منفعة وليس ارتباط سيطرة ؛ ولذلك نقول لكل من يدعى أن له فضلاً وليس مفضولاً عليه : تواضع لأنك ما سيطرت إلا بمن لهم فضل عليك في نواح أخرى ، فاستخدمتهم لتحقيقوا لك ما أنت فيه .

وقوله تعالى : ﴿ بَلْ نَقُصُّكُمْ كَدِيدَكُمْ ﴾ [هود ٢٧] . الظن معناه نسبة راجحة وليس حكمت في قصة ، الراجح هو الظن ، والمرجوح هو الوهم ، فهم يتحدثون ظناً وليس حقيقة . ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَخِمُْونَ إِلَّا الظَّنُّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴾ [الزمر ٣٥] .

شَيْكَا [النجم ٢٨] إذن .. فالظن غير الحقيقة ، ولذلك لم يقولوا نعتقد أنكم كاذبون وإنما قالو : وإنا لنظن أنكم كاذبون .

وقول الحق سبحانه : ﴿ قَالَ يَتُورَ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَسْرِ مِنْ زَيْفٍ وَهَ الْبَيِّنَةُ مِنْ عِيُودٍ ﴾ [هود ٢٨] . البينة هي التي جاءت من الله تعالى كهيئة دواء أن يكون للإنسان فصل فيها ، والبينة هنا هي الرسالة ، التي هي النور والبصيرة والهداية والعطرة ، والرحمة هي هدف الرسالة ، ثم يقول الحق : ﴿ فَمُتَيْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [هود ٢٨] .

أي : عميت أبصاركم وإن كانت تنظر ، إلا أنها لا ترى آيات الله ، وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَكُونُوا أَشْهَادًا أَنَّكُمْ كَذِبُونَ ﴾ . أنذرهمكموها مكونة من الهمزة ولرم وهي الفعل . من الذي نلزمه ؟ هو المخاطب ، ولزمه بماذا ؟ بالإيمان بمسح الله تعالى .

إذن .. فهناك استفهام وفعل وفاعل مطمور في الفعل ، ومفعول أول ومفعول ثان ، المفعول الأول هو كاف المخاطبة في قوله ﴿ أَلَمْ تَكُونُوا أَشْهَادًا ﴾ ، أي أحرصها عليكم بالفهر وأنتم لا تريدونها وتكرهونها ؟ طبعاً لا . لأن الإيمان بالنسبة للإنسان لا يد أن يكون طواعية وعن اختيار ، ولو أن الله سبحانه وتعالى أراد كل خلقه مكرهين لكانوا كذلك ، ولكن الله تعالى يريد أن يأتي الإنسان عن حب واختيار وليس عن قهر ، لأن الإكراه هو إحصاع القوالب ، والله يريد قلوباً تحشع وليس قوالب تحصع ، ولو أن الحق يريد الإحصاع بالإكراه ، لأحصعنا كما أحصع كل الكون وجعلهم مقهورين لأمره .

إذن .. فالدين لم يأت للإكراه ، ولكنه جاء لئلا يمس به طواعية واختياراً والحق يقول : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] .

الحق تعالى يقول : ﴿ وَرَفَقُوا لَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَآ مِنْ آخِرٍ إِلَّا عَلَىٰ أَفْئَةٍ ﴾ [هود ٢٩] هذه الآية الكريمة وردت مع كل رسول ، قد جاءت بقوله تعالى : ﴿ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ [هود ٥١] مرة ، و﴿ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ مرة ، ما هو الفرق ؟ لأن الرسول قد يسألهم أجراً لا يكون فيه مال كأل يسألهم تمرًا أو شعيراً أو قمحاً أو غير ذلك ، ومرة يسألهم مالاً ولا يسألهم أجراً عينياً ، ولذلك نعى الله تعالى عن رسله أن يأخذوا أجراً أو يأخذوا مالاً ، حتى تنفي كل أنواع الاستفادة المادية ، وهذا يدس على أن مسح الله الذي جاء به الرسول أمر

دافع لناس ، لأن الأجر لا يسحق إلا مقابل المنفعة ، فالأشياء إما أن تأخذها - أى تشتريها - وإما أن تأخذ المنفعة وتظل العبي للملكها ، وهذا يسمى استتجار ، فكأن الذى قدمه الرسل كان يجب أن يكون له أجر ، ولكن المنفعة الدنيوية ليست هى هدف الرسل ؛ بل هم يريدون أجرهم من الله فى الآخرة ، وهذا لأن الأجر فى الآخرة من الله مباشرة ، وبقرارات الله وهو أجر دائم أبدي عظيم .

قوم نوح قد طلبوا منه أن يطرد الفقراء الذين أسوا ، ويعتدون بأنه إذا طردهم فإنهم سيبحرته ، انظر إلى الرد ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [هود ٢٩] . أى لن أطرد الذين أعلوا إيمانهم لأنهم لا يعجبونكم ، فهم عند الله أفضل منكم .

وهذا القول هو الذى رد به نوح ﷺ على وجهاء قومه الذى طسوا منه أن يطرد الفقراء ، أى أنكم لم تفهموا مهمتى ، إن هؤلاء القوم جاءوا على الإيمان والجرأ فى الآخرة ، ولم يأتوا ليحققوا مالا أو ربحا ، ولو أنى طردتهم لكان هذا غير مقبول منى عند الله فأنا لم أجيئ لسمري وخدمهم ، وإنما جئت لأهدى كل الناس ، وإن أكرم الناس عند الله ليس أشباههم ولكن أنقاهم .

ولذلك قال : ﴿وَلِكَيْتَ أَزِيدَ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ [هود ٢٩] . أى أن الذين جاءوا إلى نوح وطلبوا منه طرد الفقراء هم قوم جهلاء يجهلون مهمة نوح ، ويجهلون الحقيقة ، وهى أن مسيح الله لا يفرق بين الناس بخدمهم أو بفرهم ، فهذا عرص ديبوى رائل ، ثم يأتى نوح بحجة بالغة فى قوله تعالى : ﴿وَيَقُولُ مَنْ يُصْرِبِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود ٣٠] هناك تذكّر ، وهناك تفكر ، وهناك تعقل ، وهناك تدبر الدكر . أن يكون قد حدث لك شىء بسببه وتدكرته بسبب قول ما أو حادث ما . والتفكير : أن تستبط شىئا حديثا بعقلك . والتعقل أن تستخدم عقلك فى فهم الأشياء ، والتدبر . أن تكون هناك أشياء تقال لك فتدبر فيها ، لا تأخذ ظواهرها ولكن تأخذ حقائقها ، وهى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿أَفَلَا يَذَكَّرُونَ الْفَرَّاتِ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْبَالِهَا﴾ [محمد ٢١] . أى ألا يفكرون فى العطاءات والكسور التى فى القرآن ، أم يأخذون الظاهر ولا يفكرون فيه ؟ والتدبر - هو الذى يأنيك بالمعنى الحقيقية ، ولذلك كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول ٥٠ سوروا القرآن ٥ .

إذن .. صوح يقول لهم من ينصرى من الله إن خالمت منهجه ، تذكروا هذا جيداً ، لأنه لا ناصر من الله فى الدنيا والآخرة . ويذكرهم روح بيشريته ، وقرأ قوله تعالى : ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِْدَى خَيْرٍ أَللَّهُ لَا أَعْلَمُ الْعَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِى أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ [هود ٣١] وهذا الرد سد منافذ الاعتراض على الكافرين ، فقال : أنا لم أقول لكم . إن عدى حرائر الأرض ، فأطيعوى من أجل مالى . ولم أقول لكم . إني أعلم الغيب ، فأطيعوى أقول لكم الغيب وأعلمه لكم ولم أقول لكم إني منك ذو قوة أكثر من قوتكم ، فأطيعوى خوفاً من بطشى وعذابي . ولم أدع أنى من جس آخر متعوق عليكم ، فإني بشر مثلكم ، وما دمت بشراً فأنا لا أزيد على أولئك الذين تزدري أعينكم ، وكلنا سلقى الله فى الآخرة ، وأنا أخاف هنا الوقوف ؛ لأنى إن طردت المؤمنين سيحاسبنى الله على ذلك .

ثم يكمل الحق : ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِى أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَيْنَ الظَّالِمِينَ﴾ [هود ٣١] . أى أن أولئك الذين تحتقرونهم وتردوهم بأعينكم ، لا أقول لهم : إن الله لن يؤتيهم خيراً . فالخطاب هنا ليس موجهاً إلى هؤلاء العقراء من المؤمنين ، فقوله تعالى : ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِى أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ .

أى أن نوحاً عليه السلام قال للكفار من قومه : إذا قلت لذين تزدري أعينكم إن الله لن يؤتيهم خيراً . أكون إدس .. ظالماً . وإذا طردتهم أكون أيضاً ظالماً ، وما رد الكفار على نوح ، وقرأ قوله . ﴿قَالُوا بَشُوحٌ قَدْ جَدَلْنَاكَ فَأَكْثَرْتَ جِدَلَكَا﴾ [هود ٣٢] . ونوح ظل يجادل قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، هذه الفترة الكبيرة نضاها فى حوار وأحد ورد مع قومه لهؤموا ، والجدل هو المحاولة ، هذا يقول كلاماً وذلك يقول كلاماً يقابله ، وكل واحد من القائمين يريد أن يهدم حجة الآخر أو يضع فيها شبهة كى يسقطها .

إذن .. فامجادلة . مقابلة اثنين متقابلين فى الكلام ، وكل من الطرفين يحاول أن يهدم حجة الآخر .

الطوفان .. وهلاك الكافرين

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنِ ابْنِ بِرٍّ مِّنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود ٣٦] . فبعد تسعمائة وخمسين سنة من الدعوة ؛ هذه الفترة الرمزية الطويلة التى

قضاها نوح في تبليغ رسالة ربه ومجادلة الكافرين ونصحهم ، وصل بذلك إلى قمة المجادة جيلاً بعد جيل ، قال الله تعالى له : انتهت مهمتك ، فمهما فعلت ومهما دعوت فلن يؤمن لك إلا الدين أعصوا إيمانهم فعلاً . قوله تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ ، «إلا» حرف استثناء ، وساعة تقول «إلا» يكون الذي بعدها خارجاً عما قبلها . فإذا قلت : جاء القوم إلا فلاناً . فمعنى ذلك أن القوم كلهم جاءوا وفلان لم يأت . ومادم لن يؤمن أحد من قوم نوح ، لا من قد آمن ، لا يكون هذا استثناء ، ولكن تكون «إلا» بمعنى غير من قد آمن . أى : لن يؤمن من قوم نوح غير الذين آمنوا ؛ لأنه لا يوجد استثناء هنا .

لذلك دعا عليهم نوح كما يروى لنا القرآن الكريم : ﴿رَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَبَّارًا﴾ ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوكَ وَيَبْغُوا عَلَافًا ﴿٢٧﴾ كَقَارَارٍ﴾ [نوح : ٢٦ ، ٢٧] .

وأعطى الحق تبارك وتعالى أمره إلى نوح ليسى السفينة ، فيقول تعالى : ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلَ لَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيُنَا وَلَا تَحْطَبْنِي فِي الْأَرْضِ ظَلَمُوا﴾ [هود : ٣٧] وهكذا عرف أن الحق أمر نوحاً ببناء السفينة ؛ لأنه سيُفَرِّقُ الكفار ، أما المؤمنون فسيبحون . إذن .. فقد علم نوح في هذه اللحظة بإغراق الكافرين .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلَ لَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيُنَا﴾ أى أن الحق سيُهبهم روحاً بوحيه كيف يصنع السفينة ، وعلمه كيفية صانعتها .

وقوله تعالى ﴿وَلَا تَحْطَبْنِي فِي الْأَرْضِ ظَلَمُوا﴾ [هود : ٣٧] . فإن الله لا يقبل شفاعة في هؤلاء الكافرين ؛ لأنهم ظلوا فترة طويلة وهم يعاندون روحاً الطيبة . وقوله تعالى : ﴿وَوَحْيُنَا﴾ أى أن نوحاً وقومه لم يكونوا يعرفون صناعة السفن ، ولكن الله تعالى هو الذى أوحى إلى نوح كيفية صناعة السفينة ، أى ألقى في قلبه وفي عقله الخواطر التى تتيح له حسن صناعة السفينة . إن الله يقول لنيه نوح : ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلَ لَكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أى : بوحى ما وعلم ، بدليل قوله ببارك وتعالى . ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلَ لَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيُنَا﴾ وقوله الله جل جلاله ﴿وَلَا تَحْطَبْنِي فِي الْأَرْضِ ظَلَمُوا﴾ أى إنيهم سيهلكون بالعرق .

ويقول الحق تبارك وتعالى ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلَ لَكَ وَكُلُّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا

﴿مَتَّ﴾ [هود : ٣٨] كَأَنَّ الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا حَوْلَ نُوحٍ مُؤْمِنِينَ أَوْ عَيْرَ مُؤْمِنِينَ لَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَ
مَادَا يَصْنَعُ السَّفِينَةُ ؟ بَلْ أَنَّهُمْ تَعَجَّبُوا مِنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ، وَكَلَّمَا مَرَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى نُوحٍ
﴿سَجَرُوا بِمَتَّ﴾ لَأَنَّهُ يَصْنَعُ شَيْئًا عَيْرَ مَعْرُوفٍ لَدَيْهِمْ وَمُسْتَغْرَبٍ عِنْدَهُمْ .

وقول الحق تبارك وتعالى ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ [فقر ١٣] أى أنهم يربطون
الألواح بإحبال ، مثل الذى صنع من ورق البردى سفينه ليذهب بها إلى أمريكا ، كنها مربوطه
بإحبال محكم رابطها ، فيأتى بأوراق البردى ويحكم رابطها بعضها مع بعض ، لكى يكون
الربط محكمًا فلا يدخل الماء إلى السفينة ليعرقها ؛ فإلله عَلمُ نوحًا بأن يأتى بالخشب الجاف
ويربطه بالإحبال ، وبعد ذلك عندما يكون الخشب فى الماء يزداد حجمه فيسد المسام بدقة أكبر ،
مثل الذين يضعون البراميل ويعضون فيها الأشياء السائنة فلا ترشح من الخارج ، لأن الخشب
مدهون بالقطران الذى يسد المسام ، والخشب من المواد التى تتمدد بالبرودة .

وما دام الحق قال ﴿إِنَّهُمْ مُّكْفَرُونَ﴾ رصحت تمامًا حكمة صناعة الفلك ؛ لأن الذين
ينجون هم نوح والذين آمنوا معه .

ويقول الحق سبحانه : ﴿وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَتْ مِنْ قَوْمِهِ سَجَرُوا بِمَتَّ قَالَ إِنْ تَسْجَرُوا بِمَاءٍ
فَإِنَّا نَسْجَرُ بِكُمْ كَمَا تَسْجَرُونَ﴾ [هود : ٣٨] . أنتم تأخذون ما تصنع بظاهر الأشياء ، بأن المكان
ليس فيه بحر أو بحيرات تستحجم فيها السفينة ، ولكنكم لا تعلمون ماذا سيحدث لكم ، لقد
سجروا من نوح ، وقالوا : بعد أن كان نبيًا أصبح مجازًا ، لو كان نبيًا حقًا ما لجأ إلى هـ . لقد
قالوا إن هذه السفينة بعيدة عن البحر ، فكيف سينقلها ؟ ولم يعرفوا أن الماء هو الذى سيأتيها ،
وهو الذى سيرفعها ، لم يعرفوا أن طوفانًا قادمًا وأنهم معرقلون . ولذلك كتب مر عليه كبار قومه
الذين لم يؤمنوا برسائنه سحروا من نوح واتخذوه سحرية لهم ، سى يصنع سفينة وسط يابسة
فى مكان بعيد جدًا عن البحر ، ولم يدر كوا قوله تعالى ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [هود : ٣٩] .
أى أنكم لا تعرفون سر بناء السفينة الآن ، ولكنكم ستعرفونها فى المستقبل .

إذن .. فالحدث له عدة صور ، فإذا تكلمت بالفعل الدال على الحدث ، وكان كلامك
بعد حدوثه يكون الفعل ماضيًا ، وإن كان كلامك ساعة حدوثه يكون الفعل مضارعًا ، وإذا
كان ميقع فى المستقبل القريب يستخدم فيه حرف السين ، وإن كان مسوقًا بسوف فإنه يكون

فى المستقبل البعيد ، واستخدم الحق سبحانه وتعالى كلمة ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يدل على أن نوحا صنع السفينة فى عدة سنوات ، وأبهم بعد هذه السنوات سيعلمون ؛ ولذلك عندما قال نوح **الخطبة** : ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أى سيمر وقت طويل حتى تعلموه . إذن .. فالآية الكريمة جاءت على أوسع مدى من الزمن ، ولكن ما الذى سوف تعلمونه ؟ الحق يقول : ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُثْقِلٌ﴾ [هود - ٣٩] .

إذن .. فالطوفان الذى سيأتى ، سيخزي هؤلاء الكفار ؛ لأنهم كانوا يسخرون ويقولون انما بما تعدنا إن كنت من الصادقين . كلمة يحل ضد الرحيل ، يعنى رل إلى مكان للإقامة فيه بصفة دائمة ، وصدها الرحيل أو الترحال ، أى رل إلى مكان ليقضى فيه فترة قصيرة ويرحل : ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُثْقِلٌ﴾ يعين عذاب دائم ، عذاب لا يتركهم أبداً ، بل يقيم معهم إقامة دائمة ، هو معهم كل الوقت ، لا يستطيعون دفعه ولا الفرار منه .

الحق يقول : ﴿حَقَّقْ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ﴾ [هود - ٤٠] ﴿حَقَّقْ﴾ تدل على الغاية ، وأمرنا أى الطوفان الذى سيأتىهم ، فالحق سبحانه يقول : ﴿حَقَّقْ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ﴾ قلنا نعمل فيها من كل زرع آتين إنا نرى نوحا كان يأتى الطوفان . إذن ففى عدة مراحل تمحل فيها نوح سحرية الكفار منه واتهامهم له بأنه ترك النبوة وأصبح نجاراً .

يقول الحق : ﴿وَفَارَ التَّنُورُ﴾ فار يعنى على . مثلما يقال الماء فر أى غلى ، والعلين هو أعلى سخونة للماء ، والماء يكون فيه هواء . والدليل على ذلك ، أن السمك يتمسك منه ، عندما يغلى الماء نجد أن فقائيع الهواء قد خرجت منه ، ولقد كان من اللازم أن تكون هناك علامة لنوح عندما يرى النور يغور فيه الماء ، ويقولون إن أصل هذا النور أو الخبز أن نوحا كان يخبز فيه ، وأن النور كان مخبى عندما آدم . الذى بهما أنه كان علامة بين نوح وبين ربه يعرف بها قرب بداية الطوفان ، وكان على نوح عندما يرى هذه العلامة ، أن يجمع من كل شىء زوجين ، أى من كل ما تتطلبه حياة الناجين من المؤمنين ، والناجون محتاجون إلى أشياء كثيرة ، محتاجون إلى أنعام وطير وهوام ووحوش وسباع ؛ بل هم محتاجون إلى خنزير أيضاً ، ولذلك عندما يقال : إذا كان لحم الخنزير محرماً فلماذا عبقه الله ؟ يقول إنه : لم يخلق ليؤكل ، ولكن به مهام أخرى فى الدنيا ، هى أكل القاذورات والقمامة حتى لا تتعفن وتملأ الدنيا بالجرثيم والأمراض .

ويقال . إنه عندما حمل نوح من كل زوجين اثنين ، لم يكن الخنزير موجوداً معه على السفينة ، وعندما خرجت من الراكبين في السفينة فضلاتهم ، كانت الرائحة كريهة جداً لا يطيقونها ، فאלله تعالى أمر الأسد أن يعطس ، فعطس فخرج من عطسته حنير ، هذا الخنزير راح يأكل الفضلات والقادورات ففضى على الرائحة الكريهة في السفينة وبجأ راكبوها من أمراض وحراثيم ربما كانت ستقضى عليهم ، وخصرهما أن الرحلة استمرت عامين .

ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا إِنْمَلُ مِنِّي مِّنْ كُلِّ نَجَسٍ ثَلَاثِينَ وَأَنذَرْتُكَ لَئَلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود ٤٠] يعنى من كل شىء زوجين ، يردفه العدد ، وكلمة زوجين اثنين دلت على أنهما اثنان ، إذا جاءت كلمة اثنين ؟ لأنه يشيع بين الناس أن الزوج مكون من اثنين ، ولذلك يقولون : عدد فردى وعدد زوجى . ولكن الحقيقة أن الروح لا يعنى اثنين ، ولكن يعنى واحداً ومعه مثله ، إياك أن تعتقد أن روحاً معاه شيطان . لا . روح يسى واحداً . ويقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَنَلَقَىٰ بِهَا رُوحَهُمَا ﴾ [النساء ١] أى روح فرد ولكن معه مثله ، ليكون الاثنان زوجين اثنين ، فلا تعتقد أن زوجين يعنى أربعة ، لأنك قد تأخذ الروح على أنه اثنان ، وتكون كلمة زوجين اثنين تعنى أربعة ، فكلمة زوجين تعنى اثنين ولكهما متماثلان .

وإذا قرأت قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ ثَلَاثِينَ زَوْجًا مِّنَ النَّسَائِ أَثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَمَرِ أَثْنَيْنِ قُلْ مَالِكُكَ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَىٰ أَمَّا أَثْنَيْنِ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَىٰ يَتَوَلَّى بِعِزِّهِ لَهَا كُتُبُ صِدْقٍ ﴿١٦٤٣﴾ وَمِنَ الْإِنثَىٰ أَثْنَيْنِ وَمِنَ الْفَرِّ أَثْنَيْنِ قُلْ مَالِكُكَ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَىٰ أَمَّا أَثْنَيْنِ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَىٰ أَمِ كُتُبُ شَهَادَةٍ إِذْ وَصَّيْتُمْ أَنَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا يَصِفُ النَّاسَ بِعَمْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدَى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤٤٣ ، ١٤٤٤] . إذن .. فالزوج يطلق على الفرد بشرط أن يكون له شريك يماثله فإذا قلنا زوجين اثنين أى فردين ، ولذلك جمعهم الحق ثمانية ، ولو كان الروح يطلق على اثنين لكنا ستة عشر ، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ أَلَمْ يَكُنْ لَكَ بَيْنَ يَدَيْهِ عِلْمٌ ﴾ ثم كان عِلْمُهُ فَطَنَ سَوَاءً ﴿١٦٤٤﴾ فَمَلَأَ بِهِ الرُّوحَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿١٦٤٥﴾ [القيامة ٣٧ - ٣٩] . فقول الحق جل جلاله ﴿ فَمَلَأَ بِهِ الرُّوحَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴾ أى أن الذكر زوج والأنثى زوج ، وهما معاً زوجان اثنان ، والله تعالى أراد بذلك استبقاء الحياة على الأرض وليس هلاكها ، ولذلك طلب من كل زوجين

اثنين ؛ لأنه يجيهم بالسفينة من العرق ، فلا بد أن يهين لهم استبقاء الحياة وإلا انقرصوا ، ويقولون : إن السفينة مكنت مستين في الماء ، فلا بد أن يكون فيها عوامل استبقاء الحياة ثم يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ نَجَّيْنَاهَا وَمُرْسَاهَا ۚ وَهِيَ لِلرَّحْلَةِ الْآخِرَةِ فِي قِصَّةِ سَفِينَةِ نُوحٍ .

المرحلة الأولى : أمر من الله تعالى لنوح بأن يصنع السفينة .

والمرحلة الثانية . هي قيام نوح بصناعة السفينة ، وقد ظل نوح يصنع السفينة عدة سنوات .

والمرحلة الثالثة : هي العلامة بأن يخرج الماء من التور مكان محير معروف في القرية

والمرحلة الرابعة : أن يحمل نوح معه في السفينة من كل شيء زوجين اثنين وأهله .

والمرحلة الأخيرة : لكل من أعدمهم لركوب السفينة : ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ نَجَّيْنَاهَا وَمُرْسَاهَا ۚ ﴾ القول من نوح : ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا ۚ ﴾ هو أمر من الله تعالى إلى نوح بأن يأمرهم أن يركبوا في السفينة ، والركوب أن يكون الراكب مستعليًا على ما يركبه ، وتكون السفينة في خدمة من ركبها ، فكان تسخير الله تعالى للسفينة كمن يخدم من ركبها وتطيعه ، ولكن الحق تبارك وتعالى قال : ﴿ ارْكَبُوا فِيهَا ۚ ﴾ وهم يقلل أركبوا عليها والركوب يكون على السفينة .

ولكن الحق يريد أن يعطينا لقطة بأن السفينة لم تصنع بطريقة بدائية على شكل ألواح خشب يركب الناس فوقها ، ولكنها مصنوعة بأحدث نظام بصناعته السفن الآن ؛ ولذلك لأنهم يركبون فيها لا يركبون عليها ، ولم تكن من طابق ولكنها من عدة طوابق ، وفيها عدة أدوار لأن فيها خلقًا مختلفًا ؛ فيها حيوانات ووحوش وحشرات ودواب (بشر ، وغير ذلك ، ولا يمكن أن يركب هؤلاء مع بعضهم البعض . إذن فلا بد أن يكون فيها طوابق بحيث يركب كل جنس مع بعضه .

وقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ نَجَّيْنَاهَا وَمُرْسَاهَا ۚ ﴾ . فالسفينة مصنوعة لكي تنجى الدين آمنوا وتنجى معهم من كل أجناس الحياة على الأرض زوجين اثنين ، وبما أنها مصنوعة لتنجيهم من العرق فلا بد أن تسير بهم فيها إلى مكان عالٍ لا يصله الماء ، إذن فلا بد من

الجرىان بمن فيها ولا يد من الرسو؛ لذلك مجرياتها يكون بسم الله، ومرسها يكون بسم الله،
وقوله تعالى ﴿إِنَّ رَيْقَ لَعْمُورٍ رَجِيمٌ﴾. لأن الدين آمنوا مع نوح .. صحيح أنهم آمنوا ولكمهم
ليسوا ملائكة؛ بل هم بشر. قد يكون منهم من أخطأ واستغفر، أو من أدب وتاب، أو من
آمن، ولكن إيمانه تشوبه أشياء صغيرة. ولكن الله تعالى قدر أنهم آمنوا، فغفر لهم هذه الذنوب
والهفوات الصغيرة التي ارتكبوها ولم يأخذهم بدورها

ولذلك قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ كما يقول القاضي: باسم القانون أو باسم
الدستور أو باسم الشعب. أي أنني لا آتمد حيثية الحكم من ذاتي ولكن باسم من حوّلها لي،
والدين سر يكون هذه السعيية، حيثية ركوبهم أنهم آمنوا بالله تعالى، لأن السعيية لله أمر،
والرسول صناعة، وكل هذا من الله تعالى

ولذلك يقولون: «كل شيء لا يبدأ بسم الله هو أثير» ماذا؟ لأن كل فعل يحتاج إلى
طاقات، وإذا كان فعلاً عضك احتاج لقوة، وإن كان فعلاً عقلياً احتاج إلى ذكاء وفكر، وإن
كان فعلاً فتاك احتاج إلى شجاعة، وإن كان فعلاً لإصلاح بين الناس احتاج إلى صبر،
فاحتياجات الأحداث لا يد لها من طاقات مختمة، وأنت إن أردت القوة تقول: باسم القادر
أو باسم القوي. وإذا أردت عدماً تقول: باسم العيم. وإذا أردت عسى تقول: باسم العسى
وإن أردت حلف تقول: باسم الحليم. وإذا أردت انتصار في الحرب تقول: باسم الفهار.
ولكن هناك أحداثاً تحتاج لهذه الأشياء كلها، ولذلك علّمنا الله أن نستعين باسم واحد
الوحد، باسم الله .. ففيه كل صفات الكمال لله سبحانه وتعالى، فإذا قلت: بسم الله. إن
كنت تريد قوة للفعل أعطاك، وإن كنت تريد شجاعة وجديتها، وإن كنت تريد غنى يعينك،
وإن كنت تريد أن تهيب أن تستعين بالله؛ لأن لك معاصر. والله سبحانه وتعالى رحمان ورحيم. إذن
فقطه تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ تَجَرَّدْنَا وَمَرَّسْنَاهَا إِنَّ رَيْقَ لَعْمُورٍ رَجِيمٌ﴾ معناه أن الله يجي من هم في
السعيية لأنه غفور رحيم.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَمْشِي بِهَا فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود ٤٢]. تدلنا على أنها مسيرة
بقدره الله سبحانه وتعالى، ولذلك فإن هذه الأمواج التي وضعها الله فيها علوها وصخامتها
كالجبال، هذه الأمواج التي لا بد أن نغرق أضخم السمن ونفوقها ثم تعمل شيئاً لسعيية نوح،

لم تضربها بقوة أو تقلبها أو تضربها على أى شكل من الأشكال ؛ بل إن السمينة تجري أى تمشى بسرعة عالية بين أمواج كالجبال ؛ بل إن طريقها الذى رسمه الله تعالى لها ليس فيه موج يعوقها أو يصرفها ، ولك أن تتخيل سفينة فى بحر هائل بين أمواج كالجبال ، كيف يمكن أن تبحر حتى إذا لم تعرفها الأمواج ، فإنها على الأقل لا تجمعها تسير بسرعة ، ولكن لأن سفينة نوح يسير بأمر الله تعالى ، فإن هذه الأمواج لم تؤثر فيها .

وهكذا نفذ الماء أمر الله وأغرق الكافرين جميعاً بما فيهم ابن موح الذى رفض الإيمان ، والحق أراد أن يعطينا صورة لنهاية الطوفان الذى أغرق الأرض ، فقال جل جلاله ﴿وَقِيلَ يَكْفُورٌ أَيْلَىٰ مَاءَكِ وَنَسَمَاءُ أَقْلَىٰ﴾ [هود ٤٤] . البلع هو مرور الشيء من الخلق ليقطع فى الجوف ، يقال لك : ابلغ ما فى فمك . أى أدخله من الخلق إلى جوفك . والحق تبارك وتعالى وصف لنا الطوفان وكيف تم بأمر الله ، فقال تعالى : ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّثِيرٍ ۝ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُورًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ مِّنْ دُونِهَا﴾ [القمر ١١ ، ١٢] هذه النقطة وهى كيفية حدوث الطوفان لم تأت فى هذه الآية ؛ لنعرف أن القرآن يكمل بعصه بعضاً ، ففىما حكاها الله سبحانه وتعالى لنا فى الآيات التى نحن بصدد ، أعطانا سبحانه وصفاً إجمالياً للأحداث ، وذلك فى قوله تبارك وتعالى : ﴿وَقَالَ أَزْكُوا بِهَا يَسْمُرُ اللَّهُ بَحْرَهَا وَمُرْسَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَهِيَ تَجْرَىٰ بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود ٤١ ، ٤٢] أعطانا اللفظة إجمالية ولم يقل لنا كيف حدث الطوفان ، ولكن فى آية أخرى أعطانا صورة كيف حدث ، لأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يربى فىنا فطرة الإيمان ، ونحن مشغولون بقصص إيمانية ، هى ابن رسول لم يؤمن برسالة أبيه ، كان لابد أن يبين لنا ما هو حكمه فى هذه الحالة ؟ وهل سيستمع لابن نوح أن والده نبى فيحبه الله بكرامة أبيه ، أم سيلقى نفس المصير الذى لقيه من كفر برسالة نوح ؟ فلو أعطانا الحق هذه التفاصيل وكيف بدأ وماذا حدث ؟ لاجتمعت أذهاننا عن النقطة الإيمانية التى يريدنا لحق ، أن ننتبه إليها .

وقوله تعالى : ﴿وَقِيلَ يَكْفُورٌ أَيْلَىٰ مَاءَكِ وَنَسَمَاءُ أَقْلَىٰ﴾ أى خُذى الماء من السطح إلى جوفك ، ﴿وَنَسَمَاءُ أَقْلَىٰ﴾ أى امتنعى عن المطر . وهكذا يتبع المطر وتتبع الأرض الماء فينتهى الطوفان ، لأنه لو كان عندما كان فيه مطر والبانوعة مسدوده فإن أول شيء يفعه هو أن يجعل البانوعة تعمل ، ثم ندعو الله تعالى بالنسبة للمطر ، فنقول يا رب ، حولها ولا علي .

وهكذا أمر الله الأرض أن تبتلع الماء في جوفها ، وأمر السماء أن تتوقف عن المطر .

وقوله تعالى : ﴿وَيَعِصِ الْعَمَاءُ﴾ [هود : ٤٤] . مادة عاص تستعمل لارمة وتستعمل متعدية ، أى نقول : غاص الماء وغاص الله الماء يصح الاثنان ، ولكن الحق قال ﴿وَيَعِصِ الْعَمَاءُ﴾ وبنائها للمجهول ، من الذى عوض الماء ؟ هو الله سبحانه وتعالى ، ثم يقول جل جلاله : ﴿وَفُتِحَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ [هود : ٤٤] قصي أمر ماذا ؟ أمر الله فى إهلاك الكافرين ، ﴿وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ أى استوت السفينة على الجبل ، ولجودى هذا جبل قرب الموصل ناحية الكوفة فى العراق .

وقوله تعالى : ﴿وَقِيلَ نَعْدَا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود : ٤٤] أى أن القوم الظالمين ابتعسوا بعدا نهائيا عن الإفساد فى الأرض ، فهم قد ماتوا وانتقلوا إلى حياة البرخ ، وسيظلون فيها إلى أن تقوم الساعة ليلقوا جزاءهم . إذن فابتعاد القوم الظالمين الذين كهروا برسالة نوح عن الإفساد فى الأرض أصبح نهائيا ، ولم يبق على الأرض إلا المؤمنون ، ولكن هل هؤلاء وحريتهم سيظلون مؤمنين ؟ أم ستدخل الغفلة إلى قلوب الدرية فيشركون ويكفرون ويمسدون فى الأرض ؟ طبع كما نعلم من القرآن الكريم ، فإن الدرية ستعود إلى الكفر والظلم ، هيبث الله رسولا جديداً ليعيدهم إلى الإيمان ، ويهلك الله الكافرين ، وهذه العملية متكررة سببها العقلة وعبادة الدي وطمع الإنسان ونسيانه حساب الله الذى ينتظره يوم القيامة .

نهاية الطوفان .. وعودة مقومات الحياة

بعد أن تم ما قصي الله تعالى وقدره قال سبحانه وتعالى : ﴿فَلْ نَسُوحْ أَمِيطْ يَسْكُنْ مَبَّ وَبَرَكَتْ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ [هود : ٤٨] ﴿أَمِيطْ يَسْكُنْ﴾ . أى . انزل من السفينة لتباشر مهمتك الإيمانية فى أرض فيها مقومات الحياة التى حملتها معك فى السفينة من كل روحين اثنين وفيها المؤمنون كلهم ، وقد شهدوا طوفانا سيظل فى بالهم حينما يرون أنهم وحدهم الناجون منه ، وقوله تعالى : ﴿أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ لأن نوحا حمل معه فى السفينة من كل أم الأرض روحين اثنين ، وهذه الأمم هى الوحوش والحيوانات والحشرات والطيور والدواب وغير ذلك ، ولكن الأمة الأساسية التى حملها نوح فى السفينة هى بنى الإنسان ، أما باقى الأمم فهى تخدم الإنسان فى الأرض ، ونوح فى هذا له مقومات الحياة على الأرض ، لأنه

لا يوجد على الأرض ساعة هبوط نوح ومن في سميته إلا المؤمنون أما الكافرون فقد أعزتهم الطوفان .

وقوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ . أى بأس واصفان ؛ لأنه لا يوجد على الأرض إلا للمؤمنين ، ولم يعد هناك من الكافرين من يعص عليه أمره ؛ بل إن كل من عدك شاهدوا صبح الله تعالى وهو يحبك ويحبهم من الفرق والموت . وقوله تعالى . ﴿وَرَكَّبْتَ﴾ أى أن البركة ستكون لك في العطاء ؛ لأن معنى البركة أن يعطى الشيء أكثر مما هو متوقع منه ، فإذا أحصرت العداء لاثني وحاءك صيوف فجأة ، فأكلوا حتى شبعوا ، تقول هذا طعام سارك . ونوح معه من كل زوجين اثنين سيتكاثرون بسرعة ويمتلئون المكان .

ثم يقول الحق : ﴿وَأَمَّمُ سَمِيعَهُمْ ثُمَّ يَسْأَلُهُم مَّا عَذَابُ الْيَوْمِ﴾ [هود ٤٨] . أى أن الأمم التي معك سيدخلون الجنة ، ثم بعد ذلك تأتي الأجيال التي بعدهم وتطأ أفعاله على قلوبهم فيقلبوا كافرين .

إذن . فالعملة تنسج كالحصير عوداً عوداً ، تأتي يعود أولاً ، ثم الثاني فالثالث ، وهكذا كلما يرداد عوداً تريد رفعة العملة ، فأما قلب أشربها أى دخلت فيه دحولاً تائها وحلت منه محل الشراب وأحبها كما قال تعالى : ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْوَعْلَ﴾ [البقرة ٩٣] . أى حب العجل ، والمعنى : أن الرجل إذا أشبع هواه وارتكب المعاصي وأحاطت به خطيئته خرج من قلبه نور الإسلام ، والقلب مثل الكوب إذا انكب انصب ما فيه ولم يدحه شيء بعد ذلك فلا يعرف معروفاً ولا يكر مكرراً ، فنعود بالله من أثر فنة العملة على القلوب .

قول الحق ﴿وَعَلَى أُمُورِكُمْ مَعَالِكُ وَأَمَّمُ سَمِيعَهُمْ ثُمَّ يَسْأَلُهُم مَّا عَذَابُ الْيَوْمِ﴾ [هود ٤٨] ، ﴿نَمِيعَهُمْ قَلِيلًا﴾ [لقمان ٢٤] المقصود وهو متاع الدنيا ، ثم بعد ذلك العذاب في الآخرة ، والعملة تأتي جيلاً بعد جيل وهي على طريقتين . إما أن تكون عملة الإنسان نفسه ، أو تحلينه للعاصيين من قبله .

ذكر قصة نبي الله هود عليه السلام

يقول الحق جل جلاله: ﴿وَلَمَّا عَادَ أَصْحَابُ هُودَ﴾ [هود ٥٠] رسول جديد جاء بعد أن عم فساد ذرية الدين نجماهم الله مع نوح ، فاحرقوا من المنهج ، والرسول لا يأتي إلا عندما يعم الفساد ، فلا يوجد من يصلح ؛ لأن الله تعالى لا يعث الرسل إلا إذا لم يوجد في الأمة كلها من يرفع كلمة الله ، وغلت من دعوة من سبق من الرسل ؛ لأن المناعة الإيمانية في النفس البشرية قد توجد مناعة دائية لم تحدثه نفسه بالانحراف ، فيعود إلى ربه ، وهذه هي النفس النوامة ، ولكن إذا لم توجد هناك مناعة في المجتمع ، لا من أهله ولا من القريين منهم الذين قد يصحبونهم ، أي أن المناعة لا تتوافر لا من داته ولا من مجتمعه ، فلابد أن تقوم حجة الله تعالى على الناس برسول جديد وبرهان جديد .

بعد نوح حدث الانحراف وعرق فيه المجتمع كله ، فأرسل الله تعالى هوداً إلى قومه عاد ، والحق تبارك وتعالى يقول . ﴿لَمَّا هُودًا﴾ ومادام أحاهم . فإنه لا يريد لهم إلا حيراً ، ومادام أحاهم يكون مأموناً على ما يقول ، ماذا قال هود لقومه ؟ ﴿قَالَ يَبْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرِكُونَ﴾ ولم يقل هود هذا الكلام إلا لأن الفساد قد عم ، وجعلوا لله شركاء ، واتروا على الله كذباً أي تعبدوا الكذب على الله . ومادام أنه لا إله إلا الله . فلا تراء الذي افتروه هو أنهم اتحدوا غير الله إلهاً ، ثم قال هود : ﴿يَبْقُورِ لَا أَتَنكَّرُ عَلَيْهِمْ أَجْرًا﴾ [هود ٥١] . لأن الذي قد يتبعكم أنني أعطيتكم مهجاً وأطلب ما لا عليه كأجر ، ولكني لن أجد أجراً ، ومادمت لن أحد منكم أجراً فلا توجد مشقة في اتباع ما أقول ، وقال هود . إني لن آخذ منكم أجراً لا لأنني خفي ، ولكني أريد أجرى من أرسى وهو الله سبحانه وتعالى .

واقراً قوله جل جلاله . ﴿يَبْقُورِ لَا أَتَنكَّرُ عَلَيْهِمْ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ يَطَّرَنِي﴾ [هود ٥١] أي خلقي معذراً لهذه الرسالة ، فالعطرة هنا تعني التكوين الأساسي لهود بأن يكون رسولاً وأن يُعَذَّبَ لي سبب كل به ، وقوله تعالى ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي ألا تستخدموا عقولكم وأن لا أطلب أجراً مقابل المنفعة ، لأنك إما أن تأخذ أجر الشيء شراءً وبيعاً ، وإما أن تتمع به مقابل إيجار ، أي إما أن تأخذه تمليكاً وإما إيجاراً ومادامت قد جاءت كلمة

﴿أَجْرًا﴾ فكان هود يقول لهم : كان من الواجب عليكم أن تدفعوا لى أجرًا ، لأننى سأقدم لكم ما ينفعكم فى دياركم وأحرثكم ، والأجر يكون مقابل المنفعة ، ولما كنت أعطيتكم منفعة فى الدنيا والآخرة ، كان الواجب أن يكون الأجر عليها كثيرًا ، ولكنى لم أطلب منكم ﴿إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ ؛ لأنه هو وحده القادر على أن يعطينى الأجر ، أما أنتم فلا تقدرون على الأجر الكبير الذى أستحقه .

ثم يقول الحق تعالى ﴿وَنَقُورٍ أَسْتَغْوِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ ثَوُّوا إِلَيْهِ﴾ [هود ٥٢] . الاستغفار طلب المغفرة من ذنب وقع ، والتوبة هى الرجوع إلى الله وعدم العودة للذنب أبدًا ، والاستغفار مما فات ، والتوبة هى عدم الإتيان بذنب جديد . يقول الحق تبارك وتعالى ﴿وَنَقُورٍ أَسْتَغْوِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ ثَوُّوا إِلَيْهِ يَرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَبَرْذَكُمُ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مَحْرَمِيكَ﴾ فالإنسان حين يطلب العفوة من الله ، ويتوب ويتعد عن الذنوب يغفر له الله تعالى ، ويتقبل توبته ، ولكن الإنسان لأنه يعيش حياة رتيبة كل شيء مسحر لخدمته ؛ الأرض تبت له الررع ، والسماء تمطر له الماء ، والحيوان يخدمه فى الكرن .. هذه النعم قد تُنسيك واهب النعمة .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا مَحْرَمِيكَ﴾ . فحس إن تولبنا نكون قد أجرمنا فى حق أنفسنا ، لأن إحرام العبد إنما يعود عليه ، فلا تظن أن كفر العبد ومعصيته يعود على أحد إلا على نفسه . فهو الذى يشقى فى الدنيا ، ويخلد فى العذاب فى الآخرة .

كان هذا ما قاله هود لقومه ، فردوا عليه بقولهم ، كما يروى لنا القرآن الكريم : ﴿قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَاتٍ﴾ [هود ٥٣] أى لم تأتنا بمعجزة دالة على صدق رسالتك الله سبحانه وتعالى لم يذكر لنا فى القرآن الكريم ماذا كانت معجزة هود ، ولكنه ذكر لنا المعجزة فى قوم صالح وهى الناقة ، والمعجزة فى قوم نوح وهى الطوفان . كل رسول ذكر له معجزة .. موسى مثلاً شق البحر بعصاه ، وإبراهيم ألقى فى النار فلم تحرقه ، وعيسى أحيا الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص بإذن الله .

وقولهم : ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا﴾ [هود ٥٣] وهكذا يسمون الإله الذى يعبدونه آلهة . وهذا مردود عليه بالقياس والمنطق ، لأنها مادامت آلهة فلا بد أن يكون لها مذهب عبادة ،

تقول : افعل كلنا ولا تفعل كلنا .. فما هو مهج الأصنام ؟ إذن فهي آلهة بلا مهج ، ولا توجد عبادة بلا مهج ، إنهم يعتقدون أن هذه الأصنام تصر وتنم ؛ لأن هذه ديانة سهنة ، فالآلهة التي ليس لها أوامر تكليفية تتركك لتتبع شهواتك كما تشاء ، وهذا هو الدين الذي يتصاه الكفار ، [يريدون ديناً لا] يجمعهم من شيء ، وفي نفس الوقت يدعون أنهم مؤمنون ولهم آلهة ، وذلك ضد الفطرة ، لأن الفطرة لا تعبد إلا إلهاً له مهج وله قوة ، ولكنهم يعبدون آلهة لا تأخذ من شهواتهم . يقولون لهم : اشربوا الخمر ، واعملوا الفاحشة ، واسرقوا أموال الناس ، واطلموا . فلا دنس عليكم . ولذلك فإن كثيراً من المنفعين الذين اعتنقوا الباطنية والبهائية والقاديانية لا يقدرون شهواتهم ؛ بل يتركون لها العاد لتعمل ما تشاء ، ويدعون في نفس الوقت أنهم متديون ؛ ولا يمكن أن يستقيم مثل هذا الدين .

وقولهم : ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوْرَةٍ﴾ : إِنْ : هنا بمعنى المهي ، و«إِلَّا» أداة استثناء . إِنْ فلا بد أن يوجد مستثنى منه ، ومستثنى نقول : جاء القوم إلا ريد . المستثنى منه «القوم» ، و«ريد» هو المستثنى ، ومعنى قوله تعالى : ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوْرَةٍ﴾ أى ما نقول إلا هذا القول ؛ لأنك سمعت آلهتها وأبطلت ألوهيتهم ، فعصوا عيك وأصابوك بالسوء أى بالجنون .

فقال لهم هود **الطَّيْرَةَ** ﴿إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ إِلَهَ بَرِيٍّ وَمَا تَشْرِكُونَ﴾ * مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُوِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ﴾ [هود ٥٤، ٥٥] هود **الطَّيْرَةَ** أشهد الله وأشهدهم بأنه برىء مما يشركون من دون الله ، ثم تحداهم فقال : ﴿مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُوِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ﴾ وهذه هي معجزة هود ، أنه تحداهم وهو واحد وهم كثرة طاغية متجبرة وقال لهم . ﴿فَكَيْدُوِي جَمِيعًا﴾ وأنا معي قلة صعبة ، وأنتم أقرباء جابرة ، ورغم هذا هل تستطيعوا أن تسميوني بسوء هذه معجزة هود ، في أنه تحدى ، ولا يوجد أحد يجارف بحياته وحياة المؤمنين بكلمة ، ولكنه قالها لهم اقتنوبى ولا تنتظروا إن كنتم تستطيعون . وهود في هذا مستند إلى قوة الله تعالى وقدرته ، وهو الذى يستطيع أن يحميه ؛ لأنه قادر قهار ، ولا إله إلا هو ، فلا يوجد إله آخر .

ولذلك قال هود كما يروى لنا القرآن الكريم: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا أَهْوَأُ أَجْلًا بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود ٥٦] قال هود لغومه: إنه توكل على الله تعالى الذي لم يملك

الكفار مهما كانت قوتهم وطغيانهم، لن يَكُفَّهُمْ عَنْهُ، وما من دابة إلا هو أحد باصيتها، إذ
مكن ما يذب على الأرض وله حركة، الله تعالى أحد باصيته والناصية هي مقدم الرأس
والشعر الأمامي منها، عندما تريد أن تُهَيِّئَ أَحَدًا تَمْسُكُهُ من مقدمة رأسه؛ ولذلك يقول الحق:
﴿يَعْرِفُ الْمُخْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَفْئَامِ﴾ [الرعد: ٢٦]. الناصية التي هي مكان
الفكر والشرف هي مقدمة الرأس.

وقال لهم : ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود : ٥٦] . ولم يقل : إني ربكم على صراط مستقيم . لماذا اختلف السياق ؟ فعندما ذكرت السيطرة قال : ﴿رَبِّي وَرَبُّكُمْ مَّا مِنْ دَاخِلِ إِلَّا هُوَ ۚ اجْعَلْ يَمِينِيًّا﴾ أي أن الله تعالى مسيطر على الكون كله ؛ لذلك قال ﴿رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ . لأنكم وإن كنتم كافرين لا تستطيعون أن تحالفوا مراد الله في كونه في القهر والقدرة فهو سبحانه لا يفت منه شيء ، أما قوله : ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ . لأن الصراط المستقيم هو طريق الله تعالى وحده ، أما آلهتهم فليس لها صراط ولا استقامة ولا أي شيء ، ولكن الله يقصى بالعدل ولا يستحجم القهر في الظلم .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿يَا تَوَلَّوْا فَقَدْ أَنفَضْنَا مَا أَرْسَلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ . فإن تولوا .
هو خطاب للكافرين ومعناه : إن تتوبوا ، وفي اللعبة إذا ابتدأ فعل بتاءين ، يقتصر فيه على تاء
واحدة ، أى أنهم عندما سمعوا كلام هود يتحداهم فى أن يقتلوه ، ويحذرهم بأنهم لن
يستطيعوا ، ولو استعانوا بكل ما يذب على الأرض لم يكن لهم حيلة ليردوا ، أحسوا بضعفهم
وهم كثرة ، وبلذتهم وهم وجهاء القوم .

فَقَرُّوْا اَنْ يَنْصَرِفُوْا عَجْزًا مِنْهُمْ ، وَلَكِنْ مِهْمَةُ الْبَلَاغِ كَانَتْ قَدْ تَمَّتْ ، وَابْلَغَ هُوْدُ قَوْمَهُ مَا اُرْسَاهُ اللّٰهُ تَعَالٰى بِهِ اِلَيْهِمْ ، اِذَنْ فَلَا عِزَّ لَهُمْ اِنْ بَرَلَ عَلَيْهِمْ عَصَبُ اللّٰهِ سَبْحَانَهُ وَتَعَالٰى ، فَاِنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ يَقُوْلُ : ﴿ ذٰلِكَ اَنْ لَّمْ يَكُنْ رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْفَرَقِ يَظْلِمُ وَاَهْلُهَا عَاقِلُوْنَ ﴾ (الْاَنْعَامُ ١٣٩) اِذَنْ .. فَقَدْ بَلَّغَهُمْ هُوْدُ رِسَالَةَ اللّٰهِ تَعَالٰى ، وَهَذَا يَعْنِيْ اَنْهُمْ اُسْرُوا وَيُلْعَوُا .

وبعد ذلك يقول الحق : ﴿ وَتَسْتَخِفُّ رَبِّي قَوْمًا عَبَرُكُ ﴾ [هود ٥٧] . أى أن الله سبحانه وتعالى سيهينكم ويأتى بقوم غيركم مؤمنين ، والخلافة هنا أن يأتى قوم حلقاً لقوم ، أى بعدهم والحق تبارك وتعالى يقول ﴿ غَلَبَ مِنْ بَيْنِهِمْ حَلَفٌ فَأَسْعِثُوا الْقِسْلَ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي هُوَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام ١٠١] . أى أن الله تعالى قد علم ما بينكم من حلف فليجعله سبباً لثقتكم بغيركم .

الشَّهَوَاتِ مَسَوَفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا [مرم ٥٩] ، ﴿هَآأَنَآ هَآؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُشْفِقُوا عَلَىٰ مَسِيحِينَ آلِهَةٍ فَمَسَّكُمْ مِمَّنْ يَسْجُلُ وَمَنْ يَسْجُلْ فَإِنَّمَا يَحْمِلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴾ [محمد ٣٨] وقوله تعالى : ﴿وَلَا تُصْرِفُهُمْ شَيْئًا﴾ [هود ٥٧] . لأن عبادة الناس لا تمنع الله جل جلاله ، ولا عصيائهم بصره . وقوله عز وجل : ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَافِظٌ﴾ . أي رقيب على كل أمور كونه ؛ لأنه يوم . الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ شُعَبِيًّا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ رَحِمَهُ قِسًا﴾ [هود ٥٨] فعندما تسمع قوله تعالى . ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ تعرف أن هناك أمرا ، وأمرا مطاعا سعيدا ، والآن حات ساعة التنفيذ ويكون ذلك بمجرد صدور الأمر من الله ، لأن الكون يأتمر بأمره .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ شُعَبِيًّا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ رَحِمَهُ قِسًا﴾ إياك أن تقول كيف ينجي الله عددا من الناس من عذاب عام جامع ؟ بقول : إنه سبحانه وتعالى يقول : ﴿رَحِمَهُ قِسًا﴾ أي أن الله لا يمس المؤمنين برحمة الله تعالى . وقوله تعالى : ﴿وَنَحْنُ نَعْتَبُهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود ٥٨] . إذن فهناك نجاتان : النجاة الأولى : من عذاب الريح الصرصر ، والنجاة الثانية : من العذاب الغليظ الذي ينتظرهم في الآخرة . ولكن لماذا غليظ ؟ لأن العظيمة تعطيا مفهوم الشدة والقوة ، والعذاب في الدنيا موقوت بفترات الدنيا ورمها وعمرها فيها ، ولكن عذاب الآخرة بلا نهاية .

إذن . عندما جاء أمر الله نجي هودا والذين آمنوا معه بالرحمة ، ثم نجاهم من العذاب الغليظ في الآخرة ، وكأن نجاهم من عذاب الدنيا الموقوت بشارة ومقدمة أنهم سيحسون أيضا من العذاب الغليظ في الآخرة .

منهج الأنبياء عليهم السلام واحد

يقول الحق : ﴿وَلِإِنِّي عَلِيمٌ هُودًا قَالَ يَتَقَوَّمُ عِبْدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ إِلَهِ عِبْرَةٍ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف ٦٥] وعندما سمع : ﴿وَلِإِنِّي عَلِيمٌ هُودًا﴾ فإن كلمة أحاهم تدنا على معان كثيرة ، أولا أنه من جسدكم ولغته من لغتهم ، وعاش معهم وهم يعرفونه جيدا ، هذا هو الأنس بالرسول ، لأنه لو كان أجيب عنهم لقالوا : جاء أجنبي يحاول أن يأخذ السيادة عنينا ،

قصص الأنبياء ﷺ

ولو جاء بغير لغتهم لما تمكن من الحديث معهم ، ولكن هناك بعض الآراء التي تقول : إن هوداً لم يكن من قوم عاد .

نقول : إن الأخوة نوحان - أحرة من الأب القريب ، وأخوة من الأب البعيد وهو آدم .

وإذا عدنا إلى قصة نوح نجد أنها متفقة من حيث البداية مع قصة هود ، فالحق يقول

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [الأعراف : ٥٩] وهذا أول اتفاق .. نوح إلى قومه وهود إلى

قومه ، ماذا قال نوح لقومه ؟ ﴿فَقَالَ يَنْفُورِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ بَيْنَ اللَّهِ وَغَيْرِهِ﴾ [الأعراف : ٥٩]

ومادا قال هود : ﴿قَالَ يَنْفُورِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ بَيْنَ اللَّهِ وَغَيْرِهِ﴾ الخلاف فقط في أنه في نوح

قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَقَالَ﴾ وفي هود : ﴿قَالَ﴾ بدون العاء ، وهذا اختلاف لا يثبت

له الكثيرون ، ولكنه دقة في الأداء القرآني ؛ لأن المتكلم هو الله ، الفاء هنا في رسالة نوح تقتضي

التعقيب ، أي كلما أتاه جبريل بوحي يبلعه لهم ، وتعيد الإلحاح .. وهذا ما تبينه سورة « نوح »

في إلحاحه على قومه بدعوتهم للإيمان ؛ ولذلك يقول الحق عن نوح - ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي

لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح : ٥] .

أنني بعد ذلك إلى تشابه الأسس الثابتة في الدعوة إلى الله ومنهجها ، نوح عليه السلام قال :

﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ بَيْنَ اللَّهِ وَغَيْرِهِ﴾ [إِنْ أَصَافَ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ] وهود عليه السلام قال :

﴿يَنْفُورِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ بَيْنَ اللَّهِ وَغَيْرِهِ﴾ [أَفَلَا تَنْفُورُونَ] [الأعراف : ٦٥] فكان هناك أسس ثابتة

لسبح اله ، أولها لا إله إلا الله ، كل الرسل جاءوا ليسمعوا البشرية بهذه الحقيقة ، ولكن هوداً لم

يقُل : ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ولكنه قال ﴿أَفَلَا تَنْفُورُونَ﴾ نقول : إن نوحاً كان

أول الرسل بعد آدم ، ولذلك أعلمه الله تعالى بما ينتظر الكافرين من عذاب ، وبأن الله سيهلكهم

حتى ينذر قومه بالعلاب الذي سيأتيهم .

وفي قصة نوح قال الحق سبحانه وتعالى . ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِي إِنَّا لَنَرُّكَ فِي صَبْلٍ

ثُمَّ يَمِينٍ﴾ [الأعراف : ٦٠] . وفي قصة هود : ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِي إِنْكَا لَنَرُّنَكَ

فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف : ٦٦] . ذلك لأن نوحاً حينما بدأ يبلع رسالته للناس لم يكن هناك مؤمن

واحد في قومه ، أما قوم هود فقد كان لهم هي قصة نوح وقومه بعبدة ، فعندما أبلع رسالته آمن

معه في الحال عدد من قومه ، ويقال إن الذي آمن معه واحد فقط ، اسمه ابن سعد ، ولهذا

حدث الاختلاف في السياق ، على أننا نلاحظ أن جواب قوم نوح اختلف عن جواب قوم

هود، فقوم نوح قالوا ﴿إِنَّا لَنَرِيكَ فِي صَلَاتٍ ثَبِيثٍ﴾ . وقوم هود قالوا : ﴿إِنَّا لَنَرِيكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ الضلال هو ابتعد عن الحق ، والسفاهة هي الطيش والحفة .
وأضاف قوم هود . ﴿وَأِنَّا لَنُطَّئِقُ مِنكَ الْكَذِبَ﴾ . والظن إما أن يكون عدم يقين ، بمعنى : ولكننا نرجح أنك من الكاذبين ، وإما أن يكون يقيناً مصداقاً لقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَطْمَنُونَ أَنَّهُمْ مُّلتَفِقُوا رِيبَهُمْ﴾ [البقرة : ٤٦] . ولكن الظن هنا في هذه الآية معناه أن الكافرين من قوم هود يقولون : إننا نرجح أنك من الكاذبين .

ماذا كان رد نوح وهود ؟ نوح قال : ﴿يَنْقُورُ لَيْسَ فِي صَلَاةٍ وَلَكِنَّ رَسُولَ رَبِّ الْمَلَائِكَةِ﴾ [الأعراف : ٦١] وهود قال : ﴿يَنْقُورُ لَيْسَ فِي سَفَاهَةٍ وَلَكِنَّ رَسُولَ رَبِّ الْمَلَائِكَةِ﴾ [الأعراف : ٦٢] . ونوح قال ﴿أَتُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف : ٦٢] . وهود قال ﴿أَتُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف : ٦٨] الفرق هنا أن نوح قال : ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ وهود قال : ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ ما هو الفرق ؟ يقول : إن الفعل يدل على التجدد والاسم يدل على الثبوت ، ونوح في إلحاحه على قومه بيلاً ، وبهازاً ، وجهراً ، وسراً كان متجدد الدعوة ؛ وهود كان ثبت الدعوة ، ولذلك استحلهم مع نوح الفعل ﴿وَأَنْصَحُ﴾ ، ومع هود الاسم « ناصح » على أننا نلاحظ أن « لَكُمْ » موجودة في قول هود وهذا يفيد أن كل رسالات الأنبياء هي لصالح البشر .

ونعني في المقارنة ، قول نوح ﷺ . ﴿أَوْ عَجِثُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رِجْلٍ مِّمَّنْ يُدْرِكُكُم وَلِتَلْقُوا لَعْنَكُمْ زُرْهُونَ﴾ [الأعراف : ٦٣] . وهود قال : ﴿أَوْ عَجِثُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رِجْلٍ مِّمَّنْ يُدْرِكُكُم وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَرَادَّكُمْ فِي الْخَلْقِ بِضَلَّةٍ﴾ [الأعراف : ٦٩] نجد أن تعجب القوم من رسالات السماء واحد ، مع أننا كما بينا أن رسالات السماء تقتضيها فطرة الإيمان ، على أن الخلاف هنا أن الحق في قول نوح قال : ﴿وَلِتَلْقُوا لَعْنَكُمْ زُرْهُونَ﴾ وفي قول هود لم يقل : لتسقوا ؛ بل قال فقطع ﴿يُسْذِرُكُمْ﴾ نقول : إنه في قوم نوح لم تكن هناك سابقة عذاب ، فكان لا بد أن ينبه نوح قومه أن يجتمعوا بينهم وبين عذاب الله وقاية ، ولكن في سورة هود « كان العذاب قد وقع .
ولذلك أنذرهم هود بأن ذكرهم بالعذاب الذي وقع ، فكان قوم هود وهم حلماة لقوم نوح

كان لابد أن يتذكروا ما حدث لقوم نوح ويأخذوا منه العبرة ، وكان ذلك أقوى من أن يطلب منهم أن يتقوا العذاب ، دون أن يشير إلى سابقة حدثت فعلا لتجعلهم يتأكدون أن هذا العذاب واقع .

ثم بعد ذلك ذكر هود قومه برحمة الله تعالى عليهم وبعمه ، وفي هذا يقول الحق . ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وهكذا يذكر هود قومه بعم الله تعالى عليهم أنه أعطاهم الأرض من بعد نوح ، وأعطاهم أحسانا نادرة قوية ، وأعطاهم من النعم والخير الكثير ، وكان يجب أن يشكروا الله تعالى على كل هذه النعم ، ولكنهم بدلًا من الشكر واجهوا هودًا بموقف عجيب ، يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَنَحْذَرُ﴾ [الأعراف ٧٠] . فكانهم أولاً رفضوا حقيقة الوجدانية لله تعالى وهو أساس رسالات الله إلى أنبيائه ، وقالوا : لا نعبد الله وحده . فكانهم اعترفوا بالأكوهية لله ، ولكنهم يريدون شركاء من صنعهم ، يريدون أصنامًا ليعبدوها ليجعلوا معها شركاء لله ، وهؤلاء الشركاء لا حول لهم ولا قوة ، ولا نفع لهم ولا ضرر ، حتى إن الصسم إذا سقط على الأرض احتاج لمن يصلحه .

لماذا انتشرت حضرة عاد ؟

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [إشعراء ١٢٣ ، ١٢٥] لأن تكذيب رسولهم يعتبر تكديتًا لكل الرسل في القضايا المتفق عليها من العقائد والأخلاق ، والذي يتغير هو المسائل التي تناسب البيئات والمجتمعات ، وعاد كانت قبيلة ، والقبائل تنسب عادة إلى الأب صاحب الشهرة والنبالة ، صاد كان أبًا لهذه القبيلة ، وقد يطلق على القبيلة «بنو فلان» أو «آل فلان» فهذا التكذيب من قوم عاد حدث عندما جاءهم أخوهم هود بدعوة من عند الله تعالى ، وقال لهم : ﴿آلَا نُنْفِثُ﴾ كأنه يكر عليهم عدم تقواهم لله وهذا معه ، أنه يطلب منهم أن يتقوا الله ، ويقول لهم مستنكرًا معهم : ﴿أَنُؤْنِسُ يَكُلُ رِيحَ عَائِيَةِ نَفْثُونَ﴾ [الشعراء ١٢٨ ، ١٢٩] . الريح هو المكان المرتفع ، والآية في الباء : أنهم كانوا يسون قصورًا آية في الإبداع والنس ، والعمارة والتشييد ، والخرقة والمعامة ، والامتساع والعلو ، ويقيمون

المصانع والبناني الصحيحة كأنهم مخلدود في هذه الدنيا، هذه القصة وصحتها سورة « الفجر »، فنحن في مصر لا نعرف عن عمارة عاد وحضارتهم شيئاً، ولكن نعرف الكثير عن حضارة فرعون، ونشاهد الأهرامات التي يوها كمقابر وذلك لأسما مصريون، ولارالت حتى الآن نبهر عقول العالم كله، ونعجز دول الحضارة الحديثة عن تفسير ألعارها، حتى إن العلماء العالميين احتاروا في معرفة كيفية بناء حجارة الأهرام بدون مواد البناء، وأحيراً اهتموا إلى أن هذا تم بتفريغ الهواء، لأن مواد البناء عبارة عن طبقة طرية تملأ الفراغ بين الأحجار أو السبات وتعرعه من الهواء.

ولكن هذه الحضارة العجيبة حين نقارنها بحضارة عاد نجد أنها دونها؛ لأن الله تعالى عندما تكلم عن حضارة عاد قال: ﴿الَّتِي تَمْ يَخْطَقُ بِمِثْلُهَا فِي الْبَلَدِ﴾ [الفجر ٨] فكان حضارة المراعنة لا تذكر بالنسبة لها، ربما يقول شخص ما حضارة عاد هذه في رمال الأحقاف بالقرب من حصر موت في جنوب الجزيرة العربية، التي يسمونها الربع الخالي، فأى حضارة في هذه الجبال والرمال؟ نقول له: هذه الرمال أمر طراً على هذه الحضارة فغطاها، بعد أن كان فيها زروع ونمار وأشجار؛ ولذلك يتأكد الإنسان حين يسمع أن إحدى القبائل حاوت أن تذهب إلى هناك، فهبت عليها عاصفة من الرمن طمرت القبيلة كلها، بجمالها ورجالها وسائنها وحيواناتها

وقوله: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيحٍ مَّأْيَةً تَنْشُونَ﴾ نحن لم نشاهد هذه المباني ولا يوجد الآن في هذه الأماكن إلا رمال الصحراء، وهذه انباني كلها مطمورة. والريبع: هو المكان المرتفع، ويطلق على لارتفاع في كل شيء ريع؛ ولذلك حين يقيمون عمارة أو أرضاً يقولون: كم ريعها؟ والمعنى أتبنون بكل مكان مرتفع أية في المعمار؟ أى شيئاً عجيباً، فهم لا يسون مجرد بيوت تقيهم حر الصيف وبرد الشتاء، ولكنهم يتعشون ويتكهنون في الباء فوق الحاجة وفوق المسكر، ويسون هذه الأشياء للعبث وصد الناس عن الإيمان بالرسول الذي بعث الله إليهم، فكابوا ينون شرفة عالية تكشف كل المنطقة المحيطة بمكان الرسول حتى يروا الناس عند دهابهم إليه فيصدوهم عنه، فهذا من العبث؛ لأنهم يصنون الدين يأتون الرسول ليسمعوا منه كلاماً يلقتهم إلى مهيج الحر. والآية تطلق على كل شيء فاق الجمال والصحامة والدقة.

وقوله تعالى: ﴿وَتَنْشِيدُونَ مَصْنِيعَ لَعَلَّكُمْ تَحْمِلُون﴾. المصانع تطلق على موارد الماء،

وتطلب على الحصون لأنها تحتاج إلى بناء وصمة غير عادية ؛ لأنها لا تبني للإبراء الذي يحصى الإنسان من هموم الحياة العادية فقط ، ولكن الحصون تحمي الإنسان من الأعداء الشرسين الذين يهددونه ، فهم كانوا يسون هذه الحصون ويبالغون فيها كأنهم سيخلدون في هذه الدنيا ، مع أنها في الواقع دار عمر وليست دار مقر ، والإنسان فيها كراكب استظل تحت شجرة ثم رح عنها وتركها . وقوله تعالى ﴿ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ [الشعراء : ١٣٠] . البطش هو الأخذ بعصف ، ولذلك يقول ربنا سبحانه : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [الروح : ١٢] فهم يبطشون بعصف وجبروت أيص ، لأنك قد تأخذ عدوك بعصف ، ولكن بعد ذلك يرق نبلك لدلته لك ، فتخفف انتقامك منه ، ولكن قوم عاد كانوا يبطشون دون رحمة ؛ لأنهم جبارون .

فهؤلاء الناس كانت فيهم صفات ثلاث ، وردت في قول الله تعالى : ﴿ أَتَسْتَبِينَ بِكُلِّ بَيْعٍ مَّيَّةً تَبْتَغِي ﴾ [الشعراء : ١٢٨ - ١٣٠] كل هذه الصفات تخدم صفة واحدة هي الكبر والتعالي ، فهم يسون في العالی ، ويشيدون الحصون الضخمة كأنهم مخلدون في الدنيا ، وإذا بطشوا بطشوا بعصف ودون رحمة . فهم يريدون أن يأخذوا صفات تقر بهم من صفات الألوهية ؛ لأنه ليس أعلى من الحق ، كما أنهم يريدون أن يستديموا بهذه الصفات ؛ لأنهم يريدون علواً واستبقاء خلود ، ويبطشون متجبرين لأنهم يريدون التمرد على الغير ، وهذا مخالف لما يريد الله تعالى من عباده

إذن .. قوم عاد كانوا يريدون علواً وخلوداً أو استبقاء حياة وبعلظة دون رحمة ، ولكن من رحمة الله تعالى بالخلق أنهم كلما عفلوا عن مهج من سبق من الرسل يبعث الله لهم رسولاً يذكرهم بالمهج .

إذن .. هذا التوالي في إرسال الرسل يردوا على عملة الناس ، ويسهوه إلى اتباع منهج الله تعالى .

إذن .. هود عليه السلام يذكر قومه بأن من رحمة الله بهم أنه لم يتركهم على صلالهم وكفرهم ، ولكن الله تعالى أرسل إليهم رسولاً يذكرهم بالله ويردهم إلى مهجه ، ولذلك قال بهم : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ زَالِمِينَ * وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسْتَعِينُونَ ﴾ [الشعراء : ١٣١ ، ١٣٢] هذه

التقوى لله لن تذهب عنكم ما أعطاكم الله من أنعام وبير وجبات وعبود ؛ لأن الحسنات يدهن السيئات ، وليس العكس وأنا لا أطلب منكم أن تطيعوني لدات نفسي ، لأني لن أستفيد من إيمانكم شيقاً ، والله تعالى عسى عنكم ؛ لأنه سبحانه قبل أن يخلق الخلق كانت له صفة الكمال المطلق ، فهو تعالى لم يصح حائفاً بعد أن خلق ولا بالمقدور عليه صار قادراً ، ولكنه حائق قبل أن يوجد مخلوق ، وقادر قبل أن يوجد مقدور عليه ، فهذه الصفات له في ذاته قبل أن توجد متعاقباته ، وقال لهم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَعْتَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَذَّكُرُ بِأَنْتُمْ وَبَيْنَ ﴿١٣٣﴾ وَحَسْبُ وَعِبُودٍ﴾ [الشعراء ١٣٢ - ١٣٤] أي . اتقوا الله الذي أعطاكم كل هذه النعم التي تعرفونها مثل الصحة والعافية ، وأمدكم بألة لأن كل مدرك في الوجود له آلة تدركه بها ، فالعين ترى المناظر ، والأذن تسمع الأصوات ، والأنف يشم الروائح ، واليد تقصى بها المصالح والحوائج وتسلم بها وتلمس بها ، واللسان تتكلم به وتتذوق الأشياء ، والرجل تمشي بها وتذهب إلى المسجد وإلى مكان العمل .. إلخ . وفوق ذلك أمدكم بالإععام والبنين والحدايق وعبود الماء وبالأنعام : هي الضأن والمعر والإبل والبقر التي تأكلون لحومها ، وتشربون ألبانها ، وتنتعمون بأصوافها وأوبارها ، وتحملون عليها متاعكم وأنفسكم ، وأمدكم بالأرض الخضراء ذات الأشجار المثمرة والحدايق الغناء ، وحيون الماء التي تشربون منها وتسقون حيواناتكم ، كل هذه النعم كانت موجودة في جوب الجزيرة العربية قبل أن تعطيها الرمال ، وأنتم حين تطيعون الله تعالى وتنفقونه ، فأنتم [حينئذ] لا تشكروونه على نعمه فقط ، ولكن تجعلون لأنفسكم وقاية من عذاب يوم القيامة .

قال تعالى : ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء : ١٣٥] فلا تطبوا أنكم أنعمتم نعم الله تعالى وهرتم بها ؛ لا ، إنكم سترجعون إليه فيحاسبيكم على أعمالكم لأن لم تشكر السابق من النعم ، فحب اللاحق من النعم ، فماذا كان ردهم عليه ؟ قال تعالى : ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعظَمْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [الشعراء : ١٣٦ - ١٣٨] كلمة ﴿أَوَعظَمْتَ﴾ تدل على أن الحق يجرى على لسان المكابر ؛ لأن الوعظ ليس تعليماً ولكنه مرحلة تأتي بعد التعصيم ، فأنتم علمت الحكم وبكنك أهمالته ، فأنا أعطتك لتعمل به ، فالوعظ لك درس على أنك علمت المطلوب فعملت عه . فما كان من قومه إلا أن أعرضوا عما جاءهم به وأصبروا على كفرهم وصلالهم ، وقالوا

له إنهم لم يستجيبوا له سواء استمر في وعظه أو حتى إن لم يكن عنده وعظ بعضهم به ؛
والأمر يستوي عندهم ، فكأنهم لم يسمعوا ، فإدى بحس عليه الآن هو ﴿ خُلِقَ الْأَوَّلِينَ ﴾
بضم الحاء - بمعنى أخلاق الأولين ، وهناك قراءة تقول : (إن هذا إلا خلق الأولين) - بفتح
الحاء . احتلقوا هذا الكلام من عندهم وبحس لم يؤمن به ، أو أتوا وحدها آباء الأولين على هذا
الرضح ومسكون مثلهم ولم يؤمن بما تقول . وإن كانت كلمة ﴿ خُلِقَ ﴾ بمعنى الأخلاق
فالخلق صفة ترسخ في النفس تصدر عنها الأفعال يسر وسهولة . والصفات التي يكتسبها
الإنسان صفات لا تعطى مهارة من أول الأمر . بل تعطى مهارة بالتدريب ، فإذا كان عملاً
مدنياً يدوياً يقال : العنن بالنسبة له أصبح آلياً ، ومداوم صار كذلك فلن يتعب صاحبه ولا
يحتاج منه إلى تفكير .

فكذلك الخلق المعنوي مثل الآلية في المديات ، فمثلاً الإنسان حينما يرى شخصاً محتاجاً
يسأل الناس ، يحدث نفسه أن يعطيه شيئاً مما أعطاه الله ، وفي يادئ الأمر ربما سأل هذا المحتاح
عن طروقه وما هي حاجته ، ويتردد قبل أن يعطيه شيئاً ، وبعد ذلك تتأصل فيه صفة الكرم ،
فبعد ما يحد أحداً محتاجاً يعطيه دون أن يشعر به أحد ، كذلك الذي يتعلم الفقه مثل طلاب
الأزهر مثلاً ، إذا سأله عن حكم معين تجده يتذكر ما درسه في هذا الموضوع ويورد على عقله
ما يعرفه عن هذه المسألة ويستغرق وقتاً حتى يصل إلى الحكم ، ولكن بعد أن يدرسها تماماً
ويعقلها ويصبح ملئاً بتفاصيلها إذا سأله عنها يجيبك في الحان بأنها كذا وكذا ؛ لأنه تمرن
عليها وأصبحت آلية عنده .

فالخلق صفة ترسخ في النفس تصدر عنها الفعل يسر وسهولة ، فالرسول كلهم كانت
عندهم هذه الأخلاق ودعوا الناس إليها ، وكان كثير من الناس يكذبونهم ويصفونهم بشئ
الصفات ، ويرمونهم بشئ التهم ؛ من كذب وافتراء وسحر وجون .. إلخ . والأخلاق السيئة
كانت راسخة أيضاً عند الكافرين في كل العصور حجدهم دائماً يقولون : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا
عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّفْتَدُونَ ﴾ [الزخرف ٢٣] . وهذا كله جاء بعد تولد لهم : ﴿ أَوْعظت
أولئكم نكث من الأولين ﴾ [الشراء ١٣٦] : أي أن هذا أصبح خلقاً وعادة عندهم لم يحدوا
عنها ؛ لأنهم توارثوها عن آبائهم وأجدادهم وصارت صفة ملازمة لهم ، فهم عني كمرهم
ثابتون وبضلالهم متمسكون .

ثم يقول سبحانه ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [١٣٩، ٤٠] كان الحق تبارك وتعالى قبل الرسول محمد ﷺ، يؤيد الرسول بمعجزة ويجعله يبلغ منهجه إلى الناس لا يطلب منه أن يؤدب الناس، ولكن الله تعالى يتولى التأديب، لكن أمة محمد ﷺ أمت على نفسها هذا التأديب؛ لأن الله رحمها من عذاب الاستئصال الذي عاقب به الأمم السابقة، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كُنَّا اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأعراف ٣٣] فجعل الله تعالى من أمة محمد ﷺ مؤدباً لمن يخرج عن منهج الله ويتصدى لدعوة الحق، قال تعالى: ﴿فَتَنِيْلَهُمْ يَعْذِيبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَتُخْزِيهِمْ وَيَصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الشورى ١٤].

نفى الأمم السابقة كان القوم إذا كذبوا رسولهم وعاندوه يهلكهم الله. وكلمة ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ دليل صدقها في الوجود قائم في أماكن كثيرة، مثل إرم ذات العماد التي بدت حصارها لعمه ولم تستطع أن تصون نفسها من الهلاك والاندثار، وكذلك الحضرار التي تواردت في الكون ثم توجد من بينها حضارة ظلت طوال الدهر، فو كانت هذه الحضارات مبنية على قيم ثابتة، لا اكتسبت ماعة ضد الزوال، ولكن لأنها حضارة مادية ليس لها رصيد من القيم والأخلاق، أخذها الله تعالى أخذ عرير مقتدر، فتنتهى الحصار دون أن يعرف الناس حتى أسرارها وسر فوقها، قال تعالى: ﴿فِي ذَلِكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل ٥٢] ولذلك فإن الله تعالى يذكركم بهذه الحضارات التي أصابها الهلاك فيقول: ﴿وَلَا تَكْفُرْ أَكْثَرُكُمْ عَلَيْهِمْ مُّصِيبِينَ﴾ [١٣٨، ١٣٧] فأنتم أيها الناس لم تبصروا مثلما نبخ أصحاب هذه الحضارات التي أهلكها الله بظلمهم وكفرهم، فإذا كانت حضارتهم القوية المتقدمة لم تمنعهم من أخذ الله لهم، فعليكم أيها الناس أن تنبهوا وتعودوا إلى الله خاصة وأنكم أنس منهم حضارة وقوة حتى لا يكون مصيركم كمصيرهم، ومعنى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ الآية [الشعراء ١٣٩]. هي الشيء العظيم الملعن؛ لأن الحضارات التي قامت وبلغت هذه القمة في التقدم والقوة لم تستطع أن تحمي نفسها من اندثار مما يدل على أن الذي دمرها أقوى منها وأشد، فعلى الإنسان أن يأخذ من ذلك العبرة والعظة حتى لا يقع فيما وقعوا فيه

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء ١٤٠]. أى أن ربك الذى ربك وجعلك على هذه الدرجة من الإيمان والاستقامة هو وحده العزيز الذى لا يغلب ، لأن المربى تعظم منزلته فى الرتبة بمقدار كمال المربى . بتشديد الباء وفتحها . وكأن الله تعالى يقول : فأنا ربك الذى أكملت تربيتك وجعلتك على هذه القمة من الخلق والتربية ، فأنا رب عظيم . إذن المربى يبلغ القمة فى الرتبة إذا صار من رتبة عظيمًا ، ولذلك لم يقل ربهم وإنما قال . « ربك » . فالذى يريد أن يرى قدرة الربوبية يراها فى تربيتك أنت أيها الرسول ، ولذلك يروى أن الرسول ﷺ قال : « أدبني ربى فأحس تأديبي » . فكان الحق سبحانه وتعالى يعطى نموذجًا لدقة تربيته ولعظمة تكوينه لما يصنعه على يديه بمحمد لله ، وكان محمدًا ﷺ أكرم مخلوق مربي فى الأرض .

والعزيز هو الذى لا يغلب ، ومع ذلك فهو ليس بجبار ولكنه رحيم بعباده . ولذلك نقا : إن الإسلام يربى الأمة الإسلامية على ألا تحمد عد خصلة ولا عد خلق ولا عد طبع ، لأن كل طبع فى الإنسان له مهمة ، ولذلك قال تعالى فى صفات المؤمنين : ﴿أُولَئِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة ٥٤] . فالمسلم ليس مجبورًا على الدلة ولا على العزة ، وإنما الموقف يجعله دليلًا أو عزيزًا ، فمع المؤمنين تكون الدنة والخصوع ولين الجانب والرأفة والرحمة ، ومع الكافرين تكون العزة والشدة والقوة ، قال تعالى : ﴿ثُمَّ جَاءَ رَسُولٌ مِّنْهُم بِأَشَدِّ عَلَى الْكَافِرِينَ رُحْمًا يُبَسِّمُ﴾ [الفتح ٢٩] . فالمسلم ليس مطبوعًا على الشدة ولا على الرحمة ؛ لأن الرحمة فى غير موضعها تخوّر .

سبب وقوع الغضب على قوم هود ؟

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَنَحْذَرُ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [الأعراف ٧٠] أفصح قوم هود عن العلة فى شرهم ، وفى هذا هم مقلدون يقوم ضلوا عن الحقيقة ، فهم مقلدون لأبائهم ، وليسوا مقلدين عن اقتناع ، فلو أنهم ناقشوا المسألة مناقشة عقلية بسيطة لعرفوا أنهم فى ضلال . فالصم الذى لا يستطيع أن يسمع أو يضر نفسه ، لا يمكن أن يكون إلهًا يسمع أو يصر غيره ، وليتهم رفضوا النقاش فقط ، بل تحدوا وقالوا ﴿فَأَنبِئْنَا بِحَاثِرِ قُلُوبِنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف ٧٠] فكأنهم أعلقوا كل باب

للاقتناع وزادوا على ذلك بأن طلبوا العذاب من الله تعالى كما حدث لقوم نوح الذين يعرفون قصتهم جيدًا ، هم طلبوه بأقوامهم ، فماذا حدث ؟ قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَصَبٌ أَنْتَ حِدْلُوكُمْ فَبِتْ أَسْمَاءُ سَبَّيْتُوهُمَا أَنْتُمْ وَابْنَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهِمَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ [الأعراف - ٧١] فكانهم وهم يباغضون هودًا ويقولون : لن يعذب الله وحده . ويصرون على الشرك ويتحدونه أن يأتيهم بالعذاب ؛ جاء الخبر إلى هود بأنه قد وقع عليهم رجس وغضب من الله ، والرجس هو التقدير ضد التطهير ، فالشيء تركبه وتطهره ، فإذا جاء له رجس امتلأ بالقذارة ، وفي ذلك يقول الحق جل جلاله : ﴿ نَزَّادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ [التوبة - ١٢٥]

ولكن كيف يقال : إن العذاب قد وقع عليهم ، ووقع فعل ماض بينما العذاب سيأتيهم . أى أنه قادم فى المستقبل ؟

نقول : إن كلام الله سبحانه وتعالى مجرد عن الزمان ماضيًا وحاضرًا ومستقبلاً ، والله سبحانه وتعالى حين يقول : ﴿ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ ﴾ فكانه حدث فعلاً ، لأنه لا أحد يملك أن يمس قضاء الله ، فالله قادر على إنفاذ قضاؤه فى أى وقت ، فمتى قصى فقد حدث ، ولكن لماذا غضب الله عليهم وأنزل عليهم العذاب ؟

الجواب فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَنْتَ حِدْلُوكُمْ فَبِتْ أَسْمَاءُ سَبَّيْتُوهُمَا أَنْتُمْ وَابْنَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهِمَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ [الأعراف - ٧١] وهما تظهر لنا الكايرة من الكفرة ؛ ذلك أن هؤلاء الناس صنعوا أصنامًا ثم أطلقوا عليها أسماء من عندهم ، ثم قالوا : إنها آلهة ، مع أنها أسماء أطلقوها هم ، فكيف يصنع المخلوق إلها ثم يسميه ، ثم بعد ذلك يصر على عبادته ؟ ولو أن الله سبحانه وتعالى أنزل عليكم سلطانًا بهذا ربما كان لكم العذر ، ولكن ها هو رسول الله ينهاكم عن أن تفعلوا ذلك ، ولكنكم ترفضون وتتحدون !

إذن .. فقد استحق عليكم العذاب ، ﴿ فَانظُرُوا ﴾ أى انتظروا ما سيقع عليكم مستقبلاً من عذاب الله : ﴿ فَانظُرُوا إِلَى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ أى أن هودًا رسول الله سيقى معهم حتى يتحقق هذا العذاب ، ويأتى [هذا القول من هود عليه السلام] تحذيرًا لهم على ما سبق أن تحذروا به من الإصرار على الشرك وطب العذاب من الله ، ولكن إذا كان الحق قد قال : ﴿ قَدْ وَقَعَ ﴾

عَلَيْكُمْ» ثم يقول . ﴿فَأَنْطَرُوا﴾ أى أن الأمر لم يأت ولا بد لهم أن ينتظروا مجيئه ، يقول إن هذه الآية مثل قول الحق سبحانه وتعالى ﴿أَنزَلْنَا أَمْزُغَ الْوَقْدِ فَكَأَنَّ السَّجُودَ﴾ [النحل : ١٠] أى فعل ماض ، ولا نستعملوه أى أن رمى الفعل لم يأت بعد فلا تتعجلوا حدوثه ، يقول : إنه مادام الله سبحانه وتعالى قد قال . «أتى» فقد وقع فعلاً ، فمع أنه لم يظهر لكم إلا فى المستقبل ، إلا أنه قد وقع وانتهى ومسألة حدوث الفعل بكم مسألة واقعة لا محالة ، لأن قضاء الله تعالى - كما قلنا - لا يستطيع أن يجمعه أو يؤخره أو يؤجله أحد .

ويقص علينا الحق سبحانه وتعالى نهاية قوم هود بعد تكذيبهم وطغيانهم العذاب فيقول ﴿فَأَجْمِسْهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا ذَاوِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَائِلِينَ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف . ٧٢] ولكن الحق سبحانه وتعالى لم يذكر لنا وسيلة المحاكمة فى قصة هود كما ذكرها لنا فى قصة نوح حين قال ﴿فَأَجْمِسْهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِ﴾ [الأعراف : ٦٤] أى أن وسيلة محاكمة المؤمنين من قوم نوح كانت السفينة ، مما هى وسيلة محاكمة المؤمنين من قوم هود ؟ لقد كان العرب قديماً إذا أصابهم سوء يذهبون إلى الكعبة ليتضرعوا إلى الله ليذهب عنهم السوء ، وحتى الكفرة منهم كانوا يفعلون ذلك .

وعندما بدأ عذاب الله يصيب قوم هود أصابهم الجذب فلم تنبت الأرض فأسرع جماعة منهم إلى الكعبة وعلى رأسهم رجل اسمه القيس ورجل اسمه مرصد بن سعد وكان لهم أحوال يحكمون مكة من العماليق أولاد عمليق بن لاوثة بن سبأ ، فزلوا عندهم فأكرموا وقادتهم وجاءوا لهم بالطعام والشراب ومجالس الطرب ، وهؤلاء جاءوا من أرض جدباء ، فاستمروا هذه الضيافة وظلوا شهراً يأكلون ويشربون دون أن يذهبوا إلى الكعبة ، فتعجب معاوية بن بكر كبير العماليق من حالهم ، فهؤلاء الجماعة جاءوا ليقضوا قوتهم من الجذب ، ولكنهم نسوا ما جاءوا من أجله ولم يذهبوا إلى الكعبة ، وفكر معاوية كيف يلفت انتباههم لكي يذهبوا إلى الكعبة ، وفى نفس الوقت لا يقال إنه صاق درعاً بضيوفه . فتكون شبهة له بين العرب ، وكانت عند معاوية مغنيتان فأحبرهما بهذا الأمر ، فقالتا له - قل فى ذلك شعراً وحرر عنيه لهم فيذكروا ما جاءوا من أجله ؛ فعمل لهم شعراً يعرض لهم فيه وأمر المغنيتين أن تغنيهما به ، فقال .

ألا يا قبيل وبحرث قم فهيم لعل الله يبصيح حسا عمائم
مستقى قوم عاد إن عاد قد أمسوا لا يبيرون الكلام

ثم أكمل الآيات بأن قوم عاد أصابهم الجذب حتى فقدوا القدرة على الكلام فم عادوا يستلمعون كلاماً، وظلت المعينات تردان هذه الآيات حتى تنه القوم لما جاءوا له فانتبهوا إلى الكمية وجلسوا ينتهلون إلى الله أن يطرأ أرض عاد ، فسمع داعيهم وهو : قبي بن عتر هاتفاً يقول اختر لقومك . . . هناك سحابة سوداء وسحابة حمراء وسحابة بيضاء فأى سحابة تريد أن تذهب لقومك ؟ فاختار السحابة السوداء اعتقاداً منه أنها مادامت سوداء داكنة فلا بد أن تكون مليئة بالمطر ، وعاد ومن معه إلى قريتهم وأخبروهم بما حدث واختيارهم للسحابة السوداء ، فلما رأوا السحابة السوداء فادمة عليهم استبشروا وقالوا : جاءنا المطر . وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالَوا هَذَا عَارِضٌ مُّطَرًا﴾ [الأحقاف . ٢٤] . حينئذ يرد الحق سبحانه وتعالى عليهم : ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ رَّيْهَا فَاَصْبَحُوا لَا يَرِىْ اِلَّا مَسَكِنَهُمْ﴾ [الأحقاف . ٢٤ ، ٢٥] هذه هي قصة العذاب الذي حدث لعاد قوم هود .

أما كيفية نجاة هود والذين آمنوا معه ، فإنه حين رأى السحاب قادماً سمع هاتفاً يقول له : اخرج من هذا المكان فهذا السحاب فيه العذاب ، فأخذ جماعة المؤمنين وانطلق إلى مكة وعاش هناك إلى أن لقي الله عز وجل .

ذكر قصة نبي الله صالح عليه السلام

يقول الحق سبحانه وتعالى ﴿وَالَّذِينَ تَتَذَكَّرُ بِهِ نَبَاهُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [هود : ٦١] ﴿اتَّبِعُوا اللَّهَ﴾ أى تلقوا أوامرهم وبواهيكم من الله سبحانه وتعالى فى كل حركة من حركات الحياة . قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ تَتَذَكَّرُ بِهِ نَبَاهُهُمْ﴾ أى أن الله تعالى لم يرسل رسولاً عريئاً عليهم ، بل هو أحوهم الذى يعرفونه ويعيشون معه ، يعرفون حسن سلوكه وسيرته الطيبة وعقله الراجح ، وهذا حتى لا يكون للناس حجة على الله تعالى ؛ لأنه لو جاءهم برجل عريب ربما قالوا : هذا رجل لا يعرفه ، ولا يعرف صدقه أو كذبه أو سلوكه ، ربما كان كذاباً أو لا خلاق له . جاءنا يكذب علينا لتكون به السلطة الدينية .

الحق سبحانه وتعالى يطلع هذه الحجة تدرجاً ، بأن يأتيهم برسول منهم عاشوا معه ولم يعرفوا عنه كذبا ، بل عرفوا به الأمانة والصدق والإخلاص ، لا يريد نفوذ ديوتا ، ولم يسع إليه ، ففي هذه الحالة لا عذر لهم إذا كذبوه ؛ لأنهم يعرفون كل شيء عنه ، و كل ما يعرفونه عنه يعطيه الثقة الكاملة فيه ، ماذا قال صالح ؟ ﴿ قَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ القوم يطلع عادة على الرجال ولكنه يشمل المرأة أيضا كما ذكرنا سابقا .

وقوله : ﴿هُوَ أَنشَأَكُم﴾ الإنشاء هو الإيجاد من عدم وبدون واسطة ، أنشأ أى أوجد وجود ابتداءً دون الاستعانة بأحد ، فالذى ي اخترع آلة لا يقول أنشأها ، لأنه استعان بأشياء كثيرة كى ي اخترعها ؛ استعان بالمادة ، واستعان بما وصل إليه الذين من قبله من علم ، واستعان بنتائج عقول الآخرين ، ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنين : ١٤] مادام ٩

لأنه وحده سبحانه وتعالى الذى يخلق بغير موجود وبغير مثال سابق، ودون الاستعانة بأحد، فهو وحده الموجد من عدم، والنشئ من عدم.

وقوله: ﴿أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ الخطاب ههنا لقوم صالح وهؤلاء لم يشهدوا حق الإنسان من الأرض، لأن آدم هو الذي خُلِقَ من الأرض، وبحسب ذريته، يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَأَسْتَعْمِرَكُمْ فِيهَا﴾ استعمركم فيها. وعندما ترى الألف والسين والياء اعرف أنها للطلب،

واستخرج : يعنى طلب الإخراج ، واستفهم يعنى طلب المهم ، واستعمر يعنى طلب التعمير .
وقوله : ﴿وَأَسْتَعْمَرُكُمْ فِيهَا﴾ أى : طلب منكم عمارتها والتعمير ضد التحريب
وعماراة الأرض تقتضى [عدة أمور] :
أولاً : أن يبقى الصالح على صلاحه ، أو نزيده صلاحاً ، ولقد كان الناس فى الماضى
يشربون من الآبار ، ولكن الآن صير الماء فى كل بيت .

الثانى . أن نميها بما يناسب التكاثر الذى يوجد ، لأن ما يتكاثر بالاستقبال بقل بالماضى .
وقوله : ﴿فَأَسْتَغْفِرُكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيَّ﴾ [هود : ٦١] الاستعمار طلب المغفرة من الذنوب
التي وقعت ، والتوبة . ألا تعود إلى هذه المعصية أبداً ، ولكنك نجد إنساناً يقول : أنا ذاهب
للسج . والحج عفران لذنوب ، أفلا أرتكب ذنباً أو ثلاثة ثم أحج فيغفر الله لى ، يقول هل
أنت تضمن أن تعيش حتى تحج ؟ لا تضمن ، فحافظ على نفسك فإن الأجل ربما يأتي فجأة .
وقوله : ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود : ٦١] فمادمت استعمرت فقد سمعت ، لأنه قريب ،
ومادمت قد تبت فقد قبل توبتك ؛ لأنه مجيب .

الحق سبحانه وتعالى يقول وهو يروى لنا حوار الكمار مع صانع ﴿يَصْنَعُ قَدْ كُنْتَ مِنَّا
مَرْجُومًا بَلْ هَذَا﴾ [هود : ٦٢] ﴿كُنْتَ﴾ أى فى الزمن الماضى قبل أن تكلف بالرسالة مرجواً
من قبل ، يعنى بأمل على يدك الخير . فما الذى جعلك تقول : اعبدوا الله وحده ؟ قد كنت
نعير الضعيف وتعطى الفقير ، وتملك كل خصال الخير قبل أن تنادى بأنه لا إله إلا الله ولا
عبودية إلا لله وحده .

ويعضون فى مجادلتهم : ﴿أَلَمْ نَسْأَلْكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا مَا بَيْنَ يَدَيْهِمْ﴾ [هود : ٦٢] أى أقول لنا
إن عبادة آلهة أو الأصنام أو الشمس أو غيرها كانت خاطئة ، وتطلب منا أن نتركها ؟ ولو
كان هؤلاء الناس يعقلون ، لسألوا أنفسهم : هل الآلهة التى يعبدونها تأمرهم بشيء أو
تنهاهم عن شيء ؟ طبعاً لا . إذن فلا مہج لها . وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَكُن لِّى شَرِكًا إِنَّمَا تَدْعُونَنِي
إِلَٰهَ مُرْسَلٍ﴾ [هود : ٦٢] والشك هو استواء الطرفين ؛ الإنيات والنفى . إذن فهم ليسوا على
يعين من آلهتهم ، والذى معهم أن يكذبوا صالحاً تكديماً قاصداً ، أنهم قالوا : ﴿قَدْ كُنْتَ
مِنَّا مَرْجُومًا قَبْلَ هَذَا﴾ [هود : ٦٢] .

كذبت ثمود المرسلين

يقول تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٥٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَحُوهُمْ صَلْحُوا أَلَّا تَنْفُقُونَ ﴿١٥١﴾ إِنْ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِيرٌ ﴿١٥٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا لَهُ ﴿١٥٣﴾ الشُّعْرَاءُ ۖ ﴿١٥٤﴾ هُمْ كَذَّبُوا رَسُولَهُمْ فَظَلَحَ الظَّالِمُونَ ﴿١٥٥﴾ وَلَكِنَّ اللَّهَ وَصَلَّاهُمْ بِتَكْدِيبِ جَمِيعِ الرُّسُلِ ۖ لِأَنَّ الرُّسُلَ جَمِيعًا إِذَا بَصَدُّوا عَنْ شَيْءٍ وَاحِدٍ ۖ هُوَ سَلَامَةُ الْعَقِيدَةِ أَوَّلًا ۖ وَهَذِهِ لَا يَخْتَفِ بِهَا رَسُولٌ عَنْ رَسُولٍ ۖ وَلَكِنَّ الْاِخْتِلَافَ بَيْنَ الرُّسُلِ يَكُونُ فِي الْمَسَائِلِ الْبَيْتِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي تَنْسَبُ إِلَى الْعَصْرِ وَالْبَيْتَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ ۖ لَكِنْ أَصْلُ الْمَنْهَجِ وَاحِدٌ ۖ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَاللَّيْثِ مِنْ بَنِي إِدْرِيسَ﴾ [النساء ١٦٣] وَقَالَ أَيْضًا: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [النورى ١٣].

إذن .. هناك قدر مشترك في كل الرسالات ، هذا القدر المشترك : هو إيمان بالله له كل صفات الكمال المطلق ، وأن هناك بعضا وشررا وحسابا .. إلخ ، هذه الأساسيات يتفق فيها كل الرسل ، فإذا كذب قوم رسولهم فكأنهم كذبوا جميع الرسل ، فثمود كذبوا المرسلين بتكذيبهم سيهم صالحا عليه السلام ، الذى دعاهم إلى تقوى الله تعالى فرفضوا ، جاءهم به من عند الله مع أنه لم يطلب منهم أجرا على عدايتهم إلى مبهج الحق ، وقوله : ﴿وَمَا أَشْكَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَنْتَرِ يَنْتَرَى إِلَّا عَلَى رَبِّهِ الْمَلَكِينَ﴾ [الشعراء ١٤٥] يدل على أن هذا العمل في عرف الحفلاء يستحق الأجر عليه ؛ لأنه يعمل لهم عملا يمد حياتهم بالسعادة إلى الآخرة .

ثم يقول تعالى : ﴿أَتَذْكُرُونَ فِي مَا هَنُتَا مَا مِيتَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّتٍ وَعُيُوتٍ﴾ [الشعراء ١٤٦] ، الجنات معاهها البساتين التى إذا دحىها الإنسان سترته لخصوبة أرضها ولارتفاع أشجارها ، واجبات تحتاج دائما إلى الماء ، وإماء قال الله فيه ﴿وَعُيُوتٍ﴾ تضمن بهاء الجنات واستمرار نموها ، ثم يقول الحق عز وجل ﴿وَوُزْجٍ وَتَمَلَّيْ طَلْمَهَا هَضِيرٌ﴾ [الشعراء ١٤٨] معلوم أن الجنات والرووع تشمل الحبل وغيره ، فلماذا ذكرت الآية الحبل دون غيره من الرووع ؟ لأن الخلل شبهه رسول الله ﷺ بالمؤمن قال : «إن من الشجر شجرا لا يسقط ورقه » . فظن الصحابة أنه شجر البوادي ، فلما حرج عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، وكان مع اجاسين قال له ابيه عبد الله بن عمر وكان مع أبيه يا أبى لقد وقع في ظلى أنها

السحلة . لأنها مثل المؤمن كل ما فيها خير ، جذعها يستعمل سواري - أعمدة - وجريدها يسقف به وسعفها يستخدم في أشغال الخوص ، وليعفا يستخدم في عمل الحبال والمكاس وفائدتها الكبرى في ثمار البلح التي تطرحها .

وهناك فائدة أخرى اكتشفها العلماء الأمريكيان مؤخرًا وهي أنهم أخذوا جزءًا من مؤخر جريد النخل الذي يسمى « قحفا » ووضعوا هذا الجزء في تربة مشابهة لتربة الأرض التي يسمو فيها النخل ثم سقوها ببناء بحساب ، وكانت النتيجة أنها أنبتت نخلة جديدة !! والنبى ﷺ عندما قال : « إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها » . كان على حق ، لأن شجرة النخل لا يسقط ورقه أبدًا حتى لو جف . وبعد ذلك يقول تعالى : ﴿ فَانْقُضُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَلَا تُطِيعُوا أَشْرَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الشعراء ١٥٠ ، ١٥١] المسرف هو الذي تجاور الحد ، وتجاوز الحد له مراحل ، فالله تعالى حرم أشياء وأحل أشياء ، وعمل لها حدودًا مرسومة ، فالإسراف فيما شرع الله : هو أن تتجاوز الحد في الحلال وتدخل فيه شيئًا من الحرام ، أو تأتي بشيء من الحرام ، وتدخل فيه شيئًا من الحلال .

قول الحق ﴿ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [الشعراء ١٥٢] يفهم منه أن الأرض مخلوقة على جهة الصلاح في كل شيء ، يأتي الإنسان بتدخله فيفسد فيها ، فالله تعالى خلق الأرض على هيئة الصلاح ، ومادامت كذلك ، فإنك أن تتدخل في إفسادها ؛ ولكن حركتك يجب إما أن تنمي الصالح إلى أصلح بطاقة الله المخلوقة لك ، أو تتركها على حالها .

وبعد ذلك يقول الحق تعالى ﴿ قَالُوا لِمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ ﴾ [الشعراء ١٥٣] أى أجرى له سحرًا متواليًا عدة مرات ، والذي فعل له السحر شخص آخر . إذا كان الأمر كذلك فإنا نسأل : من الذى سحره ؟ هل هو مكهم أم من أتباعه ؟ إن كان الذى سحره مكهم فإنكم تستطيعون معالجة الموقف وتفكرون هذا السحر لتوقفوه على حقيقته ، وإن كان الذى سحره من أتباعه ، فهذا غير معقول ولا يصدقه أحد ؛ لأن الأتباع في الغالب يعيرون صاحبهم ولا يفعلون ما يعوق حركته ومهمته . فإذن قولهم : إنه من المسحورين . رعم باطل ، معناه أنهم يوجهون للنبي اتهامًا بلا دليل مجرد ألا يصبره ولا يؤمنوا به .

ثم تقول الآيات. ﴿مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء ٦٥٤] هم يشكرون أن يكون الرسول بشراً مثلهم . وماذا كانوا يريدون ؟ كانوا يريدون منك أن ينزل عليهم من السماء ، وفي ذلك يقول الله عز وجل : ﴿وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَمُولًا﴾ [الإسراء ٩٤] هب أن الله بعث إليهم ملكاً رسولاً ، كيف يتعامل معهم ، إن طبيعة خلق الملائكة تختلف عن طبيعة خلق بني آدم ، الملائكة محنوقات نورانية لا يمكن رؤيتها بالعين ، والإنسان مخلوق من طين يتجسد ويمكن رؤيته بالعين ، ولو بعث الله رسلاً من الملائكة لاستحال على بني آدم رؤيتهم والتقى عنهم .

معجزة صالح عليه السلام

قال صالح لقومه ﴿بَقَوِيَ أَرْأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَدَيْهِمْ رَبًّا﴾ [هود ٦٣] قوله ﴿أَرْأَيْتُمْ﴾ أي . أخبروني . كأنه ارتصاهم حكماً ، فقال لهم . أخبروني إذا كنت أنا على يدة من ربي ، ويقين أن أنه أرسلني وأيدني ، وأنا إن خدعت الناس كلهم لا أهدع نفسي . وقوله : ﴿عَلَىٰ يَدَيْهِ مِنْ رَبِّي﴾ أي أن ربي أكرمني باليقين . فماداً تطلبون مني ؟ أن أترك يقين ربي وأستمع لكمركم ؟ وقوله تعالى : ﴿وَأَنسِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ النسي هي المسح والنبوة والرسالة . وقوله ﴿فَمَنْ يَصْرِفُ مِنْكَ أَلَهُ﴾ [هود ٦٣] عندما تجيء الآيات في القرآن الكريم على صيغة الاستفهام ليس معناه أن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يستمعهم عن شيء ، ولكن الله جل جلاله واثق بأنهم لن يجدوا إجابة إلا ما يريدهم أن يقولوه ويعترفوا به لكي يكونوا شهداء على أنفسهم .

وقوله الله عز وجل : ﴿فَمَنْ يَصْرِفُ مِنْكَ أَلَهُ﴾ أي : إن أنا رصيت حكمكم ، فقولوا لي من الذي يمكن أن يجزي من الله سبحانه وتعالى إن عصيته ؟ أي قولوا لي . أين أذهب إن عصيت الله ؟ وكيف أتجنب عذابه ، وأنا راض بحكمكم ، والجواب اختفى هنا : يكون لا أحد ؛ لأنه لا أحد ما يستطيع أن يعلت من حساب الله . أنتم تقولون إنكم تشكون فيما أبىكم به ، وأنا أقول إنني على يقين فإن أطعكم وعصيت الله ، فلا أريد إلا حسرات ، أي فما تريدونني غير نخسیر .

وقوله تعالى : ﴿إِنْ عَصَيْتُمْ مَا تَرِيدُونَ خَيْرَ تَحْسِيرٍ﴾ ما هو التحسير ؟ إن الحسارة ضد

المكسب ، ومعنى الخسارة أن يتقص رأس المال . ومعنى المكسب أن المال يزداد ، إن أنا وافقتكم على ما تريدون ، فسأخسر كل شيء ، الدنيا والآخرة . أى أسى لن أريد بطاعتكم إلا خسارة . حينئذ وبعد أن وصل الحوار إلى هذه النقطة ؛ كان لابد أن تأتي معجزة ليعرف هؤلاء الكفار أن صالحاً مرسل من ربه ، وأن المهج الذى يبلغه هو مهج الله سبحانه وتعالى .

وقال صالح لقومه كما جاء فى الذكر الحكيم : ﴿ وَيَقْوِرْ هَؤُلَاءِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ ﴾ [هود : ٦٤] حينما يقال : هذه ناقة الله . فهذا دليل على أنهم طلبوا من صالح معجزة ، وأن الله تعالى استجاب لرسوله ، وأعطاه المعجزة التى طلبوها

إيهم قالوا - إن كنت رسولاً حقاً ، فأنت لنا من هذه الصحرة بناقة . وسبب طلبهم الناقة من الصحرة ، أنهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً . فقالوا له : نريد أن تخرج لنا من هذه الصحرة ناقة ، هم اقترحوا الآية ، والله سبحانه وتعالى أجابهم ، فاعلمت الصحرة وخرجت منها ناقة ، والناقة حامل عبي وفق ما طلبوها ، لم يكن فى استطاعتهم فى هذه الحالة أن يكذبوا الآية التى حدثت أمامهم ؛ لأنها رؤية عين ورؤية يقين ، فهم لا يستطيعون الكذب لما حدث أمامهم

ولكنهم عقروها طئناً منهم أن هذا إبطان للمعجزة ؛ لأن الناقة بعد أن عقورها لن تستطيع السير ، فيقولون : هذه آية باطلة .

وكان من الممكن أن تخرج شجرة من الصحرة فيكون هذا إعجازاً ، ولكن الحق سبحانه وتعالى لم يخرج نباتاً من الصحرة ، بل أخرج حيواناً ، ناقة تحمل فى بطنها جنيناً ، ومدامت ﴿ نَاقَةُ اللَّهِ ﴾ معجزة طلبوها محققها الله لكم ، وجعلها مشهودة منكم ، محافظوا عليها ، لا تعرضوا لها حين تشرب وحين تأكل ، اتركوها ، ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى ﴿ وَتَرَوْهَا نَاقَةٌ تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا يُسْرَ فَإِنَّكُمْ عَنْكَ قَرِيبٌ ﴾ [هود : ٦١] فهى ﴿ نَاقَةُ اللَّهِ ﴾ اتركوها ترعى فى أرض الله وتأكل من خير الله وحافظوا عليها ، ولا تمسوها بسوء ؛ لأنكم إن فعلتم ذلك فسيأتىكم عذاب الله وسيكون قريباً .

وكان صالح عليه السلام قد طلب من قومه أن يتقوا الله ، وأندروهم عذابه وبشرهم برحمته ، ولكن هذا مفهوم من السياق ماذا قال صالح ؟ قال لهم - ﴿ هَؤُلَاءِ يَشْرِبُونَ وَكَأَنَّهُمْ يُثَرِّبُونَ ﴾

نَعْلُومُ [الشعره: ١٥٥] أى هى تشرب يوماً وإسكم يوماً ، موافقاً على ذلك ، ركابت المياه فى مدائن صالح قليلة ، فكانت باقة الله إذا شربت أخذت كل كميات المياه التى فى الآبار وأعطتهم كمية هائلة من اللبن ، فتأتى إبل غير المؤمنين لتشرب فلا تجد ماء ، أما المؤمنون فقد كان لبن الباقة بكفيهم جميعاً ويريد بحيث لا يحتاجون إلى شيء . وكانت هناك مرقان لهما إبل ، فلم تجدوا لإبل ماء ؛ لأن المياه فى الآبار فُتتَ حذاً ، فذهبوا إلى رجل اسمه أحيمر ثمود وأعطاه على قتل الباقة فقتلها - فما قتلت الباقة صعد فصيلها على صخرة تسمى القارة ورعا ثلاثة أصوات . فقال صالح يا قوم أدركوا هذا الفصيل لعل الله يرفع عنكم العذاب فذهبوا يحثون عن الفصيل فلم يجدوه ، حينئذ أبلغ الله تعالى صالحاً أن العذاب سيأتى بعد ثلاثة أيام .. أول يوم يروا سحابة مصفرة ، والثانى محمرة ، والثالث مسودة ثم يأتىهم العذاب .

المؤامرة على نبي الله صالح عليه السلام

قال تعالى : ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَكَادِبُونَ ﴾ [النمل: ٤٩] انظروا الوعدة وقلة العمل والسماحة ، يبيتون لقتل نبي الله صالح ويقسمون بالله ويتعاهدون مع بعضهم على فعل هذه الجريمة الكراء ، فهم يتقاسمون بالله على قتل رسول الله ، هذا مما يدس على غيائهم ووقاحتهم ، وأنهم ليس عندهم ذرة عقل حتى لو فى خدمة ضلالهم .

ومعنى ﴿ تَقَاسَمُوا ﴾ أى قالوا لبعضهم : هيا نحلف بالله أن نبيت لهذا الرجل ونقتله حتى نتخلص منه ومن دعوته . ومعنى : ﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُ ﴾ المبيت هو ما يقطعك عن الحركة ، ثم تعود حيث اليلة وتصبح فى الصباح لتواصل عمل يوم جديد ، ولكن قولهم هذا : ﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُ ﴾ يقصدون من ذلك أن يعدوا له بيئات لا يقوم منه ، فلا يخرج عليه صباح بعده أبداً ، وذلك بأن يقتلوه ، وحسبما يقتلونه لا يد أن له أهلاً وأقارب سينتقمون من قتله ؛ ولذلك احتاط الكفار لهذا الأمر بأنهم سيقولون لأقاربه وأولياء الدم : إنهم لا يعرفون شيئاً عن هذا الأمر وليس لديهم فكرة عنه ، هم دبروا ذلك وفهموا أن الله تعالى يسلم بيه ويتركه لهم ليقتره ثم يتنصصوا من جريمتهم ؛ ولكن الله تعالى كان لهم بالمرصاد .

ولكن ماذا كانت نتيجة مكبرهم ؟ قال تعالى : ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَذَابَ

مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فكيف حدث ذلك ؟ الكفار رعدوا ثمركات صالح عليه السلام وعرفوا المكان الذي يبست فيه ودحنوا عليه ، فساعة دخلوا عليه ليعملوا فعتهم ؛ استقبل كل واحد منهم حجرا لا يعرف من الذي رماه ، كأن الله تعالى سحر ملائكة بضرب كل واحد منهم واحداً من الكفار فهلكوا جميعاً ، وبما النبي ومن معه ، أو أن الله صنع له حيلة خرج بها ، وقالوا إنه ذهب إلى حضرموت ، ولما ذهب إلى هناك مات ، فسموه حضرموت من أجل ذلك . وقال بعض العلماء إن الرهط ذهبوا ليتطروا صالحاً في مكان وجاءوا في سفح جبل واحتشوا فيه حتى يرم صالح ، فيما هم يجلسون في هذا المكان أسقط الله عليهم صخرة قضت عليهم . المهم [أنهم] هلكوا ودمروا سواء كان ذلك بالملائكة التي رمتهم بالحجارة ، أو بجائته منهم إلى حضرموت ، أو بوقوع الصخرة عليهم ، فكل هذه جود الله تعالى ، وما يعلم جود ربك إلا هو .

فهم أرادوا أن يهلكوه هو وأهله ، فأهلكهم الله هم وقومهم أجمعين ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَطْرَ كَيْفَ كَانَ حَقِيقَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَبَلَكَ يَوْمَهُمْ كَالْوَيْكِ بِمَا طَمَسُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [النس ٥١] ، [٥٢] ، والدليل على هلاكهم أنه لم يبق سهم أحد ، وأصبحت بيوتهم نخاوية لا أحد فيها .

قوم ثمود في انتظار العذاب

أعطى الله تعالى ثمود العظاات كلها ، لقد أرادوا أية ، فحادثتهم ناقة الله تحمل جبيها في بطنها ، كما طلبوا ثماناً ، وكانت معجزة مشهودة .. وأمرهم ألا يتعرضوا لها أو يمسوها بسوء ، وإلا أتاها العذاب من الله سبحانه وتعالى ، فاحق جل جلاله حين يطلب من الكمار أية ، ويحققها مشهودة بهم ، ولا يؤمنون بها ، يحق عليهم العذاب ، فمادا فعلت ثمود ؟ وجدوا الناقة تأكل من ررع الكمار فتمسحه مسحاً ، وتأتى زرع المؤمنين فلا تقربه ، وإذا شربت كمية من الماء ، شربت بحيث لم يبق في الآبار إلا اليسير ، فإذا ما أتوا ليرووا في اليوم الثاني لم يجدوا ماء ، ويأتى اليوم الثالث فتحتل الآبار بالماء ، فقد حمد الله سبحانه وتعالى أن للناقة شرب يوم ، ولهم شرب يوم .. فلما لم يستطيعوا الاحتمال عقروها فأبندوا بعذاب الله

واقراً قوله تبارك وتعالى : ﴿ عَقَرُوها فَقَالَ نَمَتُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ

عَنْ مَكْدُوبٍ ﴿ هود - ٦٥ ﴾ عندما عقروا الناقة قال لهم صالح تمتعوا ثلاثة أيام لن يمسكم فيها شيء ، ثم يأتي وعد الله بالعذاب في اليوم الرابع ، يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ [هود - ٦٦] ولم يقل : فلما جاءت الصاعقة أو الصيحة . بل جاء أمر من الله تعالى بالعذاب ، وهو أمر واقع لا محالة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى له الأمر كله . يقول للشيء : كن فيكون .

واحق سبحانه وتعالى قال ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَحِيرَتَا صَالِحًا وَالدَّيْتِ ءَامُومًا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنْكَ ﴾ [هود - ٦٦] الفاعل واحد ، هو الله سبحانه وتعالى ، والأمر واحد . فكيف يجوز المؤمنون ويهلك الكافرون ؟ هذه هي عطمة الخالق سبحانه وتعالى ، يبطل طبائع الأشياء أو يعصها ، وهكذا كانت الصيحة أو الريح أو الرجفة . فالقرم كلهم موجودون في مكان واحد ، كافرهم ومؤمنهم . تأتي الصيحة فيهلك الكافر ويحواه المؤمن لا يحدث له شيء ؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الأمر لكل خلقه .

ويسأل بعض الناس إذا كان الحق سبحانه وتعالى قد قرر إهلاكهم ، فلماذا الإمهال ثلاثة أيام ؟

نقول : إن العذاب إذا جاء انقطع الألم الحسي ، لأن الإنسان يموت وعد موته يقطع الألم ، والله تبارك وتعالى يريد أن يعيشوا ثلاثة أيام ليعانوا قرب تنفيذ الوعيد الذي قال الله سبحانه وتعالى عنه . ﴿ رَعُدْ عَنِ مَكْدُوبٍ ﴾ [هود - ٦٥] .

الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي بَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ﴾ . في دياركم ، معناه أنها ديار متعددة ، فكان الدين كمروا كانوا في أكثر من مكان ، بل إن المسافرين منهم لحقهم عذاب الله وتبعهم حيثما كانوا ، فكان العذاب مرل على الديار وعلى الدين كانوا خارج الديار ، ولم يسع من العذاب إلا شخص واحد اسمه . وأبو رعال ، كان يحج بيت الله الحرام ، ولذلك ظل الحجر الذي سيصرب به أو الصيحة التي ستودي بحياته إلى أن خرج من الحرم فوقعت عليه ، فكل الكفار أهدكوا إلا هذا الرجل ، ظل العذاب ينتظره حتى خرج من بيت الله الحرام فوقع عليه الحجر .

بماذا أهلك الله عز وجل ثمود ؟

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَ فَأَضَبُّوا فِي دَائِهِمْ جَثِيئِينَ ﴾ وقوله سبحانه وتعالى : « جاثمين » أى حين جاءت الرجفة أخذت كلا منهم على الحالة التى كان عليها ، فالذى كان واقفاً ظل على وقوفه ، والذى كان قاعداً ظل على قعوده ، والذى كان نائماً ظل على نومه ، أخذوا جميعاً على هيئتهم ، مع أن الحق سبحانه وتعالى يحيرنا أن صالحاً كلمهم بعد أن أخذتهم الرجفة وعائبهم وقال لهم : إني نصحتكم ، فكيف كلمهم وهم أموات ؟ انبت يسمع كلام الحى ، ورسول الله ﷺ حاطب القتلى من كهار بدر ، وقال لهم : « إنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ » . قال المسلمون : يا رسول الله ، أنكلمهم وقد جيقوا ؟ أى أصبحوا جيعة . قال رسول الله ﷺ : « والله ما أنتم بأسمع منهم ولكنهم لا يتكلمون » . وهكذا كان صالح يحاطب قومه بعد أن أخذتهم الرجفة فيقول لهم : لقد أبعثكم رسالة الله ونصحتكم ولكنكم لم تقبلوا نصيحى .

هؤلاء هم ثمود قزم صالح ، أخذتهم الرجفة أى انهرة التى تحدث رجة فى المهرور ، ويعطى لنا القرآن الكريم صوراً مختلفة لتأديب الله ثمود ، فمرة يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَ فَأَضَبُّوا فِي دَائِهِمْ جَثِيئِينَ ﴾ ومرة يقول : ﴿ فَأَنَّا نَسُوءُ فَاغْلَبَكُوا بِالْمُؤَاخَذَةِ ﴾ [الحاقة ٥] ومرة يقول : ﴿ وَأَخَذَ الْيَتِيمَ ظَلْمًا الصَّيْحَةَ ﴾ [هود ٦٧] وسماها فى سورة أخرى « الصاعقة » فى قوله تعالى ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [مصلح ١٣] والرجمة والطاوعة والصيحة والصاعقة كلها تؤدى معنى الحدث .. وهو عذاب يفاجئهم ولا يمكنهم الهجاة منه .

على ألسنا لابد أن تنبه إلى قوله تعالى ﴿ وَأَخَذَ الْيَتِيمَ ظَلْمًا الصَّيْحَةَ ﴾ وكان القياس السطحي يقتضى القول : وأخذت اليتيم ظلموا الصيحة ، ولكن الذى يتكلم هو الله تعالى ، فالدين يقولون كان لابد أن تكون أخذت بالتأنيث يقول لهم إن الصيحة ليس معناها أنها حدثت مرة واحدة ، لأن التاء هنا تستخدم عندما تكون حدثت مرة واحدة ، ولكنها صياح وليست صيحة فقط ، والصياح فيه عزيمة الرجولة .

ولكن أراد الله سبحانه وتعالى أن يجمع الأمرين تكون صيحة وقوة . ولذلك قال تعالى :

﴿وَأَخَذَ الْأَرْبَعُ حُلُكُمَا الْقَصِيحَةُ﴾ ولم يقر أحدث ، لأنها حدثت مرات متعددة .

وقوله تعالى : ﴿فَأَسْبَحُوا فِي دَارِهِمْ بِحُسْنٍ﴾ أى ملقين على ركبهم وجبههم هامدين بلا جراك ، وقوله سبحانه ﴿كَأَن لَّمْ يَتَوَضَّأُوا فِيهَا﴾ [هود ٦٨] مادة عسى كلها سراء ، عسى وعسى وغناء كلها تؤدي نفس المعنى ، وقرأ قوله سبحانه وتعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهِمْ أَتَيْنَاهَا أَمْرًا لَّيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَكُن بِلَا أَمِيرٍ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [عمرس : ٢٤] تثنى ، يمسى أنها لم تكن موجودة بالأمس . إذن .. فالمعنى معناه الوجود وضده العدم .

وقوله تعالى فى الآية الكريمة : ﴿كَأَن لَّمْ يَتَوَضَّأُوا فِيهَا﴾ [الأعراف ٩٢] . أى : كأنهم لم يقيموا فيها ، بمعنى كأنها أصبحت حالية ولم تكن مليئة بالحياة منذ ساعات .

وقوله تعالى : ﴿أَلَا إِنَّ شِمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ [هود ٦٨] هذه حيثية إهلاكهم بالصاعقة وهم لعوا فى الدنيا والآخرة ، وقد قلنا إن الحق سبحانه وتعالى أعطانا بشاعة جريمتهم حتى نعرف أن القصاص عدل وماسب لبشاعة الجريمة

وقوله تعالى : ﴿كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ عادة يقال : كفروا بربهم ، ولكن الحق تبارك وتعالى قال : ﴿كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ أى أن هناك فرقا بين المعيين .. كفروا ، أى ستروا وجوده وأنكروه ، وكفروا بربهم أى لم يؤمنوا به مع اعترافهم بأنه موجود ، هذا هو الفرق ، وعندما يرى اللدب الكبير الذى ارتكبه يعرف أن إهلاكهم كان عدلا ، ونقول كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿أَلَا بَعْدُ﴾ [شمود] .

ذكر قصة نبي الله إبراهيم عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم ١٤]
إبراهيم عليه الصلاة والسلام هو أبو الأنبياء، امتدحه الله تعالى فقال سبحانه: ﴿إِنَّ
إِبْرَاهِيمَ كَانَتْ أُمَّةً قَانِيًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل ١٢٠]. وسمى ﴿كَانَ أُمَّةً﴾ قالوا: إنه لا
يوجد فرد يحتوى على نى يحصل الكمال ومواهب الفصل كلها، لأن مواهب الفصل وحاصل
الكمال أكبر من أن يحتوئها فرد، لكن المجموع يحتوئها، فهذا شجاع وقوى البية، وهذا
ذكى وهذا نظره قوى، وهذا سمعه مرهف، وهذا قوى الذاكرة، وهذه كلها وغيرها مواهب
متفرقة، ولا يستطيع فرد أن يجمع كل هذه المواهب فكل فرد يمكن أن تكون فيه لمسة موهبة،
وكذلك كل كمال مورع فى حق كثيرين، إلا إبراهيم عليه السلام فقد كان وحده أمة.
فكانه أخذ المواهب والكمالات الموجودة فى أمة كاملة.

وكلمة: «صديق» من مادة صدق، وصدق معناها تكلم بواقع، وكذب معاه:
تكلم بعير واقع، والذى صدق يسمى صادقاً أى يتكلم كلاماً به واقع ويوافق الواقع.
والصديق هو الذى بلغ العاية فى تصديق ما يأتى من الحق، وهو يأخذ أمر الله تعالى دون
مناقشة.

وهناك فرق بين الصديق والى. فالصديقية هذه ذاتية عنده وإشراقية من الله تعالى فيه.
أما اللى الرسول فجاءه تشريع من عند الله، فقد يكون الإنسان صديقاً ولكن ليس عنده تشريع
يقوله لنفسه، ولكن النبىء الرسول يأتيه تشريع وهدى من الله تعالى، ولذلك حينما قال إبراهيم
عليه الصلاة والسلام لأبيه: ﴿يَأْتِيَنِي لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَكُنْ آتِيَنِي
إِنِّي قَدْ جِئْتُ مِنَ الْغَيْبِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [مريم ٤٢، ٤٣] لم يقل هذا
الكلام بوصفه صديقاً، ولكن قاله بوصفه نبى ورسولاً جاء ليعدّل سلوك الناس واتجاهاتهم بى
أوحاه الله تعالى له.

وكلمة «لأبيه» لم يذكر القرآن اسم المسمى المشخص لوالد إبراهيم عليه السلام، فالأب هنا
وصف ولكن اسمه لا يعرفه.

وإذا استعرضنا نصوص القرآن الكريم نجد أنه جاء بمصير نص يسرد الآباء المباشرين

والابن عن الأب عن الجد عن أب الجد * وذكر آية أخرى محالمة مجاء بالأعمام وأدخلهم في الآباء ، ففي سورة يوسف * مثلاً قال لصاحبه في السجن : ﴿ إِنِّي نَزَكْتُ يَلَةً قَوْمٍ لَا يَرْضُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ * وَأَتَيْتُ يَلَةً أَبَائِي إِزْزِيعَةً وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [يوسف : ٤٢ ، ٤٣] .

فها كلمة آبائي في قوله : ﴿ وَأَتَيْتُ يَلَةً أَبَائِي ﴾ ، فهي جمع أب وهؤلاء الآباء هم إبراهيم ، ثم ابنه إسحاق ، ثم ابنه يعقوب . فالآباء جمع أب ، وذكر القرآن الآباء وعدد الآباء المباشرين يوسف بن يعقوب . ويعقوب بن إسحاق ، وإسحاق بن إبراهيم عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه .

ولآية الأخرى هي قوله تعالى : ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِزْزِيعَةً وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُاتِنَا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة ١٣٣] وإذا كان إبراهيم هو جد يعقوب وإسحاق والده ، فما دخل إسماعيل هنا ؟ هو عم يعقوب فاعتبر العم أبا .

إذن فالقرآن اعتبر العم أبا ، ولو قال الحق في كل آيات القرآن بالسبب لإبراهيم كلمة ﴿ لِأَبِيهِ ﴾ كان الأمر سيسرف لأبيه الحقيقي ، إنما ذكر في مرة واحدة أن أباه آزر ، ولا يؤتى بالعلم بعد الأبوة إلا إذا كان يقصد به العم .

ما المقصود بملة إبراهيم عليه السلام ؟

قال إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر : ﴿ يَتَّبِعْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْلَكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾ يَتَّبِعْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿ يَتَّبِعْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ [مريم ٤٣ ٤٥] والصراط السوي هو الطريق الذي يصل إلى العاية بأقل مجهود وأقصر وقت ، وكلمة : ﴿ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ﴾ فالشيطان يسمع ويصير ، وإبراهيم سبق أن قال نعمه . يتم تعد ما لا يسمع ولا يصير ؟ وهذا يسمع ويصير ، قالوا : لأن الشيطان هو الذي يسوئ للإنسان أن يعبد الصم ، فالمسألة كلها مردها للشيطان ، ولكن إبراهيم حلل المسألة لمباشرة ، فعمه يعبد صمًا لا يسمع ولا يصير ولا يعي [عه] شيئًا ، وهذا بشهادة عُنَاد الأصنام أنفسهم فان تعالى ﴿ قَالَ هَلْ سَمِعْتُمْ نَكْرًا إِذْ

تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَفْعُولُكُمْ أَوْ يَصْرُونَ ﴿٧٣﴾ [الشعراء: ٧٢، ٧٣] هذا استعظام ، ولا يستفهم مجادل من يجادله عن شيء إلا وقد علم أن الجواب لا بد أن يكون في صفه ؛ لأنه التمس على الجواب . ﴿يَتَأْتِيَ لَا تَعْبُدَ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: ٤٤] . إذن .. العبادة لغير الله تعالى مردها إلى إعواء الشيطان الذي يجعل الإنسان يعبد صنما أو وثنا أو شمشا أو شجرة أو غير ذلك .

ومعنى : ﴿عَصِيًّا﴾ : أى عصى أوامر الله يلتد ، ثم قال له ﴿يَتَأْتِيَ إِلَيَّ أَنَا أَنُفَ أَنْ يَمْسَكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ المس : هو الالتصاق الخفيف . ولم يقل له بصييك العذاب ولكن تلصق معه وقال يمسك . مشما تقول لإنسان عزيز عليك أنا أخاف عليك من نسمة الهواء ، ومعنى أخاف تفيد أن أمرك يهمى فأخاف عليك أن يصيبك مكروه ، والولى هو التابع والقريب ، فولى الشيطان تابعه والقريب منه ، ومشما يعذب معه ، أخشى عليك أن تعذب مثله . انهر إلى منطق الساعى كيف رتب الأمور هذا الترتيب الذى لا يثقل على أذن المجادل ، لكن المجادل له لد ، ولذلك مطلوب منك حينما تجادل أحدا ، أن تجرده بالنسبة إلى أحسن ، لأنك تجادله لتخرجه عن الفساد الذى هو فيه ، وما دم عن فساد فهو اشتبهى الفساد أولا ثم اعتاد الفساد بالفعل ثانيا ، فاشتبهاه واعتاده فأصبح متمسكا به وعريرا عليه ، فحين تأتى لتخرجه من الفساد لا تخرجه بقسوة ، ولكن لا بد أن تتحال عليه وتلطف معه وتترفق به ، لأنك إذا بهرته فستجعله يعرض عليك ، وإذا أعرض عليك فليس يسمع لمصحك ، وإذا لم يستمع للتصح سيظل على فساد .

بعد ذلك يأتى رد آرر على إبراهيم فى قوله تعالى : ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ إِلَهِيَّ يَتَّبِعُهُمْ لَئِنْ لَّمْ يَنْتَهُ لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَخْضِرَتْنِي لَيْلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦] كلمة : ﴿أَرَأَيْتَ﴾ يختلف معناها إلى المقابل بحرف الجر الذى يأتى بعدها تقول : رغب فى كذا أى أحبه ، و : رعب عن كذا أى كرهه واعتزله ، مع أن المادة اللغوية واحدة هما يقول تعالى : ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ إِلَهِيَّ يَتَّبِعُهُمْ﴾ والمعنى هل تريد آلهة غيرها يا إبراهيم ؟ وهناك آية تقول : ﴿وَمَنْ يَرْعُبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن مَّعِيَ نَقَسًا﴾ [البقرة: ١٣٠] فرعب عنه أى تركه وذهب إلى غيره ، ورعب فيه أحبه . إذن أنت راعب من كذا ولكنك لم تأخذ الوسيلة إليه ، فالرغبة فى الشيء لا تفيد إلا إذا رغبنا فى الطريق الموصل إليه من الخير .

وهناك من اللغة رعب عه ، ورغب فيه ، ورعب إليه فالذي يرعب في حب الله يرعب في الطريق الموصل إلى الله .

وقوله ﴿لَيْسَ لَكَ تَنْتَ لِأَرْحَمَكَ وَأَهْضُرِي مَيْكَا﴾ [مریم ٤٦] أى إن لم تنته عن موقفك هنا من آلهتنا سأرجمك . والرجم : هو الضرب بالحجارة .

وقوله ﴿وَأَهْضُرِي﴾ أى : ابتعد عني ، وكلمة : ﴿مَيْكَا﴾ المي ، هي البرهة الطويلة من الرمن ، وهي من الملاوة التي هي الفترة الطويلة من الرمن ومساها سعى النبل والنهار الدواب .
وبكن ماذا قال إبراهيم ردًا على هذا الكلام القاسي ؟

إنه لم يجرح عن سقته العادل في عرض دعواه وأدبه مع عمه ، ولذلك رد عليه قائلًا : ﴿قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَحْمَةً إِنَّهُ كَاكَ بِي حَفِيَّا﴾ [مریم ٤٧] نكأنه أراد أن يؤكد كلامه الذي قاله له سابقًا لأنه يبه أنه يقول : وإن لم يستعفر له سيكوب مصيره مؤلًا فذكره بالله تعالى وأنه سيستعمر الله له لأنه لا يرضى له بهذا المصير . وظل يستعفر له ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَنِينٌ﴾ بمعنى أن الله تعالى كان به ﴿حَنِينًا﴾ : أى يزيد في إكرامه إكرامًا يحقق سعادته ، ومن سعادته أن يعمر الله لعمه الذنب الذي عمه .

فهو هنا بصحح شيئين : بضحج الذنب الذي فعده عمه ، ويعظم الرب الذي سيستعفر لعمه عنده ، وما دام ربي ﴿كَأَنَّ بِي حَفِيَّا﴾ سيكرمى ، ودليل إكرامه لى أنه جعلنى نبيًا ، وهو فى كل ذلك يؤكد معنى الصدق فى كلامه فيقول له . اسمع كلامى لأسى دو مكاة عد ربي .

ثم قال بعد ذلك - ﴿وَأَعْتَرَلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مریم ٤٨] كلمة : «اعتزال» معاها ترك صحبة إلى حير منها ولو كان ذلك فى اعتقاده هو .

إذن .. فالاعتزال أمر مطلوب إن وجد الإنسان البيعة غير صالحة لنقاش الباطل من الحق حتى لا تؤصل الجدل ، ولذلك قال الخليل عليه السلام : ﴿وَأَعْتَرَلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [مریم : ٤٨] فالمسألة مبدأ إيماني .

قال تعالى : ﴿فَلَمَّا أَعْتَرَلْتُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُمْ إِيحَىٰ وَيَعْقُوبَ وَكَلاَّ جَعَلْنَا

بَيْتًا ﴿١٨﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيمًا ﴿١٩﴾ [مريم ٤٩، ٥٠] فالقرآن ذكر إسحاق ويعقوب ولم يذكر إسماعيل ، فكان الحق سبحانه يتكلم عن إسحاق ويعقوب اللذين منحهما الله لإبراهيم جزاء صبره وبجاحه في ابتلاء الرؤيا وديح إسماعيل ، ورد ذلك في قوله تعالى : ﴿مَلَأْنَا بَلْعَ مَعَهُ السَّمْعَىٰ فَكَانَ يَبْقَىٰ إِلَيْنَا الْأَمْرُ﴾ [الصافات ١٠٢] فحيثما صبر إبراهيم على السلام ، عسى الابتلاء في دبح ابنه إسماعيل وصدق الرؤيا وأطاع هو وابنه أمر الله تعالى ، فذى الله به إسماعيل وبشره بإسحاق أيضا ، وإسحاق سيكون من ذريته يعقوب فيشره الله تعالى به أيضا وفي آية أخرى يقول تعالى ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ [الأنبياء ٧٢] ؛ لأن إسحاق هو الابن الثاني لإبراهيم ، ويعقوب هو ابن إسحاق ، وحفيد إبراهيم .

فكان الحفيد نافذة في عطاء الذرية ، وقوله : ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم ٤٩] تفيد أن الامتحان هنا ليس لأن إسحاق ولد أو يعقوب ولد ، ولكن الامتحان بأنهما سيكونان نبيين ، فبشر إبراهيم بأنهما سيكونان نبيين ؛ لأن هذا هو حظ إبراهيم أن يرى الدعوة حيا ، ويريد أن تنشأ ذريته على هذه الحال امتدادا للدعوة إلى دس الله تعالى ، ليس من أجل الكثرة والعروة ، ولكن لتقيم على أمر الدعوة واستمرار منهج الحق ، ولذلك فالحق سبحانه وتعالى حينما قال : ﴿وَلَا يَرْجِعُ الْبَصَرُ رِثَةً يَكُنْ لَّكَ يَوْمَئِذٍ فَتْنَةً﴾ [البقرة : ١٢٤] . أى أن الله تعالى اختبره بتشريعات وأتمها على وجهها الصحيح ، فلما أتمها علم الله تعالى شدة حبه لتكميلها ؛ لأنه أتمها على الوجه الأكمل . فكان جزؤه أن الله تعالى جعله لدس إماما .

ولكن رغبة إبراهيم في امتداد هذا الشرف في الذرية جعلته يطيبها لذريته أيضا ، أى إنه يريد أن يكون من ذريته أئمة ، فوصح الله تعالى مبدأ هو : أن السيرة باختيار الله تعالى واصطفاؤه سبحانه لمن يشاء من خله .

ولما كان تبارك وتعالى يعدم أزلأ بعضياد الكثير من الذرية فكان لحيله الحكيم : ﴿لَا يَسْأَلُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ .

إبراهيم عليه السلام وتاملاته في أسرار الكون

قال الله سبحانه وتعالى ﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام ٧٥] وإذا سمعت كلمة ﴿وَكَذَلِكَ﴾ فاعلم أن الحق يريد أن يلفتنا إلى أنه كما اهتدى إبراهيم إلى أن عبادة الأصنام ضلال ميسر ، فإن الله سيكرمه ما دام ارتبط بالإله الحق ، وسيره أسراراً في الكون

وقوله ﴿مَلَكُوتَ﴾ : من صيغ المبالغة ، فهناك رحمة ورحموت ، ورهبة ورهبوت ؛ وعندما تضاف التاء تدل على المبالغة ، والذي يتبع الأسباب المشهودة في الكون ، أن الملك هو ما تحسه وشهده أمامك ، أما الملكوت فهو ما وراء هذا الملك ، ولذلك نلاحظ أن إبراهيم عليه السلام عندما تحدث عن الأصنام التي يعبدونها قومه قال - ﴿فَاتَّبَعْتُمُ صُوتِي إِلَى رَبِّ الْمُنْتَبِهِينَ﴾ [٧٧] والذي خلقني فهو يهدير [٧٨] والذي هو يطعني ويسقي [٧٩] وإذا مرصت فهو يشفي [٨٠] والذي يُيسئني ثم يُحييني [الشعراء ٧٧ - ٨١] ولابد أن نلاحظ الأساليب المختلفة التي جاء عليها قول إبراهيم لقد قال ﴿وَالَّذِي خَلَقَنِي﴾ . ولم يقر - الذي هو خلقني . لأن الخلق قضية محسومة لله سبحانه وتعالى لا يستطيع أحد أن يدعيها ، وهي قضية مسلم بها لا تحتاج إلى تأكيد .

ولكن في قوله - ﴿فَهُوَ يَهْدِينِي﴾ . استخدام « هو » للتأكيد ؛ حتى لا يدعى أحد من بشر كذباً أنه جاء بمسح هداية للناس ، فاستخدم كلمة ﴿فَهُوَ﴾ تأكيداً بأن الله سبحانه وتعالى بيده وحده الهداية . وإذا جاء قول الحق : ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي﴾ . مجد أن هناك عودة لاستخدام كلمة « هو » ؛ لأن هناك أسباباً وضعها الحق جعلت للإنسان عملاً في الطعام والشراب .

وقوله - ﴿وَالَّذِي يُيسئني ثم يُحييني﴾ ؛ لأن الموت والحياة بيد الله تعالى وحده لا يذره فيهما أحد ؛ ولذلك قال تعالى - ﴿وَلِإِبْرَاهِيمَ الْإِلَهِيَّةُ﴾ [النجم ٢٧] وقال سبحانه وتعالى - ﴿وَإِذْ أَسْنَدَ إِبْرَاهِيمَ رَأْيَهُ يَكَلِّمُنَا فَاذْهَبَ قَالَ إِنِّي خَشِيتُ النَّاسَ إِذَا مَا نَأَمُوا﴾ [البقرة ١٢٤] كأن الله قد اهتم به على الدين فجعله إماماً للناس

حينما سمع إبراهيم ذلك قال بيشريته ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [البقرة ١٢٤] أي : يا رب اجعل

من دريتى أئمة . وحيداً أراد الله تعالى أن يلقته إلى الملك والملكوت فلا يتحدث بظواهر الأمور
فقال الحق سبحانه تعالى : ﴿لَا يَتَأَلَّ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة ١٧٤] .

وبلاحظ في الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَكَذَلِكَ يُرَىٰ إِلَهُهِمْ مَلَكُوتَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأعام ٢٥] .

واليقين ينقسم إلى ثلاث مراحل :

يقين يعلم من تثق فيه ، ويقين يعين ما تحبر به ، ثم يقين بحقيقة ما تحبر به .

فاليقين هنا بمراحله الثلاثة قد دخل نفس إبراهيم ورسخ فيها .

وتمضى الآيات تقول : ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا﴾ [الأعام ٧٦] كلمة ﴿جَنَّ﴾

تفيد النستر والتغطية ، ولذلك فإن الجنون ستر للعقل ، ﴿جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ . بمعنى أظلم وستر ما

حولك ، فميرك لا يراك وأنت لا ترى ميرك . والجنة سميت بهذا الاسم ، لأن فيها أشجاراً تستر

من بمشي فيها ، أما كلمة ﴿كَوْكَبًا﴾ فمعناها أنه ياحد ضوءه من مصدر آخر ، ولقد أتى الله

تعالى بهذا النثل لأنهم في زمن إبراهيم عليه السلام كانوا يعبدون القمر والنجوم والشمس والأصنام ،

﴿قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ

قَالَ لَيْسَ لَمْ يَدْرِ رَبِّي لَأَسْكُوتُ مِنَ الْقَوْرِ الضَّالِّينَ﴾ [الأعام ٧٦ ، ٧٧] هنا وقف العلماء عند

هذه الآيات وتساءلوا : كيف يجرى إبراهيم على لسانه لفظ الشرك ؟ وبدأ العلماء يبررون

ويفسرون هذا ، ونحن نقول لهم . إن الذى قال عن إبراهيم إنه قال : ﴿هَذَا رَبِّي﴾ هو الذى

قال ﴿وَأَنزَيْمَةَ إِلَهِي وَفًا﴾ [النجم ٣٧] وهو الذى قال : ﴿وَلَمَّا أَتَىٰ الْإِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ

فَاتَّمَنَّهُ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَتَأَلَّ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة ١٢٤]

إذن .. فمقولة إبراهيم هذه لا تحدثش ودية الإيمانى ، ولكن لابد أن لها معنى آخر ، ذلك أن

القوم كانوا يعبدون الكواكب والشمس والقمر ، ويريد إبراهيم أن يلفتهم إلى فساد العقيدة

ولكن يلفتهم بأدب البوة ، وليس بالشتائم ولا بالسب ، ولذلك فإن هذا الأسلوب يقتضى أن

يذكر الشئ ، وفيه نقص والناس لا تلتفت إليه ولكن سياق الحركة يدل عليه

فكان إبراهيم حين يقول هذا ربي يدى استكباره أن يكون هذا الكوكب إلهاً ، وهو

ينهمك على الذى يعبدونه ، والدليل على ذلك هو سياق الحوار حين يقول : ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾

وأقول النجم والقمر وغروب الشمس ، أمور قد شهدها إبراهيم قبل ذلك مئات المرات ، فلا يمكن أن يكون قد هوجئ بأن النجم قد أفل ، أو أن الشمس قد عابت ولكنه كان يعلم ذلك جيداً .

على أن لا بد أن ملاحظ ملاحظة هامة هي قوله تعالى : ﴿لَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَارِعَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام ٧٨] المطلق اللعوى كان لا بد أن يقول : « هذه » لأن الشمس مؤنث ، يمكن أن يكون السياق هنا على أساس قوله هدا عن الكوكب وعن القمر ، فحمل الأمر على السياق أو الحال ويمكن أن يكون لأن الشمس صياء ، ويكون المعنى هدا الضياء . والله سبحانه وتعالى أراد أن يتره كلمة الرب أن تلحق بها علامة التأنيث ، لأن التأنيث فرع للتذكير ، ويمكن أيضاً أن نقول : إن الشمس مؤنث مجازي .

والعلماء يعطون إلى هذه المسألة هي كل الصفات التي تتحدث عن الحق سبحانه وتعالى ، فأنت إذا أعطيت أحداً صفة لعلم نقول : فلا عايم ، وإذا أردت أن تعطيه صفة أكبر من العلم نقول : عليم ، ولذلك يقول الحق : ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عِلْمٌ﴾ [يوسف ٧٦] . فإذا أردت أن تعطيه وصفاً أكبر وصف المبالغة- تقول : علامة ، ولكن عندما يتحدث الله تعالى عن نفسه يقول ﴿عَلَّمَ الْغُيُوبَ﴾ [البقرة ١٠٩] ووصف الحق بأنه علام لئلا يتحقق به تاء التأنيث ولو كانت للمبالغة .

ويهي إبراهيم قوله لقومه بعد أن رأى السجود والقمر والشمس تعيب أو تأفل ﴿يَقُولُ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام ٧٨] فعماداً قال إبراهيم : إني بريء مما تشركون . ولم يقل لهم كونوا جميعاً براء مما تشركون ؟ لأن طبيعة المبدع أو المباشرة أو المبلغ أو الرسول أن يحمل نفسه أولاً على الأمر قبل أن يحمل مخاطبيه ، وألاً يأمرهم بأمر يحالهم هو ؛ ذلك لأن الإنسان إذا غش الناس فإنه لا يغش نفسه .

والبراءة من الشرك : هي التحلي عن انعسد ، أو الانقطاع عن العمل المفسد والدخول في العمل الصالح ، أم قول إبراهيم ﷺ ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام ٧٩] . بمعنى ذلك أني توجهت لله الإله الحقيقي لهذا الكون الذي خلق السماوات والأرض . ولكن لماذا استخدم إبراهيم ﷺ السماوات والأرض

كمظهر للكون ، ولم يقل مثلاً إني توجهت للذى خلق النجوم والكواكب والشمس والقمر ؟

{والجواب فى نقاط} :

أولاً : لأن هذا التعبير أعم .

ثانياً : لأنه ظاهر للناس جميعاً لا يحتاج إلى دليل .

ثالثاً : لأنه لا أحد من البشر مد يد الحقيقة حتى الآن زعم أنه هو الذى خلق السماوات والأرض .

رابعاً : لأن خلق السماوات والأرض يشعر بالقدرة الخارقة للإله الذى خلق هذا كله ، ومى هذا يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر ٧٥] .

وحين أعس إبراهيم عليه السلام ويؤمن للناس أن ما يعبدون هو مجرد إفاك ، وأن ما اتخذوه آلهة لا ينفع ولا يضر ولا يخلق شيئاً ؛ بل هو مخلوق أو مما صعبته أيديهم هل اقتنع القوم بذلك ؟ [الجواب] . لا ، بل أحدثهم العزة بالإثم . وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَحَاجَّتُمْ قَوْمَهُ قَالُوا مَسْجُوتٌ فِي أَفْئَةٍ وَقَدْ حَدَّثَ وَلَا أَحَافَ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يُشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَبِيعَ رَبِّي كَيْلَ شَيْءٍ عَيْنًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام ٨٠] هنا يريد الحق سبحانه وتعالى أن يبين لنا أن قوم إبراهيم مصرؤون على الصلال ، ولذلك فقد بدءوا يجادلونه فى نقاش ، كل واحد يبدل بكلامه ليحاول أن يُبطل كلام الآخر ، وهم هنا يجادلون إبراهيم فى الله جل جلاله ، وكأنه قد عز عليهم أن يعلن إبراهيم أنه توجه إلى الله الذى فطر السماوات والأرض ، أى يريدون أن يصرفوا إبراهيم عن دينه الحنيف

ما هى حججهم ؟ وهل يمكنون حجة ؟ بالطبع لا ، إذن .. فكيف يواجهون إبراهيم وماذا يقولون ؟ إنهم لا يستخدمون الحجة والمنطق ؛ بل يستخدمون الخرافة ، ولذلك فإن الجدل هنا يقوم على أساس التخويف أى يقولون لإبراهيم . لو كفرت بآلهتنا فإنك ستعرض لانتهامها وستعمل بآلهة كذا وكذا ، وسيحل بك غضبها وسخطها فمعرض ولا شئى ، أو تجمع ولا تجد طعناً أو تسلبك الحياة .

هذه هي الحجة التي يقولها من لا حجة له ، وما دام قد جاءت كلمة الخوف ونعماها إبراهيم عليه السلام عن نفسه فكانه حدث تهديد وقالوا له : إن ألتهنا لن تتركك . حتى يحوفوه ليرك عبادته الله ، إنهم يندروه بأشد العواقب . وهنا يرد إبراهيم عليهم بالحجة : ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ . أى أن هذه الكواكب والأصنام والشمس والقمر لا تنفع ولا تضر ولا تخيف أحداً ؛ ذلك أن إبراهيم يقول للكفار إنه قد يحدث الصرلى ، ولكن الضر هنا لا يأتي من ألتهكم التي تحاولون إحاطي بها ، لأن النافع والضرار هو الله تعالى ، فإن أصابى الضر هذه مشيئة الله تعالى وليست مشيئة أحد غيره .

ثم يقول إبراهيم عليه السلام : ﴿أَفَلَا نَتَذَكَّرُ﴾ كلمة ﴿أَفَلَا نَتَذَكَّرُ﴾ تدل على أن فضايها العقائد مأخوذة بالفطرة ، ولكن إقبال النفس على الشهوات هو الذى يحاول أن يغطي هذه الفطرة فليس مطلوباً من الإنسان أن يشي فكرة عقائدية ، ولكن المطلوب منه فى قضايا الإيمان أن يندكر فقط .

ثم يخصى إبراهيم عليه السلام فى حجته : ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام ٨١] وهنا يعطى الله تعالى إبراهيم عليه السلام الحجة على الكفار فيقول له : أنتم عبدتم ما لا يضر ولا ينفع ، وأنا آمنت بمى يضر وينفع . فمن ما الذى يجب عليه أن يخاف ؟ الذى أشرك بالضرار والنافع أم الذى آمن به ؟

إذن يريد الله سبحانه وتعالى أن يجذبهم إلى الإيمان دون أن يهيج فيهم الذاتية التي قد تجمعهم بمعتقدات مع اقتناعهم .

قصة الذى حاج إبراهيم فى ربه

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿الَّذِينَ تَرَى إِلَى اللَّهِ دَعَاءً لَهُمْ يَفْضَلُونَ أَنَّ ابْنَهُمْ يُرْسَلَهُمْ أَلَيْسَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ [البقرة ٢٥٨] وساعة تسمع ﴿الَّذِينَ تَرَى﴾ فيجب أن تعلم أنها مكونة من ثلاثة هى : الهمة ، وحرف النفى هو «لم» وفعل مضى هو «ترى» . والهمة تأتى ها لشيء اسمه الإنكار ،

والإنكار نفى بتفريع ، كأن تقول للابن على سبيل المثال : أتصرب أباك ؟ . إن الهمزة هنا جاءت لا لتستفهم وإنما لتكرر الفعل المثبت بعدها . وما دام الإنكار نفياً وقد دخلت الهمزة على فعل منفي فهي « نفى النفي » ونفى النفي إثبات .

إذن .. فقول الحق : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ يكون المقصود به - أنت رأيت - وقد يسأل سائل : ولماذا لم يقل الحق « رأيت » ؟ والرد على مثل هذا السؤال هو : إن الحق سبحانه وتعالى أورد هذا المعنى بأسلوب نفى النفي من أجل أن يكون أثر المعنى أوقع في نفس السامع ؛ لأن معنى الإثبات فقط قد يعطى أثر التلقين .

وعندما يقول الحق : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى آلِ الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ ﴾ . فالمخاطب الأول بالقرآن الكريم هو الرسول ﷺ ، فهل رأى الرسول الكريم حادث الرجل الذي حاج إبراهيم في ربه ؟ طبعا لا ، فكان : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ هنا تأتي بمعنى « ألم تعلم » . وقد يقول قائل : ولماذا لم يقل الله : « ألم تعلم » ؟ والرد على مثل هذا القول : إن الله تعالى يحبرنا بخبر ، وعليه كموثني أن يصدق الخبر كأننا رأيناه بعيوننا .. لماذا ؟ لأن العين وهي حاسة قد تخدع ، ولكن ربك لا يخدع أبداً . إذن .. فمعنى ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ هنا تكون بمعنى « ألم تعلم علم اليقين بأن هناك رجلاً قد حاجَّ إبراهيم في ربه ؟ » .

واستعمال حرف « إلى » هنا يشير إلى أمر عجيب قد حدث . وعندما ننظر إلى كلمة : ﴿ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴾ . فإننا نجد أن كلمة : ﴿ حَاجَّ ﴾ أصلها « حاجج » مثما نقول : « قاتل » و « شارك » . وفي اللغة العربية عندما يكون في الكلمة حرفان متماثلان يقوم بتسكين الأول ويضعف الثاني فيه .

ومثل ذلك : « حاجج » فنسقطها « حاج » وهي من مادة « فاعل » وتأتي للمشاركة . وما معنى المشاركة في اللغة ؟ إنها مثما نقول : « قاتل زيد عمراً » والمعنى هنا يتسع لأن يكون عمرو قد قاتل زيداً .. لماذا ؟ لأن كليهما قد تقاتلا ، وكليهما من حيث المعنى فاعل ومفعول به في نفس الوقت ، لكنا نغلب الفاعل في جانب ونغلب المفعول في جانب آخر ؛ وعادة ما نغلب الفاعلية فيمن بدأ بالفعل ونغلب المفعولية في الثاني .

وفي قول الحق سبحانه . ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴾ نحن نلاحظ أن

كلمة ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ في الآية الكريمة مصبوبة بالفتح ، أى يغيب عليها المفعولية فمن إذن الذى حاج إبراهيم ؟ إنه شخص ما ، وهو الفاعل ؛ لأنه الذى بدأ بالمحاجة ، هكذا تدلنا الآية الكريمة ونصف الآية ذلك الرجل : ﴿أَنْ مَّا تَدْعُو اللَّهَ أَلَمَّا لَكَ﴾ أى أن الرجل قد وهبه الله الملك وحاج هذا الرجل إبراهيم فى ربه ، فكان جواب إبراهيم على هذه المحاجة ﴿رَبِّىَ الَّذِى يُنْعِمُ وَيُمْسِكُ﴾ ومن هذا الجواب نفهم أن الرجل قد حاج إبراهيم بأن سأله : من ربك ؟ ومن عجزاقران الكريم أنه يترك للسامع فى أن يرد كل شىء إلى أصله ؛ لذلك لم يورد الحق سؤال الرجل الذى حاج إبراهيم إنما أورد جواب إبراهيم : ﴿رَبِّىَ الَّذِى يُنْعِمُ وَيُمْسِكُ﴾ .

فكيف أعان الله تعالى إبراهيم هذا الرجل ؟ إن الرجل الذى آناه الله الملك يدخل مع إبراهيم عليه السلام فى محاجة بهدف السفسطة أى إطالة الجدل ، فألهم الله تعالى إبراهيم أن يقول هذا القول الحكيم : ﴿رَبِّىَ الَّذِى يُنْعِمُ وَيُمْسِكُ﴾ ، ماذا جاء إبراهيم عليه السلام بهذه الحجة ؟ لأن أحدًا لم يجرؤ أن يدعى القسرة على الإحياء والإماتة ، إلا أن الخصم الذى حاج إبراهيم يريد ألا يسهى الجدل فقال الرجل ناقلاً المحاجة إلى لون من السفسطة . أنا أحيى وأميت . فسأله إبراهيم عليه السلام : كيف تمحى وتميت ؟ ، فقال الرجل : إن عدى من المسجونين عدلاً وأستطيع أن أقتل منهم من أشاء ، وأن أمتنع عن قتل من أشاء ، فمن لم أقتله كأبى أحييته ، ومن قتلته فأنا أمته . لم يقل له إبراهيم عليه السلام : لتتقأولاً ما الحياة ؟ وما الموت ؟ ددك أن إبراهيم عليه السلام لم يرد أن يطيل ههنا المجادلة ، إنما أراد أن يأتى بالحجة التى تسقط للرجل كل ما يحتاج به .. فجادله بما يُلجمه ، لقد كان من الممكن أن يدخل إبراهيم مع الرجل فى جدل ، فيقول إبراهيم عليه السلام للرجل . ما الحياة ؟ ولم يكن قادراً على أن يحيب بأن الحياة بالسسية للإنسان هى إعطاء امددة ما يجعلها متحركة حساسة مريدة مخترة ، إذا سأل إبراهيم الرجل : ما الموت ؟ فما كان الرجل قادر على التفرقة بين الموت وبين القتل ، فالرجل قد ضل أن الموت إحراح الروح من الجسد بجرح أو بقص بية بأن يهشم لإنسان ما رأسه ، إن هذا هو القتل وليس هو الموت ؛ لأن الموت هو إحراح الروح من البدن بدون جرح أو نقص بنية أو أى عمل فى بدن الإنسان ، ولا يقدر على ذلك إلا واهب الحياة الحق بأن يقول بقدرته للإنسان : مت فيموت .

انتقل تحليل الرحمن بالحوار إلى أمر مشهود فسادا فان ؟ ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة : ٢٥٨] .

حيث وجد واجه الذي حاج إبراهيم في ربه أمراً لا قيل له به ، لقد بهت الذي كفر ولم يجرؤ على الرد على مقولة إبراهيم عليه السلام ، بأن الله تعالى يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب . إنه يكون غاية في الذكاء ؛ لأنه إذا كان قد علم أن الله يسند إبراهيم عليه السلام ، بذلك لم يقل . ما دام الله يأتي بالشمس من المشرق فاجعله يأتي بها من المغرب ، إنه في هذه الحالة يعلم قدرة الله وإن كان قد أنكرها وأعلن الكفر بها ، وقد يكون هذا الذي حاج إبراهيم عيباً ، لذلك لم يرد على إبراهيم ويقول : ما دام الله يأتي بالشمس من المشرق فاجعله يأتي بها من المغرب ، وهو في هذه الحالة قد فقد القدرة على مراجعة إبراهيم .. لقد بهت لأنه كفر .

والبهت يأخذ ثلاث صور :

الدهشة أولاً ، ثم الحيرة ثانياً ، ثم الهرطقة ثالثاً . لقد انتقل الذي كفر من انقدرة على المواجهة إلى مفاجأة الدهشة ، هذه هي الصورة الأولى ، ومن المفاجأة والدهشة انتقل إلى التحير ؛ لأنه يبحث عن مخرج لنفسه فلم يجد مخرجاً من ورطته ، وهكذا تلقى النتيجة وهي الهرطقة ، ويلخص لنا الحق كل ذلك في جملة واحدة : ﴿ قَبَّحْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ وحدوث البهت لمن كفر أمر ليس بمجيب ؛ لأنه بلا ولاية من الله ، إنما أولياؤه هم الطاعون .

ابتلاء إبراهيم في ولده

إبراهيم عليه السلام لم يتل بالدار وحدها ؛ بل ابتلى في آخر أيامه بأن أمره الله تعالى بذبح ولده الوحيد ، والإنسان في أول حياته تكون ذاتية ، هي المسيطرة على نفسه ولكنه في أواخر حياته تكون ذاتية أولاده فوق ذاتيته . فقد اقتربت حياته من النهاية ولذلك فهو يريد أن يعطي أولاده كل شيء ، ويريد أن يحقق لهم ما لم يحققه لنفسه ، وهكذا عندما كبر إبراهيم وصار شيخاً جاءه الابتلاء الثاني بأن يذبح ولده .

وإبراهيم عليه السلام يعلم يقيناً أن الحق سبحانه لا يطلب من حلقه إلا الاستسلام لقضائه ؛ ولذلك إذا رأيت إنساناً طال عليه القصاص في أي شيء ؛ في مرض ، في مصيبة ، في مال ، فاعلم أنه لم يرض بما وقع له ، ولو أنه رضى لانتهى القصاص .

ولكن حب إبراهيم لابنه جعله لا يريد أن يجعل إسماعيل يمر بفترة سخط فلا يغور برضا

الله ، ولذلك لم يأخذه رغماً عنه ويدبحه ؛ لأن في هذه الحالة قد يكون إسماعيل غير راض ، فيحرم من الجراء على هذا الإعتلاء ، فيقول إبراهيم عليه السلام لولده : ﴿ يَتَّقِ اللَّهَ إِنَّكَ فِي كُنْهَاتِ الْغَايِبِ ﴾ [الصافات ١٠٢] . فكان رد إسماعيل على أبيه عيها السلام : ﴿ يَا أَبَتِ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْعَابِدِينَ ﴾ [الصافات ١٠٢] ولم يقل : يا أبت افعل ما تريد ؛ حتى يأخذ الابن ثواب عبودية الطاعة ، ﴿ فَلَمَّا أَتَيْنَاكَ الْخَبِيرَ ﴾ [الصافات ١٠٣] ناداه الله تعالى : ﴿ أَنْ يَكْفُرْ هِمْزٌ ﴾ ﴿ فَذُ صَدَقْتَ الرَّبُّ يَا إِبْرَاهِيمُ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات ١٠٤-١٠٧] . إذن .. فعندما صدق إبراهيم الرؤيا نزل الذبح العظيم من السماء ليفتدى به إسماعيل ؛ بل وأكثر من ذلك نزلت معه البشارة بأن إبراهيم سيرزق بولد آخر مصداقاً لقول الحق : ﴿ وَنُفِثْنَاهُ نَفِثًا مِّنَ الْأَشْجَارِ ﴾ [الصافات : ١١٢] هكذا لم تكن البشرية فقط من الله بإنجاء إسماعيل من الذبح ؛ بل كانت أيضاً بأن إبراهيم سيرزق بولد ثان ، وهذا الولد سيكون نبياً من الصالحين .

البشرى بإسحاق ويعقوب عليهما السلام

الحق سبحانه وتعالى يقول ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ بِالْغُرُبَاتِ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَدْ جَاءَكَ بِعِثْلٍ حَسِينٍ ﴾ [هود ٦٩] . وقال أيضاً : ﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ جِيعَةً ﴾ [هود : ٧٠] هذا معنى الوجدان ، قوله تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكَ بِعِثْلٍ حَسِينٍ ﴾ ، ﴿ قَدْ جَاءَكَ ﴾ . أى ما مروت فترة فبمجرد أن دخلوا وسلموا أحضر العجل ، والعجل هو ولد البقرة ، أى أحضر عجلًا صغير السن ، و﴿ حَسِينٍ ﴾ معناها مشوى على الحجارة . فالشواء يشوى مرة على اللهب ومرة يشوى على الفحم ، ومرة يشوى على الحجر ، بأن يُعرض الحجر للهب شديد حتى يحمر ثم يشوى عليه العجل . هم يسمونه في البلاد العربية بالسلاج ، يأتون بحجر رقيق مثل الصاح ، يصعونه على نار حتى يُحمى ، ويصبح لونه أحمر من شدة الحرارة ، ثم يلقون عليه اللحم ، ذلك أن الحجر لا يتفاعل مع اللحم ، ولكن الحديد واللهب وانفحم تخرج منه تفاعلات ، ولذلك فإن الشواء على الحجر هو أنظف أنواع الشواء ، و﴿ حَسِينٍ ﴾ قد تعنى كثرة الدهن يسبح فوق اللحم .

وقول الحق سبحانه وتعالى . ﴿ قَدْ جَاءَكَ بِعِثْلٍ حَسِينٍ ﴾ . ندلنا على أن الخليل

إبراهيم ، أنه كان يحب الضيوف ، واليوم الذي كان لا يأتيه فيه ضيف يحزن ، وساعة رأى وجوهاً جديدة قدمت عجل بالطعام ، وهذا أيضًا يمثل الكرم ؛ لأنه عندما يأتي ضيف لم تعرف كم ساعة مصت عنيه وهو لم يأكل ، فتأتي له بالطعام بعد أن يدخل عندك ، فإن كان جائعًا أكل ، وإن كان شبعانًا لم يأكل .

وعندما قدم إبراهيم لصيوحه العجل المشوى ، لم يمدوا أيديهم للأكل . ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِمْ ﴾ وما داموا لم يمدوا أيديهم إما أنهم غير جائعون ، وإما أنهم جاءوا يقصدون شراً ، فيرفضون ما يقدم إليهم .

ولذلك يقول الحق ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِمْ نَكَرَهُمْ وَأَوَّجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ [هود : ٧٠] ولكن هؤلاء كانوا من الملائكة ، لم يمدوا أيديهم للأكل من العجل ، والضيف إذا جاءك وقدمت له طعامك فأكل فقد استأمنك على طعامه ، أما إذا قدمت له الطعام ولم يأكل فإنه لا يستأمنك على طعامه أو جاء يقصد شراً .

فعندما لاحظ إبراهيم عليه السلام أنهم لا يأكلون خاف منهم ، ولكن هذا الخوف ظل حبيساً في نفسه ولم يقم بأي فعل يظهر مخوفه ، ولكن الملائكة أحسوا بخوف إبراهيم ، فأرادوا أن يطعمنوه بأنهم لم يأكلوا ، ليس لأنهم جاءوا يقصدون الشر ، ولكن لأنهم ملائكة لا يأكلون ولا يشربون ، جاءوا ليعيدوا مهمة كلهم الله تعالى بها . فقالوا : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّا أُزِلْنَا إِلَىٰ قَوْرٍ لُّوطٍ ﴾ . ولكسهم لم يقولوا إما رسل ربك ، مشمًا قالوا للوط عليه السلام ، وعندما قالوا لإبراهيم : ﴿ إِنَّا أُزِلْنَا إِلَىٰ قَوْرٍ لُّوطٍ ﴾ فهم أنهم ملائكة ، مع أنهم كانوا في هيئة رجال والملائكة يتشكلون بشكل الرجال ، فجبريل عليه السلام جاء إلى رسول الله ﷺ على هيئة رجل . ونحن أيضًا لهم قدرة على التشكل ، ولكن الجن إذا تشكل تحكمه الصورة التي تشكل بها . ولكن الملك لا تحكمه الصورة .

وقوله تعالى ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِمْ نَكَرَهُمْ ﴾ [هود : ٧٠] مادة النور والكاف والراء معاً أنه لم يعرفهم ، وهناك كسر وأكر ، وتأتي بالاشتقاق .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَوَّجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ وفي آية أخرى : ﴿ قَالُوا لَا تَحْزَنْ إِنَّا أُزِلْنَا إِلَىٰ قَوْرٍ لُّوطٍ ﴾ الآية الأولى كشفت الأعمال «نفسى» والآية الثانية أحضرت المعنى الروعى ،

فلما قالوا : ﴿لَا تَحْتَفِ إِنَّآ أَنزِلْنَآ إِلَآكَ قُورَ لُوطَ﴾ . عرف إبراهيم ﷺ أنهم من الملائكة وأنهم أرسلوا ليعذبوا قوم لوط خصوصاً أن امرأة إبراهيم كانت قد قالت له : ألا تصم ابن أخيك لوطاً إلى كنتك ؛ لأن قومه يوشك أن يعذبهم الله بالعذاب . وبذلك عندما سمعتها الملائكة سرت من فراستها فصحكت ، وذلك قول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَابِئَةُ فَصَحَكَتُ﴾ . ورواه تعالى : ﴿فَنَشَرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَإِسْحَاقَ وَيَسَاقَ وَإِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود ٧١] هذه الإشارة بينت لإبراهيم أنهم لم يأتوا لعذاب عبده ، ولكنهم جاءوا لعذاب قوم يكرهونهم وهم قوم لوط ، ولقد بشرت الملائكة امرأة إبراهيم بشيء كانت تتمناه وإن كان وقته قد فات ؛ لأنها كانت قد تقدّمت في العمر ، ولكنهم بشروها بأنها بعد هذا العمر الطويل ستلد ابناً ، وأنها ستكون جدة وسيكون لها حفيد هو يعقوب ، فاستقبلت الإشارة بالدهشة ، قالت كما جاء في القرآن الكريم : ﴿قَالَتْ يَوْنِلَيْكَ أَلَدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [مود ٧٢] ساعة تقول : يا ربني فإنيك نعم أن العاجزة صعبة عليها ، كيف سيحدث بها أن تحمل وهي عجوز وزوجها شيخ كبير ١٩

قولها : ﴿أَلَدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ أى إن مهمتى انتهت فى الحمل . ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ يعنى روجى شيخاً . ودقة التعبير أن البعل هو الذى يقوم بأمر البعل . وكذلك الزوج يقوم بأمر الزوجة ولا يعورها لأحد . والبعل : هو الرجل الذى لا يحتاج إلى ربح ليسقيه ، وإنما يكفى بما ينصبه من الأرض وما يرل من مطر السماء . قورها : ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ الشيء العجيب هو الذى يقع على غير انتظار ، ويحالف سنة من سنن الكون .

هجرة إبراهيم ﷺ إلى مكة المكرمة

لقد أخذ إبراهيم هاجر وابنها إسماعيل عليهم السلام وخرج بهما ليضعهما فى هذا المكان ، فماد قالت هاجر لزوجها : قالت : هل أنزلك الله هذا امرل أم أنه من اختيارك ؟ إنها تعرف أن مكوبات الحياة هى الماء والهواء والنقوت ، وهذا المكان لا توجد به حتى المياه ، لذلك قالت هاجر سائلة إبراهيم : كيف تتركنا هنا ؟ وهل أرسلت هاجر بك أم بوجيه من الله ؟ فقال لها إبراهيم ﷺ إنه توجيه من الله تعالى . حيث اطمأنت وقالت : والله لا يصعبنا أبداً . إنه

الإيمان العالي ؛ لذلك لم تقل هاجر ، لأن إبراهيم اتجه إلى ما أمره الله تعالى به .
هكذا يرى الإيمان في فمته ، ولو لم يكن الإيمان على هذه الدرجة الرقيقة فأى قلب لأمر
ترك الروح يذهب بعيداً عنها ويتركها هي وابنها الرضيع في هذا المكان الذى لا يوجد به طعام
أو ماء ، إنها لا تؤمن بإبراهيم ، ولكنها تؤمن برب إبراهيم .

البيت الحرام

قال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَتَمَكْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي رِجْعٍ
عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ
السَّمَاءِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم : ٣٧] .

من هذه الآية الكريمة نعرف أنه ساعة إسكان إبراهيم للدينه كان هناك بيت الله الحرام ،
وعندما نقرأ عن رفع قواعد البيت الحرام نجد أن إبراهيم عليه السلام لم يرفع قواعد البيت بمفرده ، بل
شاركه ابنه إسماعيل عليه السلام فيها ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ
رَبَّنَا قَبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٧] .

هكذا يتبين أن البيت المحرم كان موجوداً من قبل إبراهيم عليه السلام ، وعندما ندقق النظر في
معنى كلمة « بكة » التى وردت في قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ
لَلَّذِي بِمَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٦] ونحس نعرف أن هناك اسماً لمكان البيت
الحرام هو « بكة » وهناك اسماً آخر هو مكة ، وبعض العلماء يقول : إن « الميم » و « الباء »
يتعاونان ، ونلاحظ ذلك في الإنسان الأحنف أو المصاب بركام أنه يطلق « الميم » كأنها « باء » و
« الميم » و « الباء » حركات قريبان من طريق النطق ولألفاظ منها تأتي مع بعضها .

ولنتنظر إلى اشتقاق « مكة » واشتقاق « بكة » ، إننا نقرأ « بك المكان » أى : اردحم
المكان ، وهكذا نعرف أن قول الحق ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِمَكَّةَ مُبَارَكًا ﴾ . أى :
أنه المكان الذى اردحم ، وهو مكان الاردحام الذى يأتي إليه كل الناس وكل الرهود ؛ لتحي
بيت الله الحرام ، ولا أدل على ازدحام البيت الحرام من أن الرجال والنساء يحتضنون بعضهم
بالبعض أثناء الطواف . و « بكة » هى المكان الذى فيه الطواف والكعبة . و « مكة » هى اسم
مكان البيت الحرام ، و « مكة » مأخوذة من « مك الفصيل الضرع » أى امتص كل ما فيه من

لبن ، والعصيل كما عرف هو صغير الأبل أو صغير البقر ، وما دام الفصيل قد امتص كل ما في الضرع من لبن ، فمعنى هذا أنه جائع ، وكما عرف أن مكة ليس فيها مياه والبأس تكاد تمتص المياه القليلة عندما تجدها .

وقوله : ﴿مُبَارَكًا﴾ مأخوذة من «الباء والراء والكاف» والمادة كلها تدور حول شيء اسمه الثبات . وه الثبات ، هل هو الثبات الجامد أو الثبات المعطى النامي الذي مهما أخذت منه فإنه يعمو أيضًا ؟ ، وسحر في حياتنا العادية نقول . إن هذا المال فيه بركة مهما أنفقت منه فإنه لا ينتهي أي أنه ثابت لا يضع ويعطى ولا ينفد . وكلمة «بُرْكَة» في حياتنا تعني أنها تجمع من الماء بأحد منه بعض الماء ولكن الماء يأتي إليها مرة أخرى وكلمة «تبارك الله» تعني «ثبت الحق» ولم يزل ولا يزال هو واحد إنه الثبوت المطلق . وهكذا نجد أن الثبات في معنى البيت الحرام ، إن البيت الحرام مبارك ، وإذا سأل أحد كيف ؟ نرد على هذا القائل : أليست تصاعف فيه الحسنة ؟ وهل هناك بركة أحسن من هذه ؟ وهل هناك بركة أفصل من أنه بيت تحيى إليه ثمرات كل شيء ولا تنقطع . فقد كان قاصد البيت الحرام يأخذ معه حتى الكفن ، ويأخذ الإبرة والخيط ، والملح ، والآل فإن الرائر لبيت الله الحرام يذهب ليأتي بكماليات الحياة من هناك .

وقوله : ﴿وَهَذَى لِّلْعَالَمِينَ﴾ ما هو الهدى ؟ قلنا : إن الهدى هو الدلالة الموصلة للعبادة ، ومن يزر البيت الحرام يخرج من ديوبه كيوم ولدته أمه ، فهل اهتدى للبحر أم لا ؟ إنه يعرف بحج البيت الحرام الطريق إلى الجنة . وحينما نطرح إلى هذه المسألة نجد أن الحق سبحانه وتعالى لما تكلم عن البيت ، لم يتكلم إلا عن آية واحدة فيه مع أن فيه آيات كثيرة قال الحق : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا جَعَلْنَا لَكُمُ الْبَيْتَ حَرَامًا وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران . ٩٧] . إننا نجد أن صيغة الجمع موجودة في قول الحق : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا جَعَلْنَا لَكُمُ الْبَيْتَ حَرَامًا وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ عَلِيمٌ﴾ . وبعد ذلك قال الحق : ﴿مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ﴾ إن الحق لم يذكر إلا مقام إبراهيم بعد الآيات والمقام آية واحدة ، وهكذا نجد أن ﴿مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ﴾ تدل على الآيات البيئات ، وقد يقول قائل : أليس في المقدور أن يضيف الأمان المصوح لمن دخل البيت مع مقام إبراهيم ؛ لتكون هذه هي الآيات الموجودة في البيت الحرام ؟ لكن الآيات في البيت الحرام أكثر من هذا بكثير ؛ بل إننا عندما نرى مقام إبراهيم نجد فيه الآيات البيئات ، ونحن نقرأ : ﴿مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ﴾ يفتح الميم الأولى في كلمة «مقام» ولا

نطلقها « مقام » بضم الميم الأولى ؛ لأن « المقام » بضم الميم تعنى مكان إقامة إبراهيم ، أما « مقام » بفتح الميم هى مكان القيام .

لماذا كان قيام إبراهيم عليه السلام ؟ لقد كان إبراهيم يقوم ليرفع قواعد البيت الحرام ، وكان إبراهيم يقوم على « حجر » وعندما ننظر إلى « مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ » فإنك تجد فيه كل الآيات الدينية لماذا ؟ لأن الله تعالى طلب من إبراهيم عليه السلام أن يرفع قواعد البيت ، وكان يكفيه حين يرفع قواعد البيت أن يعطيه الارتفاع الذى يؤديه طول يديه ، وبذلك يكون إبراهيم عليه السلام قد أدى المطلوب لله تعالى ، لكن إبراهيم عليه السلام تردد أن يؤدى كل تكيفات الله تعالى بحب وإكسان وتمام ؛ لذلك تسأل إبراهيم عليه السلام ، ولماذا لا أرفع البيت أكثر مما تطول يداى ؟ ولم تكن هناك فى ذلك الزم القديم فكرة « السقالات » ولم يكن مع إبراهيم عليه السلام إلا إسماعيل ، وأحضر إبراهيم عليه السلام حجراً ووقف عليه ، وعندما يأتى إبراهيم بحجر يصعده تحت قدميه ليقف عليه ، فإنه يرفع القواعد قدر الحجر .

إذن .. فإبراهيم خليل الرحمن أراد أن ينفذ أمر الله بالرفع للقواعد لا بقدر الاستطاعة البدنية فقط ، ولكن بقدر الاستطاعة والاحتمال ، وهذا يوضح لنا معنى قوله تعالى : ﴿ وَابْنُ إِسْرَءِيلَ إِذْ وَجَدَ رَبَّهُ بِكَنُوزٍ فَاتْمَحَّرَ قَالَ إِنِّيُ جَاءُكَ لِلْإِسْلَامِ إِيمَانًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَبْتَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة ١٢٤] أى أنه أدى المطلوب لله أداءً كاملاً ، ولا أدل على الأداء من أنه أتى بحجر منها ليقف عليه وليريد من ارتفاع البيت قدر هذا الحجر ، نحن نعرف أن إسماعيل قد شارك فى رفع القواعد للبيت الحرام ، وعندما ننظر إلى الحجر لمجده لا يسع إلا وقوف إنسان واحد عليه .

وهكذا نفهم أن إسماعيل كان يساعد ويأول والده الأحجار .

أما مكان الأقدم الموجودة فى هذا الحجر فهذا يعنى أن إبراهيم عندما كان يقف ويحمل حجراً من المفروض أن يحمله اثنان كان لابد من ثبات القدمين فى مكان آمن ، وكان إسماعيل يساعد فقط فى نقل الأحجار وكان إبراهيم هو الذى يحمل الحجر ، وعندما يحمل إبراهيم ورثاً لا يحمله إلا اثنان ويقف ليرفعه فلعله خاف أن يقع من على الحجر ، فهل يا ترى أن الله سبحانه وتعالى جلت قدرته ساءة أن رأى إبراهيم يحتمل هذه الحيلة قال لخليله - سأكفيك

مثوبه ذلك ، وجعل قدميه تفوصان في الحجر غوصاً يسدها إن هي زلت ، والذي لا يتسع دمه إلى أن الله تعالى ألان لإبراهيم الحجر ، يقول له : إن إبراهيم قد احتال وخاف أن يترلق أو تزل قدمه من على الحجر فتحت مكاناً في الحجر على قدر قدمه ، حتى يستطيع أن يحمل ويرفع الحجر الذي يحمله اثنان ، وهذه آيات بينات .

إبطال دعوى اليهود والنصارى في إبراهيم

يقول الحق عز وجل : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَحْجُوثُمْ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران ٦٥] .

إذن .. إبراهيم عليه السلام لا يمكن أن يكون يهوديًا كما يدعى اليهود ، لأن اليهودية جاءت من بعد إبراهيم ؛ وكذلك النصارى لا يمكنهم الادعاء بأن إبراهيم كان نصرانيًا ؛ لأن النصرانية جاءت من بعد إبراهيم فلم الحاجة إذن ؟

لقد أنزلت التوراة والإنجيل من بعد إبراهيم ، فكيف يكون تابعًا للتوراة أو الإنجيل ؟ ويقول الحق بعد ذلك : ﴿وَمَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران ٦٧] . لم يكن إبراهيم يهوديًا ؛ لأن اليهودية جاءت من بعده ، ولم يكن إبراهيم نصرانيًا ، لأن المسيحية جاءت من بعده ﴿وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾ أي أنه مائل عن طريق الاعوجاج .

قد يقول قائل : ولماذا لم يقل الله تعالى إن إبراهيم كان على طريق الاستقامة بشكل مباشر ؟ تكون الإجابة : حتى لا يصل أحد ويظن أن هذا اللون من الاستقامة مشابه لما كان موجودًا في عصره . إنه مسلم ، وكلمه مسلم تقتضي مُسْلِمًا إليه وهو الله تعالى ، إنه أسلم رماحه إلى الله ، ومُسْلِمًا : هو من ، ومُسْلِمًا فيه : وهو الإيمان بالمنهج ، ولذلك سمي شريحًا المسلمة . الحنيفية السمحة ، أي التي مالت عن ريف . كما يقول الحق تعالى ﴿حُفَاةٌ لِلَّهِ عَبْدٌ مُشْرِكِينَ يَدْعُو وَيَسْتَرْكِي بِأَقْلَامِهِ فَكَاثِمًا حَرًّا مِنَ السَّمَاءِ فَتَحَطَفُهُ الظُّلُمُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِينٍ﴾ [الحج ٢١] وذلك يعني أن يكون مائلين عن كل ريف أو ريع .

إذن .. كان إبراهيم عليه السلام ﴿حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾ أي أنه كمسلم ألقى رماحه إلى مسمِّ إليه ، في كل ما ورد في «اعمل » و« لا تفعل » .

وقال سبحانه وتعالى ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥].

وكلمة «اتبعوا» توحيح أن هناك مقدما كما أن هناك تابعا، «والملة» تشمل المعتقدات والتشريعات العامة، ونحن نعرف أن الشريعة تشمل الأحكام، والدين يوضح العقائد، والصدق هو أن يطابق القول ما وقع فعلا، وإذا ما قل الحق سبحانه فلا بد أن يوافق ذلك ما هو واقع، فليس من المعقول أن يتكلم الله تعالى كلاما يأتي على لسان رسول، وبعد ذلك يأتي واقع الحياة مخالفا لهذا الكلام.

إن الحق العليم ألا ينزل من الكلام ما هو في صالح بقاء الدعوة، لذلك فحين يطلق الله قضية من قضايا الإيمان، فإنه لا بد أن نعلم أنها سوف تحدث عني وفق ما قل، حتى إذا كان الصنف الذي قيلت فيه لا يشجع على أن يصدق الإنسان أنها تحدث.

إن المؤمنين كانوا في أول الأمر مضطهدين ومرهقين وإذا لم يكن لأحد منهم عشيرة تحميه فهو يهاجر عن البلاد، وإن لم يستطع الهجرة فإنه يعذب ويضطهد، وفي هذه الأثناء وفي قمة اضطهاد المؤمنين ينزل القول الحق: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ لَكُمْ خُزُنًا وَجَنَّةً يَدْخُلُونَهَا﴾ [التحر: ٤٥] وعندما يسمع عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه هذا القول يتساءل: أي جمع هذا؟ إن الواقع لا يشجع على التصديق، وبعد ذلك جاءت بئر، وهزم المؤمنون الجموع.

إبراهيم عليه السلام .. وإحياء الموتى

قل الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُتُؤْمِنٌ قَالَ بَلَىٰ وَلَئِن لَّا يَظُنُّوا إِلَّا أَنَّهُمْ يَكْفُرُونَ قَالَ فَمُتُّ أَرْبَعَةً مِّنَ النَّاسِ فَوَضَعَهُنَّ لَكَ خَشَعًا لِّكَ ثُمَّ أَجْعَلُ لِكُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ أَدْعُهُنَّ بِأَيْمِنِكَ سَعِيًّا وَأَقْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠]. إبراهيم عليه السلام مؤمن بقدرته الله تعالى، لكنه يريد أن يعرف الكيفية، إن إبراهيم عليه السلام لم يكن شاككا، لأن رسول الله ﷺ قال: نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُتُؤْمِنٌ قَالَ بَلَىٰ وَلَئِن لَّا يَظُنُّوا إِلَّا أَنَّهُمْ يَكْفُرُونَ﴾ ونحن المسلمين لم نشك في هذا الأمر.

إذن .. إبراهيم عليه السلام لم يشك من باب أولى أن الرسول الكريم قال ما معناه إن كان هناك شك فنحن أولى بالشك من إبراهيم، وإبراهيم عليه السلام لم يشك بدليل مطلق الآية السابقة

إن إبراهيم عليه السلام يسأل ربه : ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ؟﴾ أى أنه يطلب الحلال التى تقع عليها عملية الإحياء ، إن إبراهيم عليه السلام لا يتكلم فى القدرة على الإحياء ، ولنضرب هذا المثل فى حياتنا ، ولله المثل الأعلى من قبل ومن بعد . والمثل لتقريب المسألة من العقول ؛ لأن الله منزه عن أى تشبيه . إن أحدا يقول للمهندس المعارى : كيف بيت هذا البيت ؟ إن صاحب السؤال يشير إلى حدث وإلى محدث هو البيت وقد تم بناؤه . إن صاحب السؤال يريد أن يعرف الكيفية . ولنا أن نسأل : وهل معرفة الكيفية تدخل فى عقيدة الإيمان ؟ إن الإجابة هى أن معرفة الكيفية لا تدخل فى عقيدة الإيمان ، إنها ترف رائد عن عقيدة الإيمان ، إن عقيدة الإيمان هى أن يعلم المؤمن أن الله يحيى الموتى ، أما كيف يحيى الموتى ؟ فلا مدخل لها فى قضية الإيمان .

ولذلك نجد أن بعض السطحين قالوا : والعياد بالله عن إبراهيم قال . أرى كيف تحيى الموتى ، فقال الله له . ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ قال إبراهيم . ﴿سَكَنَ﴾ إن كسرة ﴿سَكَنَ﴾ حين سماعها هى جواب بما بعد النفى . إنها جاءت هنا بمعنى محدد هو : بلى أنا مؤمن بقدرتك - سبحانه - على الإحياء والإماتة . وهذا هو القدر الكافى فى العقيدة الإيمانية .

هذا البعض من الناس قال : إذا كان إبراهيم مؤمناً ، والإيمان كما نعرف هو اطمئنان القلب إلى قضية ما ، بحيث لا تطمو لتدافع من جديد ، ولذلك سسمى هذا الأمر عقيدة ، أى أمر معقود ، فكيف يقول إبراهيم عليه السلام : ﴿وَلَيْتَنِي لَيْسَ لِي قَلْبٌ﴾ ؟ أليس هذا القول دليلاً على أن قلبه لم يكن مطمئناً ؟ ومعنى عدم اطمئنان القلب هو خلل القلب من الإيمان ، لكن الرد على مثل هذا القول : هو سؤال محدد : إلى أى شئ أراد إبراهيم أن يطمئن قلبه ؟ إن إبراهيم عليه السلام أراد أن يطمئن إلى الكيفية ، ويطمئن إلى أنه أدر بعكزه الكيفيات التى يكون عليه الإحياء ، إنه لم يعرف على أى صورة يكون الإحياء ، إن الاطمئنان هنا قادم لمرد فى كيفية مخصوصة تخرجه من متاهات كيفيات متصورة ومتحيلة .

هنا قال الحق سبحانه لإبراهيم عليه السلام : ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الْقُتُبِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْمَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْأً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة . ٢٦٠] إن الحق يعلم أن إبراهيم عليه السلام مؤمن تمام الإيمان ولكنه يسأل عن الكيفية ، والكيفية لا يمكن أن يتم شرحها بكلام إنما يتم شرحها بعملية واقعية . إن الحق يأمر إبراهيم عليه السلام أن يأخذ أربعة من

الطير الحي ويصمهم إلى صدره ليتأكد من ذوات الطير ، حتى لا يقول إن الحق سبحانه - ربما أحضر إليه طيراً آخر .

وقال المفسرون : إن الأربعة من الطير لم تكن من نوع واحد ؛ بل مختلفة ففيها عراب وطاووس وديك وحمامة ، وكل نوع له شكلية مخصوصة .

وأمر الحق سبحانه إبراهيم أن يجعل على كل جبل من هذه الطيور جزءاً ، بعد أن يذبحهن ويقطعهن ، ثم يوجه إلى هذه الطيور الدعوة ، فتأتي الطير إلى إبراهيم عليه السلام سعياً ، هذه العملية .. هل قام بها إبراهيم أم لم يتم بها ؟ هل اكتفى إبراهيم بما شرحه الله تعالى له بالكيفية ؟ إن القرآن الكريم لم يتعرض لهذه المسألة ، فإما أن يكون الله قد قال لإبراهيم عليه السلام الكيفية فقال إبراهيم عليه السلام : بدلاً من أن أقوم بهذه العملية فأنا مصدق لقولك يا ربى سبحانه وتعالى ، وما أن يكون إبراهيم عليه السلام قد قام بهذه العملية . إن الأمر في الخاتين جائز ؛ لأن القرآن الكريم لم يتعرض لذلك .

وعندما يقول الحق : ﴿ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ وقد يقول قائل : ألم يكن من المقرر أن يقول الحق : يَأْتِينَكَ طَيْرَانَا ؛ لأن الحديث يدور حول الطير ، والطيران من خصائصه وليس السمي . إن الحق أراد بذلك أن يوضح الأمر بصورة محددة ؛ لأن الطير جاء طيراناً ، فهو يطير في الجو ، وقد يقول إبراهيم ، إن الطير قد اختلط عني بعضه وجاء إليه ، إنما المجيء للطير بالسمي هو إيضاح كامل .

وذلك ليكون إبراهيم عليه السلام متأكداً بالكيفية ، فجاءت الطير من أنواع مختلفة ، وهو الذي قام بذبحها وتقطيعها ، وهو الذي وضع على كل جبل جزءاً ، وهو الذي دعا الطير .
إذن .. إبراهيم عليه السلام مؤمن بإيمان الاستدلال ، والمطلوب له الكيفية ؛ لأنه يجهل الحالة التي تكون عليها كيفية الأحياء

واتخذ الله إبراهيم خليلاً

قال الله تبارك وتعالى : ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء : ١٢٥] ما هي حيثيات الخلقة ؟ أن يتبع أفضل دين ، وأن يسلم وجهه لله ، وأن يكون محسناً ، ويتبع الملة ، وأن يكون حنيفاً .. هذه هي حيثيات الخلقة . وكان إبراهيم عليه السلام فيه كل هذه الصفات ، وإبراهيم عليه السلام

قد أسسم وجهه لله بدليل أن قومه عندما ألغوه في النار وجاءه جبريل الطاهر وقال له : ألك حاجة . أى ألك حاجة نطلبها ؟ فقال إبراهيم . أما إليك فلا . أى أنه لا يطلب من جبريل بداته شيئاً وهي ذلك قمة الإسلام لله .

ونحن نعرف مدى أسس الناس بأبائهم ، ونحن نعلم أن إبراهيم قد جاءه ولد في آخر حياته ، وقد ابتلاه الله فيه ، وكان الابتلاء غاية في الصعوبة بأن يذبح إبراهيم ابنه ، إن الابن لا يموت ولا يقتله أحد ، ولكن يقوم الأب بذبحه ، ولتأمل كم درجة من الابتلاء مر به إبراهيم ﷺ ؟ إن إسماعيل هو الابن الوحيد الذي جاء إلى أبيه على كبر . ويكون الابتلاء بالقتل على نوع محصوص .. أن يقتله الأب . وسارع إبراهيم لتنفيذ أمر الله ، ولذلك نفراً عن إبراهيم الطاهر : ﴿ يَسْأَلُ إِنِّي ارَئِي فِي الْمَنَازِلِ أَنِّي أَدْعُوكَ فَأَنْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ [الصافات ١٠٢] ويجعل الحق ذلك رؤيا في المنام لا بالوحي المباشر ، ولننظر إلى ما قاله إسماعيل الطاهر ، إنه لم يقل : افعل ما بدا لك يا أبى ، ولكنه قال : ﴿ تَأْتِي أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْقَبِيرِينَ ﴾ * ﴿ مَا أَتَلَقْنَا وَتَلَمَّ لِلْجَبِينِ ﴾ [الصافات ١٠٢ ، ١٠٣] أى أن إسماعيل وإبراهيم استسلما معاً لأمر الله . فماذا كانت النتيجة ؟ قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنْ يَدْعُوا بِهِمُ ﴾ * قَدْ سَدَقْتَ الرَّبِّيَّ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّكَ هَٰذَا هُوَ التَّقْوَى الْمُبِينُ * وَقَدَرْنَاهُ بِدَنَجٍ عَظِيمٍ * وَزَكَّيْنَاهُ عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَّمَ عَلَٰهُ إِزْهَامُ * كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَنَشَرْنَاهُ بِمُسْحَقٍ يَبِيَّتَا بَيْنَ الصَّنَادِينَ ﴾ [الصافات ١٠٤ - ١١٢] . كان الهداء لإسماعيل ، والبشارة بإسحاق ، جزاء الصبر على الابتلاء

وقول الحق : ﴿ حَسْبُكَ ﴾ [النساء ١٢٥] كلمة . « خبيل » مأخوذة من « الحياء واللام » و« الخن » ، هو الطريق في الرمل ، وهو ما سمي في عرفنا « بدقي » ، والمدق عادة يكون ضيقاً ، وحيما يسير فيه اثنان فهما يتكاتفان إن كان الود بينهما عالياً ، وإذا لم يكن بينهما ود ، فأحدهما يمشي في الأمام والآخر يمشي في الخلف .

ولذلك سموا الاثنين اللذين يسيران متكاتفين « خليل » كعلاهما متحلل في الآخر أى متداخل فيه ، والخليل هو من يسد حلقه آخر ويسد هو لخلل صاحبه . والخليل هو الاتحاد في الخلال والصفات والأخلاق والخليل هو من يتحلل إليه الإنسان في مساره ، ويتحلل هو أيضاً في مسائر الإنسان .

وكلمة جميل هنا معناها أن الله سبحانه وتعالى اصطفاه اصطفاً خاصاً، فالحب قد يشارك فيه، فهو قد يحب واحداً وآخر وثالث ورابع. والحق سبحانه يحب كل المؤمنين. فالحق قد قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة ١٧٦] والحق يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران ٧٦] وهو سبحانه يعلمنا: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران ١٤٦] وهو يعلمنا: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُخْبِرِينَ﴾ [آل عمران ١٤٨] والحق أيضاً يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِمِينَ﴾ [الثالثة ٤٧] ولكن الحق اصطفى إبراهيم خليلًا، أى لا مشاركة لأحد فى مكانته. فالحب يعم، ولكن الخنة لا مشاركة فيها. ولذلك فتحى رى رسول الله ﷺ بخرج على قومه قائلاً: «ألا إن ربي اتخذنى خليلًا».

قصة نبي الله إسماعيل عليه السلام

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلَذِكْرِي الْكِتَابِ لِإِسْمَاعِيلَ إِنَّمَا كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ۖ وَكَانَ بِأَمْرٍ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم ٥٤، ٥٥] يقول الله سبحانه إن إسماعيل عليه السلام كان صادق الوعد، ومع أن كل الأنبياء كانوا صادقين في وعودهم، ولكن هنا صفة تبرز في شخصه عليه السلام وإن كانت موجودة في غيره؛ لأنك من الممكن أن تصدق مع إنسان في موعد أو لقاء أو قضاء مصححة، ولكن إسماعيل صدق الوعد في حياته التي هي أعلى شيء عند الإنسان، فحيما أحبره أبوه أنه رأى في المنام أنه يذبحه، لم يتردد لحظة وقال لأبيه: ﴿يَأْتِيَنِي أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. فهذا صدق وعد في القمة؛ لأن الإنسان يصدق الوعد فيما يملكه، لكن أن يصدق الوعد في أمر يتعلق بحياته وهو أمر رآه غيره ولم يره هو، ورآه في رؤيا، والرؤيا لا تثبت بها الحكم إلا عند الأنبياء، فشجع أباه على تنفيذ ما رأى، ووعد أنه سيكون من الصابرين وأسلم له رقبته ليذبحه.

فلما رأى الحق - سبحانه وتعالى - أن إبراهيم سلم أمره لله وكذلك إسماعيل، رحمهما الله من هذا العذاب، وعما عن إسماعيل وفداء بكبش من أكباش الجنة، فالله تعالى ابتلاههما بهذا البلاء العظيم فلما أظهر الرضا بقضاء الله وقدره، فدا الله الديح إسماعيل من الذبح ووهب لإبراهيم ولذا آخر هو، سحاق، وهذه لفظة قرآنية تعطي فكرة: أن الإنسان إذا استسلم بقضاء الله وقدره، يرفع الله عنه البلاء، والذي يريد من عذاب الابتلاء على الناس أنهم لا يرضون به. لكن الذي يرضى بالقدر إما أن يرفع الله عنه، أو يبين للمقدور عليه خير هذا القدر.

ومن هنا نعلم أن كل شيء ينزل علينا من قضاء الله لا رفع له إلا بالرضا فلا يرفع قضاء عن خلق إلا إذا رضوا به. والرضا بقدر الله يكون في كل شيء؛ مثل الموت وأفضية الحياة التي لا نسر الإنسان ولا تسعده، فلو أن أحداً أقل منك كفاءة في العمل ولكن أصبح رئيساً عليك فلا ناصبه العداة وتحقد عليه؛ لأنه لا أحد يأخذ شيئاً غصباً من الله سبحانه، فإذا لم تحترم هذا الإنسان لشخصه فاحترم قدر الله فيه. ولذلك الرسول ﷺ يقول: «اسمعوا وأطيعوا ولو ولى

عليكم عيد حبشى كان رأسه ربيبة .

ومن صفاته الطيبة كما جاء في كتاب الله تعالى : ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ .
قد يكون هذا شيقاً عادياً بالنسبة للأنبياء ، ولكن ربما سبحانه حين يذكر خصلة فلا بد أنها كبيرة
عنده تعالى ، فمن أراد أن يأخذ حصلة من خصال النبوة ليأمر أهله بالصلاة ، واحتص الأهل
بهذا الأمر ، لأنهم البيئة المباشرة التي إن صلحت لرجل صلح له كل بيته ، ووصلحت له كل
دريته ، لأنه إذا كان يأمر أهله بأن يمشوا بين يدي ربهم سبحانه وتعالى خمس مرات في
اليوم واللييلة فهذا لا يجعل للشيطان مجالاً للدخول بينهم ؛ ولذلك الرسول ﷺ يقول : «رحم
الله امرأ استيقظ من ليل فصلى ركعتين ثم أيقظ أهله ، فإن أبت ينصحبها بالماء لكي تقوم ،
ورحم الله امرأة قامت من ليل فصلت ركعتين ثم أيقظت زوجها فإن أبى نضحت في وجهه
الماء » .

ومن صفاته أيضاً : ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ هنا انقرآن ذكر أن إسماعيل
عليه السلام كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة ، فلماذا تقرن الصلاة دائماً بالزكاة ؟
قالوا . لأن الصلاة تأخذ بعض الوقت ، والزكاة تأخذ بعض المال ، والمال فرع العلم ،
انعمل يحتاج إلى وقت ، فكأن الزكاة محتاجة إلى وقت أيضاً ، فإذا كانت الزكاة تأخذ شيئاً
من نبيحة الوقت ، والصلاة تأخذ الوقت نفسه نجد أن الصلاة هي زكاة أخرى من الزكاة ، فكما
أن الزكاة نماء فكذلك الصلاة .

لأنك إذا أرسلت أى جهاز إلى صناعة لابد أنه سيعود إليك أفضل مما كان عليه ، فأنت
صنعة الله ، فإذا وقفت بين يديه خمس مرات في اليوم واللييلة لابد أنك ستتزود بطاقة إيمانية
تعينك في حركة حياتك وتساعدك في عملك وأدائك لواجبك ؛ لأن الصنعة التي يطلع عليها
صانعها خمس مرات في اليوم لا يمكن أن يوجد بها عطب أبداً ، وإذا كان إسماعيل يأمر أهله
بالصلاة والزكاة فهو يؤديها من باب أولى ؛ ولأن هذه الصفات المذكورة فيه فهو مرضى عند
الله ، وهو مرضى أيضاً لأن الله اختاره رسولاً .

نبي الله إسحاق عليه السلام

[قال الله تعالى : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ١١٢ وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِمَّنْ نَّرِيتُهُمَا يُحْسِنُ وَيَتْلَمُ لِقَيْسِهِ مُبِيتٌ ﴾ [الصافات ١١٢ ، ١١٣]

وقد كانت البشارة به من الملائكة لإبراهيم وسارة لما مروا بهما معجترين ذاهبين إلى مدائن قوم لوط ، ليدمروها عليهم لكفرهم وعبودهم ، كما سيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله تعالى .

قال الله تعالى : ﴿ رَفَعَدَ جَاءَتْ رُسُلًا إِتْرَاهِيمَ بِالْشَّرِّ قَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَهُ بِعِجْلٍ حَمِيْلٍ ﴾ ١١٤ ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تُجِىءُ إِلَيْهِ تَكْرَهُهُمْ وَأَوْحَسَ إِلَيْهِمْ جِيفَةً قَالُوا لَا نَعْبُدُكَ إِنَّا أَزْمِلُكَ إِنَّا قَوْمُ لُوطٍ ﴾ ١١٥ ﴿ وَأَمْرَاتُهُ قَابِلَةٌ فَصَبَحَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءَهُ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ ١١٦ ﴿ قَالَتْ يَتُوبَلَىٰ أَيْدِيَّ وَأَلْيَّ عَجُوزٍ وَهَذَا بَعْلٌ شَمِيحًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ ١١٧ ﴿ قَالُوا أَنْتَجِدِينَ مِّنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةً اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود ٦٩ - ٧٣]

وقال تعالى : ﴿ وَبَيَّنَّاهُمْ عَنْ صَيْبِ إِتْرَاهِيمَ ﴾ ١١٨ ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴾ ١١٩ ﴿ قَالُوا لَا تُجِىءُ إِلَيْنَا شَيْءٌ بِغُلَامٍ عَلَيْهِ ﴾ ١٢٠ ﴿ قَالَ أَتَسْتَرْثَوْنَ عَلَىٰ أَنْ مُّسَوَّىٰ الْحِكْمَ فِيمَا يُنْشَرُونَ ﴾ ١٢١ ﴿ قَالُوا نَشْرُوكُ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴾ ١٢٢ ﴿ قَالَ وَمَنْ يَقْطَعُ مِّنْ رَّحْمَتِ رَبِّيهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ [الحجر ٥١ - ٥٦] .

وقال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ صَيْبِ إِتْرَاهِيمَ الشَّكْرِينَ ﴾ ١٢٣ ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّشْكُرُونَ ﴾ ١٢٤ ﴿ فَرَأَىٰ إِلَيْنَا أَهْلِيهِ فَجَاءَهُ بِعِجْلٍ سَمِيٍّ ﴾ ١٢٥ ﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ ١٢٦ ﴿ فَأَوْحَسَ إِلَيْهِمْ جِيفَةً قَالُوا لَا نَعْبُدُكَ وَنَشْرُوكُ بِغُلَامٍ عَجِيزٍ ﴾ ١٢٧ ﴿ فَأَقْبَلَتْ أَمْرَاتُهُ فِي صَرَرٍ فَصَبَحَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ ١٢٨ ﴿ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ [النبيات ٢٤ - ٣٠]

يذكر الله تعالى : أن الملائكة قالوا : وكانوا ثلاثة جبريل وميكائيل وإسراييل - لما وردوا على الخليل حسبيهم أولاً أصيافاً ، فعاملهم معاملة الصيوف ، وشوى لهم عجللاً ثمناً من حيار بقره ، فلما قربوه إليهم وعرض عليهم لم ير لهم همة إلى الأكل بالكلية ، وذلك لأن الملائكة

ليس فيهم قوة الحاجة إلى الطعام فسكرهم إبراهيم . ﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَنْبِيَائًا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ ﴾ أى : سدمر عليهم . فاستبشرت عند ذلك سارة عضناً لله عليهم ، وكانت قائمة على رعوس الأضياف كما جرت به عادة الناس من العرب وغيرهم ، فلما ضحككت استبشاراً بذلك ، قال الله تعالى ﴿ فَتَنَبَّهَهَا بِإِسْحَاقَ وَيَسَ وَرَأَى إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ أى بشرتها الملائكة بذلك . ﴿ فَأَقْبَلَتْ أَمْرَانَهُ فِي حَرْقٍ ﴾ [هود ٧١] أى : فى صرخة : ﴿ تَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾ أى كما يفعل النساء عند التعجب ، وقالت ﴿ يَكُونُ لِقَىءٍ أَلَدٌ وَأَنَا عُمْرٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْئًا ﴾ [هود ٧٢] أى كيف بلد مثي وأنا كبيرة وعقيم أيضاً ، وهذا بعلى أى زوجى ، شيئاً ؟ تعجبت من وجود ولد والحالة هذه ، ولهذا قالت ﴿ إِنِّي هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَنْتَعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتْ اللَّهُ الْبَنَاتِ وَلَهُنَّ الْبَيْتُ إِنَّهُنَّ حَيْدٌ نَجِدٌ ﴾ [هود ٧٢ ، ٧٣] .

وكذلك تعجب إبراهيم عليه السلام استبشاراً بهذه البشارة وتنبئاً لها وهرجا بها : ﴿ قَالَ أَتَسْمَعُونِى حِينَ أَنْتَبِىءُ فِيمَا نُنَبِّئُكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ [الحجر ٥٤ ، ٥٥] أكدوا الخير بهذه البشارة وقرروه معه ، فبشروهما ﴿ بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴾ وهو إسحاق أخو إسماعيل ، ﴿ عَلَامٌ عَنِيمٌ ﴾ مناسب لمقامه وصبره ، وهكذا وصفه ربه بصدق الوعد والصبر ، وقال فى الآية الأخرى : ﴿ فَنَبَّهْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَيَسَ وَرَأَى إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ وهذا مما استل به محمد بن كعب القرظى وغيره على أن الديح هو إسماعيل ، وأن إسحاق لا يجوز أن يؤمر بذبحه بعد أن وقعت البشارة بوجوده ووجود ولده يعقوب المشتق من العقب من بعده . وعند أهل الكتاب أنه أُحْصِرَ مع العجل الحنيد ، وهو المشوى رعيّاً من مكة فيه ثلاثة أكيال وسمن ولبن ، وعندهم أنهم أكلوا ، وهنا غلط محض ، وقيل : كانوا يرون أنهم يأكلون والطعام يتلاشى فى الهواء .

وعندهم أن الله تعالى قال لإبراهيم : أما سارة امرأتك فلا يدعى اسمها سارا ولكن اسمها سارة ، وأبارك عليها وأعطيك منها ابناً ، وأباركه ويكون الشعوب وملوك الشعوب مه فخر إبراهيم على وجهه - يعنى ساجداً - وصحك قائلاً فى نفسه ، أبعد مائة سنة يولد لى علام ، أو سارة تلد وقد أنت عليها تسعون سنة ١٩

وقال إبراهيم لله تعالى : ليت إسماعيل يعيش قدامك ، فقال الله لإبراهيم : بحق إن امرأتك سارة تند غلامًا وتدعو اسمه إسحاق إلى مثل هذا الخين من قابل ، وأورثه ميراثي إلى الدهر ولخلفه من بعده . وقد استجبت لك في إسماعيل وباركت عليه وكثرته ونميته جدًا كثيرًا ، ويولد له اثنا عشر عظيمًا ، وأجعله رئيسًا لشعب عظيم .

فقلوه تعالى : ﴿بَسَّرْنَا بِكَ بِإِسْحَاقَ بْنِ زَوْجِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ دليل على أنها تستمتع بوجود ولدها إسحاق ، ثم من بعده يولد ولده يعقوب . أي يولد في حياتهما لتقر أعينهما به كما قرئت بولده ، ولو لم يرد هذا لم يكن لذكر يعقوب وتخصيص السبيص عليه من دون سائر نسل إسحاق فائدة ، ولما عي بالذكر دل على أهميته بتمتعان به ويسران بولده كما سرا بولد أبيه من قبله .

وقال تعالى : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ [الأسماء . ٤٨] .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿قُلْنَا أَغْرَقْنَاهُمْ وَمَا يَعْلَمُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُمْ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [مريم ٩٤] .

وهذا إن شاء الله ظاهر قوى ، ويؤيده ما ثبت في الصحيح من حديث سيمان ابن مهران الأعمش ، عن إبراهيم بن يزيد النخعي ، عن أبيه ، عن أبي ذر ، قال : قلت : يا رسول الله ، أي مسجد وضع أول ؟ قال : المسجد الحرام . قلت : ثم أي ؟ قال : المسجد الأقصى . قلت : كم بينهما ؟ قال : أربعون سنة . قلت : ثم أي ؟ قال : ثم حيث أدركت الصلاة فصل فكلها مسجد .

وعند أهل الكتاب ، أن يعقوب عليه السلام هو الذي أسس المسجد الأقصى ، وهو مسجد وإليها بيت المقدس شرفه الله .

وهذا متجه ويشهد له ما ذكرناه من الحديث ، فعلى هذا يكون بناء يعقوب عليه السلام وهو إسرائيل - بعد بناء الخليل وابنه إسماعيل المسجد الحرام بأربعين سنة سواء وقد كان بناؤهما ذلك بعد وجود إسحاق ، لأن إبراهيم عليه السلام لما دعا ، قال في دعائه كما قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۚ رَبِّ إِنَّنِي آتِيكَ كَافِرًا ۖ فَكَفَّرْنَاهُ بِنَبِيِّهُ وَقَالَ رَبِّ عَلَىكَ غَدَاةُ رَجْعِي ۚ رَبِّ

إِنِّي أَتُكِنُّ مِنْ دُرِّيِّ يَوَادٍ عَيْرٍ ذِي رَزَحٍ جِدَ بَيْنَكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْتَمَلْ أَفِيدَةً مِنْ آلِاسِ تَهْوَى إِلَيْهِمْ وَارْتُفِعَهُمْ مِنَ الْغُرُبَاتِ لَعَنَهُمُ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ الدَّلِيلُ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْ لِي قِيَمَةً الصَّلَاةِ وَمِنْ دُرِّيِّ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَهُ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿[إبراهيم ٣٥ - ٤١]﴾

وما جاء في الحديث من أن سليمان بن داود عليهما السلام، لما بنى بيت المقدس سأل الله خللاً ثلاثاً كما ذكرناه عند قوله : ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْصِبُنِي لِأَحَدٍ مِنْ غَيْرِي﴾ [ص ٥٣] - وكما سنورده في قصته - فالمراد من ذلك والله أعلم ، أنه جدد بناءه كما تقدم من أن بينهما أربعين سنة ، ولم يقل أحد أن بين سليمان وإبراهيم أربعين سنة سوى ابن حبان في تقاسيمه وأنواعه ، وهذا القول لا يوافق عليه ، ولم سبق إليه ^(١) .

(١) ما بين المعكوفين من «قصص الأنبياء» لابن كثير (٢٠٠ - ٢٠٣) .

نبي الله لوط عليه السلام

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف : ٨٠] قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلُوطًا﴾ أى : أن الله كما أرسل نوحا إلى قومه ، وأرسل إلى عاد أحاهم هودا ، وإلى ثمود أحاهم صالحا ، أرسل لوطا إلى قومه ، ولذلك جاءت مصوبة . ولكن الحق بدأ الآية بقوله : ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ وربما يقول قائل : ما دام لوط قد قال ، فلا بد أنه أرسل لقومه قبل حدوث هذا القول ، إذ كيف يرسله الله في وقت أن قال ؟ يقول : إن «إذ» بمعنى الرمس ، وإن معنى الآية «ولوطا أرسلناه إلى قومه إذ قال» . فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يبين ل أنه بمجرد أن يقال للرسول : بلغ . فساعتها يقوم بالبلاغ ، فكأن الرسالة جاءت ساعة التبليغ لا فاصل بينهم .

وكلمة «قومه» تعنى أنه عاش معهم فترة . وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلَيْكَ ثَمُودُ آلِهَاتِهِمْ صَالِحًا﴾ [الأعراف : ٧٣] ، ﴿وَلَيْكَ عادُ آلِهَاتِهِمْ هُودًا﴾ [الأعراف : ٦٥] ولم يقل هو وإلى قوم لوط أحاهم لوطا ، ولكنه قال : ﴿لِقَوْمِهِ﴾ ، فكيف ذلك ؟ لا بد أن تنبه إلى أن لوطا لم يكن من هذا المكان ، فلوط كان هو وإبراهيم في مدينة بعيدة ، ثم جاء إلى هذا المكان فرآهم من الاصطهاد هو وإبراهيم ، وفي هذه الحالة يكون طارئ عليهم ، ولذلك لم يقل . أحاهم الذى كان يقيم معهم . ولكنهم قومه بمعنى أنه عاش معهم فترة معروفوا أحلاقه وصغاته ، وأنسوا به معترة من الرمان جعلتهم يعرفونه معرفة بعضهم لبعض ، وهكذا يرى دقة التعبير فى القرآن ، لم يقل أحاهم لأنه لم يولد ولم يُربَّ معهم ، ولكنه قال ﴿لِقَوْمِهِ﴾ لأنه عاش معهم فترة فرعوه .

ماذا قال لوط لقومه ؟ لم يقل لهم : إن ربى مهاكم عن العملية القدرة التى تقومون بها ، ولكن أدب النبوة جعله يقولها بأسلوب الاستفهام . وبكيفية استفهام تقريع واستفهام استنكار . وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ . وهكذا يحمل السؤال استنكارا لما يحدث ، يقول لهم : إن العقل الفطرى يستنكر هذه العملية القدرة . وهذا شئ لم يسبقهم إليه أحد ، ولكنهم فعلوه للشهوة . إذن فرغم أنها عملية فئرة والفترة السليمة تأبها ، فإنها كانت موجودة فى هذا المجتمع بقصد

الشهوة والشهوة عن العليمة ، وكسمة « فاحشة » هي التزويج في القبح ، أى أن الشيء ليس قبيحاً فقط ولكن فيه زيادة في القبح ، ولكن الذى يأتى أشئ بدون زواج مثلاً تكون فاحشة . ولكن يمكن أن يتزوجها بعد ذلك وتصيح حلالاً ، أما إثبات الرجل الرجل ففاحشة عسى مركب ، لأنه ليس مخبوقاً لهذه العملية ، ولا يمكن أن يصير حلالاً أبداً .. فهو فحش مركب .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ يقول بعض الفقهاء إن « مِنْ » رائده !! ولكن بالنسبة لكلام الحق سبحانه وتعالى فلا يوجد شيء رائد ، فلو أننا قلنا ما سبقنا واحد أو اثنين أى عدد قليل جداً لا يعتد به . ولكن إدقنا من أحد ، ومعناه أنه لم يسبقنا أحد بالنسبة القطعى . تماماً كما تقول لإنسان . ما عدى مال ، فقد تمكك عشرة فروس أو عشرين قرشاً ، ولكنك لا تعتبرها مالاً . ولكن إن قلت له ما عدى من مال ، أى من بداية ما يقال له مال ولو مليماً واحداً فقول الحق سبحانه وتعالى ﴿ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : من بداية ما يقال له أحد ، وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : ما يطلق عليه اسم العالمين . فالحق سبحانه وتعالى سماها أولاً : فاحشة أى تريد فى المسح ، ثم أكد لنا أنه لم يسبق قوم لوط إليها من أحد ، أى أنها بدأت بينهم وهذا استنكار فطيع .

ولبحث المسألة عقلياً ، لما جعل الله الإنسان خليفة كان لا بد من بقاء النوع وخصوصاً أن الأعمار محدودة . وبقاء النوع مصممون بالروح وهو الوسيلة لإبقاء النوع ، والله تعالى تكفل للإنسان بالقوت الذى يقيم به صلبه .

إذن . فالإنسان خليفة فى الأرض يريد إيجاباً ويريد قوتاً ؛ وبذلك حين خلق الله تعالى الأرض قدر فيها أوقاتها ليبقى الإنسان ، وخلق فيها الذكر والأنثى لبقاء النوع . والإنسان لا يولد ومعه كل مقومات الخلافة ؛ بل يمر بحمس مراحل . فهو يكون فى أول الأمر نطفة فى طهر أمه ، ثم جنيناً فى بطن أمه ، ثم يولد وهناك فترة طفولة محتاجة إلى عناية ، وفترة تربية حتى يبلغ رشده ويصلح للخلافة فى الأرض .

إذن . فالمسألة تأخذ مراحل عدة بين الحمل والولادة ورعاية الطفل وهو صغير . وأطول الأجناس طفولة هو الإنسان ، ما الذى يجعل الإنسان يتحمل كل هذه المتاعب ؟ إنها الشهوة

التي وضعها الله تعالى في الذكر والأنثى ؛ لكي يحفظ بها النوع ، وعندما توصل في مكانها ويتم منها الإنجاب تتحمل المشاعب في التربية ، وإذا عزلت الشهوة عن بقاء النوع تكون قد أفسدت في سدة الكون ؛ لأنك عطلت الإنجاب وعطلت عمارة الأرض . وهذا يتم حين تكون الشهوة في غير موضعها ولا يستعاد منها في الإنجاب .

والحق سبحانه وتعالى حين تحدث عن الفاحشة لم يفصلها لك في الآية الأولى ، إذ قال سبحانه وتعالى : ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَلِّ مَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف ٨٠] ومعنى ذلك أنها أمر معلوم بالفطرة ، ولكن بعض الناس قد يطلب التمصيل ، ولذلك فسرها في الآية الثانية في قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْنِسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِقُونَ ﴾ [الأعراف ٨١] . ما هو الإسراف ؟ الإسراف : هو تجاوز الحد ، والله وضع لنا مصرفاً للشهوة وهي المرأة وجعلها وعاء للإنجاب فهي تعطيا الشهوة وتعطيا الإنجاب . ولكن إذا كانت هذه العملية مع الرجال فهي تجاوز للحد ؛ لأنها بُعد عما شرع الله تعالى ، وانقياد لشهوة الإنسان في غير ما أحل الله ؛ لذلك فهم مسرفون لأنهم تجاوزوا الحد .

ويقول الحق سبحانه وتعالى في آية أخرى في سورة « الشعراء » ﴿ أَتَأْتُونَ الذَّكَرَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء ١٦٥] استكثارا لهذا الفعل الشائن الذي اُمرد به قوم لوط على سائر الناس ولذلك يقول الله عز وجل في آية أخرى ﴿ وَتَذَكَّرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ [الشعراء ١٦٦] يقول لهم بيهم لوط : لماذا تفعلون الفاحشة وعدكم حرثكم الذي أنعم به عليكم ربكم ، زوجاتكم ؟ ١١

عندكم مدسوخة في تصريف الغرائز وهي الروحانيات ، فلماذا تنقلون ما ينبغي فعله مع الروحانيات ، إلى فعل حرام غير جائز مع الذكرا من العالمين ؟ والآية تحتل معنى آخر ، هو أنهم كانوا يأتون نساءهم في مواضع حرمها الله ، كما يفعلون مع الذكرا من العالمين .

إن الله جعل للأرواح محلاً للاستبابت في روجاتهم ، قوم لوط تجاوزوا محل الاستبابت لخلل واستبدلوه بالموضع الحرام محل الاستبابت الحلال الذي يجوز للرجل أن يأتي روجته فيه هو الذي أشار إليه قول الله عز وجل ﴿ يَسْأَلُكُمْ خَلْقُكُمْ فَأَنْتُمْ خَلْقُكُمْ أَنْتُمْ خَلْقُكُمْ ﴾ [البقرة ٢٢٣] بعض الناس فهم هذه الآية خطأ فهموها على أن موضع الحرث مشاع في أي مكان إن

الآية واصحة وصريحة نقول: ﴿حَرِّكْكُمْ﴾ ومعنى الحرث هو مكان استنبات الولد، والمرأة تضع الولد من مكان معروف من الأمام وليس من الخلف. ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٦] العادي هو الذي شرع له شيء يقضى - إرثه - حاجته فيه فتجاوزه إلى شيء آخر حرام.

والحق تبارك وتعالى يقول في آية أخرى: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِاقْوَمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل: ٥٤] ها لوط عليه السلام يقول لقومه مستنكرا معلهم: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ معنى: ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أى وأنتم تتعاملون بها وتتجاهرون، مما يدل على أن الكن مجمع على هذه الفاحشة، وأنه لم يعد هناك حياء. أو المعنى كيف تفعلون ذلك وأنتم تبصرون ما حل بأصحاب الفساد من عذاب وهلاك؟ ثم يقول بعد ذلك: ﴿إِنَّكُمْ لَأَتَّوُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْإِسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥]. كلمة: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ هى ظاهر الأمر أنها تحالف قوله: ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ لأنهم ما داموا يصرون ويمسرون ويرون فكيف يجهلون؟

فالجهل هنا ليس ضد العلم، ولكنه مرادف الشبهة، لأن الجهل له إطلاقات. الناس يفهمون أن الجهل عدم العلم، مع أن الأمية هى ألا تعلم، والجهل أن تعلم قضية محافنة للواقع، ولذلك الذى يتعب فى الدنيا هو الجاهل وليس الأمى؛ لأن الأمى حالى الذهن، تقول له القضية فياخذها وكفى، لكن الجاهل عنده قضية مخالفة، فأستحتاج معه إلى عمليتين اثنتين. أن تنزع منه قضية الباطل أولاً، ثم تدخل له قضية الحق، وهذا شئ يحتاج إلى جهد كبير، فالذى يتعب العالم هو الجاهل لا الأمى.

منطلق أصحاب الفطر المظلومة

قال لوط عليه السلام للمسلمين من قومه ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَفَّكُم بِهَا مِنْ لَعْنٍ مِنْ أَلْعَالِيَيْنِ * إِنَّكُمْ لَأَتَّوُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْإِسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨١، ٨٢] ماذا قال له قومه؟ هل ناقشوه؟ لا.. لا يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كُنَّا بِحَوَافِّ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِمَّنْ قَرَّبَنَاهُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢]. أى لم يكن فى العملية أى منطلق، إلا أن قول لوط قد أشعر قومه بمقدرة الذنب

وفحش ما يحدث ، فقالوا : الخل أن مخرج لوطاً ونومه من القرية ؛ لأنه جاء يهسد علينا شيئا نمتنع به . وحتى في علة الإخراج لم يكرهاك أى مطلق ، إلا أن لوطاً ومن آمن معه يريدون أن يتطهروا من قذارة هذه القرية وما يحدث فيها

والحق تبارك وتعالى يقول في آية أخرى : ﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ [الشعراء ١٦٧] ما الذى يريدونه من سيهم لوط ؟ أن يكف عن لومهم ويهيم عن فعل الفاحشة . ﴿ مِنْ الْمُخْرَجِينَ ﴾ أى من انطرودين خارج بلدتنا . وبذلك يقول الحق عز وجل في موضع آخر ﴿ أَتَرَبَّؤُا مَا لَ لُوطُ مِنْ قَرْنَيْكُمْ إِنَّهُمْ مُسْتَهْزَؤُونَ ﴾ [النمل ٥٦] لماذا أخرجوا لوطاً ومن اتبعه من قريتهم ؟ لأنهم يتطهرون بفعل الحلال وإتيان ما أمرهم الله به ، والعصاة الذين كذبوا لوطاً لا يريدون أن يكونوا من المتطهرين . وهكذا كل أهل الباطل ، لا يحبون أن يكون بينهم من يأمر بالحق ويهوى عن فعل الباطل . يضيقون به درعاً ويحاولون بشتى السبل أن يتخلصوا منه . إما بالهوى أو الخيس أو السجس أو القتل .

ماذا كان موقف لوط من هؤلاء المكذبين ؟ ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْفَآئِلِينَ ﴾ هناك فرق بين من يعمل العمل ، وبين من يكره العمل ، وبين من يكره عامل العمل نفسه ، لوط ^{عليه السلام} قال لهم : أنا كره لعملكم وكراره لمن يفعل الفاحشة منكم .

خيانة امرأة لوط

قال تعالى ﴿ فَأَمْنَيْنَهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ ﴾ [الأعراف ٣٨] إذا سمعنا « أنجبها » فإن ذلك يكون بحجة على أمر واحد . ولكن « بجيها » يعنى من أشياء متعددة ، أى من أخطار متعددة . ولأن الله سبحانه وتعالى هو المسجي فيه يسجى بكلمة ﴿ كُنْ ﴾ ومهما تعددت الأخطار فإنها لا تحتاج من الله سبحانه وتعالى إلا كلمة ﴿ كُنْ ﴾ .

وقول الحق سبحانه وتعالى ﴿ وَأَهْلَهُ ﴾ الأهل هنا : إما أن يكونوا أهلاً له بالنسب ، أو بالتدين والتبعية . فإذا قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [الأعراف ٣٨] . فهذا دليل على أن الحق سبحانه وتعالى قد أجبى أهل بيت لوط وأتباعه الذين هم أهل كل رسول ، فعندما حاول نوح ^{عليه السلام} أن يقنع ابنه بر كوب السفينة ورفض الامتناع وأصر على كفره فعرق ، قال نوح وهو يدعو الله تعالى : ﴿ رَبِّمَّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ [هود ٥١] فقال

له الحق سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّكُمْ لَيْسَ مِنْ أَقْبَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ بَعْضُ مَا يَصْنَعُونَ﴾ [هود ٤٦] فأهل الرسول هم أصحاب الأعمال الصالحة الذين يتبعون منهجه .

إذن . هزوجة لوط لم تدخل في الإنجاء .. لماذا ؟ لأنها كانت من الغابرين وعبر تأتي لمعان متعددة ، فمعها أقام ، ومعها مضى ، ولذلك يقال : هذا الشيء غيرت أيامه أى مضت . فأى معنى تتناوله الكلمة فى هذه الآية الكريمة ؟ نقول : إن المعنيين ملتقيان ، فمادامت لم تخرج مع لوط وبقيت فى مكانها ، فقد بقيت فى المكان الذى سيرى فيه العذاب . ومادامت قد بقيت فى المكان الذى سيرى فيه العذاب ، فقد أصبحت من الماصين لأنها ؛ ستهلك .. أصبحت تاريخاً .

والحق سبحانه وتعالى لم يذكر لنا التفاصيل فى هذه الآية عن أسباب هلاك امرأة لوط ، ولكن المعنى يؤكد لنا أنها كانت محالفة سهجه وغير مؤمنة به ، ولكنه جاء بالتفاصيل فى آية أخرى فى قوله تعالى : ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوْحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاٰخِلِيْنَ﴾ [التحريم ١٠] وليس العرص من مثل الذى صر به الله تعالى ها أن يقال : إن امرأة لوط كانت رانية .

ولكن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يفتنا إلى أن الرسول مع أنه مرسل من الله لا يستطيع أن يصرص إيماناً حتى على امرأته ؛ لأن حرية الاعتقاد وحرية العقيدة قد كفها الله للإنسان ليكون الحساب عدلاً فى الآخرة ، ولذلك قاله سبحانه وتعالى يقول : ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ . أى الذين رفضوا مسج الله ورفضوا أن يؤموا به ، والله سبحانه وتعالى لأنه أعطى كلاً ما حرية الاختيار ، أعطاهما بعدله حرية أن تختار الكفر أو الإيمان ، ولم يقيده هذه الحرية حتى فى روجات الأنبياء . ويجب ألا يعتقد أحد أن امرأة لوط كانت متكبرة متسلطة على لوط ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى نفى ذلك فى قوله جل جلاله : ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ﴾ ومعنى ذلك أن إمرة الرجل كانت عليها ، ولم يكن لوط هو الذى يطيع أوامرهما ولكنها كانت خاضعة له ، ولكن حرية الاختيار جعلتها تختار الكفر على الإيمان .

ولذلك يجب ألا يأتى أحد ويقول : إن قول الحق سبحانه وتعالى لوح القدر عن ابنته

﴿إِنَّمَا يَسَّرَ مِنْ أَمْرِكَ﴾ [هود : ٤٦] معناه أنه ابن ربي ، لا ، ولكن معناه كما قال الله ويش
 ﴿إِنَّمَا عَمَلٌ عَمْرٌ مَبْرُوحٌ﴾ ، ولذلك لا بد أن نشبه إلى قول الحق سبحانه وتعالى ﴿كَأَنَّا نَحْنُ
 عِبْدٌ﴾ [التحریم : ١٠] ، لنفهم أن حرية الاختيار في العقيدة هي التي جعلت هذا يحدث ،
 وأن رسول الله تعالى لم يستطيع أن يرعما ووجتیهما على الإيمان ، فالمسألة في حرية
 العقيدة التي كملها الله للإنسان ، ولا أحد يستطيع أن يجبر عليها أحد ، بالقوة . وفي هذا صرب
 الله مثلاً للدين أموا امرأة فرعون ، ليربها أن فرعون المتحير مدعى الألوهية لم يستطيع أن يجعل
 امرأته تؤمن به وتكفر بالله . إذن فبئس لم يستطيع أن يجعل امرأته تؤمن ، ومدع للألوهية لم
 يستطيع أن يجعل امرأته تكفر ، وهذا يدل على أن العقيدة أمر اختياري حماه الله تعالى بكل
 أنواع الحماية ، بحيث لا يختار الإنسان ديه إلا على أساس اقتناع وليس على أساس قهر

نجاة لوط عليه السلام وأهله ، إلا امرأته

يقول تعالى : ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِذْ أَمَرْنَاكَ مَعَ الْغَافِينَ﴾ [الأعراف ٨٣] كلمة
 «أنجينا» تشير أولاً إلى أن عذاباً سيقع ، وأن العذاب سيقع في المكان الذي فيه قوم لوط ، وأن
 النجاة من يكون بقدر لوط أو المؤمنين معه ، ولكن بقدره الله سبحانه وتعالى ، فهو الذي
 سيخرجهم من هذا العذاب ، ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾ ونسب العمل إلى ذاته
 سبحانه وتعالى ، ولذلك فإن الله هو الذي أخرج آل لوط وأنجاهم من العذاب
 قوم لوط قالوا : ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَافٌ يَّظَاهِرُونَ﴾ [الأعراف ٨٢]
 فجاءت إرادة الحق سبحانه وتعالى موافقة لما طلبه قوم لوط ، أخرج الله لوطاً ومن معه فعلاً من
 القرية ، ولكنه أخرجهم ليسجئهم من العذاب ، فكان ما كان بحسبه قوم لوط خيراً لهم بإخراج
 برده ومن معه من المكان كان شراً لهم ، لأنهم بإخراجهم من العذاب على قوم لوط .

والحق سبحانه وتعالى قال في آية أخرى : ﴿قَالُوا إِنَّا أَنُؤْمِنُكَ إِلَيْكَ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ [٥٨] إلا
 آل لوط : ﴿إِنَّا لَنَسُوهُمُ أَغْوِيك﴾ [عمر ٥٨ ، ٥٩] ، والقوم المجرمون هم قوم لوط الذين
 عادوه وكذبوه ، وهم الذين يفعلون المعاصي والمنكرات . وهل آل لوط كانوا ضمن القوم
 المجرمين ؟ نحن نعرف أن الاستثناء هو إخراج ما بعده «إلا» مما قبلها . قال لوط لم يكونوا في
 القوم «المجرمين» ، إذن فالاستثناء ليس من قوم لوط ، ولكنه من مجرمين ، لأن القوم كان

أغلبهم فاسدين ، فصار « قوم لوط » اسم علم على القوم . والاستثناء هي هذه الآية قضية لغوية أفاض فيها العلماء كثيرا ، فقالوا : ﴿ قَالُوا إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِكْرَامًا ﴾ أي إلى محرمين ﴿ إِنَّا نَالُ لُوطًا ﴾ هذا استثناء ، فنحن لم نرسل لآل لوط ، إذا كنتم ستجوبهم فيكون الإرسال للإنقاذ والإهلاك ، نعم ؛ لأنهم جاءوا في الأصل لكي يهلكوا قوم لوط المحرمين ﴿ إِنَّا نَالُ لُوطًا ﴾ فاستثنى آل لوط من كلمة مجرمين .

ثم قال : ﴿ إِنَّا لَمَنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي آل لوط ﴿ إِنَّا نَرَأَيْتُمْ ﴾ . إذن امرأة لوط لم تنجو ، بل ستدخل في عداد المحرمين ، ولذلك قالوا إذا توالى الاستثناءات على مستثنى منه ، تأخذ المستثنى الأول من المستثنى منه ، واستثنى الثاني من المستثنى الأول ، والمستثنى الثالث من المستثنى الثاني . وهذا الآية تقول : ﴿ إِنَّا نَالُ لُوطًا ﴾ ، واستثنى من آل لوط امرأته فتكون قد دخلت في القوم المحرمين : ﴿ فَذَرْنَاهَا لِجُوعِ النَّفْسِ ﴾ [الحجر : ٦٠] .

ولكن هل الرسل هم الذين فسروا أم الذي قسر هو الله تعالى ؟
نقول : إن الفعل يصح أن ينسب إلى الأمر به وإلى المبلغ وإلى المباشر له ، قاله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ اللَّهُ يَتَوَكَّلْ الْإِنْسَانُ حِينَ مَوْتِهِ ﴾ [زمر : ٤٢] . ويقول : ﴿ قُلْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ الْغَايِبُ ﴾ [الأنعام : ١٦] . مرة ينسب الفعل للأمر الأعلى سبحانه وتعالى ، ومرة للمبلغ ، ومرة لمن يباشر العملية ، وقوله تعالى : ﴿ فَذَرْنَاهَا لِجُوعِ النَّفْسِ ﴾ حين تسمع كلمة « غابر » تظن أن الزمن الغابر هو الذي مضى ، ولكن هنا غابر بمعنى ياق ، أو هو من أسماء الأضداد ، فمعنى ﴿ لَجِينِ النَّفْسِ ﴾ أي من الباقين فلم تخرج ولم تنجو ؛ لأن الذي سينجو سيخرج من القرية ، والذي سيقى هو الذي سيهلك .

وهي موضع آخر أشار القرآن إلى من تكون هذه العجوز التي أهلكها الله مع العصاة المكذبين من قوم لوط قال تعالى : ﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَمْعُورُونَ ﴾ [مريم : ١٦٩] . العجوز معروف وهو من تقدمت به السن وتجاوز الستين في عرفنا هذه الأيام ، و﴿ النَّفْسِ ﴾ أي الهالكين . كأن الله تعالى يخبر رسوله لوطا ، بأن هذه الروجة التي لم تكن أهلا للزواج من نبي الله لوط وخاتمه في نبوته ، وأنها ستهلك مع العصاة المذنبين ، إنها ستظل في الدار ولا تخرج معك ؛ مع الذين اتبعوا لوط ، وسيصيبها ما يصيب غيرها من الهالكين . وفي المثل العربي « هذا أمر عبر وقته » أي ذهب وقته ومضى .

الملائكة في بيت لوط

قال تعالى ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقَهُمْ وَصَافَّ بِهِمْ ذُرْعًا﴾ [هود ٧٧] أى : شعر فى نفسه بأسواء . وصاف ذرعاً ، والذرع مأخوذة من الذراع . والذراع فيه الكف ، والكف فيه الأصابع التى تدفع بها الأشياء عن نفسك ، وأى شيء يستطيع أن تمد له ذراعك لتدفعه عنك فلا تصل ذراعك إليه يقال : ضفت به ذرعاً . أى أنت عاجز عن أن تدفع أذى جارك . ولذلك يقال : لو أن ذراعى طائفة لحدث كذا وكذا . أى : أنك عاجز عن أن تصل إليه ، أى أنه فوق طاقتك .

الملائكة جاءت إلى لوط فما الذى ساءه وجمعه يحس بعجزه ؟ لأن الملائكة جاءت إليه على هيئة بشر ، وهو يعلم ما يعمل قومه ، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقَهُمْ وَصَافَّ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ لماذا ؟ لأنه عندما رأت امرأة لوط هؤلاء الرجال قادمين ، صعدت إلى سطح البيت وأوقدت ناراً ؛ لتحدث دخاناً كثيفاً إشارة إلى القوم أن هناك ضيوفاً قد وصلوا ، وأهم حسو المظهر يستحقون أن يفعل بهم آل لوط ما يفعلونه بالرجال . لوط حين وصل إليه القوم ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ معنى يوم صعب ومنه العصبة التى تربطها الإنسان على رأسه فى يوم يعانى فيه من تعب شديد ، ومنه العصبة لأنهم جماعة يتكاتفون على فرد ، فلا يستطيع أن يذفع عن نفسه ، فيكون اليوم عصيباً بالنسبة له ؛ لأنه يلاقى فيه أذى كثيراً .

امرأة لوط أوقدت النار وارفع الدخان ، وعرف أهل القرية أن عند لوط رجالاً حسان للطهر ، فلم يضيعوا وقتاً كما يروى لنا القرآن الكريم : ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ [هود ٧٨] ومعنى ذلك أن قوم لوط جاءوا إليه مسرعين متدقين ، ولإنسان حين يعود على الإثم يفعله بسهولة ويسرع إليه ، فالذى يسرق أول مرة يكون متهيئاً وخائفاً أن يمسك به ، لأنه ليس له دراية بالسرقة أما الذى يسرق كل يوم ، فهو يقدم على السرقة بجرأة ونشاط . وكلمة يُهْرَعُونَ من أَلْفَافِ اللُّغَةِ الْعَجِيبَةِ ، كل فعل له فاعل مثل يضرب زيد عمرًا من الذى ضرب ؟ زيد . وضرب من ؟ عمرًا .. هذا فاعل وهذا مفعول ولكن كلمة يُهْرَع إذا سمعناها فالصمة على الياء ، وهى ملازمة لبناء للمجهول ، يُهْرَع مثل حُسْ بضم الحيم ، ومعناه فلان أُصِيب

بالجنون ، ولكن هل هو أحصر لنفسه الجنون ؟ لا .. الجنون هو الذى جاءه ، ونحن لا نعرف للجنون ميّتا فثبت للمجهول ، مثلاً يقال : مكب فلان ، ولكننا لا نعرف ما الذى مكبه ؟ ولكن إذا جهل القاعل بهى للمجهول ، إنما ما بعده يكون فاعلاً .

قوله تعالى ﴿يَهْرَعُونَ إِلَىٰ آلِهِ﴾ الإنسان إذا أقبل على شيء ياندفاع فهو عاشق إلى أن يذهب إلى ذلك الشيء ، ولا يعشق إنسان أن يذهب إلى شيء إلا إذا كان يذهب إلى ما يحب ودون أية هيبة ، فيه اندفاع منه وفيه دفع من غيره ، فأى جماعة تكون مقبلة على أمر محبب إلى نفسها تندفع إليه . فإذا كان هناك نقص فى مادة غذائية ، ثم عرف الناس أنها موجودة فى محل معين هرعوا إليه ، أى اتدفعوا إليه ودفعوا غيرهم ، وقوم لوط مدبرون على هذا الإثم .

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى - ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يَهْرَعُونَ إِلَىٰ آلِهِ وَبِئْسَ قَوْمٌ يَفْعَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود ٧٨] إذن فهم متدربون على هذا العمل ، يعشقونه ويعملونه بلا هيبة ولا حياء ؛ لأن الحياء أن يفعل بعضهم ويخاف بعضهم ، ولكن إذا كانوا كلهم يقومون بهذه السيئة ، فلا أحد يحشى أو يمتنع ؛ لأن ما يعملونه مع الرجال من الفاحشة قد تعودوا عليه . أقبل قومه على بيته بسرعة واندفاع وفى أعداد كبيرة ، وهو يعلم بينهم من سوابقهم ، ويريد أن يصرفهم عن ضيقه انصرافاً من جنس اندفاعهم . ﴿قَالَ يَنْفِقُونَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَفْخَرُوا فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ بِكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود . ٧٨] ، أبصر لوط بهاته عليهم ؟ وما المانع ، فالمرأة معدة لهذا ، ومن الممكن أن يتم الزواج بينها وبين الرجل . ولكن هؤلاء كافرون ولوط رسول الله ، هل كان من الممكن أن يزوج الرجل ابنته لغير مؤمن ؟ نقول نعم ، ورسول الله ﷺ زوج ابنته رقية لابس أى لهب ، ولأبى العاص بن الربيع ، ولم يكن فى ذلك الوقت قد نزل التشريع بالتحريم .

لوط قال : هؤلاء بناتى . هل قالها بالسبب لسياته اللاتى من صلبه ؟ أو لبنات أمته ؟ أو بنات المؤمنين به ؟ لوط لم يؤمن برسالة إلا هو وبناته . إذن فلم يكن المقصود ببناته ، لأنهما لا يكتمان هذا العدد الكبير ، إن لوطاً كان يحاول أن يهدى قومه ويدفعهم إلى الزواج ، ولذلك فقوله بناتى يعنى بنات القرية ، بسبيل أنه قال : ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ ، أى أن زواجكم من البنات أطهر لكم مما تتركبونه من فاحشة مع الرجال ، فالزواج شريعة الله والفاحشة مع الرجال إثم عظيم .

ثم عندما لم يجد اقتناعاً بهم بذلك ، حاول أن يستعملهم بأن يحفظوا عليه كرامته بالنسبة لضيوفه ، فقال كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْرُوبُوا فِي صَنِيعِهِ ﴾ [هود : ٧٨] ، كلمة ضيف مفردة وتطلق على الجماعة ، يعنى إن كان هاك واحد يقال هاك صيف ، وإن كان هاك اثنان يقال : هذان صيف ، وجماعة يقال : هؤلاء ضيف ، فهو مفرد للمذكر والمؤنث والمثنى والجمع ، والله سبحانه وتعالى يقول فى آية أخرى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثٌ مُبِينٌ ﴾ [الزمر : ٢١]

[illegible]

قوله تعالى : ﴿وَلَا تَخْزُوا فِي ضَعْفٍ﴾ . ما هو الخزي ؟ الخزي هو العصية أمام الناس ،
 فالإنسان حين يهاب لو كان بمفرده فهذا هوان ، ولكن الخزي أن يهاب أمام جمهرة من الناس .
 وقوله تعالى . ﴿أَلَيْسَ لِكُلِّ رَجُلٍ رَاشِدٌ﴾ [هود ٧٨] ، أى . رجل يقف مع الحق ويمنع هذه
 المهزلة .

لما عرض لوط عليه السلام على قومه الزواج من بانه ، قالوا له : ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَشَقِيءٌ مَا يُرِيدُ﴾ [هود ٧٩] يعنى : أنت تعلم أنه ليس لنا حق فى بناتك ، وأنت تعلم أننا لا نريد البسات ، ولكننا نريد ضيوفك هؤلاء ، الصيوف الرجال ذوى الهيئة احسنة ليرتكب معهم العاحشة . لوط أحس بانضيق الشديد وبخزي والعجز ، فقال كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَايَ إِلَىٰ رَبِّيَ شَدِيدًا﴾ [هود ٨٠] ساعة نسمع ﴿لَوْ﴾ تكون للتمنى ، أى أتمنى أن تكون لى قوة أدفعكم بها عن صيوفي ، لو أن عدى لقوة لفعلت ، وإن لم يكن عندك القوة الداتية فإلك تبحث عن قوى أو أقوياء ، تستطيع أن تأوى إليهم ليدفعوا عنك السوء ، وهوله تعالى : ﴿أَوْ آوَايَ إِلَىٰ رَبِّيَ شَدِيدًا﴾ ، أى أجد من الأقوياء من ينصرونى عليكم ، فأوى إليهم ليدفعوا عني .

والحق تبارك وتعالى يقول في آية أخرى توصح موقف قوم لوط من الملائكة الذين جاءوا إليه بالبشرى والحوار الذى دار بينهم وبينه ، قال تعالى : ﴿ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الحجر : ٦٧] أى : جاء أهل المدينة فرحين مستبشرين ؛ لأن الاستبشار هو استشراف النفس إلى شىء مفرح وسار ؛ لأنهم حينما سمعوا بأن لوطاً جاءه جماعة من عابة الخس والجمال ؛ تحركت نوازعهم المنحرفة وقالوا : هذه فرصة ، فجاءوا مستبشرين ومسرورين ؛ فكأنهم رأوا أن هذه فرصة يجب ألا تغلب من أيديهم ؛ لأنهم كانوا أهل مكر وانحراف ، لا يستحون منه ، بل كانوا يفعلونه بسرور واستبشار .

ولما جاءوا لوط قال لهم : ﴿ هَؤُلَاءِ صَبِيِّىَ لَا لَفْصَحوهُنَّ ﴾ [الحجر : ٦٨] وكان من عادة العرب أن الضيف بأحد كرامته واحترامه من المضيف ، ولا يسمح لأحد أن يماله بسوء وهو عنده ؛ لأنه أحد جواره ، وأى اعتداء على الضيف يعتبر بقبضه وعازاً على المضيف . ﴿ هَؤُلَاءِ صَبِيِّىَ ﴾ هؤلاء جمع ، وصيغى مفرد . وقوله : ﴿ لَا لَفْصَحوهُنَّ ﴾ . الفصيحة هى هتك المساتير التى يستحى منها الإنسان ؛ لأن هناك أشياء يفعلها الإنسان ولكنه يستحى أن يظهرها ، هذه تسمى المساتير .

لأنك لو عرفت لحسن حسنة متعددة ، ثم اطلعت منه على سيئة فقد تلعه ونقاطعه ، فاحرم نفسك من حسنة فالمولى سبحانه يسر عليك هذه السيئة حتى تتمتع بحسناته ولذلك يقولون :

اعمل بقولى ولا تنظر لأفعالى واجز الثمار وخذ العود للدار
فهو يقول لهم . لا تفصحون لأنهم صيغى ، فهذه كرامتى . ثم يقول لهم : ﴿ وَالْقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْرِبُوا ﴾ [الحجر : ٦٩] الفضيحة تكون أمام النفس ، والخزى يكون أمام الناس ، فردوا عليه بقولهم : ﴿ أَوَلَمْ تَهْلِكْ مِنْ التَّالِيِينَ ﴾ ألم نفل لك لا شأن لك بهذا الموضوع وعن العالمين . العالم ما سوى الله تعالى ، أى دعنا نفعل فى الكون ما نشاء ، وإياك أن تناقش هذا الأمر معنا لا فى هؤلاء ولا فى غيرهم .

عندما بلغ الضيق بلوط متناه تكلمت الملائكة ، فماذا قالوا ؟ ﴿ قَالُوا يَبْلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ [هود : ٨١] لوط عليه السلام . لم يكن يعرف أنهم رسل ؛ بل كان يعرف فقط أنهم ضيوف من البشر ، ولم يكن يعرف لماذا جاءوا .

عندما رأى الملائكة لوطاً في هذا المصيق الشديد ، يحاول أن يحصى ضيقه ولكنه مرد أمام مجموعة من الشواذ لا يستطيع أن يفعل شيئاً ، أطلعه على الحقيقة وهي أنهم لم يأتوا صيوفاً ، ولكنهم رسل من الله ، وأهل القرية لن يسلوا معهم شيئاً ولن يصلوا إليهم ، بل لن يصلوا إلى لوط نفسه .

لذلك : ﴿ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسِرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ﴾ الملائكة أعلموا لوطاً ألا يحاف من هؤلاء المتجسسين ، فهم لن يصلوا إليهم ، بل لن يصلوا إلى لوط نفسه ، ثم أبلغوه أوامر الله ، بأن يسير بأهله ليلاً ، هم قالوا : ﴿ فَأَسِرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ﴾ بمعنى اخرج من هذه القرية ليلاً ولا يهم أى وقت من الليل سواء فى أول الليل أو فى آخره . إذن فهم أعطوه مهلة لكي يسير ويخرج من هذه القرية ليلاً ، ويقال قطع من الليل أى ما ينقطع الليل أى منتصف الليل ، ثم أكملوا له ما يجب أن يفعله : ﴿ وَلَا يَلْبِثْ فِيكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا نَكْتُمُ ﴾ والاتفات هو الانصراف عن الشيء الذى أمامك ، إلى الشيء الذى خلفك أو بجانبك . يكون الشيء أمامك فتصرف عنه ، وهل المقصود بذلك الالتفات الحسى أو الالتفات المعنوى ؟ إن لوطاً وأهله يخرجون من ديارهم ويتركون أموالهم ومتاعهم وما اعتادوا عليه من حياة . إذن الأمر معناه : إياكم أن تتجه قلوبكم أو أظفاركم إلى ما تركتم ، اخرجوا وأنتم مصممون على الخروج ، وسيعوضكم الله تعالى عما فاتكم ، هذه هي اللفتة المعنوية ، إياهم لا ينظرون إلى ما تركوه وفى قلوبهم حسرة . واللفتة الحسية هي الفتة بالنظر ، هي أن تلفت أظفاركم إليهم .

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّسَكِّرُونَ ﴾ [الحجر ٦١ ، ٦٢] ، ﴿ قَوْمٌ مُّسَكِّرُونَ ﴾ أى لا أعرفكم ، لم أركم من قبل . كما أن محيطهم إليه حرك همومه وأثار فى نفسه حواطر واسعة ، لأنه يعلم رديلة قومه ، وهؤلاء ملائكة جاءوا على أجمع صورة ، فهذه المسألة ساءت لوط ^{عليه السلام} كثيراً ، ولذلك يقول ربما فى آية أخرى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقًا بِهِمْ وَصَاحَ بِهِمْ دِرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ [هود ٧٧] . لأنه يعرف ما سيحدث من قومه ، ولكن الملائكة طمأنوه ، قال تعالى : ﴿ قَالُوا بَلْ يَحْسَبُنكَ بَيِّنًا كَاثِرًا مِمَّنْ يَمْتَرُونَ ﴾ فقد أعلموه أنهم جاءوا للقوم الذين اتبعوه ، وكانوا يمترون ويشكون فى أن الله يأخذهم أحداً عزيزاً مقتدر . ونحن جئنا لتحقيق لك رجعتك فى هؤلاء المتسدين ، الذين

يمتروا ويشكون في عذاب الله أن يقع بهم في الدنيا قبل الآخر، ثم يقول تعالى ﴿وَأَيَّدَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَمَكِيدُونَ﴾ [احجر ٦٤] مثل قولهم لإبراهيم: ﴿فَسَتَرْنَكَ بِالْحَقِّ﴾ [الحجر ٥٥] وبعد ذلك أعطوه المنهج الذي يتبعه حتى يسجد هو وأهله.

قال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِطُغْيَانِ اللَّيْلِ وَأُنْبِغْ أُنْزَرَهُمْ وَلَا يُفْنِقُ سَكْرُ لَيْلٍ وَأَمْسُوا حَيْثُ تَوَمَّوْنَ﴾ [احجر ٦٥]، ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾، الفعلان «سرى» و «أسرى» يتواردان على معنى سريت أنا وأسريت، أى مشيت بالليل، ومرة أسرى تكون هى المتعدية، مثل قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾، ﴿بِأَهْلِكَ﴾ الأهل كناية عن المرأة والأولاد وما يتبعهم، ولذلك فإن الناس عندما في القرى لا يتكلمون عن نسائهم بأسمائهن، وإنما يقولون: الأولاد قاتلوا كذا، أو الجماعة يريدون كذا، ولا يدكرون اسم المرأة. يعون بذلك ساءهم فكان اسم المرأة دائماً مبنى على الستر؛ ولذلك نجد المرأة في كثير من الأحكام مضمورة في حكم الرجل إلا فيما يتعلق بها خاصة.

وقوله تعالى: ﴿يَقْطَعُ مِنَ اللَّيْلِ﴾ قطع: جمع أو اسم جمع، مفردة قطعة. وعندما الذى يدل على أكثر من واحد، نظر هل تعير فيه شكل المفرد أو لم يتغير؟ فإن لم يتغير يطلق عليه جمع سالم، سواء كان مدكراً أو مؤنث؛ لأن المفرد سلم من التعير وأُخفقت به علامات الجمع مثل كاتب .. كاتبون أو كاتبات. أما إذا تعير المفرد فيسمى جمع تكسير مثل رجل - رجال، قلم - أقلام. فإن دل اللفظ على جمع وليس من هذا ولا ذاك، يكون «اسم جمع» أى يدل على الجمع، فيفرق بينه وبين مفردة بالتاء، مثلاً تقول: هذا تمر، معناه شيء كثير، مفردة تمر وعنب مفردة عنب، فعنب جمع ولكن ليس من جموع التكسير ولا من الجموع السالمة، فدل على جماعة وليس من واحد منها، فهذا يطلق عليه «اسم جمع».

إذن .. قطع جمع قطعة، وقوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِطُغْيَانِ اللَّيْلِ وَأُنْبِغْ أُنْزَرَهُمْ﴾ هذا منهج السجاة، يحضرون به لوطاً عما يفعله بالنسبة لأهله والمؤمنين به ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ هذا أمر ﴿يَقْطَعُ مِنَ اللَّيْلِ﴾ هذا زمان الإسراء أى المشى أو الرحيل. و﴿وَأُنْبِغْ أُنْزَرَهُمْ﴾ الدبر هو الخلف، ولماذا يتبع أديار القوم؟ ليبحثهم على السرعة، وكان من طبيعة العرب أنهم إذا كانوا في مكان ورحلوا عنه، فكل واحد منهم يصع رحله على ناقته وأهله فيها. وبعد ذلك يركبون ويمدحون السير ويتحذف رؤس القوم، ويسمى «مقعب». ليستمر هل سموا شيئاً من

أمتعتهم أو سقط منهم متاع أو غيرهم ، ويطمئن عليهم . ﴿وَأَنبِئْ أَذْيَرْتَهُمْ﴾ كُنْ خلعهم ، لكي تمنحهم على السير حتى يسروا بسرعة ، ولتحمي أمرا سامرك به في قوه تعالى : ﴿وَلَا يَلْتَمِثُ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ أى : لا يلتفت أحد منكم خلفه ، وحتى تراقب من يلتفت لا بد أن تكون متحلفا عنه .

ولماذا لا يلتفت منهم أحد ؟ لأن الالتفات يأخذ وقتا ويؤخر السير ، ونحن نريد السرعة وأيضا إن القوم إذا التفتوا إلى مواقع استمائهم من الأرض التي شتوا عليها وعاشوا فيها واعتادوها قد يتأهبهم الحزن إلى بلادهم ويقوى عندهم الالتئام ومحس لا يريد ذلك ، بل نريد أن تسرعوا إلى الأمام ﴿وَأَمْسُوا حَيْثُ تَوَمَّرُونَ﴾ أو أن الحق سبحانه لا يريد أن يلتفت أحد خلفه ؛ حتى لا يشهد عذابا أو مقدمة عذاب للقوم ، فتأخذه بهم الشفقة وليلت يقول سبحانه في إقامة حد من حدوده : ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور : ٢] . يدل على أن الموقف سيؤثر في النفس ، مع أنهم فعلوا جريمة ، ولذلك قل إن بشاعة الجريمة بمرور الوقت نزول وتبقى بشاعة العقوبة أو أنه سبحانه يريد أن يجعل بهم قبل أن يوجد العذاب ولو بالتفريع فقط ، من هول ما يرون من إنزال العذاب بالقوم .

فها كم أمر ؟ ﴿فَأَنشِرْ أَهْلَكَ﴾ والظرف ﴿بِقِطْعٍ مِنَ الْبَيْلِ﴾ والكيفية ﴿وَأَنبِئْ أَذْيَرْتَهُمْ﴾ ، و﴿وَلَا يَلْتَمِثُ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ ، ﴿وَأَمْسُوا حَيْثُ تَوَمَّرُونَ﴾ . ولماذا لا تأخذ ﴿وَلَا يَلْتَمِثُ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ مؤكدة لقوله : ﴿وَأَمْسُوا حَيْثُ تَوَمَّرُونَ﴾ ؟ أى لتكسر وجهتكم الأمامية والعبادة ، وليس لكم شأن بين تركمومهم .

عاقبة المجرمين من قوم لوط

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ثَقِيلًا فَأَنظَرْنَاكَ عَقِبَهُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف : ٨٤] والمطر عادة هو الذى يأتي بالماء ، والماء أساس كل خير ، ولكن هذا المطر لم يكن خيرا ولم يكن ماء ، بل كان حجارة انهالت عليهم من السماء ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يقول في سورة هود : ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَاقِطَةً وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارًا مِّنْ سِجِّيلٍ مُّطَّوَّرٍ ﴿٨٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِعِيدَةٍ﴾ [هود : ٨٢ ، ٨٣] إذن . فامطر كان حجارة ، وكان حجارة من النار .

أحق سبحانه وتعالى بلفتنا إلى أن نعتبر بما حدث بقوم لوط حتى لا نفع في نفس المعصية أو نقرب منها فيقول: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: اعتبر يا من تسمع هذه القصة بما يحدث للمجرمين الذين يصادمون ويعاندون دعوة الله تعالى ويصرون على المعصية فينزل عليهم غضب الله. ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَقَصَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ [الحجر ٦٦] و﴿وَقَصَيْنَا إِلَيْهِ﴾ أي إلى لوط، بمعنى أوحينا إليه أو أعلماه. مثل قوله تعالى: ﴿وَقَصَيْنَا إِلَيْكَ بَيِّنَاتٍ لِّتُزِيلَ فِي الْكِتَابِ لَلْفَيْسِدِ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء ٤].

بعد أن تكلم سبحانه عن الإجماع لآل لوط، تكلم عن العذاب لقومه المجرمين أي أوحينا إليه أن ﴿دَابِرَ هَؤُلَاءِ﴾ أي قوم لوط «مقطوع» وقطع دابر، أي آخره كما نقول أحرجه من جذوره. أو أن الدابر هو الأصل، ولذلك في القرآن الكريم: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام ٤٥]. أي: أن هؤلاء القوم مأخوذون عن آخرهم، أو مخلوعون من جذورهم فلا يبقى منهم أحد.

متى يحدث ذلك؟ ﴿مُصْبِحِينَ﴾ فأنهم سسبرون بقطع من الليل وهم سيؤخذون مصبحين، وأخذ الصبح هذه طريقة العرب، وطريقة اخروب عندهم: «إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين».

فالصبح، لأنهم يكونون نائمين ومستريحين، وليس عندهم استعداد للمقاومة، يؤخذون على عرة. ﴿مُصْبِحِينَ﴾ أي في حاله صباح وهي لا تنافض مع قوله تعالى: ﴿فَأُخَذَتْهُمْ الصَّبِيحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ [الحجر ٧٣] فكان بدء الصبيحة كان صبيحا وأحدهم وبهايتهم كان في الشروق. والصبيحة: كما نرى الآن في الألعاب السيمة مثل الكاراتيه والحدود، كنها تبدأ بالصباح، فهذه الحركات الإلهامية للحصم تبدأ بالصبيحة فيحدث اضطراب للحصم يفقده توارنه العكري، وكذلك أيضا عند التحام الجنود في القتال.

ولذلك يقول الحق سبحانه: ﴿فَأُخَذَتْهُمْ الصَّبِيحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ ويقول في آية أخرى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا نَالَ لُوطٌ حَيْثُ لَهُمْ إِسْرَارٌ﴾ [النمر ٤٢] و﴿مُشْرِقِينَ﴾ أي وقت الشروق ثم يقول تعالى ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَاطِطًا وَأَمَطْنَا عَلَيْهَا جَعَاةَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [هود ٨٢] أي فلبت رأسا على غضب. وكون هذا الانتقام جعل عاليها

ساعدها ، فلا بد أنه كان انتقاماً منطقاً ومدبراً بدقة . ﴿ تَسْمِعُهُمْ بِحِكْمِهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ [العنكبوت : ٤] مثل حادثة الفيل . ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّتُسَمِّعَ الصُّمَّ ﴾ [الحجر : ٧٥] المتوسم . هو الذى يدرك حقائق المستور بمكشوف المظهر ، أى يتوسم من الظاهر فيقول مثلاً : أنا توسمت فى فلان كذا . فأخذ من الظاهر ما يدل على الحقيقة .

وما حدث لقوم لوط لا يحتاج إلى توسم ولا مراعاة ؛ لأن المسألة واضحة . لذلك يقول تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَنَسَبِلُ مُتَقِينَ ﴾ [الحجر : ٧٦] ﴿ وَإِنَّا لَنَسَبِلُ مُتَقِينَ ﴾ أى : قرية سدوم التى مر بها العذاب ، ﴿ لَنَسَبِلُ مُتَقِينَ ﴾ أى : على الطريق ، والطريق ثابت ؛ لأن هناك سبيلاً عارضاً مثل إقامة مدن فى أكثر من جهة من الطريق . ولكن « سبيل متقين » أى طريق مستقيم وثابت . كما سميته الآن مرصوف ، ويقول فى آية أخرى : ﴿ وَلَنُرَكِّبَنَّهُمْ أَهْلِيهِمْ مُّصِيبِينَ ﴾ [الصافات : ١٣٧ ، ١٣٨] أى : أنكم ترونه ؛ لأنه ما دام طريقاً ثابتاً فإن التعريف وعوامل التعريف لن تحفيه ؛ لأنه محكم التكوين والرصف والتثبيت . ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر : ٧٧] بعدما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّتُسَمِّعَ الصُّمَّ ﴾ فكان من حق المؤمن أن يتفحص فى أدبار الأشياء ، ويعرف الأشياء بسيماها ، ويكون عنده فراسة . ولذلك قيل : « اتقوا فراسة المؤمن ؛ فإنه يطر بور الله » . والحق تبارك وتعالى قال فى آية أخرى فى سورة « الشعراء » . ﴿ ثُمَّ دَرَكْنَا أَتَّخِذِينَ ﴾ ﴿ وَأَنْتَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْأَسَدِينَ ﴾ [الشعراء : ١٧٢ ، ١٧٣] كلمة « مطر » تعنى الماء النازل من السماء إلى الأرض ، وهو فى غالب الأحوال « عيث » يعيث الناس ريقدهم من الجذب والعطش ، يروى الأرض ويشرب الناس منه ، هذا المطر يكون مطر رحمة [أما] المطر الذى أصاب قوم لوط ، مطر من نوع آخر ، مطر عذاب ، ولذلك قالوا عنه : ﴿ هَذَا عَارِضٌ مُّطَرْنَا ﴾ فرد عليهم بقوله : ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدْرِكُهُ الْغُيُومُ زَمْزَمًا تَرْبًا ﴾ [الأحقاف : ٢٤ ، ٢٥] لماذا جاء الحديث عنها بلفظ « مطر » الذى هو بشير خير ؟ ذلك للإنسان ؛ حتى يظنوا أنه بشير خير ، فيحجب ظههم وينصب عليهم نذير شر ، كما قالت الآية : ﴿ فَسَاءَ مَطَرُ الْأَسَدِينَ ﴾ .

ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ [هود : ٨٢] قوله سبحانه . ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ أى : جاء أمر الله بالعذاب ، يدل على أن الأمر حين يصدر من الحق جل جلاله يستجيب كل شىء قهراً . القرى التى كان يعيش فيها لوط وقومه خمس

قرى . قرية اسمها دومة ، وقرية اسمها سدوم ، وقرية اسمها حيوان ، وقرية اسمها عامرراء ، وقرى أخرى . الله سبحانه وتعالى قال عن هذه القرى : ﴿ جَعَلْنَا عَلَيْهَا مَسَابِلَهَا ﴾ أى : انقلبت فأصبح أعنى مكان فيها هو الأسفل ، والأسفل هو الأعلى ، وقرأ قول الله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنَةُ أَهْوَى ﴾ [النجم . ٥٣] المؤتمكة : من الإثك ، والإثك هو الكذب المتعمد . أى : أن تعرف الحقيقة وتقول ما يخالفها .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [هود : ٨٢] ﴿ وَأَمْطَرْنَا ﴾ تأتى دائماً فى العذاب ، وأمطرنا عليها حجارة يعنى برئت كالمطر . وفى آية أخرى يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴾ [الحجرات : ٢٣] هل هى حجارة صلبة أم طين لين ؟ نقول إن الطين الذى يطره الله عليهم من المساء يكون أصلب من حجارة الأرض .

وقوله تعالى : ﴿ تُسْرِمَةٌ ﴾ [هود : ٨٣] أى : معلمة كل حجر يزل على صاحبه مثل الصواريخ الموجهة . كل صاروخ متجه لهدف معين بدقه لا يبحرف عنه ، نحن البشر استطعنا أن نصنع صواريخ بوجهها للهدف الذى نريده . الله سبحانه وتعالى جعل هذه الحجارة كالصواريخ الموجهة ، كل حجر منه يعرف صاحبه وبصبيه بدقة . قوله تعالى : ﴿ مَنصُورٌ ﴾ [هود : ٨٢] أى منظمة ولها أوامر خاصة بها من الله سبحانه وتعالى ، متى أمر انهمرت ، معدة من قبل وموجودة . على أنه فى آيات وردت : ﴿ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [هود : ٨٢] . وفى سورة الفيل ، قال الحق جل جلاله : ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أُبَابِلَ ۖ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [الفيل ٣ ، ٤] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود : ٨٣] . قلنا إن القصص القرآنى قد جاء لتثبيت الرسول والمؤمنين بأبواب من سبق من الرسل ، لذلك يقول الله سبحانه : ﴿ وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَحْنُ بِمُؤَدِّئِهِ فَوَاذَلَكُ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَرْغِطَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [١٢٠ - ١٢٥] ولذلك يقص علينا القرآن الكريم أبواب المعارك التى قامت بين الرسل المؤيدين بمعجزات من الله تعالى ، وبين الكافرين وهذه القصص تنتهى دائماً بانتصار المؤمنين على الكافرين ، إلا أن الرسل السابقين لم يكلموا هم ومن آمن بهم أن يقاتلوا من أجل نصرته الإيمان ويحاربوا الكفر . ولذلك كان الله يعاقب المخالفين ويهلكهم . أما أمة الحبيب محمد رسول الله ﷺ فقد عاهاها الله من الاستعصال ، ببركة دعاء نبيها الحبيب ﷺ .

نبي الله شعيب عليه السلام

قال الله تعالى : ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [هود : ٨٤] قصة أخرى من القصص التي أحبرنا بها الله تبارك وتعالى عن موكب الرسالات التي بدأت من عهد آدم عليه السلام ، واختتمت برسالة النبي الخاتم محمد ﷺ .

كلمة ﴿مَدْيَنَ﴾ اسم قبيلة سكنت هذه المنطقة منذ عهد إبراهيم ، فكان خطاب الله تبارك وتعالى موجه إلى أهل هذه القبيلة أو القرية ، أما نبيهم فهو شعيب عليه السلام ، والله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم يخاطب المكان ويقصد به المكين ، المكان هو البقعة من الأرض التي يقع فيها الحدث ، والمكين هم أولئك الذين يقيمون في هذا المكان . ولذلك تجد مثلاً في سورة يوسف عليه السلام قوله تعالى : ﴿وَسَأَلَ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ [يوسف : ٨٢] هل مطلوب منا أن نسأل القرية أو نسأل أهل القرية ؟ وهل نسأل العير أو الذين قدموا بالعير ؟ المفروض أن نسأل أهل القرية والذين قدموا بالعير .

إذن فقوله تعالى : ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ﴾ أي : وإلى أهل مدين ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ وشعيب عليه السلام ككل رسول جاء إلى قومه ، اختير من أهله وعشيرته ؛ ليكون معروفاً لهم قبل الرسالة وبعد الرسالة ، فيستطيعوا أن يشهدوا له قبل الرسالة بالخلق الكريم والصدق والأمانة ، فيكون تكديهم له بعد الرسالة حجة عليهم وسبباً لهلاكهم ، وتسقط حججهم في عدم تصديقه . شعيب جاء ككل رسول يقضية التوحيد ، وهي أن عبدوا الله وحده لا شريك له ولا إله غيره . هذه هي قمة الدعوة الإيمانية .. وحدانية الألوهية التي جاء بها كل الرسل .

شعيب حين أرسل لقومه قال ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ . أي : اعبدوا الحق سبحانه وتعالى ، والعبادة ليست هي الصلاة والصوم والزكاة والحج فقط . هذه هي أركان الإسلام ، ولكن لابد أن تنبه إلى أن كل تكليف إيماني لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . وقوله تعالى : ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود : ٨٤] يعنى إياك أن تأخذ الأمر به اعمل ولا تفعل ، إلا من الله سبحانه وتعالى ، فلا تكليف من أحد آخر ؛ لأن هناك إلهاً واحداً ، وإياك أن تستلرك حكماً على الله جل جلاله . وإلا فكأنك تقول : إن هذا الحكم مات على الله .. بمعنى أنه حكم جديد .

إذن . فالأمر الأول لكل رسالة هو التوحيد : ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ منذ آدم حتى خاتم المرسلين محمد ﷺ ، الذين فى أصلة واحد ، إلها إله واحد أحد ، نتجه إليه جميعا ، هذا هو جوهر الرسالات كلها والتي أكملتها وختمتها رسالة رسولنا محمد ﷺ .

شعيب يطلب من قومه عدم الإفساد فى الأرض

قال الله تعالى : ﴿وَالَّذِي مَدِينَتِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفَوِرَ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَاتٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْيَمَانَ وَلَا تَحْصُوا النَّاسَ أَنْبَاءَهُمْ وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَفُضُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبُوعُوهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَذَّبْتُمْ وَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [هود : ٨٥ ، ٨٦] حينما جاء شعيب إلى قومه يطلب منهم ألا يفسدوا المكيال والميزان ، لم يفتنوا إلى الحكمة الحقيقية فى ذلك ، إن الذى يحكم البائع والمشتري هو المكيال والميزان ، فإنك إذا كنت مشترى فالمطوب من البائع أن يعطيك حقل ، ومن جابك عليك أن تعطيه حقه . إذن فالقضية ليست قضية كىل يوزن بها ، ولكنها قضية حقوق الناس ، فيما بينهم فساعة ترى قضية المكيال والميزان قد اختلت فى مجتمع عليك أن تعرف أن المجتمع قد اتبع هواه ، وأنه انصرف عن الحق ، أى أنه مجتمع تصعب فيه حقوق الناس ، ذلك أن الأمر المشهود من العدل بين الناس فى البيع والشراء هو . الكيل والميزان . ولكن كل الأمور التى تحدث فى الحياة معنوية وليست مادية فقط ، فلا بد أن يطبق عليها مقياس الكيل والميزان .

ولكى لا يأخذ أحد حق غيره لابد من ميزان لكل حركة الحياة ؛ حتى تأخذ الناس حقوقها بالكامل ؛ وحتى لا يقوم العالم على الظلم فينتشر فيه السحت وأكل أموال الضعفاء والفتن وغير ذلك ؛ ولأن الحياة كلها تمضى بميزان بالتعامل بين الناس غنيهم وفقيرهم ، جاهلهم ومتعلمهم لابد أن يتم بميزان ، ولو انتفع كل إنسان أنه أخذ حقه تمامًا لا اعتدل المجتمع بكل ما فيه . والكيل والميزان يكونان بالزيادة والنقص . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلَا تَقْصُوا الْكَيْلَ وَالْيَمَانَ إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي لَأَعِظُكُمْ صَدَاقَ يَوْمٍ يُحْصَى * وَتَقْوَى أَزْفُوا

الْيَحْيَىٰ وَالْيَزَارَكَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَقْنَطُوا فِي الْأَرْضِ مُقْسِدِينَ ﴿٨٤﴾ [هود ٨٤، ٨٥] وهذا أمران محتلمان؛ لأن الكلام ليس في المكيل أو الموزون، وإنما الكلام في المكيال والميزان سواء وفيه أم لم توفه. فالآية الأولى تنص على عدم الإنقاص، والثانية تنص على الوفاء.

على أننا لا بد أن نلتفت إلى قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَرْزُقُكُمْ بِمِثْرٍ﴾ ما هو الخير في هذه المعصية؟ نقول: إنه لا خير في معصية أبدا، ولكن ﴿إِنِّي أَرْزُقُكُمْ بِمِثْرٍ﴾ لأن عندكم ما يكفيكم من ما لحياتكم، وما يعينكم عن سرقة غيركم، فاكتفوا بالخير الذي أمدكم الله به، وليأخذ كل واحد منكم حقه، وهذه قضية يغفل عنها كثير من الناس، فالبائع . يبيع صفاً واحداً أو صنفين، وهو إن غش في صنف أو صنفين، سيفشه غيره في كل ما يشتري وهو كثير، وإذا كنت مثلاً قصاباً تنقص الوزن في اللحم، فسوف ينقص لك كل من يبيدك كما استريت تكون أنت الخاسر. فقله تعالى: ﴿إِنِّي أَرْزُقُكُمْ بِمِثْرٍ وَإِنِّي لَأَكْفِيكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّجِيطٍ﴾ لأن حقوق الناس تضيعها، والله وكيل على حقوق عباده جميعا، لا يظلم أحدا ولا يتقرب إليه أحد إلا بالقوى ولذلك فإذا احتلسك أحد حقاً من حقوقك دعائه، وإذا بغى عليك وظلمك فحسابه، ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ عَمَلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم ٤٢]. إذن .. فالسؤال أن الله تعالى يسمع ويرى، وأن الميزان في الحياة إذا احتل فسدت الحياة وصاعت الثقة بين الناس، حتى يقال في شئ فلان رجل أمين.

ولذلك الحق سبحانه وتعالى في سورة «الرحمن» يقول: ﴿وَاللَّهُ رَفِيعُ دَرَجَاتٍ وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الزُّلْكَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَحْسَبُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ [الرحمن ٧-١٠].

في هذه الآيات البينات، يلتفتنا الحق سبحانه إلى أن الكون كله لا يستقيم إذا احتل ميزان فيه، ولا يظن ظان أن المقصود هنا ميزان الجرام والدرهم فقط؟ لا. إنما يقصد ميزان الحياة، فالميزان بالميزان وليس بالموزون، فالميزان يجب أن يكون دقيقاً في كل الأمور.

الحق تبارك وتعالى حين يقول: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُّجِيطٍ﴾ [هود ٨٤] أي: عذاب يوم لن

يفلت منه أحد ، «إذا أفلت في الدنيا أو احتفى فيها بذي نمرود ، كان عذاب الله تعالى يتظره في الآخرة ، فعذاب الدنيا من الممكن أن يحتال البعض للنجاة منه ، ولكن في الآخرة لن ينفع شيء من هذا .

في هذه الآية يقول : ﴿أَوْفُوا﴾ والاثنا عشر مطلوبان ؛ لأنه ليس المقصود هو المكيال وإنما الكيل بإطلاقه وليس المقصود هو المورود ولكنه الميزان بإطلاقه فاعدل ولا تنقص ولا تزد ، وأمر أقوله عز وجل : ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطِيعِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا أَكَلُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝ يَوْمَ عَظِيمٍ﴾ [المطعم ١٠ - ١٥] ، إذن .. فإلّا يطلب لا إفراط ولا تفريط ، لا زيادة ولا نقص ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى . ﴿أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْعَدْلِ . أَيْ بِالْعَدْلِ .

ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَلَا يَخْسِرُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود : ٨٥] هنا كلام عام ليس فيه كيل ولا مكيال ولا ميزان ولا مورود ، في كل شيء حد حقه وأعط الناس حقوقهم .

قوله : ﴿وَلَا يَخْسِرُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [هود ٨٥] الخس هو الضرر ، إما بالنقص إذا كان للشيء وزن أو حجم أو كم أو كيل ، وإما بإنقاص القيمة المعنوية للشيء . وقوله تعالى . ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ من المعلوم أن الإنسان مطالب بعمارة الأرض وإصلاحها ، وأقل الإصلاح أن تترك الصالح على صلاحه ، فإن استطعت أن ترفق به فافعل . وقول الله تعالى . ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ تدل على أن المجتمع مأمور كله بعدم الإفساد في الأرض ، وبذلك يكون على كل واحد منا أن يمد ذلك على نفسه وأهل ولايته ، إنما الآفة أن كل واحد منا يريد أن ينفذه على غيره .

الحق تبارك وتعالى يقول : ﴿يَقِئْتُ اللَّهُ سِرّاً لَكُمْ﴾ أي : ما يبقى لكم من لأمر إخلال خير من كل ما تحصلون عليه من حرام . وأنت تتوهم أنك عندما تحصل على مال من حرام قد ربحته ، ولكنك في الحقيقة أحدثت من المال إخلال بركته ، فلو أقيمت مالك كنهه حلالاً نكاح خيراً لك من أن تضعيف إليه حراماً ، لأن الذي أخذ غير حقه من أي شيء يسلط الله عليه أبوابها تنهب منه الرائد الذي لم يأحده حلالاً .

ويقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ﴾ أى: إن كنتم مؤمنين بأن الله رقيب عليكم، وأن الله قَيُّوم، وأنكم لا تستطيعون أن تعملوا شيئا دون أن يراكم مراقبوا الله في أعمالكم، وانفَعُوا بِمَا آتَاكُمْ حَلَالًا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِمُعَظِرٍ﴾ أى: أنا لا أستطيع أن أحافظ عليكم من الدار، بل كل واحد يحافظ على نفسه. ولذلك فإن كل عمل نعمله لا ننظر إلى قيمته الدنيوية، بل نحرص على قيمته في الآخرة. ومادمت قد رصيت بقيمة من الله لها يركة؛ فهذا حبرك من الحرام الذى لا يأتى إلا بالشر، ولا يعطيك إلا كل ما يؤدبك في الدنيا والآخرة.

النش اهلك امة

ماذا كان داء قوم شعيب؟ الداء الذى كان منتشرا فيهم علمناه من قول الله تعالى ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَلْتَسْتَفِيمُ * وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَقْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الشعراء ١٨١ - ١٨٣] الكيل: ما يقدر به الشيء المكيل. ومثله «الكيلة» هي تقدير الحبوب. والميزان في تقدير أوزان السلع والبضائع. هناك شيء يكال، وهناك شيء يوزن. ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ يعنى اجعلوا ما تكيلون به صحيحا ولا تغشوا به. ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ الخسر: هو الذى يُخْسر الذى يقابله، إن كان يشتري فهو يريد فى وزن السلعة التى يشتريها. وإن كان يبيع فهو يجعلها أنقص من وزنها الحقيقى. فالذى يقابله خسران سواء اشترى منه أو باع له، هو مخسر فى كلتا الحالتين.

قوله تعالى: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَلْتَسْتَفِيمُ﴾ «ربوا» أى اجعلوا آلة الوزن مضبوطة. «القسطاس» هو العدل المطلق الذى فى قدره البشر. لماذا جاء بالكيل والميزان؟ هل وسائل العيار أو البيع والشراء هي الكيل والميزان فقط؟ لا. فهناك أشياء كثيرة يمكن قياسها بالتر أو بالدارع المهم هو العدل فى أداء لامتية فى كل شيء له تقدير.

الآيات ذكرت الكيل والميزان فقط؛ لأن الأمم فى ذلك الوقت كانت بدائية لا تعرف إلا هذين اللونين من التعامل، ونحن نعرف أن المبادلات كانت هي وسيلة البيع والشراء فى الأرمية الماضية، ولذلك كان الإنسان بائعا ومشتريا فى نفس الوقت، يحرص سلعة يملكها ويأخذ مقابلها سلعة يحتاجها، وبالتالي لا يكون البائع بائعا على حدة، ولا المشتري مشتريا على

حدة . ولم يعرف الناس البيع والشراء بأثمان إلا بعد صدك العملة .

والسلع التي فيها مقايضة كان فيها انتفاع مباشر ، كل واحد يقايض بالسلعة التي يحتاج إليها كل سلعة كان فيها بيع وشراء . ولذلك قال الله تعالى في سورة يوسف : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخِيسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾ [يوسف : ٢٠] قال الله سبحانه : ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾ مع أنهم باعوه وهكذا لو قدرت أن كل واحد في الصفقة بائع ومشتري لقلت : شري وباع . هذا النوع من التعامل الذي كان سائدا في زمن شعيب عليه السلام ورد ذكره بتفصيل أكثر في سورة كاملة هي سورة المطففين ، وفيها يقول الله عز وجل : ﴿ وَبَيْنَ يَدَيْهِ لَئِيمٌ إِنْ كَانُوا عَلَى الْكَاسِ فَسَوْفُونَ ﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ [المطففين : ١-٣] ، اكثال عليه وكال له .. ما الفرق بينهما ؟ « كال » يعنى أعطى و« اكثال » أى : أن غيره يعطيه . إذا كانت الآية وصفتهم بأنهم ﴿ فَسَوْفُونَ ﴾ فما ذنبهم ؟

اللوم عليه ؛ لأنه يستوفى عندما يكون الأمر لنفسه وعندما يكون لغيره يطعف و« المطفف » هو الذى يأخذ شيئا طفيفا ، فإذا كان الويل لمن أخذ شيئا يسيرا فكيف يكون عذاب من أخذ الكل ؟ إذن .. فالويل للقوم الذين أرسل إليهم شعيب لأنهم كانوا يأخذون الوزن كاملا عندما يشترون لأنفسهم ويبيعونه بالنقص إذا كان لغيرهم . والأصل الشرعى في البيع والشراء أن تعدل ، فتوفى لمسك عندما تشتري من غيرك ، وتوفى لغيرك عندما تشتري منك ، والحديث الشريف يقول : (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) . فلا تكن « أناثقا » تحب لنفسك الخير وتكرهه لغيرك ، هذا هو الحال المطلوب في الأخذ والعطاء في البيع والشراء . فما هو حال من يطلى أكثر ، بمعنى إذا اشترى منه واحد قلنا معينا من السبع أعطى له زيادة عليه ؟ مثل هذا أجره على الله : ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفْوَورٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة : ٩١] .

قول الحق سبحانه : ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَلْتَفِيمٌ ﴾ [الشراء : ١٨٢] يدخل فيه ضرورة القياس المضبوط العادل أيضا ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا الْكَيْسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ البخس معناه النقص . ﴿ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ حقوقهم .

آيات تنهى عن النقص في الكيل والميزان عند البيع والشراء . فما هو حال من يفتصب

السلعة كلها؟ أو يتصرف فيها من غير أمر صاحبها؟ هذا كله يدخل في إطار النهي عنه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْصُوا النَّكَاسَ أَشْيَاءَ هُمْ﴾ إذن كل شيء ينقص بالأحد منه، أو بعصبه، أو بالتصرف فيه عن غير رأى وإذن صاحبه، كل ذلك يسمى بخسًا بلشيء

سؤال قوم شعيب

بماذا رد قوم شعيب على ما قاله شعيب لهم؟ قالوا كما يقص علينا القرآن الكريم: ﴿قَالُوا يَنْشُعِيبُ أَصْلُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَمْبُؤُا آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ [هود: ٨٧] هنا لاحظ أن قوم شعيب لم يقولوا له أينك أو أديك بأمرك، وإنما قالوا: أصلاتك تأمرك. لماذا؟ لأن الصلاة هي الركن الدائم في الإسلام الذي لا يسقط أبداً. فالإسلام مبني على خمس. شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً.

إيتاء الزكاة يشترط فيه وجود فائض من المال، ولذلك فإن الزكاة تسقط عن الفقير، وصوم رمضان يشترط فيه الصحة وعدم السفر، فمريض لا يصوم وكذلك المسافر لا يصوم. وحج البيت يشترط فيه الاستطاعة، فغير المستطيع يسقط عنه الحج.

إذن .. فالزكاة قد تسقط، والصوم قد يسقط، والحج قد يسقط، وقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله يكفي أن يقال مرة واحدة في العمر، ولم يبق من أركان الإسلام إلا الصلاة. الركن الذي لا يسقط أبداً، ولذلك يقول رسول الله ﷺ: «الصلاة عماد الدين من أقامها أقامه ومن تركها ترك الدين» والصلاة هي الركن الوحيد الذي يعلن العبد فيه الولاء لربه خمس مرات كل يوم، ودوام الولاء لله لا يتوقف، فالمؤمن يصلي دائماً، فإن عجز يصلي قاعداً، فإن عجز يصلي مضطجعا، فإن عجز عن الحركة يصلي إيماءً بعبيه ويرمش عييه، ويجري الصلاة على قلبه، حتى في حالة الحرب والقتال دائر لا تسقط الصلاة ولكن تقام صلاة الخوف.

إذن .. فتبينهم: ﴿أَصْلُكَ تَأْمُرُكَ﴾ لأن الصلاة هي الركن الدائم الذي لا يسقط أبداً، أعطاه الله سبحانه في التشريع، ما يناسب كل تكليفات الإسلام وكان دين الله من أوله إلى آخره يوحى من الله تعالى جبريل، ثم ينزل جبريل بالوحي إلى رسول الله ﷺ، إلا الصلاة استدعى الله عليه الصلاة والسلام إلى أسرها المنتهى أي السماء السابعة، وهناك

عند مدرة المنتهى كلف الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ بالصلاة، فكنت وحدها بالتكليف المباشر لأهميتها وعظم أمرها.

سؤال قوم شعيب: ﴿أَمَلُّوْا نَفْسَكُمْ تَأْمُرُكُمْ﴾ نعم الصلاة تأمر؛ لأنك إن أثبتت لشيء حكماً فإليك أثبت له مقابله، والله سبحانه وتعالى يقول عن الصلاة: ﴿إِنَّكَ أَلْفَحْشَةٌ تَسْعَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [الصكوب ٤٥] وما دام الشيء له نهى فله أمر، إذا كانت الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فلا بد أنها تأمر بالإيمان وبالالتزام وبالمعروف، ولا بد أنها تأمر بالخير والبر.

إذن .. فقول قوم شعيب: ﴿أَمَلُّوْا نَفْسَكُمْ تَأْمُرُكُمْ﴾ كان لابد أن يقول لهم: نعم صلاتي تأمرني، إن أردت بالصلاة عماد الدين ورمزه، وبماذا تأمره الصلاة في هذه الحانة؟ تأمره بالآلا يقلد آباءه والناس تقليداً أعمى؛ لأن إيمان المقلد لا يصح.

قولهم ﴿أَمَلُّوْا نَفْسَكُمْ تَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ هي رد على قول شعيب ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود ٨٤] وقولهم: ﴿أَوْ أَدْنَىٰ أَمْرًا مَّا نَشَاءُ﴾ رداً على قول شعيب ﴿وَيَنْقُورُ أَوْفُوا إِلَيْكُمْ أَلْأَمْرَ وَاللَّهُ سَبَّحَهُ﴾ وتعالى قد حدد حركة الحياة التي تقصد في الأرض، فلو أنه أباح الربا مثلاً .. لآرداد العسى غنى، وازداد الفقير فقراً، وهذا ما نراه في عالمنا اليوم، فالدول العسية تزداد عسى، والدول الفقيرة تزداد فقراً، مما خلق فجوة كبيرة في العالم عند الكثرين - العنية والفقيرة، وبدأت المؤتمرات في محاولة للوصول إلى حل وسط، هذا إحدى نتائج الربا العسى الفاحش والمقر المدقع الذي يحل بميزان الحياة وتنشأ عنه الحوادث والكوارث والإرهاب والعداء المستحكم بين الشعوب والأفراد. ولذلك قيد الله حركة المال بها. كذلك تقييد حركة المال في الميراث حتى لا ينتشر الفساد في المجتمع، وتبني العمارة فتسقط فوق ساكنيها، وتفسد المرافق ويعاني الناس.

إذن .. فقوانين الله سبحانه وتعالى في حكم المال وحركته في الحياة هي لصالح البشر. وكان يجب عليهم أن يطلبوا بها.

وكلام قوم شعيب هذا: ﴿أَمَلُّوْا نَفْسَكُمْ تَأْمُرُكُمْ﴾ موجودة هنا على شكل تهكم، فالمنافقون

مثلاً كما قال عنهم الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ: ﴿إِنَّا جَاءَكُمُ الْتَوَفُّونَ قَالُوا قَسَدٌ لِمَنَّا لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَوَفِّينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون ١] كيف يكذب المنافقون وقد شهدوا أن محمداً رسول الله ؟ ، الله تبارك وتعالى أراد أن يلفتنا إلى أن المنافقين ينطقون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، فهم بألسنتهم يشهدون محمد ﷺ بالرسالة ، ولكن هذا الكلام لا يوافق ما في قلوبهم من كفر .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود ٨٧] ومادام قوم شعيب يعترفون بأنه الحليم الرشيد ، كان من الأولى أن يتبعوا آياته ؛ لأنه جاءهم بالحق ، ولكنهم لا يريدون الحق ؛ لأنهم يريدون أن يوافقهم على عبادة غير الله ونقص المكيال والميزان ، ويتعجبون كيف يأمرهم بترك هذا وهو الحليم والرشيد .

وأسبب التهمك يأتي كثيراً في القرآن الكريم ، وقرأ قول الحق تبارك وتعالى عن عذاب ذلك الرجل ، الذي طغى وتجر وماد ، يحدث له في الآخر ، الملائكة يقولون لهذا الرجل وهم بعدونه: ﴿ذُنِيَ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَصِيُّ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان ٤٩] أيديقونه كل هذه الدلة ، ثم يقولون له أنت العزيز الكريم

وهي موقف آخر عن أهل النار: ﴿وَلَنْ يَسْتَعِثُّوا يَقَاتُوا﴾ [الكهف ٢٩] فكأنهم يشيرونهم بأنهم ماداموا قد استجاروا ، واستعاثوا من العذاب ، فإن الله سيعيشتهم ، ثم يأتي الغوث ، وقرأ قوله سبحانه وتعالى: ﴿يُعَاثَرُ أَيْمَانُ كَالْمُهَيَّيْتِي تَتَرَى الْوُجُوهَ﴾ [الكهف ٢٩] إذن .. فهم استعاثوا من العذاب ، فجاءتهم الإغاثة أشد من العذاب

وقول قوم شعيب ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ . هم يتحكمون ، فلو كانوا يؤمنون فعلاً بأنه حليم ورشيد لاتبعوه وعلموا أنه لا يمكن أن يأتي بافتراعات أو أكاذيب .

إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت

بماذا كان رد شعيب عليه على فومه ؟ ، ومادا قال لهم ؟ : ﴿قَالَ يَتَقَوَّمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَمِينٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَبًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَى مَا أَنْتُمْ بِكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ﴾ [هود ٨٨] أي يا قوم إن كنت على يقين وحجة ومهجة صادق من ربي ، وأعطاني الخير كله من رزق وعلم ، وأعطاني قبل ذلك كله النبوة . ثم جاء شعيب بالحق

الدماغه لصاحب المذهب الحق ، صاحب الرسالة الصحيحة : ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَى مَا أَنْتُمْ بِكُمْ عَنْهُ﴾ ؛ ذلك أن صاحب المنهج المعوج والرسالة غير الصادقة ، يأمر الناس أن يفعلوا شيئاً وهو يفعل عكسه ، يأمرهم مثلاً بأن يتبرعوا بأموالهم للفقراء ثم يأخذها هو ليصبح غنياً ، يأمرهم بأن يقاتلوا ويختبئ هو في مكان أمين ، فإذا انتصروا خرج وأخذ الغنائم بلا قتال . وهكذا كل أوامره لا يتفدها هو ، وكل نواهيه يفعلها هو ، فكان شعبنا يقول بقومه : أنا أمركم ألا تنقصوا المكيال والميزان ، ثم بعد ذلك أحله لنفسى .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَّا مَا أَنْتُمْ بكم عَنْهُ﴾ هناك خالفه إلى كذا وخالفه عن كذا ، فهذا أنا لا أريدكم أن تتركوا نقص المكيال والميزان لأذهب أنا إليه . فمثلاً إذا وجدت إنساناً يشرب الخمر ، ونهيته ثم شرب أنت ، فأنت خالفته إلى ما نهيت عنه . ولكن إذا قمت وتوضأت وأذن للصلاة وفات الوقت ولم تصل ، ثم جئت إلى رجل تأمره بالصلاة . قال لك تأمرنى بأمر وأنت لا تفعله . إذن .. فالمخالفة هنا عن أن تأمره به .

شعيب يقول : الله سبحانه وتعالى اصطفاى بالنبوة وتلقيت الوحي منه ، ورنى كلشى بإبلاغ المنهج وسأكون أول مطبق له ، ولن تجدونى أفعل أبداً ما أنهاكم عن فعله ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أى : لا أريد إلا الإصلاح . صلاح مجتمعكم وإصلاح أموركم بقدر استطاعتي ، والله لا يكلف نفساً إلا وسعها ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ يريد الحق تبارك وتعالى : أن يلفتنا بها إلى أن هناك فرقاً بين العمل وبين أن توفق في العمل ، قد تشغل جوارحك بأى عمل ليست فيه بية خالصة لله سبحانه وتعالى ، وفى هذه الحالة لا يأتيك التوفيق ؛ لأن الأعمال بالنيات وبالإخلاص له

وقوله تعالى : ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ حين تسمع إنساناً يقول : على الله توكلت ، قل له : أتوكلت على الله وحده ؟ فإن قال لك : وعليك أيضاً ، فعلم أن مسأله من تقضى ، أما إذا توكل على الله وحده فلا بد أن يقضى الله حاجته ، ذلك مثل الرجل الذى يدخل المسجد ؛ لأنه يريد أن يتكلم مع فلان الذى دخل إلى المسجد فى أمر من أمور الدنيا ، ساعة يحدث هذا يجب أن تقول له : إن الله لن يقضى هذا الأمر . تماماً كالذى جاء يبحث عن ناقته التى ضلت فى

المسجد ، فقال له رسول الله ﷺ ما معناه : « لا رد الله عليك صلاتك » . والذي جاء لعقد صفقة في المسجد قال له عليه الصلاة والسلام ما معناه : « لا أربح الله لك صفقتك انسحب الدنيا معك داخل المسجد ؟ » .

وقوله تعالى : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ غير قول : « توكلت عليه » فإذا قلت توكلت على الله . قد تعنى أنك توكلت على الله وعلى فلان وعلى فلان . ولكن قولك عليه توكلت . أى : لا أتوكل على أحد غيره . ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ . أى أرجع إليه ، فالله سبحانه وتعالى حلقة من عدم في البداية ثم إليه مرجعنا جسيقا في النهاية .

وما دامت المسألة أن التوفيق بيد الله ، وعليه التوكل وإليه العودة ، فأنت غير محتاح إلى غير الله جل جلاله ، ولذلك فإن رسول الله ﷺ عندما أن يقول ما معناه . اللهم إني أستعمرك من كل عمل نصدت به وجهك فحالطى فيه ما ليس لك . أى دخلت فيه الدنيا ولو قليلا يقول شعيب لهم ﴿ وَتَقْوِرَ لَا يَحْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ بِكُمْ ﴾ [هود ٨٩] . قوله : ﴿ لَا يَحْرِمَنَّكُمْ ﴾ يعنى لا يجعلكم تجرمون . أى : عذوباتكم لى واختلافكم معى لا يجعلكم تنحرفون إلى الإجرام ؛ لأن عداً قد نشب بينى وبينكم ، أى حجتكم بمهج من الله تعالى وأنتم تريدون منهجاً من عند أنفسكم ، فالعداوة من هنا بدأت ، لأنكم تريدون عبادة الأصنام ونقصاً في المكيال والميزان وإفساداً في الأرض ١٩ . الخلاف واضح بين المنهجين وشعيب يحذر قومه : لا تقصوا من منهج الله موقف العداوة ؛ لأن الذين سبقوكم عندما فعلوا ذلك أنزل الله عليهم العذاب ، منهم من أغرقوا بالطوفان ، ومنهم أهلكتهم بالصاعقه ومنهم من أخذتهم الصبيحة ، لا تعريكم العداوة لى أن تجرموا جرماً يصيبكم به مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح .

ويدكرهم : ﴿ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ بِكُمْ ﴾ [هود ٨٩] أى أن قوم لوط قريون منكم مكاناً ورماتاً ، ولو أنكم فكرتم قليلاً لعدمتم إلى الله تبارك وتعالى ، ذلك أنه إذا كان العبد مصرّاً على شيء من المعصية ، فالله تعالى لا يخلق أمامه باب التوبة أبداً ، يكون العبد عاصياً ولكن كما أخبرنا رسول الله ﷺ : « إن الله أرحم بنوبة العبد من أحدكم وقع على بغيره وقد أضده في

ملاحظة : وانظر إلى الصورة جيداً لتأمل عمقها ، عندما يكون هناك إنسان معه بغير ١ جمل ١ وعليه كل ما يملك ، طعامه وماله وملابسه وشرابه ، ثم يتوجه منه البعير في صحراء قحلة ليس فيها أى شيء ، ويبحث الرجل عنه فلا يجده ، وينام ثم يستيقظ فيجد البعير الذى عليه كل ما يملكه واقفاً إلى جواره ، كيف تكون فرحته بعودة هذا البعير إليه ؟ الله سبحانه وتعالى أشد فرحاً بتوبة عبده من صاحب هذا البعير بعودة بعيره .

ولذلك يقول شعيب لقومه كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ ثَابِعُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود . ٩٠] أى ، رغم كل ما فعلتموه فإن باب التوبة مفتوح ، ولا يتطلب منكم إلا أن تستعصروه . ومدمتم طلبتم المعرفة فسيقبلكم فتوبوا إليه ، أى استغفروا من الذنوب التى سبقت ، وتوبوا إليه فلا تعودوا لهذه الذنوب أبداً . والله تبارك وتعالى رحيم ودود ، لا يرد من يقف بهابه ، رحمته سبقت عذابه ، ومغفرته تسع الذنوب جميعاً . والله رحيم واسع المعرفة ، ودود محب لعباده .

كان المفروض وقد لفتهم شعيب إلى الطريق إلى الله سبحانه وتعالى والعودة إليه أن يمددوا ، لأن الله تبارك وتعالى محب لهم عطف عليهم . وفى الحديث القدسي يقول الله عز وجل : يا ابن آدم لا تخف من ذى سلطان مادام سلطانى باقياً فسلطانى لا يفقد أبداً ، يا ابن آدم لا تحش من صبيق الرق وخزائى ملائنة وخزائى لا تمتد أبداً . يا ابن آدم خلقتك للعبادة فلا تلعب وضمنت لك رزقك فلا تتعب . فوعزتى وجلالى إن رضيت بما قسمته لك أرحمت قلبك وهديت وكتبت عدى محموداً ، وإن لم ترض بما قسمته لك فوعزتى وجلالى لأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحوش فى البرية ، ثم لا يكون لك منها إلا ما قسمته لك ، يا ابن آدم خلقت السماوات والأرض ولم أعنى بخلقهن أبينى رعيى أسوقه لك !! يا ابن آدم لا تسألنى رزق غد كما لم أطلب منك عمل غد ، يا ابن آدم أنا لك محب فبحقى عليك كفى لى محباً .

ولولا رهطك لرجمناك

عندما لفت شعيب قومه إلى أن الله سبحانه وتعالى رحيم ودود وطلب منهم أن يستغفروه ليغفر لهم ، ويتوبوا إليه .. ماذا قالوا ؟ ﴿قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ

فِي سَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْتُكَ ﴿٩١﴾ [هود ٩١] لا يلقه أى : لا يفهم ، فعندما يكون القلب مشغولاً بالكفر لا يوجد فيه مكان للإيمان ، ولكن يدخل الإيمان إلى القلب لا بد أن يخرج منه الكفر أولاً ، ولذلك فإن الإنسان المشحون قلبه بالكفر لا يدخل قلبه الحق ، فهم قالوا لشعيب : إنا لا نفهم شيئاً مما تقول ، ثم أضافوا : ﴿وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِي سَا ضَعِيفًا﴾ أى أنت ضعيف لا قوة لك بحيث تستطيع أن تتحمل هذا الرجم ، وهذا إقرار بإعجاز النبوة ، لأنه مع أن شعيباً ضعيف وهم أقوياء ، إلا أنهم لم يقتلوا عليه ، فالضعيف يصرخ فى وجوههم بالحقيقة ، والأقوياء يقولون : أنت ضعيف ولكنهم لا يفعلون شيئاً ، بل يتعللون .

ولذلك قالوا : ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْتُكَ﴾ [هود ٩١] رهطك يعنى أهلك ، والرهط الجماعة من الرجال خاصة من ثلاثة إلى تسعة ، ورهط الرجل : قومه وقبيلته . لماذا يحشى قوم شعيب أهل هذا النبی ويمتنعون عن قتله ؟ إما أن يكون هؤلاء الأهل مع الكفار ، ولذلك فهم يخافون إن اعتدوا على شعيب أن يعضب قومه الذين هم مع الكفار ويعتنون بإيمانهم وحيث يقرى جاب شعيب وقد يتبعه آخرون . والله سبحانه وتعالى يسخر الكفر دائماً لخدمة الإيمان ، عم رسول الله ﷺ الذى كفله ورياه هو أبو طالب ، الذى ظل على كفره ومات كافراً ، ولكنه قال لابن أخيه : قل ما شئت من الدعوة وأنا معك ، ورغم أن أبا طالب وقف حامياً لرسول الله ﷺ من أدى كمار مكة وعلى رأسهم قريش ، فإنه ظل على دبه ومات كافراً .

قوله سبحانه وتعالى : ﴿قَالُوا يَشْعِيبُ مَا مَنَعَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِي سَا ضَعِيفًا﴾ أى : نحن لا نفهم ما تقول والحقيقة أنهم لا يريدون أن يفهموا ، ﴿وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِي سَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْتُكَ﴾ لا تتحمل وقوفاً أمماً . ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْتُكَ﴾ أى لولا أهلك لقتلناك رجماً بالحجارة ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِمُرِيرٍ﴾ أى أنت لا تمر علينا ، ليس لك منعة عندنا ولا عزة ، نستطيع أن نأتى بك فى أى وقت ، وأن فعل بك ما نشاء .

ماذا كان جواب شعيب ؟ هل خاف وهرب وهو الضعيف الواقف وحده وهم الأقوياء بعددهم وبتضامنهم وبقدرتهم ؟

قام شعيب ﷺ يذكر قومه بمن هو أقوى منهم : ﴿قَالَ يَنْقُورُ أَرْهَطِي أَعَزَّ عَلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ﴾ [هود ٩٢] أى أنكم تخافون عائلتي وهم عدة أفراد ، فتمتنعون عن إيذائي خوفاً منهم ،

ولكنكم لا تخافون الله القادر على أن يهلككم بينما أن رسول الله يحمى بقوته وقدرته . كان المفروض أن يذكروا الله أولاً ، وكان قوم شعيب يعتقدون أنهم ماداموا قد قالوا : ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْتَنَا﴾ فإنه سيحمى برهطه ، لأنهم هم الحماية له ، ولكن الذى قال : على الله توكلت . لا يحمى بأحد غير الله سبحانه وتعالى ، بل إنه يلوم قومه ، كيف يخشون قوة عند محدود من الرجال ولا يخشون قوة الله ؟ !

وقوله تعالى ﴿لَرَهْطُكَ أَعَزُّ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ﴾ [هود : ٩٢] ، أى : أنتم جاملتهم رهطى ، وإكراماً لهم لم ترجموني ، ولكنكم سيتم الله سبحانه وتعالى ، الذى تأتى منه العزة جميعاً ، وقال : ﴿وَأَعْمَدُكُمْ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا﴾ ساعة تقول : أنت طرحت فلاناً وراء ظهرك . يعنى أنك جعلته بعيداً عن الصورة بالنسبة للأحداث ولم تحسب له حساباً وبم نخشه ، شعيب يقول لهم : أنتم لم تأبهوا بكرة الله سبحانه وتعالى ، وبمحماية الله وبقدرة الله ، وكنتم التفتتم إلى خلق لا حول لهم ولا قوة ، ثم يلتفتهم إلى أن الحق سبحانه وتعالى يعلم كل ما يفعلونه ظاهراً وباطناً فيقول : ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أى : يعلم ما تفعلونه علم إحاطة لا يخفى عليه شيء ، ولكنكم أنتم نسيتموه وخفتم بعض خلقه أو رهطاً من خلقه .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ قلنا : إن هناك عملاً وهناك فعل العمل يطلق على ما يحدث ، أى شيء يحدث يقال له عمل ، وجوارح الإنسان كثيرة اختص الله سبحانه وتعالى منها اللسان بالقول والجوارح كلها بالفعل ، فالقول هو عمل اللسان ، والفعل هو عمل كل الجوارح ، عمل العين وعمل الأذن وعمل اليد وعمل القدم وكل شيء . ولكن إذا طابق القول بالفعل ، أى عندما يقول قولاً يقا به فعل يكون هذا عملاً ، ولذلك نجد قول الحق سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم : ﴿بِأَيِّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۚ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف . ٢ ، ٣] وهكذا فصل الحق سبحانه وتعالى بين الفعل والقول ، ولكن لماذا اختص الحق تبارك وتعالى اللسان بالقول وكل الجوارح بالفعل ؟ لأن القول هو وسيلة الإعلام الأولى عن الله جل جلاله .

ثم يقول شعيب لهم كما يقص علينا القرآن الكريم ﴿وَيَقُولُوا أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ إِنَّا عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَمُوا إِلَىٰ مَمَكُم رَقِيبٌ﴾ [هود . ٩٣] ملاحظ هنا أن شعيباً قد أهدأ لهجة التهديد .. ماذا ؟ لأنهم خافوا من أهله

ونسوا الله تعالى ، فأراد أن يعلمهم أنه مستند إلى أقوى قوة ، وهى التى خلقت هذا الكون ، وهو يأوى إلى هذا الركن الشديد ، وكأنه يقول لهم افعلوا ما تستطيعون ، افعلوا ما فى وسعكم ، وسأفعل أيضاً ما فى وسعى ، فأنا أخذ أوامرى من الله تعالى الذى بعثنى ، وأنتم بشر صغاف من خلقه والله هو القوى . ولدنك فأنا مستعيت به ، اعملوا أنتم على قدر إمكاناتكم أى على قدر ما تستطيع الدبأ أن تعصيتكم بأسبابها ، وأنا سأعمل ، سأعمل ماذا ؟ سيشر بالمنهج وبما جاءه من الله ، ولن أسكت عن الدعوة ، وسوف تعلمون قريباً من يأتية العذاب والحزى فى الدبأ والآخرة . سيبن لنا الزمن المستقبل من الذى يأتية العذاب والحزى ، ومن الذى يكون له النصر .

والحزى هو الفضيحة بين الخلق ، وإصابة النفس بالهوان هى الفضيحة فى دات النفس . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿مَنْ يَأْتِ بِعَدَابٍ يُحْزِرُ﴾ . أى من الدين سيأتيتهم العذاب الذى يفضحهم ؟ ومن هو الكاذب ومن هو الصادق ؟ وشعيب يقصد ههنا طبعاً أن هؤلاء الذين رفضوا الإيمان وكذبوه سوف يأتيتهم العذاب ، وأنهم سيعلمون من هو صادق ومن هو كاذب ، مهم سيسلط الله عليهم عذاباً يفضحهم بين الحق ويهينهم فى أنفسهم .

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ﴾ . كان المطلق أن يقال ومن هو صادق . ولكن الحق سبحانه وتعالى جازاهم فى مطلقهم ، فلم يقل ومن هو صادق ، ولكنه قال : ﴿وَأَرْسِلُوا إِلَى مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود : ٩٣] . وذلك مثل قول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكَافِرِينَ أَوْ لَوْ أَنَّكُمْ تَعْلَمُونَ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سبا : ٢٤] . كيف يمكن أن يقال للقوم الكافرين : ﴿وَلَوْ أَنَّكُمْ تَعْلَمُونَ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ كيف هذا ؟ إن رسول الله ﷺ ومن معه يقيناً على الهدى والمسألة لا تحتاج إلى تشكيك ، إنما هذا اسمه مجازاة الخصم ، يريد الله سبحانه وتعالى أن يقول : إن الضلال والهدى لا يجتمعان أبداً ، ونحن مختلفون لا مجتمع على رأى ، فلا بد أن أحدهما على الهدى والآخر على ضلال . مشترك الرمن يكشف لنا من على الهدى ومن على ضلال .

تهديد الكفار لشعيب والمؤمنين

ماذا قال الكافرون من قوم شعيب عندما جاءهم هذا الترعبب وهذا الترهيب من الله تعالى ؟ يقول الحق سبحانه وتعالى ﴿وَلَمَّا كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِى أُرْسِلَتْ

بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمَرُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَةٍ أَوْ نَعُودَنَّ فِي مِثْلِهَا قَالَ أُولَئِكَ كَافِرِينَ ﴿٨٨﴾ [الأعراف ٨٧، ٨٨]. الملاء الذين استكبروا هم السادة والأعيان والمترعون الذين ينفقون أمام كل دعوة حق، لأنها تستسيبهم الميراث التي يتمتعون بها من أكل حقوق الناس وظلمهم. ماذا قال الذين استكبروا؟ قالوا لنخرجك يا شعيب من قريتنا وهكذا ارتكبوا نفس المعصية التي ارتكبها قوم لوط حين قالوا: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ [المل: ٥٦] وكلمة قرية قد أحدث الآن معنى غير معناها الحقيقي، فهي الآن البلدة الصغيرة التي يسكنها عدد محدود من الناس. ولكن القرية في اللغة معناها: المكان الذي تتوفر فيه كل متطلبات الحياة، بدليل أما نقول عسى مكة المكرمة أم القرى.

ومعنى تهديد الكفار لشعيب والمؤمنين أنهم سيخرجونهم من المكان الذي تتوفر فيه كل متطلبات الحياة إلى مكان قفر لا يصلح للحياة، فكأن المترفين من الذين يقاومون المسيح قد أعطوا لشعيب ومن آمن معه خيارين، إما أن يعودوا كفاراً أو يخرجوا من القرية، وقرل الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَةٍ أَوْ نَعُودَنَّ فِي مِثْلِهَا قَالَ أُولَئِكَ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف ٨٨] معناه أن الذين آمنوا بشعيب كانوا يحتفون ملة أهل القرية، ثم خرجوا منها وآموا بالله وبرسالة شعيب، وهم يريدونهم أن يعودوا إلى الكفر.

ولكن لا بد أن تنبهها إلى أن الخطاب موجه لشعيب؛ لأن الخطاب أخذ شعيباً والذين آمنوا معه، ومن آمن مع شعيب من الجائر أنه كان على ملة انقوم أولاً ثم آمن، ويطلبون منه أن يعود مرة أخرى إلى ملتهم، أما شعيب نفسه فلا يعقل أنه كان على ملة القوم، ولكن الخطاب هنا هو تغليب للكثرة، فالكثرة من المؤمنين مع شعيب كانوا في ملة القوم، ثم آمنوا ويطلبون منهم العودة، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة ٢٥٧]، وهنا لا بد أن تنبه إلى قول الحق: ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾. فعندما كان هؤلاء في الظلمات لم تكن قد بلغت الرسالة، فكيف يصنعهم الله سبحانه وتعالى بالذين آمنوا أي نفى عنهم الكفر، ثم يقول إنه أخرجهم من الظلمات إلى النور؟ نقول إن التكليف بالنسبة للإنسان موجود في خلقه مختاراً.

فالإسان ما دام قد خلق مختاراً فهو مستطيع أن يتبع سبيل الإيمان أو أن يتبع سبيل الكفر ، وكونه يختار اتباع الإيمان يكون قد ترك اتباع الكفر ، فكأنه خرج من قدرة اختياره لسبيل الكفر واتباع قدرة اختياره لطريق الإيمان . ومن هنا فإد خروج الإنسان من الظلمات إلى النور لا يعنى بالضرورة أنه كان كافراً ، إنما يعنى أنه خرج من قدرته على اختيار سبيل الكفر ، إلى قدرته على اختيار طريق الإيمان . وهذا يستقيم المعنى ويصبح المقصود بالنسبة لشعيب أنه خرج من القدرة على اختيار سبيل عدم الإيمان إلى القدرة على اختيار طريق الإيمان ، وهذا ما يحدث بالنسبة للمؤمنين .

شعيب يحتكم إلى الله تعالى

بما إذا رد شعيب عليه السلام على القوم الكافرين : ﴿ قَالَ أُولُو كُنَا كَرِهِينَ * قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ جَعَلْنَا اللَّهُ مِتْنًا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ﴾ [الأعراف . ٨٨ ، ٨٩] . نلاحظ هنا أن شعيباً والمؤمنين معه قد أعلنوا كراهيتهم للعودة إلى الكفر ، ولاحظ أيضاً أن الكفار في كلامهم قد نسوا الله ، فحيروا شعيباً بين أن يعود لملتهم أو يخرج من قريتهم . ونسوا أن الله سبحانه وتعالى قد قسم شعباً غير هذين الاختيارين ، كأن يكون قد قسم أن يهلك هؤلاء الكافرين ويبقى المؤمنون في القرية ، فلا يخرج المؤمنون من القرية ولا يعودون إلى ملة الكافرين . وقول شعيب : ﴿ قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ أى : أننا ضيقنا الطاق على قدرة الله سبحانه وتعالى ، فانكذب هو أو تقول كلاماً غير الواقع ، فإذا كنت لا تعرف الحقيقة فهذا مطلق كذب ، وإذا كنت تعرف الحقيقة فهذا إفراء كذب ، وفى هذا يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ [المنافقون : ١] . نقول : إن المنافقين كذبوا حين قالوا : شهد إنك لرسول الله . والشهادة هى أن يوافق اللسان ما فى القلب ، والمنافقون شهدوا ولكن قلوبهم منكرة لهذه الشهادة ، فهم يقولونها باللسان وقلوبهم منكرة لها فقد كذبوا حين قالوا : شهد [إنك لرسول الله] .

إذن .. فقوله تعالى . ﴿ قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ جَعَلْنَا اللَّهُ مِتْنًا ﴾ [الأعراف ٨٩] دليل على أن المؤمنين يعرفون أن دى الله هو الحق ؛ ولذلك إذا عادوا لمة

الكافرين يَكُونُونَ قد افتروا الكذب ، لأنهم يعرفون الحقيقة ويقولون غيرها ، وقول الحق . ﴿بَعَثَ إِذِ جَعَلْنَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ أى أن اختارنا كان إلى جانب الحق فنجونا ، أما قول الحق سبحانه وتعالى ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف ٨٩] ، هذا الكلام يذكرنا الحق فيه بطلاقة القدرة لله تعالى ، فانه يفعل ما يشاء متى شاء ولا قيد على قدرته ، ورسول الله ﷺ قال : « إن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن » والخليل إبراهيم قال . ﴿وَأَجْسَنِي وَبَوِّ أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ ، فكأنه سلم للحق سبحانه وتعالى بطلاقة القدرة في كونه ، فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .

وقول شعيب عليه السلام : ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أعطى طلاقة القدرة للحق سبحانه وتعالى وفي نفس الوقت الله سبحانه وتعالى لا يشاء العودة لكفر لمعصوم ، وقول الحق . ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الأعراف ٨٩] ، أى . أن الله سبحانه وتعالى يعلم كل ما يتم وما يقع الآن من المستكرين ، وإذا كان مع هؤلاء الثمرين قوة الدنيا فإن شعيبا والدين آمنوا معه قد توكلوا على الله وأسلموا أمرهم له ، وما دام معهم الله فشعيب والمؤمنون هم الأقوى .. وهم المنصورون .

ثم بعد ذلك ماذا قال شعيب والمؤمنون بعد أن أعلنوا أنهم توكلوا على الله ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ ﴿فَتَنَحَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ حينما سمع كلمة فتح معهم أن هناك شيئا معلقا ويريد أن يربط إعلانه وأن يفتحه . والحق سبحانه وتعالى يقول في سورة يوسف : عندما عاد إحوة يوسف إلى أبيهم وهم يحملون البصائع التي أحضرها : ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بِصَنَعَتِهِمْ رُذَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ [يوسف ٦٥] ، ومعنى فتح المتاع هنا أنهم أزلوا كل ما كانوا يحيطون به أمتعتهم من سلاسل وأحبار ، هذا فتح حسي . ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَمِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ فِئًا بِجَاهٍ وَهِيَ فَتْحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر ٧١] وما دام هناك أبواب يكون الفتح حسيا ولكن هناك فتحا معنويا في قوله تعالى : ﴿اتَّخِذُوا لَهُمْ نِيْلًا مِمَّا قَبَّلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لِيَخَافُوا أَنَّهُمْ يَكُونُوا رَئِيسًا﴾ [البقرة ٧٦] ، وهذا حديث اليهود ليخفوا عن المسلمين ما أُرسل الله في التوراة ، فكأنما إنزال التوراة من الله فتح ولكنه فتح معنوي ، كذلك قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿مَّا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ﴾ [ناظر ٢] ، وقوله جل جلاله ﴿لَمَنَحْنَاهُمْ عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾

[الأعراف ٩٦]، وكان القاضي فيما مضى يسمى الفخ لأنه يريل الإشكالات . ولكن قول شعيب وقومه : ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا﴾ ، أى . يا رب احكم بيننا وبين قوما وأنت لا تحكم إلا بالحق ﴿وَأَمَّا حَيْدُ الْقَوْمَيْنِ﴾ .

ماذا رد الكافرون من قوم شعيب ؟ ﴿وَقَالَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ قَوْمِهِ لِيْنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِذْكَ لَخَيْرٌ لَكُمْ إِذَا لَخَيْرُكُمْ﴾ [الأعراف ٩٠] ، الخطاب هنا من الكافرين لمن ؟ للذين آمنوا أم للذين كفروا ، ما دام المتحدثون هم الكفار ، وما دام المؤمنون قد اتبعوا شعيبًا وآمنوا به يكون الخطاب هنا من أئمة الكفر لأتباعهم ، فلا بد أن الكافرين قد وجدوا أتباعهم بدعوا يميلون إلى الإيمان مما رأوه من قوة وشجاعة وثبات الدين معه . ولذلك حذرهم سادتهم بقولهم - ﴿لِيْنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِذْكَ لَخَيْرُكُمْ﴾ ، نلاحظ هنا إستخدام اللام الشرطية ، وعندما نستخدم اللام الشرطية لابد أن يأتي جواب الشرط ، وجواب الشرط هنا ﴿إِذْكَ لَخَيْرُكُمْ﴾ ماذا سيحسر هؤلاء الأتباع ، سيخسرون إيواء السادة لهم وسيخسرون روايتهم التي يقبلها المنهج .

قوم شعيب يستعجلون العذاب

بعد أن فصل شعيب ﷺ لقومه ما هو مطلوب منهم ، ماذا كان ردهم على سيهم ؟ قال تعالى ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٦﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لِيْنَ الْكَذِبِيِّنَ﴾ [الشعراء ١٨٥ ، ١٨٦] ، نحن قلنا : المسحر هو من سحره سواه ، وهذه مبالغة في الفعل لأن الفعل سحر مفعوله مسحور . لكن سَحَر - بتشديد الحاء وفتحها - مفعولها مسحر وهي للمبالغة في السحر . والمعنى أنهم يصنعون رسولهم بأن عقله محتل وأن الناس قد سحروه ، وما دعت مسحورًا فلن نسمع لكلامك لأنه كلام مجنون . وقولهم : ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ . قوم صالح ﷺ قالوا له : ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [الشعراء : ١٥٣ ، ١٥٤] .

وقوم شعيب قالوا له ها : ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ فرادت ها الواو في قولهم : ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ هناك اتفاق في اتهام الرسل في شعبي بأنهم مسحورون وأنهم مثلهم . وما دام مسحورًا فلن يسمعو له لأنه مجنون ، وما دام بشرًا مشهم فلماذا يتمير عليهم بالرسالة ؟ هم كانوا يقولون لأنبيائهم ذلك ويطلبون منهم الآيات الدالة على

صدق رسالتهم ، ولذلك قالوا لشعيب **الطيب** : ﴿ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ مات بشر مثلنا وما نظنك إلا من الكاذبين وإذ كنت صادقاً فيما تقول فأسقط علينا قطع العذاب من السماء .

قال تعالى : ﴿ مَا سَقَطَ عَلَيْكُمَا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ بهم يستعجلون نزول العذاب عليهم ، والعجيب أن كل قوم كذبوا رسولهم واستعجلوا نزول العذاب عليهم ، حينما يحل بهم العذاب يدعون الله أن يكشفه عنهم أو أن يظفرهم إلى وقت آخر أو يعطيهم المصلحة للتوبة . والكسف جمع كسفة مثل قطع وقطعة ، وكلمة كسف جاءت على لسان جميع الذين كذبوا الرسل ، فالكفار في مكة قالوا لرسول الله ﷺ مثل ذلك وافراً قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَئِنْ لَمْ نَرْسُلْ لَكَ رَسُولًا لَنْ نَبْرَحَ فِي الْأَرْضِ فِي شُرُوعٍ ۖ أَوْ نَكُونُ لَكَ جَنَّةً مِّنْ حَبَلٍ مَّعِينٍ ۚ فَتَعَجَّرَ الْأَنْهَارُ حِينَئِذٍ تَعَجُّرًا ۚ أَوْ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ كَمَا زُحُمَتِ عَلَيْكَ إِسْفًا أَوْ نَأْفٍ بِأَفْئِهِ ۚ وَالْمَلَكُ الْقَبِيلُ ﴾ [الإسراء : ٨٩ - ٩٢] ، وفي آية أخرى قالوا : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُ إِنْ كُنَّا هَذَا حَقٌّ أَوْ لَحَقَّ مِن عَيْنَيْهِ فَاذْهَبْ عَنْكُمَا غَيْبًا ۚ أَوْ نَكُونُ لَكَ جَنَّةً مِّنْ حَبَلٍ مَّعِينٍ ۚ فَتَعَجَّرَ الْأَنْهَارُ حِينَئِذٍ تَعَجُّرًا ۚ أَوْ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ كَمَا زُحُمَتِ عَلَيْكَ إِسْفًا أَوْ نَأْفٍ بِأَفْئِهِ ۚ وَالْمَلَكُ الْقَبِيلُ ﴾ [الأنعام : ٣٢] ، وهذا دليل على حماقتهم ، لأنهم لو كانوا عقلاء لقالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ووفقنا لاتباعه . ولكن استفتحوا على أنفسهم واستعجلوا العذاب ، واستعجلوا العقوبة .

ولكن ماذا كان رد سبي الله شعيب عليهم ؟ : ﴿ قَالَ رَبِّیْ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ، أى ربى يعلم أحوالكم ومطلع على سرائركم ، فإن كان سبحانه يعلم أن فى قلوبكم عيبراً ، وأنكم مستعدون وتتوبون إليه سيؤخر عنكم العذاب ويحفظكم منه وإذا علم أنكم مستمرون على كفركم وعنادكم فسيؤجل عليكم العقاب الذى تستحقونه من عذاب الهلاك والاستعصال فأنا لا أعلم ما سيفعله بكم ربى ولكنى أكلل الأمر لصاحب الأمر الذى يعلم أمرى وأمركم . ولكن ماذا كان موقفهم ؟ استمروا فى تكذيبهم .

وأخلفت الذين ظلّموا الصبيحة

يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ وَأَسَدَّتْ الدَّيْنِ ظُلُمَاتُ الصُّبْحَةِ ﴾ [هود : ٩٤] ، وفى آية أخرى

يقول الحق: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْئَةَ﴾ [هود ٦٢] بدون تاء التأنيث، يقول إن القرآن جاء على لغة قريش، وليس هذا لغو قريش، ولكن لأن لغة قريش مصممة من لغات جميع القبائل؛ لأن القبائل كلها كانت تأتي للأسواق والحج، فتأخذ قريش صفوة اللغة. ولكن ليس معنى هذا أن اللغات الأخرى تظلم، لا.. فبوتى من كل لغة بكلمة أو كلمات حتى لا تأخذ قريش سيادة إسلامية بلغة نقرأ كما كان لها سيادة جاهلية، فتأتي مرة تاء التأنيث في المؤنث الحقيقي، فيقال: الصبيحة، والغرفة، والحجرة هذا مؤنث صحيح، وهناك مؤنث مجازي، أي يجاوزون فيه؛ فمرة تأتي تاء التأنيث ومرة لا تأتي. فصل بين التاء وبين الفاعل، الفاعل يكون قائما مقام التأنيث، فمرة يقول: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْئَةَ﴾، ومرة يقول: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْئَةَ﴾.

قول الحق: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ حَرْيِبِينَ﴾، كلمة: ﴿فَأَصْبَحُوا﴾ تدل دائما على العذاب. ولذلك نجد في آية: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصَّبْحُ﴾ [هود ٨١] وفي آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً حَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ﴾ [الفر ٣٨] وفي آية أخرى: ﴿وَأَنْظُرْنَا عَلَيْكُمْ مَطَرًا فَنَسَاءً مَطَرُ السَّيِّئِينَ﴾ [النس ٥٨] ووقت الصبح هو وقت الهجمة بالنسبة للعاقل النائم طوان الليل، وما زال ناعسا في نومه: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ حَرْيِبِينَ﴾ كان من المروص أن يقول: دارهم وليس ديارهم. ولكن القرآن احتاط أن يكون واحد منهم في مكان آخر أو في عمل أو في ريادة؛ ولذلك قال ﴿فِي دِيَرِهِمْ﴾، ولقد كان أحدهم في مكة فلم تصبه الحجارة؛ لأن الله جعل بيته آمنا، وعندما عاد كانت تنتظره، فكانها كانت تتبعهم أو تنتظرهم. وقوله تعالى ﴿جَائِمِينَ﴾ الجيم والثاء جيما يوجدان، بصرف النظر عن الحرف الثالث الموجود في الوسط، مثل جدد الجيم والثاء تعني شيئا من الهلاك أو شيئا من المصائب. فقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ حَرْيِبِينَ﴾. أي ملقون على بطونهم ليس بهم حراك.

وقوله تعالى: ﴿وَنَرَى كُلَّ أُنْفٍ خَائِبَةً﴾ [الحاقة ٢٨] أي: على ركبتيها دليل الدل والمصرع. والجثة لا يقال إلا للميت، وكل إنسان يكون له شأن في الدنيا. ولكن في اللحظة التي يموت فيها، ينسى كل شيء حتى اسمه، وينقب بالجثة، فيقال غسلوا الجثة، كفنوا الجثة، ادفنوا الجثة.. انتهى من الدنيا فإذا وضع في العرش سمي الخشبة. فإذا وضع في القبر سمي الناس، لا تقبله إلا أمه الأرض، تمتص كل ما ينزل منه من صديد وروائح كريهة، كل

الناس تتأبى عليه إلا أمه الأرض ، هي التي تتقبل منه كل شيء ، والإنسان وهو حي ما دام فيه الروح يكون إنساناً ، فإذا مات وخرجت الروح يصبح جثة .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَثِيصٌ ﴾ * كَانَ لَمْ يَفْنَوْا فِيهَا .
 أى - كأنهم لم يوجدوا فيها ، تمر على هذه الديار فلا تشعر أنهم كانوا يعيشون ، وقرأ قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا لُفَّتِ الْأَرْضُ زُرْقَهَا وَارْتَبَتْ وَقَلَّتِ أَمْثَلُهَا أَهْلُهَا قِيلَ ذُرُوتْ عَلَيْهَا أَتْنَهَا أَمْثَرْنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَقَمَّ يَافَافِينَ ﴾ [يوس ٢٤] أى كأن لم يعش فيها أحد من قبل ذلك .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَلَا بَعْدًا لِمَلَيْنِ كَمَا بَدَتِ سُودٌ ﴾ [يوس ٩٥] ،
 و ألا ، عندما تسمعها في القرآن أو في أى كلام عربى ، فهي أداة استفتاح يفتح بها الكلام وليس لها دلالة ، وإنما هي لتنبية السامع ، والمتكلم قبل أن يتكلم تكون هناك نسبة ذهنية فى عقله . فإذا بدأ الكلام فإنه متنبه لما يقول ، ولكن السامع قد يكون فى عقله شيء آخر ، أى لا يكون متنبهاً لما سيقال ، ولذلك فمتدماً يبدأ المتكلم الكلام ينبه السامع بكلمة « ألا » . ولذلك تجمد فى القرآن الكريم آيات كثيرة على هذا النحو ، منها على سبيل المثال قوله تعالى : ﴿ أَلَا
 إِنَّكَ أَوْلَىٰ بِآلِ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يوس ٦٢] ، وقوله سبحانه : ﴿ أَلَا
 إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة : ١٢] كلها لتنبية السامع .

قوله تعالى : ﴿ أَلَا بَعْدًا لِمَلَيْنِ ﴾ [هود : ٩٥] ، كلمة : ﴿ أَلَا بَعْدًا ﴾ ، معناها أنك تدعو عليه بالبعد ، أى أنهم مروا وهلكوا وانتهوا ، فبعداً لكل ما كان منهم . مادة الباء والعين والذال ، تستعمل استعمالين . مرة تراد بها الفراق مثل لقاء لا تحب أن يقع فتقول : بعداً ، وفى الموت تقول : بعداً : ﴿ أَلَا بَعْدًا لِمَلَيْنِ كَمَا بَدَتِ سُودٌ ﴾ أى أن الذى أخفى لعموداً ، وما صلت وما حدث لها ، يخفى قوم شعيب .

نلاحظ هنا فى عهود هذه الرسالات أن العالم كان منعرلاً حتى إنه تم إرسال رسولين فى وقت واحد ، هما إبراهيم ولوط عليهما السلام ، وكان كل منهما يعانج داء من الداءات فى وقت واحد ، ولكن سبق فى علم الله أن العالم سيوحده ، وبالتالي ستصبح الأمراض والداءات واحدة ، ولذلك جاءت وحدة المعالجة ممثلة فى رسالة رسول الله ﷺ . ونحن نرى الآن كيف

أن العالم يصبح أصغر فأصغر كل يوم ، لا من ناحية الحجم ، ولكن من ناحية وحدة الداعات ووحدة المعالجة .

ويقول الحق تبارك وتعالى في آية أخرى : ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَ فَأَضَبُوا فِي دَائِرِهِمْ جَالِسِينَ ﴾ [الأعراف : ٩١] ، و﴿ الرِّجْفُ ﴾ هي الهزة العيفة التي ترج الإنسان رجاً ، و﴿ جالسين ﴾ أى : جالسين على ركبهم وقد ماتوا على هذه الهيئة إمعاناً في إذلالهم فهم يستكبروا في الأرض فأراد الحق أن يمتهم أدلاء .

وقول الحق سبحانه وتعالى ﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَمْنُوا فِيهَا آلَ بَيْتٍ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْكَافِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٩٢] أى أن القرية التي كانت غيبة عن كذبوا شعيباً ، وغنى بالمكان أى أقام فيه مدة طويلة و﴿ كَانُوا هُمُ الْكَافِرِينَ ﴾ أى : خسروا كل شيء ، جاء الدنيا وسيم الآخرة ، ماذا فعل شعيب بعد أن أخذ الله الكافرين بالعذاب ، يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَ قَوْمٍ لَقَدْ أَهْلَكْتُمْ بَكْرَتِي وَأَنَا آتٍ بَعْدِي فَكَفَرْتُمْ كُفْرًا كَبِيرًا ﴾ [الأعراف : ٩٣] فكان شعيباً قال للكافرين بعد أن أخذتهم الصيحة أنه قد أبغهم رسالة الله ونصح لهم وألح عليهم أن يعودوا إلى رشدهم فهو لم يقصر في حقهم .

أصحاب الأيكة

قال تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴾ [الحجر : ٧٨] الأيكة مفرد أهلك ، والأيك هو الشجر الكثير المنتف والمثمر وشعب الأيكة أرسل إلى أهل مدين وإلى أهل الأيكة ، ومدين بلد ، أما أصحاب الأيكة فكانوا مثل ضاحية بينهم وبين البحر ، وكان فيها الشجر المنتف ، ولذلك قال ربنا سبحانه عن « سدوم » وهى بلد قوم لوط - ﴿ وَإِنَّمَا لَيْسَ بِمُجِيرٍ ﴾ [الحجر : ٧٦] ولكن هنا قال : ﴿ وَإِنَّمَا لَيْسَ بِمُجِيرٍ ﴾ قد يقول قائل : من أين جاءت هذه التثنية مع أنه يتحدث عن أصحاب الأيكة فقط ؟ نقول إنه صم إليها مدين أيضاً .

وقوله تعالى ﴿ وَإِنَّمَا لَيْسَ بِمُجِيرٍ ﴾ ، الإمام هو ما يؤتم به فى الحركات والسكنات ، وما يؤتم به فى الفتيا وهى الرأى . وكذلك يطلق على الطريق المؤدى إلى العايات المختصه « إمام » لأنه بدلى على الأماكن التى أريد بها ، وله بدء وله منتهى ، وفى كل جرئة منه « من » و« إلى » التى يرقمها الآن بالكيلو مترات . ﴿ وَإِنَّمَا ﴾ أى مدين وأصحاب الأيكة ، ﴿ لَيْسَ بِمُجِيرٍ ﴾ أى

طريق واضح ، هذا الطريق الواضح يأتم به السائر .

وقد قال الحق سبحانه وتعالى في سورة « الشعراء » ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمِ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء ١٨٩] لما استمر القوم في تكذيبهم لرسولهم وتمسكو بصلالهم وكمرهم عاقبهم الله بعذاب يوم الظلة ، وهو عذاب مشهور حيث سيطر الله عليهم الحرارة الشديدة سبعة أيام ، وحجر عنهم الريح إلا بمقدار ما يمسك رمق الحياة فصارت حياتهم لا تصاق من شدة الحر ، فالتمسوا عمامة تظلمهم رأوها قادمة في الجو فهرعوا نحوها مسرعين فلما اقتربوا منها أنزلت عليهم نارا أحرقتهم وأبادتهم .

ومى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطِيرٌ نَحْنُ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ يَوْمَ يَمُوتُ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ تَدْمِشُ كُلُّ مَنَافٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا بَرَجَ إِلَّا مَنَعْنَاهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأحقاف ٢٤ ، ٢٥] وعذاب يوم الظلة كان عذابا عطشنا ليس لقوته وحاطته بهم فقط ، ولكن لأنه عذاب جاء بعد طمع في راحة ؛ لأنهم ظنوا أن هذا السحاب سيظلمهم وينزل منه المطر اندى يرويههم ويرطب أجواءهم فكان منه العذاب الذي أحرقتهم وأبادهم .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَإِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء ١٩٠] قوله ﴿ وَإِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ إشارة إلى ما تقدم من مواكب الرسل ، وما حدث للرسل وما حدث لأممهم .

ويقول تعالى في موضع آخر : ﴿ وَلَقَدْ مَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۝ إِنَّهُمْ لَكُفَّارُونَ ۝ وَلَئِنْ جَدَدْنَا لَهُمُ الْعَيْبُونَ ﴾ [الصافات ١٧١ - ١٧٣] فالمعنى : أن في ذلك الذي حدثتم به من قصص الأنبياء السابقين مع أممهم وما ألوا إليه من نصر الأنبياء ودمر الكافرين عبرة لكم ؛ لأن معنى « آية » أى عبرة ، ونحن قلنا كلمة عبرة أى تعبر من شىء إلى شىء . مهم قوم عندهم لد وحصومة ؛ فعن يعبثوا ، عليهم أن يعبروا من هذا الموقف المعادى إلى الإيمان ، ولذلك نقول . « نحن نعبر الطريق » ؛ لأننا نتقل من مكان إلى مكان . فالعبرة أن تنتقل من حال أنت عليها من لد ووجود وكبرياء عن اتباع الرسل إلى الإيمان .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء ١٩٠] حماية لأن منهم من قد يهتدى

إلى طريق الحق ويؤمن .

ذكر قصة نبي الله يعقوب ﷺ

قال ابن كثير: ذكر أهل الكتاب أن إسحاق لما تزوج «رفقا» بنت هتوايل في حياة أبيه، كان عمره أربعين سنة، وأنها كانت عاقراً فدعا الله لها فحملت، فولدت غلامين توأمين: أولهما اسمه «عيسو» وهو الذي تسميه العرب «العيس» وهو والد الروم. والثاني خرج وهو أخذ بعقب أخيه فسموه «يعقوب» وهو إسرائيل الذي ينتسب إليه بنو إسرائيل.

قالوا: وكان إسحاق يحب عيسو أكثر من يعقوب، لأنه يكره؛ وكانت أمهما «رفقا» تحب يعقوب أكثر؛ لأنه الأصغر.

قالوا: فلما كبر إسحاق وضعف بصره اشتهى على ابنه العيس طعاماً، وأمره أن يذهب بمصطاد له صيداً ويطبخه له؛ يبارك عليه ويدعو له، وكان العيس صاحب صيد، فذهب يتغنى ذلك، فأمرت «رفقا» ابنها يعقوب أن يذبح جديين من خيار عتمة، ويصنع منهما طعاماً كما اشتهاه أبوه، ويأتي إليه به قبل أخيه ليدعو به، فقامت فألبسته ثياب أخيه، وجعلت على ذراعيه وعقته من جلد الجديين؛ لأن العيس كان أشعر الجسد ويعقوب ليس كذلك. فلما جاء به وقربه إليه قال: من أنت؟ قال: ولدك. فصم إليه وجسه وجعل يقول: أما الصوت بصوت يعقوب، وأما الجس والثياب فالعيس. فلما أكل ومرغ دعا له أن يكون أكبر إحوته قسراً، وكلمته عليهم وعلى الشعوب بعده، وأن يكثر رزقه وولده. فلما خرج من عنده جاء أخوه العيس بما أمره والده فقربه إليه، فقال له: ما هذا يا بني؟ قال: هذا الطعام الذي اشتهيته، فقال: أما جئتني به قبل الساعة وأكلت منه ودعوت لك؟ فقال: لا والله، وعرف أن أخاه قد سبقه إلى ذلك، فوجد في نفسه عليه وجداً كثيراً.

وذكروا أنه تواعده بالقتل إذا مات أبوهما، وسأل أباه فدعا له بدعوة أخرى، أن يجعل لسريته غليظ الأرض، وأن يكثر أرزاقهم وثمارهم.

فلما سمعت أمهما ما يتواعد به العيس أخوه يعقوب، أمرت ابنها يعقوب أن يذهب إلى أخيها «لابان» الذي بأرض حوَّان، وأن يكون عنده إلى حين يسكن غضب أخيه، وأن يتزوج من بناته، وقالت لزوجها إسحاق أن يأمره بذلك ويوصيه ويدعو له. ففعل.

فخرج يعقوب ﷺ من عندهم من آخر ذلك اليوم، فأدركه المساء في موضع فنام فيه،

وأخذ حجراً موضحه تحت رأسه وبنام ، فرأى في نومه ذلك معراجاً منصوباً من السماء إلى الأرض ، وإذا الملائكة يصعدون فيه وينزلون ، والرب تبارك وتعالى يحاطبه ، ويقول له : إني سأبارك عليك وأكثر ذريتك . وأجعل لك هذه الأرض ولعقبك من بعدك .

فلما هب من نومه فرح بما رأى ، وتندر لله لكن رجع إلى أهله سلباً ليتبين في هذا الموضع معبداً لله عز وجل ، وأن جميع ما يرقه من شيء يكون لله عشره ، ثم عمد إلى ذلك الحجر فجلس عليه دهناً يعرفه به ، وسمى ذلك الموضع « بيت إيل » أي بيت الله ، وهو موضع بيت المقدس اليوم الذي بناه يعقوب بعد ذلك كما سيأتي قالوا : فلما قدم يعقوب على خاله أرس حران ، إذا له ابتان : اسم الكبير « ليا » واسم الصغير « راحيل » وكانت أحسهما وأجمهما ، فخطبها من خاله فأجابته إلى ذلك بشرط أن يرعى غنمه سبع سنين ، فلما مضت المدة على خاله « لاهان » صنع طعاماً وجمع الناس عليه ، ورف إليه ليلاً ابنته الكبرى « ليا » وكانت ضعيفة العينين قبيحة المنظر ، فلما أصبح يعقوب إذا هي « ليا » فقال لخاله غدرت بي ؟ وأنت إنما خطبت إليك « راحيل » . فقال : إنه ليس من شئت أن مروج الصغير قبل الكبرى ، فإن أحبيت أختها فاعمل سبع سنين أخرى وأزوجكها .

فعمل سبع سنين وأدخلها عليه مع أختها . وكان سائقاً في ملتهم ثم نسخ في شريعة التوراة . وهذا وحده دليل كاف على وقوع النسخ ؛ لأن فعل يعقوب عليه السلام دليل على جوار هذا وإباحته ؛ لأنه معصوم ، ووهب « لاهان » لكن واحدة من ابنتيه جارية ، فوهب لـ « ليا » جارية اسمها « زلفي » ووهب لـ « راحيل » جارية اسمها « بهي » . وجبر الله تعالى ضعف « ليا » بأن وهب لها أولاداً ، فكان أول من ولدت ليعقوب ، روبيل ، ثم شمعون ، ثم لاوى ، ثم يهود ، فغارت عند ذلك « راحيل » وكانت لا تحبل ، فوهبت ليعقوب جارتها « بهي » فوطئها فحملت ، وولدت له علاماً سمته « دان » وحملت وولدت علاماً آخر سمته « نفتالي » فحملت عند ذلك « ليا » فوهبت جارتها « رمل » ليعقوب عليه السلام فولدت له : جاد ، وأشير ، غلامين ذكرين ثم حملت « ليا » أيضاً فولدت علاماً خامساً سمته « إيساخر » ثم حملت وولدت علاماً سادساً سمته « زابلون » ثم حملت وولدت بنتاً سمته « دينا » فصار لها سبعة من يعقوب ثم دعت الله تعالى « راحيل » رسالته أن يهب لها علاماً من يعقوب ، فسمع الله ندائها وأجاب دعائها ، فحملت من نبي الله يعقوب ، فولدت له علاماً عظيماً شقيقاً حسناً

جميعاً سمته (يوسف) .

كل هذا وهم مقيمون بأرض حران ، وهو يرعى على نخاله عنده بعد دخوله على البنتين ست سنين أخرى ، فصار مدة مقامه عشرين سنة .

فطلب يعقوب من نخاله « لا بان » أن يسرحه ليبر إلى أهله ، فقال له حاله . إني قد بورك لي بسبك فسألني من مالي ما شئت . فقال تعطيني كل حمل يولد من غنمك هذه السنة أتضع وكل حمل تُلح أبيض بسواد ، وكل أُلح بياض ، وكل أُلح أبيض من المعر . فقال : نعم . فعمد بهو فأبرروا من غم أبيهم ما كان على هذه الصفات من الثيوس ، لعل يولد شيء من الحملان على هذه الصفات ، وساروا بها مسيرة ثلاثة أيام عن غنم أبيهم . قالوا : فعمد يعقوب عليه السلام إلى قطبان رطبة يص من لوز ولب ، فكان يقشرها بلقاً ويصحبها في مساقى الغنم من المياه ، لتنظر الغنم إليها فتفرح وتتحرك أولادها في بطونها ، فتصير ألوان حملاتها كذلك . وهذا يكون من باب حوارق العادات ، ويتظم في سلك المعجزات .

فصار ليعقوب عليه السلام أعنام كثيرة ودواب وعبيد ، وتغير له وجه حاله وبنيه ، وكأنهم انحصروا منه .

وأوحى الله تعالى إلى يعقوب أن يرجع إلى بلاد أبيه وقومه ، ووعدته بأن يكون معه فرص ذلك على أهله فأجابوه مبادرين إلى طاعته ، فتحمل بأهله وماله ، وسرقت « راحيل » أصنام أبيها .

فلما جاؤوا وتخيروا عن بلادهم ، لحقهم « لا بان » وقومه ، فلما اجتمع لا بان بيعقوب عاتبه في حروجه بغير علمه ، وهلا أعلمه فيخرجهم في فرح ومزاهر وطبول ، وحتى يودع بيته وأولاده . ولم أخذوا أصنامهم معهم ؟

ولم يكن عند يعقوب علم من أصلهم . فأكر أن يكونوا أخذوا له أصناماً فدحل بيوت بيته وإمائهم بعش فلم يجد شيئاً ، وكانت راحيل قد جعلتهن في بردعة الجمل وهي تحتها ، صم تغم ، واحتدرت بأنها طامت . فلم يقدر عليهن .

فبعد ذلك تواتقوا على راية هناك يقال بها « جلعاد » على أنه لا يهين بيته ، ولا يتزوج عليهن ، ولا يجاور هذه الراية إلى بلاد الآخر ، لا لا بان ولا يعقوب ، وعملاً طعماً وأكل القوم

معهم وتودع كل منهما من الآخر ، وتعارفوا راجعين إلى بلادهم ، فلما اقترب يعقوب من أرض « ساعيرة » تلقته الملائكة يشربونه بالقدوم . وبعث يعقوب البرد إلى أخيه العيصو يترفق له ويتواضع له ، فرجعت البرد وأحبرت يعقوب بأن العيص قد ركب إليك في أربعمائة راجل . فخشى يعقوب من ذلك ، ودعا الله عز وجل وصى له ، وتصرع إليه وتمسك لديه . وناشده عهده ووعده الذي وعده به . وسأله أن يكف عنه شر أخيه العيص ، وأعد لأخيه هدية عظيمة وهي : مائتا شاة ، وعشرون ثيلاً ، ومائتا معجة ، وعشرون كبشاً ، وثلاثون لقعة ، وأربعون بقرة ، وعشرة من الثيران ، وعشرون أتاناً ، وعشرة من الحمير ، وأمر عبيده أن يسوقوا كلًّا من هذه الأصناف وحده . وليكن بين كل قطيع وقطيع مسافة ، فإذا لقيهم العيص فقال للأول : لمن أنت ؟ ولمن هذه معك ؟ فيقول : لعبدك يعقوب ، أهداها لسيدى العيص ، وليقل الذى بعده كذلك ، وكذلك الذى بعده ، وكذلك الذى بعده ، ويقول كل منهم : وهو جاء بعدنا

وتأخر يعقوب بزوجتيه وأمتيه وبنيه الأحد عشر بعد الكل بيلتين ، وجعل يسير فيهما ليلاً ويكس بهارًا ، فلما كان وقت العجر من الليلة الثانية ، تبدى له ملك من الملائكة في صورة رجل ، فظنه يعقوب رجلاً من الناس ، فأتاه يعقوب ليصارعه ويغالبه ، فظهر عليه يعقوب فيما يرى ، إلا أن الملك أصاب وركه فخرج يعقوب ، فما أضاء الفجر قال له الملك : ما اسمك ؟ قال : يعقوب . قال : لا ينبغي أن تدعى بعد اليوم إلا إسرائيل . فقال له يعقوب : ومن أنت ؟ وما اسمك فذهب عنه فعلم أنه ملك من الملائكة ، وأصبح يعقوب وهو يرحل من رحله . فذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النساء

ورفع يعقوب عييه فإذا أحوه عيصو قد أقبل في أربعمائة راجل . فتقدم أمام أهله فلما رأى أحاه العيص سجد له سبع مرات ، وكانت هذه تحيتهم في ذلك الزمان وكان مشروعا لهم ، كما سجدت الملائكة لآدم تحية له ، وكما سجد لإحوة يوسف وأبوه له كما سيأتى . فلما رآه العيص تقدم إليه واحتضنه وقبله وبكى ، ورفع العيص عييه ، ونظر إلى النساء والصبيان فقال : من أين لك هؤلاء ؟ فقال هؤلاء الذين وهب الله لعبيده ، هبت الأمتان وبنوهما فسجدوا له وودت « ليا » وبنوها فسجدوا له ، وودت « راحيل » وبنوها يوسف وحمرا

سجدًا له . وعرض عليه أن يقبل هديته وألح عليه فقبلها . ورجع العيص فتقدم أمامه ، ولحقه يعقوب بأهله وما معه من الأعتام والمواشي والعبيد فاصدين جبال « ساعير »

فلما مر بساحور ابنتي له يتا ، ولدوا به ظلالًا ، ثم مر على « أورشليم » قرية شخيم فنزل فيل القرية ، واشترى مرعة شخيم بن جصور بمائة نعجة ، فصرّب هالك فسطاطه ، وابنتي مديحا فسماه « إيل » إله إسرائيل وأمره الله ببائنه ليستعلن له فيه . وهو بيت المقدس اليوم ، الذي جدده بعد ذلك سليمان بن داود عليهما السلام وهو مكان الصخرة التي علمها بوضع الدهن عليهما قبل ذلك ، كما ذكرنا أولاً . وذكر أهل الكتاب هنا قصة « دينا » بنت يعقوب بنت « ليا » وما كان من أمرها مع شخيم بن جصور الذي قهرها على نفسها ، وأدخلها منزله ثم خطبها من أبيها وإحوتها ، فقال لإحوتها : إلا أن تحتنوا كلكم فنصاهركم وتصاهرونا ، فإن لا نصاهر فوئنا خلقًا ، فأجابوهم إلى ذلك واختنوا كلهم . فلما كان يوم الثالث واشتد وجعهم من ألم الختان ، مال عبيهم بنو يعقوب فقتلوهم عن آخرهم ، وقتلوا شخيما وأباه جصور لقبيح ما صنعوا إليهم ، نصافًا إلى كفرهم ، وما كانوا يعبدونه من أصنامهم ، فلهذا قتلهم بنو يعقوب وأخذوا أموالهم غنيمة .

ثم حملت « راحيل » فولدت غلامًا هو « بهامين » ، إلا أنها جهدت في طلقها به جهدًا شديدًا وماتت عقيبه ، مدفنها يعقوب بن « أفراث » وهي بيت لحم ، وصنع يعقوب على قبره حجرًا ، وهي الحجرة المعروفة بقبر « راحيل » إلى اليوم ، وكان أولاد يعقوب المذكور اثني عشر رجلًا ، هم « ليا » روبيل وشمعون ولاوى ويهوذا وإسناخر وزبولون . ومن « راحيل » يوسف وبنيامين . ومن أمة « راحيل » دان وفتالي ، ومن أمة « ليا » جاد وأشير عليهم السلام .

وجاء يعقوب إلى أبيه إسحاق فأقام عنده بقرية حبرون التي في أرض كنعان حيث كان يسكن إبراهيم ثم مرض إسحاق ومات عن مائة وثمانين سنة ودفنه أباه العيص ويعقوب مع أبيه إبراهيم الخليل في المعارة التي اشتراها . كما قدمنا .

ذكر قصة نبي الله يوسف ﷺ

قصة يوسف جاءت بالشخص - وهو يوسف ﷺ - تدور حوله أحداث كثيرة رأى الشمس والقمر والحجوم تسجد له ، تأمر عليه إخوته وألقوه في الحب شراره السيارة ضمن بحس وباعوه للعزير ، امرأة العزيز أعجبت به وراودته عن نفسه دخل السجن ، ثم أصبح حاكماً لمصر ، إذن فهو شخص دارت حوله أحداث ، وفي نفس الوقت هي أحداث دارت حولها أشخاص إخوته وماذا فعل الحقد بهم ، امرأة العزيز وكيف كادت له ، أبوه وكيف واجه فقده ، الصراع حول السلطة والتفود ، كل هذا موجود في قصة يوسف فهي جاءت بشخص حوله أحداث ويحدث حوله أشخاص .

وقصة يوسف ﷺ تكلمت عنها الكتب التي سبقت القرآن الكريم ، ولكن عندما جاءت القصة في القرآن ، ترك علماء اليهود كتبهم وأخذوا يقرءونها في القرآن الكريم ؛ لأن القصة في القرآن فيها إعجاز صياغة الأداء والقدرة على هز ما هو داخل النفس ، وإظهار المواقف المختلفة في النفس البشرية ، كل هذا في قصة أداء البيان فهي أحسن القصص ؛ لأن الكل يعرف تاريخها وأحداثها ؛ لأنها نزلت في الكتب السابقة .

ثم هي أحسن القصص ، لأنها اشتملت على عبر متعددة ، في الطفولة وهي الشباب وفي الشبهوخة ، والحقد بين الأخوة والتمرد على الأب وخداعه ، وحب كل من رتب يوسف له ، ودخوله السجن مظلوماً ومع ذلك لم يهتر ، ثم بعد ذلك عفو يوسف عن إخوته ، وبذلك فهي أحسن القصص تزيج عطاء الصدور وتعرفنا ماذا يدور في القلوب ، وهي تعرض للنفس البشرية في العمر الرمني والعمر العقلي والعمر العاطفي ، وأطوار الإنسان حينما يكون مغلوباً على أمره ، وحينما يكون قوياً يستطيع أن يسيطر .

وهي أحسن القصص لأنها رويت بأشكال مختلفة ، ولكن القرآن جاء بها بإعجاز في البلاغة ، والقصة إعجاز لا يقدر عليه أسلوب البشر .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ تَعْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [يوسف : ٣] ، ومعنى من قبله أي من قبل أن يوحى إلى محمد ﷺ هذا القرآن ، كان ﷺ معروفاً بالنصاف الخلقية العالية ، وهي الصدق

والأمانة ، والوصعان مطلوبان في الرسالة ؛ لأنه ما دام لا يكذب على الناس فإنه لا يكذب على الله ، وما دام أميناً فإنه لن يحون الرسالة وسينقلها بصدق وأمانة ، وقد كان أبو بكر الصديق والمؤمنون إذا قال رسول الله ﷺ شيئاً يقولون : إن كان قد قال فقد صدق .

وعندما حدثت معجزة الإسراء والمعراج ، وقفت بعض العقول مشدوهة أمام هذه المعجزة ، وإذا بأبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه يقول دون أن يناقش الوقائع : « إن كان رسول الله ﷺ قال فقد صدق » وعندما قيل لأبي بكر كيف تقول صدق ؟ قال : أنصدقه في حبر السماء ونكديه في هذا ؟

قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ ﴾ . الغافل لا يفهم ؛ لأنه لا يعلم القضية فهو ﷺ لم يقرأ كتاباً ولم يجلس إلى معلم فمن أين يعرف قصة يوسف ؟ ، ومن بين معجرات رسول الله ﷺ أن اليهود قالوا للكفار أسألوه عن : إخوة يوسف ، وقوم يعقوب عندما خرجوا من الشام وذهبوا إلى مصر ، وعندما سألوه هذا السؤال لنزل الله سبحانه وتعالى عليه آيات قصة يوسف ، فدهشوا وقالوا : هذا لم يقرأ ولم يكتب فمن علمه ؟

قوله تعالى : ﴿ يَبْنَؤُا نَحِيصًا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنُ ﴾ . الرحي إعلام بحفاه بحيث لا يفهم إلا الموحى والموحى إليه ، والله سبحانه وتعالى يوحى للملائكة وللرسل للمؤمنين ، ويوحى للأرض وللسماء وللسمل وللنحل ، وكبر الوحي الشرعي أي الوحي المتعارف عليه هو وحي أخذ بمناه الشرعي وحي من الله لرسوله .

ويقول الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف ٤] كلمة يا أبت أصلها يا أبى ولكن يقال في اللغة العربية : يا أبى ويا أبت ويا أبتاه .

ورؤيا يوسف للشمس والقمر والكواكب تتبر بإعجاز ؛ لأننا جميعاً نرى الشمس والقمر والكواكب ولكن الشيء العجيب في هذه الرؤيا أنه رأى الشمس والقمر يحتمعان معاً ! نقول : إنه لا القمر ولا النجوم براها مع الشمس فالشمس بصورتها الشديد تحجب هذا كله عن أعيننا . شيء آخر في هذه الرؤيا . أن يوسف رأى أحد عشر كوكباً وعرف عددها ، ومعنى

ذلك أنها واضحة . إذن فالإعجاز الأول اجتماع الشمس والقمر معاً ، والإعجاز الثاني رؤيته لأحد عشر كوكباً من دون الكواكب التي تملأ السماء ، ولم يقل يوسف عليه السلام رأيتهم ساجدين أى الشمس والقمر والكواكب ، وإنما قال : ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ فكانه رأى أولاً ثم رآها ثانية وهي تسجد له ، ذلك لأنك إذا قلت : هذا الشيء سجد لى ، فلا بد أن ترى هذا الشيء قبل أن يسجد ثم تراه ساجداً ؛ لأنه لو رآهم من أول الأمر ساجدين فقد يكون هذا وصفهم ، وليس هناك سجود ولكنه لا بد أنه رآهم بدون سجود ، ثم رآهم يسجدون له .

ولقد تكررت كلمة « رأى » في قوله تعالى : ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ وفي قوله جل جلاله . ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ وتكرار كلمة رأى هنا أظهر لنا أنه رأى الشمس والقمر والكواكب أولاً ، وقام بعد الكواكب حتى عرف أن عددها أحد عشر كوكباً ، تدل على أن الكواكب تغيرت من دون كواكب السماء ، وقوله تعالى : ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ لها معنى . فهو لم يرهم ساجدين على إطلاقها فقد تكون ظاهرة طبيعية أو أى شيء من الظواهر الفلكية ، ولكن يوسف عليه السلام قال : إنهم كانوا ساجدين له . فلا بد أنه رأى فيهم من مظاهر الخضوع لدناته ما جعله يتأكد أن السجود له أو أنهم يسجدون له ، و« ساجدين » جمع مذكر سالم ولا يجمع المذكر السالم إلا إذا كان للعاقل ، والشمس والقمر والكواكب ليسوا عاقلين نقول : أرآهم يوسف يسجدون له ، ولا يكون عندهم عقل ؟

ما هي مهمة العقل ؟ أن يحتار بين البدائل ويرى مصالح الدين ومصالح الدنيا ، وأسمى آيات الخضوع في الدين هو السجود ، ولكن هل سجدت الشمس والقمر والكواكب ليوسف من نفسها أو بأمر يوسف ؟ لا ، بل سجدت بأمر الله تعالى سجود التكريم ، لا سجود العبادة فقاموا كسجود الملائكة لآدم ، وما داموا قد سجلوا فعب عنهم بصيغة سجود العقلاء ، وهم ليسوا عاقلين لك أنت ، ولكن عاقلين عن ربهم .

واقرءوا قول الحق تعالى : ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۖ وَأَذْهَبَتْ لَهَا غُحَّتْ﴾ [الانشقاق ١ ، ٢] أذت من الإذن أى سمعت من الله ، فمجرد أن سمعت أطاعت وعقلت ، وانشقت ، والكون كله مكون من هوالم لله تبارك وتعالى يقول : ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أُمَّتَالِكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ قَبْلُ ثُمَّ إِنَّكُمْ يُعْشَرُونَ﴾ [الأنعام ٣٨] . وحس البشر مع أننا نتفاهم بلغة اللسان ، ولكن إذا التقى اثنان منا لا يتكلمان لغة واحدة ، لا يتفاهمان

إلا بواسطة مترجم يعرف اللغتين ، هذا في لغة الإنسان اللغة اللسانية ، وإذا كانت اللغة ليست لغة لسان فمن المستحيل أن تفهمها ، ولذلك نحن لا نفهم لغة الحيوان ولا لغة النبات ولا لغة الجماد ، إلا إذا أفهم الله سبحانه بعض خلقه هذه اللغات .

ومصداق ذلك قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحُونَ وَالطَّيْرَ ﴾ [الأنبياء ٩٧] والجبال تسبح مع داود ومع غير داود فهي مسبحة دائمة ، ولكن الله تعالى أفهم داود تسبيح الجبال وجعل تسبيحها يوافق تسبيحه ، فكل ما في هذا الكون من أعين الكائنات إلى أدنى الكائنات مسبح لله تعالى ، ونكسا لا نفهم تسبيحهم ، فإن علما الله بفهمهم ، وإن لم يعلمنا لا نفهم .

الله سبحانه وتعالى علم سليمان منطق الطير فكان للطير منطقاً ، ألم يتسم سليمان عندما سمع النملة تتكلم كما يقص علينا القرآن الكريم ﴿ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل ١٨ ، ١٩] ، إذن فكل شيء له لغة والذي يفهم كل هذه اللغات هو خالقها وحائق لعانها ، إذن لسجود الشمس والقمر والكواكب كما رآها يوسف في المنام سجود تكريم وليس سجود عبادة ، وسجود لأمر الله تعالى وليس سجوداً لأمر يوسف .

ويعقوب عليه السلام أبو يوسف قال له : ﴿ يَا بَنِيَّ ﴾ [يوسف ٥] ومعناها يا ابني وعندما تخاطب ابنك تقول له - يا بني ، لأن الخطاب للابن يخرج من القلب ، وإذا كان الخطاب ليوسف وهو صغير السن تكون العاطفة فيه أكبر ، وتحس بعاطفة الأب القوية تجاه يوسف التي أثارت حقد أولاده ، وقرأ قوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف : ﴿ لِيُؤْسَفُوا لَأَخِي أَخْبَتْ إِلَيْهِ أَيْسًا بِمَا أُخْشِعَ عُصْبَةً ﴾ [يوسف ٨] إذن فيوسف قال يا أبت . ويعقوب قال له يا بني . دليل على قوة العاطفة التي تربط بينهما وكلما أصاب الإنسان شيء مفرع أسرع إلى من يحبه ليقص عليه ما حدث ، وقال الأب يا بني وهو لفظ مملوء بالحنان والعطف ، يعطيا الإحساس بأن يوسف ما زال صغيراً وأنه ليس له ذاتية ولكنه محتاج إلى حكمة الأب ونصيحته .

الأب المتملي قلبه حناناً ، خاف على ابنه من حقد إخوته وهو يعلم شعورهم نحوه ، لذلك

أسرع يقول له ﴿قَالَ يَسَّى لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف ٥٠] ، كلمة ﴿رُؤْيَاكَ﴾ لفتنا إلى أنها رؤيا ، لأن يوسف رأى الشمس والقمر والكواكب مساجدين به ، والشمس والقمر والكواكب لا تسجد لأحد .

وقوله تعالى : ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ﴾ تلمتنا إلى أنها رؤيا منام ؛ لأن اللعبة من دقتها تجمع رأى واحدة ، ولكن يختلف المصدر فيها باختلاف من يرى ، أرأيت وأنت مستيقظ أم وأنت نائم ؟ إن رأيت وأنت مستيقظ تقول : رأيت رؤية ، وإن رأيت وأنت نائم فقل : رأيت رؤيا . الأولى بالثاء المربوطة والثانية بالألف .

والرؤيا هي مصدر رأى فيها اتفاق ، فأنت رأيت في المنام كما ترى في اليقظة هذا رأى وهذا رأى . إذن فهناك التقاء في أنه رأى ، ولكن الاختلاف في حالة الرائي أهو يقطان أم نائم ؟ ولقد فرق الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم بين الرؤيا في المنام والرؤية في اليقظة ، إلا في آية واحدة عندما أسرى برسول الله ﷺ إلى المسجد الأقصى وعرج به إلى سدره مستهى . قال الله سبحانه وتعالى : ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَىٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ [الإسراء ٦٠] وهذه الآية كانت مثار جدل ، يستشهد بها من قال : إن الإسراء والمعراج تم في المنام ، لأن الله تبارك وتعالى وصفه بأنه رؤيا . وقالوا : لو كان في اليقظة لقال رؤية بالثاء . تقول لمن يروح هذا الكلام أنت لم تفهم عن ربك ؛ فالله سبحانه وتعالى يريدنا أن نعرف أن ما رآه رسول الله ﷺ رؤية العين في معجزة الإسراء والمعراج شيء عجيب ، لا يحدث حتى في الأحلام ، ولكنها ليست أحلاما بدليل أن الله تعالى قال : ﴿فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ .

وهل إذا حدث إنسان إنسانا آخر بأنه رأى في المنام كذا وكذا أ يكون هذا فتنة لأي شخص آخر ؟ هل إذا قال الإنسان إنه رأى في المنام أشياء لا يصدقها عقل أيكذبه أحد ؟ طبعاً لا . إذن فما دامت ﴿فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ فلا بد أن تكون رؤية يقظة .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿يَسَّى لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ﴾ . أي يعقوب يقول يوسف أنا مأمون عبيك ، ولكن إخوتك ليسوا مأمونين عليك ، إذا رويتها لي أرشدتك الصالح فيه ، وإذا رويتها لإخوتك حققوا عليك ، ولو أن يوسف رواها لإخوته لعرهوا تفسيرها ولراد حقدهم عليه وكرهيتهم له ، ويعقوب بما آناه الله من علم يعرف أن هذه الرؤيا ستحقق ؛

لأن رؤيا الأنبياء حق ، وإحوة يوسف وهم أولاد يعقوب هم أسباط ولا تأخذ موقفهم من يوسف ليكون في قلبها شيء ضدهم ، لأن هؤلاء من حيار البشر ، ولكنهم لم يكونوا أشراراً ، لأن الشرير هو من يتصاعد عنده السوء ، وإذا كان هناك شرير عصب على إنسان فإنه يقول : عندما أقابله سأصربه ، ثم يقول : سأحطم عظامه من الضرب . ثم يتصاعد في الشر ، ولا يقول : أقتله ، ثم يقول : سأصربه ثم يقول : سأوبحه أو سأعفو عنه . إحوة يوسف قالوا : اقتلوا يوسف ، ثم تصعدوا في الخير فقالوا : طرحوه أرضاً يعيش في الصحراء بعيداً ، ثم تصعدوا في الخير فقالوا : ألغوه في غياهب الجب يلتقطه بعض السيارة . إذن فهم ليسوا أشراراً . الحق سبحانه يقول : ﴿ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنْ دُونِكَ فَيَكِيدُوكَ لَكَ كَيْدًا ﴾ معنى الكيد : احتمال مستور لمن لا تقوى على مواجهته ، إذن فلا يكيد إلا الضعيف ، أما القوى فإنه يواجهه .

يٰٓمُوسَىٰ ذَكَرْنَاكَ بِجَنَّتِكَ رَبِّكَ وَتَلَوْنَا مِنَ الْقُرْآنِ عَلَيْكَ ﴿يُوسُفَ ٦﴾ ، أي كما أراك ربك هذه الرؤيا التي أبلغتك بأنه سيكون لك شأن عظيم بالنسبة لإحوتك . ﴿بِجَنَّتِكَ﴾ أي يرل عليك من حمايته ما يعطيك الأمان ويحفظك من كيد إحوتك ، بل يجعل هذا الكيد لصالحك أي لصالح يوسف ^{عليه السلام} فيعصمه تأويل الأحاديث ، ويجعل أصحاب الجاه والنفوذ والسلطان يلتفتون به ، ثم بعد ذلك يصير حفيظاً لخزائن الأرض حين يعم الجذب والحجاجة ، ثم يصبح عزيز مصر وحاكمها .

وقول الحق تعالى ﴿وَتَلَوْنَا مِنَ الْقُرْآنِ عَلَيْكَ﴾ وتنام النعمة ليس بنعم الدنيا ولكن بالنعمة الكبرى ، بأنه سيكون رسولاً وهذه النعمة هي نعمة الرسالة لا تسلب منه أبداً ؛ لأننا نعيش في عالم متغير ، هناك أشياء تأتي ثم تترك الرسالة والملك الذي سيأتي ليوسف ^{عليه السلام} لن سرع منه .

والله سبحانه وتعالى سينم نعمته عليه ، بأن يصل نعيم الدنيا ^{عليه السلام} مع الآخرة ، فهو منعم في دنياه ، وفي الآخرة مع الرسل أصحاب المقام العالي ، فكما أنعم الله عليه بالرؤيا ليجتنبه ويحميه من كل سوء ويعلمه من تأويل الأحاديث ، أتم عليه النعمة ^{عليه السلام} بالرسالة .

ومعنى تأويل الشيء معرفته معناه أو ما سيؤول إليه ، والإنسان حينما يرى رؤيا في المنام تأتي في كثير من الأحيان بشكل غير مفهوم ، بحيث يختار من رآها في تفسيرها ، بالنسبة

ليوسف **عليه السلام** تأتي بإلهام من الله تعالى ، ولذلك لا يأتي بشر ويقول . إنه يستطيع أن يعلمك علم تفسير الأحلام أو أن هناك علمًا خاصًا بتفسير الأحلام ، فالرؤيا لا يفسرها إلا إلهام من الله سبحانه وتعالى أو شفافية خاصة ولكنها ليست علمًا بشريًا .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفت يوسف إلى أن ما سيفعله به إخرته ليست عداوة بينهم وبينه ، بل هي رلة ستنتهي ، وسيعود الإخوة متحابين وستعهم جميعًا نعمة الله .

ولذلك قال: ﴿وَرَبُّهُ نَعْتُهُ عَلَيْنَا وَعَلَى آلِي يَمْقُوبَ كَمَا أَتَتْهَا عَلَى أَمْرِكَ مِنْ قَبْلُ
إِتْرَاهِمَ وَاسْتَقَىٰ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف ٦]، قوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أى أن
الله أعلم حيث يجعل رسالته، و«حكيم» كل ما يفعله يتم بحكمة إلهية بالغة.

دروس وعبر من قصة يوسف وإخوته

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ أى كان
 فى أمر يوسف وإخوته ؛ لأن ﴿فِي﴾ تدل على الظرفية فكأن القصة مستندور حول يوسف ؛
 موضوعها وأحداثها هو يوسف وإخوته . ر يوسف اسم أعجمى وليس عربياً ؛ فهو ممنوع من
 الصرف لو كان اسماً عربياً لقال الله سبحانه . « فِى يُوسُفِ » لأن ﴿فِي﴾ حرف جر ، ولكن
 يوسف ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة .

فقله تعالى: ﴿أَيُّنَّ لِلنَّاسِ﴾ [يوسف ٧] والآيات جمع آية. والآية هي الأمر العجيب اللافت للنظر ولو أن الإنسان نظره لوجد فيه أشياء كثيرة.

إن كلمة : « آية » ترد في القرآن بثلاثة معانٍ آيات كرنية ، وآيات هي المعجزات التي يؤيد الله سبحانه وتعالى بها رسله لتثبت صدق بلاعهم عن الله ، وآيات القرآن وهي التي تحمل لها أحكام المنهج .

والآيات الموجودة في سورة « يوسف » من آيات العجائب ، التي تثبت القدرة لله تعالى ، وأنه جل جلاله هو الخالق والفاعل والمسيطر ، فيوسف ^{عليه السلام} يلتقي في الحب ، ربما كان المقصود بهذا أن ينتهي أمره بالنسبة لأبيه وإخوته ، ولكن اللقاء في الحب جعله الله سبباً لكي يأخذه عزيز مصر ، ليربّي في أعز بيت في مصر ثم يصير له شأن في الحكم .

إِنْ أَحْوَجَ يَوْسُفَ كَانُوا يَكِيدُونَ لَهُ لَكِي يَبْعُدُوهُ عَنْ آبَائِهِمْ ، فَصَبَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَأَعَدَّهُ إِلَى

أبيه ، ولقد جاءت قصص الأنبياء ؛ سوى رسول الله ﷺ وثيبتا له .

وقوله تعالى : ﴿لَسَّالِيلِينَ﴾ تدل على أن هناك من سأل ؟ من الذي سأل ؟ إنهم اليهود بعثوا من قريش من يسأل محمداً عليه الصلاة والسلام عن قصة يوسف وإخوته . وهم لثقتهم أن رسول الله ﷺ لم يقرأ شيئاً ولم يجلس إلى معلّم وهو أمي ، اعتقدوا أنهم لو سألوه مثل هذا السؤال لأخرجوه ، ولقال : لا أعرف شيئاً . أو أتى بقصة من خياله ، تختلف مع ما ذكر في الكتب السابقة .

ولكنهم تعجبوا عندما برلت سورة « يوسف » تحكى كل شيء بالتفصيل ويأتون وإحكام ، وهي تروى لهم العجائب التي حدثت ليوسف وإخوته والقصة من أولها إلى آخرها ، قد تستغرق ساعة أو أكثر في قراءتها . رسول الله ﷺ عندما برل عليه الوحي بالسورة رواها للصحابة ، وطلب منهم أن يحفظوها ويكتبوها ، ثم تمر ستة ويأتى رسول الله ﷺ يقرأ قصة يوسف فلا يعير فيها حرفاً واحداً .

ولو أنك طلبت من إنسان أن يردد ما قاله بعد يوم واحد ما استطاع أن يأتي بنفس الألفاظ ولا بنفس الكلام . ولكن الله سبحانه وتعالى يقول لرسوله : ﴿سُقِرْتُكَ فَلَا تَنسَ﴾ ① إلا ما شَاءَ اللَّهُ [الأعراس ٦ ، ٧] وما دام الله سبحانه وتعالى قد قال لرسوله : (فلا تنسى) . بمعنى ذلك أنه لن ينسى ولا حرفاً واحداً .

إيثار يعقوب ليوسف وأخيه

الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ أَخِيهِمَا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [يوسف ٨] لاحظ هذا أن الله سبحانه وتعالى قال : ﴿لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ أَخِيهِمَا﴾ وقبل ذلك قال : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَيُحْيَىٰ كَيْتٌ لِّلرَّسَالِينَ﴾ [يوسف ٧] إن الإخوة ثلاثة أقسام . قسم قد يكون من ناحية الأب والأم ، وقسم قد يكون من ناحية الأب دون الأم ، وقسم قد يكون من ناحية الأم دون الأب .

قوله تعالى : ﴿لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ ، فلا بد أنهما شقيقان ؛ والباقيون أولاد روجة أو زوجات أخريات ، ولقد قالوا : إن أولاد يعقوب كانوا اثني عشر . اثنان منهم أخوان شقيقان هما يوسف وأخوه ، والباقيون أولاد الزوجات الأخريات فيكون مجموعهم اثني عشر ، ستة إخوة

من واحدة ، وأربعة من مريجين هما زلفة وبلهة . ولما سالت « لها » زوجها الأولى تزوج بأختها « راحيل » ، وأنجب منها يوسف وبنيامين .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالُوا لْيُيَسِّفْ ﴾ اللام موطنة للقسم ، أى أنهم يقولون : والله ليوسف ، فاللام دلت على القسم ، والمعنى والله ليوسف وأخوه أحب إلى أيسا منا ، لماذا أتى بالقسم ؟ القسم لا يأتي إلا بصدد إنكار ؛ لأن هذه القضية قضية الحقد على يوسف ومحاولة التخلص منه ، الإخوة اختلعا فيها - واحد قال بقتله ، والثاني قال ينطرحه في الصحراء ، والثالث قال : نلقيه في الحب يلتقطه بعض السيارة . كل هذا مجمعه أن يوسف وأخاه أحب إلى أبيهم منهم ، وهما لابد أن يأتي القسم ليؤكد هذا الحب ، ولكنهم لم يقولوا : ﴿ أَحَبُّ إِلَيَّ أَيْسَا ﴾ ، ولكن من عفتهم البشرية قالوا : ﴿ أَحَبُّ إِلَيَّ أَيْسَا مِنِّي وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ وكان هذا هو السبب في حب الأب ليوسف وأخيه ؛ لأيهما صغيران .

وهذه مسألة أوجدها الله تعالى في قلوب البشر ، دون اختيار منهم حتى في الحيوانات ما دام الابن صغيراً وضعيفاً وفي حاجة إلى الرعاية ، فإنه يتمتع بحماية الأب والأم حتى يكبر ، ولذلك عندما سألوا المرأة الأثمارية أى أولادك أحب إليك ؟ قالت : هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها . قالوا لها : فمن تحب أكثر ؟ قالت : الصغير حتى يكبر ، والعائب حتى يعود ، والمريض حتى يشفى .

إذن .. فالضعيف يتوجه إليه الحنان أكثر وهذه نراها في واقع الحياة ، والابن الصغير أحب دائماً إلى أبيه عن من هم أكبر منه . ويقولون : إن هذا من عدل الله سبحانه وتعالى ، ذلك أنه مهما عاش الولدان مع أبيهما فإن الصغير قد تمتع بخير أبيه سنوات أقل من الكبير ؛ فيعوضه الله سبحانه وتعالى بزيادة الحنان عن قصر المدة . وإذا كانت امرأة لها وبدان : ولد غنى يقوم بحاجتها وولد فقير لا يأتي بشيء فقلبيها يكون مع الفقير ، والحب مسألة عاطفية لا تفكير لها ولا تكليف فيها ، وبذلك نجد القرآن الكريم يجردنا من هذه العاطفة في الحكم بين الناس ، يقول ربنا سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَا يَحْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَمَٰنَوْنَآ عَلَىٰ الْآلِئِ وَالنَّفَوَىٰ ﴾ [المائدة ٨] فالله سبحانه وتعالى حرص في هذه الآية الكريمة لا على أن يقول : أبيض من تحب ، أو . أحب من تبغص . وإنما طلب منا الحق سبحانه ألا نجعل عواطفنا تتدخل في العدل في الحكم بين الناس . قد يعترض البعض ويقول إن رسول

الله ﷻ قال : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » ، يقول له : إن عمر رضى الله تعالى عنه قال : يا رسول الله ، إني أحبك عن ولدي وعن ماني ، أما عن نفسي فلا . ولكن رسول الله ﷻ كرر نفس الحديث : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » . فرأى عمر في تكرار الحديث إلزام عقيدة وتكليف ، فأدرك أنه ليس حب العاطفة وإنما هو حب العقل ، فقال : يا رسول الله الآن أحبك أكثر من نفسي . فقال له رسول الله ﷻ : « الآن يا عمر » . أي الآن فهمت أن هناك حباً عقلياً وحباً عاطفياً ، فالحب العقلي أن تؤثر النافع على الضار ، فتحب الدواء المر وإن كانت عاطفتك لا تقبله ولكن عقلك يحبه ؛ لأنه الطريق إلى الشفاء هذا حب العقل . فرسول الله ﷻ حينما قال لم يكن يتحدث عن حب العاطفة . وعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه حين مر عليه قاتل أخيه زيد بن الخطاب ، قال له رجل : يا عمر هذا هو قاتل أخيك ، فقال له : وماذا أفعل به وقد هداه الله للإسلام ؟ ثم لفت وجهه عنه ، فقال له الرجل أنلقت وجهك عني ؟ فقال له عمر نعم ؛ لأنني لا أحبك . فقال له الرجل : أو عدم حبك لي يمتنع حقاً من حقوقي ؟ فقال عمر : لا ، فقال له الرجل : إنما يكره على الحب النساء .

كان يجب على إخوة يوسف أن يتبهوا إلى أن حب أيهم ليوسف وأخيه انفعال طبيعي لا يسيطر عليه الأب ، ولكنهم لم يتبهوا إلى ذلك ، وقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ ﴾ ، يفهم منه أن المؤامرة ستكون ضد يوسف وأخيه بيامين ولكن انتقامهم انصب على يوسف ، مع أن أخا يوسف أحب إلى أيهم منهم ، ولكنهم ربما عرفوا عن الرؤيا التي رآها يوسف ، فقالوا : إن يوسف هو الذي سيأتي منه الخطر ؛ فقررروا أن يبدوا به ، ومن العجيب أنهم يقولون : ونحس عصابة ولم يتبهوا إلى أن العصابة من عشرة فأكثر ، وهم عصابة متكاملة متعصبة يقضون مصالح بعض ويمتنون بعضهم ، وهم يباشرون كل شيء وأبوهم شيخ كبير لا يباشر شيئاً . نقول لهم : كونكم عصابة يجعل حب الأب لمن ليسا عصابة أكثر ؛ لأبهما ضعيفان صغيران ، وهذا أمر طبيعي .

ثم يأتي إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَنِي صَلَاحٌ تُبِينُ ﴾ [يوسف ٨] نتيجة لا تنسجم مع المقدمات ؛ لأن يوسف وأخاه صغيران ، وأنتم عصابة في عني عن الأب وعطفه فكيف تقولون : ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَنِي صَلَاحٌ تُبِينُ ﴾ ؟ نقول . إن الناس تأخذ كلمة ضلال على المعنى

الواسع ، هناك ضلال مقصود ؟ طبعا لا ، ولكن أن تعرف الحق وتذهب إلى الباطل ، فهذا ضلال مقصود مذموم ، وقد يوجد الضلال غير المقصود ؛ لأن الإنسان لا يعرف الحق أو لأنه سى مثلاً . واقرأ قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنْ الشَّهَادَةِ أَنْ يُضِلَّ أَحَدُهُمَا فَتُدْحِكِرَ لِحَدِيثِهِمَا الْأُخْرَىٰ ﴾ [البقرة : ٢٨٢] ، فالضلال هنا ليس منعمداً ، ولكنه عن نسيان ، وفي نول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ يَسْمًا فِتَاوَىٰ ۖ وَوَجَعَلَ ضَلَالًا فَهْدَىٰ ﴾ [الضحى : ٦ ، ٧] ، حصوم الإسلام أخذوا هذه الآية الكريمة ، وأخذوا يشككون فيها بأن رسول الله ﷺ قد ضل . نقول لهم : أنتم لا تعرفون الملعة العرية رسول الله ﷺ لم يكن يعرف أين صريق الحق وأين طريق الباطل ، إلى أن هداه الله إلى الحق فاتبعه . فالهداية جاءت لها هداية دلالة إلى طريق الحق ؛ لذلك يقول الله تعالى : ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ [الشورى : ٥٢] .

فالضلال المذموم هو أن تعرف الحق ثم تذهب إلى الباطل . وإحوة يوسف لم يكونوا يعرفون الفرق بين حب العاطفة وحب العقل ، ومن هنا وصلوا إلى نتيجة أن أبيهم كان يجب أن يحبهم أكثر ، والنتائج الضارة لا تنشأ إلا من مقدمات باطلة ، ولو أن كل مقدمة بحثت مع الحق لخرجت النتائج ، فكان قولهم : ﴿ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْتَانَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ مقدمة خطأ ؛ لأنهم ما كان يجب أن ينظروا إلى حب أبيهم ليوسف وأخيه ، وإنما كان يجب أن ينظروا إلى أنهم عصبة ، وأن كل ما يملكه أبوهما في أيديهم ، ولكنهم تركوا هذا واتجهوا إلى حب أبيهم ليحفظوه .

ثم ماذا فعلوا ؟ بدعوا بتأمرون على يوسف وقالوا : ﴿ أَفْتَلَوْا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَمْلِكُ لَكُمْ رِجَّةٌ أَيْكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعُولِيهِ نَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ [يوسف : ٩] إذن فهم يهدرون أنهم سيفعلون ذلك ، ثم يتوبون فيقبل الله توبتهم ويكونون قوماً صالحين ولكنهم لم يقولوا لنا من يضمن لهم أن يعيشوا إلى أن يتوبوا . وقوله تعالى : ﴿ يَمْلِكُ لَكُمْ رِجَّةٌ أَيْكُمْ ﴾ الوجه المقصود به المواجهة والابتسام والحنان ، والانفعال كنه يظهر على الوجه فهم يريدون أن يقولوا إن وجه أبيهم سيفقد لهم بالحب والحنان بعد ذلك . كأنهم يقولون : عندما تنتهي من قتل يوسف أو طرحه أرضاً نرتاح مع أبينا وينتهي كل شيء .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ قَائِلٌ لِّهِنَّ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ

يَلْقِظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾ يوسف الحب هي البئر المطوية ، التي تحفر لكي يتجمع فيها الماء من باطن الأرض

والبئر المطوية يأتيها استطرار الماء من أسفل ، إذن فهي غيابة الحب أي هي فجوة من الحب حتى لا يراه أحد ، وكلمة غيابة أي المنطقة الخفية من الحب ، والحب محفى بالنسبة للواقع على سطح الأرض ، ولكن كونهم يريدون أن يحموه ولا يراه أحد لا يتلاءم مع قوله تعالى : ﴿يَلْقِظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ ولقد قلنا إن الشر عند الأحبار يتناقض ؛ لذلك بدءوا بالقتل ثم قالوا . اطرحوه أرضاً أخف من القتل ، فقد يسحو وقد تفتتسه الوحوش ، ثم قالوا : صغره في الحب عملية أقل صرراً ، على الأقل يحد الماء الذي يشرب منه ويحفظ حياته مدة طويلة . ثم يقولون : ﴿يَلْقِظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ .

والله تعالى لم يقل لنا من الذي قال . ﴿لَا تَقْنُلُوا يُوسُفَ﴾ ، وإنما قال ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْنُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوَّةُ فِي غَيْبَتِ الْحَبِّ يَلْقِظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ لأن الله تعالى لم يردنا أن نكره الآخرين فجعلها مجهلة ، وقوله تعالى أي أن هناك أملاً ألا يفعلوا ويتراجعوا عن هذا كله . يقول الحق سبحانه وتعالى . ﴿قَالُوا يَتَّبِعْنَا مَا لَفَ﴾ [يوسف ١١] ساعة تسمع « قالوا » ، والكلام لواحد من الجماعة تعرف أنهم تحدثوا معاً واففقوا على الكلام الذي يقال ، ثم قام واحد منهم بالكلام بناية عنهم ، فكأنهم تكلموا جميعاً ؛ لأنهم اتفقوا ووافقوا على ما سيقال ، لماذا ؟ لأن المؤمن أحد الداعين

إذن .. قوله تعالى . ﴿قَالُوا﴾ يعنى إنهم اتفقوا عليه ، فكانهم جميعاً قالوا . وقوله تعالى ﴿مَا لَكُمْ لَا قَامَتٌ عَلَى يُوسُفَ﴾ وما داموا قالوا : لا نأمننا . فكان هناك محاولات سابقة منهم أن يأعدوا يوسف ولكن أباهم رفض . وقوله تعالى : ﴿وَأَنَّا لَمُنْ تَنصِحُونَ﴾ [يوسف ١١] أي سينصحونه ولن يأتيه شر . ثم يقول الحق تبارك وتعالى حكاية عنهم : ﴿أَرْسِلْهُ مَعَا غَدَا يَرْتَعْ وَبَلَبَعٌ وَإِنَّا لَمُ لَحَظُونَ﴾ ولماذا قالوا - يرتع ويلعب ؟ لأنهم كانوا يخرجون للرعى والعمل ، ولابد أن يجدوا حجة ليأخذوا بها يوسف ، فهو لا يصلح للرعى ولا للعمل ، ولكنه سيرتفع ويلعب ، واللعب وقت الطفولة مسموح به ، لأنه ليس هناك تكييف بعد ، واللعب أن تشغل مجاح يقصد انشراح النفس .

والشرع لا يمنع اللعب بشيء قد يظليه الجسد مستقبلاً ، كتعلم السباحة والرماية والمصارعة وركوب الخيل . أمر يمكن أن ينفعه في المستقبل وهذا هو اللعب ، أما اللهو فهو شغل يلهي عن واجب مثل ألعاب التسلية التي تصيب الوقت ، وتأخذهم عن الصلاة وعن ذكر الله ، هذا اللهو ولو أنهم بمجرد سماع الأذان قاموا إلى الصلاة وتركوا ما في أيديهم لا يكون هذا للهو ولكنه نسيية . قولهم ﴿ مَا لَكَ لَا تَأْتِنَا ۖ ﴾ تقول . « مالك » حينما تريد أن تعرف السبب . وقولهم كما يروى لنا القرآن الكريم : ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَا صَدًّا يُرَتِّعَ وَيَلْعَبَ ۖ وَإِنَّا لَهُم لَحَافِيُونَ ﴾ [يوسف ١٢] لِيَحْزِنُنِي ۖ أَن تَذْهَبُوا بِهِ ۖ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتَ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ [يوسف ١٣] ، إذن .. فالمسألة من يعقوب ليست مجرد خوف علي يوسف ، ولكن فراق يوسف يحزن يعقوب ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزِنُنِي ۖ أَن تَذْهَبُوا بِهِ ۖ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتَ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ [يوسف ١٣] ولقد قال بعض الناس : إن يعقوب نبه أذهان أولاده إلى مسألة الذئب ، فاستخدموها كدنيا . ولذلك عندما جاءوه بقميص يوسف وقالوا : إن الذئب قد أكله قال يعقوب هذا ذئب حليم رحيم أكل يوسف ولم يبرق قميصه أ أي عرف الكذب .

وهم الذين سبق أن قالو : ﴿ لَئِن أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَيْرِيرُونَ ﴾ [يوسف ١٤] أي أن يعقوب قل لهم : إني أخاف أن يأكله الذئب ليس وأنتم متبهون ، ولكن أنتم عنه غافلون ، وهو بذلك يريد أن يبهيم إلى أنهم بشر تأخذهم العجلة ، ولم يستطيعوا أن يردوا عليه فقالوا : ﴿ لَئِن أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَيْرِيرُونَ ﴾ أي لا يكون عندما أي نوع من الرجولة إن أكله الذئب ونحن مجموعة من الرجال .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [يوسف ١٥] قوله تعالى : ﴿ وَأَجْمَعُوا ﴾ دليل على أن المسألة كانت أخذاً ورداً فيما بينهم . إلى أن قرروا أن يلقوه في الجب ، وفي هذه اللحظة - لحظة الضيق - وإخوة يوسف يخلعون عنه قميصه ويلقونه في الجب . جاء الوحي من الله تعالى : لنبئت يوسف قبل أن يصل إلى مبلغ التكليف بالرسالة ، جاءه وحى من الله بأنه سيبليهم ما فعلوه فيه وهم لا يشعرون ، بأن زعاهم يأتيه وحى من الله بأنه سيقص عليهم بآ ما فعلوه به .

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بعضهم قال: إنهم لا يشعرون بالوحي أو بما يوحى ليوسف. وبعضهم قال: إنهم لم يشعروا بأن أحاهم قد علم شيئاً، ولكنهم لم يشعروا بالوحي؛ لأن الوحي إعلام يخفاء، ولذلك لم يشعروا بأن يوسف قد أعلمه الله بأنهم سيأتون إليه للحصول على السيرة وأنه سيحبرهم. والله سبحانه وتعالى أبلغ يوسف بما سيحدث. ﴿فَلَمَّا دَهَبُوا بِهٖ وَاجْتَمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَىٰ إِلَيْهِ لَتُبْنَنَّهُمْ يَافِئَهُمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. وأوحى إليه أى ألهمه الله، حتى يؤسه وهو يواجه هذه المحنة التى يلقى فيها فى البئر، يواجه مصيراً مجهولاً، والثى يبعد فيها عن حنان أبيه وأنس أخيه، والثى يفارق فيها بلده وأهله وكل من عاش معهم.

إنها لحظة صعبة على النفس والإنسان يترك كل ما أحب ليواجه مصيراً مجهولاً ولهذا كان لا بد أن يلهمه الله أن هؤلاء الذين ألقوه فى الحب سيأتونه وهو عزيز؛ ليعترفوا بخطيئهم وذنبهم، ويطلبوا منه أن يدعو الله سبحانه ليغفر لهم، إن هؤلاء الإخوة الذين فعلوا بك هذا سيأتون إليك؛ ليطلبوا أقواتهم واستعرفهم وستبثهم بما فعلوه معك.

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَجَاءَ زَوْجَاهُمَا بِهٖمَا عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ [يوسف . ١٦] نلاحظ أن القرآن قد صور بدقة الانفعالات التى توجد داخل النفس البشرية، إخوة مكروا بأخيهم وأخذوه وألقوه فى الحب، وهم يعلمون أن أباه يحبه، وكان لا يأمنهم عليه، فكيف يواجهونه؟ لابد أن يواجهوه بامفعال نفسى كاذب، ولابد أن يكون الانفعال الكادب مستوراً بظلام الليل؛ حتى لا يكشف الأب، بما أودعه الله تعالى من نور فى قلبه الانفعال المصطعب على وجه أولاده، ولذلك جاءوا وقت العشاء؛ ليستر الظلام وجوههم؛ حتى لا تفصحهم انفعالاتهم المصطبعة، فاتفقوا على أن يعودوا إلى أبيهم وقت العشاء، وبكاؤهم كان بكاء مصطنعاً.

فالأمعان الطبيعى فى البكاء أو الضحك حريزى، ليس للإنسان اختيار فيه؛ لذلك فإنك ترى إنساناً يريد أن يخفى حزنه وبكائه أمام الناس، ويتظاهر بالتجلى، ولكن دموعه تفصح عنه، وإنساناً آخر فى موقف لا يصح الصبح فيه ولكنه يضحك رغماً عنه، فالضحك والبكاء هما انفعالات وعريزتان من الله تعالى، ولذلك يقول تبارك وتعالى ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَصْحَاكَ وَأَبْكُ﴾ [النجم . ٤٣]. إذن.. فالإنسان يستطيع أن يفعل البكاء والضحك، ولكنه لا يملك الصبح الطبيعى والبكاء الطبيعى.

إخوة يوسف أردوا أن يستر الظلام اسمعالاتهم للبكاء؛ حتى لا يكشفهم أبوهم، فلا يعرف أنهم لا يكون ولكنهم يتباكون كل هذه الانفعالات التي أرادوا أن يحفوها فصحا صوء النهار؛ لذلك فقد اختبروا وقت العشاء؛ إنهم جاءوا بالليل ليحفوها هذه الانفعالات بعد أن تأخر إخوة يوسف إلى أن جاء وقت العشاء؛ ليستروا انفعالاتهم في الظلام ماذا قالوا؟ يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِيقُ وَنَرْجِعُكَ يَوْسُفَ عِنْدَ مَتْنَعًا فَأَكْلَهُ الذِّقْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف ١٧]، كلمة: ﴿نَسْتَقِيقُ﴾ لا تكون إلا بين علة أشخاص يتسابقون في الجري؛ ليعرف من الذي سيسبق الآخر.

إذن .. فيستبقون يعنى يتسابقون، والاستباق له أنواع متعددة، استباق في الجري من ناحية المسافة، واستباق في رمي السهام أو في التصويب بإطلاق النار، واستباق في إصابة الهدف، والتسابق لإصابة الهدف هام جدًا؛ لأنه يصعب حين تواجه عدوك، والإسلام يبيح اللعب والتسابق بشرطين:

الشرط الأول: ألا يؤدي بك ذلك إلى لهو عن طاعة الله.

الشرط الثاني: أن يصعب هذا اللعب في وقت الجهد، فمثلًا أنواع الرياضة التي تعطيك القوة والسرعة والحكمة في الأداء بشرط ألا تلهيك عن واجب فرضه الله عليك؛ ولا تظهر فيها بالمظهر الذي يكشف عن عورة أمر الله بسترها.

إخوة يوسف ذهبوا يتسابقون وتركوا يوسف عند متاعهم ليحرسه؛ لأنه صغير السن ولا يستطيع أن يتسابق معهم، وهم بهذا قد خالفوا اتفاقهم مع أبيهم، الذي كان قد اشترطه لخروج يوسف معهم؛ لأنهم قالوا: ﴿وَأِنَّا لَنَرُّوْهُ لِحَفِظُونَا﴾ فأبى الحفظ في أن يتركوه وحده عند متاعهم؟ وذلك يجعل منه عرصة لأن تعتك به وحوش الصحراء.

ثم هم طلبوا من أبيهم أن يذهب معهم يوسف يرتع ويعب؛ لأنه ما زال صغيرًا لم يبلغ التكليف ومباح له اللعب، ولكنهم بدلًا من أن يجعلوه يرتع ويلعب تركوه عند أمتعتهم وأخذوا هم يلعبون ويتسابقون، وكانوا في كذبهم هذا لا تتطابق للمشاعر على وجوههم مع الكلام الذي يقولونه، ولكن الليل كان يسترهم.

أولاد يعقوب أحسوا حتى واللئيل يسترهم أن أباهم يعرف أنهم يكذبون ؛ لذلك ظهرت ريتهم من أنفسهم ، وأقرأ قولهم لأبيهم : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ [يوسف : ١٧] وهذا يطبق عليه المثل الذى يقول : يكاد المريب بقول عدوى . وهم كانوا يعلمون أن أباهم يحب يوسف ، وكانوا يعرفون أيضا أن أباهم يعرف كراهيتهم ليوسف ، بدليل أن يعقوب قال ليوسف وهو يروى له الرؤيا : ﴿ يَنْبَغُ لَا نَقْضُ رَيْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾ [يوسف : ٥] ، إذن معرفة يعقوب بعداوة أولاده ليوسف ، جعلته لا يصدقهم وهم أحسوا بذلك ، ولذلك قالوا كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ . ويؤس له أى بصدقه ، وهم فى تحبطهم حاولوا أن يتهموا أباهم بأنه لا يصدقهم ، وفى هذا محاولة لمدارة الإثم الذى يشعرون به .

كذب إخوة يوسف ... ودليل كذبهم

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ [يوسف : ١٨] ودم كذب يعنى دم مكذوب ، ولكن الدم لا يكذب ، وإنما الذى يكذب هو من أتى بالدم من شاة دبجها ولطبخ بدمها قميص يوسف .

وفى اللغة العربية يعطى شىء الوصف المصدرى للمبالغة ، وكأن الدم نفسه هو الذى كذب ، كأن تقول : فلان عدل . فكأن فلانا تجمعت فيه كل صفات العدل ، أو أن تقول : فلان شر . أى أنه هو الشر نفسه ، هذه صيغة المبالغة .

وإخوة يوسف قالوا : إن الذئب قد أكله . فلو كان هذا صحيحا يكون الدم صادقا ، أى مصدقا بقول الذى قالوه ، أما إن لم يكن هذا هو دم يوسف ، فيكون دما مكذوبا فيه . أى مكذبا لما يقولونه .

ولقد أتى إخوة يوسف معهم بدليل كذبهم ؛ إذ لو كان هذا الدم دم يوسف والذئب قد أكله فعلا ، والدم سينزل من لحمه ، تكون يقع الدم على القميص من الداخل للخارج ، ولكنهم صدموا ذبحوا الشاة لطخوا القميص من الخارج ، كما أنه لو أن الذئب أكل يوسف ، فلا بد أن يكون قد مرق قميصه بأنياه ومحالبه ؛ لكنى يصل إلى اللحم ، ولكنهم جاءوا بقميص يوسف سليما غير ممزق .

ويقال : إن يعقوب عليه السلام سمعهم وهم يتشاورون ماذا يقولون لأبيهم ؟ فقال أحدهم قولوا لأبي إن اللصوص قتلوه ، فقال يعقوب في نفسه : اللصوص أرحم لقميصه منهم لبد ماذا سيمعنون بقتله ؟ ولكهم إذا سرقوا قميصه سيبيعوه ولكن إن قتلوه فليس يستفيدوا شيئا وهذه هي فراسة الاستنباط من يعقوب ، وهذه الفراسة هي التي يستعملها القاضي في معرفة الحقيقة من المتهم في قضية اتهم فيها عدد من الناس ؛ لأن القاضي يعرف أن الكذاب تخونه ذاكرته دائما ، ولذلك قالوا : إذا كنت كذوبًا فكُنْ ذكورًا ؛ لأن الكذاب لا يذكر ماذا قال بالأمس ، أما الإنسان الصادق الذي يستوحى من الواقع فهو يروي نفس القصة بنفصيلها في أحد القضايا سأل القاضي أحد الشهود كيف رأيت هذا القاتل يرتكب جريمته ؟ فقال الشاهد : كان القمر بدرًا ينير الكون ورأيت أنه يرتكب جريمته ، ثم يمشي محاولاً أن يترك المكان ، وسأل القاضي باقي الشهود ، فقال : وأنتم من أين أنيتم ؟ قال أحدهم : كنا في المدينة . فسأله القاضي : ماذا كنت تفعل في المدينة ؟ قال الشاهد : كنت أشتري ياميش العيد ، فسأله القاضي كيف يكون القمر بدرًا في ليلة عيد الفطر التي هي ليلة الأول من شهر شوال ؟ هذه هي الفراسة التي تفضح الكذاب .

يعقوب ساعة رأى قميص يوسف وهو غير ممزق ومططح بالدم من الخارج ، قال لأولاده كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿ نَلَّ سَوَآتُ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ ، ﴿ سَوَّاتُ ﴾ ، بمعنى سهت أو سمرت ، أي أن أنفسكم سمرت لكم الكذب ، وقوله تعالى : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ [يوسف . ١٨] الصبر مطلوب في هذا الموقف ، وأنت إما أن تصبر على كذبك ، وإما أن تصبر عن كذبك ، تصبر على شيء فيه ألم لك ، وتصبر عن شيء فيه شهوة لك ، فتصبر عن شرب الخمر أو لعب القمار أو الربا ، وتصبر على المرض .

وقول الحق سبحانه وتعالى ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ وكأن هناك صبرًا غير جميل والصبر الجميل الذي ليس فيه شكوى ولا جزع .

والصبر غير الجميل هو الذي فيه شكوى وبكاء وجزع ، والله سبحانه وتعالى يقول لبيه عليه السلام . ﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾ [المعارج ٥] الصبر الذي ليس فيه هلع ولا جزع ولا شكوى .

الذين يريدون أن يصبذوا بجهل أشياء متناقضة ، يقولون . إنه ما دام يعقوب قد قال : ﴿فَصَبِّرْ جَمِيلًا﴾ والصبر الجميل لا شكوى فيه ، فإن يعقوب بنفسه الذى قال : ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بِنَقِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ بِمَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فكيف يكون الصبر الجميل هو الذى لا شكوى فيه ولا حزن ولا جزع ؟ ثم يقول يعقوب : إنه يشكو بثه وحزنه إلى الله . يقول : إنكم لم تفهموا ، هناك فرق بين شكوى إلى الله تعالى ، وشكوى من قدر الله ، وصبر جميل يعنى لا أشكو من قدر الله إلى بشر ، ولا أعلن حزنى وسخطى من قدر الله ، ولكن الشكوى لله هى دعاء وقرب من الله وما بين العبد وربه هو بلا حدود فالذى يشكو إلى الله ، هذا صبر جميل ، والذى يشكو من قدر الله ، هذا صبر غير جميل .

وقوله تعالى : ﴿وَأَلْقَاهُ الْمُوسْتَعَانُ عَلَى مَا نَفْسُونُ﴾ [يوسف : ١٨] كأن الصبر شاق على النفس فيعقوب لا يستطيع أن يصدق ما يقوله أولاده ، وفى نفس الوقت لا يستطيع أن يجمع الناس ويهول لهم : أبائى كذابين ، لقد أحلوا يوسف ولم يعودوا به فابحثوا لى عن يوسف ، تمامًا كالرجل الذى قالوا له : اهلك قتل أخاك ، فقال : نقول للنفس : تمسأ وتعرية ، إحدى يدي أصابتنى ولم ترد كلاهما خلقتا عن فقد صاحبه ، هذا أحمى حين أدعوه وذا ولدى . فالمعونة من الله فى مثل هذه الحالة أن نطلب منه أن يرزقنا الرحمة والصبر من قسوة ما حدث ، ولا نتجه بذلك إلى خلق الله ؛ لأن الخالق موجود .

وللملك علما رسول الله ﷺ أنه إذا حدث أمر جلل فرع الإنسان إلى الصلاة . وأنه إذا صادفه أمر يفوق أسبابه فرع للصلاة ، ووقف بين يدى الله .

يوسف يباع بثمن بخس

يقول الحق تبارك وتعالى ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ [يوسف : ١٩] ولم يقل لنا من أين جاءت هذه القافلة ، وهل هى كانت داهية إلى مكان ما أو عائدة ؟ لأن هذا لا يهم فى سياق القصة ، المهم أنهم وصلوا إلى مكان البشر التى فيها يوسف ، وكلمة سيارة معناها جماعة سائرون ، ولكن الله سبحانه لم يقل : سائرون . لأن السائر هو الذى يقوم بالسير مرة واحدة . إنك إذا وجدت باب حجرتك مخدوما ، وجئت بقطعة خشب وشاكوش لتصلح الباب لا يقال منك : نجار ، ولكن يقال عليك : ناجر ؛ لأن النجار هو الذى صنعتته الجارة ، أما الناجر

فإنه يعيها مرة واحدة بغير خبره .

كذلك « سيارة » معناها قافلة تحترف السير من مكان إلى مكان ، ولذلك فهي تعرف دروب الصحراء ، وتعرف مواقع المياه وتعرف أن هنا جثا فيها ماء .
أما السائر العادي فلا يعرف ؛ لأنه لا خبرة له . حينما تأتي القافلة وتريد الماء لا يدهيون جميعاً إلى البحر ، إنما يذهب بعضهم ليأتي للباقي بالماء ، وهذا اسمه الوارد أى أن الوارد ، هو الذى يرد الماء ليأتي به لبقيّة القافلة .

بذلك يقول الله سبحانه : ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوً ﴾ والدلو هو « الجردل » و « أدلى » أى ربطه فى حبل وأنزله إلى مستوى الماء ، فإن كان مستوى الماء بعيداً يطول الحبل ، ويسمون الحبل « الرشاء » فكلما كان الماء بعيداً أطال الرشاء ، ولذلك يقول الشاعر فى أولئك الذين يبالغون فى مدح الأمراء ليأخذوا منهم العطاء :

وإذا امرؤ مدح امرأ لسواله وأطال فيه فقد أطال هجاءه
[لو لم يُقدِّرْ فيه بُعْدُ المستَقَى عند الورود لَمَا أطال رِشَائِهِ]

لماذا ؟ لأنه لو لم يقدر أن الماء عبي بعد كبير ما أطال الرشاء أو الحبل ساعة جاء وارد القافلة وأدلى بالدلو رأى يوسف شيئاً فتشبت به ؛ يخرج من هذا الجب حيثئذ أحس الذى ألقى الدلو بثقل غير طبعى على عضده ، فنظر ليرى ماذا فى الجب ، والذى قد سبب هذا الثقل الشديد ، كأن حاسة العضل هى التى تعرفنا ثقل الأشياء . فهكذا نعرف أن الإنسان حواس أخرى غير الشم والسمع والبصر والذوق واللمس ، منها حاسة العضل التى تدرك عنى ثقل ما تراه أمامك ، فأنت حين ترى أمامك حقيقتين متشابهتين فى الحجم لا تعرف أيهما أثقل بالنظر أو بالشم أو بالسمع أو بالذوق أو باللمس ، ولكن لا بد أن تستعمل حاسة العضل وترفع كلا منهما عن الأرض لتعرف أيهما أثقل .

كذلك هناك حاسة اليبس فى الأنامل ؛ تبيّن لك شئك القماش لتعرف أن هذا عبيط وهذا رقيق ، ولا يمكن أن تعرف أى نوع من القماش أرق إلا إذا أحدث القماش بين إصبعيك لتعرف سمكه .

وارد الماء حين ألقى دلوه ووجده ثقيلاً بشكل غير عادى ، نظر داخل البحر ليرى ماذا

حدث ؟ فوجد علامًا قد تشبث بدلو الماء . علام جماله بلغت النظر . فما كان منه إلا أن قال : **﴿يَكْتُمُونَ هَذَا عَلَنًا﴾** . حيسا يقول : يا بشرى فهو يريد من أفراد القبيلة أن يأتوا ليشاهدوا بشرى حسنة ، شيء يهمهم ويفرحهم كأنه يقول لهم : تعالوا وأسرعوا انظروا ماذا وجدت في البئر ، إنه علام ١

ثم يقول تعالى . **﴿وَأَسْرُوهُ بَضْعَةً﴾** أى أخفوه وسط أمتحهم ؛ خوفًا من أن يكون أهله يبحثون عنه فيأخذونه منهم ؛ ولذلك أخفوه كأنه بضاعة ، وقرروا أن يبيعوه كالبضاعة . ويقول الحق . **﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾** [يوسف ٢٠] إذن فالضمير في **﴿وَشَرَوْهُ﴾** هنا تأخذ معنى آخر أنهم باعوه بئس بئس ؛ فشرى تأتى هنا بمعنى باع وأخذ الثمن ، وكان البيع بئس بئس والبحس هو النقص ، والنقص إما أن يكون في الكمية أو في الثمن ، شيء يساوى مائة درهم تبيعه بعشرين . ولماذا باعوه بئس بئس ؟ لأنهم كانوا يريدون أن يتخلصوا منه بسرعة ؛ خوفًا من أن يأتى دونه أو أهله ويأخذونه منهم ، فهم أسرعوا يبيعه بأى ثمن ليفوروا بالمال ، قال تعالى : **﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾** أى لم يكونوا يربحون به ولا يربحون الإبقاء عليه

يوسف في مصر

الحق سبحانه وتعالى يقول : **﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾** [يوسف ٢١] ومن هنا تعلم أن سبب الشراء أن الرجل لم يشتريه لنفسه بل اشتريه لامرأته ؛ ربما لأنها لم تكن تكنج وكانت هذه المسألة تخزيها ، فعندما نعلم أن الرجل اشتريه لامرأته تعطينا نقطة كبيرة عن دخول الفساد في البيوت ، النسب والخدم الدين يلعبوا الخلع سواء من الرجال أو النساء هم وراء هذا الفساد ؛ ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى يأمر بغص البصر والفصل بين النساء والرجال حتى في البيت الواحد ، قال تعالى : **﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَفْضُلْنَ مِنْ أَنْصَبِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ رُؤُوسَهُنَّ وَلَا يَبْسُوكَ رِبَّنَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ مَلَائِكَةِ مُؤَلَّتِهِنَّ أَوْ أَكْثَرِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَهُنَّ أَوْ بُنَاتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانَهُنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ أَشْتَرَهُنَّ غَيْرَ لُزِي الْإِنِّي مِنْ أَزْوَاجٍ لَوْ الْفِيلِ الَّذِي لَمْ يَطْهَرُوا عَنْ حَوَافِ الْبَيْتِ﴾** [النور ٣١]

قول الذى اشتراه لامرأته: أكرمي مثواه، المثوى هو: الإقامة، أى أعدى له مكاناً طيباً ليقيم فيه فسيكون فيه سبعة عندما يكبر أو تتحده ولذا. وهذا دليل على أن الروجة لم يكن لها ولد.

ويقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿رَكَدَ لَكَ مَكَّنًا لِيُؤَسِّفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف ٢١] أى بعد ما كان ملقى فى الحب بدون قميص يلبسه وإحوته له كارهون، أحذه عزيز مصر وقال لزوجته: أكرمي مثواه. قوله تعالى: ﴿مَكَّنًا لِيُؤَسِّفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أى أكرماء وهىأ له بيت عزيز مصر.

وقوله جل جلاله: ﴿وَلِيُعَلِّمَهُمُ مِنَ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف ٢١] كأن هناك نقلة أخرى ستحدث ليوسف من علمه بتأويل الأحاديث، والأحاديث هى الرؤى التى يراها الناس، وقد أدت هذه الرؤى إلى أن يأخذه الملك ويجعله عزيز مصر.

هذا الحديث يريد أن الإنسان لا يصلح حكماً على الأحداث، وإخوة يوسف أرادوا به شراً فألقوه فى الحب، ولكن الله تعالى جعل هذا الشر الظاهرى من أسباب الخير العميم الذى سيصيب يوسف ويجعله عزيز مصر، ولو علم إخوته أنهم بسبب إلقاءهم له فى الحب سيرتفع شأنه، ما ألقوه أبداً؛ لأنهم لا يريدون له خيراً، وهذا شأن جميع الظالمين؛ ولذلك يقال: لو علم الظالم ما أعده الله للمضبوط لضل عليه بالظلم.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ غَلِيبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ [يوسف ٢١] لأنه لا قوة فى الأرض ولا فى الكون تستطيع أن ترد أمراً لله تبارك وتعالى، بالنسبة للإنسان يخشى إن أراد شيئاً أن يأتى من هو أقوى منه ففرد الشئ ولا يحقق له ما يريد، ولكن الله سبحانه وتعالى الذى لا إله إلا هو قال للأرض: كوني فكانت، وقال للسماء: كوني. فكانت، وقوله سبحانه ﴿كُنْ﴾ نافذ فى كونه.

ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا يعلمون ماذا؟ لا يعلمون أنهم لا قدرة لهم فى هذا الكون، ولا قوة بهم إلا عما شاء الله، إنهم يخطئون ويحسبون أنهم يفعلون ويظلمون الناس، والله يرى المظلوم، انتقامه من الظالم، وكم رأياً فى التاريخ ظالمين اجتمعوا على ظلم الناس، ولو أن الناس الذين ظلموا تمكنوا منهم ما صنعوا فيهم

ما صوره هم في أنفسهم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف ٢٢٠] والبلوغ هو الوصول إلى النعاية ، وقوله تعالى : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ يعني وصل إلى عايته من الصبح والاستواء ، فكان مهمة الإنسان في الكون تبدأ حين يبلغ أشده ، ويصبح صابحاً لأن يحجب مثله ، تأتيه العزرة التي نسميها سن البلوغ ؛ لأنه في هذه السن يبدأ بضح العقل ويستقيم تركيب الجسد ، وما دامت في عمر تستطيع فيه أن تنجب مثلك ، تكون قد دخلت التكليف وتحاسب عليه .

يوسف عليه السلام تربى في بيت نعمة وأكرم العزير مشواه ، وأمده الله بالحكمة والعلم ليحرسه ، وقد بلغ أشده ؛ لذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ ما هو الحكم ؟ هو الفصل بين قضيتين ، بين حصتين متعارضتين حق وباطل ، ومادام الله تعالى أعطاه العلم فهو يقدر أن يفل ما تعلمه لغيره .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ إداد فكل إنسان يدخل في مقام الإحسان ، يقوم الليل يسبح ويصلي ويعبد الله كأنه يراه ، يعطيه الله تبارك وتعالى ثمرة إحسانه بأن يملئه بحكمة وعلم ، وكل واحد يصير على قدر الله ، إذا خلقه فقيراً ، فيكسح ويقوم بأى عمل ، ويتقنه ويخلص لعمله يقول الله تبارك وتعالى له : قِلت قسرى وأحسنت عملك فخذ جزائك ؛ ولذلك تجد عظماء الدنيا كلهم من هذا النوع ، أعطاهم الله تعالى الحكم والعلم ؛ لأنهم أحسنوا استقبال قدر الله ولم يتأبوا عليه ، والله حل جلاله عندما يقوون حكماً من الأحكام بالنسبة لسي أو رسول ثم يعمم الحكم بعد ذلك ، فالحكم ليس له خصوصية للرسول ، ومادام الله تبارك وتعالى قد قالها عموماً ، تكون لكل محسن ، فمن أحسن يعطه الله حكماً وعِلْماً ؛ لأنه سبحانه قال . ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ .

امراة العزيز . . تراود يوسف عن نفسه

قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَرَاودَتْهُ النِّسَاءُ هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ . معناها أنها تراوده ليس من الشرعة أو في الشارع أو وهما يركبان عربة ، إنما هو في بيتها . إداد فهي ممكة بحكم المكان منه ، وهي التي تراوده فالمسألة مجموعة عيه من عدة جهات :

هو تربى فى البيت كخادم لها ، وجوده معها فى حجرة واحدة مسألة لا تكثير استعراب أحد ، وهى تلاحظه وتحتال عليه . هنا نجد أدب التناول فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ وَرَوَدَتْهُ الْمَلَأَىٰ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِمْ وَعَلَّقَتْ الْأُتُوبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ [يوسف ٣٢] إذن . فالحدث فيه مبالغة ؛ لأنها غلقت الأبواب ولم تعلق بابًا واحدًا ، بل عدة أبواب ؛ حتى لا يحتاجها أحد ، مما يدلنا على أن القصر مبنى وكل حجرة ليس لها باب واحد ، بل لها أبواب ، وهكذا القصور تدخل من باب إلى باب .

قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّقَتْ الْأُتُوبَ ﴾ معناها أنها علقّت بابًا وراء باب ، مما يدل على إدراكها تمام الإدراك أنها مقبلة على فعل قبيح ؛ ولذلك فهى حريصة على أن تخفى ما ستفعل ، وكونها غلقت الأبواب دليل على أنها تريد إذا فتح باب أن تنبه فلا يحتاجها أحد .
الله سبحانه يقول : ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ . أى أنها تهيات له ، انتقلت من الاحتياض والندوة إلى الوضوح فى الطلب . يوسف عندما رأى هذا قال : ﴿ مَعَادَ اللَّهِ ﴾ . والمعاد هو ما تستعير به ، وأنت لا تستعير إلا إذا كان الأمر فوق قدراتك وطاقتك ، تستعير بمن يجددك ممن هو أقوى منك .

يوسف ﷺ لم يجد معاذًا إلا الله ؛ لأنه هو سبحانه الذى أعطاه الحكم والعلم ، وقال له : هذا حلال وهذا حرام ، ولأن الله تبارك وتعالى قادر دائماً على أن يعيد عباده ويمنع عنهم ما يكرهون . وكلمة : ﴿ مَعَادَ اللَّهِ ﴾ عند انقراض إذا قالها فلا بد أن الأمر عسير .

الحق جل جلاله يقول : ﴿ وَرَوَدَتْهُ الْمَلَأَىٰ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِمْ وَعَلَّقَتْ الْأُتُوبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ قَالَ مَعَادَ اللَّهِ إِنَّهُمْ رَفِئَ أَحْسَنَ مَثْوًى ﴿ إذن فيوسف لم يوافق على ما تريده ، وطلب المعونة من الله ، وقوله تعالى : ﴿ أَحْسَنَ مَثْوًى ﴾ أن نجاني من الحجب ومن شر إخواني ، وهياً لى مكاناً رغداً لأعيش فيه فلا أكافه بأن أعصيه وأن أجعل نعمه على وسيلة بعصيته خصوصاً أن العزيز زوجها قد أكرم يوسف وقال ﴿ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَّا أَوْ نَخْدُمُ وَلَدًا ﴾ [يوسف : ٢١] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْغٰثِقِينَ ﴾ [يوسف ٢٣] معناها أن الله سبحانه وتعالى يجارى على الإحسان بالإحسان وعلى الظلم بالسوء ، فلا يملح من ظلم .

كيف همت به وهم بها ؟

الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَوْثُ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف ٢٤] . ولقد اختلف العلماء في تفسير هذه الآية ، والهم . هو حديث النفس بالشئ . قد يقص الإنسان أو لا يفعل ، ومن رحمة الله تعالى بحلقه أنه من هم بحسنة ليعملها ولم يفعلها كتبت له حسنة لماذا ؟ لأن دمه شغل بها ، ولكنه وجد دافعا داخل نفسه يدفعه في دمه فلا ينفذه . فهذا أحد حسنة ، وهناك من تحدثه نفسه بمعصية ، ولكن لا يفعلها ، هذا له حسنة . العبارة هنا جاءت في أمر المراودة ، هي راودته وهو مجتمع . إذن فهناك مفاعلة اثنان يتصارعان على شئ ، أحدهما امرأة العرير ﴿هَمَّتْ يَوْثُ﴾ . والطرف الآخر وهو يوسف ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ . النظرة السطحية تقول : أن هناك مساواة ، هو تحدثه نفسه بالفعل وهي تحدثها بنفسها بالفعل ، ولكن النص لم يقف عند هذه العبارة ، فقد قال بالنسبة لامرأة العرير : ﴿هَمَّتْ يَوْثُ﴾ أي : تحدثها بنفسها أنها تريد ، وعندما تكلم الحق سبحانه عن يوسف قال : ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ لو حللنا هذه العبارة تكون : ولقد همت به ، ولولا أن رأى برهان ربه لَهَمَّ بها ، ولولا حرف امتناع للوجود .

تقول : لولا زيد عندك لأتيتك . فأنا لم أتك لوجود زيد عندك ، بالنسبة ليوسف نقول : لولا أن رأى برهان ربه لَهَمَّ بها ، لولا معاصها : أنه لم يهم بها ، والامتناع حدث ، لأنه رأى برهان ربه ، فكأن العبارة : لقد همت به ، ولولا أنه رأى برهان ربه لَهَمَّ بها ، ولكنه رأى برهان ربه فلم يهم بها وتنتهي المسألة .

هي همت به وهو هوجى بأن سيده هي التي طلبت منه ولكنه لم يهم بها ، ولو أن الله سبحانه قال : لقد همت به ولم يهم بها ، قلنا : أمر طبيعي حدث كأن انفتح الباب ودخل الناس . ولكن الله أراد أن يعرف أنه لولا برهان ربه لَهَمَّ بها ، ولكن البرهان جمعه لم يَهَمَّ فليس هناك نقص في رجولته ، ولكن هناك إيماناً ورعاية من الله تعالى ، وعدم الهم ليس راجعاً إلى عدم الرجولة وإنما إلى عصمة الله . إذن برهان الله سبحانه وتعالى سابق على الهم ، لأنه لو هم ولم يعمل نقول إن البرهان أتى بعد الهم ، ولكن برهان ربه كان في نفسه

ولقد قال بعض المفسرين إنه هم بها ، وجلس بين شعبها الأربع ، ولم يرجع إلا عندما

تمثل له أبوه ، وقال له هذه معصية ، ونقول : إن هذا عبث يتحجبون بأن الله تبارك وتعالى قال . ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ يَوْثُ وَهَمَّ بِهَا ﴾ ولم يقل ولقد همت به ولم يهم بها .

نقول : إن الله سبحانه وتعالى يريد أن يثبت فحولة يوسف ، وإنه سم يمتنع عنها ؛ لأنه لا يقدر لو أنه ضعيف ، ولذلك قال جل جلاله ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ يَوْثُ وَهَمَّ بِهَا ﴾ . أى أن يوسف كامل الرجولة يمكن أن يهم بها ، وكفى الذى جعله لا يهم بها أن يبرهان ربه فى داخله ، وهذا البرهان هو الذى جعله لا يهم بها . وإذا نظرت إلى القصة تجد أبطالها امرأة العزيز ، ويوسف ، والسوسة اللاتى دعتهم عندما هما ، والشاهد الذى شهد أنه هو الذى راودته ، والعزيز نفسه ، كل هؤلاء شهدوا أن يوسف لم يمس شيئا .

أما يوسف فقال : ﴿ هِيَ زَوَدْتَنِ عَنْ نَفْسِي ﴾ [يوسف ٢٦] ، وهى اعترفت بعد ذلك أنها راودته عن نفسه ، وقالت : ﴿ أَلَنْ حَصَحَّ الْحَقُّ أَنَا زَوَدْتُكَ عَنْ نَفْسِي ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَمَا أُنَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ [يوسف ٥٣] ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ [يوسف ٥٢] . أى لم أقبل عليه كلاما يحالف الواقع لأى شيء سمعته ، ولقد جاءت آيات الله كلها يبرئ يوسف ، فهى التى همت به وشهدت بأنها هى التى راودته عن نفسه .

والسوسة اللاتى قلعن أيديهن ﴿ قُلْنَ حَنَشَ إِلَهُ مَا عَلِمْنَا عَلَيْكَ مِنْ سُوءٍ ﴾ . والله تعالى صرف عنه كيدهن ، ومادام الله قد صرف عنه كيدهن ، والشيطان لا يستطيع أن يوسوس له ؛ لأن الشيطان يدخل فى معركة مع خلق الله ، ولكن عباد الله المخلصين لا يقرب منهم وقرأ قوله سبحانه ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُفَرِّقَنَّ بَيْنَهُمُ أَجْمَعِينَ ﴾ [٨٢] ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص ٨٢] ، أى الذى يعبد الله مخلصا له الدين لا يقربه الشيطان ولا يغويه ، وهناك الشاهد الذى شهد لمصلحة يوسف وقال . ﴿ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُيْ قَدْ دُفِرَ فَكَذَّبْتَ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [يوسف : ٢٧] .

كل هذا وتجد بعض العلماء يقولون إنه هم بها ، والحقيقة أنه لم بهم ، وإنما استعاد بالله واعتصم ببرهان الله ، ما هو البرهان ؟ البرهان هو عبوديته وإحلاصه لله سبحانه وعصمة الله له .

الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ﴾ والفحشاء هى

الزنا . فما هو السوء ؟ السوء هو المرحلة السابقة للفحشاء ، هي فكرة الهم وما يصاحبها إذن فامرأة العزيز راودته عن نفسها ، ومجرد أن راودته أسرع إلى الباب فخرجت خلفه لعلها تسبقه وتمعه من فتح باب الحجرة . وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿وَأَسْتَفْتَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَيْصُومٌ مِنْ دُبُرٍ﴾ [يوسف ٢٥] إذن فالمسألة خرجت من الراودة إلى المنازعة ، فهي من سعار ما هي فيه تريد أن تقتله ، وهو يريد أن يجو بنفسه .

الله سبحانه وتعالى صرف السوء عن يوسف ، ولم يجعلها تقتله ولم يجعله يقتلها حتى لا يقال دفاعاً عن النفس ، ويقول بعض العلماء : إن قول الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَوْسُفَ وَهَمَّ بِهَا﴾ . أي همت به لتقتله وهم بها ليقنتها ، لولا أن رأى برهان ربه .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّكُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُتَحَلِّينَ﴾ . تدل على أن الشيطان لم يكن يستطيع إغواء يوسف على المعصية : لأنه لا سلطان له على عباد الله المخلصين كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُتَحَلِّينَ﴾ [س ٨٣] وبما أن الله سبحانه وتعالى وصف يوسف بأنه من عباده المخلصين ، فالشيطان لا يستطيع أن يقترب منه ، ولا أن يغويه عن المعصية . وقول الله سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّكُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُتَحَلِّينَ﴾ لم يقصر المسألة على يوسف ولكنه جعلها عامة .

نقول : إن هناك عبادة لله تعالى يصلون بطاعة الله إلى كرامة الله ، أطاعوا الله فأكرمهم الله ، وهناك عبادة لله يكرمهم بالإكرام يطيعون الله أي هناك قسمان : الأول : عباد مخلصون كسبوا وجاهدوا ، ووصلوا إلى كرامة الله بطاعة الله .

الثاني . من يصل بطاعة الله إلى كرامة الله ، والفرق بين الاثنين أنه قد يأتي إلى بيتك من بطرق الباب ويطلب خيراً فتأخذه وتكرمه ، وهناك من تقابله في الشارع فتأخذه وتكرمه فمرداد بهذا الإكرام طاعة .

إذن فهناك من يطلب فيأذن الله له ويكرمه ، وهناك من يطلبه الله ويكرمه فيزداد إيماناً . قوله تعالى : ﴿وَأَسْتَفْتَا الْبَابَ﴾ [يوسف ٢٥] أي أن كل واحد منهما يريد أن يصل الباب قبل الآخر ، على أننا لا بد أن نلاحظ أن قول الله تبارك وتعالى : ﴿وَأَسْتَفْتَا الْبَابَ﴾ قال قبله ﴿وَعَلَّقْتَ الْأُثْرُبَ﴾ كيف نفهم هاتين الآيتين ؟ نقول ﴿وَأَسْتَفْتَا الْبَابَ﴾ . أي

الباب الأخير الذى يعصل بين حجراتها وبين القصر . لذلك قال سبحانه : ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾ مما يدل على أن الباب الذى تسابقا إليه كان هو الباب الأخير ، وأنهما تسابقا الأبواب حتى وصلا إلى الباب الأخير ، فوجد العرير أمام الباب ، والسؤال هنا : أن كل واحد منهما يريد أن يسبق الآخر إلى الباب لماذا ؟ هى المراودة فلماذا تريد أن تسبقه إلى الباب ؟ لتعنه من الخروج ، وهو يريد أن يسبقها إلى الباب ليهرب . هنا ستأتى قضية الشاهد وكيف استبط الحقيقة ؟

وشهد شاهد من أهلها

قال الله تعالى : ﴿وَقَدَّتْ قَيْصَمُ مِنْ ذُبْرِ﴾ أى من الخلف وهذا دليل على أنه سبقها يحاول الهرب . إذن فهو يريد أن يخرج ، وهى تجديه بقوة من قميصه لتعيده ، تقطعت القميص من الخلف ، امرأة العرير حين رأت زوجها أمامها عند الباب ، وكل الشواهد تدل على أنها كانت هناك مراودة بينها وبين يوسف ، أرادت أن تبرىئ نفسها وتلصق التهمة يوسف ، وبأنه هو المذنب وبأنه هو الذى أراد أن يعريها على العاشر وهى التى صدته . لذلك ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هى من غيظها من رفض يوسف مراودتها له ، وفضحها أمام زوجها تريد أن تعاقبه بأن يسجن أو يعذب ، ولذلك قالت لزوجها : اسجنه أو عذبه عذابا شديدا ؛ لأنه أراد السوء بزوجتك . وهما رد يوسف عليه : ﴿قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ .

إذن .. فهى ادعت أنه يحاول أن يعتدى عليها ، وهو قال : إنها هى التى حاولت أن تعريه على المعصية وعرضت عليه نفسها .

العزير لم يتصرف تصرفا أموج بحكم العاطفة ، وكان من الممكن أن يفعل ذلك ويقتل يوسف فى ثورة غضب ، ولكنه استمع لشاهد من أهل زوجته حتى لا يظلمها ؛ ليفصل فى هذه المسألة ويقول الحقيقة . ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا﴾ «شهد» جاءت فى القرآن الكريم بمعان متعددة ، جاءت بمعنى حصر ، وجاءت بمعنى أحر .

والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَلَيْشَهِدَ عَذَابَهُمْ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى ولبحصر عذابهما طائفة من المؤمنين ، وجاءت بمعنى أحر فى قوله تعالى ﴿وَأَرْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ مَقُولًا يَتَابَعًا﴾

﴿إِنَّكَ أَنتَكَ مَرْقُومًا وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْعَيْبِ حَاطِينَ﴾ [يوسف ٨١] وتأتي شاهد بمعنى حكم، وذلك في قوله سبحانه: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالشَّيْكَهُ رَأَوْنَا أَلِيمًا فَلَمَّا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْغَرِيْبُ الْعَصِيْبُ﴾ [آن عمران ١٨] أى أن الله حكم وقضى أنه لا إله إلا هو أو «شاهد» أى رجع كلاماً على كلام؛ لاستباط حق والوصول إلى حقيقة بين وجهين نظر متعارضتين.

الحق يقول ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [يوسف ٢٦] أى أنه يوثق لشهادة هذا الشاهد بقرابته لامرأة العرير بأنه من أهلها، وليس من أهل يوسف ولن ينحاز إليه، ولو كان من ناحية يوسف لردت شهادته، على أنه منحاز ليوسف، لأنه من أهله.

ما هي الشهادة؟ الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَبِيْصُهُ قَدْ مِّنْ قَبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذِبِيْنَ * وَإِنْ كَانَ قَبِيْصُهُ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِيْنَ﴾ [يوسف ٢٦، ٢٧] نلاحظ أنه بدأ بالافتراض الذى هو من صالح امرأة العزيز، يجعلها صادقة ويوسف كاذباً. ﴿إِنْ كَانَ قَبِيْصُهُ قَدْ مِّنْ قَبْلِ﴾ لماذا؟ لأنه في هذه الحالة يكون هو المقبل عليها، وهى التى تحاول الفرار منه والدفاع عن نفسها، فهى إما من المقاومة تنقطع له القميص من الأمام، أو هو قد يكون من الاستعجال والمقاومة بحيث يقطع هو نفسه على قميصه من الأمام فيحرقه. إذن فالاحتمال الوحيد لأن يكون يوسف هو الذى حاول الاعتداء عليها، أن يكون قميصه ممزقاً من الأمام، لأنه لا يمكن وهو مقبل عليها أن يكون قميصه ممزقاً من أى جهة أخرى.

﴿وَإِنْ كَانَ قَبِيْصُهُ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِيْنَ﴾ أى إن كان قميصه ممزقاً من الخلف فلا بد أنها هى التى راودته عن نفسها، وأنه حاول أن يهرب منها فأمسكت بقميصه من الخلف فتمزق، ولا يمكن والقميص ممزق من الخلف، أن يكون هو الذى يحاول الاعتداء عليها، وهى تدافع عن نفسها.

هذه هى الحجة التى قدمها الشاهد؛ لتفصل بين قولين متعارضين قول يوسف، وقول امرأة العزيز.

إذن .. فالشاهد أصدر حكمه أولاً قبل أن يرى القميص، وأعطى الافتراضين والدليل

على كل منهما ، ورتب على رؤيته للقيصر ترجيح حكم على الآخر .

ثم كان الحكم . ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ قَيْصَرُهُ قَدْ مِنَ دُئْرِ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف ٢٨] والكيد هو الاحتيال على إيقاع السوء بشخص ما على أن يتم ذلك في الخفاء ، لأن احتمال ليس له القدرة على أن يواجه عدوه ؛ لذلك يدبر له في الخفاء ، وقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ دليل على أن المرأة كيدهم عظيم وصغفها أعظم .

وحسبما عرف العرير أن امرأته أرادت أن تحويه مع يوسف ، وأن يوسف صادق وامرأته كاذبة قال كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿ يُوسُفُ أَهْرَؤَسَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَلِّكَ إِنَّكَ كُنتِ مِنَ الْفَاطِطِينَ ﴾ [يوسف ٢٩] أي أن العرير طلب من يوسف ألا يتحدث في هذا الأمر أبداً ؛ حتى لا نسوء سمعة العزيز وروجته بين الناس .

وقال لزوجته : لقد أذبت وكنت من الفاططين واستغفري لذالك .

ولكن الخبر انتشر في المدينة وانتشر بين النساء ، كيف حرج الخبر من القصر ؟ قد يكون أحد العاملين في القصر أو من السوقة اللاتي يعملن في خدمة امرأة العرير هم الذين أشاعوا الخبر في المدينة ، ولكنها مسألة لا تقصع فيها بشيء ؛ لعدم ورود الخبر في القرآن أو الحديث النبوي عنها . فيوسف لم يقول عن نفسه ، وامرأة العزيز لا تقول عن نفسها ، فهل الشاهد هو الذي قال ؟ إن الخدم حسبما سمعوا الضوضاء تصمتوا فمروا القصة .

انهم أن الخبر خرج من قصر العرير إلى نساء المدينة بطريقة ما ، وأبلغ إليهن .

واقرأ قوله سبحانه : ﴿ وَقَالَ يُسُوءُ فِي الْمَدِينَةِ آمْرَاتُ الْعَرِيرِ تَرَوْهُ فَلَهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ [يوسف : ٣٠] كلمة نسوة وكلمة نساء تدل على الجماعة ، ومفردتها ساقط في اللغة ، ولذلك مفرد نسوة هو امرأة ومفرد نساء هو امرأة ، والعجيب أن المفرد له مشى وهو امرأتان ، ولكن الجمع لا يأتي امرأتان وإنما يأتي نسوة أو نساء ، على أننا لابد أن نلتصق إلى أن القصة الإيمانية متغلغلة حتى في نفوس المنحرفين والمستترين عليهم .

العرير يطلب من يوسف أن يكتم الأمر ولا يتحدث به أحداً ، وفي الوقت نفسه يقول لزوجته : أنت صاحبة الخطيئة ، ولا يعرف الخطيئة إلا من يؤمن بمهج سماوى ؛ لذلك يقول

لامرأته كما يقص علي القرآن الكريم ﴿وَأَسْقِرْ لِلنَّاسِ﴾ .

وهذا معناه أنه يعرف أن دنبا قد حدث ، وأن هذا الذنب يوجب الاستغفار ، ولا يمكن للعير أن يعرف ذلك إلا إذا كان قد عرف مذهب الله ، الذي بين له الذنب وبين له طريقة الاستغفار من الذنب ، وأن الله سبحانه غفور رحيم .

مكر النسوة ودهاء امرأة العزيز

ينتقل الحديث بعد ذلك إلى عرص أوسع ، فالمشهد حتى الآن كان ربيعيا أبطاله امرأة العير ، ويوسف ، والشاهد ، والعير نفسه ، ولكن الخبر انتقل إلى خارج القصر ، مع حرص العزيز من أول الأمر على أن يقيه سؤا بين جدران القصر .

وهذا يدل على أن هناك عيونًا ترصد الأسرار وتشرها وترويها للناس حتى لا يعتد أحد أنه يمكن أن يحمي نفسه من الفضيحة لمجرد كتمانها وسترها ؛ فهناك عيون تتبع ما يحدث وتنقله إلى الناس .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَقَالَ يَسُوَّةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ فَدْ شَعَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي صَكْلٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف . ٣٠] قصة واقعة تتناولها النسوة فيما بينهن في بيوتهن ، هو أن امرأة العير راودت يوسف عن نفسه ، أنها بفعنها هذا في ضلال مبين .

فماذا كان رد امرأة العير ؟ القرآن الكريم يريد أن يلفتنا إلى أن المرأة أكثر كلامًا في الأعراض ، وأكثر علمًا بالإشاعات من الرجل ، وأن الخبر ينتقل من فم امرأة إلى أخرى حتى يعرفه جميعها في وقت قصير ، أي أن سوء المدينة عرس الخبر وتحدث به ، ولم يمض إلا وقت قصير ، حتى وصل الخبر إلى امرأة العزيز ، بأن النسوة يقلن كذا وكذا .

أدركت أن هذا مكر بها ، وأن قول ساء المدينة ليس عصبية للحق ، ولا كرها في الضلال الذي وقعت فيه ، إنها أردن شيئًا آخر هو إذلال كبرياء امرأة العزيز ، ونشر فضيحتها بأنها وهي امرأة الحاكم تراود من يخدمها عن نفسه .

إنها امرأة العزيز رفيعة المستوى ، أرفع شخصيه في المدينة تجرى وراء خدامها ومموكها وتراوده عن نفسه وهو يرفض ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَتْ بِسَكْرٍ﴾ وهذا دليل على أنها فهمت القصد من

المقول ، ذلك أن الماكر يسر ما يريد أن يقوله في شيء آخر ليدعى أمام خصمه أنه يرى .
لقد هممت أنهن يردن أن يشعن بين الناس أنها وهي امرأة العزيز - والعزير معاه العالب
الذى لا يغلب أراد أن تعطى نفسها لفلان مملوك اشتروه بدرهم معدودة ولكنه رفض ، لقد
قل إنه شعفها حباً ولم يقلن أحبته ؛ لأن الحب مارل أولها الهوى ، والهوى يعنى أنه رأى
الشيء فهو ، والهوى قد ينتهى بالرؤية ، وقد يستمر لتشأ علاقة ، ثم تنتقل أسألة من الهوى
والعلاقة إلى الكلف فى أن هناك مصلوفا لهذه العلاقة يريد أن يصل إليه ثم بعد ذلك تصل إلى
مرتبة العشق ، أى أنه صار هناك تبادل مشاعر وصل إلى مرتبة أن يعلى كل منهما من مراده ،
ويتنقل العشق إلى مرتبة التدله ، أى يكاد الإنسان يفقد عقله ، ثم مرحلة الهيام ، يهيم على
وجهه ولا يدرى أين يذهب .

قوله تعالى ﴿ فَدَّ شَعْفَهَا حَبًا ﴾ [يوسف : ٣٠] أى أن حبه انتقل من الإدراك إلى العقل ،
فوقش ثم استقر فى القلب أو تمكس منه ، والشعاف هو العشاء الرقيق الذى يسر القلب ، وهذا
دليل على تمكس حبه من قلبها .

امرأة العزيز حين سمعت بمكرهن ، وأدركت أنهن لا يردن بما يقلن كلمة حق ، ولما يردن
إذلالها وإهانتها ، ولم تشغل نفسها بالبحث عن أخرج هذه الأسرار من القصر ؛ لأنه لا بد أن
يكون الذى أخرج هذه الأسرار له علاقتان : علاقة بالقصر ، وعلاقة بخارج القصر . علاقته
بالقصر جعلته يدرك أو يرى ما حدث ، وعلاقته بخارج القصر جعلته يشيع ما حدث بين الناس .
قال العلماء : إنهن خمس نسوة : امرأة الخازن الذى يأتى كل من فى القصر ليأخذوا ما
يحتاجون إليه من مخازن القصر ، وامرأة الخازن أو السامس الذى لا يأتى إلى القصر أو يخرج
منه أحد إلا ويعلمه ، وامرأة السحان ، وامرأة ساقى الملك الذى يسقى الملك ، وامرأة الخاجب
نقل هؤلاء الأرواح الذين يعيشون داخل القصر إلى روجاتهم ما سمعوه ، ثم انتقل الكلام
من بيت إلى بيت فى المدينة ، حتى شاع وانتشر .

امرأة العزيز حينما سمعت هذه الأخبار وشعرت أنهن يردن إهانتها والتشهير بها ، مكرت
بهن وأرادت أن تدخلهن فى تجربة عمليه ، بحيث يراودن يوسف عن نفسه ، فمادا فعلت ؟
أرسلت بهن دهرة بالمصور إلى القصر فى ضيافته .

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مَلِكًا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكًا﴾ [يوسف ٣١] أى دعتهن وأعدت لهن المتك، وهو الشيء الذى يستند إليه الإنسان فى الجلسات الطويلة، فالإنسان إذا جلس لحظات لا يحتاج إلى متك، أما إذا كان سيجلس ويمكث ساعات، فهو يريد أن يتكى حتى يكون جلوسه مريحاً.

ثم بعد ذلك: ﴿وَوَافَتْ كُلَّ وَجِدَةٍ رَّتَّهِنَّ سِكِّينًا﴾ [يوسف ٣١] ومعنى ذلك أن امرأة العزيز حططت أن ترد على المكر بمكر أشد منه، لأنه ما دام أعصت كل واحدة منهن سكيناً فلا بد من مرور لاستخدام السكين، سواء كان هذا طعاماً أو فاكهة أو أى شيء آخر. انهم فى هذا كله أن الإنسان حين يستخدم السكين لابد أن يكون منتبهاً إلى ما يفعل، لأنه لو ضاع انتباهه أو انتقل إلى شيء آخر فستقطع السكين يده، وهذا ما كانت تهدف به امرأة العزيز، أن يأخذ يوسف بجماله وحسنه انتباه النسوة؛ فيقطعن أيديهن. ولذلك قالت ليوسف ﴿أَتُخْرِجُنَّ عَنْهُنَّ﴾ فماذا حدث؟ ﴿مَلِكًا رَأَيْتَهُ أَكْبَرُكُمْ وَقَطَعَنَّ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف ٣١] يقال أكبرت الشيء، أى تحيلته قبل أن نراه على صورته، ولكن حين نراه نجد أن الرؤية أكبر كثيراً من التخيل، معنى أنك تحيلته فى صورة حلوة، ثم وجدت آية من آيات الجمال التى خلقها الله

ثم لما عاد إليهم رشدهم الذى سلبه محسن يوسف عليه السلام ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا شَرْاً﴾ [يوسف ٣١] كلمة. ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾ أى تنزيه لله تعالى، التنزيه هو؛ لأن الله وحده القادر على أن يخلق مثل هذا الجمال الذى يذهب العقول، أو أن يوسف مزه أن يكون قد حدث به وبين امرأة العزيز شيء، وهذه الشهادة ليست شهادة تثبت أن امرأة العزيز كانت امرأة قبيحة، ولكنها تنزيه أن يخلق الله مثل هذا الجمال الأحاد فى يوسف، ثم بعد ذلك يجعله يرتكب ما يعضب ربه.

وقولهن: ﴿مَا هَذَا شَرْاً﴾ لأنه خرج عن كل صور الجمال فى البشر، فهو صورة أرقى من الإنسان الذى يرويه كل يوم، فكأنهن قلن: لم نر مثل هذا بين من نراهم من بنى آدم، لابد أن يكون هذا ملكاً. ولكن هل رأين ملكاً حتى يحكمهن على يوسف أنه ملك؟ نقول لا، ولكنهن تخيلن الملك فى أبداع صورة.

فلما رأين جمال يوسف يتخطى صورة الإنسان قلن لابد أن يكون هذا ملكاً كنوع من

التخيل ، فالإنسان عندما يرى بشراً فيه من صفات الجمال ، والكمال الكثير ، فإنه يقول : هذا ليس إنساناً هذا ملك . لأن الإنسان في حكمه على الأشياء يتحيلها بالحكم الذي يماثل طبيعتها .

إذن .. قول نساء المدينة في يوسف : ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ . دليل على أن الله تبارك وتعالى وضع فيه كل اللقطات ؛ لذا جذبهم جميعاً ، فلم تشد واحدة ولم يختلن في الرأي ، كلهن قلن : ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ دليل على أنه جذبهن بالإجماع ، أو أن الله سبحانه وتعالى وضع به من صفات الجمال ، ما يجعله محبباً إلى القلوب جميعاً ، وهذا من عظيم قدرة الله في نبيه يوسف الطيب .

وهكذا رأت نساء المدينة ، كل واحدة رأت فيه جمالاً مختلفاً عن الأخرى نصحن : ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ووجدت امرأة العرير الفرصة ؛ لتبرر ما فعلته وترد على كدهن ، فقالت كما يفص عليها القرآن الكريم : ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِينَ لُغِصِي فِيهِ﴾ أي فذلك الذي وجهن إلى اليوم أنني راودته عن نفسه ، وها أنتن ترى ما فعل جماله في نفوسكن .

قوله تعالى : ﴿فَذَلِكُنَّ﴾ «ذا» إشارة ليوسف و«لكن» خطاب للنساء ، الناس لا يعرفون بين لفظ الإشارة ولفظ الخطاب ، لكن الإشارة شيء والخطاب شيء آخر ، و«ذا» إشارة للمخاطب ، تقول : ذلك فلان . ولكن عندما تشير إلى ذكر وتخطب أنثى تقول : ذلك ، «ذا» تشير للذكر و«ك» تخطب لأنثى ، فإذا كنت تخطب اثنين تمرل ذلكما ، وتخطب جماعة تقول : ذلكن .

يقول الحق في القرآن الكريم حكاية عن امرأة لعزير : ﴿وَلَقَدْ زَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ ها لا بد أن تلتفت إلى أن امرأة العرير بعد أن كانت تنكر الحقيقة وتحاول أن تخفيها ، وتقول : إن يوسف هو الذي راودها عن نفسها ، اعترفت بالحقيقة لماذا ؟ لأنها في المرة الأولى كانت في وضع الاستنكار ، ولكن بين السورة اللاتي قطع أيديهن ، وقلن هذا ملك كريم ، وجدت المبرر لفعلتها ، ولم تجد استنكاراً من النساء . بل أكثر من الإعجاب فقالت : ﴿وَلَقَدْ زَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعَمَّ﴾ لأنها لم تسمع لو أنها تقول كيف تراوديه ولماذا تفعلين ذلك ؟ أمام لانبهار الذي استقبلت به السورة يوسف .

ولذلك قالت : ﴿ فَاسْتَعَصِمَ ﴾ أى فعصم نفسه عن الخطيئة ، كلمة : « استعصم » تدل على التكلف والمشقة فى حجز النفس ، فهل وجد يوسف مشقة ؟ نقول : إن الله تبارك وتعالى يريد أن يثبت أن فحولة يوسف ورجولته غير ناقصة ، وأنه لم يمنعه إلا الإيمان ، ولذلك جاهد نفسه ليمنعها ، ولو أن المسألة مرت هكذا لقالوا : إن يوسف ليس له فى النساء ، وهى مثل ﴿ هَمَّتْ يَدُوهُ وَهَمَّ بِهَا ﴾ التى تحدثنا عنها فيما سبق .

ولكن امرأة العزيز تجاوزت هذه المرة كل الحدود ، فقالت : ﴿ وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيَكُونَنَّ وَلِيًّا ﴾ [يوسف : ٣٢] هنا امرأة العزيز تحلت عن حياتها وتحفظها تمامًا ، وهذا لا يحدث إلا فى مجالس النساء ، ذلك أنه عندما يكون هناك رجل فى المجلس ، يكون هناك بعض الحياء ، فكأنها بعد أن رأت أن النساء رأينه وأكبرنه ، قالت : لئن لم يفعل ما أمره به سأسججه وأجعله من الصاعرين . وصاعر ليس معناها أنه صغير ، ولكن صعر يصغر معانا أنه صار دليلاً مهاناً . فهى توجه كلامها للنساء أئمن أكبرن يوسف ، وأنا سأجعله ذليلاً مهاناً إذا لم يفعل ما أمره به أى : إذا لم يوافقنى على ما أطلبه منه ١١

ولكن لماذا قالت : إنها ستسججه وتجعله ذليلاً ، ولم تقل : إنها ستطرده مثلاً أو تبعه غيرها ؟ لأنها تريد أن تعرف كل الحاضرات أن يوسف لن يخرج من القصر ، وأنه لن يراه أحد إلا هى ، فبأنها قالت : ستطرده أو تبعه لسارعن لشراعه وأخذنه .

يوسف لم يجد فى هذا الموقف الذى اتفقت فيه جميع النساء الحاضرات ، إلا أن يستغيث بالله ، قال كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿ قَالَ رَبِّ اٰلَيْهِ اَتَّخِذْ اِلَىَّ مِمَّا يَدْعُوْنِ اِلَيْهِ ﴾ [يوسف ٣٣] نلاحظ هنا ؟ أنه قال : بما يدعونى إليه . مع أن امرأة العزيز هى التى قالت : ﴿ وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيَكُونَنَّ وَلِيًّا ﴾ فما دخل الباقيات ؟ يدعونهن عندما رأى يوسف أشرف إليه ببعض أنواع الإشارات التى يفهم منها أنه يرادونه عن نفسه ، أو صدر منهن كلام بذلك لم تأت به الآية الكريمة ، وإلا فلماذا كان الخطاب بالجمع هنا ؟ بهن ساعة رأيه سرن أنفسهن وسط الانفعالات والذهول ، فكما قطع أيديهن دون أن يدركن ، صمرت منهن إشارات أو إيماءات أو تعبير بالوجه دون أن يدركن .

فكل واحدة نظرت إليه نظرة تستميله إليها فعرف ماذا يريدن ، فسواء راودنه بالكلمة أو

بالإشارة أو بأى طريقة أخرى . فإنه استعاد بالله منهم جميعاً .

ودعا ربه قائلاً : ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصَبُ إِلَيْنِ وَأَكُنْ مِنَ الْكَاهِلِينَ﴾ كأن يوسف قال : يا رب ، إن السجن أحب إلى نفسى من معصيتك .

تلاحظ هنا أن يوسف كان يقول ربى . ولا يقول : إلهى . لأن الألوهية منطق التكليف ، وهو لم يكلف بالرسالة بعد ، ولكن « الله » الرب الذى رباه وتعهده ، لى يتحلى به فى هذا الوقت العصيب ، فدعا الله باسم الربوبية . ﴿رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ ثم استغاث بالله من بشريته فهو بشر تملؤه الرجولة ، وهو فى سن خطيرة من البلوغ والرجولة ؛ ولذلك فهو يستغيث بالله بأن يصرف عنه كيد النسوة ؛ لأنه إن لم يصرف عنه كيدهن ، وبقيته مما يردن منه ، سيميل إليهن فى هذه الحالة ويكون من الجاهلين .

الله سبحانه وتعالى يريد أن يؤكد بشرية يوسف وفحولته ، وأنه أعرض عن هؤلاء النسوة ؛ لأنه وضع منهج الله أمام عينيه . فلو أنه مال إليهن لكان من الجاهلين لماذا ؟ لأنه فى هذه الحالة سيخسر كل شيء ، سيخسر دينه وآخرته ، الله تبارك وتعالى استجاب له ؛ لأنه لجأ إليه ، ولجأ إليه مضطراً ؛ لأنه ليس أمامه من الأسباب ما يمكن أن يأخذ به ، فإما أن يصرف الله سبحانه وتعالى عنه كيدهن ، وإما أن يقع فيما لا رغبة له فيه .

ولأن يوسف دعا الله تعالى مخلصاً من قلبه فى ساعة اضطرار ، استجاب له ولذلك يقول الحق جل جلاله : ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ نَصَرَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُمْ هُمُ السَّامِعُونَ الْعَلِيمُونَ﴾ [يوسف ٣٤] . أى أن الله سبحانه وتعالى يسمع ويعلم ويرى ، ويوسف اتجه إليه سبحانه محططاً ، فأخذ الله بيده ونجاه من كيد النسوة ، وهو سميع لما يقول عليم بحاله .

ابتلاء يوسف عليه السلام بدخوله السجن

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ فِي مَعْدٍ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لِيَسْخَبَنَّ عَنْ جِبْرِ﴾ [يوسف ٣٥] قوله تعالى : ﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ﴾ ، أى عندما عرفت النسوة أنه لا فائدة من يوسف ، تأمرن عليه ليدخل السجن ، وكان دخول يوسف السجن دليلاً على استبقاء حركة الحب له فى نفوس النسوة .

ألم تقل امرأة العزيز : ﴿وَلَيْنَ لَمْ يَفْعَلْ مَا مَأْمُورٌ لَيَسْجَنَنَّ﴾ . إذن فالسجن استبقاء للحب

لم يقتل اقلوه لماذا ؟ لأنه كان لديهم أمل في أن تقييد حركته في السجن ، سيجعله يفكر في أن يقبل ما سبق أن رفضه ، وربما الذل الذي سيراه في السجن بعد العز الذي كان يعيشه في قصر العزيز يلائم من عياده .

في السجن تقترب النفوس من بعضها ، ودخل مع يوسف السجن رئيس الخياريين ورئيس السقاة . كانا يعملان في قصر الملك ، وكانت تهتمهما أن الخيار كان قد تأمر على الملك ، والساقى كان سيضع له السم في الشراب . الخيار والساقى قد رأى كل منهما رؤيا ، وطلب أن يفسرها له يوسف ، وهنا نعلم أنهما لابد قد مكثا مع يوسف فترة طويلة لأن هذه الأشياء لا تحدث بين يوم وليلة ، بل لابد من طول العشرة الذي جعلهما يلجآن إلى يوسف في كل أمر يهمهما ، لأنهما رأيا في يوسف الإنسان السوي حسن الخلق .

قال تعالى : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُفْقِدُ رَأْسِي خَيْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَأْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٣٦] .

إذن .. كل منهما رأى رؤيا أحدهما : رأى أنه يعصر خمرا ، والثاني : رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزا تأكل الطير منه ، فكان الاثنان قد عريا أن يوسف يقوم بتأويل الأحلام وبأنه صادق فيما يقول وسوء جريا ذلك على نفسيهما أو حدث ذلك بالنسبة لمسجونين آخرين . فإنهما قد تأكدا من علم يوسف بتأويل الأحلام ، وأنه صادق في تأويله فقولهما : ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ ﴾ هي سبب سؤالهما له في الرؤيا التي رأياها ، ولذلك لابد أن يسبق سؤالهما أن هناك أشياء صدرت منه ، يستأنس به من المحسنين كما يدل على أن الإحسان ظاهر في يوسف عليه السلام ، أي أنهما ليسا محتاجين لتبصير عمله ؛ لأن كل ما يعمله يوسف هو في مقام الإحسان ، فكانما المسألة واضحة كروية العين لا تحتاج إلى ذكاء أو فكر ، وكل إنسان مؤمنا كان أو كافرا ، يعرف الإحسان ويعرف السوء .

ولأن يوسف إنسان على منهج مستقيم وملتزم ، ورأى من أكبر هذه الحصلة فيه ملائمة أن هذين الشخصين عندهما بداية إيمان وإحسان ، ولذلك قرر قبل أن يعطيهم حاجتهما أن يأخذ حاجته منهما أولا .

بلاحظ هنا أن يوسف سم يتحدث عن الرؤيا التي رآها السجينان ، لقد أخذ يوجههما إلى الطريق المستقيم ، دون أن يجيبهما على ما سألاه ؛ لأنه لو أجابهما أولاً ؛ لانصرفت أذانهما عن الانتباه إلى ما يقوله ، من ترغيب في الإيمان وتنعير من الكفر ، ولكنه حين يؤخر إجابتهما عما يطلبان ، فإنهما يتنبهان إلى ما يقول ويتوقعان في كل دقيقة أنه سيجيبهما على ما طلباه ، فيصمتان باهتمام شديد فيعطيهما طريق الإيمان .

وهكذا كان يوسف حريصاً على أن يأخذ حاجته مهما ، قبل أن يجيبهما إلى طلبهما ، ويقول لهما ما يريد أولاً ، ويكون بذلك قد شعلهما بشيء أنفع لهما ، وخير مما يسألان عنه ؛ لأن هذا دكرير بالمهجع ، أما الجواب فهو جرئية صغيرة في حياتهما .

وقال لهما كما يقص علينا القرآن الكريم ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا ﴾ [يوسف ٣٧] وكأنه يقول لهما : إنه يعمد أشياء كثيرة غير التي يشاهدنها ظاهرة عليه ، ثم أراد أن يأخذهما إلى اللغة الإيمانية ، فقال : إن هذه ليست من عدى ولا خصوصية لي ؛ لأن هذه علمها لي ربي ، وربي لم يعلمها لي وحدي ، وإنما علمني وعلم عيري ، فهو يُعَلِّمُ كُلَّ مَنْ يَتَجَهَّ إِلَيْهِ ، ويشرح صدره ، وكان قول يوسف لهم : ﴿ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي مِنَ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ سَخَقُوا وَرَعَقُوبُوا ﴾ . ولقد قال لهما يوسف من قبل : ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ .

[يوسف ٣٧] إن يوسف الصديق وهو يحير صاحبي السجن بدعده من علم إنما يسهبه إلى صاحب كل علم ، العليم سبحانه ﴿ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾ .

يوسف ﷺ يريد أن يلفت السجينين إلى الطريق إلى الله تعالى ، فيقول : ما تريانه مما علمني ربي ، لأنني تركت ملة من لا يؤمنون بالله ، واتبع ملة آبائي المؤمنين الموحدين إبراهيم وإسحاق ويعقوب . وهذه تدلنا على أن الإنسان إذا رأى في إنسان آخر حصة خير ، فإن عليه أن ينمي هذه الخصلة ، ويأخذ صاحبها إلى الطريق الصحيح ، ويوسف يريد أن يلفت هذين السجينين ، بأنهما لو ابتعدا عن الكفر وعبادة الأصنام ، وأما بالله وحده ، فإن الله يفتح لهما من أبواب رحمته وعلمه .

وكان تأويل الرؤيا أن قال لهما : ﴿ يَصْنَعِي السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ حَمْراً وَأَمَّا

الْآخَرَ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ﴿٤١﴾ [يوسف ٤١] هذا هو تفسير الرؤيا التي قصها الرجلان على يوسف . أحدهما . تظهر براءته ويعود إلى القصر ، ويسقى سيده حمرا . أما الآخر : وهو خبز فتشيت عليه التهمة فيصلب ، وتأتى الطير لتأكل من رأسه . إذن فالساقى الذى اتهم بأنه سيضع السم للملك فى الشراب ، تظهر براءته ويعيده الملك إلى خدمته .

والثانى : وهو حجار القصر وكان يوى دس السم للملك فى الخبز ، تظهر إدانته فيصلب وتأكل الطير من رأسه ، وهذا معنى أنه رأى نفسه يحمل خبيرا فوق رأسه تأكل الطير منه .

وقوله تعالى . ﴿ قِصَى الْأَمْرِ الَّذِي فِيهِ تَسْتَنَبِيتَانِ ﴾ [يوسف ٤١] يعنى انتهينا وقلت لكما اجواب ومعنى تفسير الرؤيتين ، وقصى الأمر ؛ لأن القاضى ساعة يحكم ، يكون ذلك بموضوعية الحكم وليس بالهوى ، فالهوى يلون الحكم ؛ ولذلك وإن يوسف ألقى بالتحكم على ما رآه السجينان دون أن يلتفت إلى أنه يندر أحدهما بانوث ، قالها دون أى لون من التلوين حقيقة ناجة ، وقالها دون أن يلتفت للعواطف .

إن المحرف يحاول أن يجر أصدقائه إلى ما هو أكثر انحرافا مما فعل ، وكل مؤمن يذكر قصة صاحبي يوسف فى السجن . ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمَلُ فَوْقَ رَأْسِي سَحَابًا فَأَكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَأَ الَّذِي إِنَّا نرَدُّكَ مِنْ السِّجْنِ ﴾ .

إن دخول يوسف السجن لم يكن للانحراف ، ولكن رفضا للانحراف ، ومعه فى السجن قوم دخلوه ؛ لأنهم محرفون ؛ لذلك رأوا فيه الإحسان ، ولهذا قالوا له . ﴿ إِنَّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُتَحْسِنِينَ ﴾ لقد خطر لهما من سلوك يوسف الصديق الإحسان .

لقد ارتفع فعل وسلوك يوسف الصديق فى نظر المحرمين ، والقيم الرفيعة معروفة حتى عند المحرف ؛ لذلك عندما جاء أمر بهما فى ذواتهما سؤالا يوسف ، ونحن نسمع أن لصا سرق من هنا أو من هناك ، ثم جاء له أمر ليسافر إلى مكان غير مأمور ، فإنه يذهب إلى إسان يتوسم فيه الأمانة ؛ ليضع عنده ما سرقه ، ولا يذهب إلى لص مشه . إذن فالقيم هى القيم ؛ لذلك قال السجينان ليوسف . ﴿ إِنَّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُتَحْسِنِينَ ﴾ واستعمل يوسف انسألة ؛ ليدلها على المصواب وكان قوله لهما : ﴿ تَصَدِّقُنِي أَلَيْسَ فِي آيَاتِكَ مَثَرَقَاتُ حَبْرٍ أَمِ اللَّهُ الْوَّحِيدُ

أَلْفَهَارُ ﴿٣٧﴾ لقد نقلهما من حاجتهما الشخصية إلى قضية التوحيد ، وعبادة الإله الواحد .
إن يوسف الصديق يدعوهم إلى المقارنة ، بين الإيمان بالله الواحد وبين التشتت في
العبادة ﴿أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ حَيْرٌ أَرَأَيْتُمْ أَفْعَالُ الْوَاحِدِ أَلْفَهَارُ﴾ [يوسف ٣٩] إذن .. القيم هي
القيم .

ثم ينتقل يوسف ﷺ إلى نقطة أخرى ، يبرأ فيها من عبادة الأصنام التي كانت منتشرة في
ملك الأهم ، وقد كانت كل قبيلة لها صمم تعبده ، فيقول : ﴿مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ
شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف ٣٨]
لأن الله سبحانه وتعالى ليس له شريك فهو إله واحد ، وهذا من رحمة الله علينا ، فلو أن هناك
آلهة متعددة لتعبنا لأنه سيكون لكل إله أمر وبهي ، ولا نعرف من نتبع ، ولكن وحدانية الألوهية
لله سبحانه وتعالى رحمة بنا لا بد أن نشكر الله عليها ، وكون الله هدانا إلى منهجه فلا شرك
به ، فهذه منة أخرى لا بد أن نشكر الله عليها .

ويفتتا الحق سبحانه إلى أنه كيف أن قضية الإي مان بآله واحد مريحة للبعض ، تأخذها
إلى الصراط المستقيم : ﴿يَصْلَحِيهِ الْيَسْحَىٰ أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ حَيْرٌ أَرَأَيْتُمْ أَفْعَالُ الْوَاحِدِ أَلْفَهَارُ﴾
أي آلهة متعددة متفرقون في ذواتهم وفي عطائهم خير أم الله سبحانه وتعالى وحده ؟ وعندما
نطرح هذه القضية لا بد أن نتساءل هل تعدد الآلهة التي يدعوها البعض والتي سادت أيام
العراصة كانت تكراراً ؟ أي آلهة متعددة ، وكذا تشبه بعضها البعض ، في كل واحد منها إله
في ناحية ، فهذا إله البحار ، وهذا إله الأنهار ، وهذا إله الخير وهذا إله الشر ، وفي هذه الحالة
يكون الإله المختص بناحية من النواحي ، ضعيفاً في باقي النواحي التي لها آلهة أخرى !!

الله تبارك وتعالى في قصة يوسف يضرب لنا المثل ، فيقول : ﴿أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ حَيْرٌ أَرَأَيْتُمْ
أَفْعَالُ الْوَاحِدِ أَلْفَهَارُ﴾ هل خير لكم أن تعبدوا آلهة متفرقين ، أم أن تعبدوا إلهاً واحداً ، هو الله
سبحانه وتعالى ، فلو أنكم اتبعتم مهج الله ؛ لحيتم أنفسكم كثيراً من المتاعب في الدنيا
والآخرة .

ولذلك كان قول يوسف كما جاء في القرآن الكريم . ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى
النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف ٣٨] ساعة تسمع في القرآن الكريم كلمة

﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ اعلم أن الأمر الذى يدور اخديث عنه ، يستحق بمقاييس العقل السليم ، والعمارة السليمة أن تشكر الله عليه ، وأنت لا تشكر الله إلا عبي نعمة ، فلو أنك أحدثتها بمقاييسك ، فلابد أن تشكر الله على أنه بلغ رساله المهج . وأنه أمرهم أن يلعبوه لك ، فعلمت وعملت ففعلك فى الدنيا والآخرة . وهذه مسألة تستحق منك الشكر له ، أنه أرسل رسلاً وبلعت المهج .

قوله : ﴿يَصْنَعِي﴾ كلمة صاحب معاها ملازمك أو مقيم معك . و﴿يَصْنَعِي﴾ السبب الصلبة لمكان الإقامة ؛ لأن اجماع بينهم هو السجن ، والذى يجمع فى الصلبة أشياء كثيرة : صلبة سلاح للمجننين معاً ، وصلبة عمل لمن يعملون فى مكان واحد ، وصلبة حج لمن يحجون معاً ، وصلبة دراسة لمن يدرسون معاً .

إذن .. فالشيء الذى يربط بين الاثنين ويجمعهما يسمى صلبة كذا ، ويمكن أن تنسب الصلبة إلى مكان الإقامة ، أو أن تنسب إلى الطرف الذى جمع الاثنين .

وقوله : ﴿يَصْنَعِي السَّبِيحَ أَزْيَابٌ مُتَّفَرِّقُونَ حَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾

حين نجد فى القرآن سؤالاً كس على يقين أنه لا يوجد له إلا جواب واحد ، والسؤال يطرح حتى يعترف المسئول بالحقيقة . فطقاً أبواب مصروفون ليسوا خيراً من الله الواحد الأحد ، ولكن لماذا سألهم ؟ لأنهم يمدون آلهة متعددة ، ثم وجدوا أنفسهم محتاجين للعلم والمعرفة ممن يعبدونها واحداً ، فیسألهم ألا توحى لكم ألهتكم بشيء ؟ إنهم ليسوا خيراً ، ولكن الله الواحد القهار هو الخير ، يوجه هذا السؤال وهو واثق أن إجابته لا يمكن إلا أن تكون عبادة إله واحد خير وأبقى .

ولكن كيف تأمن حصصك على الجواب الذى سيقوله ؟ لا يحدث ذلك إلا إذا كنت واثقاً أنه سيدبر كل الأجوبة فى رأسه ، ولن يجد إلا جواباً واحداً هو ما تريده أنت ، كأن يأتى إنسان ويسكر معروفك عليه ، فتقول له : ألم أصنع معك كذا فى يوم كذا ؟ حينما تراجع نفسه لن يجد جواباً إلا كلمة نعم ، وهذا إقرار منه بالحقيقة . إذن لا يوجد فى القرآن الكريم سؤال إلا وله جواب واحد ، هذا الجواب هو التسليم بالحقيقة .

وقوله : ﴿مَا تَسْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ مَبْثُوثَةٌ أَسْفَرٌ وَلَبَّاءُكُمْ﴾ سميتوها أى

اتحدثتموها أنتم ، أى أنتم صنعتم هذا الكفر ؛ لأن الاسم يوضع عادة للدلالة على مسمى .
مصنع الشيء ثم نجعل له اسماً ؛ حتى إذا بطقنا بالاسم نعرف المسمى ، ولذلك عندما يولد
مولود يسمى هذا المولود فلاناً ، فإذا جاء مولود ثان سمية اسماً ثانياً ، وثالث نجعل له اسماً
ثالثاً ، ومعنى هذا أننا نضع لما هو موجود اسماً ، إذا أطلق انصرف إلى الشخص نفسه ، فإذا
قررنا أن نطلق اسماً واحداً على أشياء مختلفة ، كان لابد أن نفرق بينها بوصف ، كأن يكون
هاك أب ، يريد أن يسمى كل أولاده محمداً ، لابد أن نميز المسمى الواحد ، فنقول محمد
الكبير أو محمد الصغير ، أو محمد الأول ومحمد الثاني ومحمد الثالث حتى نستطيع أن نميز
بينهم .

فالاسم يوضع علماً على مسمى ، إذن لابد أن يوجد المسمى أولاً ، ثم نضع له الاسم ،
فإذا وضع الاسم لغير مسمى ، أو أن المسمى غير موجود ، يعتبر الإطلاق اسماً لمسمى رائف لا
وجود له .

إذن .. فهم وضعوا أسماء ولا توجد مسميات ؛ ولذلك فى الآخرة يقول الله عز وجل :
﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [٧٣ ، ٧٤] . إذن .. فلم يكن هناك آلهة على الإطلاق ، وهم أطلقوا أسماء
على غير مسميات ، وسيظهر ذلك فى يوم المشهد العظيم فى الآخرة ، وهكذا المسمى ليس له
وجود فمن أين جئتم بالاسم إلا افتراء على الله ؛ ولذلك يقول : ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا
أَسْمَاءُ مَتَّبِعُوهَا أَنْتُمْ وَإِنَّا تُؤَكِّدُهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ شَطَلِينِ﴾ أى : أن يكون كمر تقليد
للآباء ، وهو له : ﴿مَا أَرْكَى اللَّهُ بِهَا مِنْ شَطَلِينِ﴾ أى : إن الله تعالى لم يطلب منكم ذلك وليس
لكم حجة .

ثم يقول : ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ . أى لا حكم فى هذا الكون
إلا لله ، وما يبلغه الرسل من أحكام يلعونها عن الله .

والله سبحانه وتعالى وحده له الحكم وله الأمر فى كونه ، وأمره سبحانه وتعالى هو : ﴿أَلَّا
تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ أى لا تطيعوا فى أمر أو تنتهوا عن شىء إلا بإذن من الله ، والله تبارك وتعالى
أمر أن تعبدوه وحده ، ومعنى العبادة هى طاعة مخلوق لخالق أن يفعل وألا يفعل ، فإذا فعلتم
ذلك كنتم على ﴿الَّذِينَ أَلَقِيمُ﴾ أى : الذين يستقيم ، أى الذين الحق : ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ

لَا يَقْلُوبُونَ . لا يريدون أن يعلموا . لا يسمعون لرسول الله ، ويلغون في القرآن ، ويشوشون عليه ، ويؤذون المؤمنين أو لأنهم رفضوا العلم ، رفضوا استقبال رسالة السماء بقلوب صافية ؛ حتى تهدى قلوبهم . هؤلاء أبغوا ولكنهم كذبوا ، وصموا آذانهم وغطوا إلى شهراتهم . ويقول الله تعالى : ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ و ﴿ ظَنَّ ﴾ أى رجح عنده أنه هو الذى سيسقى الملك خمرا ؛ لأن ﴿ ظَنَّ ﴾ لا تعنى اليقين ، ولكنها تعنى الترجيح ، و «الذكر» هو حضور شيء بالبال ، يعنى فضيه مر عليها وقت ثم تذكرها فجأة . فالإنسان له استقبالات للأحداث ، هذه الاستقبالات لا تبقى مـى بؤرة الشعور ؛ لأن الدهن لا يشغل إلا بشيء واحد ، فإذا شغل بشيء لا يستقبل شيئا آخر ، ولكن الشيء يرحل مـى بؤرة الشعور إلى حاشية الشعور ؛ ليستقبل أحداثا أخرى .

فكل خاطر يستقبله دهك يبعد عن بؤرة الشعور ؛ ليأتى خاطر آخر ، ثم يحدث حادث ، يجعله يعود مـى حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور ؛ لتذكره وكأنه يحدث أمامك الآن . إذن نقول يوسف ﴿ اذْكُرْنِي ﴾ أى حرك ما حدث لى إلى بؤرة شعور الملك ؛ حتى يعرف أننى مظلوم . وقد قال العلماء عن هذه الجملة : إنها جعلت يوسف يبقى فى السجن بضع سنين ؛ لأن الأنبياء عملهم مع الله تعالى مباشرة لا بواسطة الخلق ، وما دام يوسف مستقبلا عن الله سبحانه وتعالى ، فلا بد أن يتجه إلى الله مباشرة ، ولا يطلب الوساطة مـى بشر ؛ ولذلك حينما قال ذلك ، ماذا حدث ؟ : ﴿ فَأَمْسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ وسين ذكر الله فيه شيء مـى العقوبة وشيء مـى التأديب ، قوله تعالى : ﴿ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ البضع من ثلاثة إلى عشرة ، وقد حدها العلماء بأنها سبع سنين

رؤيا الملك وتاويلها

نعمنا ربنا عز وجل كيف يُجرى لأحداث ؛ لتتم أقداره دون أن يشعر أحد ، الله تبارك وتعالى أراد أن يعطى يوسف الحكم ، وأن يكون عزيز مصر ، ماذا حدث ؟ الذى حدث أن الملك رأى مـى منامه رؤيا أفزعته فجمع الملك حاشيته وقص عليهم منامه الذى رآه فماذا قال ؟ قال : ﴿ إِنِّي أَرَىٰ مَنبَعَ بَقَرَتَيْنِ سَحَابٍ يَأْكُلُهُنَّ مَنبَعٌ عَجَافٌ وَمَنبَعٌ شُبُلَاتٍ خَضِرٍ وَأُخْرَىٰ يَأْكُسَتْ بِحَائِطِهَا أَمْلَأُ أَمْوَالِي فِي رُبُوعِي إِنْ كُنْتُ لِلرَّؤْيَا تَعْبُرُوكَ ﴾ [يوسف ٤٣] .

رأى انك هذه الرؤيا فزع وقال : ﴿يَكُنَّيَا أَلْعَلَّ أَفْتُونٍ فِي دُعَانِي إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف ٤٣]

هنا الكلام عن مصر ، والذي اشترى يوسف هو عزيز مصر ، والقصة وقعت في مصر ، ولكن هناك عزيز وهناك ملك مع أن الدين كانوا يحكمون مصر كانوا يسمونهم الفراعنة ، فكيف حدث هذا ؟ وأي ذهب فرعون ؟

عندما تتبعنا التاريخ واكتشفنا حجر رشيد ، وعرفنا تاريخ مصر القديم وعرفنا لغة قدماء المصريين ، وعلمنا أن هناك فترة من الفترات توقف فيها حكم الفراعنة ، وجاء الرعاة الذين يسمونهم الهكسوس وحكموا مصر وكان يوسف وإخوته في وقت حكم هؤلاء الرعاة ، ثم استعاد الفراعنة حكم مصر وطردوا الهكسوس ، وجاءوا بمن تحالفوا معهم فقتلهم وعلبهم ، وفي الفترة التي عاشها يوسف لم تكن مصر تحت حكم الفراعنة ، وإنما كان الهكسوس يحكمون ، وكان هناك ملك هو الذي يحكم ، والعزيز مثل الوزير أو رئيس الوزراء ، وهذا من إعجاز التنبؤ في القرآن الكريم ؛ لأن هذه الحقيقة لم يعرفها العالم إلا حديثاً في فترة الاحتلال الفرنسي لمصر ، ولكن القرآن ذكرها منذ أربعة عشر قرناً ، قبل أن يقوم أحد بالعثور على حجر رشيد أو فك رموزه وجاءت الحقيقة العلمية ، تأكيداً لإعجاز التنبؤات في القرآن الكريم .

ملك مصر عندما رأى هذه الرؤيا طلب تأويلها أي . معاها ، وطلب الفتوى وقال : ﴿أَفْتُونِي﴾ . الرؤيا ملامية تتعارض مع الفكر السليم ، فالبقر الهزيل يأكل البقر السمين .

﴿سَبَّحَ بُرْقَانِي سَحَابٍ يَأْكُلُهُمْ سَبَّحٌ عَجَافٌ﴾ [يوسف ٤٣] سحاب يعنى : سمية ، وعجاف . يعنى هزيلة ، طلب الملك أن يفسروا له رؤياه ماذا قال وجهاء قومه ؟ ﴿قَالُوا أَصَبَحْتَ أَخَذْتَهُ﴾ [يوسف ٤٤] والصبح هو حرمة حشائش مختلفة الأجاس ، ومادامت ﴿أَصَبَحْتَ أَخَذْتَهُ﴾ أى مختلفة مع بعضها البعض فليست لها تأويل ، قال تعالى : ﴿قَالُوا أَصَبَحْتَ أَخَذْتَهُ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَلْحَامِ بِعَالَمِينَ﴾ [يوسف ٤٤] إن الملك حينما رأى رؤياه عرضها على مستشاريه ، فلم يستطيعوا أن يفسروها ، وقالوا : ﴿أَصَبَحْتَ أَخَذْتَهُ﴾ وقالوا لا علم لنا بالتأويل ، وذلك هو صدق الاستشارة ؛ لأن الذي يعنى جهله بأمرها ، ويطلب سؤال غيره يكون أميناً في رده ، ولذلك قال العلماء : من قال لا أدري فقد أسمى ؛ لأنه حين يقول : لا

أخرى سيضطرك إلى أن تسأل غيره ؛ حتى تصل إلى الحقيقة ؛ كانوا أمتاء وقالوا لا نعرف شيئا ، من الذى سمع هذا الحور ؟ إنه الساقى الذى نجا فندكر ما حدث فى السجى وما قاله يوسف .

وأيضاً فقد قال البعض من أهل تفسير الرؤى أن قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَصْنَعْتَ آسَنِينَ وَمَا تَصْنَعُ يَا أَيُّهَا الْإِسْطِيفَانِيَّةُ ﴾ يعنى أنه يوجد اضطراب فى القلوب . فمن الذى رأى الرؤيا ؟ إنه الملك . إذن فلا ضرورة للرأى أن يكون مؤمناً ولا صاحباً . قد يقول قائل : كيف يطلعه الله على مثل هذه المسائل ؟ نقول : قد تكون الرؤيا إكراماً للرأى ، وقد تكون الرؤيا إكراماً للمعبر الذى يعرف التأويل ؛ وهى ها إكرام للمعبر وهو يوسف ﷺ .

قول الحق جل جلاله : ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِمَّا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ [يوسف ٤٥] إذن .. فالساقى الذى قال له يوسف : إنك ستسقى الملك حمراً ، سمع وهو يسقى الملك عن الرؤيا التى رآها الملك ، ورأى حيرة القوم ، وتذكر بعد فترة قصته مع يوسف ، وقال : إنسى أعرف من يستكم بتفسيره . قال : ﴿ فَأَرْسِلُونِ ﴾ يعنى : ابغثنى إلى من سيروى لنا معنى هذا احتم وأرسنوه ، وأسرع إلى يوسف ، فمادا قال له ؟

قال كما يفص عنها القرآن : ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ ﴾ [يوسف ٤٦] وهما يلاحظ أن القرآن الكريم يتجاوز الأحداث ، التى يحكم العقل بحدوثها ، فلم يقل الحق سبحانه إن الساقى بعد أن قال لهم . أرسلونى إلى السجى لأسأل يوسف ، تداولوا ثم وافقوا على إرساله ، وأذن له وذهب والتقى يوسف وقص عليه القصة ، فجاءت المراجعة قوله تعالى ﴿ فَأَرْسِلُونِ ﴾ وبعدها مباشرة : ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ يَمْشَانِ بِأُكُلِهِنَّ سَبْعَ عِمَافٍ وَسَبْعَ شُعْبَاطٍ حُمْصٍ وَأَحْرَ يَكْسِبُنَّ لِقَاحِي أَرْجَعُ إِلَى الْكَائِنِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف ٤٦] . قوله يوسف أيها الصديق ، تدل على أنه جريه فى مسائل متعددة ، وكان فيها صادقاً ، وأنه صادق فى كل أقواله ، فكأن الصديق يلزم يوسف فى أقوله وأفعاله . أما فى الأقوال ؛ لأنه يقول كلاماً له واقع ، ولا يقوون كلاماً لا واقع له ، إذن هناك لكل قول قضية كلامية ، وهى التى تنطق بها ، وقضية واقعية وهى فى الحقيقة أو فى الواقع خارج النفس . والكذب أن تقول كلاماً ليس له واقع ؛ لأن حركات الإنسان فى الحياة إما قول وإما فعل .

جاء الساقى إلى يوسف من عند الملك ، فعادا قال له ؟ قال : ﴿يُؤَسِّفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ أى أننا نريد أن نعرف تفسير هذا الحلم ؛ كى ينقله إلى الملك ؛ لأنه نرجع . والفتوى المطلوبة هى ماذا ؟ ﴿فِي مَنَاجِيقَ نَفْسِكَ بِمَا كُنْتُمْ سَعَى عَمَلِكُمْ﴾ أى أن البقر الهزيل يأكل السمين ، وهذا ضد طبيعة الأشياء ؛ لأن المفروض أن البقر السمين القوى هو الذى يمتلك بالبقر الضعيف الهزيل . ثم ماذا ؟ : ﴿وَمَسَّحَ سُبُلَتِي حُضْرِي وَأَمَرَ بِإِسْكَتِي﴾

الحق سبحانه يرون أن الساقى جاء يطلب هذه الفتوى يس لنفسه ، ولكن لمن أرسلوه ، وهو الملك وحاشيته ؛ ليخبره بتفسير يوسف ؛ لذلك يقول كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿لَقَدْ أَرْجَعْنَا إِلَى الْآلِئِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ .

ماذا قال : ﴿لَقَدْ أَرْجَعْنَا﴾ ولم يقل لأرجع ؟ لأن الساقى وفد أثر فيه ما أبلغه يوسف فى السجى بعدم أن الأمور ليست بيده ، وهو ليس متيقنا أنه سيعود إلى الملك ، فقد يأتى قضاء الله ولا يصل بالفتوى إلى الملك وحاشيته ؛ ولذلك لم يقل لأرجع ولكن قال ﴿لَقَدْ أَرْجَعْنَا﴾ ؛ لأن رجوعه قضية لا يجزم بها ، وذلك إيمان منه بقدر الله تعالى مع الإنسان ، رجوعه ليس فى يده ؛ لذلك الاحتياط مع قدر الله يخرجك من أن تكون كادبا .

إذن .. فاستعمال كلمة : ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ . احتياط آخر فى الأدب ، ويقول ﴿لَقَدْ أَرْجَعْنَا﴾ ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ، يعلمون ماذا ؟ يعلمون القضية ، أو يسمون التأويل ، أو يعلمون مرحلة يوسف عند ربه وقدراته ؛ ليخلصوه من السجن الذى وضع فيه ظلما ، أو يعلمون علم يوسف وفضله

قوله : ﴿أَرْجَعْنَا إِلَى الْآلِئِ﴾ نحن نعرف أن الملك هو الذى كلفه ، وأن إحاشية قد احتضت فيما بينها فى إرساله ، وقال بعضهم : لا ترسلوه ، وقال بعضهم أرسلوه ، ولكنه قال ﴿لَقَدْ أَرْجَعْنَا إِلَى الْآلِئِ﴾ . أى أنه سبها لكن ، لأنه ساعة يعود لن يستمع إليه الذين وافقوا على إرساله فقط ، ولكن سيستمع إليه من قالوا : أرسلوه . ومن قالوا : لا أرسلوه .

يوسف الطاهر أبغى مندوب الملك تفسير الرؤيا ، فعادا قال له ؟ : ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابَّا قَدْ حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [يوسف ٤٧ ، ٤٨] .

يوسف الطاهر أفهم الساقى أنهم سيزرعون سبع سنين ، يواصلون خلالها الزراعة ، وهنا

معنى كلمة: ﴿دَابَّ﴾. أى لا يوجد كسل، وتناج هذا الزرع اتركوه فى سببه، أى لا تنصرفوا فيه بالتجارة، ولا بالمبادلة ولا بأى شىء آخر، الزرع الذى تحصدونه فى هذه السوات السبع، حذوا منه بقدر حاجتكم إلى الطعام، على أن يكون ذلك أقل ما يمكن، لقد علمتنا هذه الآية الكريمة حقيقة اهتدى إليها العلم أخيراً بالبحوث المختلفة هى: أن الشىء إذا ترك أو تم تخريبه فى وعائه من القشر الخارجى، فذلك يحفظه من السوس.

إذن موسى أخبرهم بأن يتركوا القمح، الذى سيرعونه خلال هذه السوات السبع فى علاقه الخارجى حتى يقبض من السوس والآفات. إذ ليس المطلوب فقط الزرع بجهد واجتهاد السنين السبع القادمة، ولكن المطلوب أن يتركوه أيضاً فى مسابله أى علاقه الخارجى. بل إن بعض العلماء يقولون: إن المطلوب هو أن يترك القمح فى عيذاته كلها، وليس فى السابل أو العلاف الخارجى، وذلك لكى يأكل الناس ما فى السابل، وتأكل الحيوانات عيذان القمح. ومادام الحيوانات ستأكل العيذان، يكون بذلك قد وفرنا الغذاء فى فترة الجذب، للإنسان والحيوان وليس للإنسان وحده، كما أننا عندما نطحن القمح بقشره نخرج منه الردة (الحالة)، والردة الخشنة غذاء أيضاً للحيوان، كما أننا حين «ندرس» القمح كى ندرسه نفصل الحبة عن قشرتها. إذن فهناك علاقان خبة القمح: العلاف الأول: هو القشر الذى نظيره عندما ندرسه، والقشرة الثانية: تخرج عند طحن القمح.

وقوله ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سَبَلِكُمْ﴾ إشارة إلى القشرة المحفوظة للقمح فهى حافظة وداعية لى كيموية الغذاء، فالناس الذين كانوا مترفين، يطحنون القمح ويتخلصون من القشرة؛ ليحصلوا على الدقيق الأبيض، الذى لا يوجد داخله شىء من الردة، هذه القشرة التى يتخلص منها بعض الناس؛ ليحصلوا على الدقيق الأبيض الصافى، هى التى امن بها الله جل جلاله على خلقه فى قوله. ﴿وَلَقَدْ ذُو الْقَرْيَةِ الْبَيْضِ وَالرَّيْحَانُ﴾ [الرحمن ١٢] أى ذو القشرة التى وجد أنها تحتوى على كمية كبيرة من المواد اللازمة للجسم.

ثم ماذا بعد ذلك؟ ﴿ثُمَّ بَآئِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعَ شِدَادٍ فَإِذَا هُمْ مِنْهَا قَدْ أَتَمَّتْهُمْ لَهْمًا إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْتَسِبُونَ﴾ [يوسف ٤٨] قوله تعالى: ﴿فَمَا قَدْ أَتَمَّتْهُمْ لَهْمًا﴾. أى ما حفظتموه فى سوات الرجاء، تأتى السوات السبع الشداد وتأكله، وهما سبب الحدث للزمن فقال: ﴿بَآئِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعَ

يُنَادُّ يَا كُنَّ ﴿٨١﴾ هل السنوات السبع الشداد هي التي سأكل ، أم الدين يعيشون في هذه المنطقة خلال السنوات الشداد هم الذين سيأكلون ؟ والحدث يحتاج إلى زمان ومكان ، هنا نسب للزمان ؛ لأنه هو الذي نسبت إليه الأحداث مرة رخاء ومرة شدة ، وينسب الحق تبارك وتعالى الحدث للمكان في قوله تعالى : ﴿ وَشَلَّ الْقَرْيَةَ الْيَمْنَى كُنَّا فِيهَا وَالْعِمْرُ الْقِيَّ أَقْبَلًا فِيهَا وَبَنَّا لَصَدِيقُونَ ﴾ [يوسف : ٨٢] . هل سنسأل القرية أم نسأل أهل القرية ؟ وهل سنسأل عبر القافلة أم سنسأل أصحاب القافلة ؟ إذن فقد يسبب الحدث إلى المكان أو الزمان ، إذا كان للزمان والمكان خصوصية في الحدث ؛ ولذلك نسب الأكل للسبع الشداد .

وقوله : ﴿ مَا قَدَّمْتُمْ لَنَا ﴾ أى من العرق والعمل في المحاصيل التي أتت بها سنوات الرخاء . قوله : ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَحْنُ نَحْصُونَ ﴾ كلمة حصن معاها الامتناع . يقولون : بنوا حصنا ليعتموا فيه إذا هاجمهم أعداؤهم ، بحيث يتمتع على أعدائهم النصر وتمتع عليهم الهزيمة ، وقرأ قوله سبحانه : ﴿ وَالْمُحَصَّنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ [النساء : ٢٤] أى : الممتنعات عن الفجور ، ويقول جل جلاله : ﴿ وَاللَّيْلِ أَخَصَصْتَ فَرَجَها ﴾ . أى : امتنعت عن التفريط في عرضها ، كل هذا معناه الامتناع ، ومعنى ذلك : أنكم بعد انتهاء السبع الشداد ، ستحتاجون إلى تقاوى ؛ ولذلك فلا تأكلوا القمح كله ، لابد أن تبقىوا ما ستستعملونه كتقاوى بعد انتهاء سنوات الجذب ؛ ولذلك امتنعوا عن أكل التقاوى ، واحفظوها جيذا فلا يصل إليها أحد ؛ لأنكم إن أكلتموها يكون القمح قد نفذ ، فلا تجدوا ما تزرعونه .

يقول سبحانه وتعالى : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ سَيِّدِكَ حَامٌ فِيهِ يَأْتُونَ النَّاسَ وَيُفِيهِ يَصْعِقُونَ ﴾ [يوسف : ٤٩] هذا خارج عن الرؤيا ؛ لأن الرؤيا : ﴿ مَسَّحَ بَقَرَاتٍ سِيَّانٍ يَأْكُلْنَ سَبْعَ عَشْرَ عَشْرًا وَصَبَّحَ سُبْحَانِي خُفْرٍ وَأَحْرَ يَأْكُلْنَ ﴾ انتهت الرؤيا عند السنة السابعة من السنوات الشداد .

كلمة : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي ﴾ هذه نبوءة من يوسف ﴿ فِيهِ يَأْتُونَ النَّاسَ ﴾ أى يعانون معاناة شديدة ؛ والغيث ينزل بيقظ الناس من الجذب ، يغاث الناس أى لا يحصنون إلا على قوتهم الضروري ، ﴿ يَصْعِقُونَ ﴾ أنت لا تعصر شيئا إلا إذا احتجبت إلى كل قطرة منه ، فإن كان عندك تمر مثلاً أكلت منه ، ثم قلت اعملوا جرة عجوة وجزءا آخر جفمونه ، فهذا دليل على أن عندك فائضا ،

ولكن إذا جئت لهذا التمر ، وأخذت منه ثمرة ثمرة ، وقلت حافظوا عليه فكأنك لا تأكل منه الكثير ولذلك تأخذ قشرة قشرة كأنك تعصره .

الملك يطلب لقاء يوسف

يقول الحق جل جلاله . ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي يَوْسُفَ ﴾ [يوسف : ٥٠] . لم يقل : إن الساقى رجع إلى الملك ، وروى له ولخاشيته ماذا قال له يوسف ، ثم تناولوا وقرر الملك أن يرسل في طلب يوسف ؛ لأن هذا مفهوم بالسياق ، ونحن نلاحظ أن هذه سمة مميزة للقرآن الكريم ، فهو يترك الأشياء التي يتوصل إليها للعقل ؛ لتجتهد العقول فيها

القرآن تميز ذلك كله ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي يَوْسُفَ فَمَا جَاءَهُ الرَّسُولُ ﴾ [يوسف : ٥٠] فلما جاءه الرسول ، معنى هذا أن يوسف كان مارا باقيا في السجن ، حتى بعد أن أسر رؤيا الملك ، ولذلك عاد الساقى إلى السجن مرة أخرى ، ليلعب يوسف أن الملك يريد أن يراه ، فقال يوسف كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿ أَسْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَنَّهُ مَا بَالُ الْيَسُوفَ الَّذِي قَطَعَ أَيَّتُهَا إِنِّي رَبِّي يَكْبِذُ عَنِّي حَقِيمٌ ﴾ [يوسف : ٥٠] وهكذا رفض يوسف التفتيح ، أن يخرج من السجن الذي هو فيه ، إلا إذا برئت ساحته براءة يعرفها أهل المدينة جميعا بما فيهم الملك ، وطلب يوسف أن يسأل الملك السوء ، كيف راودن يوسف عن نفسه ، وهكذا تعطيا قصة يوسف العبرة التي تحدثنا في قضايا الحياة لبراءة الساحة أمر مهم بالسبب لكل إنسان ، ومادام برائنا فلا بد أن تعلن براءته ويعرفها الجميع ، لم يرد يوسف أن يخرج من السجن وتلاحقه الإشاعات الكاذبة رغم أن الله سبحانه وتعالى يعلم براءته ، لكنه أراد أن يعرفها الناس جميعا ؛ لأنه رسول ، والرسول قدوة سلوكية ، ولكي يؤدي رسالته ويتبعه الناس ، لابد أن يكون قدوة سلوكية لا تشوبها شائبة .

قول الحق سبحانه وتعالى . ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي يَوْسُفَ ﴾ معناه أنه سيفقره إليه ، ولكن رغم هذا فإن يوسف رفض أن يترك السجن ، لا بعد أن يبرأ علنا ، ومن الملك وأمام الناس جميعا ؛ ولذلك ثروى عن رسول الله ﷺ ما معناه : رحم الله أخى يوسف ، فقد كان كريما حريصا جاءه الرجل يسأله عن تفسير الرؤيا ، كان من الممكن أن يقول بفسرها ، إلا إذا أخرجتموسى من السجن ، وكان كريما حريصا قال الملك أنتوني به ، وذهب إليه من يأخذه ، فقال لن انتقل إلا

إذا نظرت حكاية النسوة ، وكان كرمًا حبيما ستر على امرأة العرير ، وقال ﴿مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي نَقَطْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ .

قال الملك : ﴿مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَوَدْتُمْ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْتُمْ حَسْبُ لِلَّهِ مَا عَلِمْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ [يوسف ٥١] الملك جمع نسوة المدينة ، وخاطبهن وواجههن بأنهن راودن يوسف عن نفسه ، المرادة بالاتهام هي امرأة العزيز ، ولكن الملك بآء على ما قاله يوسف ، جمع كل النسوة وقال لهن : ما خطبكن ؟ والخطب حدث ولكنه حدث هام يتناقله الناس ؛ الملك حبيما خاطب النسوة ، اعتبر أن مراودتهن يوسف عن نفسه عمية خطيرة ، تدل على انعدام القيم ، ولما رأى النسوة هذه الهجة الشديدة من الملك ، أسرعن يبعين التهمة عن أنفسهن ، فقلن : ﴿حَسْبُ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ . نلاحظ هنا أنهن يتحدثن عن مسألة مراودتهن يوسف ، أى برأى يوسف ولم يرثن أنفسهن : ﴿حَسْبُ لِلَّهِ﴾ تبريها ليوسف من أن يفعل ما يغضب الله ، وقلن ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ . يعنى يوسف كريم الخلق لا يفعل سوءا أبداً ، بالنسبة لهؤلاء النسوة أو غيرهن ، وكانت امرأة العرير جالسة مع هؤلاء النسوة ، فقد أتى بها الملك معهن ، ولم يشر إليها القرآن الكريم إلا عندما تكلمت وقالت : ﴿أَلْقَى خَصَخَصَ الْحَيِّ أَنَا رَوَدْتُهُمْ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُمْ لَمِنَ الْكَافِرِينَ * ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْنُ بِالْغَيْبِ﴾ [يوسف ٥١ ، ٥٢] .

امرأة العرير وقعت وقالت إنه لم يعد هناك مجال للستر ، أنا راودته فعلاً وهو صادق ، مما يدل على أن الجدوة الإيمانية في الإنسان تتوهج ، وأنه قد يسى الله ، ولكن عندما ينتهى الخاطر السيئ ، يعود إلى تواربه الكمالى ، وربما جعل من الزلة الأولى ، وسيلة الإحسان فيما ليس له فيه صعب . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِفَاتِ﴾ [هود ١١٤] . ولو أن الإنسان عمل سيئة ، فقد يصاعف من حسنة حتى يعمر الله له هذه السيئة ، ولدت على الإنسان أن يكثر من عمل الخير ، يمحو الله سيئاته التى سترها عن الناس

قول امرأة العزيز : ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْنُ بِالْغَيْبِ﴾ [يوسف ٥٢] يعنى حتى يعلم يوسف أنى فى عيته دافعت عنه ، وقلت الحق وقوله تعالى ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ﴾ [يوسف ٥٢] معناه أن الجريمة لا تفيد ، ولا بد أن يعرف الناس الحقيقة ولو بعد حين .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿وَمَا أَتَيْنِي نَبِيٌّ إِلَّا الْفَسَ لَأَمَارَةٌ بِالنَّشْءِ إِلَّا مَا رَجَعْنَا رَبِّي﴾

[يوسف ٥٤]. يعنى أنا لا أريد أن أهرئ نفسى كدباً؛ لأن النفس على إطلاقها تأمر بالسوء ولكن يوسف نفس؛ ولذلك قال القراء الكريم: ﴿إِلَّا مَا رَجَمَ رَبِّيَّ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ومعنى غفور: أى للذنوب، ورحيم يجمع الإنسان بعد ذلك من الوقوع فى الدب؛ لأن الإنسان محتاج إلى ما يشفيه من المرض وإلى ما يعطيه مائة؛ حتى لا يعود إليه المرض مرة أخرى، ولذلك يقول المولى جل جلاله: ﴿وَنُرِيكَ مِنْ الْفَرَاءَيْنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَرِيهِ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء ٨٢] أى أنك عندما تؤمن بمنهج الله يشفيك مما أنت فيه يشفيك من الداء، ثم يعطيك المائة فلا يعود لك المرض أبداً.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنَرَىٰ نَفْسِي﴾ من تمام قولها أم لا؟ بعض العلماء قالوا: إنه من قول يوسف عليه السلام، عندما أبلغ أن امرأة العزيز قالت كذا وكذا قال يوسف: أما لا أهرئ نفسى إلى النفس لأمانة بالسوء؛ لأن هناك أحياناً يأتي غرور الإيمان فى النفس، فيحاول الرسول أن يندكر أنه بشر لا تعصمه إلا رحمة الله، ومن لطف الله سبحانه أنه قال: ﴿لَأَمْرَةٌ يَأْتِيهَا﴾ ولم يقل: امرأة بالسوء، «أمر» يعنى تأمر بالسوء مرة أما «أمر» معناه أن عاداتها هى السوء لماذا؟ لأن التكليف الإلهية كلها إما أمر أو نهى، لأوامر تكون صعبة على النفس أن تفعلها والنواهي عزيز على النفس أن تتركها، العاقل ينظر إلى الغاية البعيدة الباقية، كيوم القيامة ولا ينظر إلى اللذة العابرة.

تمكين الله عز وجل ليوسف عليه السلام

يقول الحق تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِيَنِي بِهِ أَمْ لَمْ تَلْهَمْهُ لِنَفْسٍ﴾ [يوسف ٥٤] فكأن الملك قال أنتوبى به مرتين، مرة حين رفض يوسف الخروج من السجن إلا بعد أن تثبت براءته، والمرة الثانية عندما ظهرت براءة يوسف فذهب إلى الملك ولما التفتا قال له الملك: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدِينَا مَكِينٌ أَيْبُنْ﴾. أقاله الملك بمجرد وصول يوسف إلى القصر؟ لا، لابد أنه جنس وتحدث معه ووثق من علمه، ووثق من أمانته وحفظه؛ ولذلك يقول الحق: ﴿فَلَمَّا كَلَمْتُمْ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدِينَا مَكِينٌ أَيْبُنْ﴾ [يوسف ٥٤] دليل على أن الملك احتبر يوسف مرة، وربما مررت ووثق فى علمه وأمانته.

إذن . ما السبب فى أن الملك مكن يوسف من الحكم واستأمنه على أشياء كثيرة؟

السبب . أنه حفيظ وعليم ، أى أنه حافظ على أعف عريرة في الإنسان ، وهى غريزة الجنس ، وحافظ عليها وهو في عفوان شبابه ، فكأنه ليس مدققاً ، بل هو قوى يستطيع أن يكبح أعف الفرائز ، وكذلك فإن يوسف عليم ؛ لأنه الوحيد الذى استطاع أن يفسر للملك رؤياه ، وهذا يقتضى علماً ، كما أن الملك حين كلمه اكتشف فيه رجاحة العقل ، والقدرة على الفكر السليم . وكل الصفات المطلوبة في عرير مصر ؛ ولذلك فإن الملك قال سأستحلصه لنفسى ، أى سأجعله مقرباً منى ، فلما كلمه راكتسبت عنده الصورة الطيبة ، قال له ﴿ إِنِّي أَنَا نَبِيٌّ لِّكَ ﴾ .

إذن .. يوسف الطيب أصبح من أهل الثقة ، لماذا ؟ لأنه حاز ثقة الحاكم ، وفي نفس الوقت كان يجب على الحاكم أن يتأكد من صلته بالمشكوكين ، في أن يكون أميناً معهم ، لا يحبى أحداً على حساب أحد ، وهذا ما راد يوسف الطيب كفاءة في وظيفته . لذا يتحتم على أهل الحكم ألا يفصلوا أهل الثقة ، على أهل الخبرة الذين يعرفون الشيء معرفة دقيقة . حينما سمع يوسف هذا الكلام وعرف أنه حاز ثقة الملك ، قال لو طلبت منه الآن شيئاً ، لأعطانيه وأنا سأطلب ما يمتع بتفسير الرؤيا ، سأطلب أن أكون على خزائن الأرض ؛ لأنفذ الناس من المجاعة ، وأحفظ لهم حياتهم ، فقال كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ﴾ . وكان هذا الطلب تأكيداً لثقة يوسف في أن رؤياه ستتحقق في سبع سنين رخاء ، وسبع سنين جفاف ، وأنها محتاجة لحكمة وإدارة ، في مبنى الخصب تصمن ألا يحدث إسراف في الاستهلاك وفي سنوات الشدة تصمن أن كل محتاج إنساناً كان أو حيواناً ، كل كائن حي سيجد طعامه ، وهذه تحتاج إلى علم يعطيك حكمة التصرف ، وأمانة تعطيك العدل بين الناس ، وخبرة تضع كل شيء في موضعه تماماً ؛ لذلك طلب يوسف الطيب أن يكون على خزائن الأرض ؛ لأنه حفيظ وعليم .

يوسف الطيب طلب الولاية ، وطالب الولاية في الإسلام لا يولى ، ولكن الظروف التى أدت إلى تولي يوسف ، لم تكن ظروفًا عادية بل كانت ظروفًا استثنائية ؛ ولذلك هي هذه الظروف ، لا بد لمن له الحكمة أو الخبرة ، أن يعرض نفسه ويطلب أن يتولى الأمر .

وقوله : ﴿ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ﴾ أى اجعلنى أتولى الاقتصاد ، وقوله : ﴿ إِنِّي حَفِيزٌ عَلَيْهِ ﴾ أى حدى من الحصول ما يتطلبه العمل .

يقول الحق سبحانه وتعالى ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف ٥٦] مكناً ليوسف كيف ؟ بأن الله تعالى علمه تأويل الأحاديث ، ثم جعل الملك يرى رؤيا تزعجه ، ثم يفسرها إلا يوسف ، ومكة بأمانته وحسن خلقه ، ومكنه بأن أبطل كيد إخوته الذين تأمرؤا عليه ، وألقوه في الحب ليبياع عبداً ، ليس هذا فقط ، بل إن يوسف ابتلى من كل من أحبه ، فابتلى من عمته التي تحبه فاتهمته بالسرقة كيدا ، لتبقى عليه معها ، وابتلى بسبب حب أبيه له ، فأحده إخوته وألقوه في الحب .

وابتلى بحب امرأة العزيز فدخل السجن ، وحكاية عمته أنها كانت تحبه جداً وربته وهو صغير بعد أن ماتت أمه ، وأراد أبوه أن يأخذه معها ، ولكنها لم تكن تصبر على فراقه ، ففكرت كيف تبقى يوسف عندها ، وكان هناك حرام يتحرم به إبراهيم ، اسمه منطقة إبراهيم ، والحرام كان عند عمه يوسف ، وكان المبدأ أن من يسرق شيئا يعاقب بأن يصبح عبداً لمن سرقه .
عمة يوسف عليه السلام ألبسته منطقة إبراهيم تحت ثوبه ، وعندما جاءوا ليأخذوه قالت إنه سرق .

قال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف ٥٦] كلمة ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ تدل على سعة مساحة الأرض ، التي سكر منها يوسف ، ومعنى ذلك أن المشكلة كبيرة ؛ لأنه عندما يأتي جذب ويشمل منطقة كبيرة ، فإن العبء يكون ثقيلاً ؛ لكثرة عدد الذين يطلبون الطعام ، ولذلك كانت القوافل تأتي من الشام وغيرها ، من الدول المجاورة لمصر ؛ لتحصل على القمح ، مما يدل على أن الجذب كان عاثماً وشمل المنطقة كلها

وقوله تعالى ﴿يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ . أى يسكن فى أى بقعة شاء ، وفى أى منطقة يريد ، وهذا يؤكد أن يوسف عليه السلام ، كان يتمتع بحب الناس ، وأنه فى نفس الوقت كان يتنقل من بقعة إلى أخرى ؛ حتى تنال كل البقاع قدرًا مساوياً من الاهتمام .

والحاكم حين يقيم فى منطقة ، تلقى اهتمام الدولة لمرافقها وطرقاتها ، كما أن هذا يدل على أن كل الأرض المحيطة كانت تخضع لإدارته ، وأنه يكون يومًا ما ويومًا هناك ، وليس هذا نرفاً ولكنه نوع من التكليف ، فوجود يوسف فى أى منطقة ، سيجعل الناس تنشط من أجله ويستعيد بذلك المحيطون .

الله سبحانه وتعالى بعد أن أعلمنا أن يوسف عليه السلام مُكر له في لأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، أراد أن يلقنا إلى أن ذلك رحمة للناس ؛ لأنه في كل منطقة سيذهب إليها ، سيرف المشاكل على حقيقتها أو على الطبيعة ويحلها فإذا كانت هناك منطقة محرومة من المياه ، أنشأ فيها خرابات للمياه ، وإذا كان لا يأتيها طعام أمر بها بالطعام ، هذا بالنسبة لأمر الدنيا ، وبالنسبة لجزاء الآخرة قال سبحانه : ﴿وَلَا تُصِغُ آخِرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ والمحسن هو الذي يؤدي فوق ما طلب منه ، وأجر المحسنين في الدنيا لا يصعب ، وفي الآخر لا يضيع أيضًا ، ولكنه سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَلَا تَخْشَى الْآخِرَةَ خَيْرٌ﴾ [يوسف ٥٧] والخير يقابله الشر ، فهل أجر المحسنين في الدنيا شر ؟ نقول لا ، كلمة خير تستعمل استعمالين : استعمال أن شيئاً خير من شيء ، واستعمال أن كلا الشيئين خير يقول رسول الله ﷺ : «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ومضى كل خير» .

إذن فالمؤمن الضعيف كونه عبد الله أقل درجة من المؤمن القوى ، لا يعنى أنه شر وبكر هو خير ؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ : «ومضى كل خير» فالمؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف ، هذه اسمها أفعال التفضيل .

أما الخير الذى يقابله شر فاقراً قوله سبحانه وتعالى : ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزوجة : ٨] .

وقوله تعالى ﴿تُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا تُصِغُ آخِرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يعدل ميزان حركة الحياة ؛ لأن ميزان حركة الحياة لا يستقيم بالحديث عن الآخر فقط ؛ لأن الكافر الذى لا يؤمن بالآخرة ، وينكرها يملأ الدنيا ظلمًا وعدوانًا ؛ لأنه يعتقد أنه ليس هناك آخرة . ولذلك لا بد أن ينتقم الله من الظالم في الدنيا ؛ ليكون عبرة لغيره ، وفي نفس الوقت يعطى للذى يحسن في الدنيا حسنة ، ويقول له : إن أجرك في الآخرة سيكون خيرًا من أجرك في الدنيا .. لماذا ؟ لأن خير الدنيا إما أن تموته أو يفوتك ، ولكن أجر الآخرة أبدى ودائم ولذلك فهو خير

لقاء يوسف عليه السلام بإخوته

نعود إلى حوة يوسف ، منذ أن ألقوه في الحب لم يعرف ماذا فعلوا ، يقول الحق سبحانه وتعالى . ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُكْرَرُونَ﴾ [يوسف ٥٨] لقد

جاء إخوة يوسف ، وهم عصبة يتحركون مع بعضهم ، جاءوا في طلب القوت ؛ لأنها مجاعة ولا يوجد طعام إلا في خزائن يوسف ، ولا يصرف للناس إلا بأمر منه ، يوسف عرفهم ؛ لأنهم لم يتعبروا ، ولكنهم لم يعرفوه لماذا ؟ لأنه كان صغيراً وأصبح رجلاً ولأنه كان على خزائن الأرض ، فكانت هذه تعطيه هبة ، أما إخوته فقد كانوا كباراً فلم تتغير ملامحهم ولكنه تغير ؛ لأنه أصبح عربي مصر ، يعيش في قصر محاط بأشياء كثيرة لا تمكنهم من معرفته ، مضافاً إلى ذلك أنهم كانوا مكروين ، فلم يدققوا فيه ، فقد جاءوا لطلب الطعام ، وكان هذا كل همهم ؛ ليحفظوا حياتهم وحياة أهلهم ، كما أنهم لم يتوقعوا أن يكون يوسف هو العزيز .

والحق سبحانه وتعالى يخبرنا بعد ذلك لماذا جاء إخوة يوسف ؟ فيقول ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالِ اتَّخُذِي بَأْسَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ ﴾ [يوسف ٥٩] وهكذا أسلوب القرآن الكريم ، لا يذكر الخطوات التي يمكن للعقل أن يصل إليها بالبديهة ؛ ولذلك لم يقل لنا : إهمم جاءوا لطلب الطعام ، وقالوا له : إنا نحتاج إلى طعام ، وأن عدداً كذا ، وأنه أمر بإعطائهم ما يريدون ، وإنما قال : ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالِ اتَّخُذِي بَأْسَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ ﴾ والباقي يمكن أن يستنتجه العقل بسهولة .

وهذه لقطة تعطينا ما كان فيه إخوة يوسف من اضطراب عقلي ؛ لأنهم كانوا يريدون الحصول على طعام ، ولم يكن تفكيرهم إلا في هذا الطعام .

ذلك أن يوسف قال لهم : ﴿ اتَّخُذِي بَأْسَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ ﴾ وكان العقل يقتضي أن يقولوا : من الذي أحلمه أن لنا أخاً من أيها ؟ لم يتجهوا إلى هذا ؛ لأن المجاعة والحصول على الطعام كان هو الهم الأكبر لجميع الناس . قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ ﴾ الجهار هو ما جاءوا من أجله ؛ ليقبلوه من مكان إلى مكان أي القمح ، وهو الأمر الذي جاءوا ليحصلوا عليه .

قول يوسف عليه السلام : ﴿ آلا تَرَوْكَ آتِيَّ أَوْيَ الْكَيْلِ ﴾ لأن كل واحد جاء على بعير ، والبعير موضوع عليه الشمس ، يحمل القمح ويترك الأثمان ، سواء كانت على هيئة أقمشة أو غير ذلك ﴿ آلا تَرَوْكَ آتِيَّ أَوْيَ الْكَيْلِ ﴾ أي أعطيتكم حقكم في الكيل وريادة ، ولو جئتم بأخيكم من أيكم ، فسأريد الكيل لكم ؛ ولذلك قالوا وهم يسامون أباهم على أخذ أخيه . قالوا :

﴿وَنَزَدَا كَيْلَ بَيْمِثَ﴾ يوسف يحاول أن يعرفهم حتى يأتوا بأخيه وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا حَبْرَ الْمُرْلَيْنِ﴾ المنزل في ظاهر الأمر عكس المعنى ، ولكن هما معصاه الذي ينزل المكان ، ويكون المكان معداً له إعداداً فيه كل متطلبات الحياة ؛ ولذلك يسمون العنادق بالنزل .

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا حَبْرَ الْمُرْلَيْنِ﴾ إخبار يؤكد أن إخوة يوسف هم الذين نزلوا عنده ، وأن الله سبحانه وتعالى قد جعلهم يأتون ويهرلون عنده ؛ ليقول لهم أحضروا إليّ أحاكم من أيكم ، ثم يتبع ذلك بقوله: ﴿يَا نَزْدَا تَأْتُونِي بِهٖ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ [يوسف : ٦٠] . الوقت وقت سحابة وجذب وقحط ، ومثل هذا الإنذار يجعلهم يحاولون أن يأتوا بأخيهم بأي طريقة ؛ لأن يوسف لو نفذ تهديده ، ومنع عنهم الكيل فسيواجهون الموت جوعاً . يوسف ﷺ قال لهم : إن لم تأتوني بأخيكم من أيكم ، فلا يرحل لكم كيل عدى ، ولا تقرّبوا هذه الناحية أبداً ؛ لتحصلوا على طعام .

اسئلة بالنسبة للإخوة ليست سهلة ، فهو يخبرهم بأن يأتوا بأخيهم ، أو لا يأخذوا الكيل . وهم يعرفون أن أباهم لن يثق فيهم ، بعدما فعلوه بيوسف ، حتى يسلمهم أخاه الصغير ؛ لذلك قالوا كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿قَالُوا سَتَرُوْهُ عَنْ آبَائِهِ وَإِنَّ لَهُمْ لَكَيْلًا﴾ [يوسف : ٦١] كلمة ﴿سَتَرُوْهُ﴾ أى مستفاهم مع أبيه ؛ لأن هذه مسألة صعبة ، والمرادة أحد ورد ، أنت تقول وهو يرد عليك ، ثم ترد عليه . وقوله تعالى ﴿وَأِنَّا لَفَعْلُونَ﴾ يعنى سذهب وبحصره معاً .

ماذا فعل يوسف ؟ ﴿وَقَالَ لِيُفِيكِهِمْ أَجْعَلُوا يَضْنَغَهُمْ فِي يَوْمِئِذٍ لَّمْ لَهُمْ يَمْرُؤُهُمْ إِذَا انْفَكَّرُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَمَّا هُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يوسف : ٦٢] البضاعة هى ما جاعوا به ثمناً للقمح ، يوسف قال لرجالهم . أعطوهم القمح ، وأعيدوا إليهم الأثمان التى أتوا بها وضموها فى رحالهم بحيث لا يرونها ، إلا إذا عادوا إلى دار أبيهم ، ولماذا يضع البضاعة ؟ لعلهم يرجعون ؟ أى لعينهم يعودون مرة أخرى ؛ ليردوا ثمن ما أخذوه . ماذا فعل إخوة يوسف حينما عادوا إلى أبيهم ؟ . الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مِيعَ مِنَّا الْكَفِيلُ﴾ [يوسف : ٦٣] ميع منا الكيل : أى أنهم لم يلاحظوا أن يوسف قد جهزهم بالقمح الذى أرادوه ،

أو منع ما الكيل : أى فى المستقبل بعد هذه المرة ؛ لأن العزيز قال لنا إن لم تحضروا أحاكم ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَئُونِ﴾ .

قوله تعالى ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَيْهَتِهِمُ قَالُوا يَتَابَعَنَا مَعِيَ مِمَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَنَانًا نَّحْكُمَ لَنَا لَمْ نَحْفَظْهُنَّ أَمْ لَا أَرَدْنَا أَنْ نَأْتِيَ لَكَ بِالْقَمْحِ ، فَالْكَيْلَ لَنَا مَمْنُونٌ إِلَّا إِذَا أَحَدُنَا آخَنَانًا مَعًا .﴾ ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَنَانًا نَّحْكُمَ لَنَا لَمْ نَحْفَظْهُنَّ﴾ أى أن إخوة يوسف قالوا ليعقوب عليه السلام : سيع ما الكيل ، ولن نأخذ كَيْلاً إلا إذا كان معنا أخونا ، ولا تحش شيئاً فإننا سنحفظه ، ولن يحدث له أذى ، ورد الأب الملتاع بعقد ابنه ، كما يقص عبدا القرآن الكريم قائلاً . ﴿هَلْ أَمْسَكْتُمْ عَلَيْهِ إِلَّا مَكَمًّا أَمْسَكْتُمْ عَنْ أَحِبِّهِ مِنْ قَبْلِ قَالَهُ حَيْرٌ حَوِطًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ قول يعقوب : ﴿قَالَهُ حَيْرٌ حَوِطًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ دليل على أنه وافق على أن يذهب أخو يوسف معهم ، بعد أن أحس إخوة يوسف أن أباهم سيرسل معهم ابنه الصغير ، نزلوا وبدعوا يملكون ما فوق الإبل ، فوجدوا القمح ووجدوا بضاعتهم ، التي أخذوها معهم ثمك للقمح ردت إليه ، حينئذ قالوا ﴿يَكُنَّا بَنَاءَ مَا مَنَعْنَاهُ﴾ [يوسف ٦٥] أى لا نريد أن نأخذ أخانا ، بضاعتنا موجودة والقمح موجود .

وكل ما سزاده إذا ذهباً ، هو حمل بعير ، وهو البعير الذى سيركب عليه أخو يوسف ، وهذا كَيْل لا يساوى الإرعاج ، بل هو كَيْل يسير ، ولكن يعقوب يعلم أنه بعد فترة ، سينتهى القمح الذى أحضره ، فلا يد لهم من الذهاب ، وهو فى نفس الوقت شيخ كبير ، ولا يستطيع أن يصحبهم فى الرحلة ، فجعاً إلى الله سبحانه ونماني ، وقال : ﴿لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتِيَ بِكُمْ يَوْمَ لَا لَنْ يَخَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف : ٦٦] أى لن أرسله معكم ، حتى تخلعوا لى بالله إنه لن يحدث له شيء ، وسيعود معكم . ثم جاء الاحتياط من يعقوب ، أى أن تحدث ظروف خارجة عن إرادتكم ، فى هذه الحالة فقط يكون ما حدث قدر ، لا يد لكم فيه ويعقوب الرسول المؤمن راض بفدر الله ، مهما يكن ولو كان فيه صياح أولاده جميعاً ، وقبل أولاد يعقوب الاحتكام إلى الله ، وفعلوا أخذ منهم العهد والميثاق ، وأشهد الله عليهم كما يقص علينا القرآن الكريم . ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف ٦٦] وهكذا أشهدوا الله على ما فى قلوبهم ، واحتكموا جميعاً إلى الله سبحانه .

جاء موعد الرحلة والسفر إلى مصر ، ويحان الأبوة وقع يعقوب يودع أبناءه ، ويوزودهم بصالحه ، قال يعقوب : ﴿ يَسَقِّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَكِيدٍ وَأَدْخُلُوا مِنْ أَيْوَابٍ مُتَمَرِّقَةً ﴾ [يوسف ٦٧] قال يعقوب هذا الكلام ؛ لأنه شهد خفاوة يوسف بإخوته ، رغم أنه لم يعلم السبب ، ولا أن هذه البضاعة من عند يوسف ^(عليه السلام) ، ولا أن يوسف هو عزيز مصر ، ولكنه أحس أن أولاده أصبح لهم شأن وهم أعراب ، وهم حين يذهبون لإحصار القمح ، يغادرون قريتهم إلى قرية عربية فد يكيد لهم الناس حين يعلمون أن معهم كميات كبيرة من الطعام . وأولاد يعقوب كانوا أحد عشر بانضمام بنيامين لهم ، وربما خشي عليهم أبوهم من الحسد كما بين الحق سبحانه وتعالى أن هناك حاجة في نفس يعقوب قصاها .

فكان يعقوب يحشى على أولاده من الحسد ، وهو يستعيد بالله من ذلك ، مما يدل على أن البشر لا يقى نفسه من الحسد ، إلا بالاستعادة بالله سبحانه وتعالى .

قال يعقوب ^(عليه السلام) لأولاده : ﴿ وَقَالَ يَسَقِّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَكِيدٍ وَأَدْخُلُوا مِنْ أَيْوَابٍ مُتَمَرِّقَةً وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا إِلَهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [يوسف ٦٧] يعقوب أراد أن يقى أولاده شر الحسد ، فقال لهم . لا تدخلوا من باب واحد ، وادخلوا من أبواب متفرقة ؛ حتى لا يحسدكم الناس على كثرة عددكم وعنى قوتكم

وقال : إن تعرفكم لي يغني عنكم من الله من شيء ، فالحكم كنه لله قضاء وقدرًا ، وأطاع أبناء يعقوب أمر أبيهم ، ودخلوا من أبواب متفرقة .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَلَجَةً فِي نَفْسٍ يَعْقُوبُ فَصَبَّهَا ﴾ [يوسف ٦٨] أى أنهم حينما أطاعوا أمر يعقوب ، لم يكن ذلك ليسجيم ، أو يمنع عنهم قدرًا من أقدار الله ، فالأمر كله لله ، ولكن خاطرًا ورد على نفس يعقوب ففضاه ، وهو أنه يخاف أن يحسدوهم ، أو أن يتشككوا بهم ، أو أى خاطر آخر .

لذلك يقول الحق تعالى عن يعقوب : ﴿ وَإِنَّهُ لَكُلُّهُ عَلِيمٌ لِّمَا عَلَّمْتَهُ ﴾ أى . أنه لم يقل لأولاده ، ادخلوا من أبواب متفرقة من مراع ، ولكن كان عن علم علمه الله له ، علم خاص

يعقوب: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. أى: أن أكثر الناس يعزلون الأسباب عن المسبب، ويعتقدون أن الأسباب تعمل بذاتها وهذا ما يتعب الدنيا.

اللَّهُ ۖ يَحْقِيقُ لِيُوسُفَ الظِّلَّةَ الْأَمَلِ الَّذِي تَمَنَاهُ بِأَنْ يَكُونَ شَقِيقَهُ مَعَهُ

وستقل إلى مشهد آخر من مشاهد قصة يوسف عليه السلام، حين وصل إخوة يوسف إليه، ورأى يوسف عليه السلام أحاه، أحبه وضمه إليه وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ مَا وَفَى إِلَيْهِ أَحَدَهُ﴾ [يوسف ٦٩] وكان يوسف متشوقاً إلى أخيه، الذى لم يره منذ سنوات طويلة، وقد كان شقيقه من أب واحد وأم واحدة، وأراد يوسف أن يطعم أحاه؛ لأنه لم يكن يدري شيئاً عن قصة يوسف والبئر؛ لأنه كان صغيراً. ﴿قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَهِشْ يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: لا تحزن فأنا أخوك يوسف، وقوله تعالى ﴿يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ دليل على أنهم كانوا يعاملونه معاملة مهيبة؛ حقذا منهم كب حقدا على يوسف لحب أبيه له.

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَلَمَّا جَهَرَهُمْ بِجَهَارِهِمْ جَعَلَ السَّقِيَّةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَتْهَا آلُيَرُ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ [يوسف ٧٠] أى أنه أعطاهم ما يريدونه من القمح والطعام، وكل ما طلبوه وجعل السقاية في رحل أخيه، والسقاية تطلق لإطلاقات متعددة: سقاية الماء مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَرَهُمْ بِجَهَارِهِمْ جَعَلَ السَّقِيَّةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَتْهَا آلُيَرُ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ [يوسف ٧٠].

إذن .. فالسقاية هي انكاس الدى يوضع فيه الماء؛ ليشرب منه الناس، والسقاية هي الإناء الذى يملأ بالماء؛ ويعطى للناس ليشرب، وما داموا قد وضعوها فى المكان الذى يوضع فيه ما يحصله البحر هي إناء يشرب منه الملك مثل الكأس، وأحياناً يجمعونه مكيالاً وهو من العادة يكون ميسراً.

ويقولون: السقاية هي الصواع أو الصاع، فهي تطلق على المكان الذى يوجد فيه الماء، وعلى الآلة التى يرفع بها من المكان إلى فم الشارب. ﴿وَجَعَلَ﴾ هنا لا تعنى أنه قام بنفسه بهذا، بل أمر القائمين بالكيل أن يجعلوا السقاية في رحل أخيه.

ثم بعد ذلك جاء رجل من الحاضرين، وقال بصوت عالٍ: إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ. أى اتهمهم

بالسرقة ، وهذا اتهام خطير شد انتباههم ، لقد كانوا جالسين متفرقين أو بعيدين عن الإبل التي تحمل القمح ، فلما سمعوا ذلك المادى ، تبهوا وأقبلوا يسألونه : ما الذى صاع ؟ الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ (٧١) قَالُوا فَقَدْ ضَوَّاعُ الْمَلِكِ ﴿ [يوسف : ٧١ ، ٧٢] .

إذن .. فصواع الملك هو الذى وصعوه فى راحته أخى يوسف ، ولقد وضع صواع الملك ؛ لتكون جريمة كبرى فى حق الملك ، ولابد لها من عقاب ، ولا تنفع فيها الشفاعة .

ثم قال الذى كلف بإعلان نيا السرقة ﴿ وَلَيْسَ بَاءَ يَوْمَ حِثْلُ بَيْبَرٍ وَأَنَا يَوْمَ رَعِيمٌ ﴾ أى أن الذى سيأتينا بهذا الصواع لن نعاقبه ، بل سعطيه حمل بعير ريادة .

والسرقة اتهام قبيح ، ولذلك أسرع إخوة يوسف يقسمون بالله إنهم لم يسرقوا شيئا . وقالوا : ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ أى أنهم أقسموا أنهم ما جاءوا ليفسدوا فى الأرض ، وأنهم أساء لا يسرقون ؛ لأنهم من الأسباط ، ولا تمتد أيديهم إلى السرقة .

أراد يوسف أن يأخذ أحده بحيلة لا يتبهون إلى أنها مدبرة ، أو أنه هو يوسف ؛ لذلك أمر رجاله فقالوا : ﴿ فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ [يوسف : ٧٤] وهذا هو القصد الذى أراد يوسف أن يصل إليه ، هو أن يترك إخوته يحددون العقوبة على أخيهم ، ويكون الحكم برضاهم ولا يمكن أن يتراجعوا فيه ، وهنا قال إخوة يوسف : ﴿ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾ وهذه هى القصصة ، لقد صدر الحكم من إخوة يوسف ، وبرضاهم ولا يستطيعون التراجع فيه ، ويوسف أمر رجاله أن يضعوا صواع الملك فى رحل أخيه ؛ ليأخذوه ويغيبوه عنه ، وقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ كَذَلِكَ كُذِّبَ لِيُؤْثَفَ ﴾ ولم يقل : كدنا يوسف ؛ لأن الكيد لم يقع على يوسف ، وإنما كان له ولم يكن عليه .

ماذا فعل يوسف بعد ذلك ؟ أمر رجاله أن يبدعوا أولا بأمتعة إخوته ، والإبل التى جاءوا بها ، وأن يتركوا البعير الخاص بأخيه من أمه آخر ما يفتشونه ، فيقول الحق سبحانه ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِينَتِهِ قُبُلَ وَعَاوِ أَخِيهِ ﴾ لأنه لو بدأ بوعاء أخيه أولا ؛ لانكشفت الحيلة ، ولكنه بدأ بأوعيتهم أولا ، وآخر ما فتشوا كان وعاء أخيه .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿كَذَلِكَ كَذَبَ الْيُوسُفُ مَا كَانَ لِأَخِيهِ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ تَرْفَعُ دَرَجَتِي مِمَّنْ نَّشَاءُ وَتَقُولُ كَلِمَاتٍ﴾ [يوسف ٢٧٦] أى أن الله سبحانه وتعالى حقق ليوسف الأمل ، الذى تمناه فى أن يكون شقيقه معه ، وأعطاه من العلم ما جعله يتصر على أشقائه ، أى علمه سبحانه الكيد لصالحه ، وما كان له أن يأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله . وقوله تعالى : ﴿تَرْفَعُ دَرَجَتِي مِمَّنْ نَّشَاءُ﴾ تدلنا على أن اتهام شقيق يوسف بالسرقة ، لم يكن لكى يعذب فى الآخرة ، ويقام عليه الحد فى الدنيا فهو فى الحقيقة برىء لم يسرق ولكن كان هذا لرفع درجته فى الدنيا والآخرة ، حيث سيعيش مع أخيه عزيز مصر عيشة رعدة ، بعد أن كان إخوانه يحقدون عليه ، ويجعلون حياته مليئة بالمصائب ، وهى نفس الوقت سيكون مع نبي الله يوسف ، فيزداد علواً فى الآخرة بتطبيقه منهج الله الصحيح ، فكأن الله سبحانه وتعالى حيسا كاد ليوسف بالاتهام بالسرقة الذى وجه إلى أخيه ، كان ذلك فى رفع الدرجات ، الله سبحانه وتعالى يمتنا هنا ، إلى ألا تأخذ أقداره بمظهرها فقط ، بل نعرف أن لها حكمة ، وكثير من المصائب التى تحدث للناس ، قد لا يعرفون أنها قد تؤدي بهم إلى خير كثير ، ولذلك فإن كل أقدار الله التى تحدث للإنسان ، من غير رأى أو اختيار منه ، لابد أن يتقبلها ؛ لأن لله فيها مسحة وعلو درجة ؛ ولذلك يقول الحق جل جلاله . ﴿وَتَقُولُ كَلِمَاتٍ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ﴾ . دى علم يعنى صاحب علم ، ولكن فوفه عليم .

إخوة يوسف اعتقدوا حين جاء الاتهام بفقد صواع الملك ، أو الإيذاء الذى يشرب فيه ، اعتقدوا أن فى هذا شراً لأخى يوسف ، هذا هو مبيع علمهم ، ولكن العليم الذى دبر ونفذ وأحكم ، كان يعلم أن هذا رفع للدرجات لأخى يوسف . فمادام فعل الإخوة ؟ لقد كانوا يكرهون يوسف وأخاه ، ويقولون : ﴿يُيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْسَا مِمَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [يوسف ٨] . إذن .. فعندهم كره له ولأخيه ؛ لأنهما ابنا امرأة أخرى هى راحيل ، ولذلك بمجرد أن اتهم ، لم يظفروا ما إذ كان هذا الاتهام صادقا أم كاذبا ، وإنما بدعوا بها جمونه ، ويقولون ما نزل علينا البلاء إلا منك ومن أخيك ، أى منه ومن يوسف ، وأسرعوا يظهرين حقدهم وأن الوقت والسنوات الطويلة لم تعبر ما فى قلوبهم تجاه يوسف ، فقالوا كما بقص علينا القرآن الكريم : ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوْسُفُ وَيَقْسِيهِ﴾ فأظهروا بذلك الحقد الذى يملأ قلوبهم .

وقوله تعالى : ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ﴾ فهذه قضية شرطية ، أى إن حدث يحدث بشرط أن يحدث قبله حدث آخر ، تقول لايتك . إن تذاكر دروسك حينئذ تنجح ، إذن فهناك حدثان . حدث الذاكرة وحدث الحاجة ، فكان حدوث النجاح يشترط له أن تكون مذاكراً ، والذي يأتى أولاً هو الشرط ، فما دام هناك حدث فهناك شرط لوجوده قبل أن يحدث . قوله تعالى : ﴿إِنْ يَسْرِقْ﴾ هذا هو الشرط يأتى أولاً ، ولكن الآية الكريمة تقول ﴿وَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ وكان المعروض : إن يسرق الآن يحدث كذا وكذا ، ولكن الآية جاءت بأمر غير مطلقى فى الشرط .

الحق سبحانه وتعالى يريد أن يفتنا إلى أن إخوة يوسف قالوا له : إن يسرق فلا تتعجب يا عزيز مصر ! لماذا ؟ لأن هذه حصلة فى أولاد راحيل ، لقد سرق أخوه الأكبر من قبل ، وهكذا اتهموا يوسف وأظهروا حقدهم عليه ، وهم لا يدرون أنه هو العزيز الذى يحاطبونه ، حين يسمع يوسف هذا الكلام لابد أن نحرج الملكات عن استقامتها ، لأن اتهام إنسان برىء بالسرقة ، لابد أن يحتره ويؤلمه ، ولذلك لابد أن يحدث انفعال مصاد : هذا الانفعال إما أن يبقى داخل النفس فلا يخرج ، وإما أن يظهر فيحدث رد فعل عفيف .

وكان يوسف عليه السلام يستطيع أن يرى نفسه وأخاه من تهمة السرقة كان يستطيع أن يقول لهم : أنا لم أسرق وأخى لم يسرق ، وأنتم الذين يملأ الحقد قلوبكم علينا ، ولكنه لو فعل ذلك لكشف عن شخصيته ، وهو يريد أن يبقى مجهولاً لديهم ، فهو يرى من السرقة وأخوه برىء ، ولكنه لا يستطيع أن يتكلم ، وقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَأَسْرَحَ يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبَيِّنْ لَهُمْ﴾ إذن .. فهذا الاتهام أثار فى نفس يوسف انفعالات ولكنه كتمها داخل نفسه . ورسوب الله ﷻ يقول ما معناه : إذا غضب أحدكم فليعبر وصبره فإن كان واقعاً يقعد وإذا كان جالساً يقوم ويمشى ، وذلك حتى لا يحدث منه انفعالات صمد من أعضبه ، يوسف قال فى نفسه كما يفصح علينا القرآن الكريم : ﴿أَنْتُمْ سَرَّ مَكَانًا﴾ لماذا ؟ .. لأنهم جاءوا بقصة كاذبة ، بأن يوسف أكله الدئب ، كما أنهم يؤكّدون اتهاماً باطلاً بأن يوسف سرق . يوسف لم يأكله الدئب ولم يسرق ، ولكن أنتم الذين سرقتم ، سرقتم طمعاً من أبيه هو يوسف عليه السلام .

الحق تبارك وتعالى يقول : ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَحَهُمَا﴾

يُوسُفَ فِي تَقْيِيدِهِ، وَلَمْ يَتْرَكْهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَعَكِنَا ﴿٧٦﴾ هَذَا لَا يَدُ أَنْ يَفْهَمُوا أَنَّ يَوْسُفَ الظَّالِمِينَ لَمْ يَقُلْ قَوْلًا سَمِعَهُ إِخْوَتُهُ، بَلْ هُوَ قَالَهَا فِي نَفْسِهِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ قَالَهَا عَلَنًا وَبَطْنًا بِهَا لَكَشَفَ عَنْ نَفْسِهِ وَهُوَ مَا لَا يَرِيدُهُ، وَلَا تَتَعَجَّبْ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَقُولُ لِنَفْسِهِ، وَاقْرَأْ قَوْلَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ﴾ [المجادلة ٨] إِنْ هُمْ قَالُوا فِي أَنْفُسِهِمْ، كَمَا قَالَ يَوْسُفَ: ﴿قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَعَكِنَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾. كَلِمَةُ ﴿تَصِفُونَ﴾ أَيْ بِمَعْنَى تَبْعَتُونَ أَوْ تَبْدُونَ مِنَ الصِّفَاتِ، أَيْ أَنَّهَا تَطْلُقُ عَلَى الْكَذِبِ، وَاقْرَأْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكُذْبَ هَذَا حَلَلٌ وَمَنْذَرٌ حَرَامٌ﴾ [النحل ١١٦] وَيَقُولُ سُبْحَانَهُ ﴿وَحَرِّقُوا لَهُ بَيْنَ وَتَكُنْ يَمِينُ عِلْوٍ مُسَبَّحَةً، وَتَكُنْ لِي عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأسماء ١٠٠] إِنْ .. وَ﴿تَصِفُونَ﴾ إِذَا جَاءَتْ تَلَفُّتَكَ إِلَى أَنَّ الْإِنْدَى يَقَالُ كَذِبٌ، فَكَأَنَّ يَوْسُفَ يَقُولُ: اللَّهُ يَعْلَمُ بِكُمْ لِكَاذِبُونَ.

إِخْوَةُ يَوْسُفَ حِينَ أَحْسَسُوا أَنَّ أَحَاهُمْ سَيُؤْخَذُ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُمْ سَيَعُودُونَ إِلَى أَبِيهِمْ مِنْ غَيْرِهِ، تَذَكَّرُوا وَعَدَّهُمْ لِأَبِيهِمْ، فَجَدُّوا يَسْتَعْطِفُونَ يَوْسُفَ، الَّذِي لَمْ يَعْرِفُوا شَخْصِيَّتَهُ الْحَقِيقِيَّةَ؛ لَكِنِّي يَطْلُقُ سِرَاحَ أَخِيهِ. قَالُوا كَمَا يَقْصُ عَلِيَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: ﴿قَالُوا يَا أَبَتَانَا الْفَرِيرُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْعًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَعَكِنَا إِنََّّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُتَحْسِبِينَ﴾ [يوسف ٧٨] إِنْ هُمْ قَدْ حَاطُوا أَنْ يَسْتَحْدِمُوا الصَّعْفَ؛ لِيَرَفَ يَوْسُفَ لَهُمْ وَيَتْرَكَ أَحَاهُمْ، قَالُوا: إِنْ لَهُمْ أَبًا عَظِيمًا فِي قَوْمِهِ وَهُوَ شَيْخٌ كَبِيرٌ، وَإِذَا بَلَغَهُ أَنَّ ابْنَهُ قَدْ سَرَقَ، فَهَذِهِ نَهْرُهُ مِنْ دَاخِلِ نَفْسِهِ، وَتَهَرَّهُ فِي شَرَفِهِ بَيْنَ قَوْمِهِ، تَمَانًا كَمَا يُتَّبَعُ الْإِنْسَانُ فِي جَرِيمَةٍ، وَتَقُولُ أَتَرَكَوهُ؛ لِأَنَّ أَبَوَيْهِ صَالِحَانِ كَرِيمَانِ فَلَا تَفْصَحُوهمَا وَسِوَاهُ كَانُوا يَقْصِدُونَ شَيْخًا كَبِيرًا، كَبِيرٌ فِي مَقَامِهِ بَيْنَ قَوْمِهِ أَوْ كَبِيرٌ فِي سَهْوِهِ بِحَيْثُ لَا يَتَحَمَّلُ الصَّدْمَةَ.

ثُمَّ انْطَلَقُوا بَعْدَ ذَلِكَ يَعْصُونَ أَنْفُسَهُمْ بِدَلَالَةٍ، فَقَالُوا كَمَا يَقْصُ عَلِيَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: ﴿تَخَذَ أَحَدُنَا مَعَكِنَا إِنََّّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُتَحْسِبِينَ﴾ أَيْ أَنَّهُ إِذَا كَانَ لَا يَدُ أَنْ تَأْخُذَ وَاحِدًا بِجَرِيمَةٍ السَّرْقَةِ الَّتِي حَدَّثَتْ، فَخُذَ أَحَدًا مَكَانَهُ وَاتْرَكَهُ يَعُودُ إِلَى أَبِيهِ. وَهَذَا يَوْسُفَ الظَّالِمِينَ كَمَا يَقْصُ عَلِيَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ تَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعًا عِنْدَهُ إِنَّنَا إِذَا لَطَلَمُونَ﴾ [يوسف ٧٩] أَيْ أَنَّ يَوْسُفَ رَفِضَ أَنْ يَأْخُذَ أَحَدَهُمْ، وَقَالَ: لَا أُرِيدُ إِلَّا الْحَقَّ، وَلَوْ أَحْذَتْ إِنْسَانًا بِدَسِّ إِنْسَانٍ آخَرَ أَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ.

حيث علموا أنه لن يجدى النقاش ولا الرجاء مع يوسف، بل إنهم ظلوا ياقشونه حتى بلغوا مرتبة اليأس، أى قطع الأمل من الشيء تمامًا، كما يقول الأطباء: الصب يقر من علاج هذا المريض، أى: لا أمل فى علاجه.

الحق تبارك وتعالى يقول: ﴿فَلَمَّا أَسْتَيْسُوا مِنْهُ خَلَصُوا بِحَيٍّ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ [يوسف ٨٠] عندما أحس الإخوة أنه لا فائدة من الجدل مع يوسف، فبأن يعطيهم أحاسن حصصوا ليجاء، أى أنهم ابتعدوا عن العزيز ومن حوله، وجلسوا فى مكان خالص لهم، وحالض معناه لا يوجد شيء غريب، تمامًا كما تضع الذهب فى البونقة كى تحالض معاها. لا يوجد شيء غريب، تمامًا كما تضع الذهب فى البونقة كى تخلصه من المعادن الأخرى؛ ليصبح ذهبًا صافيًا لا يحتلط به شيء. إخوة يوسف ابتعدوا إلى مكان خالص لهم، لا يشاركه فيه أحد، ولا يسميهم أحد، وجلسوا يتشاورون، على أن يلاحظ أن كلمة: ﴿فَلَمَّا أَسْتَيْسُوا مِنْهُ خَلَصُوا﴾ جمع، و﴿بِحَيٍّ﴾ مفرد وهذه من ضمن الأشياء التى يشرها بعض المستشرقين للتشكيك فى القرآن الكريم، يقول لهم: تفهموا البعة العربية؛ فهناك ألفاظ يتساوى فيها المفرد والجمع، واقرأ قول الحق سبحانه: ﴿إِنْ نُبْنِ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمْ وَإِنْ تَطَهَّرْنَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَانَا وَجِبْرِيلُ وَمِيخَائِيلُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحریم ٤] لم يقل الله سبحانه وتعالى والملائكة ظهراء. وقوله جل جلاله: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ ٥٥ أنشد وأبائكم الأفلحون ٧٧ ﴿وَيَنْتَهَى صَوْتُكَ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء ٧٥-٧٧] ولم يقل: أعداء لماذا؟.. لأن كلمة «عَلَوْ» معاها أنهم جميعًا مشتركون فى العداوة يجمعهم هدف واحد. ساعة يسوا من يوسف ذهبوا إلى مكان ليتاجوا فيه، وعادة فى مثل هذه الحالات يكون الرأى الأول للكبير منهم؛ لأنه أرجحهم عقلًا وأكثرهم حكمة، إذن فهم عندما ذهبوا إلى المكان، ليتاجوا كان لابد أن يبدأ الكبير بالحديث.

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَلَمَّا أَسْتَيْسُوا مِنْهُ خَلَصُوا بِحَيٍّ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ أى أنه إذا أردتم أن تتاجوا، فلا بد أن تكون المناجاة فى إطار أنكم عاهدتم بموثق من الله، أن حكاية يوسف لن تتكرر، وأنكم ستعودون إلى أبيكم، ومعكم أخوكم شقيق يوسف من الأب والأم، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ

قِيلَ مَا مَرَّطُهُ فِي يُوسُفَ ﴿١٨٠﴾ لَأَنْكُمْ وَعَدْتُمْ أَبَاكُمْ أَنْ مَا حَدَّثَ مَعَ يَوْسُفَ لَنْ يَتَكَرَّرَ .

ثم قال كبيرهم وهو أكبر الإخوة سا ﴿فَلَنْ أُنْزَلَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْتِيَ إِلَى أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ سَيُّدُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يوسف ١٨٠] إذن فكبيرهم أوضح خطته ووضع ثلاثة شروط :

أولها : أنه سيبقى في المكان الذي فيه أخوه ، حتى يأذن له أبوه أن يعود ، ولن يتحرك من هذا المكان إلا إذا اقتنع أبوه ببراءته . أما الشرط الثاني : أن يحكم الله له ، أي يحكم بأن يسلموه أخاه ، فيأخذه معه ويذهب . الشرط الثالث : فإذا لم يحدث هذا ، فسيبقى في هذه الأرض حتى يموت ، والله هو خير الحاكمين .

لأنهم إذا كان لهم يد وتدير فيما حدث مع يوسف ، فليس لهم يد وتدير فيما حدث مع أخيه ، ولأن هذا الأخ هو الكبير ، وهو المسئول عن إخوته ، فلم يقدر أن يتحمل مسؤولية إبلاغ أبيه بما حدث ؛ لأن هذه صدمة كبيرة على الأب الذي فقد يوسف ، ثم فقد أخاه الأصغر بنيامين ، ولم يفكر هذا الكبير أنه لو بقي في هذا المكان فسيقتل أبوه الابن الثالث ، ثم أصغر أومره إلى أخوته : ﴿أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَيْكُمُ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّكَ ابْنُكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا نَلْمَسُ بِحَبِطِينَ﴾ [يوسف ١٨١] ، فكأنه طلب من إخوته أن يعودوا إلى أبيهم ، ويقولوا له القصة بحقائقها ، يقولون : إن ابنك سرق وهم لم يقولوها جزافاً ؛ لأنهم قالوا ما علموا : ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا﴾ أي أنهم لم يجزموا ، إنما قالوا هذا من ظاهر الأحداث التي علموا بها : ﴿وَمَا كُنَّا نَلْمَسُ بِحَبِطِينَ﴾ أي ما كنا نعلم أن ابنك يسرق ، ويقول المولى تبارك وتعالى : ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ [يوسف ١٨٢] لأنهم كذبوا في قصة يوسف ، فإنهم يعرفون أن أباهم لم يصدقهم في هذه القصة ، فقالوا : إنك يا أبانا لم تصدقنا ، ولكن أسأل القرية التي كنا فيها ، والقاسم التي عدنا معها . هنا لاحظ أن قولهم ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ لأحداث محتاجة إلى فاعل ، وإلى مكان وإلى زمان ، ولكن هل سيسأل يعقوب القرية ، مساكنها وشوارعها ؟ .. طبعاً لا ، وإنما سيسأل أهل القرية ، فإذا لم يأت السياق : واسأل أهل القرية ؟ لأن حادث السرقة يعرفه كل من كان في القرية ، فلو سأل أي واحد يسيرويه له ، حتى إنه من وضوحه سيشهد به الجماد ، وما دام يعقوب نبي ، فلو أنطق الله له الجماد لروى له القصة . وقولهم ﴿وَالْعِيرَ﴾ العير هو ما يركب في القافلة ، سواء كنت ناقه أو جملاً أو بعلاً أو غير ذلك ، إنها الدواب

التي تحمل البضاعة في القوافل ، وفي العادة يكون معها عدد قليل من الحراس ، ولكن هل سيسأل يعقوب العير ؟ .. طبقاً لا ، ولكن المروض أنه سيسأل كل من كان في القافلة .
وقولهم : ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ هكذا أقسموا مرة أخرى أنهم يقولون الصدق ، والدليل على صدقهم ، أنهم استشهدوا بكل من كانوا معهم في القافلة والإنسان إن كان صادقاً استشهد بالناس ، وإن كان كاذباً هرب من الشهادة .

عودة إخوة يوسف إلى أبيهم

عاد أولاد يعقوب الطيبين إلى أبيهم بدون أحاسن وأحداً يتعللوا ويعتذروا لأبيهم ولكن كان الرد من الأب حاسماً إذ قال لهم : ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ [يوسف ٨٢] وهذا يدل على أنه مازال في نفسه شك منهم و﴿سَوَّلَتْ﴾ بمعنى سهلت وبشرت وزينت ﴿لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ أى تحققون شيئاً دبرتموه ولا أعرفه ، ولماذا قال لهم : ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ ؟ لأن الأشياء التي تخالف منهج الله ، ويستحي منها الإنسان ويستحي عاقبتها ، تستعصي على النفس فلا تقبل حدوثها ؛ لذلك فإن النفس تحتاج لتبريرات ؛ كي تطاوع صاحبها في الفعل ، ولذلك فإنه حين يبدأ الإنسان في الإثم ، يكون متردداً خائفاً ، يحاول أن يفعل الشيء ، فتمنعه نفسه ولا تصاوغه ، ولكن عندما يسهل لها ويسره ويزيده ، تقدم النفس عليه بسهولة دون التردد وصعوبة التنفيذ .

والحق سبحانه وتعالى ذكر هذه الآية في آية أخرى ، ولكن التعقيب في الآية التي نحن بصددنا ، يختلف في التعقيب عن الآية الأخرى ، يعقوب حين أبلغه أبناءه أن يوسف أكله الذئب ، قال : ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ هذا في قصة الذئب ويوسف ، أما في قصة بنيامين شقيق يوسف فقد قال : ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعٌ﴾ . في الآية الأولى قال : ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ مما يدل على أن الأحداث لم تقف عند هذه النهاية ، بل مستحدث تطورات تحتاج إلى الصبر الجميل ، والصبر الجميل ليس فيه شكوى ، لم يقل يعقوب عسى الله أن يأتيهم بهم ، ولكن في هذه الآية قال ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً﴾ فكأن هبات المرح هبت على يعقوب ، وهو النبي ، ووصفت في نفسه ، ما يؤكده بأن الله تعالى سيأتيه بأولاده جميعاً ، ويجزيه خير

على صبره . الدين ليس لهم دراية كاملة بالقرآن الكريم ، يأخذون آية ويتركون أخرى ، يقولون إن القرآن يقول : ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعٌ﴾ ، بينما هما يوسف وأخوه بنيامين . نقول لهم : أنتم سئتم كبيرهم الذى قال : ﴿فَلَنْ أَجْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْتِيَ لِي آيٌ﴾ . إذن .. فهناك ثلاثة : يوسف ، وأخوه بنيامين ، والأخ الكبير ، فلا بد من استخدام صيغة الجمع .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ هُوَ الْعَلِيُّ الْحَكِيمُ﴾ العليم الذى لا يعيب عن علمه سبحانه شىء ، فهو يعرف مكان يوسف وبنيامين والأخ الأكبر ، وحكيم فيما بهجرى علينا من أقدار . لما جاء أولاد يعقوب وقالوا له ما قالوا ، ماذا كان موقفه منهم ؟ ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَكْتَاسِفُونَ عَلَى يَوْسُفَ وَأَبِصَّتْ عَيْنَاهُ مِنْ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف ٨٤] . ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ أى : عن أولاده الذين أتوه ، لم يواصل معهم الحوار ، بل تركهم . ﴿وَتَوَلَّى﴾ تأتى عندما يأتيك أحدهم بحبر مشحون ، فتركه لتخو بهمسك ، كذلك خلا يعقوب بنفسه ؛ لأنه يتحسر على يوسف وأخيه وهو لا يريد أن يظهر الحزن والأسى لأحد من خلق الله ؛ لأنه قال : ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحَرَيَّ إِلَى اللَّهِ﴾ . ولذلك قال له أحد إخوانه ، وهو يرى ما فيه يعقوب من حزن بليغ . تهشم يا يعقوب ، ولم يبلغ من أيلك إسحاق ، قال : إنما هشمنى يوسف . فغضب الله سبحانه وتعالى عليه هذه الكلمة ، وقال له أشكرك ربك فخلقه ؟ مرع يعقوب يديه إلى السماء ، وقال حطية أخطأتها يا رب فاعصرها لى ، فقال له الله تبارك وتعالى : عفرت لك . وكان يعقوب لا يشكو إلى الناس ولكن يشكو إلى الله .

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَكْتَاسِفُونَ عَلَى يَوْسُفَ﴾ ساعة تسمع : يا أسفا ، وبيا ويلتا ، تعرف أنه نداء لشيء محزون ، ولكن هل أنت نادى المصيبة ؟ هناك ساعات تصيق فيها النفس ، فينادى الإنسان الأحزان ، و ﴿يَكْتَاسِفُونَ﴾ معاها . يا أسف هذا أرواك فاحضر ولكنه أبدى حزنه على يوسف ، بينما الذى ضاع منه هو بنيامين وابنه الأكبر ، فلماذا لم يظهر الحزن عليهما وأظهره على يوسف ؟ لأن يوسف هو قاعدة كل هذه اصعاب ، هو أصل الحزن . كيف ؟ بنيامين أحد بسببه والكبير فقد بسببه ، ولقد كان وجود بنيامين عزاء وسلوى ليعقوب . ولكن عندما ذهب طفا الحزن على الاثنين ؛ لأنه حرم منهما مفا ، وقوله تعالى : ﴿وَأَبِصَّتْ عَيْنَاهُ مِنْ الْحُزْنِ﴾ المين فيها بياض وفيها سود ، فايصبت أى التى كانت سوداء صارت بيضاء ،

والإنسان إذا امتلأت عيانه بالدموع ، تحدث غشاء على سواد العين ، فيبدو أبيض فكان عينيه ابيضت من الحزن وكثرة البكاء . وقوله تعالى : ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ الكظم في الحزن افعالات عاطفية لا يستطيع أحد أن يجمعها ، بل هي التي تقدر عليه ، ولذلك فإن رسول الله ﷺ عندما مات ابنه إبراهيم دمعت عيانه فقال له الصحابة ألم تنها عن ذلك يا رسول الله ؟ قال : وإن العين لتدمع والقلب ليحزن وأنا على فراقك يا إبراهيم محزون . والله سبحانه وتعالى لا يريد للإنسان أن يكون صغيراً ، لا يفعل للأحداث ؛ لأن هذا لو كان يجب أن يكون في إنسانيك ، وعاطفة يريد الله تبارك وتعالى أن يفيها ؛ لأن الله سبحانه خلق في الإنسان عواطف وعرائر ولو لم يشأ العواطف والعرائر ما خلقها لنا ، فالعواطف لها مهمة والعرائر لها مهمة ، وساعة تخرج إحداها عن مهمتها ، فإن المهج يحكمها ؛ حتى لا تكون شراً ، مثلاً عزيزة الجنس ؛ هي لاستبقاء النوع وإنجاب الأولاد والذرية ، فلا تجعلها انطلافاً وحشياً . إذن فالعواطف والعواطف هي التي تجمعك تحنو على طفلك الصغير ، وترعى امرأتك . . . إلخ .

وقوله تعالى : ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ كظيم مأخوذة من كظمت القرية ؛ لأن القرية إذا امتلأت لابد أن تكتمها ؛ لكي لا يسيل الماء منها ، فكان يعقوب أبهى حربه في قلبه وكظمه ، كما تكظم القرية فلا يسقط منها شيء .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿قَالُوا تَأَلَّوْا تَأَلَّوْا تَقْتَرُوا تَذَكَّرُوا يُونُسَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ [يوسف - ٨٥] من الذي قال ؟ إن يعقوب تولى عنهم واعتزلهم ، وقال : ﴿يَتَأَسَّيْ عَلَى يُونُسَ﴾ ، ساعة قال ذلك قالوا له : ستظل تذكر يوسف وتحنن عليه حتى تموت ؟ فكانهم ساعة سمعوه يذكر يوسف قالوا هذا الكلام ، والحرص : هو الإشراف على الهلاك ، أى أنهم قالوا : إن يعقوب من حربه سيسرف على الهلاك ، ثم يكون من الهالكين فعلاً ، وهارداً يعقوب عليهم . ﴿فَالْإِنَّمَا أَشْكُوا بِنِّي وَخَافُ إِلَى اللَّهِ﴾ أى لا شأن لكم بي وائر كوني لحالي ، وشكوى العبد إلى الله هي من تمام العبودية لله ؛ لأن الله هو الأعلى ، فإذا ما أصاب العبد - وهو الأدنى - سوء يفرغ إلى خالقه ، إلى الله سبحانه وتعالى ، واشكوى هنا نوعان تودد إلى الله سبحانه وتعالى بالاستعصار والطاعات ؛ لعل الله يصرف عنه السوء . ونوع آخر ذلك الذي يتأبى على الله ، ويسخط مما وقع عليه ولا يشكو الأمر لله ، ولكنه يشكو الله إلى خالقه ، ويتأبى على الطاعة ويرداد في المعصية .

ثم يقول يعقوب لأولاده : ﴿يَبْنَى أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يَوْسَافَ وَأَيُّوبَ﴾ . نلاحظ هنا أن المسألة الآن لم تعد يوسف وأخاه ؛ لأنهم أصبحوا ثلاثة . يوسف وأخوه من ناحية ، والأخ الأكبر الذى قال : ﴿لَنْ أُنْجِيَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْتِيَ إِلَى أَهْلِهَا﴾ . هذا الأخ موجود باختياره بعيداً عن أبيه ، ولذلك لم يأت ذكره هنا ؛ لأنه فى أى لحظة يستطيع أن يعود إلى أبيه وتنتهى المشكلة ، أما اللذان جاء ذكرهما فى الآية الكريمة فهما يوسف وأخوه ، موجودان فى مكان لا يعلمه الأب ، ولا يعرف كيف يصل إليهما ، وقد فقد الأمل فى أن يراهما .

قوله : ﴿أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا﴾ من الحس ، والحس تجمع كل الحواس ، والحواس هى مسافد إدراك المعلومات للنفس البشرية ، والمعلومات التى تتكون عندنا هى معومات محسوسة ، أى قدرتها الحواس .

إذن .. فقوله تعالى : ﴿فَتَحَسَّسُوا﴾ أى استخدموا كل حواسكم ، سواء الظاهرة منها أو غير الظاهرة ؛ لتصلوا إلى المعلومات التى تؤدى إلى أن تعرفوا مكان يوسف وأخيه ، والإنسان عادة حين تُطلب منه معلومات ، فإنه يستخدم أكثر من حاسة ، إنه يستخدم العين يرى ، والأذن يسمع المعلومات ، وأحياناً يستخدم الشم واللمس ، يعقوب عليه السلام يريد من أولاده أن يستخدموا كل حواسهم ليعرفوا مكان يوسف وأخيه .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ معناه : لياكم أن تقولوا : إنا تعبنا من البحث ، وبمضنا من الوصول إلى مكان يوسف وأخيه ؛ لأن الله تعالى أمرنا بألا نقطع من رحمته ولا نياس من عقوبه ؛ ولذلك يقولون : لا كرب وأنت رب ، أى أن الأشياء التى لا نستطيع الوصول إليها بقانون الأسباب نلجأ إلى الله سبحانه وتعالى خالق الأسباب ، ونقف بين يديه .

قوله تعالى : ﴿وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ . هو الرّوح بالسكون على الود ، هى الرائحة التى تهب على الإنسان فيستروح بها ، كأنك وأنت جالس والجو حار حاق ، ثم جاءت نسمة لطيفة باردة ، هذه ما يسمونها الرّوح بالسكون على الواو هى الشىء الذى يجعلك تتعش بعد شدة الحر ، ولذلك فإن الرائحة التى يأخذها ينقطر الزهور تعش النفس . الله سبحانه وتعالى يقول عن الآخرة فى سورة الواقعة : ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ ﴿فَرَوْحٌ وَرِيحٌ وَرِيحٌ وَرِيحٌ﴾ .

يُصِيرُ أَيُّ أَنَّ الرُّوحَ تَهْبُ بِالطَّيَّاتِ تَعْمَشُ الْفَسْ ، مَحْصُوصًا إِذَا كُنَّا فِي حَدِيقَةٍ ، فَتَأْتِيَا هَذِهِ الرُّوحَ بِرَوَائِحِ الزَّهَوْرِ الْعَطْرَةِ ، وَلَكِنْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَلَا تَأْتِشُوا مِنْ رَّيْحِ اللَّهِ﴾ مَعَهَا : أَنَّ اللَّهَ الَّذِي حَقَّ الرُّوحَ يَمْلِكُهَا ، وَيَعْرِفُ سِرَّهَا وَحَدَّهُ يَنْفَعُهَا فِي الْجَمَادِ ، فَتُعْطِيهِ الْحَيَاةَ وَالْحَسَّ وَالْحَرَكَةَ . ﴿إِنَّمَا لَا يَأْتِشُ مِنْ رَّيْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ أَيُّ الْقَوْمِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ، لِأَنَّ هَؤُلَاءِ النَّاسَ لَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا بِالْأَسْبَابِ الْمَادِيَةِ ، فَإِذَا تَخَسَّتْ عَنْهُمْ هَذِهِ الْأَسْبَابُ ، يَمْلَأُ قُلُوبَهُمُ الْيَأْسَ فَيَتَحَرَّوْنَ أَوْ يَصَابُونَ بِالْجَنُونِ ، أَمَّا أَنَا فَمَقُولُ : لِي رَبُّ هُوَ خَالِقُ الْأَسْبَابِ ، سَيَفْتَحُ لِي طَرِيقَ الْخَلَاصِ ، فَإِذَا كَانَ اللَّهُ يُعْطِي بِالْأَسْبَابِ ، فَهُوَ سَبْحَانَهُ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يُعْطِيَ بِدُونِ الْأَسْبَابِ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَرِزْقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق : ٢ ، ٣] .

إخوة يوسف يتعرفون عليه

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا السَّرِيرُ مَسْنَا وَأَهْلُنَا الْأَمْرُ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف : ٨٨] وهكذا دخلوا على يوسف بالتَرْفِيقِ والتَلْخِيمِ ؛ لِأَنَّ كَلِمَةَ عَزِيزٍ مَعَهَا . الْمَالِكُ الْمُتَصَدِّقُ الْمَكِينُ ، أَيُّ أَنَّ مَا يُطْلَبُ بِهِ مِنْهُ لَا يَحْرَجُ عَنْ لِإِدَاتِهِ وَسُلْطَانِهِ ، يَشْكُونُ إِلَيْهِ قَسْوَةَ الْجُوعِ ، وَيَقُولُونَ لَهُ . إِنَّمَا جَاءُوا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ ، أَيُّ مَدْفُوعَةِ الثَّمَنِ ، يَرْجَى بِعْنَى يَدْفَعُ ، وَلَكِنْ هَذِهِ الْبِضَاعَةُ رَغِمَ أَنَّهَا مَدْفُوعُ ثَمَنِهَا ، إِلَّا أَنَّهَا رَدِيئةٌ لَيْسَتْ جَيِّدَةً ، فَكُنَّا بِلَعِ الْحَالِ بِأَوْلَادٍ يُعْقُوبُ أَنَّ أَصَابَهُمُ الضَّرُّ ، حَتَّى إِنَّهُمْ لَمْ يَبْعِدْ عَنْهُمْ الْبِضَاعَةَ الْجَيِّدَةَ ، الَّتِي أَتَوْا بِهَا فِي الْمَرَّاتِ السَّابِقَةِ ، وَبِذَلِكَ جَاءُوا بِالْبِضَاعَةِ الرَدِيئةِ يَدْعُمُونَهَا ثَمَنًا لِلْقَمْحِ ، وَهُمْ يَسْتَغْطِفُونَ يُوسُفَ أَلَّا يُعْطِيَهُمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ، مُقَابِلَ هَذِهِ الْبِضَاعَةِ الْمُرْجَاةِ ، يَقُولُونَ لَهُ : ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ أَيُّ لِأَنَّهُمْ يَحَارُونَ مِنَ الْجَمَاعَةِ ، يُطْلَبُونَ كَيْلًا وَافِيًا مِنَ الْقَمْحِ ، فَإِنَّ لَمْ يَكُنْ هَذَا الْكَيْلُ بِمِثَالِ الْبِضَاعَةِ ، الَّتِي يَحْمِلُونَهَا فَلْيَتَكَّرِ الْبَاقِي صَدَقَةٌ ، وَلِبِذَلِكَ يَقُولُ الْحَقُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ . إِنَّكَ لَنْ تَأْخُذَ الْجَزَاءَ مِنَّا ، حَتَّى تَقُولَ : لَا تَمْلِكُونَ شَيْئًا تَعْطُونَهُ . وَلَكِنَّكَ مُتَأَخِّذُ الْجَزَاءِ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَهُوَ الْغَنِيُّ دَائِمًا : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ إِذِنْ هُنَا رَدُّهُ إِلَى مَنْ هُوَ أَغْنَى وَأَعْلَى وَأَقْدَرُ مِنَ الدُّنْيَا كُلِّهَا ، وَهُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَقَالُوا : إِذَا كُنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَدْفَعُ ، فَسَتَأْخُذُ لِنَفْسٍ مِنْ

الله الذي لا تفرغ خزائنه . وإذا قلنا : إنهم أولاد نبوة ، ولا تجوز عليهم الصدقة . نقول لا ؛ لأن هذه احتص بها الله سبحانه وتعالى محمداً ﷺ .

يوسف عندما سمع هذا الكلام ابتسم وضحك فظهرت ثنياه ، وكانت مميزة بحيث إن كل من يراها يعرفه ، فلما رأوا ثنياه ، بدسوا بسر كون الموقف ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتَ جَاهِلُونَ ﴾ [يوسف ٨٩] بمجرد أن قالها ، ﴿ قَالُوا لَوْلَا أَوْلَٰئِكَ لَآتَ يُوسُفَ ﴾ . أى أنهم أعلنوا شخصية يوسف بعد أن وثقوا منها ، ولم ينكر يوسف ﷺ ، بعد أن رأى الحال الذي وصل إليه إخوته ﴿ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي ﴾ ورغم أنهم عرفوه إلا أنهم فوجئوا باعترافه ، وينبهم يوسف إلى أن أحده دخل فى النعمة معه ، ثم أعطاهم حبثيات النعمة : ﴿ إِنَّا نُرِيَنَّكَ يَتَنَقَّى وَيَظْعَرُّ عُنَىٰ آلِهِ لَا يَصِيعُ آخَرَ الْمُتَعَبِينَ ﴾ أى أن حبثيات النعمة هى أن الإنسان يتقى الله دائماً ، ولا يفعل ما يعضبه . والتقوى والصبر يدخلانك فى مقام الإحسان . وهو أعلى مقامات العبادة والقرب من الله .

قوله تعالى . ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتَ جَاهِلُونَ ﴾ كأن يوسف يتمس لهم العذر ، أى أنهم لو كانوا يعلمون أن ما فعلوه يقضب الله ما أقدموا عليه . إذن فأساس عملهم هو الجهل وليس بالعصية ، هنا تنبه إخوة يوسف إلى الفضية كلها ، وكيف أنهم أرادوا أن يحرموا يوسف من حب أبيه وحانه ، فأعطاه الله ما جعله مفضلاً عليهم جميعاً فى النعمة ؛ ولذلك يقول الحق : ﴿ نَالَهُ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَىٰ نَاثِرِكَ أَن كُنَّا لَخَطِيئِينَ ﴾ أى أن الله تبارك وتعالى قد مَنَّ علينا جميعاً ﴿ وَإِنْ كُنَّا ﴾ أى حالنا وقت أن فعلنا ذلك كنا سخطين ، وهناك فرق بين سخطين ومخطئين .

المخاطئ هو الذى يعلم منطقة الصواب ويخطئ عن علم وعمد ، أما المخطئ فهو يقصد الصواب لكنه يخطئ ، ولذلك لم يتم خطؤه عن عمد ، الاثنان لم يصلوا إلى الصواب ، ولكن المخاطئ اختار الخطأ وهو يعلم موقعه والمخطئ اختلط عليه الخطأ والصواب . ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ ﴾ وهذا قسم مثل : والله ، وبالله ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَىٰ نَاثِرِكَ ﴾ معنى آثرك : أى فضلك . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنَّا لَخَطِيئِينَ ﴾ [يوسف ٩١] اعترف بالدس ، فهم أخذوا طريق الخطأ وهم يعلمون فكانت النتيجة أن عذَّل الله أعطاهم ما يستحقون وفصل يوسف عنهم

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ والتثريب معناه اللوم العنيف ، وهي كلمة مأخوذة من الثرب ، عندما يذبحون الذبيحة ، ويجدون حول أسمائها كثيراً من الدهن ، هذا اسمه ثرب ، وهذا الثرب تصاب به الشاة ، وعندما لا تجد المرعى فتصاب بالهزال فإنها تتغذى من هذا الدهن ، فالتثريب هو اللوم العنيف ، الذى يصل بالإنسان إلى درجة أنه يهزل من إحساسه بالذنب ، وقوله تعالى : ﴿عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ﴾ أى بعدم اعترفتكم بدينكم وتبتم ورجعتم إلى الله . ورسول الله ﷺ يقول ما معناه : إذا زنت جارية أحدكم فاضربوها الحد ولا تثربوها أى : لا تدلوها حتى لا تصاب بالهزال من حرط الإحساس بالذنب .

ثم تنقل اللقطة مرة أخرى إلى الأب يعقوب عليه السلام ، ولابد أنهم قد حكوا ليوسف ما حدث لأبيهم ، وكيف أنه يبكى بكاءً مرّاً ، وكيف أد عيسه ايضاً ولم يعد يرى ، كل هذا تركه القرآن الكريم ؛ لأن هذه أشياء من السهل الوصول إليها ، وجاء قول يوسف مباشرة ﴿أَدْهَسُوا يُقَيْمِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي﴾ ، إذن .. فلا بد أنه عرف أن أباه يربط عيسه من الخزن ، ولكن من الذى ناوله يوسف القميص ليأخذه لأبيه ؟ إنه كبيرهم الأخ الكبير الذى تقدم ، وقال ليوسف عليه السلام : أيها العزير إننى أنا الذى حملت إلى أبى قميصك ، وجئت عليه بدم كذب ، فدعنى أكفر عن دى ، وأحمل إلى أبى انقميص الذى فيه الشفاء .

﴿أَدْهَسُوا يُقَيْمِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ نَصِيرًا﴾ أى : يأتى إلى يوسف وقد زال عنه الضر والمرض ، يأتيه مبصراً ، إذن فهذا القميص الذى فيه رائحة يوسف ، سيعيد البصر إلى يعقوب ، فيأتى لابنه مبصراً .

وقوله : ﴿وَأَتُونِي بِأَقْلَامِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف . ٩٣] ها نلاحظ دقة تعبير القرآن الكريم ، فيوسف لم يدع إخوته فقط ، ولكنه قال لهم : كل من له صلة قرابة بكم من أى جهة فاتنوا به ، والمعروف أنه حينما طلب يوسف عليه السلام من الملك أن يجعله على خزائن الأرض ، يوجه السوات السبع الشداد ، كان يأخذ ثمن القمح ذهباً وفضة ، فإن لم يكونوا يملكون ذهباً وفضة ، يأتوا بأحجارهم الكريمة مثل الباقوت والمرجان ، وإذا نفذت الأحجار يأتون بالدواب إذا نفذت الدواب يأتون بأولادهم يعطوهم ليوسف ويأكلون بنسبهم .

ولقد فعل يوسف ذلك ؛ ليقطع من الاستهلاك ، فلو أنه أعطى الناس القمح مجاناً ؛

لأسرفوا فيه وبعثوا، حتى إنه لم يكن يكفيهم طوال هذه السنوات السبع المليئة بالجذب لذلك كان تشدد يوسف حتى يعرض الناس الحرس في استهلاكهم، ولكن بعد أن انتهت سنوات المجاعة، أعاد يوسف لكل واحد ما أحده مه، أي رد بناس أشياءهم، وكان قد أخذها لتحديد الاستهلاك فقط حتى يواجهوا المجاعة.

يعقوب يشم رائحة يوسف

وحمل الإخوة القميص وخرجوا من عند يوسف باتجاه أبيهم: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ [يوسف: ٩٤]. وفصلت: تدل على أن شيئاً كان متصلاً وفصل، أي أن العير تجاوزت المدينة وكانت تمشي وهي حارجة من المدينة في موكب واحد متصلة ببعضها البعض، فلما خرجت خارج المدينة، انفصلت عن بعضها، وذهبت كل قافلة إلى طريقها. ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفِيدُون﴾ [يوسف: ٩٤] ﴿تُفِيدُون﴾ أي تهيموني بالتخريف لكبر سى، وقوله ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ أي أنه شم رائحة يوسف التي كانت في القميص، رغم المسافة الكبيرة التي بين القافلة وبين المدينة التي بها يعقوب، وهذا من دلائل النبوة التي أعطاها الله سبحانه وتعالى ليعقوب.

ولقد ثبت الآن علمياً أن لكل إنسان رائحة مميزة، لا يشترك فيها مع إنسان آخر ونس لا نستطيع أن نغير هذه الرائحة، ولكن الكلاب البوليسية تستطيع بحاسة الشم القوية التي لديها، أن تتعرف على الإنسان من رائحته، عندما يترك المحرم أى ملابس أو أشياء فيها رائحة عرقه في مكان الجريمة، يأتي الكلب البوليسى فيشم الرائحة ويتعرف على صاحبها، ويحرجه من بين مئات الأشخاص الموجودين، ويتكرر العرض عدة مرات، فيخرج الكلب نفس الشخص من بين الموجودين.

الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة، يلفتنا إلى هذه الحقيقة العلمية، وهي أن لكل إنسان رائحة خاصة لا يشاركه فيها غيره، وبى الله يعقوب بما علمه الله عرف من رائحة قميص يوسف أن يوسف ما زال حياً.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ لأن القافلة الكبيرة لما عاودت المدينة التي كان يقبض فيها يوسف، كانت تضم عدداً كبيراً من الناس، فكانت رائحة قميص يوسف مختلطة بروائح

كثيرة ، كما أن مباني المدينة كانت تحجزها ، فلما خرجت القافلة من المدينة ، وانقسمت إلى مجموعات صغيرة ، وأخذت كل قافلة منها طريقها إلى بلدها ، أوصل الله تعالى رائحة يوسف إلى يعقوب عليه السلام ، عندما سمع من هم حول يعقوب قوله بأنه يشم ريح يوسف ، ﴿فَالَوْ أَنَّهُ بِرَبِّكَ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ولقد كان هذا القول عن جهل طبعا ، لأن الله علم يعقوب ما لم يعلموه وميزه عنهم ، وهكذا اتهموا يعقوب بأنه يردد الخرافات التي كان يرددتها حول يوسف ، وليس المقصود بالصلال هنا ما يتعلق بالدين . ولكن المقصود به الجزئيات التي لا علاقة لها بالدين ، كأن يقول : أنا واثق أن يوسف سيعود أو غير ذلك ، كانوا يعتبرون هذا ضلالا ، وهو دائما قول كل جاهل لم يؤت من العلم شيئا .

وصلت القافلة وجاء الأح الأكبر بحمل قميص يوسف ، وألقاه على وجه أبيه ، ﴿فَارْتَدَّ عَصِيْرًا قَالَ أَنَّمْ أَقْلَ لَكُمْ إِنَّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ . انظر إلى دلائل الحق والسوة ، وكيف أن النبي يحسن بالأمور قبل الناس ، ثم يأتي الواقع بيزيد ما يقول ، ولذلك عندما يصلكم خبر من معصوم ، فإياكم أن تقمروا بحملكم فيه ، لأن العقول تأخذ مسركات الأشياء على قدرها ، وهناك أشياء فوق قدرة العقول ، فإن تحدثتم بها فلا تكذبوا ، خذوها وإن لم تفهموها ، ولذلك قال يعقوب : ﴿أَنَّمْ أَقْلَ لَكُمْ إِنَّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

﴿فَالَوْ أَنَّهُ بِرَبِّكَ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ كان دنوبهم كثيرة ، وهم معترفون بخطيئتهم ، ماذا قال يعقوب ؟ ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ .

يعقوب وأبناؤه في مصر

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾ [يوسف : ٩٩] بقلة سريعة من بيت الأب في الشام إلى حيث يوسف .

إذن .. إحرة يوسف جمعوا أهلهم وأعدوا الدواب وركبوا مع أبيهم ، حتى وصلوا إلى مكان يوسف ، ثم استأذنوا في الدخول فأذن لهم .

وقوله تعالى : ﴿مَآوِيَةٍ إِلَيْهِ أَوْتِيَهُ﴾ . كيف يقال : أبيه ، وأم يوسف ماتت وكذلك جده ، والأب وحده الذي كان موجودا ؟ نقول : إن العادة كانت ، إذا ماتت الأم ، يدعون الخالة أمًا ويجعلونها في مقام أمهم .

وقوله: ﴿أَدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ﴾ * وَرَفَعَ أَيُّوبُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴿يوسف ٩٩، ١٠٠﴾ هذا يدل على أن هناك دخول أول - حينما قال: ﴿أَدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ﴾ ، ودخول ثان: عندما أوى إليه أبويه ، ذلك أنه من عادة العظماء أن يستقبلوا كبار ضيوفهم في مداحل أو عند حدود البلاد ، فاستقبال العظماء يتم أولاً عند الحدود ، حيث يقدم إليهم وجهاء القوم وأعيانهم ، ويستريحون من عناء السفر ، ثم بعد ذلك ينتقلون إلى مقر إقامة حكم البلاد .

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَيُّوبُ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أى أجلسهم فى مكان مجلسه الدائم الذى يصرف منه كل أمور الدولة .

﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ السجود هنا هو شكر لله ، لأنه جمع شملهم وهداهم أو اعتدار ليوسف على ما بدر منهم نحوه وسحو أحبه ، أو تعبير عن الفرحه بجمع الشمل بعد هذا العمر الطويل ، أو أن هذا كان من شريعتهم ، أهم في هذا كله أنه ليس سجود عبادة .

وقوله: ﴿يَكُنَّ هَذَا تَأْوِيلَ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ يسترجع يوسف البداية ، يوم رأى وهو طفل الشمس والقمر والنجوم تسجد له ، فأسرع يقص على أبيه هذه القصة ، فقال الأب هذه الرؤيا تدل على أنه سيكون لك شأن عظيم ، فلا تقصصها على إخوتك ، فتحتسب صدورهم غيظاً منك وقلوبهم حقداً عليك ، وهذه الصدور حاكمة الآن ، فما بالك إذ علمت بهذه الرؤيا ؟ لأن يعقوب رأى النبوة فيه ، وكان يعرف حقد إخوة يوسف عليه ، وكيف أن هذا الحقد سيؤدى إلى أحداث كثيرة ، وهكذا يعيدنا في آخر القصة إلى أولها حيث يقول: ﴿يَكُنَّ هَذَا تَأْوِيلَ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف ١٠٠] . لأن رؤيا الأنبياء واقع يحدث .

قال تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَرْغِبَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ [يوسف ١٠٠] . يوسف الطاهر بعدد نعم الله عليه ، فيقول - إن الله سبحانه وتعالى قد جاء من الجب الذى ألقاه فيه إخوته ، وأنقذه من السجس الذى ألقته فيه امرأة العرير ، ثم بعد ذلك مكبه فى الأرض ، وجعله عزيز مصر ، والبقاء هنا بين يوسف وإخوته كان لقاء صعاء ، وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ ، هذا إحسان

يوسف ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ [يوسف ١٠٠] وهذا إحسان لإخوة يوسف، بعد أن عاشوا في البدو جاء بهم إلى قصر العزيز .

كلمة «أُخْسِنَ» مرة تتعدى : الإحسان إليك والإحسان لغيرك ، ومرة تقتصر على الإحسان لك أو بك . والإحسان هنا متعدد ؛ لأنه أحسن إليه بإخراجه من السجن ، وأحسن لإخوته بأن جاء بهم من البدو ، قوله تعالى ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ اعتبرت إحساناً إلى إخوة يوسف لماذا ؟ لأنها تعرف أن البدو قوم رُحَّل ، يعيشون على الاسرالات الأسرية ، فلا يضمهم مجتمع ولا يقولون في مكان واحد بل ينتقلون من مكان إلى آخر ؛ بحثاً عن المياه والعشب ، يوتنهم عن ظهور جمالهم ، هم وراء العشب من منطقة إلى أخرى وحياتهم على الفطرة ، ليس لهم أي نوع من الحصار ؛ لأن البدو رُحَّل باستمرار ، إنما الحصر معناها أن يحصر إليك كل شيء وأنت في المدينة ، أي أنه في البداية أنت تذهب باحثاً عن الخير ، أما في الحصر فالخير يأتيك إلى مكانك ، وأنت مستقر في حياتك ومعيشتك وسكنتك ومبستك

قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ أي أن يعقوب وإخوة يوسف ، سيعيشون منذ الآن في مصر ، ذات الحضارة الرقيقة وسيجدون فيها كل شيء . ثم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ تَرَعَ الشَّيْطَانُ نَسِيَّ وَيَلَى الْخَوْفُ مِنْ رَبِّي لِطِيفُ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف : ١٠٠] فكان الشيطان هو الذي وسوس لإخوة يوسف ، وأن الوسوسة كانت نزغاً فقط ، وليست استقراراً على سوء .

ثم يتوجه يوسف إلى ربه قائلاً : ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ﴾ [يوسف ١٠١] ﴿رَبِّ﴾ : بدء الخلقه ، فالرب هو الخالق ، والمربي هو الخالق من عدم وينمذ من عدم ، الله سبحانه وتعالى أباح التزواج والنكاح لاستبقاء الحياة على الأرض ، إن من صفات الربوبية ، وصفات الربوبية بأحدها المؤمن والكافر ، فالمؤمن تخلق من عدم وأمد من عدم ، والكافر كذلك يأخذ كل متعنقات الربوبية ، فالكون كله يخدمه في الحياة الدنيا : انشمس تشرق عليه والهواء يهيمه ، والمطر يرل على أرض المؤمن والكافر ، والأرض تعطي المؤمن والكافر بالأسباب ، والله سبحانه وتعالى هو رب هذا الكون كله ، خلقه وأوجدته ، ولذلك فهو سبحانه متكفل بوسائل حياته ، حتى نهايتها ، ولكن عطاء الألوهية في الدنيا والآخرة للمؤمن وحده ، فإله لا يكف كافرًا ، ولكنه يقول للمؤمن وحده : اعمل هذا ولا تفعل ذلك

يوسف عليه السلام يقول كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ﴾ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى أعطى يوسف عليه السلام الملك ، ولا يمكن لأحد أن يعطى ملكاً فى الأرض قهراً على الله سبحانه ، بل حتى الظالم وانفسد لا يصل أحدهما إلى الملك إلا بإرادة الله تبارك وتعالى .

الله جل جلاله أعطى يوسف الملك : ﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ ، لأن الله علم يوسف أن يفسر الرؤى ، ففسر لمن معه فى السجن ، وفسر للملك ، والله سبحانه وتعالى حين يعلم يوسف ذلك فهذه ليست عجيبة ، لأنه سبحانه فاطر السماوات والأرض ، أى أنه خالق كل شيء ويعلم أسرار خلقه .

وقوله : ﴿ أَنْتَ رَبِّى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تُؤَفِّقُنِي مُسْلِمًا وَآلْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ ، ﴿ رَبِّى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ أى ناصرى ومحبى ، لأنه نصره على كل العقبات التى واجهته فى حياته ، ولكن هل يوسف عليه السلام يريد الدنيا ؟ إنه يريد الآخرة تلك الحياة الباقية التى لا تزول ، ولذلك نأبى الدعوة الهامة : ﴿ تُؤَفِّقُنِي مُسْلِمًا ﴾ ، لأن الدين عند الله الإسلام ، يوسف أخذ عطاءات الله فى الدنيا وآتاه الله الملك ، هنا يتساءل العلماء : كيف يتسمى الإنسان الوفة ؟ يقول إن الإنسان إذا وُفِّق فى دنياه ، فهو دائماً طمorch يريد زيادة الخير .

دخل ميمون بن مروان على عمر رضى الله تعالى عنه وهو يسأل ربه الموت ، قال له : يا أمير المؤمنين أتسأل الله الموت ، وقد صنع الله على يدك خيراً كثيراً ، فأحييت مناً وأمت بدعاً وبفاؤك خير لمسلمين ؟ قال ألا أكون كالعبد الصالح يوسف حين أتم الله عليه نعمته ، فقال كما جاء فى القرآن . ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَرَبِّى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تُؤَفِّقُنِي مُسْلِمًا وَآلْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف ١٠١] .

وقوله يوسف : ﴿ تُؤَفِّقُنِي ﴾ الله يتوفى الأنفس جميعاً ، فكلما يتوفانا الله طلبنا أم لم نطلب ، ولكن المطلوب أن يتوفى يوسف مسلماً ، أى يعبد الله وحده لا إله إلا هو ، ولذلك عندما نزول القبور نقول . السلام عليكم ديار قوم مؤمنين أتمم السابقون ، وإن شاء الله بهم للاحقون . لماذا قلت : « إن شاء الله » مع أنك يقيناً ستلحق بهم ؟ قلت : إن شاء الله ، ليتوفاك الله مؤمناً

مثلهم . يوسف عليه السلام يقول : ﴿وَالْحَقِّي بِالصَّالِحِينَ﴾ كيف يقول سي لربه : ﴿وَالْحَقِّي بِالصَّالِحِينَ﴾ والى أعلى درجة من الصالح ؟ تقول إن الصالحين منهم الأنبياء .
ألم يعلم العبد الصالح موسى نبي الله عليه السلام ، أسرار أقدار الله في الأرض ؟ ألم يأت العبد الصالح لسليمان عرش بلقيس قبل أن يترد إليه طرفه ؟ بينما كان سليمان نفسه عاجزاً عن أن يأتي بالعرش بهذه الطريقة ، وكان يحاول الاستعانة بالجن وغيره ، إذن .. إبراهيم وإسحاق ويعقوب والسيبون كلهم من الصالحين .

ذكر قصة ذو الكفل عليه السلام

قال الله تعالى بعد قصة أيوب في سورة «الأنبياء»: ﴿وَأَنسِكِمَا وَلَا تَزِدِيَنَّ وَذَا الْكُفْلِ كُلٌّ مِنَ الْغَالِبِينَ ١٥٩﴾ وَأَنسَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَةٍ إِنَّهُمْ فِي الْفَالِغِينَ .

وقال الله تعالى بعد قصة أيوب أيضا في سورة «ص»: ﴿وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا الَّذِينَ هُمْ وَأَنسَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَةٍ إِنَّهُمْ فِي الْفَالِغِينَ ١٥٩﴾ إِنَّا لَخَالِصَتُمْ بِحَالِنَا وَكَرَى الدَّارِ ١٦٠﴾ وَأَنسَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَةٍ إِنَّهُمْ فِي الْفَالِغِينَ ١٦١﴾ . فإظهار في ذكره في القرآن العظيم ، بالثناء عليه مقرونا مع هؤلاء السادة الأنبياء أنه بي ، عيه من ربه الصلاة والسلام ، وهذا هو المشهور .

وقد زعم آخرون أنه لم يكن نبيك ، وإنما كان رجلا صالحا ، وحكما مقسطا عادلا وتوقف ابن جرير في ذلك .. قاله أعلم .

وروى عن مجاهد أنه لم يكن نبيك ، وإنما كان رجلا صالحا . وكان قد تكفل ببي فومه أن يكفيهم أمرهم ، ويقضي بينهم بالعدل ، فسمى ذا الكفل .

وروى ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق دود بن أبي هند ، عن مجاهد أنه قال : لما كبر السبع قال : لو أبي استحلقت رجلا على الناس ، يعمل عليهم في حياتي ، حتى أنظر كيف يعمل . فجمع الناس ، فقال : من يتقبل مني بثلاث أستحلعه : بصوم النهار ، ويقوم الليل ، ولا يعضب . قال : فقام رجل تزدريه العين ، فقال : أنا ، فقال : أنت تصوم البار وتقوم الليل ، ولا نعصب ! قال : نعم . قال : فرده ذلك اليوم ، وقال مثلها في اليوم الآخر ، فسكت أناس ، وقام ذلك الرجل فقال : أنا ، فأسحبه . قال : فجعل إبليس يقول للشياطين عليكم بفلان ، فأعيهم ذلك ، فقال : دعوى وإياه ، فأتاه في صورة شيخ كبير فقير ، وأتاه حين أخذ مضجعه لنقائله ، وكان لا ينام الليل ولا النهار إلا تلك النومة ، ففتح الباب ، فقال : من هذا ؟ قال : شيخ كبير مظلوم ، قال : فقام ففتح الباب فجعل يقص عليه . فقال : إن بيني وبين فومي حصومة ، وإني ظلموني وفعلوا بي وفعلوا ، وجعل يطول عليه ، حتى الروح وذهبت النقائله فقال : إذا رحت وإنني آخذ لك بحقك . فانطلق وراح فكان في مجلسه ، فجعل يظن هل يرى الشيخ ، فلم يره ، فقام يتبعه . فما كان العد جعل يقص بين الناس ، وتظنه فلا يراه ، فلما رجع إلى النقائله ، فأخذ مضجعه ، أتاه ففتح الباب ، فقال : من هذا ؟ فقال : الشيخ الكبير المظلوم ففتح له فقال : ألم أقل لك إذا قدمت فأتني ؟ قال : إنهم أخبرت قوم إذا عرفوا أنك قاعد ، قالوا : نحن

نعطيك حقتك ، وإذا أقمت جحدوبي ، قال : فانطلق فإذا رحلت فأتني . قال . فقالت القائلة ، فراح فجعل ينتظره فلا يراه ، وشق عليه النعاس ، فقال لبعض أهله : لا تدعني أحدًا يقرب هذه الباب حتى أنام ، فإني قد شق عليّ اليوم . فلما كان تلك الساعة جاء ، فقال له الرجل : وراءك وراءك . فقال : قد أتيتك أمس ودكرت له أمري . فقال : لا والله ، لقد أمرنا ألا ندع أحدًا يقربه . فلما أعياه نظر فرأى كوة في البيت ، فسور منها ، فإذا هو في البيت ، وإذا هو يذق الباب من داخل . قال : فاستيقظ الرجل ، فقال يا فلان ، ألم أمرك ؟ قال : أما من قبلي والله فلم تؤت ، فنظر من أين أوتيت ؟ قال : فقام إلى الباب فإذا هو معنق كما أعلقه ، وإذا الرجل معه في البيت فعرفه . فقال : أعدو الله ؟ قال : نعم ، أعيبتني في كل شيء ، ففعلت كل ما ترى لأغضبك . فسماه الله ذا الكفل ؛ لأنه تكفل بأمر فوقى به . وروى ابن أبي حاتم : عن أبي موسى الأشعري رضى الله تعالى عنه ، وهو على هذا المنبر يقول ما كان ذو الكفل نبيًا . ولكن كان رجلاً صالحاً ، يصلي كل يوم مائة صلاة فتكفل له ذو الكفل من بعده ، فكان يصلي كل يوم مائة صلاة ؛ فسمى ذا الكفل . وروى أحمد . عن ابن عمر قال : سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين ، حتى عد سبع مرات ، لم أحدث به ، ولكنني قد سمعته أكثر من ذلك ، قال : كان الكهم من بني إسرائيل ، لا يتورع من ذنب عمله ، فأتته امرأة فأعطاها ستين ديناراً على أن يظاها ، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته ، أرعدت منه وبكت ، فقال لها ، ما يكيحك ؟ أأكرهتك ؟ قالت : لا ، ولكن هذا عمل لم أعمله قط ، وإنما حملتني إليه الحاجة . قال : فتعلمين هذا ولم تعلية قط ! ثم نزل فقال : اذهبي بالدينارين . ثم قال والله لا يعصي الله الكفل أبداً ، فمات من ليلته ، فأصبح مكتوباً على بابهِ : قد غفر الله للكهم .

ورواه الترمذي وقال : حسن ، وذكر أن بعضهم رواه فوقه على ابن عمر فهو حديث غريب جداً وهي إسناده نظر ، فإن سعداً هذا . قال أبو حاتم : لا أعرفه إلا بحديث واحد . ووثقه ابن حبان ، ولم يرو عنه سوى عبد الله بن عبد الله الرازي هذا .. والله أعلم . وإن كان محفوظاً فليس هو ذا الكمل ، وإنما نلفظ الحديث : الكفل من غير إضافة فهو رجل آخر غير المذكور في القرآن .. قاله تعالى أعلم^(١) .

(١) ما بين المكونين من « قصص الأنبياء » لابن كثير (٢١٤ - ٢١٧) .

ذكر قصة أصحاب الرس

[قال الله تعالى في سورة «الفرقان» ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ ٢٥٨ وَكَذَلَا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَلُ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَبِيرًا ۝] .

وقال تعالى في سورة «ق» . ﴿كَذَّبَتْ قُلُوبُهُمْ قَوْمٌ يُمِيجُونَ ۝ وَأَصْحَابُ الْأَنْبِكَةِ وَقَوْمٌ تُجِيعُ كُلٌّ دَسَّ الرُّسُلَ وَفَقَّ وَجِيعُهُ ۝ . وهذا السياق والذي قبله ، يدل على أنهم أهلكوا ودمروا ونبروا ، وهو الهلاك . وهذا يرد اختيار ابن جرير ، من أنهم أصحاب الأحود الذين ذكروا في سورة «البروج» ؛ لأن أولئك عبد ابن إسحاق وجماعه ، كانوا بعد المسيح عليه السلام وفيه نظر أيضا .

وروى ابن جرير قال . قال ابن عباس : أصحاب الرس أهل قرية من قرى ثمود . وقد ذكر الحافظ الكبير أبو القاسم ابن عساكر في أول تاريخه ، عند ذكر بناء دمشق ، عن «تاريخ» أبي القاسم عبد الله بن عبد الله بن جرداد وغيره ، أن أصحاب الرس كانوا بحضور ، فبعث الله إليهم نبيا ، يقال له : حنظلة بن صفوان ، فكذبوه وقتلوه ، فصالح عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح وولده من الرس ، فنزل الأحقاف . وأهلك الله أصحاب الرس ، وانتشروا في اليمن كلها ، وفشوا مع ذلك في الأرض كلها ، حتى مل جبرون بن سعد بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح دمشق ، وبنى مدينتها ، وسماها جبرون ، وهي إرم ذات العماد ، وليس أعمدة الحجارة في موضع أكبر منها بدمشق ، فبعث الله هود بن عبد الله بن رباح بن خالد بن الحلود بن عاد ، إلى عاد «يعني أولاد عاد» بالأحقاف ، فكذبوه فأهلكهم الله عز وجل .

فهذا يقتضي أن أصحاب الرس قبل عاد بدهور متطاولة ، والله أعلم

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال الرس بن يأجرجان . وقال الثوري عن أبي بكر عن عكرمة قال : الرس بن رسوا فيها بيهم ، أي دسوه فيها . قال ابن جرير : قال عكرمة أصحاب الرس بعلج وهم أصحاب يس . وقال قتادة : فلج من قرى اليمامة .

قلت : فإن كانوا أصحاب «يس» كما زعمه عكرمة ، فقد أهلكوا بعمامة ، قال الله تعالى في قصتهم : ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَابَّةً فَإِنَّا مَتِّمٌ صٰحٰمِدُون﴾ وستأتي قصتهم بعد هؤلاء . وإن

كانوا غيرهم ، وهو الظاهر ، فقد أهلكوا أيضًا وتبروا ، وعلى كل تقدير فهذا يابى ما ذكره جرير .

وقد ذكره أبو بكر محمد بن الحسن النفاش : أن أصحاب الرس كانت لهم بئر ترويههم ، وتكفى أرضهم جميعًا ، وكان لهم ملك عادل حسن السيرة ، فلما مات وجدوا عليه وخدًا عظيمًا ، فلما كان بعد أيام ، تصور لهم الشيطان في صورته ، وقال إني لم أمت ، ولكن تعينت عنكم ؛ حتى أرى صبيحكم ، ففرحو أشد الفرح ، وأمر بضرب حجاب بينهم وبينه ، وأحبرهم أنه لا يموت أبدًا ، فصدق به أكثرهم ، واقتنوا به وعيدوه ؛ فبعث الله فيهم نبيًا ، فأحبرهم أن هذا شيطان يحاطبهم من وراء الحجاب ، وبهاهم عن عبادته ، وأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له . قال السهيلي وكان يوحى إليه في اليوم ، وكان اسمه حنظلة بن صفوان ، فعدوا عليه فقتلوه وألقوه في البئر ، فصار ماؤها وعطشوا بعد ربهم ، ويست أشجارهم وانقطعت ثمارهم ، وخربت ديارهم ، وتبدلوا بعد الأنس بالوحشة ، وبعد الاجتماع بالفرقة ، وهلكوا عن آخرهم ، وسكن في مساكنهم الجن والوحوش ، فلا يُسمع ببقاعهم إلا عريف الجن ، وزئير الأسود ، وصوت الضباع .

فأما ما رواه أعني ابن جرير ، عن محمد بن حميد عن سلمة عن ابن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي قال : قال رسول الله ﷺ « إن أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبد الأسود » وذلك أن الله تعالى بعث نبيًا إلى أهل القرية ، فلم يؤمن به من أهلها إلا ذلك العبد الأسود ، ثم أهل القرية عدوا على النبي ، فحفروا له بئرًا فألقوه فيها ، ثم أطبقوا عليه بحجر أصم ، قال : فكان ذلك العبد يذهب فيحتطب على ظهره ، ثم يأتي بحطبه فيبيعه ، ويشتري به طعامًا وشرايبًا ، ثم يأتي بها إلى تلك البئر ، فيرفع تلك الصخرة ، ويعيه الله عليها ، ويدني إليه صعامه وشرايه ، ثم يردّها كما كانت ، قال : فكان كذلك ما شاء الله أن يكون . ثم إنه ذهب يومًا فيحتطب كما كان يصنع ، فجمع حطبه وحرم حزمته ، وهرع منها ، فلما أراد أن يحتملها ، وجد سنة فاضطجع فنام ، فصرب الله على أذنه سبع سنين نائمًا . ثم إنه ذهب فتمطى ، فتحول لشقه الآخر ، فاضطجع فصرب الله على أذنه سبع سنين أخرى . ثم إنه هب وحتمل حرمته ، ولا يحسب أنه نام إلا ساعة من نهار ، فجاء إلى قرية فباع حزمته ، ثم اشترى طعامًا وشرايبًا كما كان يصنع ، ثم إنه ذهب إلى الحفرة ، إلى موضعها الذي كانت فيه ، يلتمسه

فلم يجدوه وقد كان بدا يقومه فيه بداء ، فاستخرجوه وأمسوا به وصدقوه . قال : فكان سيهم يسألهم عن ذلك الأسود ما فعل ، فيقولون له : ما ندري ، حتى قبض الله النبي ﷺ ، وهب الأسود من نومه بعد ذلك ، فقال رسول الله ﷺ « إن ذلك الأسود لأول من يدخل الجنة » . فإنه حديث مرسل ومثله فيه نظر . ولعل بسط قصته من كلام محمد بن كعب القرطبي . والله أعلم .

ثم قد رده ابن جرير نفسه ، قال : لا يجوز أن يجمع هؤلاء على أنهم أصحاب الرس المدكورون في القرآن ، قال : لأن الله أخبر عن أصحاب الرس أنه أهلكهم ، وهؤلاء قد بدل لهم فأمّنوا بنبيهم ، اللهم إلا أن يكون حدثت لهم أحداث ، أمّنوا بالنبي بعد هلاك آبائهم . والله أعلم . ثم اختار أنهم أصحاب الأحدود ، وهم ضعيف ، لما تقدم ، وما ذكر في قصة أصحاب الأحدود ، حيث نعدوا بالعذاب في الآخرة إن لم يتوبوا ، ولم يذكر هلاكهم ، وقد صرح بهؤلاء أصحاب الرس والله تعالى أعلم ^(١)

(١) ما بين المكوثرين من «قصص الأنبياء» (٢١٨ - ٢٢١)

ذكر قصة قوم يس

[وهم أصحاب القرية أصحاب يس ، قال الله تعالى : ﴿ وَانصُرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ ١٣٠ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِشَاكٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَهُكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ ١٣١ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا آتَاكُمُ الرَّحْمَنُ مِن فَضْلِهِ إِن أنْتُمْ إِلَّا نَكِيدُونَ ﴾ ١٣٢ قَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ إِيَّا إِلَهُكُمُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ ١٣٣ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ ١٣٤ دَلُوا إِيَّانَا فَطَرِكَا بِكُمْ لَيْسَ لَكُم مِّنْهُنَّ أَهْلٌ لَّزَحْجَكُمُ وَلَيْسَ لَكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ١٣٥ قَالُوا طَائِفُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ دُجْرِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِقُونَ ﴾ ١٣٦ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْتَأْذِنُ قَالَ بَنَقُورِ الْيَهُودِ الْمُرْسَلُونَ ﴾ ١٣٧ أَسْتَبْعُوا مِن لَّا يَسْتَلْزِمُهُمْ لَحْرًا وَهُمْ مُّهْتَمُونَ ﴾ ١٣٨ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ١٣٩ أَلأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِيدِ الْإِثْمَانُ يُضِلِّ لَّا فَعَسَىٰ أَنتَ شَاقِئُهُمْ شَيْئًا وَلَا تُقَدِّرُونَ ﴾ ١٤٠ إِنِّي إِذًا لَّي صَلَاحٌ لَّيْسَ لِي إِذْ أَتَيْتُكُمْ فَاسْتَمَعْتُمْ ﴾ ١٤١ قِيلَ أَنَحْنُ الْمُنِجَّةُ قَالَ بَنَيْتُ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ ١٤٢ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرِمِينَ ﴾ ١٤٣ وَمَا آتَاكَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُودٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُؤْمِرِينَ ﴾ ١٤٤ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَيَذَرُهَا هُمْ حَكِيمُونَ ﴾] [س ١٣٠ - ٢١١] .

اشتهر عن كثير من السلف والخلف أن هذه القرية أنطاكية ، روى ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب الأحبار ووهب بن ميه ، وكذا روى عن بريدة بن الحصيب وعكرمة وقتادة والزهري وغيرهم . قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب ووهب : إنيهم قالوا : وكان لهم ملك اسمه أنطيوخس بن أنطيوخس وكان يعبد الأصنام . بعث الله إليه ثلاثة من الرسل وهم : صادق ومصدق وشلوم ، فكذبهم .

وهذا ظاهر أنهم رسل من الله عز وجل ، ورغم قتادة أنهم كانوا رسلًا من المسيح وكذا قال ابن جرير ، عن وهب ، عن ابن سليمان ، عن شعيب الجبائي . كان اسم المرسلين الأولين شمعون ، ويوحنا ، واسم الثالث بولس ، والقرية أنطاكية .

وهذا القول ضعيف جدًا ، لأن أهل أنطاكية لما بعث إليهم المسيح ثلاثة من الخواريث كانوا أول مدينة أمنت بالمسيح في ذلك الوقت ، والقدس ، والإسكندرية ، ورومية ، ثم بعدها القسطنطينية ولم يهلكوا . وأهل هذه القرية المذكورة في القرآن أهلكوا ، كما قال في آخر

صحتها بعد قتلهم صديق المرسلين : ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيِّحَةً رَّجِدَةً فَرْنَا هُمْ كَحَمْدُونَ﴾ ولكن إن كانت الرسل الثلاثة المذكورون في القرآن ، بعثوا إلى أهل أنطاكية قديماً ، فكذبوهم وأهلكهم الله ، ثم عمرت بعد ذلك ، فمما كان في زمن المسيح أمرو برسله إليهم ، فلا يمنع هذا . والله أعلم . فأما القول بأن هذه القصص المذكورة في القرآن ، هي قصة أصحاب المسيح ، ضعيف لما تقدم ، ولأن ظاهر سياق القرآن يقتضي أن هؤلاء الرسل من عند الله . قال الله تعالى : ﴿وَأَمَرْنَا لِمُمْ مَثَلًا﴾ يعني لقومك يا محمد ﴿أَمْحَبَ الْقَرْيَةَ﴾ يعنى المدينة ﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ * ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أى أيدناها بثالث من الرسل ﴿فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾ فردوا عليهم بأنهم يشر مشهم . كما قالت الأمم الكافرة برسلهم ، يستبعدون أن يبعث الله نبياً بشرياً .

فأجابوا بأن الله يعلم أنا رسله إليكم ، ولو كنا كاذبين عليه لعاقبنا وانقم منا أشد الانتقام ، ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أى إنما علينا أن يبلغكم ما أرسنا به إليكم ، والله تعالى هو الذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء ﴿قَالُوا إِنَّا نَطَّيَّرُ بِكُمْ﴾ أى نشاء منا بما جئتمونا به . ﴿لَيْسَ لَكُم مِّنْهُمُ لَنَزْهَجُكُمْ﴾ قيل : بالقتال ، وقيل : بالفعال ، ويؤيد الأول قوله ﴿وَلَيْسَ لَكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ توعدهم بالقتل والإهانة .

﴿قَالُوا مَلَكُكُمْ مَّعَكُمْ﴾ أى مردود عليكم ﴿أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ﴾ أى بسبب أنا ذكرناكم بالهدى ، ودعوناكم إليه ، توعدهمونا بالقتل والإهانة ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِكُونَ﴾ أى لا تقبلون الحق ولا تريدونه .

وقوله تعالى : ﴿رَجَاءٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَّسْعَى﴾ يعنى لصرة الرسل ، وإظهار الإيمان بهم ﴿قَالَ يَنْفُورُ الْيَهُودُ أَلَيْسَ فِي الدُّنْيَا بَلَاغٌ لِّكُم مَّا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أى يدعوكم إلى الحق المحض بلا أجرة ولا جمالة .

ثم دعاهم إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، وبهاهم عن عبادة ما سواه مما لا ينفع شيئاً ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة . ﴿إِنِّي إِلَهِكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أى أن تركت عبادة الله ، وعبدت ما سواه .

ثم قال مخاطباً للرسل : ﴿إِنِّي أَنَا إِلَهُكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ قيل : فاستمعوا مقالتي ،

واشهدوا لي بها عند ربكم ، وقيل معه : فاسمعوا يا قومي إيماني برسول الله جهرة . فصد ذلك قتلوه ، قتل رجلاً . وقيل : عضاً . وقيل : وثبوا إليه وثبة رجل واحد فقتلوه وحكى ابن إسحاق عن بعض أصحابه عن ابن مسعود قال وطئوا [عليه] بأرجلهم ، حتى أخرجوا نضته .

وفد روى الثوري عن عاصم الأحول ، عن أبي مجلز : كان اسم هذا الرجل حبيب ابن مري ، ثم قيل : كان بجرا ، وقيل : حياكا ، وقيل : إسكافا ، وقيل : قضازا ، وقيل : كان يتعبد في غار هناك . فإله أعلم .

وعن ابن عباس : كان حبيب السحار قد أسرع فيه خدام ، وكان كثير الصدقة فقتله قومه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ﴾ يعنى لما قتله قومه أدخله الله الجنة ، فما رأى فيها من النضرة والسرور ﴿ قَالَ بَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ * بما غفر لي ربى وجعلني من المكرمين ﴿ يعنى ليؤمنوا بما آمنت به ، فيحصل لهم ما حصل لي قال ابن عباس : نصح قومه في حياته بقوله ﴿ يَنْقُورِ أَكْبَهُوا الْمَرْسُورِينَ ﴾ وبعد ثمانه في قوله : ﴿ قَالَ بَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ * بما غفر لي ربى وجعلني من المكرمين ﴿ رواه ابن أبي حاتم . وكذلك قال قتادة : لا يلقى المؤمن إلا ناصحا ، لا يلقى عشا ، لما عاين ما عاين من كرامة الله . ﴿ قَالَ بَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ * بما غفر لي ربى وجعلني من المكرمين ﴿ تمى والله أن يعلم قومه ما عاين من كرامة الله وما هو عليه ! قال قتادة فلا والله ما عاتب الله قومه بعد قتله : ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْكَبْ عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ أى : وما احتجنا في الانتقام منهم إلى إنزال جند من السماء عليهم .

هذا معنى ما رواه ابن إسحاق عن بعض أصحابه عن ابن مسعود . قال سجاد وقاتلة : وما أرسل عليهم جندا ، أى رسالة أخرى . قال ابن جرير : والأول أولى . قلت : وأقوى ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ أى وما كنا محتاج في الانتقام إلى هذا ، حين كذبوا رسلنا وقتلوا ولينا ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾

قال المفسرون : بعث الله إليه حيريل عليه السلام ، فأحد بعضادتي الباب الذى لبندهم ، ثم صاح بهم صيحة واحدة ، فإذا هم خامدون ، أى قد أحدثت أصواتهم ، وسكنت حرركاتهم ،

ولم يبق منهم حين تطرف .

وهذا كله مما يدل على أن هذه القرية ليست أنطاكية ؛ لأن هؤلاء أهلكوا بتكديهم رسل الله إليهم ، وأهل أنطاكية آمنوا واتبعوا رسل المسيح من الخواريين إليهم ؛ فلماذا قيل إن أنطاكية أول مدينة أمنت بالمسيح .

فأما الحديث الذي رواه الطبراني من حديث حسين الأشقر ، عن سفيان بن عيينة ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : « اسبق ثلاثة . فالسابق إلى موسى : يوشع بن نون ، والسبق إلى عيسى : صاحب يس ، والسابق إلى محمد عيسى بن أبي طالب » . فإنه حديث لا يثبت ؛ لأن حسيناً هذا متروك ، ينحى من الغلاة ، وتفردة بهذا مما يدل على ضعفه بالكلية . والله أعلم^(١) .

(١) ما بين المكونين من « قصص الأنبياء » (٨٧ ، ٨٨) .

ذكر قصة نبي الله يونس عليه السلام

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْنِضًا فَقُلَّ أَنْ لَنْ يَجِدَ عَلَيْهِ سَكَادًا فِي السُّلُوكِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمْسَجْنَا لَهُ وَجْهَهُ مِنَ الْعَمَىٰ وَكَذَلِكَ نُخَوِّجُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء ٨٧، ٨٨] هذه قصة نبي الله يونس بن متى ، وكان في بلد تسمى « يسوى » ، وهي في التوصل في العراق ، والتي ذكرها عداس خادماً بستان الطائف ، عندما ذهب رسول الله ﷺ إلى الطائف يطلب البصرة ، فحضر أهل الطائف عليه غلمانهم وسمهائهم ، فقدموه بالحجارة حتى دميت قدماه الشريقتان ، فدخل إلى بستان ، فراه خادماً البستان واسمه عداس ، وأتى به يقطع عب لياً كنه ثم تكلم معه ، فأخبره عداس أنه من يسوى ، قال له رسول الله ﷺ : « قرية العبد الصالح [يونس] » ، قال عداس : وما أدراك بالعبد الصالح ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنه نبي وأنا نبي » .

والنون هو الخوت ، وجمعه ينان مثلما تجمع حوت على حيتان ، فهي مشبهها وزناً ومعنى ، فكلمة ذا النون أى : صاحب الخوت ؛ لأن له مع اخوت قصة ، كما أن النون اسم من أسماء حروف المعجم ؛ ولكن أحياناً حرف المعجم يوافق اسماً له معنى ، مثل الحرف « قاف » يوجد جيل يسمى باسمه [وهو] جيل « قاف » ، وحرف العين تسمى عليه عين الماء ، والعين ابصرة ، وحرف السين يسمى على نهر « السين » ، إذن قد يصادف اسم الحرف اسم شيء آخر .

ومادة الغضب إن أخذت منها المفرد ، نقول : فلان غاصب ، ولكن كلمة معاضب تدل على أن أحداً يشاركه الغضب ، مثل الفعل شارك ومشارك ، فنقول شارك ريد عمراً . فكل واحد منهما يكون فاعلاً مرة ومفعولاً مرة ، بعبارة أخرى : هناك غاصب ومعاصب ، المعاصب يكر غصبان من نفسه ، ولم يعصبه أحد ، وإنما معاضب يعنى الناس أغصبوه ، مثل هاجر أى ترك المكان من نفسه ، ومهاجر أجيره أهل المكاء على المهاجرة ، والمفاضبة من جهتين التي يسمونها للمعالة . فعندما نقول : قاتل ريد عمراً . معناه أن عمراً قاتل ريداً أيضاً ، أى هناك مشاركة في القتال من الطرفين .

ولكن لماذا غضب يونس بن متى ؟ قالوا : لأن قومه كذبوه ، وحلهم من أن تكذيبهم

لمهج الله سبحانه لهم المتاعب ، وينزل عليهم غضب الله وعماه ، ولكنهم عصوا وتمردوا ، وتأخر عنهم عذاب الله ، فلما تأخر العذاب عنهم ، خاف أن يكذبوه ، فقرأ قومه ومشي ، ولم يكن يعلم أن القوم قد تابوا ، فأجل الله عنهم العقاب ، ولكن يونس لم يعلم بهذه التوبة ، فعضب لتأخر العذاب عنهم ، لأنه حشى أن يشكوا في دعوته ويكذبوه ، فتركهم معاضباً . ورسول الله ﷺ ترك مكة مهاجراً ، لأن قومه هم الذين ألجئوه إلى الهجرة ، ولذلك قال ﷺ وهو يفادر مكة : « والله إنك لأحب بلاد الله إلي نفسي ، ولولا أن قومك أخرجنى ما خرجت » .

١٥ النون خرج معاضباً : ﴿ فَطَرَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ [الأنبياء ٨٧] والظن ترجيح ، أى أنه اعتقد أن الله سبحانه وتعالى س يضيق عليه ، فأرض الله واسعة ، وظن أنه سيحدد مكاناً آخر ، يكون أهله أكثر قبولاً للدعوة وأقل عداوة له . ولكنه مرسل إلى هؤلاء ، وكان لابد أن يتحمل الأذى منهم ، ولكن معارضة دعوته كانت شديدة ، التعت كان شديداً من أهل هذه القرية يسي .

بعض الناس يقولون : كيف يظن يونس ، وهو نبي أن الله لن يقدر عليه !! وهذا جهل باستعمالات اللغة ، لأنه لا يمكن أن يطرأ على ذهن عاقل ، أن الله لا يقدر على شيء ؛ لأنه سبحانه على كل شيء قدير ، إذن .. معنى ﴿ فَطَرَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ أى ظن أن الله س يضيق عليه ويتعبه ، بل سيبعثه إلى قوم أكثر طاعة واستجابة من قومه الذين تركهم ، فيسعد بطاعتهم واستجابتهم له ، بدليل أنه نادى في الظلمات : ﴿ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ فهذا القول منه دليل على أنه يريد من الله أن يفس عنه كرمته ، وتنفيس الكربة لا يكون إلا بصفة القدرة له ، إذن ﴿ أَنْ نَقْدِرَ ﴾ أى : لن يضيق عليه ، ونرسله إلى قوم أفضل من قومه طاعة واستجابة .

رحمة الله تعالى ليونس عليه السلام

قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ يُوَسَّسْ لِمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ١٣٩ ﴿ إِذْ آمَنُوا إِلَى الْفَلَكِ الْمَشْهُودِ ﴾ ١٤٠ ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُنْقَرِبِينَ ﴾ ١٤١ ﴿ فَالْقَمَرُ الْمَوْتُ وَهُوَ يُبَيِّمُ ﴾ ١٤٢ ﴿ فَلَوْلَا أَنْتُمْ كَانِ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ ١٤٣ ﴿ لَكِنَّتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات ١٣٩ - ١٤٤] ونسب نعرف قصة يونس عليه السلام مع

الحوت، وكيف نجاه الله من الابتلاء الشديد، هناك شبهة يرددها خصوم الإسلام، وغير الفاهمين، حول قول الله تعالى في قصة يونس ﴿مَلَوْا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسْتَضِئِينَ﴾ ﴿١٨﴾ لَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى قَوْمِهِ يُنْصِتُونَ﴾. فقاروا كيف يظل في بطن الحوت إلى يوم القيامة، مع أنه إن استمر في بطن الحوت، فإنه سيموت والحوت أيضاً سيموت، عندما يحى أجله، ولن يستمر أحد منهما إلى يوم يعثون؟

هذه هي الشبهة، وقد فات هؤلاء أن هناك نظرية اسمها نظرية الاحتواء، مثلما تأتي بكوب وتضع فيه قطعة سكر، وتدبب السكر في الماء، فتصبح كل جزيئة من الماء فيها جزيئة من السكر، وهذا نقول: إن الماء احتوى السكر؛ لأن الاحتواء يكون للأكثر، إذن هو أن يونس سيموت، والحوت سيموت فسيتحولان إلى ذرات بعد الموت، تتفاعل مع بعضها، فتحجم يونس وذراته أقل من حجم الحوت وذراته، فالحوت هو الذي احتوى يونس إلى أن تقوم الساعة، في ذراته المنثورة في الكون، إذن التعبير القرآني صحيح، ولكن هؤلاء لم يفهموا بالتقصود منه.

وقول الحق ﴿فَلَنَسْجَنَآ لَهُمْ وَنَجِّنَهُ مِنَ الْعَذَابِ﴾ أعطى لكل من يقرأ هذه القصة جرعة من رحمة الله ليونس عليه السلام، وقوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ نُنْشِئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ معناه أن هذه الدعوة، ليست خاصة بيونس فقط، ولكن الله سبحانه ينحي كل من قالها من المؤمنين، فأى مؤمن يقع في كرب أو يصيبه هم فيقول ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فإن الله تعالى يفرج عنه ما هو فيه، فكل من يصيبه هم ثم يتوجه إلى الله ويقر هذه الآية لا بد أن يذهب الله عنه، لأنه سبحانه قال ﴿وَكَذَلِكَ نُنْشِئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى مثل هذا الإجماع تنجي المؤمنين.

إيمان قوم يونس عليه السلام

أحسن قوم يونس لما ببداية العذاب، آمنوا ورددوا المطالم إلى أصحابها، أنجاهم الله من العذاب، ويقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِنِّي أَجْزِي﴾ [يونس: ١٨] أى أن الله تبارك وتعالى أنجاهم من الهلاك بعدائه حتى تأتي آجالهم عند نهاية العمر، ولم تنفع عليهم عقوبة من السماء، يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمَّ جَمْعًا﴾

[يوس : ٩٩] نقول : إياك أن تمهم أن الحق سبحانه وتعالى يحتاج إلى عبادة الناس ؛ لأن الله له كمال الصفات مد الأول ، وقبل أن يخلق الخلق ، وبكمال صفاته خلق ، وبكمال صفاته أوجد .

ويقول الله تبارك وتعالى : ﴿ قُلُوبًا كَانَتْ قَرِيَةً ؕ آمَنَتْ فَمَعَهَا لِيَعْنَهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ ﴾ [يوس : ٩٨] . أى أنه لو أن باقى القرى فعلت مثل قوم يوس لجنتهم ، وأقرأ قول الحق جل جلاله عن يونس عليه السلام : ﴿ قُلُوبًا أَنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمَسِيحِينَ ﴾ ﷺ لَلَّيْتُ فِي بَطْنِهِ إِنَّ يَوْمَ يُعْتَنُونَ ﴾ [الصافات : ١٤٣ - ١٤٤] أى أن يوس كان سيظل في بطن الحوت إلى يوم القيامة ، ولكن ذلك امتنع ؛ لأنه من المسبحين ، كذلك امتنع عذاب قوم يوس ؛ لأنهم آمنوا قبل أن يقع عليهم العذاب .

لذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ لَعَنَّا مَآمُوا كُشَفَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْحَرِّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يوس : ٩٨] كسرة قرية مأخوذة من مكان فيه ماء يقيم فيه أهله ، بحيث إذا أتياهم في أى لحظة تجدهم جالسين أو قايمين ، وما داموا قايمين ، فلا بد أن فى القرية أو حولها ما يقيم حياة هؤلاء الناس من طعام وشراب وغير ذلك ، ولذلك سميت مكة أم القرى ؛ لأن كل القرى تأتى إليها في مواسم الحج والعمرة ، فتجد فيها أهلها وتجد فيها الطعام والشراب .

ذكر قصة نبي الله موسى ﷺ

قال تعالى في سورة « القصص » : ﴿ تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَحْنُ مُوسَى وَفِرْعَوْنُ بِالْحَقِّ وَنُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ ﴾ [القصص : ٢٠] هذه السورة احتضت بموسى وفرعون ، ولم تتعرض لأحد غيرهما إلا قارون ، مع أن السور الأخرى جاءت فيها مواكب أنبياء وذلك لأن هذه القضية تعرضت لمسألة القصة ، والقصة هي ادعاء الألوهية ، فجعلها الله سورة وسماها سورة القصص ، وقال فيها الحق سبحانه : ﴿ تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَحْنُ مُوسَى وَفِرْعَوْنُ ﴾ لم يقل : تلو عليك من حبر موسى أو من أمر موسى ولكن قال : ﴿ مِنْ نَحْنُ مُوسَى ﴾ ؛ لأن النبأ أمر مهم ، وهل هناك أهم من أن يأتي موسى ليورد واحدا عن ادعاء الألوهية ؟ فهي مسألة مهمة حقا ، قال الله فيها ستلو عليك بالحق ، وسماه الله القصص ، لماذا ؟ لأن القصص من قص الأثر ، فقد كان العرب قديما يتبعون آثار الأقدام ، فإذا حدث شيء وأرادوا أن يبحثوا عن الفاعل ، يسيرون وراء أثر القدم ، ويعرفون إلى أين ذهب ، وكذلك يعرفون إن كانت هذه القدم قدم طفل أو شاب أو امرأة . إلخ .

فمعنى ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ ﴾ [يوسف : ٣] أى : نقول لك : أشياء هي الواقعة بالفعل . والبشر أخذوا القصص وأدخلوا فيه الخيال والحبكة والرواية والعقدة والبطل وهذا ليس قصصا ؛ لأن القصص هو الشيء الحقيقي .

ولذلك يسميه ربنا أحسن القصص ؛ لأنه مطابق للواقع إذن ما هو هذا القصص ؟ هو في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَذَّيْحُ آبَاءَهُمْ وَيَسْتَضِيعُ مِنْ سَادَتِهِمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

وفرعون استعلى على رعيته وعلى من هم فوق الرعية ، من وزراء ومستولين ليس هذا فقط ؛ بل إنه علا حتى على ربه والعباد بالله وأراد أن يكون إلها ، فأنظر كيف وصل به طغيانه إلى هذا الحد ؟ وما دامت عنده هذه الصفات وهو بشر وله هوى ، فسيستخدمها في إذلال رعيته فهو لم يستعل في الأرض فقط ؛ بل إنه جعل أهلها شيعة مع أن المفروض في شرع الله أن الرعية كلهم سواء ، فلا تستأثر طبقة بحظوة عن طبقة أخرى ، لكن فرعون جعلهم شيعة وسلط بعضهم على بعض .

ومصر في ذلك العصر كانت مسكوبة بالنقيط ، وبعد ذلك في أيام يوسف ﷺ دخلها

بنو إسرائيل ، وسكنوا فيها وناسلوا وكان المفروض أنهم ينوبون في المجتمع القبطي . والناس يمهون أن كلمة قبطي معناها نصراني ، وهذا خطأ ؛ لأن القبطي معناه المصري القديم ، لكن لما احتل الرومان مصر كانوا على دين المسيحية فدخل هذا الخطأ عند كثير من الناس ، ولكن ما هو السبب في أن مرعون جعل طائفة تستعبد طائفة أخرى ؟ قالوا : لأن بني إسرائيل كانوا في خدمة الرعاة الذين أراحوا حكم الرعاة ، ونولى الملك ملوك الرعاة ، فالذي كان يخدم هؤلاء الملوك هم بني إسرائيل ، وكان من عادة الحكام أنه حينما يتوبى حاكم ينظر إلى أنصار من كان قبله يرضطهدهم فلما انقرض ملوك الرعاة بدأ اضطهاد فرعون لبني إسرائيل لماذا ؟ لأن بني إسرائيل كانوا يخدمون ملوك الرعاة .

هنا نجد إعجاز القرآن أنه حينما تكلم عن ملوك مصر في القديم والحديث سماهم فراعين ، فهناك الآية التي نقرأ فيها قوله تعالى ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَارِ ﴾ وهنا في قصة موسى عليه السلام قال عن حاكم مصر : فرعون ، لكن في قصة يوسف عليه السلام لم يأت ذكر للرعاة ، ولكن ذكر لقب الملك ، وهذا من إعجازات القرآن ؛ لأنه في أيام يوسف كان الذي يحكم مصر هم ملوك الرعاة ، لكن قبلها وبعدها كان الحكام مراعاة فمن الذي أخبر محمداً ﷺ بذلك ؟ إنه سبحانه الذي علمه ما لم يكن يعلم ، وأخبره بما لم يكن يدري .

وفرعون كان يستضعف طائفة من رعيته وهم بنو إسرائيل ؛ لتعاونهم مع ملوك الرعاة الذي غزوا مصر ، وتفصيل هذا الاستضعاف يتمثل في ذبح أبائهم واستحياء نسائهم ، وهو بهذا العمل وغيره كان من المفسدين . والإفساد أن تأتي إلى شيء صالح في ذاته تفسده ، فكون فرعون يقتل الذكور من أطفال بني إسرائيل ويستحيى النساء فهذا فساد كبير ؛ لماذا ؟ لأن هناك شيئا اسمه استبقاء الحياة ، وآخر اسمه استبقاء النوع ، فهو حين يقوم بهذا العمل يهدد بقاء النوع ، فهو يقتل الأولاد ؛ خشية أن يناله منهم شر ، لكن النساء يستبقين للخدمة والإذلال ؛ لأنهن ليست لهن شوكة ، ولا خطر منهن على ملكه .

والقرآن الكريم قال عن فرعون في هذه الآية ﴿ يَسْتَعْبِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص ٤] ونجد القرآن قد شرح هذه الحكاية في ثلاث آيات ففي سورة البقرة يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُمْ

مِنْ مَّالٍ فِرْعَوْنَ يَسُوءُكُمْ سَوَاءَ الْعَذَابِ يَذِيقُونَ أَنَاءَكُمْ وَتَسْتَعِينُونَ يَسَاءَ كُمْ فِي ذَلِكَ
بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤٩﴾ [البقرة: ١٤٩]

الآية الثانية في قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ مِنْ مَّالٍ فِرْعَوْنَ يَسُوءُكُمْ سَوَاءَ
الْعَذَابِ يُقَالُونَ أَنَاءَكُمْ وَتَسْتَعِينُونَ يَسَاءَ كُمْ فِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾
[الأعراف: ١٤٩].

والآية الثالثة ذكرها الله تعالى على لسان موسى لقومه، حيث يقول: ﴿وَإِذْ قَالَ
مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا بَعْدَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَخَذْنَا مِنْ مَّالٍ فِرْعَوْنَ يَسُوءُكُمْ سَوَاءَ
الْعَذَابِ وَيَذِيقُونَ أَنَاءَكُمْ وَتَسْتَعِينُونَ يَسَاءَ كُمْ فِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ
عَظِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٦].

فحين جاءت القصة من الله سبحانه مباشرة قال: ﴿يَسُوءُكُمْ سَوَاءَ الْعَذَابِ وَيَذِيقُونَ
أَنَاءَكُمْ وَتَسْتَعِينُونَ يَسَاءَ كُمْ﴾.

وفي الآية الثانية قال: ﴿يَقِيلُونَ أَنَاءَكُمْ وَتَسْتَعِينُونَ يَسَاءَ كُمْ﴾. هما تكلم عن ذبح وقتل،
وسنلاحظ أن «والمعطف» جاءت على لسان موسى في قوله تعالى ﴿يَسُوءُكُمْ سَوَاءَ
الْعَذَابِ وَيَذِيقُونَ أَنَاءَكُمْ وَتَسْتَعِينُونَ يَسَاءَ كُمْ﴾. فلماذا لم تأت هذه الوار عندما جاء الكلام
من الله سبحانه مباشرة، وجاءت عندما كان الكلام على لسان موسى عليه السلام؟ قالوا: لأن
موسى يعدد على قومه نعم الله عليهم، وأنت حين تعدد فضائلك على أهلك مثلاً فتقول له: ألم
أشتر لك بدنة جديدة؟ ألم أشتري لك حقبة؟ ألم أحضر لك حذاء وكراسة وقلما؟ ألم أشتري لك
جراحة تذهب بها إلى المدرسة؟ ألم أدفع لك المصاريف... إلخ. فأنت تعدد فضائلك عليه أو
توضح له كثرتها، لكن حين يكون الكلام من الأعلى لا يذكر النعم الصغيرة، فموسى حين
تكلم أراد أن يوضح نعم الله على قومه، فذكر «يسوءكم سواء العذاب»، وعطف عليها
«يذيقون» ، لكن حين يتكلم الحق سبحانه لا يتر إلا بالشيء الأصيل من النعم.

وفي الآيتين اللتين جاء الكلام فيهما من الله تعالى مرة قال: ﴿وَيَذِيقُونَ أَنَاءَكُمْ﴾ وفي
الأخرى قال: ﴿يَقِيلُونَ أَنَاءَكُمْ﴾. فلماذا قال في الأولى: ﴿يَذِيقُونَ﴾ وفي الثانية
﴿يَقِيلُونَ﴾؟ قالوا: لأن إزهاق الحياة له وسيلتان إما الدبح وإما الحق فذكر الوسيلتين، ولا بد

أن هذه حدثت وهذه حدثت أيضًا ، إذن عندما عطف ﴿يَذِيحُونَ﴾ على ﴿يَسْؤُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ كان الكلام على لسان موسى ، وموسى يريد أن يعدد نعم الله على قومه ويبين أنها كثيرة فقال ﴿يَسْؤُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَذِيحُونَ أَسَاءَكُمْ﴾ لكن ربما حين يمتن ، لا يمتن بالعم والصغيرة ولكن يمتن بالعم الأصلية الكبيرة ، فتدبىح الأبناء واستحياء النساء ، هو نفسه سوم العذاب .

وقوله تعالى ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِيعُ ظِلْمَهُ مِنْهُمْ مُدَبِّحٌ أَسَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِيهِ بِسَاءِهِمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص : ٤٠] العلو - هو الطغيان والتعجب والتكبر . وبلغ من ادعائه العلو أن ادعى الأولوية .

﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أى : طوائف يخدم بعضها بعضا ، ويسخر بعضها لبعض وجعل الأمة الواحدة طوائف يكون لها عند العاقل ملحظ ، هذا الملحظ أنه لا يريد أن تستقر بينهم الأمور ، لأنه إن استقرت بينهم الأمور ، ربما نفرعوا إلى شيء صده فيشغلهم بأنفسهم حتى يظل هو مظلوماً من كل واحد منهم ، والله سبحانه وتعالى قضى ألا تدوم هذه الحال ، لأنه لن يفلح ظلم ، ولا يموت ظلم فى الكون حتى يتقم الله منه ويرى المظلوم آثار هذا الظلم الذى وقع عليه . فربما رحمه ، وحسبك من حادث بامرئ أن ترى حاسديه بالأمس راحمين له اليوم .

ثم يقول تعالى : ﴿وَرَبُّكَ أَنْ تَنْعَلَى الْأَرْضِ أَسْتَضِيعُوا فِي الْأَرْضِ وَتَجْعَلَهُمْ أُمَّةً وَتَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص : ٥] والملة عطاء معوض بدون مجهود ممن يعطاه كأنها هبة من الله سبحانه ، لأن الحق كما قال الإمام على رضى الله تعالى عنه : إن الله لا يُسلم الحق ، ولكن يتركه ليبلو عيرة الناس عليه ، فإذا لم يغاروا عليه ، عار سبحانه عليه ، فإله يريد أن يمتحن هؤلاء المستضعفين فى الأرض ، ليس برفع الظلم عنهم فقط ، ولكن يجعلهم أمة فى الدين ، وفى سياسة الأمور والملك ، قال تعالى : ﴿وَأَوْثَقْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَمُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَكْرِبَهَا أَلْقَى بَنُوكُنَّا فِيهَا﴾ [الأعراب : ١٣٧] وإذا أراد الله تعالى فلا تستطيع قوة أن تقف أمام إرادته سبحانه فأمره نافذ ولا راد لمشيئته قال تعالى : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس : ٨٢] ؛ لأنه تعالى لا يخلق بالمعاجة ، ولكنه يقول : ﴿كُنْ﴾ ولذلك يقول سبحانه : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي

سَيِّئُ أَتَابٍ وَمَا مَسَّكَ بَيْنَ لُغُوبٍ ﴿٢٨٠﴾ [٢٨٠] من عند الله سبحانه أنه من على المستضعفين بفضلهم ، فلم يرفع العذاب والظلم عنهم فقط ، ولكن جعلهم أئمة ، وليسوا أئمة في مكان آخر غير الذي كانوا مستضعفين فيه ولكن في نفس المكان بعد أن أورتهم من كان يظلمهم فرفع عنهم العذاب وجعلهم أئمة على الذين ظلموهم .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَتُكَيِّنُ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَتَرَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَهُؤُلَاءِ مَطْرُوحِينَ مِنْهُمَا مَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾ [الفصل ٦٦] كلمة عكس ، نحن نعرف أن الأرض مكان والمكان هو الذي يحدث به الحدث ؛ لأن كل حدث يحتاج إلى مكان يحدث فيه وزمان يقع فيه ، بمعنى يمكن أي نجعل الأرض مكانا لمكان في الأرض وقد كان فرعون ممكنا في الأرض ، يتصرف فيها تسلطا ويأخذ خيرها والله سبحانه أعطانا ذلك في لقطات متعددة من القرآن الكريم ، فنبى الله يوسف عبر الرؤيا لملك وفرج به وأخرجه من السجن ثم قال له الملك ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدِينَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ [يوسف ٥٤] بمعنى مكين هنا أي لك مركز ثابت ، ولا يبال أحد منك شيئا ، وفي آية أخرى يقول تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : أعطياه سلطة فيأخذ خير الشيء ويصرفه للآخرين .

ومعنى . ﴿ وَتَرَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَهُؤُلَاءِ مَطْرُوحِينَ ﴾ أن هامان هو وزير فرعون ، وكلمة ﴿ وَهُؤُلَاءِ مَطْرُوحِينَ ﴾ تدل على أنه كان لكل منهما جود وحرس خاص ، أو أن المعنى أن هامان يزاول سلطانه من باطن فرعون لأن فرعون لا يزاو سلطانه إلا بواسطة وزرائه ، فالجنود يأخذون أوامرهم من هامان ، فالمسألة واحدة . أو أن المقصود أن يجعل لهامان سلطة فرعون ؛ قاله تعالى أراد أن يرى فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يحسرون من هؤلاء المستضعفين .. يريهم الشيء الذي كانوا يحذرونه ويحافونه . ما هو هذا الشيء ؟ الشيء الذي كانوا يحذرونه ويحافونه هو النبوة التي جاءتهم إما بواسطة الرؤيا أو بواسطة الكهنة أنه رأى نارا تأتي من بيت المقدس وتتسلط على القبط فقط وتترك بني إسرائيل ، فلما عبروا له الرؤيا قالوا : إنه سيأتي أحد من جهة بيت المقدس ويقضى على فرعون ويستولى على الملك أو أن الكهنة قالوا لفرعون : إن طفلا سيولد هذا العام يكون دهاب ملكك على يديه .

إذا كان الكهنة قالوا له : إن دهاب ملكه سيكون على يد طفل يولد من بني إسرائيل في عام كذا ، فمعنى ذلك أن هذا الطفل سيسحر من القتل ويكبر ، ثم يكون على يديه زوال ملك

مرعون ، فلماذا أتعب نفسه وقتل الأبرياء ، مع أن الرؤيا أخبرت أنه سيكون وسينجو من القتل ، فهو سيفتل غير الذي سيكون ذهاب الملك على يديه ، وطبعا أفلت هذا الطفل من يده فهو إذن ليس إلهاً ؛ لأنه لم يعرف ذلك لا بالوهمية ولا حتى بعقله وذكائه فهذا عجب ؛ لأن الله أنقذ هؤلاء المستضعفين وأبان لفرعون وهامان وجنودهم من هؤلاء المستضعفين ، ما كانوا يحذرونه ويحافونه من أن ذهاب ملكهم وهلاكهم سيكون على أيديهم .

منزلة موسى ﷺ عند الله تعالى

قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿يَمْسُحْ بِإِصْطِفَتِكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَيَكَلِّمُ صَدِّمًا مَّا تَمَيَّنْتُكَ وَكُنْ نَبِيًّا الشَّكْرِينَ﴾ [الأعراف ١٤٤] .

كأن الله تعالى يريد أن يلفتنا إلى عطائاته وقبوصاته وهي كثيرة أجل من أن نحصى ، وهو سبحانه يذكره بها في هذا المقام ، فإله قد اصطفيه أى اختاره وميزه على الناس ، وهذه دقة الأداء ، ولو أن الله سبحانه وتعالى قال : ﴿اصْطِفَيْتُكَ﴾ ولم يقل ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ ، لكان معنى هذا هو الاصطفاء المطلق على كل خلق الله حتى الملائكة لمقرين ، ولكن الحق سبحانه وتعالى يفهمنا أن هذا الاختيار والتفضيل ، هو فى دائرة البشر ، ولكى الله تعالى اصطفى من الرسل عمر موسى ؛ فلذلك نقول : هناك فرق بين اصطفاء أو تفضيل برسالة منفردة ، وبين تفضيل برسالة ومعها شيء رائد ، والرسل اصطفاهم الله سبحانه وتعالى بالرسالات ، ولكن موسى ﷺ اصطفاه الله بالرسالة والكلام .

ونال الله تعالى : ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم : ٥١] . مخلص بكسر اللام أى خلص الغرائز المخلوقة لمهمة ، مما يصيبها من شوائب تؤدى إلى الانحراف بها عن هذه المهمة ، وأما المخلص - بفتح اللام - فهو الذى بدأه الله مخلصاً من ذلك ، دون أن يدخل فى تجربة ، وهؤلاء هم الذين يرسلهم الله ليكونوا أسوة سلوكية ، فبدلاً من أن يخلصوا أنفسهم ، يخلصهم الله مخلصين فالمخلص خلصه الله من شوائب الغرائز ، والمخلص - بكسر اللام - خلص نفسه من شوائب الغرائز ، وذلك بالترقية واستعمال منهج الحق سبحانه وتعالى .

ثم يقول تعالى : ﴿وَنَدْبَيْتُهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَفَرَّقْتُهُ بَيْنَهُمَا﴾ [مريم ٥٢] وكلمة

﴿وَقَرَّبْنَاهُ مِنَّا﴾ الجمع : هو المايى الذى يحدثك عن قرب ، مع أن الله تعالى كلمه كلاما سمعه موسى ، فمعنى ﴿فِيحْشًا﴾ أى : كلاما لا يسمعه سواه ؛ لأن كلام الله خصوصية له فلا يسمعه غيره ، فلما سمعه موسى وأخفاه عن غيره صار كأنه ناجاه ، وهذه عظمة القدرة وطلاقتها تعطى الكلام والمناجاة فى وقت واحد .

وقال الله سبحانه : ﴿قَالَ فَذْ أَوْتَيْتَ سُؤْلَكَ يَمْوُئِي ۖ وَلَقَدْ مَسَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ [طه] والشؤل هو الشيء استعور ، المعنى قد أوتيت مسئولك يا موسى ، فالذى سألته أعطيك ومعنى ﴿مَسَّا عَلَيْكَ﴾ أى أعطيك قبل أن تسأل ، فنحن لم نتظر حتى تسأل ، ولك أعطيك قبل السؤال ، ولذلك الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَأَتَسْكُمُ مِن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم ٣٤] أى من كل الذى سألتهم ، وهالك قراءة أخرى تقول : (وأتاكم من كل) بشديد اللام والتوسيع (ما سألتموه) أى : أتاكم حتى قبل أن تسألوا ؛ لأنه سبحانه أعطاك قبل أن تعرف أن تتكلم وتسال ، ومعنى ﴿مَرَّةً أُخْرَى﴾ أى : مرة ثانية ، فهذا اسمه ترتيب ذكرى وإن كانت هذه متأخرة عن تلك .

وكلمة : ﴿مَسَّا﴾ المنة : تعنى عطاء بلا مقابل ، فالجراء على العمل فى الاحرة يكون بعمل ؛ لألك عملت عملاً تجارى عليه ، ولكن المنة أن يعطيك الله شيئاً بغير عمل فالمنة بلا مقابل . وذكر وقت هذه المنة فقال تعالى ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحَى﴾ [طه . ٣٨] فالمنة الأولى حدثت وقت أن أوحيا إلى أمك م يوحى ، فأنت يا موسى ولدت فى عام كان فيه فرعون يقتل أولاد بنى إسرائيل ، فمننا عليك بأن أوحيا إلى أمك أنها إذا خافت عليك تلقيك فى اليم ، وأتينا مسحطتك وردك إليها وجعلك من المرسلين .

ويقول الحق سبحانه : ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَيْكَ حَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه : ٣٩] ولذلك لما رآه فرعون ورأته امرأته ، وقع فى فنييهما حبه ، فهناك محبة بأسباب الله ، ومحبة بدون أسباب ، ولكن الله أرادها .

وفوله تعالى : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ : ذلك يعنى أن الذى سيريه فرعون ولكنه يريه على عين الله تعالى : فإن تعرض لشيء فى تربيته يتدخل الحق سبحانه لإصلاحه .

وحي الله إلى أم موسى

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنِ اضْمُرِي بَنِيكِ فَإِذَا جِئْتَ فَكُلِّيهِمْ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۚ إِنَّا رَأَوْنَاهُ إِلَيْنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ آلِكَ وَاجْعَلُوهُ مِنَّا مِثْلَ الْفُرْسَانِ﴾ [النصر: ٢٧].

«الوحي» في عموم اللغة معناه: إعلام بطريقة خفية لكن الوحي الشرعي: هو إعلام من الله لرسوله بمنهجه لحلقه، هذا هو الوحي الشرعي، بخلاف الوحي في اللغة؛ لأنه قد يكون الموجي هو الله، يُوحى إلى الملائكة كما قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكَةِ أَنِ مَعَكُمْ فَتَبَيَّنَا أَلَمَنِ الْأَمْرُ﴾ [الأنفال: ١٦].

كما يُوحى سبحانه إلى الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَلَامًا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَأَبْرَاهِيمَ مِنْ بَيْنِهِمَا﴾ [النساء: ١٦٣].

إذن.. هناك وحي للملائكة، وحي للأنبياء والرسل، وهناك وحي للمؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنِ آمِنُوا بِمُوسَىٰ وَآدَمَ﴾. وكما أوحى سبحانه إلى أم موسى، وإلى السيدة مريم، ليس هذا فقط؛ بل أوحى الله سبحانه إلى النحل. كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الظَّالِمِينَ يَوْمَنَا وَفَنَّا أَشْحَرًا ۚ وَمِمَّا يُعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨].

ليس هذا فقط؛ بل أوحى الله إلى الجمادات أيضًا فقال سبحانه: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَلًا ۖ فَارْتَمَتْ الْأَرْضُ رَمًّا ۚ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۖ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ۚ يَوْمَئِذٍ تُخْرِجُ أَخَارَهَا ۚ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ١٠-٥]. فهذا كله إعلام من الله إلى كل الأحاس. وقد يكون الإعلام من الشيطان؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلِئَلَّا يَتَّبِعُوا الْفِتْنَةَ لِيُجْزِلُوهُمْ﴾ [الأعداء: ١٢١].

وقد يكون الوحي بين الصالحين من بعضهم لبعض، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأعداء: ١٢٢].

إذن.. فالوحي على إطلائه: إعلام بطريق خفي، إلى أي مخلوق، في أي موضوع. وأما الوحي الشرعي: هو من الله تعالى لئدى اصطفاؤه من رساله بمنهج يهدي به خلقه،

فألوحى إلى أم موسى من امرته الرابعة ، لكن هل الوحي إلى أم موسى كان مفتاحاً في الروح وإلهاماً ؟ يجوز . وهل كان بواسطة رؤيا ؟ يجوز . وهل كان بواسطة ملك كلمها وأرشدتها إلى هذا العمل ؟ انهم أن الذي ألوحى بذلك إلى أم موسى هو الله سبحانه وتعالى . ألوحى إليها بماذا ؟

الأمر الأول: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِي﴾.

والأمر الثاني: ﴿فَإِذَا جِئْتَ عَلَيْهِ فَالْقِيَهُ فِي الْيَمِّ﴾.

ومن التواهي : قول الله تعالى لأم موسى : ﴿وَلَا تَحْزَنِي وَلَا تَحْزَنِي﴾ .

وَهَناكَ خَبْرانِ وَبِشارَتانِ : فِى قولِهِ تَعَالى : ﴿ إِنَّا رَأَوُوهُ يُنْزِلُ مِنْ سَماءٍ مِزْرابًا مِنْ مِزْرابِينِ ﴾

آية واحدة جمعت بين أمرين، وبهيئتين، وخبرتين، وبشارتين، في إيجاز معجز

وقصة الوحى إلى أم موسى وردت فى القرآن مرتين ، ففى المستشرقون أن القرآن يكرر الآيات دون داع ، وجاءوا بقول الله تعالى : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحَىٰ ﴾ (آيَةُ الْآيَةِ) في التَّائِبِينَ فَاتَّبِعْهُ وَهُوَ الْحَقُّ لِنُفِثَ بِهِمْ وَنَلْبِسُكَ بِالْوَسْوَاسِ الْغَافِلِينَ ﴾ (سورة الشورى : ٢٠٢) ، ولما جاء فى وقت الوحى لم يذكر أن أرضعه ، لأن الرضاع فى وقت الأمان ، لكن الوحى هنا جاء فى وقت الخوف ، وكلمة ﴿ اتَّبِعْهُ ﴾ دليل الاستعجال واللهفة ، فليس فيها حمان ؛ لأنه ليس هناك وقت للعواطف ، فقدوة فى التائبين ، ثم تقدف التائبين فى البحر ، ثم أمر الله البحر أن يلقى التائبين إلى الساحل أمام قصر فرعون .

إذن .. مادام لم يذكر كلمة : ﴿أَرْضِيَّة﴾ في هذه الآية ، فهذا دليل على أن الحديث ها

من الموقف ساعة الخوف عندما أمرها الله بإلقائه في اليم بالفعل فكان الرحي الأول تمهيداً لما سيحدث لتستعد نفسها للعمل .

ولذلك تجد في الكلام الأول اطمئنانا ، وذلك في قول الله تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ

مُسَوِّمٌ أَنْ أَرْصِيَهُ فَإِذَا جَفَتِ عَلَيْهِ فَكَأَنَّهُ فِي أَيْمٍ وَلَا تَحَايَ وَلَا تَحَرَّجَ إِنَّا رَاوَدُهُ إِلَيْكَ
وَجَعَلُوهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠﴾ نَجِدُ الْكَلَامَ يَعْجَبُ عَلَيْهِ طَائِعُ الْهُدَى وَالْأَصْمَعَانِ ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي
وَقْتُ الْحَدِيثِ .

ولكنه تمهيد وإعداد لما قبل الحدث ، نكرر الكلام في الآية الأخرى جاء وقت الحدث ،

فكان يقول لها : ها صعى الولد فى التابوت ، واقدفيه فى اليم قبل أن يقتله جنود فرعون ، ألقيه بسرعة ، ولذا تجد الأسلوب فى سرعة واستعجال ، فالوقت لا يسمح بالإطباب . قال تعالى : ﴿أَنِ اقْذِرِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِرِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّيْلِ﴾ فإله قد طمأنها عليه حتى لا تخاف ، لأنه حين يلقيه اليم بالساحل فهذا أمان له .

ويقول تعالى : ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَيْرَ مُوسَىٰ قَدَرًا ۖ إِنَّ كَادَتْ لَتُبْدَىٰ بِهِ ۖ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفصل ١٠] كل واحد منا له صدر ، والصدر فيه القلب ، والقلب فيه الفؤاد ، والقلب لا يسمى فؤادا إلا إذا كان فيه قضايا تحرك حركته ، وكلمة « فارغا » معناها . ليس فيه شيء ينفع ، وليس فيه قضية تضبط التصرف ، فأم موسى أصبح فؤادها فارغا من الشيء الذى يضبط التصرفات ؛ لأنها لم تكن قادرة على تحمل هذا الموقف الصعب ، لولا أن ربط الله على قلبها وصبرها .

والإنسان حين يدرك شيئا يدركه بالة إدراك ، فإما أن يسمعه أو يراه أو يلمسه أو يشمه أو يتذوقه ، فمثلا لو كنت سائرا فى بستان ، ورأيت وردة جميلة أصبحت فأنت ساعة نظرت إليها استقر فى نفسك وجدان تجاهها ، فإذا أردت أن تقطفها فهذا يسمى بروعها ، فالذى يضبط قضية النزوع هذه هو : هل ستقطف هذه الوردة من بستان مملوك لعيرك ؟ فتجد عندك قضية فى قلبك ، وهى أن هذا ليس من حقلك ؛ لأنها ليست ملكك .

إذن . فى القلب قضية ، وهى ألا تتعدى على ما ليس لك ، وإن كنت تريد وردة فعليك بشرائها أو رعايتها ، مهما أنت قد أدرت ووجدت فى نفسك إعجابا واستقرارا ، وأردت أن تنزع لكى تملك ، لكن الذى منعت من قطفها قضية مستقرة فى قلبك ، وهى أن هذا الشيء ليس من حقلك ، وأن صاحبها قد يعاقبك أو يقاضيك .. إلخ .

فأم موسى كان قلبها فارغا من القضية التى تجعلها تصبر ، ولا تذكر سيرة هذا الولد لأى إنسان ، لكن لأنها أم ، والأم تخشى على ابها من أقل خطر ؛ فكادت تبدي قلقها ، لولا أن ربط الله صدى قلبها ؛ فالربط على القلب حتى يصح الأمر عقيدة لا تطفو على السطح .

فقول الله تعالى : ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَيْرَ مُوسَىٰ قَدَرًا ۖ إِنَّ كَادَتْ لَتُبْدَىٰ بِهِ ۖ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى بلغ من فراغ قلبها أنها كادت أن تقول : هذا

ابى لولا أن ربط الله على قلبها ، فانه ربط على قلبها لتكون من المؤمنين ؛ لأن الإيمان بمنك من الضار ويجلب لك النافع ، وإن كان الضار فيه شهوة عاجلة لك ، فهذا ابنك حقاً ، وأنت ملهوفة عليه ، لكلك لو أظهرت ذلك لفرعون أو أحد من حاشيته سيقتلوه في الحال ، فإله لا يريد منك ذلك حتى يظل ابنك حياً .

عودة موسى عليه السلام إلى أمه

يقول تعالى : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُمْ لُحْمٌ ﴾ [القصص ١٢] والتحريم هنا ليس كتحریم بعض الأشياء التي حرمها الله عليها ؛ لأن هذا طفل لم يبلغ سن التكليف ، ولكن المعنى : معاهم من أن يقترب من أية امرأة تأتي لترضعه ؛ حتى يبحثوا له عن مراضع ، فلما رأت أخت موسى أنه لا يرصع من أحد قالت لهم : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُمْ لُحْمٌ ﴾ [القصص ١٢] . فلما قالت ذلك ، سمعها همام فسألها إن كانت تعرف شيئاً عن هذا الطفل ، قالت : لا ، ولكنهم ناصحون ، محبوبون للملك ومخلصون له .

فرده الله إلى أمه ، قال تعالى ﴿ وَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَمَا تَقَرَّ عَيْنُكَ وَلَا تَحْزَنْ ﴾ [القصص ١٣] فرده الله سبحانه إلى أمه كي تفرح وتقرّ عينها به ولا تحزن على فراقه .

وكلمة ﴿ وَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ ﴾ تدل على أن الأسباب في يد المسبب ، فإله رده ؛ لأن الله يجرى الأمور وفق إرادته ومشيعته ويحول بين امرء وقيله ، ولتعلم أن وعد الله حق في قوله : ﴿ أَرْضِعِيْهِ فَإِذَا خَفِيَ عَلَيْهِ كَفَّيْهِ وَابْتِغَىٰ الْوَيْلَ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا نَدُلُّكَ عَلَىٰ آلِهِ ﴾ [القصص: ٧] فحفظه الله تعالى وردّه إليها ، كما وعدنا من قبل .

خروج موسى إلى مدين

ثم تمضى الأحداث فيقول الله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَيْبٍ عَنِ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ الرَّحْمَةِ وَهَذَا مِنْ شِيعَةِ الْقَتْلِ فَاقْبَضَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَةِ الرَّحْمَةِ عَلَىٰ الَّذِي مِنْ شِيعَةِ الْقَتْلِ فَوَكَّرَهُ مَوْسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ [القصص ١٥] ﴿ عَلَىٰ حِينِ غَيْبٍ ﴾ أى : في وقت القيلولة ؛ لأن قوم موسى كانوا مضطهدين ، وهاك بعض

المدن يمنعون من دخولها ؛ لأن بها أكثرية من أعدائهم ، وكان موسى واحدا منهم ، ولكن الله جعل موسى يرم على دخول المدينة - وهي دسف - فأراد أن يدخلها في وقت غفلة من أهلها ، فاختار وقت القيولة لأن الناس يقبلون فيه في بيوتهم ، فلما دخلها وجد فيها وجلا من يتشاجران أحدهما من شيعته أي من بني إسرائيل ، والآخر من القبط .

ومعنى استغاث : أي طلب الغوث ، فاستعانة الإسرائيلي على القبطي فوكره موسى ، أي ضربه يجمع يديه ، فجاء قذُرُ القبطي مع الوكرة ، فلم يمت من الوكرة ، ولكنه مات عندها لا بها ؛ لأن ساعة أجله قد حانت لما صرب موسى الرجل فمات ، حزن وقال : ﴿ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾ عرف أن هذا العمل من فعل الشيطان ؛ لأنه هلك مظل واضع الضلال ، فاستغفر ربه وأتاب إليه . قال تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [القصص ١٦] ساعة يحطئ الإنسان ويفعل دنبا ويعرف أنه أدب لا يكابر فيه ، بل يبادر على الفور ويقول : أنا ظلمت نفسي وحكمت الحق يارب فاغفر لي .

موسى عليه السلام لما استغفر ربه غفر له ؛ لأنه سبحانه هو الغفور الرحيم ؛ لأن الإنسان إذا أصابه علة ، واقرف دنبا ولم يفتح الله له باب التوبة والمغفرة ، لكان الذي يحطئ ويعمل دنبا واحدا في حياته ، يئأس ويعمل كل الذنوب ؛ لأنه وقع في الخطأ ولا توبة له . إذن .. مشروعية التوبة من الله ، والمغفرة لمصلحة الناس تعطي صاحب الدب أملا في أنه لم يطرده من رحمة الله تعالى .

ولما غفر الله تعالى لموسى وقيل توبته ، عاهد موسى ربه ألا يكون ظهيرا للمجرمين ، قال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القصص ١٧] أي يارب ، بما أنعمت عليّ بالمغفرة وعلوتني وتبت عليّ ، أعاهدك ، ربي أنني لن أكون معينا للمجرمين . وأصبح بعد هذا الحادث خائفا يترقب قال تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي ائْتَمَرَ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِمُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَأَوَدُّ أَنَّكَ لَآتَى ثَمِينٌ ﴾ [القصص ١٨] ، أي يترقب . أي يترقب انفعالات الناس المقبيين عليه لأنه يحشى أن يؤذوه انتقاما للقبطي الذي مات في المشاجرة .

ولما أصبح موسى في المدينة حائفاً يترهب انفعالات الناس المقلبين عليه ؛ خشية أن ينتقموا منه ، وجد الرجل الإسرائيلي الذي استغاثه بالأسس يستصرحه ، قال له موسى : ﴿ إِنَّكَ لَتَوَيْدٌ مُبِينٌ ﴾ أنت تريد أن تعويى لأكرر حصاً الأسس ، ومع ذلك حنّ لنصرته ولم يترك خصمه يمتك به ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَىٰ أَرِيدُ أَنْ تُقَاتِلَنِي كَمَا قُلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ [القصص : ١٩] .

وعندئذ جاء الرجل المؤمن من آل فرعون من آخر المدينة يسمى إلى موسى ليحدره ، وقال له : ﴿ إِنَّكَ أَلَمَلًا بِأَعْيُنِنَا إِيَّاكَ لَيَقْتُلُونَكَ فَاهْرُجْ إِلَىٰ لَكَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ [القصص : ٢٠] ، فكأن الرجل ينصحه بالهرب قبل أن يقتله فرعون وقومه ، ولم يجد موسى بُدّاً من الخروج ، ولكن كان ذلك لحكمة أرادها الله سبحانه وتعالى .

قال سبحانه : ﴿ فَهَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص : ٢١] أى حرج من المدينة متخفياً ؛ خشية أن يراه أحد ؛ لأن قوم فرعون كانوا يضطهدونهم دون أن يفعلوا شيئاً ، فما بالك إن اعتدوا وقتلوا منهم واحداً ؟

موسى . . وابنتى شعيب

الله تعالى يقول : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا سَقَىٰ حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا صَيْحٌ مُكَبِّرٌ ﴾ [القصص : ٢٣] قصة قصيرة موجزة ، لكنها تحدد مهمة امرأة ومهمة المجتمع ، ومتى تكون الضرورة ، وكيف تقلر بقدرها ؟ وموسى عليه السلام ورد ماء مدين ، وكلمة ﴿ وَرَدَ ﴾ ليس معناها الشرب ، ولكن معناها الوصول عند الماء ، فالورود لا يقتضى الشرب .

فلما جاء موسى العرس ، أو البئر التي كان يشرب منها أهل مدين ، وجد عليها أمة ، أى : جماعة من الناس يسقون أنعامهم ومواشيهم ، ووجد امرأتين تذودان ومعنى ذاد الشيء : أى منعه أن يفعل كذا ، فالعتم تدفع نحو الماء وهما تمنعانها ؛ حتى يسقى الناس أنعامهم .

ولما رأى موسى هذا الأمر استغرب ؛ إذا كان الناس جاءوا إلى البئر ليسقوا أنعامهم ، فمدا تجمع هاتان المرأتان أخصامهما من الاقتراب من الماء ؟

فسألهم وقال لهما : ﴿مَا حَظُّكُمَا؟﴾ أى : ما حكايتكما ؟ ولماذا تعلان ذلك ؟ فأخبرتهما
أنهما لا تسقيان حتى يصدر الرعاء ، هنا كلمة ﴿يُصْدِرُ﴾ وفيه أيضاً أصدر يُصْـدِر ، كلمة
صدر أى هو بذاته ، وورد هو بذاته ، وأصدر : أى أرسل غيره ، وأورده : أى أرسل غيره أيضاً .
﴿وَلَا تَسْقِي حَقَّ يُصْدِرَ الرِّعَاءِ﴾ أعطت حكماً ، ﴿وَأَبُونَا شَيْعٌ كَبِيرٌ﴾ أعطت
حكماً ثانياً ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾ أعطت حكماً ثالثاً

فأخذنا من هذه الآية ثلاث قضايا . لا تحرج المرأة لعمل الرجل إلا لبضرورة ، فالضرورة
﴿وَأَبُونَا شَيْعٌ كَبِيرٌ﴾ ، وبأخذ الضرورة بقدرها . ﴿لَا تَسْقِي حَقَّ يُصْدِرَ الرِّعَاءِ﴾ ،
والاجتماع الإيماني عليه أن يساعد أصحاب هذه الحالات ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾ .

قال تعالى ﴿سَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَرْسَلْتَنِي مِنْ خَيْرٍ
فَقِيرٌ﴾ كأنه كما حدثت القصة طوال رحلته لم يتيسر له الحصول على الطعام ، وكان يأكل
من بقل الأرض حتى يحل جسمه ، وأصبح مهزولاً ، وضعف من قلة الأكل ، ومع أنه على
هذه حاله من الضعف ، فهو عندما رأى المرأين في هذا الموقف قام وسقى لهما ، وقصى
مصلحتهما ، ومعنى ذلك أن الحق سبحانه وتعالى يريد من الضعيف أن يتجه إلى المعونة ، وحين
يتجه إلى المعونة فليعمل هو بقوته ، وإنما يفعل بمعونة الله ، وبعد أن سقى للبنتين رجع إلى الظل
مرهقاً متعباً ، بدليل أنه قال : ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَرْسَلْتَنِي مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ .

قوله : ﴿رَبِّ﴾ دعاء عما يناسب الإجابة ؛ لأنه كان يستطيع أن يقول : يا الله لك كلمة
«الله» تعنى لمعبود الذى نه أوامر ، لكس الرب هو متولى التربية ، ولذلك جاء بالصفة التى
تناسب الموقف ، أى يا رب ، أنت الذى خلقتنى وأوجدتنى فى هذا الكون ، وما دمت كذلك
فأنا جائع أريد الطعام ومعنى ﴿يِمَّا أَرْسَلْتَنِي﴾ أى أن هذا الرزق من عندك أت ، وإن جاءنى
الآن أحد بطعام فأنت الذى أنزلته إلى .

ويسما هر يناجى ربّه طالباً العون والمساعدة جاءه الفرح من عند الله ، قال تعالى : ﴿فَجَاءَتْهُ
إِخْدَانُهُمَا تَسْخِراً عَلَى أَنْتَحِيحَتِهِ قَالَتِ امْكُثْ أَبْنَى يَدْعُوكَ لِخَيْرِكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُمْ
وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتُ مِنَ الْقَوَمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص ٢٥] . أى
جاءته إحدى الابنتين تمشى فى حياء ، فعندها حياء فى الجوى وحياء فى المشى ، فأخبرته أن

أباها يدعوهُ إلى مقابله ؛ ليجره على شهامته وسقى الغسم لهما ، فموسى لثى الطلب ولم يرفض الدعوة ؛ لأن أباه من الرق سيفتح له وهو في حالة صعبة ، هذا لم يذكر القرآن الكريم كيف مشى موسى إلى بيت شعيب ، وكيف دلّته ابنته على الطريق ، فموسى لم يكن يعرف الطريق ، والفتاة هي التي ستدله عليه ، وما دامت ستدله لابد أن تسير أمامه وحيما تأتي الرياح من الخلف فإنها تكشف الجسم أو يحدد معانه ، فلما سارت أمامه لتدله على الطريق ، حوّل موسى وجهه بعيداً عنها ، وقال لها : سيري خيمي ودلبي على الطريق بقذف الحصى ، فلما وصل إلى بيت شعيب رحى له القصة وهروبه من مصر وترئّص القوم به ، طمأنه وقال له :

﴿ لَا تَحْتَبِئْ بِمَوْتٍ مِنَ الْغَوِيِّ الضَّالِّينَ ﴾ .

ثم يقول تعالى : ﴿ قَالَتْ لِمَ أَتَانِي أَسْتَشْجِرُكَ إِنَّكَ حَيْرٌ مَنِ اسْتَشْجَرْتَ الْغَوِيَّ الْأَمِينُ ﴾ [القصص ٢٦] وهذه الآية أعطتنا حكماً جديداً بعد الأحكام الثلاثة التي ذكرناها سابقاً ، مع أن الضرورة هي التي اضطرت للبنتين إلى الخروج وأحدثا هذه الضرورة بقدرها ولم تراعها الرجال ، والمجتمع المسلم يساعدهما في ذلك ، فالبنت حينما وجدت الإنسان الأمين طلبت من أبيها أن يستأجره ، وهذا دليل على أنها لم تهوّ الخروج ، وتريد أن تجد من يعيها من هذه المهمة ، بعكس الحال عند كثير من النساء اليوم ، التي تبدل الواحدة منهن كل ما تستطيع من أجل الخروج ومراعاة الرجال ، يشر الله لهن من يكفين مشقة الخروج ، وشرح صدورهن للالتزام بالمهمة التي من أجلها خلّفن .

قال بعض العلماء : إن موسى عليه السلام حينما وجد الناس يسقون ، ووجد المرأتين تدودان لم يذهب ويهجرى على الرعاية ويراحمهم ، ولكنه تركهم وشأنهم وتلفت حوله ، فوجد بعض الخضر والخشائش فعرف أنها لا تنمو إلا في وجود الماء فيبحث عنها ، فاهتدى إلى وجود بئر أخرى في هذا المكان ، ولكنها كانت مردومة بحجر ، فأخذ يرحح هذا الحجر من فوق البئر حتى كشف عن الماء وسقى للبنتين ، وكان هذا الحجر كبيراً لا يقوى على حمله عدد من الرجال ، فعرفت البنت أنه قوى ، وحيما سارت أمامه لتدله على بيت أبيها وهبت الرياح ، طلب إليها أن تمشي حمله ، فعرفت أنه أمين ، ولذلك قالت لأبيها : ﴿ إِنَّكَ حَيْرٌ مَنِ اسْتَشْجَرْتَ الْغَوِيَّ الْأَمِينُ ﴾ .

الأب كان عنده حزم ، لأن موسى سيدخل بيته ويرعى غنمه ، والبيت فيه بنتان وموسى

غريب عهما ، فوجد الأب أن أمصل حل أن يروجه لإحدا من هصبح الأولى زوجته والثانية محرمة عليه .

فقال شعيب لموسى : ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكَحَكَ بِإِحدى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ طَلِّقْ أَنْ تَجُرِّيَ تَمَنِّيَ جَجِجْ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ هُنُوكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الْقَبِيلَةِ ﴾ [القصص ٢٧] . أى تكون أجيرًا عدى لمدة ثمان سنوات ، فإن أكملتها عشر سنوات فهذا كرم منك ، ولن أشق عليك فى العمر ، وحين تعاينشى ، ستعرف أنك عايشت رجلاً من الصالحين تحب ألا تفارقه ، وستكمل العشر سنوات برغبتك وإرادتك . فوافق موسى على هذا العرض وقال : ﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجْرَيْنِ فَصَبْتُ فَلَا عُدُوكَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ [القصص ٢٨] أى : هذا الاتفاق بينى وبينك سواء قضيت ثمانى أو عشرًا فلا عدوان على ، وها العماء أحدوا من هذه الآية حكماً آخر فقالوا هل يعنى هذا الكلام أن موسى سينتظر عشر سنين ثم يبنى بالبيت رغم أنهما اتفعا وأشهدا الله على هذا الاتفاق ؟ قال العلماء : لا ليس المقصود ذلك ، ولكن تسمية المهر هى المطلوب ، أما قبضه يمكن أن يؤخر ، أو يُفَدَّم جزء منه ويؤخر جزء ، لكن لابد من تحديده ، تسمية المهر هو الشرط ، أما قبضه فليس مهتماً ، بدليل أنه اشترط أن يروجه ابنته على أن يعمل عنده ثمان سنوات أو عشرًا واتفعا على ذلك ، وبنى موسى بالعقاة قبل أن يقضى جزءًا من هذه المدة

عودة موسى وأهله

ثم يقول تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي مَاتِنُكُمْ مِنْهَا يُصْبِرُ أَوْ حَذُوقٌ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ [القصص ٢٩] ﴿ الْأَجَلَ ﴾ هو : الثمان سنوات أو العشر ، والحق سبحانه أطلق على الزوجة - أهل الرجل ، أى : الجماعة معى ، وذلك لأن الزوجة تقضى للرجل ما لا يقضيه غيرها ، وتزهد شيئًا لا يصح أن يقضيه غيرها ، فقامت مقام الأهل أو الجماعة

ومعنى ﴿ آنَسَ ﴾ أبصر ورأى أو أحس بشيء يؤس ، من الأنس . ﴿ الطُّور ﴾ هو جبل الطور بجنوب سباء ، ومعنى ﴿ امْكُثُوا ﴾ أى : انتظروا فى هذا المكان .

وقوله : ﴿ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾ معناه أنه يحبرها ، وأنها لم ترها ، ولو كانت نارًا مادية من

صنع البشر لامتوى الأهل معه في الرؤية ، فكان هذه حالة خاصة به .

وكلمة ﴿لَمَلَّ﴾ تعيد الرجاء ؛ لأنهما كان نائمين لا يعرفان أين يذهبان ، ولا أين الطريق ، فهذا هو الخبر الذي يسألان عنه ، وكان اخو باردًا يستلزم البحث عن جذوة من النار يستدفئان بها ، فمأرب موسى وأهله في تلك اللحظة شيء يهديهما الطريق ويعرفهما أين هما ، وشيء يدفئهما من البرد ، فجاءهما الحق سبحانه بهذين الأمرين معًا برؤية هذه النار .

وقال في آية أخرى : ﴿سَتَجِدُنَا فِيهَا﴾ [النمل ٧] على سبيل اليقين ، لكنه راجع نفسه بعد ذلك ، وتوقع أنه ربما ذهب إلى النار مرجعها انطمأت ، فقال : ﴿لَمَلَّيْنَا إِلَيْكُمْ﴾ على سبيل الرجاء . والنار التي سيأتى بها أنواع ، فإن كانت النار مشتعلة سيأتى بشعلة ، وإن كان اللهب انتهى يأتى بجذوة ، أو جمرة من النار ؛ ولذلك قال : ﴿لَمَلَّيْنَا مَا بَيْنَكُمْ مِنْهَا بِحَبَرٍ أَوْ بَحْدُوقَةٍ مِنْ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ ، والاصطلاء : هو التدفئة ، فهو بذلك جاء بكل الاحتمالات ، فلما وصل موسى إلى النار ماذا حدث ؟

وصول موسى إلى الوادى المقدس

قال الله تعالى ﴿وَهَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ مُوسَى ۖ إِذْ رَمَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَصُورَةٍ أَوْ أُجِيزُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [طه ٩ ، ١٠] «هل أداة استفهام ، والاستفهام طلب المهم ، ولكن الله تعالى يعلم الحكاية كلها وليس في حاجة إلى الاستفهام من أحد ، ولكن هذا أسلوب تشويق وهو : إلقاء صبيغة الاستفهام ، ولم يكن يعلم موسى هل سيدرك لها ، أم أنه سيصل إليها بعد أن يطفى اللهب وتبقى الجمرات ؟ فمرة تجده يقول : ﴿أَوْ آتَيْنَاكُمْ بِشَيْءٍ قَبِيرٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل ٧] . ومرة يقول : ﴿لَمَلَّيْنَا مَا بَيْنَكُمْ مِنْهَا بِحَبَرٍ أَوْ بَحْدُوقَةٍ مِنْ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص ٢٩] ، وحاجته إلى النار كانت شديدة ، لأن الليلة كانت ممطرة واجو بارد وهم غرباء عن المكان . وكان مع نبي الله موسى زوجته ، وابنه ، وخادمه ، وكانوا جميعًا في حاجة إلى التدفئة ؛ ولأنهم غرباء كانوا في حاجة إلى دليل يهديهم إلى الطريق الذي يسلكونه إلى مصر ، وذلك قوله : ﴿لَمَلَّيْنَا إِلَيْكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ أُجِيزُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ .

إذن .. تعددت الكلمات لأن الموقف لا يمكن أن ينتهى بكلمة ؛ لأنهم لم يتركوه يذهب

بسهولة . فالحق سبحانه وتعالى ذكر كل هذه اللفظات في آيات كثيرة حتى يجمع القصة كلها ، ومعنى ﴿أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ أى أجد أحداً يهدينى بأن يدلنى على الطريق الذى سيوصلنى إلى غايتى .

ثم يقول تعالى : ﴿هَلَمَّا أَتَاهَا نُذِىَ يَمُوسَى ﴿١١﴾ إِنِّى أَنَا رَبُّكَ فَاسْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه ١١ ، ١٢] قال المفسرون إنه لما أتاه وجد نورا يتلأأ فى شجرة ، وهذا النور الذى يتلأأ فى الشجرة لا يحصره الشجرة تؤثر عليه قبيته ، ولا النور يصبغ على خضرة الشجرة فيصعنها .. مسألة عجيبة ؛ لأن الضوء الشديد حين يسقط على الخضرة يبهت لونها والخضرة الشديدة تبهت الضوء ، ولكن هذا لم يحدث مع النور الذى رآه موسى ﷺ على الشجرة .

ونوله . ﴿إِنِّى ءَاسْتَشْتُ﴾ هناك كلمتان متقابلتان «آست» و«توجست» فمعنى «آست» : أى : شعر بشيء يؤس به ، ويُفرح به ، ويطمئن [إليه] . و«توجست» : أى : شعرت بشيء يحيف ؛ ولذلك يقولون : توجست شراً .

سمى الله موسى لما أتى هذا المكان هاله منظر النور الذى رآه «نُذِىَ يَا مُوسَى» ، وهذا معناه أن الذى ياديه يعرفه جيداً ، وما دام يعرفه جيداً ، فلعله اطمأن حينما سمع من ياديه باسمه ، مع أنه أخذ يبحث عن مصدر النداء فلم يعرف . بعد ذلك قال له الحق سبحانه : ﴿إِنِّى أَنَا رَبُّكَ﴾ فحينما سمع موسى ذلك لم يتعجب مما رأى من النور والخضرة الذى لم يطمع أحدهما على الآخر ، ولم يتعجب من سماع الكلام دون أن يرى من يكلمه ؛ لأن هذا شيء من عند الله تعالى ، ولا يقاس بأحداث البشر ، فاصطأ على أنه فى حصرة ربه الأعلى سبحانه وتعالى .

وكلمة «ربك» فى قوله تعالى : ﴿إِنِّى أَنَا رَبُّكَ﴾ تفيد الإيساس ؛ لأن كلمة الله مطلوبها عبادة وتكليف لأن الله مضاع فيما يأمر ، لكن الرب «عطاء» حتى للكارم محاسبه بصفة الرب الذى يتولى التربية .

إذن . فالألوهية تطلب منك أن تفعل ، وتقيد حركتك ، بينما الربوبية كلها عطاء ، فالحق سبحانه يخاطب موسى ﷺ بالربوبية والعطاء فقال ﴿إِنِّى أَنَا رَبُّكَ فَاسْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ

بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿٢٩﴾ لم يقل إسمى الرب المطلق . ولكن قال له أما ربك أت ذلت لأن
الرسول لهم تربية خاصة تختلف عن باقي الخلق جميعاً ، ولذلك قال له هي آية أخرى :
﴿وَلْيُصَنِّعْ عَلَىٰ عِبَادِي﴾ [طه ٢٩] . وقال أيضاً : ﴿وَأَسْطَعْتُكَ إِنْفِيسِي﴾ [طه ٤١] ، فهو
مبجحانه يعطيك من التربية بما يناسب مهنتك عنده .

وأول أمر وجهه الحق سبحانه لموسى في هذا الموقف أن يحلج عنيه ، وعلة ذلك أنه بالوادي
المقدس الذي اسمه «طوى» وفي آية أخرى يقول : ﴿وَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَظِئِهَا الْوَادِ
الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفصل ٣٠] . وهذا ليس تكراراً في القرآن

معجزات نبي الله موسى عليه السلام

قال تعالى : ﴿فَالْقَوْمَ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْلَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء ١٠٧ ، ١٠٨] .
لِلنَّظِيرِينَ ﴿

إلقاء العصا أحد في القرآن ثلاث مراحل .

المرحلة الأولى : هي التي واكبت اختيار الله لموسى عليه السلام ليكون رسولا جيسا قال الله
له : ﴿وَمَا يَلَكَ بِسَمِيكَ يَنْمُوتَ﴾ [طه ١٧] قَدْ هِيَ عَصَايَ أَلَوْكَؤَا عَلِيَّهَا وَأَهْشُ بِهَا عَلَى عَمِي
وَلِي فِيهَا مَنَارِبُ أُخْرَى ﴿ [طه ١٧ ، ١٩] .

الله سأل موسى عن الذي في يده ، وموسى عليه السلام كان يمكن أن يحجب بأنها عصا ، ولكنه
إسان كُرم بأن يكلمه ربه فأرد أن يطيل أنسه بكلام الله سبحانه ، فذكر صفات العصا ،
واستخدامها ، وفوائدها له .

ولكن أخبره الله تعالى أن لها مهمة أخرى عنده وأمره أن يلقيها ، قال تعالى : ﴿قَالَ أَلْقِهَا
تَمُوتُ﴾ [طه ١٩ ، ٢٠] . فلما ألقاها انقلبت حية بعد أن
كانت عصا ، والعصا معروف أنها كانت عصا من شجرة ، ولم تصبح عصا إلا بعد أن انتهت
حياتها النباتية ، وصارت جمادا بعد قطعها من الشجرة ، ومع ذلك فهي لم تنقلب إلى شجرة
كما كانت في الأصل ولكنها تجاوزت مرحلة النباتية التي كانت عليها في البداية ، وانتقلت
إلى مرحلة الحيوانية ، وهي مرتبة أعلى من النباتية .

وعندما رأى موسى هذا اسطر حاف ، فطمأنه ربه وقال له : ﴿حَدَّثَهَا وَلَا تَخَفْ سَمِئْتُهَا

سَيَرَّتْهَا الْأَوَّلَى ﴿٢١﴾ [طه ٢١] . فأمسكها فصارب عصا ، فكأن الله تعالى يدرسه على المهمة ، وحينما يقابل فرعون يكون قد جربها قبل ذلك ؛ لأنه لو بدأها مع فرعون قد يحاف من إلقائها ؛ خشية ألا تتحقق المعجزة ، ولكنه بعد أن تدرب عليها اطمأن قلبه وأصبح واثقا من للمعجزة .
والمرحلة الثانية : حينما ألقاها أمام فرعون وحاشيته .

والمرحلة الثالثة : حينما ألقاها أمام السحرة في يوم الزينة .
ها يقول ربنا سبحانه : ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴾ [الشعراء ١٠٧، ١٠٨] ومعنى ثعبان مبين . أى : [واضح] الثعبانية ؛ من حياة وحركة وشكل وكل شيء .

والقرآن الكريم يصف عصا موسى بعدة أوصاف . مرة يصفها بالثعبان ومرة بالحية ، ومرة بالجان ، وهذه الأوصاف كلها محتمة فيها فهي حية وثعبان وجان فهي في خفة حركتها كأنها جان ، وفي شكلها المرعب كأنها حية ، وفي تلويها كأنها ثعبان . هي الوقت الواحد تأخذ كل هذه الأوصاف .

وموسى أسمر اللون ، ومن معجزاته أنه سيمص يده في جيبه فتخرج بيضاء لها شعاع وبريق يأخذ الأبصار ، فالجيب ليس هو جيبك الذى تصنع فيه المنديل أو النقود ، ولكن الجيب معه فتحة الصدر ، موسى أحرح يده من جيبه فإذا هي بيضاء للناظرين .

ما أجراه الله على عصا موسى لم يكن سحرا

غرق الماموس يكون بإذن الله تعالى للرسول والأولياء ، إن الحق يفعل ذلك لإثبات صدق الرسول فى البلاغ عنه ، وهذا الإثبات مشروط بشروط : منها أن يكون النبوع قد بلغ درجة قصوى فى المجال الذى تحدث فيه تلك المعجزة ، ومثال ذلك غرق الحق لماموس العصا ، ومضى فرع من شجرة ، وجعل موسى الشجرة يلقبها فإذا هي حية تسعى .

إن ما أجراه الله على عصا موسى لم يكن سحرا ، ولكنه نقلها من جس إلى جس ، ويعلم أن موسى أس إلى ربه قال تعالى ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَقشُرُ بِهَا عَلَى عَسَى ﴾ [طه ١٨] ، وجاء الأمر بإلقاء العصا : ﴿ أَلْقِهَا يَمُوسَى ﴾ [طه ٢١] فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى . ولذلك كان لابد أن تُدهش المسألة موسى ﷺ ؛ لذلك أوجس خيفة ؛ ولأن موسى

عرف سر عصاه ، فلم يوجس خيفة عندما تحدى السحرة الذين جاء بهم فرعون لي يوم الرية ، وعرف موسى أنه ليس بساحر مثلهم ، ولكن الله أناء بمحجرة سنهر حتى السحرة ، فالسحرة يعلمون أنهم يغيرون من تخيل الناس للأشياء ، أما الحق فهو يعبر الأشياء نفسها ، لقد حاء السحرة بناء على أمر فرعون في يوم الرية ويعلمنا القرآن بمسحات جانبية أن نظام السحرة كان موجوداً ؛ ولذلك طالب السحرة بأجرهم إن هم غلبوا موسى : ﴿ قَالُوا إِنَّا لَا نَدْرَأُ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ [الأعراف ١١٣] . وعلى الرغم من اختلاف مواهب هؤلاء السحرة ، ورقى كل منهم في فرع من فروع السحر ، فإنهم جميعاً سجدوا للحقيقة عندما ألقى موسى عصاه ، [نال تعالى محبوا عن ذلك] ١٣١ ، ١٣٢] إنهم عرفوا أن ما فعله موسى ليس قدرة بشرية ، ولكنه قدرة فوق قدرة البشر . ولكن كل آية تعطي لقطة ، فلو جمعنا اللقطات تعطينا القصة كاملة ، فالوادي المقدس اسمه « طوى » ، وفي الآية الثانية حدد المكان أكثر وبيّن أنه في ﴿ شَطِطِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ ﴾ . فهذا تحديد للمكان ، ولكن لماذا أمره [الله] بهلج عليه ؟ قالوا لأنه ما دام وادياً مقدساً لا يصح أن تمصل جسمك بشيء يفصلك عن هذا الوادي مع أنه يمكنك أن تصل في بعلك ما دام طاهراً ولكن هذا الوادي مقدس أى مطهر ، ولذلك بعض الدس كانوا يمشون حفاة في المدينة المنورة لعلمهم بصادق موطاً لقدم الرسول ﷺ . ثم أحبره أنه احتاره لهمة فقال تعالى : ﴿ وَأَنَا أَخَذْتُكَ فَاسْتَجِ لِمَا يُوحَى ﴾ [طه ١٣] . قاله تعالى احتاره ، وهو سبحانه وتعالى أعزم حيث يجعل رسالته .

وقوله تعالى : ﴿ فَاسْتَجِ لِمَا يُوحَى ﴾ لم يقل له . « اسمع » لأن الإنسان يسمع ما يهيم وما لا يهيم ، لأن الأذن ليست كالمعين يمكن إغلقها عن الشيء الذي لا تحب أن تسمعه ، ولكن « استمع » معناها أن تتكلف السماع إذن .. هناك سمع وهذه ليس لك فيها خيار ، واستمع : تكليف أن يسمع ؛ ولكن تستمع أى طلب السماع وأرهف أذنه من أجله . ومعنى ﴿ فَاسْتَجِ ﴾ أى هب كل جوارحك لأن تسمع ، لأن الأحاسيس مختلفة هناك أذن تسمع ، وهناك غير تبصر ، وأنف يشم ، ولسان يتكلم ، ويد تلمس ﴿ فَاسْتَجِ ﴾ أى جند كل حواسك وأعصائك للسمع واستحضر قلبك وفقد المطلوب الذي تستمعه وقوله .

﴿يُوحَى﴾ أى : يأتيك عن طريق الوسى .

ثم يقول سبحانه وتعالى : ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِابْتِغَاءِ رَحْمَتِي﴾ [طه ١٤] ، أى : أنا الله صاحب الأمر والهي . لماذا قال الله له ذلك ؟ لأنه سيكلفه ، والتكاليف دائماً شاقة على النفس ، معطاء الألوهية تكليف يسما عطاء الريوية نعم وخيرت ينهن منها العبد فى الدنيا ، وكلمة « لا إله إلا الله » هى المنتهى وهى ينبوع الذى يصدر عنه كل السلوك الإيماني وهى كلمة التوحيد التى قال عنها الرسول ﷺ : « خير ما فتنه أنا والنبون من قبلى . لا إله إلا الله » . وما دام لا إله إلا هو سبحانه ، فلا يصح أن تتلقى عن أحد غيره ولا نعتد إلا عليه ولا نشغل إلا بذكره سبحانه .

وكلمة : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ . معناها : أنك لن تتلقى أوامر من أحد غيرى ، وقوله تعالى : ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ أى : أطع أوامرى ، واجتنب النواهى ؛ لأنه ليس لى مصلحة فى ذلك ولكنها مصلحة أنت .

إيفاس الله تعالى لموسى عليه السلام

أراد الله تعالى أن يؤنس موسى عليه السلام فقال له : ﴿وَمَا تِلْكَ بِسَمِينِكَ يَشُومُن﴾ [طه ١٧] « ما استفهامية ، والناء : إشارة لشيء مؤث ، والكاف : لخطاب موسى . أى : ما هذا الذى معك يا موسى ؟

أنت إذا سألت أحداً وقلت له : ما هذا الشيء الذى معك ؟ يقول لك : معى كتاب ، أو قلم ، أو مصحف ، أو أى شيء معه . فلما قال الحق تعالى : ﴿وَمَا تِلْكَ بِسَمِينِكَ يَشُومُن﴾ كان الجواب الذى هو على قواعد النعة أن يقول له . عصا . لكنه يعلم أن الذى يخاطبه يعلم أن التى معه عصا ، ولكن هذا كلام الإنسان ؛ لأن الموقف صعب على موسى ، فأراد الله أن يؤنسه ، ومقام الإيس إذا كان من الله لعبده ؛ فلا بد أن يستغل العبد هذا الإيناس ، فلا يرد رداً مقتضياً . كما يقولون : « كلمة ورد عطاها » ؛ فموسى لأنه يكلم ربه ويريد أن يطيل أنسه به قال . ﴿هِيَ عَصَايَ أَتُكَلِّمُهَا وَعَظْمٌ كِذَا وَهِيَ عَلَى عَظْمٍ وَفِيهَا مَكَارِثُ أُخْرَى﴾ [طه ١٨] مع أن الله لم يسأله عن عمله بهذه العصا ، ولكن موسى أطل فى الإجابة ؛ لأن هذا مقام الأس فى الخطاب مع الله ، ولا ينهيه إلا راهد فى الله - حاشا الله - فكلمة « هى » فى الجواب

غير مطلوبة « عصاي » لم يقل له : لم هذه العصا ؟ ولم يقل له : ماذا تفعل بها ؟ حتى يقول له : إنه يتوكأ عليها رهبش بها على العمى ، وأن له فيها مآرب أخرى . والعصا لها تاريخ طويل فهي أولاً لارمة للتأديب والرياضة ، ولارمة من لوازم الأسفار .

فموسى حينما تكلم مع ربه ذكر بعض فوائدها فقال : ﴿ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا ﴾ . وذلك حين يكون ماشياً أو متعباً ؛ وذلك لأن المشي عدة حركات فهو يحتاج إلى طاقة لحركة المشي بدميه ، ويحتاج إلى طاقة أخرى ؛ لأن القدمين تحملان بقية الجسم ، فإذا تعب وأصبحت قدماه لا تقويان على حمل الجسم ، فإنه يعتمد على العصا ، فتساعده في حمل الجسم ، فإن كان عنده بعض القوة يستطيع أن يمشي قليلاً ، وإن لم يكن عنده بعض

من معجزات موسى ﷺ

يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى إِسْحَاقَ وَإِبْرَاهِيمَ نَبَتْ فَسَلَّ نَبَتْ إِسْرَافِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا ﴾ [الإسراء : ١٠١] . الكفار طلبوا من الرسول ﷺ بعض الآيات والمعجزات مثل : أن يعجز لهم من الأرض ينهوا ، وأن يكون له بيت من حرق ، وأن تكون له جنة من نحيل وأعاب ، وغير ذلك ، فالحق سبحانه وتعالى يرى لهم أن غيره طلبوا آيات وجاءتهم ، ومع ذلك كفروا ؛ لأن المسألة كلها تعنت وتهرب ، فالله تعالى أتى موسى ﷺ تسع آيات واصحات مشهورة ؛ لأنها كلها كانت على مشهد من الناس ورأوها ومع ذلك لم يؤمنوا .

من هذه الآيات : الحية التي انقلبت عصا ، ويده يدخلها في جيبه تحرق بيضاء ، وأحد الله تعالى آل فرعون بالسنين ونقص الأموال والثمار ، فكذبوا فابتلاهم الله بالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، وهذه تسع آيات .

بعض المفسرين يقولون : نبي الله موسى جاء بآيات كثيرة وليس تسعاً فقط ، وذلك مثل : الحجر الذي ضربه بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، وعملية تنق الجبل موقهم كأنه ظلة ، وثلث والسوى كل هذه آيات أرلها الله لنبيه موسى .

هنا علينا أن نفهم النص ، الله سبحانه يقول . ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى إِسْحَاقَ ﴾ وهي الآيات الخاصة بفرعون .

ها الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ قَتَلَ بَنُو إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا ﴾ .

كيف يكون السؤال لى إسرائيل الذين جاءهم موسى بالبيات ؟ سؤالهم متعذر لأنهم ماتوا والوجود ذريتهم ، ولكن السؤال لهؤلاء هو عين السؤال بدرتهم الذين تاملوها فيما بينهم إلى أن وصلت إليهم ، كما قال الله مخاطباً لى إسرائيل المعاصرين لرسول الله ﷺ : ﴿ قَدْ كُنَّا كُفْرًا مِّنْ عَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَعْبِدُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة ٤٩] . مع أن هؤلاء اليهود لم يشهدوا هذه الأحداث ، ولكنها وقعت لأبائهم وأجدادهم ، لولا أن الله نجى آباءهم وأجدادهم من الهلاك ، ما وجدوا هم أنفسهم ، مكانه سبحانه بنجهم ؛ لأن نجاة آبائهم نجاة لهم . لماذا يسأل رسول الله ﷺ بنى إسرائيل ؟ لأنهم الأمة التى لها علاقة بوحى الله ولها اتصال بالرسول ، واتصال بالكسب المنزلة عسى الرسل ، كالتوراة والإنجيل ، ولكن مشركى قريش ليس لهم صلة بذلك .

موسى رغم كل هذه الآيات التى جاء بها قال له فرعون . ﴿ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا ﴾ وكلمة . « مسحور » هل هو الساحر أم سحره غيره ؟ قالوا : هناك اسم مفعول ويروى بمعنى اسم الفاعل لحكمة ، مثل قوله تعالى . ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَحَسْبُكَ وَبَيْنَ أَلْيَدٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْثُورًا ﴾ [الإسراء ٤٥] فهل الحجاب ساتر أم مستور ؟ قال العلماء : إن المعنى حجاب ساتر ، ولكن اسم المفعول جاء بمعنى اسم الفاعل ؛ لأن الله يؤكد السر فيقول : إن الحجاب ليس ساتراً فقط ولكنه مستور أيضاً فإذا كان الحجاب نفسه مستوراً بمعنى ذلك أن الستر أحكم . ومثل : « الظل الظليل » أى . المظلل ، لأنه ظل مركب فكأن الظل مظلل وكلمة « المسحور » بمعنى المحبوس أى أثر فيه السحر فصار مخبواً مجنوناً ، وهذه الكلمة قالها الكفار لرسول الله ﷺ .

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الْفُلَيْمُوكُ إِنَّ تَتَّبِعُونَ لَا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ [الفرقان ٨] . وفسر انكلمة قالها فرعون لموسى ﷺ .

مرة يقول ساحر ، وهذا كلام غير مستطقي ؛ لأنه إن كان قد سحر الذين آمنوا به ، فلماذا لم يسحر باقى الكفار ونشهى المسألة ؟

وإن كان مسحورًا؛ فالمسحور هو المحبوس الذي تنأى منه حركات دون أن تمر على العقل الواعي الذي يختار بين البدائل ، وليس له سيطرة لإرادة على نفسه ولا سيطرة خلق ، والرسول لم يكن كذلك . قال تعالى ﴿وَبِالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝ مَا أَنتَ بِمُعْجِزٍ مَّنْجُورٍ ۝ وَإِنَّ لَكَ لَأَخْرَآ عَيْرَ مَمْنُونٍ ۝ وَإِنَّكَ لَعَلَّ خُلِقَ عَظِيمٌ ۝﴾ [القلم ١ - ٤] . والمحبوس لا يكون على خلق عظيم أبدًا ، وحتى فرعون تناقص مع نفسه في هذه العصية ، فهو يتهم موسى بأنه مسحور ، وحين يخر السحرة ساحدين ويؤمنون بموسى ، تجد فرعون يقول لهم : ﴿إِنَّمَا لَكُمْ فِي آلِ مَرْيَمَ إِثْمٌ ۝ فَذَرْنَهَا وَآلَهَا فَتَنَالَكُمُ الْمَوْتُ مِنْ هُنَا أَوْ مِنْ هُنَا ۚ وَإِنَّكُمْ لَفِي ذَلُولٍ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝﴾ [طه . ٧١] . فهذا دليل على التحيط ؛ لأن الساحر لا يسحره أحد .

وكان ردُّ موسى ﷺ على فرعون ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ بِفِرْعَوْنٍ مُّشْوَراً﴾ [إسراء : ١٠٢] . وكلمة ﴿مُؤَلَّاهُ﴾ تشير إلى الآيات الكثيرة التي أنزلها الله على موسى ؛ لتكون حجة على فرعون وقومه ، فأنت يا فرعون نعم أن هذه الآيات منزلة من عند الله وأن موسى ليس بساحر أو مجنون ، فهو يعلم ذلك في قرارة نفسه . قال تعالى : ﴿وَجَعَلُوا يَمَآءَ وَاسْتَيْقَفَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُظُمًا﴾ [المر ١٤] فهو على يقين من صدق موسى ، وأن هذه الآيات من عند الله ، ولكنه يعلم أنها ستزلزل سلطانه .

وكلمة : ﴿بَصَائِرُ﴾ مماها أن هذه الآيات تعطى بصيرة للناس تفتح بصائرهم ، وتجعلهم يقولون على ذلك الرسول الذي جاء بأية معجزة من جس ما نبغ فيه القوم .

والمنبور هو : المصروع عن أي حير أو الهالك ، وهذا القول من موسى لفرعون دليل على أن الله أطلعه على أن هذا الرجل سيهلك ، ويعرق ، ويموت على كفره .

فرعون ألهم موسى بأنه مسحور ، وموسى ﷺ لم يسكب على ذلك بل رد عنه بهوله : ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ بِفِرْعَوْنٍ مُّتَّبِعٍ ۝﴾ .

ولا شك أن المسحور أفضل من المنبور ؛ لأن المسحور أو المنجون نصحبه حياة وإن كان عقله عائبًا ، أما المنبور فهو الهالك أو المصروع عن أي حير .

والحق سبحانه حين يوصينا بحسن معاملة الوالدين بقول تعالى ﴿وَأَخِصُّ لَهَا جَاحَ الَّذِي مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا﴾ (الإسراء: ٢٤). فالحق سبحانه يأمر موسى أن يدخل يده من جيب القميص ثم يخرجها، وساعة يخرجها ستعطي ضوءًا وبريقًا ولمعانا، وموسى كان لونه مائلًا إلى الشمرة، ولذلك السبي ﷺ حينما وصف الرسل الذين لقبهم في المعراج قال: «أما موسى فرجل آدم أسمر طوال كأنه من رجال أزد شوبة». ومعنى طوال أى رائد الطول، وأزد شوبة قبيلة معروفة بطول رجالها ولوهم الأسمر.

وفي آية أخرى يقول الله تبارك وتعالى لموسى ﷺ ﴿أَسْأَلُكَ بِكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ يَصَافَةٌ مِنْ عَيْرٍ سُوءٍ﴾ [القصر: ٣٢]. وهذه لقطات مختلفة حتى تكتمل الصورة.

وإذا كان لون موسى أسمر، فإن يياض يده كان له شعاع وبريق يخطف الأبصار، وأحيانًا البياض حين يأتي مع السمرة، قد يكون مرضًا كالبرص مثلاً؛ ولذلك الحق سبحانه حتى يبعد هذا الأمر قال عن يد موسى: ﴿يَصَافَةٌ مِنْ عَيْرٍ سُوءٍ﴾ [طه: ٢٢].

إذن .. هناك يياض على سمار ولكن بسوء، ومعنى ﴿يُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ [طه: ٢٣]. أى نريك المعجزات والآيات العجيبة التي عمدنا لشبك بها حتى تفهم أن الذى أمرك بذلك إله، فإياك أن تخاف أو تهتز، فالحق سبحانه سيرسله إلى فرعون، وسيواجهه فى ذلك مشكلات عديدة تحتاج إلى شحمة قوية من اليقين والتثبيت.

ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين

قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٨]. كلمة «نزع» بدل على أنه إخراج بعض وبعبارة: لأن الشيء السهل لا يقال: نزعته، ولكن يقال: خلعته، إنما النزع بدل على مقدومة، ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ يدل على أن يده كان لها وضع خاص، وكانت هي مكان هو حريض على وجودها فيه، وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنْزَلَ بِذَلِكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ يَصَافَةٌ مِنْ عَيْرٍ سُوءٍ﴾ [النمل: ١٢] وهكذا أوضحت لنا هذه الآية الصورة.

ففى قوله تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ لم يبين لنا أنه أدخلها ثم نزعها، ولكن فى الآية الأخرى من الإدخال والسرع، وفى آية ثالثة قال ﴿وَأَسْمُمُ بِذَلِكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ أى إلى جيبك،

والجيب هو مكان دخول الرأس من الثوب ، ولكن الجيب الآن هو أى شيء يجعله لا سحب ، ولقد كان الناس في الماضي الطريق الوحيد إلى جيوبهم من فتحة الرقبة في الثوب وقد كان الجيب هو الشيء الذي توضع فيه الأشياء الثمينة ، ولابد أن يكون في الموقع الأمامي من الثوب حتى يكون الشيء النفيس أمام نظر الشخص ، وأن يكون مكان هذا الجيب تحت الإبط حتى يكون أمام وتحت يده .

اسمى سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ فَخَرُجْ يَمْضًا﴾ ، إذن .. حدث إدخال وإخراج ، يسما في الآية الثانية في قوله تعالى ﴿وَأَصْمُتْ يَدَّكَ إِلَىٰ جَيْبِكَ﴾ ، وفي آية أخرى قال : ﴿وَرَجَّ يَدَّكَ﴾ ، إذن .. هناك ثلاث حالات : إدخال اليد في الجيب ، وصمها إلى الجناح ، ورجعها إلى الخارج ، وكل آية من الآيات الثلاث جاءت بلفظة ، فإن أحداها معاً أعطتنا الصورة الكاملة .

لذلك إن كل من يقول : إن قصص القرآن فيه تكرار .. نقول له : لا ، إنه متكامل كل آية تأتيها بلفظة لتتكمّل القصة ، على أن يجب أن نلفظ إلى أن هناك صراعاً نشأ بين فرعون وموسى ، والصراع لا ينشأ إلا عن عداوة ، ولكي يستخدم الصراع لابد أن تكون هناك عداوة متبادلة .

ما هو الإعجاز في بياض اليد ؟ الإعجاز هنا لكي يقع لابد أن يكون موسى أسمر اللون ، وبذلك يكون البياض في يده مخالفاً للون جسمه ، ولكن قوله تعالى : ﴿يَصْأَلُ لِلنَّظَرِ﴾ أى يباصها ليس مجرد اختلاف في اللون ، ولكنه ولفت أنظار الموجودين ، إذن .. فلابد أن تكون يد موسى بيضاء ، بحيث أن الضوء الصادر منها يجذب أنظار كل الموجودين في المكان ، ولكن بعض الناس قد يقول : إن يد موسى ابيضت بسبب مرض أصابه ، كأن يكون مصاباً بداء البرص مثلاً فتبيض يده ، حتى هذا النظر لم يدعه الله سبحانه وتعالى بل أوضحه ، فقال في آية أخرى : ﴿يَصْأَلُ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ﴾ فكأن كل لفظ تعطيها استكمالاً لما حدث ، وتكون في هذه الحالة يضاء للنظرين ، تدن على أن ضوء يد موسى لامع مصفى بلفت نظر الناس كلهم ، ولا يلفت نظر واحد أو اثنين من الموجودين فحسب ؛ بل يلفت نظر الموجودين جميعاً ، وهذا لا يمكن أن يحدث إلا إذا كان ليد موسى الطيف بريق ولعان وسطوع ، وكما عرفنا فإن هذا البياض من غير سوء .

قيام موسى بدعوة فرعون لإخلاء سبيل بنى إسرائيل

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَيُّ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلاَ يَنْفَقُونَ﴾ [الشعراء : ١٠ ، ١١] .

﴿وَالْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ هم الذين ظلموا أنفسهم فجعلوا لله نداً وشريكاً ، والشرك ظلم عظيم . ﴿وَالْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ هم : قوم فرعون ، قال لهم موسى : ألا تنفون ربكم لأن هناك طغياناً يكون بالأمر فيقول لك : افعَلْ كذا ، ومرة يتحدّث إليك فيقول لك : ألا تفعل كذا . فهذا يقول : ﴿أَلَا يَنْفَقُونَ﴾ أى : يتفون الله في ظلمهم لأنفسهم ، باتخاذهم فرعون إلهاً من دون الله ، وظلمهم بنى إسرائيل بأنهم كانوا يذبحون آبائهم ويستحيون ساءهم ، أى يديحون المواليد المذكور فقط دون الإناث ، ولا شك أن قوم فرعون سبب في تدميرهم وادعائه الألوهية لأنهم لم يتصدوا له وأطاعوه ، فبر أنه حيسا ادعى الألوهية وجد معارضة من قومه ، لاستحى وما تجرأ ورغم أنه إله ولكنهم وانفوه وأصاعوه ، بهم شركاء في الجريمة ، ولذلك في اللغة هناك طاغية وصاعوت ؛ فالصاعوت هو الذى يعيه الناس على أن يكون طاغوتاً .

وموسى ﷺ لم يأخذ الأمر من الله تعالى ويصرف لتعديده ، ولكن لأنه يعرف مشقة المهمة التى كُفِّ بها ، وأنه عاين فرعون ويعرف مدى ظلمه وجبروته ، فقال مساجياً ربه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١١﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا وَلَا يَطْلُقْ لِسَانِي فَأَرْسِلْ لِي كَهْرُومَ ﴿١٢﴾ وَلَكَمْ عَلَىٰ ذَنبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء : ١٢ - ١٤] ، فهذا رجل ادعى الألوهية ، ومن الصعب أن يستجيب لرسول يدعوه من القوم الذين يستعبدونهم هو ، فخاف مرسى أن يكذبوه ، وساعة يكذبونه سيصيق صدره ؛ لأنه سيشهد باطلاً يحابه حقاً واضحاً ، وإذا ضاق الصدر تلجج الإنسان فلا يستطيع أن يتكلم الكلام المنقوع ؛ لأن الغضب يجعله لا يعرف أن يرتب كلامه أو أفكاره ، فلا يحسن التعبير عما يريد ؛ ولذلك طلب موسى من ربه أن يرسل معه أخاه هارون ليعينه في هذه المهمة الشاقة ، حتى يساعده في توصيل الدعوة إلى فرعون وقومه .

كما أن المسألة ليست عادية بين موسى وبين فرعون وقومه ؛ لأن لهم ثأراً قديماً عنده ، لأنه قتل منهم واحداً مع أنه لم يكن يقصد قتله ، فهو يحاف أن يقتلوه بسببه ، ولكن الله أخبره بأن

هناك لن يحدث . ولذلك قال تعالى ﴿ كَلَّا ﴾ [الشعراء ١٥] ، و﴿ كَلَّا ﴾ حين ترد تعني ما قبلها ، وما قبلها هنا ثلاثة أشياء - ﴿ أَسَافُ أَنْ يُكْرَبُونَ ﴾ ، ﴿ وَيَعْبِقُ حَصْدِي وَلَا يَطْلُقُ لِسَانِي ﴾ ، ﴿ فَأَمَّا أَنْ يَفْتُلُونِ ﴾ فـ ﴿ كَلَّا ﴾ هنا منصبة على نفي ما يكون من موسى مثل ضيق الصدر وعدم انطلاق اللسان ، لكن التكذيب ليس منه وهم سيكذبونه فعلاً فـ ﴿ كَلَّا ﴾ هناك لا تنفي التكذيب الذي سيحدث منهم لموسى ﷺ .

و﴿ كَلَّا ﴾ هنا نعت بحرف موسى في قوله ﴿ وَيَعْبِقُ حَصْدِي وَلَا يَطْلُقُ لِسَانِي ﴾ وقوله ﴿ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ فقال له ربه ﴿ كَلَّا ﴾ أى اطمئن إن هذه الأشياء لن تحدث ، وكلمة : ﴿ كَلَّا ﴾ لها شأن مع موسى ، فإله علمها له وهو حفظها ؛ ولذلك حينما حرج موسى ﷺ من مصر هو وأصحابه واتبعه فرعون بجنوده ، ورأى أصحاب موسى فرعون وجنوده من خلفهم والبحر أمامهم فخافوا وقالوا ﴿ إِنَّا لَمَذْكُورُونَ ﴾ [الشعراء ٦١] . فقال لهم موسى بإيمان الواثق من نصر ربه . ﴿ كَلَّا ﴾ أى أن هذا لن يحدث . وهذا ليس بقوته هو ، ولكن بقوة الله الذي أرسله ؛ لذلك قال كلاً إن معي ربي سيهدين .

ها الحق سبحانه يقول : ﴿ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَعِينُونَ ﴾ [الشعراء ١٥] أى فاذهبا بالمعجزات الدالة على أن موسى رسول صادق من عند الله ، وأنه جاء بمعجزة وهذه الآيات هي العصا ، ويأصم اليد من غير سوء حين يخرجها من جيبه .

وقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَعِينُونَ ﴾ ، روى آية أخرى قال : ﴿ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسَمِعُ وَأَرَى ﴾ [طه ٤٦] لأن الإيداء قد يكون من السمع فقط في أول لقاء ، وقد يكون من السمع والعين بعد ذلك ، ثم يقول تعالى : ﴿ فَأَتَيْنَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أن أرسل معنا نبي إسماعيل ﷺ [الشعراء ١٦ ، ١٧] هنا لم يقل : ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ لأن الرسول هو الواسطة من المرسل إلى المرسل إليه ، فإن كان واحداً يصح وإن كانا اثنين أو ثلاثة فهم رسول أيضاً ، وهما حين يلتقيان فرعون ، لن يتكلم الاثنان في نفس واحد ، ويقولوا : ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ولكن سيتكلم أحدهما ويؤمن الثاني على كلامه أو يسكت ، فسكوته أو تأميه كأنه قال ، ولذلك حينما دعا موسى على فرعون وقومه قال : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمَرُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يوس ٨٨] . وقال له ربه : ﴿ قَدْ أُجِيبَ دَعْوَتُكُمَا ﴾ [يوس ٨٩] . يقصد دعوة موسى وهارون ؛

لأن موسى كان يدعو وهارون يؤمن ، والمؤمن أحد الداعيين ، ولكن ما هو طلب موسى من فرعون ؟

الأصل في رسالة موسى أنه لم يأت لدعوة فرعون إلى الإيمان بالله ، ولكنه جاء ليخلص بني إسرائيل من العذاب ثم ينتهت إليهم ليعطيهم المصحح ، لكن الكلام في الإيمان والحرار مع فرعون عن الألوهية جاء تبعاً للقصة ، فموسى جاء لإقناع بني إسرائيل ؛ ولذلك يقول الله تعالى في آية أخرى : ﴿ فَأَيُّ آيَةٍ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْلَهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ أَتَعِ الْهُدَى ﴾ [طه ٤٧] فتتوزع الأساليب في القرآن يشرح لقطات فيها تكرار المعنى الإجمالي .

ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ [طه ٢٤] . غلة الذهاب أن فرعون طغى ، والطغيان هو مجاورة الحد ، ومجاورة الحد هي أن تأخذ ما ليس لك ، وتبائع في أخذ ما ليس من حقك ، وفرعون لم يعتد على حق من حقوق بشر مثله ، ولكنه اعتدى على حق من حقوق الله بآلوهيته ، وموسى حينما سمع اسم فرعون بدأ يتذكر ما حدث له في مصر قبل سفره إلى مدين ، حينما وَكَّرَ الرجل فقتله ، وتأمر عليه القوم ليقتلوه ، وحرَّج هاروناً بترقب ، وتذكر أن فرعون هو الذي رثاه ، وكيف سيواجهه بعد هذه الأحداث . حواطر كثيرة جالت في ذهن موسى في هذه اللحظة ، وشعر أن العبء أصبح ثقيلاً عليه ، فقال : يا رب ، أوامرك نافذة ، ولكن هذا الأمر يحتاج إلى أشياء كثيرة طلب من الله أن يعينه بها . فقال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾ [طه ٢٥ ، ٢٦] . فطلب من الله أن يشرح له صدره ، حتى لا يقابل هذه المهمة بانقباض ؛ لأنك لو أقدمت على مهمة بانقباض فقدت ثلاثة أرباع نوتك ، ولكن إذا أقدمت مشرح الصدر تكون مجتمع القوى .

فالإنسان حين يقابل الأحداث بانقباض الصدر يعيها على نفسه ، دون أن يعلم أن المهمة الصعبة تحتاج إلى شرح صدر رائد ؛ لأنك لابد أن تراجعها بانشرح أكبر تناسب المجهود ، كما طلب موسى من الله أيضاً أن يُيسر له أمر هذه المهمة ؛ لأن شرح الصدر أمر من جهة الفعل ، وتيسير الأمر يتعلق بجهة المقابل ؛ ولأن موسى سوف يقوم بتبليغ رسالة ، وهذا يحتاج إلى منطق . وكان منطق فيه لثعة أو حيسة في لسانه ، وكذلك الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما كان في لسانه لثعة أو حيسة خفيفة في الكلام ، فكان النبي ﷺ حين يراه يصححك

ويقول : « ورثها عن عمه موسى » .

طلب موسى من ربه أن يشرح صدره بهذه المهمة ، وأن يسر له الأمر حتى لا يتعبه انقوم
الندى سيدعوهم [وهم] فرعون وقومه ، وحتى يستطيع أن يتكلم بسهولة فدعا ربه أن يحل
عقدة من لسانه ، ولم يطلب من ربه أن يحل عقد لسانه كلها ؛ حتى لا يكون متمرداً على قدر
الله في جعل لسانه محبوباً لبعض الشيء ، ولكن هذا مجرد لطف في قدر الله ، والهدف منه
أن يفقه المحطوبون قوله ويفهموه ، ومع أن الله اختار موسى فهو لا يطعن بهذا الاختيار لهذه
الرسالة ، بل طلب من الله أن يرسل معه أخاه هارون ؛ ليعينه على هذه المهمة ؛ لأنه يريد أن
يؤدي الرسالة على أكمل وجه ، فالجانب الذي عبده فيه قصور ، أراد أن يكمله بأخيه . وهو
بذلك يعطي نموذجاً للبشر ، وهو أن الإنسان إذا كُلف بأمر ، ثم وجد في نفسه قوة كفاءة في
بعض النواحي ، فعليه أن يستعين بغيره بسد هذا النقص ، وهذا دليل على إخلاصه لهذه المهمة ،
ورغبته في إتمامها على خير وجه .

وبعد ذلك أتى بعنه هذا الطلب في أن يكون هارون معه في هذه المهمة ، فقال : ﴿ وَأَخِي
هَارُونُ شَرُّ أَفْصَحَ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنْ أَحَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾
[القصص ٣٤] وهارون بالإصافة إلى أنه أفصح من موسى قالوا إنه كانت فيه صفات أخرى
حميدة ، منها أن موسى كانت فيه حدة - أي أنه سريع الغضب ، أما هارون فكان فيه لين
وحلم ، ولذا طلب موسى أن يكون معه ؛ ليحبر عقدة لسانه بعصاحته ، وليعانج بليته شدة
موسى وجذته ، فيكمل كل منهما الآخر .

والدليل على ذلك أن موسى لما رجع ورجع بني إسرائيل اتحدوا ، العجل ، عصب وثر
وأمسك بهارون وجذبه من خيته ، فيها ظهرت حدة موسى فعادا قال له هارون ؟ قال
﴿ يَسْأَلُونَكَ لَا تَأْخُذْ بِدِينِ الْفِتَنِ أَنْ يَقُولَ فَرَرْتُ مِنِّي بَيِّتَ إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْفُبْ
قَوْلِي ﴾ [طه ٩٤] . انظر الرقة واللين في كلام هارون لأخيه موسى ، فالصاحبة نجبر عقدة
اللسان ، واللين يجبر الشدة والحدة التي كانت في طبع موسى عليهما السلام .

والشيء الآخر أن موسى كان أسمر اللون ، وهارون أبيضه ، وكان شعر موسى أجعد ،
وهارون شعره سبط ناعم ، وكان هارون حسن تقاسيم الوجه وكان موسى أقنى الأنف

ولا شك أن جمال الحلقة أمر تتراح له الأبصار، فرسول الله ﷺ كان يهرل عليه الوحي في صورة دحية الكلبي؛ لأن دحية كان جميل الشكل، فكان الله يرسل له جبريل في صورة دحية الكلبي لكي يؤنسه ويسعده، فهارون كان يتمير بهذه الأشياء، فلم يأخذها موسى على أنها أشياء تمير بها ليحقق عليه، ولكنه أخذها على أن أحياه تمير بها ليكمل نقصه هو، وهذه هي النظرة التي يجب أن تكون في الناس، فإذا كان إنسان فيه حصلة طيبة فعلى غيره أن يفرح بها؛ لأنك إذا ما رأيت كمالاً في غيرك فاعلم أن هذا في صالحك أنت

وكلمة: «ورير» مأخوذة من الورر وهو الملجأ الذي يلجأ إليه الناس، مثل قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۚ إِنَّ رَيْكَ يَوْمَهِ تَلَسَّنَتْ﴾ [القيامة ١١، ١٢]. لأن الإنسان لا يقدر على أعباء العمل بمفرده فيأتي بوزير ليعينه، ولكن هذا الوزير الذي يأتي به ليعينه فيكتشف أنه ليس معيلاً له، وإنما هو ورر عليه فالوزير إن كان ناصحاً أميناً يكون بحق حصصاً ومدحفاً، وإن كان غير ذلك فاستغل الوزارة لتحقيق المكاسب الشخصية له ولأقاربه، فهذا لا يكون وريراً، ولكنه يكون وريراً؛ لذلك فالرسول ﷺ يقول: «خير الملوك ملك جعل الله له وريراً، إن نسي ذكره، وإن بوى على خير أعانه، وإن أراد شراً كفه» وبين في حديث آخر أن كل حاكم له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف، وبطانة تأمره بالسوء كما قال عنها رسول الله ﷺ، في المقابل انظر إلى سياسة البشر، فمثلاً أنوشروا قال: إياكم أن تفهموا أن أحداً يستعنى عن أحد. فكل واحد له مهمة، فأنت إن ردت في شيء فقد نقصت في أشياء، هذه الأشياء قد وضعها الله في غيرك حتى تكملك، وأنت تكمل غيرك، فالمعايشة مشتركة، ولكن الضرورة تفرضها وليس التوصل.

ومعنى ﴿وَلَجَعَلْ لِي وَرِيراً بَيْنَ أَهْلِي﴾ [طه ٢٩] أي مأموناً عليّ. والازر: هو القوة. ولهذا تجد أنهما حينما يدعيان إلى فرعون، رغم أن المتحدث هو موسى، إلا أنه تكلم بلسان الاثنين فقال: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾. فالشيء الذي يتحدث فيه موسى هو عن نفسه وعن هارون؛ ولذلك لما دعا موسى عن فرعون وقال: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيْنَا أَمْوَالَهُمْ وَاشْدُدْ عَلَيْنَا قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمَرُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يوس ٨٨] أجابه الحق سبحانه بقوله: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوُوكُمَا﴾ [يوس ٨٨] مع أن موسى هو الذي دعا، لأن موسى كان يدعو وهارون يقول آمين، والمؤمن أحد الداعين. وموسى حينما طلب من ربه أن

يرسل معه أحياه هاروه ، لم يقل ذلك حتى يريح نفسه من عناء الدعوة ومواجهة فرعون وقومه ، ولكنه فعل ذلك حتى يكون أداء المهمة على خير وجه ؛ حيث يكمل كل منهما الآخر ، وتراد أيضا ألا يبدد طاقته كلها في الدعوة ، وأن يبقى شيئا منها لعبادة الله وذكره وتسيحه ، فقال ﴿وَأَشْرِكُهُ فِي آمْرِى﴾ ٣٢ ﴿كَيْ تَسْبَحَكَ كَثِيرًا﴾ ٣٣ ﴿وَتَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ ٣٤ إِنَّكَ كُنْتَ بِمَا بَصِيرًا﴾ [طه : ٣٢ - ٣٥] .

وقوله : ﴿وَأَشْرِكُهُ فِي آمْرِى﴾ يعنى أن تكليف هارون بالدعوة يكون من قبل الله تعالى ، حتى لا يكون تعضلاً من موسى عليه .

ومعنى : ﴿تَسْبَحَكَ كَثِيرًا﴾ ، التسبيح . التقديس . تقديس الله دائماً وصفاتاً وأفعالاً . فليس ناحية الذات ليس هناك ذات مثل ذاته ، قال تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ومن جهة الأفعال ليس هناك فعل مثل فعله ، فإذا قال الله : فعلت ، فلا تقل . لماذا فعل ؟ لأنه مقدس في فعله أيضاً ، وفي الصفات أيضاً تعرف أن الله سميع ، ولكن إياك أن تظن أن سمعه مثل سمعك ، فهو سبحانه مقدس ، أى منزه في ذاته وبهى صفاته وبهى أفعاله . ومعنى « تسبحك » أى تقديسك تقديس الألوهية الذى أنت فيه ، فلا نأتى لك بشيء من اختلافنا ، وتسبحك ليس تسيحاً قليلاً ولكن تسيحاً كثيراً ، فكان التسبيح من المسيح بورثه لذة في نفسه ؛ والطاعة من الطائع تورثه لذة في نفسه ، لذلك قال السبيح ﷺ . « وجعلت قرعة عيسى في الصلاة » ، وحينما كان يحربه أى أمر كان يقوم إلى الصلاة . ومعنى : ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِمَا بَصِيرًا﴾ أى إنك قيوم عليها ، ترى وتسمع ما تقوم به من عمل وعدم نيتها فيه .

وهوله تعالى : ﴿فَأَتَيْنَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء : ١٦] بعض المستشرقين يشككون ويقولون : كيف أتى لفظ رسول مرة مشى ومرة مفرداً ؟

والجواب : أنهم لم يعطوا إلى شيء هام ، هو وحدة رسالة موسى وهارون ، لأن كلا منهما لم يأت برسالة منفصلة ، بل جاء الاثنان برسالة واحدة ؛ ولذلك فإن كان الرسول ليس واحداً بل اثنين ، فإن الرسالة لم تتعدد بل جاءه برسالة واحدة ومن هنا فإن قوله تعالى : ﴿رَسُولٌ﴾ بالمفرد إشارة إلى وحده الرسالة ، وأنها ليست بتعاقب الرسل ولكنها رسالة واحدة وإن كُتِفَ بها رسلان ، يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّؤْمِنِينَ وَهَزَّوْكَ

بِكَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأِيهِ بِبَنَاتِكَ [عوس ٧٥] الملائة هم أشرف القوم وأعيانه والمقربون لصاحب السيادة والسلطان ، هؤلاء اسمهم الملائة ، وذلك لأنهم هم الذين يملكون العين ؛ لأن العين إذا اتجهت إليهم تتعلق بهم لوجاهتهم وسلطانهم ولا تنظر إلى سواهم ؛ وذلك لما لهم من مهابة وإجلال ديني ، فالعيون تتعلق دائماً بالسلطان أو الرئيس إذا جاء إلى أى مكان ومن حوله من المقربين .

ولكن لماذا قال الحق سبحانه وتعالى . ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَمَلَأِيهِ بِبَنَاتِكَ﴾ لأن الملائة هم الذين جعلوا فرعون يطعمى وهم الذين ساعدوه وأعانوه على ادعاء الألوهية ويدعون له بكل مبادئه ، ويحيطونه بهالة قدسية ؛ ولذلك فإن الطاغية لا يطعمى إلا بمن حوله يزينون له الباطل ويعينونه على الفساد ، ولو وجد أشخاصاً يقفون ضده ويقاومونه لما طعمى وتجرى ، ولكنه يجد الملائة حوله كلهم يعينونه على الباطل ويمثلون حياته بفاقة ورياء .

إذن .. فهو بهم فرعون وبدويهم لا شيء ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿بِبَنَاتِكَ﴾ الآيات هى المعجزات الدالة على صدق نبوة موسى وهارون ، وعلى صدق المهج الذى يحملانه من الخالق الأعلى ، ولكن هل هذه الآيات استطاعت أن تقنع فرعون وملائه ؟ طبعاً لا ، لأنهم يريدون نموذ الدنيا ولا يبحثون عن الحق .

المواجهة بين نبي موسى ﷺ ، وفرعون الطاغية

لما ذهب موسى وهارون إلى فرعون وطلبا منه أن يرسل معهما بنى إسرائيل قال له فرعون : ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ يَسَا وَلِيًّا وَلَبِثْتَ يَسَا مِنْ عَشْرَةِ سِنِينَ ۖ﴾ وَقَعَلْتَ فَعَلْتَكَ أَلَمْ تَكُنْ فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿ [الشعراء : ١٨ ، ١٩] أى أنا الذى رببتك وأنت صغير ، ورعبتك حتى صرت شاكاً قوياً . والعلماء يقولون : إن موسى ظل فى بيت فرعون ولم يركه ، إلا فى سن الثامنة عشرة أو فى سن الثلاثين ، فرعون رياه وليث عنده سنين ، وهنا فرعون يذكره بالرجل الذى قتله قبل أن يهرب إلى أرض مدين ومعنى : ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ إما : من الكافرين بالوهمية فرعون ، أو : الكافرين بنعمنا عليك ، لأننا ربيناك وأكرمناك . والعقلاء يقولون : إن الحق سبحانه وتعالى حين يوفقك فى تربية الأبناء ، عليك أن تفهم أن هذه عناية من الله ؛ بدليل أن الأب يكون واحداً ، والأم واحدة والبيئة واحدة والمرلة واحدة ويخرج الأخوان كل منهما له

سلوك محض واتجاه معاكس للآخر ، فهذا دليل على أن هناك عناية إلهية أعلى من عناية الوالدين بأولادهما ، ها فرعون يعدد ما فعله من أجل موسى ؛ فقد رباه صغيراً ولث عبده سبع سنة ، وهو هنا يسوق الأدلة التي تكشفه وتفصح ادعائه الألوهية ، فلو كان إلهاً لمعرف أن هذا العلامة الذي رباه هي بيته ، وعطف عليه وأراد أن يتحدده ولدًا ؛ سيكون هلاكه على يديه .

والفعلية التي فعلها موسى هي قتل الإسرائيلي حينما صربه بيده فقصى عليه مع أنه لم يكن يقصد قتله ، فرد عليه موسى ليبرئ نفسه . ﴿ قَالَ مَعْلَلَهَا إِنَّا وَلَقَا مِنْ الْعِبَائِينَ ﴾ [٢١] ﴿ فَزَرْتُ بِكُمْ لَنَا جَفَتُكُمْ نَوَّهَبَ لِي رَيْي حُكْمًا وَخَلَّيَ مِنَ الْمَرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء ٢٠ ، ٢١] أي أنكر أنسى قتلتي ، ولكن كنت جاهلاً بما سترت على هذه العملية ، وما كنت أعتقد أبدًا أن وكرة كهده ستमित أحدًا ، فكلمة ﴿ الْعِبَائِينَ ﴾ هنا ليس معناها أنه كان ضالاً عن الهدى ؛ ولذلك يقول ربما لرسوله محمد ﷺ ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ [الصحن ٧٠] فهذا ليس معناه أن الرسول كان ضالاً عن الحق ؛ لأنه لم يكن عبده مهج من الله وتركه إلى غيره ، لم يحدث هذا أبدًا .

فموسى فر من مصر خشية القتل ، خاصة بعد أن سمع عن تأمر القوم عليه ، كما في قول الله تعالى . ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْعَمِيَةِ يَمُنَى قَالَ يَنْمُوْسَى بِكَ السَّلَآ يَأْتِيْرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاتَخْرُجْ إِلَى لَكَ مِنَ النَّصِيْحِينَ ﴾ [القصر ٢٠] ومعنى ﴿ وَهَبَ لِي رَيْي حُكْمًا ﴾ أي حكمة ففعلتني أصعب الأشياء في مواضعها ؛ لأنى خرجت مطلقاً ولم أقصد قتل الرجل ، فأعصابى ربي من الحكمة ؛ حتى لا أضع الشيء إلا هي محله ، بعد ذلك يقول موسى ﷺ لفرعون . ﴿ وَتِلْكَ يَوْمَ تَمُوتُ أُمِّيَ أَنْ عَبَدْتَ بَنَى إِسْرَآئِيلَ ﴾ [الشعراء ٢٢] أي هل تم علي بهذه الأشياء التي فعلتها معى من تربية ورعاية ؟ هل هذه الحسة تقاربها بما تفعله مع بنى إسرائيل ، من ذبح الأطفال الذكور واستحياء النساء واستعباد الرجال ، فهل هذا يقارن بما تفعله فى حق قومى ؟ ! ومعنى : ﴿ حَدَّثَ ﴾ أى جعلهم عبيداً .

ثم يقول تعالى : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء ٢٣] . أى من رب العالمين الذى تتحدث عنه ؟ فرد موسى : ﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ [الشعراء ٢٤] أى ربي هو رب هذه السماوات وما فيها من شمس وقمر وبجود وأبراج ، ورب هذه الأرض بما فيها من رروع وثمار وجبال وبحار وأنهار وحيوان ، وهو الذى خلقها قبل أن توجد أنت يا فرعون .

موسى ردة على فرعون بشيء ثابت [متحقق] في الكون قبل وجوده ، فما الذي رده أنت في الكون يا من تدعى الألوهية ، ثم تطلب معه في الحوار فقال ﴿يَنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ أى إن كنتم نظنون أن هذه الأشياء لم يخلقها أحد .

استغرب فرعون هذا الكلام من موسى فقال لم حوله : ﴿أَلَا قَسِيحُونَ﴾ . فرعون قال ذلك ؛ لأنه كان ينتظر من أتباعه بمجرد أن يسمى موسى عه الربوبية والألوهية ، ويسبها إلى من خلق السماوات والأرض ، أن يهتوا للرد على موسى ؛ لأنه حقر إلههم ، ونفى عنه ما يدعى ، فقال لهم مستكبرا سكوتهم . ﴿أَلَا قَسِيحُونَ﴾ أى أما سمعتم ما قاله لى ؟ ! فماذا تسكتون ؟ وهم سكوا لأنهم يعلمون أنه كاذب في ادعائه الألوهية ، ويتمنون في قرارة أنفسهم أن يبصر الله موسى عليه ؛ حتى يتخلصوا من جبروته وطغيانه .

[ولكن] موسى سارع في بسط حجته ، قبل أن يتدخل أحد من القوم في الحوار [ردا على سؤال فرعون من رب العالمين] ؟ ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء ٢٦] أى من الذى كان إله آبائك وأجدادك يا فرعون قبل أن توجد أنت .

حينما رأى فرعون أن موسى سيهزمه بالحجة والمنطق ، أراد أن يجرح من هذا الجدل فاتهمه بالجنون ، وهذه أيسر تهمة للدعاة عند الحكام المستبدين ، قال تعالى : ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ إِلَهُكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء ٢٧] هذا الأسلوب يوضح فرعون ، فهو يعترف أن موسى رسول مرسل ، وما دام مرسل فلا بد أن هناك من أرسله وهو الله ، فكلامه شهادة صده مع أنه لم يستطع أن يرد على كلام موسى ، فاتهمه بالجنون ولكن موسى لم يعأ بقوله ومصى في عرص دعوته ، ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا يَنْتَهَىٰ عَنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ﴾ [الشعراء ٢٨] أى أن ربي هو رب المشرق والمغرب وما بينهما ، إن كان عندكم عقل تقيسون به الأمور .

ولما ضاق فرعون به ذرعا ولم يجد حجة يرد بها عليه ، هذبه بالسحر شأن كل حاكم طاعية لا يفهام ، ولا يقتنع بالحوار مع معارصيه

قال تعالى . ﴿قَالَ لِيْنِ أَخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾ [الشعراء ٢٩] . وهذا إفلاس في الحجة ، فكيف تقوى على الغالب وتأخذه إلى السجس ، فأنت لم تقو على الحجة فلو كانت عندك حجة لقرعت الحجة بالحجة .

حين سأل فرعون موسى قائلاً: ﴿عَمَن رَّبُّكَ يَمُوسَى﴾ قال به موسى: ﴿رَبِّيَ الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ بهذا دليل البسم، وهذه هي المهمة الأساسية: لأن فرعون الذي ادعى الألوهية، وأى إله لابد أن يكون هناك مألوه له، ومألوه هنا خلق مثل فرعون، والذي يعتر به هو الملك والأرض، والهيل، والخيرات؛ حيث قال: ﴿الَّذِينَ يَمُنُّونَ بِالْمُلْكِ يَصْغَرُونَ﴾ [الأنعام: ٥١]. فالخلق سبحانه يريد أن يرد عليه ويدين له أن هذه النعم التي ادعى بها الألوهية، ليس له صلة بخلقها وإيجادها، كما أنه لم يحقق البشر الذي يريد أن يتأله عليهم مردّه الخلق سبحانه إلى قضية الخلق الأولى.

فإذا قيل لفرعون: ﴿رَبِّيَ الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠] [أى] هذه إلى أن يرتقى، ويتمتع بما أعطى، لا فرعون، ولا غيره يستطيع أن يناقش في هذا الأمر؛ ولذلك [نرى أن] فرعون نقل النقاش من هذه القضية الجوهرية إلى قضية تابعة، فقال لموسى وهارون ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ [طه: ٥١]. ذلك لأنه لا يقلد عسى القضية الأساسية قائماً.

ولكن موسى أعلق أمامه هذا الباب وردّ عليه قائلاً: ﴿عَلِمْتُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ أى أن هذا الشيء علمه ليس عدى أنا، ولكن عند الله الخالق، قال تعالى ﴿قَالَ عِنَّمَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَصِلُ رَبِّي وَلَا يَمَسُّ﴾ [طه: ٥٢] الذي يسأل عن حال القرون الأولى هو الذي يجازيها إن كانت مؤممة أو كافرة، فرعون لماذا يسأل؟ هل هو الذي سيجازي هؤلاء الناس السابقين؟ طبعاً لا، إذن فالسؤال هروب من جدل الجد إلى مهاترة الهرل، فقطع موسى عليه هذا الطريق، وقال له: ﴿عَلِمْتُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾، فهو الذي سيجازي وما دام هو الذي سيجازي، فهو الذي يعرف، وأن ربي لا يصل ولا يمس.

بعد ذلك دخل معه في قضية أخرى تفصيلية لما سبق أن حدثه فيه فأوضح له أن ربه الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى هو الذي جعل لكم الأرض مهدياً وملك لكم فيها سبلاً، قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَّكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ۖ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [طه: ٥٣] كلمة «عهد» إذا سمعها فاعلم أن هناك تمهيداً ومعنى التمهيد توطفة كل شيء لصالحية ما هو عليه.

فالحق سبحانه جعل لنا الأرض مهذا ، لتصلح حياتنا عبيها ، ومعنى مهذا أى سواها لمهمتها ، وليس المقصود أنه جعلها مستوية ؛ لأنه جعل فيها الجبال والوديان والأنهار ، حتى تكون صالحة لمهمتها ، فإلّا لك فى الصحراء مثلاً بسلك طريقاً متعرجاً وهذا أفضل له ؛ لأنه لو كان طريقاً مستقيماً فإن واجه الشمس يظل طريقه فى شمس دائماً ، ولكن إن كان متعرجاً يسير بعض الوقت فى الظل ، فهذا الالتواء مقصود ، وإياك أن تظن أنها مستوية أى ليس فيها عوج ؛ لأن كل شيء له مهمة مثل قضيب الحديد الذى عوجاه ، لنجعله خطافاً فنحن لم عوجه ، ولكنا عدناه لمهمته ، إذن معنى التسوية هنا هو جعل الشيء صالحاً لمهمته ، سواء كان بالاعتدال أو بالاعوجاج .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ ثَبَاتٍ شَقَقَ * كُلُّوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْأُولَى الَّذِينَ ﴾ [صه ٥٣ ، ٥٤] هذا أيضاً فى عملية الخلق التى لا يستطيع أحد أن يدعيها ؛ لأن هذه الدعوى ترد على مدعيها ؛ لأنه لا يستطيع أحد أن يفعل شيئاً منها ، فهذا إيراد الماء من السماء ليس لأحد عمل فيه ، لكن إخراج النبات قد يكون لنا عمل فيه ، فنحن نحث وبذر البذور وبرويها بالماء ونعدها بالسماد والرى ؛ فهذا كله عمل منا مع أنه عمل بأسباب مخلوقة خلقها الله سبحانه وتعالى .

وموسى عليه السلام فى حوار مع فرعون يعرض قصايا ليست لفرعون فقط ، ولكنه يعرضها حتى لا ينجى فرعون آخر ويدعى ما ليس به بحق .

إتهام موسى عليه السلام بالسحر

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [يوس ٧٦] ؛ ذلك لأن السحر كان موجوداً عند الفراعنة ، وكان الكهنة مشهورين بالسحر ؛ ولذلك بهم ظنوا أن معجرات موسى سحر ، واعتقدوا أنه لا يعبر طبيعة الأشياء ، ولكن يسحر أعينهم ، فيحيل إليهم أنها قد تغيرت ؛ ولذلك فإن موسى عندما اتهموا المعجرات التى جاء بها أنها سحر ، قال كما يقص علينا القرآن الكريم ﴿ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا هِيَ إِلَّا آيَاتُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [يوس ٧٧] ؛ أى أن موسى عليه السلام قال لهم أنتم لا تعرفون بين الحق والباطل ، إن ما أرسلنى به الله من معجرات هو الحق ، أتقولون عليه سحر ؟

ولكن بعض الذين يطاولون على القرآن يقولون إن الكلام جاء على لسان موسى وكأن موسى قد قال : ﴿أَسْحَرُ هَذَا﴾ ؟ ولكنها جاءت بأسلوب الاستفهام ولم تأت بأسلوب الاستفهام الإنكارى ، نقول له إذا أردت أن تؤكد شيئاً يصح أن تأتى بجملة خبرية منك . هم قالوا إن هذا سحر مبين ، وكان المفترض أن يقول موسى : لا ليس هذا سحر . ولكنه قال ﴿أَسْحَرُ هَذَا﴾ ؟ تماماً كما تأتى للإنسان وأنت واثق من قضيتك وتقول له : أنا أرضى دمك هل هذا سحر ؟ حينئذ لا يمكن إلا أن يقول : هذا ليس سحر تماماً . كما تذهب لتشتري قطعة من القماش الصوف ثم تشعل عود ثقاب وتقربه من فتلة من الصوف فتحترق ، فتقول له : أهد صوف يا رجل ؟ فيقول : هذا ليس صوفاً ، إذن .. فإذا طرحت الأمر على الاستفهام الإنكارى يكون أبلغ من أن تقوله على أنه سحر .

وقال موسى : أنقولون للحق ما جاءكم ؟ أى : لا تحكموا على الحق بأن الذى جاء به هو موسى من عنده ، ولكن انظروا إذا كان الذى جاءكم حقاً أم لا . الله تبارك وتعالى يقول : ﴿أَنقُولُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسْحَرُ هَذَا وَلَا يُفِيحُ الشَّجَرُونَ﴾ أى أن هذا لو كان سحر فإنه لن يملح ولن يستمر . ولقد قسا : إن المعجزة التى تأتى بها الله سبحانه وتعالى على يد رسول من الرسل لبثت صدقه فى البلاء عن الله ، لا بد أن تكون من حسن ما يفيح فيه القوم ؛ لأنه لو أنهم بمعجزة فيما لم ينبعوا فيه لقالوا : لو تعلم هذا الفن أو هذا الشيء جشاً بمثل هذه المعجزة . وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَلَا يُفِيحُ الشَّجَرُونَ﴾ ؛ فالفلاح هو الوصول إلى الثمرة والثمرة لا تأتى إلا بعد مجهود حث وبدر ورى ، ثم تأتى الثمرة ، ومنه فُلِحَ الحديد : أى شقّه ، لأن الحديد ككتل أو قطع لا يصلح لشيء إلا إذا سُكِّلَ لتشكيل المناسب لاستعماله ، والسحر ليس حقيقة ولكنه تحيل ، والله سبحانه وتعالى أراد أن يمتد إلى ذلك فقال ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ [الأعراف ١١٦] ، وقال جل جلاله : ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ بِجِذْلِ إِلَهِمْ مِيزَرَهُمْ أَنَّهُ تَقَى﴾ [طه ٦٦] . إذن .. فالسحر فى طبيعته لا يغير طبيعة الأشياء ولكنه يسحر أعين الناس فتزى غير الحقيقة ، ولذلك عندما أتى فرعون بأمر السحرة ، جمعوا حبالهم وعصيتهم وألقوها وحيل للناس أنها تسمى ، وعندما ألقى موسى العصا فإذا هى تلقف ما صنعوا ، حينئذ حرّ السحرة سحرًا .. لماذا ؟ لأن العصى والحبال التى ألقوها حيل للناس أنها تسمى ولكنها كانت أمامهم حبالاً وعصيًا ، لأن أحداً لم يسحر عيون السحرة ولكن السحرة سحروا أعين الناس ، فكانت حبال والعصى أمام الناس كأنها ثعابين ضخمة تسمى ، أما فى

أعين السحرة فهي حبال وعصى ، ولذلك لما ألقى موسى عصاه ورآها السحرة حبة تلقف حبالهم وعصيهم ، قالوا : هذا ليس من فعل موسى ، بل من فعل رب موسى . وأدركوا أن هذه معجزة ، وليست سحراً ولا يمكن أن يأتي بها موسى ، فامسوا برسالته وسجدوا لله الذي أعطى موسى هذه المعجزة .

محاولة فرعون قلب الدفة على موسى عليه السلام

وبعد ذلك انتقل فرعون إلى قضية أخرى فقال : ﴿ قَالَ أَتَيْتُنَا بِسِحْرٍ بَشَرٍ ۚ فَلْيَأْتِك بِسِحْرٍ وَثِيلٍ ۖ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْجِدًا لَا تُخَالِفُ بَيْنَهُ وَلَا أَنْتَ مَكَاثُرٌ ۚ ﴾ [طه ٥٧، ٥٨] أراد فرعون أن يستعدي الناس الذين استعدهم ونصب نفسه إلهاً عليهم على موسى وهارون فقال لهم : إن موسى قد جاء ليخرجكم من أرضكم . وبذلك يستعدي القوم عليهم حتى لا يستجيبوا لهما ويقفوا صدهما ؛ لأنهم يحشون أن يخرجاهم من هذه الأرض التي يعيشون على خيرها حول النيل فأحبرهم أن موسى جاء ليخرجهم من أرضهم بسحره .

فحول المسألة التي بينه وبين موسى وهارون ، إلى مواجهة بين موسى وهارون من جانب والرعية من جانب آخر ، وذلك لأنه رأى أن الكلام الذي قاله موسى وهارون من الجائز أن يدخل على عقول الرعية فتفهمه وتؤمن به ، فتتمرد على فرعون وتثور عليه ، فأراد أن يزرع في قلوبهم عداوة موسى وكرهيته حتى لا يستجيبوا له ، فقال : لقد جئتنا يا موسى لكي تخرجنا من أرضنا بسحرك ونحن سنأتي لك بسحر مثله . هنا فرعون سمي معجزة موسى سحراً وهذه تسمية خاطئة ؛ لأن الذي مع موسى ليس سحراً وإن كان الذي عند قوم فرعون هو السحر ، والفرق بين الاثنين أن السحر لا يقلب حقيقة الشيء ، بل يظل الشيء على حقيقته ولكن السحر يكون للرأي ؛ ولذلك ربنا سبحانه قال في الآية الكريمة : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ﴾ [الأعراف : ١١٦] ، فحبالهم وعصيهم تظل كما هي ، فيراها الساحر حبالاً وعصياً لم تتغير ، بينما يراها المسحور ثماين وحيات ، لكن معجزة موسى غير ذلك ، بدليل أنها لو كانت مثلها لم يكن موسى ليخاف وهذا دليل . عند الساحر تظل الحبال كما هي يراها حبالاً ، وإن كان المسحور لا يراها كأنها حيات .

اللقاء الحاسم... يوم الزينة

فرعون صلب من موسى أن يضرب لهم موعدًا يجتمع فيه السحرة ليقاوموا سحره فقال : ﴿ فَاجْعَلْ يَدَيْنَا مَوْجِدًا لَا تُحِلُّهُنَّ لَهُنَّ وَلَا تَنْصُرُهُنَّ لَهُنَّ ﴾ [طه : ٥٩] إن كل حدث يتطلب شجدة له وموقفًا عليه الحدث ، فالحدث يتطلب زمانًا ومكانًا ، فلا حدث بغير زمان أو مكان ، فبعد أن تم تحديد المكان ، كان الزمان هو ﴿يَوْمُ الزَّيْنَةِ﴾ . إذن عناصر الحدث اكتملت زمانًا ومكانًا ، ويوم الزينة هو اليوم الذي كان يجتمع فيه كل سكان مصر ، ويدعون أنه كان يوم وفاء النيل ، وسمى ﴿يَوْمُ الزَّيْنَةِ﴾ لأن الناس كانوا يحتفلون فيه بأغلى شيء عندهم وهو النيل ، فيلبسون أحمر ما عندهم من ثياب ويخرجون في مركب الاحتفال وموسى اختار يوم الزينة تحديدًا ؛ لأنه اليوم الذي يجتمع فيه كل الناس ؛ لأنه واثق تمام الثقة من أن ربه سينصره ، ويريد أن تكون نصيحة فرعون أمام الناس جميعًا .

إتهام موسى ﷺ بالإفساد في الأرض

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ الْمَلَأِ يَدْلُ عَلَى أَنَّ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ شَوْشَ وَقَوْمُهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ [الأعراف : ١٢٧] هذا الخطاب من الملأ يدل على أن فرعون لم يتعرض لموسى ، حينما أمر بصلب السحرة ؛ ذلك لأن رهبة الحق واليقين فيما رآه من معجزة موسى ، كانت تملأ قلبه فتجعله لا يقترب منه ، وفرعون قد علم ورأى أن السحرة كذابون ، وأن موسى على حق ، وانهدمت ألوهية فرعون أمام الحاصرين ؛ ولذلك كان فرعون في موقف ارتباك ، وها أراد أن يبه الحاصرين إلى أنه لم يفعل شيئًا بالنسبة لموسى وهارون ، وأنها تركا المكان دون أن يصابا بسوء فتساءل الملأ : أترك موسى ومن اتبعوه ليفسدوا في الأرض ؟ كأنهم قد وصفوا منهج

الحق بأنه إصعاد . لماذا ؟ لأنه يأخذ منهم جواهرهم وسلطانهم ونفودهم ؛ ولذلك فهو في رأيهم [حساد] يقول الحق ﴿ وَقَالَ الْكَلْبُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنَدُّ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتِكَ ﴾ [الأعراف : ١٢٢] ، وهذا ملاحظ كلمة ﴿ رَأَى الْهَيْكَلُ ﴾ . لم يكن فرعون يدعى الألوهية ؟ نعم كان يدعى الألوهية في الأرض ، ويقول : إن هناك آلهة للسماء ، وإن كانت بعض التفاسير تقول إن الهتك معناها ألوهيتك .

فبماذا أجاب فرعون ؟ ﴿ قَالَ سَتَقْبِلُ آيَةً ثُمَّ وَكُنْتُمْ بِآيَاتِهِ سَاءَ قَوْمًا وَإِنَّ فَوْقَهُمْ فُجُورًا ﴾ [الأعراف : ١٢٧] نلاحظ هنا أن فرعون لم يتعرض لموسى ، وفي ذلك تقول بعض التفاسير . إن الحجة التي ظهرت حينما ألقى موسى عصاه انجذبت إلى فرعون وفتحت فأه حتى ظهرت أياها ، وإن هذا جعل فرعون يحشى موسى ولا يقترب منه .

وقول فرعون : ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ ؛ يريد أن يعطى الحجة أمام ملكه أنه ترك موسى ، فالقوى حين يهاجمه شخص ضعيف فإنه لا يقصى عليه ويتركه ، مؤكداً أنه يستطيع أن يأتي به في أية لحظة ؛ لأنه يملك القهر الذي يجعله يأتي به ، وقتل فرعون للرجال واستحياؤه للنساء إذلال لقوم موسى .

ولما ذهب قوم موسى إليه يشكون الذل الذي يعانونه ؛ فما كان من موسى إلا أن قال لهم : ﴿ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٨] ؛ يريد موسى أن يُسْرِى عن قومه العذاب الذي هم فيه ، ويذكرهم بأن النصر للمتقين المؤمنين ، وقول موسى : ﴿ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا ﴾ معناه أنه إذا كان قوم فرعون قاهرين مستعزين مسيطرين ، فاستعينوا بالله الذي هو أقوى منهم وحسن عرف أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يمن على بني إسرائيل ويمكنهم ويجعلهم الوارثين ، ولكن ماذا قال قوم موسى ؟ وما موقعهم بعد أن طلب منهم أن يستعينوا بالله : ﴿ قَالُوا أَوَدَيْمًا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الأعراف : ١٢٩] كأنما هم يدكرونه بأن مجيئه لهم لم يعبر شيئاً ، فقبل أن يأتي موسى كان الفراعنة يقتلون الأبناء ويستحيون النساء ، ولم يعبر مجيئه إليهم شيئاً .

ماذا كان جواب موسى ؟ ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَ فِي الْأَرْضِ

فَيَسْطَرَّ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ [الأعراف ١٢٩] ، لماذا استخفم الله سبحانه وتعالى كلمة «عدو» ، في وصف آل فرعون ؟ لأن الإيداء لا يمكن أن يحدث إلا من عدو ، فالصديق يحاول دفع الأذى عن صديقه ، أما العدو فهو الذي يدبر الأذى لعدوه .

وقول موسى عليه السلام هو بشارة من الله بأن أسباب الإيداء بالسببة لبني إسرائيل ستنهى ؛ لأنه قد اقترب موعد هلاك آل فرعون ، بل إن البشارة لم تقتصر على ذلك ، بل امتدت كما في قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَتَسْأَلُنَا فِي الْأَرْضِ فَيَسْطَرَّ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ .

على أننا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى ذكر كلمة ﴿ عَسَى ﴾ في قوله جل جلاله : ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهَيِّئَ لَكُم مِّنْ دُونِهَا رَحَاً ۖ وَكَلِمَةً ۚ ﴾ تدل على الرجاء أى ما يأتي بعدها برجوه الناس ، وهى غير التمسى ، فالتمسى هو أن تطلب أمراً مستحيلاً تعرف أنه لن يتحقق . وأداة التمنى « لَهِت » ، بينما أداة الرجاء « عسى » .

وموسى رسول مرسل لهداية قومه ، مؤيد بمعجزات ، وإذا كان هذا هو موقفه فلماذا يرذ الله له رجاء . ويكون الرجاء منه مقبولاً . إذن فالحديث هنا هو رجاء محقق الوقوع ، ولكن نعمة الله على بنى إسرائيل لن تتوقف عند إزالة الضرر عنهم إنما تمتد ليستحلهم الله فى الأرض تماماً .

المؤامرة على موسى

جمع فرعون أعوانه ووجهاء قومه وقال لهم : ﴿ إِنَّا هَذَا لَسَجْرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَادَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَحَاةَ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِرِ حَاشِرِينَ * يَا تَوَكُّلْ بِكُلِّ سَجْرِ عَلِيمٍ ﴾ [الشعراء ٣٤ - ٣٧] أراد فرعون أن يخرج نفسه من هذه الورطة التى أوقع نفسه فيها ، فاتهم موسى بأنه ساحر عليم بصون السحر ، خاصة وأن المصريين كان لهم إلف بفنون السحر ، فأراد أن يستعذى القوم عليه فاتهمه بأنه يريد أن يخرجهم من أرضهم يسحره بعد أن يصبح له أنصاع وأنصار ، ويحدث انقلاباً ويخرجهم من أرضهم ، فهذا استدعاء للناس على موسى عليه السلام ، والعريب أنه بعد ذلك يستشيرهم فيما يفعله ضد موسى ، وهذه لوهية كاذبة انحدرت إلى مرتبة العبيد ؛ لتسألهم عن رأيهم فى هذه المسألة ، فنزل من الألوهية التى يدعيها إلى حاجته [وهى] مشورة الناس الذين يستعدهم ، ولو كان إلهاً كما يزعم لكان عنده الحل ، ولكنه

يسألهم عما يأمرونه به ، فكان كلامهم بالنسبة له أمراً وليس مشورة فقط ، فهل الإله يأمر أحد ؟ ولكن القوم وجدوا الفرصة أن يقولوا رأيهم ، ثم يدل على أن أكثرهم كانوا يهتفون بفطوسة فرعون وتسلطه ، فأشاروا عليه بأن يبقه هو وأحاه وأن يجمع لهما أمهر السحرة ويواجههما بهم ، ويرى لمن تكون العلبة ؛ وذلك قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ قَالُوا أَتُزَكَّى وَكُنَّا أَتَمُّ وَاتَّقِ فِي الَّذِينَ خَشِينَهُ ﴾ [الشعراء : ٣٦ ، ٣٧] و « الإرجاء » هو التأخير ، قالوا له : ابعد رملك ليحشروا الساحرين الموجودين في طول البلاد وعرضها ويجمعوهم لمقابلة موسى وهارون .

﴿ أَلَمْ دَائِي ﴾ جمع مدينة ، فهؤلاء الناس مهمتهم جمع السحرة من كل مكان . وبعد ذلك تم تجميع السحرة في المكان للعلوم ، قال تعالى : ﴿ فَجَمَعَ السَّحَرَةُ لِيَقْتَتِ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴾ [الشعراء : ٣٨ ، ٤٠] . الميعاد هو الوقت من اليوم المتفق عليه ؛ هناك آيات أخرى حددت اليوم بأنه يوم الزينة ، وهو اليوم الذي يتزين فيه الناس بملابسهم الجديدة ، وتزين فيه الفتيات أبهى زينة ؛ لأن عروس النيل ستزحد منهن وتلقى فيه ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضَحًى ﴾ [طه : ٥٩] . فهذه الآية حددت اليوم بأنه يوم الزينة والوقت بأنه وقت الضحى ، وحدد اليوم وحدد الرمز من اليوم وهو الضحى ، ثم تكلم في آية أخرى عن المكان فقال : « مكانا سوى » ومعنى « سوى » إما أنه وصف للمكان الذي ستقام فيه للمباراة السحرية في مكان مستو من الأرض ؛ حتى يتمكن كل واحد من رؤية المظهر فهو مكان مستو ليس فيه عو أو انحناء ، أو أنه مكان وسط المدينة وليس بعيداً في أطرافها ؛ حتى يسهل على الناس الحضور إليه ، وكل هذا حرص على إتمام المعركة من جانب الطرفين ؛ لأن كل طرف يريد أن يتغلب على الآخر . وبعد ذلك بدأت الدعاية بين الناس ؛ حتى يتجمعوا في هذا اليوم لمشاهدة ما سيحدث ؛ قال تعالى : ﴿ فَجَمَعَ السَّحَرَةُ لِيَقْتَتِ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴾ [الشعراء : ٣٨ ، ٤٠] . أى أنهم سيجتمعون وعندهم أمل في أن يتغلب السحرة على موسى ويطلبوا حجه ، قال تعالى ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَمَّا لَآتِيْنَا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ انظر هنا إلى مسيرة هذا الإله الموعود في رعبته ! إن الإله الحق يعطى ولا يأخذ ، فهو سبحانه ﴿ يُطِيعُ وَلَا يُطَعَّرُ ﴾ [الأنعام : ١٦٤]

و: ﴿يَصْبِرْ وَلَا يَجْحَدْ عَلَىٰ مَا آتَاكَ﴾ [التؤم ٨٨]

ويقول الحق سبحانه وتعالى في آية أخرى: ﴿فَسَبِّحُوا بِحَمْدِ رَبِّكُمْ وَاسْتَمِعُوا لِكَلِمَةٍ أَوْ مَنَعَكُم مِّنْ ذِكْرِهِمْ يَوْمَ ذَٰلِكُمْ لَا تَنسُوا أَنَّمَا أُنْزِلَتْ بِالْحَقِّ وَأَنَّكُمْ أَتَيْنَا بِبَصِيرَةٍ﴾ [طه ٦٢، ٦٣]. ساعة أن خوفهم موسى رحلهم، أخذوا يتناجون مع بعضهم البعض؛ خوفاً مما سيحدث لهم، وكلمة: ﴿وَأَسْمُوا النَّجْوَى﴾ دليل على أن خوفهم من قول موسى: ﴿وَقِيلَ لَكُمْ لَا تَقْرَأُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْحَـٰتِكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾ [طه ٦١]. جعل عندهم شيئا من الرهبة والتردد والتعكير في الحق، حتى وإن اقتصر هذا الأمر على الذين كان عددهم استعداد للخير بعد احوار والجدال بين السحرة، فانتهوا إلى اتفاق على أن يكملوا الشوط إلى آخره.

وهذا القول مهم ترديد لما قاله فرعون عن موسى وهارون، وهو دليل على أن دعاية فرعون وكيدته أثرا في موقف الرعية من قضية موسى وهارون، والطريقة هي المذهب الذي يرتضيه الإنسان لنفسه، والمسلك الذي يسلكه في حياته، إذن الطريقة: هي ما ارتصاه الإنسان لنفسه؛ لتسير عليه أمور حياته، والطريقة المثلى عندهم هي أنهم جعلوا فرعون إلها، يأثمرون بأمره، وهو الذي يتصرف في شئونهم ويدير أمورهم كما يشاء، ومعنى المثلى: أي الفاضلة، ومعناها أمثل طريقة.

ومعنى: ﴿فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ﴾ [طه ٦٤] أي اشهدوا كل أدهانكم وحركاتكم في السحر؛ حتى لا تتمكنوهما من تحقيق هذين الهدفين وهما: الإخراج من الأرض، والذهاب بالطريقة المثلى.

ومعنى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا صَدًّا﴾؛ لأن هذا أهيب لكم ويدخل الرعب في قلب الخصم. ومعنى كلمة: ﴿أَفْلَحَ﴾ أي فار.

ومعنى: ﴿وَقَدْ أَلْبَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَمَنَّ﴾ [طه ٦٤] أي من طلب العلو على خصمه وتمكن من تحقيق هذا العلو، والذي يريد تحقيق هذا الهدف لابد أن يشحذ دمه ويبدل جهده في طلب هذا العلو.

وعندما ألقى موسى عصاه فتحولت إلى ثعبان، ونزع يده فامتلت بالضوء الذي يجذب

أنظار الحاضرين ، هنا ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف ١٠٩] ، والملا هم وجهاء القوم المحيطون بالحاكم ، وقومهم : « ساحر » معناه أنهم كانت عندهم فكرة عن السحر ؛ ولذلك قالوا : ﴿لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ ؛ أى أنه ليس ساحراً عادياً ولكنه ساحر متمكن ، وفى سورة « الشعراء » هناك آية أخرى تدل على أن فرعون هو الذى قال إن موسى ساحر ، والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء : ٣٤] . إذن .. فهناك آية نسبت القول إلى الملا ، وآية نسبت القول إلى فرعون .. فهل هذا تناقض ؟ بالطبع لا ؛ لأنه من الجائز أن تتوارد الخواطر فى أمر معلوم متفق عليه .

هل أعطى فرعون وملؤه حيشة أو سبأ هبىء موسى واستعراضه لسحره أمامهم ؟ الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿يُرِيدُ أَنْ يَخْرُجَكَ مِنْ أَرْضِكَ﴾ [الأعراف ١٠٩ ، ١١٠] . كأنما هو أعلنوا أن موسى قد جاء لإخراج فرعون وقومه من الأرض ؛ ليعود إليها هو وأتباعه ، كما حدث فى أيام الهكسوس . فرعون فى هذا يريد أن يصرف الناس عن الإيمان ، والاقتناع بما قاله موسى عليه السلام من أنه رسول رب العالمين ؛ ولذلك فإنه طعن فى معجزة الرسول بأن قال : إنه ساحر . ثم أراد أن يهيج القوم ضد موسى فقال إنه ساحر جاء ليخرجكم من الأرض التى تعيشون فيها وبهذا يكون فرعون قد أضاع من عقول الناس أثر المعجزات التى جاء بها موسى وأضاع اللمسة الإيمانية التى يمكن أن يكون حديث موسى ومعجزاته قد أودعها إلى قلوبهم .

وقوله تعالى : ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ يدل على أن الذين قالوا هم الملا ، ولكن الذى يأمر فى هذه المسائل هو فرعون ، ولكن من الممكن أن يكون الكلام من فرعون على أساس أنه لا يقطع أمراً إلا بالمشورة ، وهذا أول ما يرمى عن فرعون تلك الألوهية المزعومة التى ادّعاها ، فالإله لا يشاور ولا يتشاور مع عابديه عندما يقرر أمراً ، ولا يوحد إله يستعين بأمر العابدين ، وهذه نقطة كان يجب أن يتنبه إليها أولئك الذين عبدوا فرعون ؛ ليعرفوا أنه ليس إله وأنه أرتج أمام موسى ، واختلط عليه الأمر حتى أصبح لا يستطيع أن يقطع رأياً بدوهم فلجأ إليهم .

بماذا أفتى القوم فرعون ؟ ﴿قَالُوا آتِنَا زُحُوتًا وَزُحُوتًا وَزُحُوتًا﴾ [الأنبياء ٦٦] . يعنى أئخر الحكم عليه ، وه الإرجاء ، هو التأخير ، فالموقف عصيب ومحتاج إلى تمهل وإلى بطة فى اتخاذ

القرار حتى لا يضيع كل شيء . ماذا فعل أدلأ من آل فرعون ؟ يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ قَالُوا آتِنَا زُجْجًا وَنَحْمًا وَآدُسًا فِي الْمَذَآئِرِ خَشَرِينَ ﴿١١١﴾ يَا تُؤَكُّ بِكُلِّ سَجِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ [الأعراف: ١١١، ١١٢] . فكأنهم قالوا : إذا كان موسى ساحرًا، فمدنا السحرة وهم جمع وهو فرد ، فلنرسل في كل البلاد من يحضر أربع اسحرة منها ليواجهوه ، وفي هذا القول هذم آخر لقضية الألوهية بالنسبة لفرعون .

الهدم الأول : هو التشاور وعدم القدرة على اتخاذ القرار .

والهدم الثاني : هو استعانة فرعون بالسحرة ، فكيف يكون الإله عاجزًا بحيث يستعين من يعبدونه لينصروه على عدوه ؟ !

إذن .. فقد اهدم ركنان من أركان ادعاء فرعون الألوهية من هول الموقف والارتباك ، وكون فرعون سيرسل إلى المدن المختلفة بمعنى ذلك أن السحر كان منتشرًا وكان هناك في كل مدينة سحرة . فرعون قال لموسى : انتظر ، وأرسل الجامعين فجمعوا السحرة ، وجاءوا بهم إلى فرعون ، وكانت اللقطة الثانية عن السحرة وهم موجودون يطلبون منه الأجر إذا غلبوا ، وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّك لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَئِن الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ [الأعراف: ١١٣، ١١٤] .

والسحرة حينما جاءوا أمام فرعون انصاع كل واحد منهم وتكلم ، ولكن جمع حديثهم على اختلافه أمر واحد هو هل سيعطيهم فرعون أجرًا إذا غلبوا موسى أم لا ؟ والكلام هنا إما أن يكون بصفة استفهام ، أى أنهم استمعوا هل سيأحدون أجرًا أم لا ؟ أو بصفة خبرية أى أنهم يريدون أجرًا ، والقرآن عطى هذه وعطى هذه ، والدين أخذتهم الشجاعة طالبوا بالأجر ، والدين خانتهم الشجاعة جاعوا بها على هيئة استفهام .

ماذا قال فرعون عندما تحدث السحرة عن الأجر ؟

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَئِن الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٥﴾ . » حرف جواب يدل على تقرير ما بعده ، إذا سألك أحدهم : أجاهك زيد ؟ تقول : نعم ، أى : نعم جاعني زيد ، فالسحرة يقولون : هل لنا أجر إن كنا نحن الغالبين ؟ ونقول فرعون : « نعم » معاه . لكم أجر إن كنتم عابدين ، هذا إذا كانت الجملة استفهامية ، أما إذا كانت خبرية فإنها تحتاج أيضًا إلى

جواب ، وبذلك يكون الجواب قد شمل الحالتين ، وقوله « نقيم » معناها لكم أجر ؛ ولذلك جاء ما بعده معطوفاً بالواو : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَيَنَّ الْمُقْرَبِينَ ﴾ دلت على فساد حكم فرعون ؛ لأن المفروض أن يكون كل المحكومين بالنسبة للحاكم سواء ، ولكن أن يكون هذا مقرباً وهذا غير مقرب ، يكون الناس مصفين عند الحاكم ، وما دام الناس مصفين وليسوا متساوين عند الحاكم يكون فساد الحكم ؛ ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا جلس أصحابه حوله يستمعون إليه سوى بين الناس جميعاً في النظر ؛ حتى لا يظن إنسان من الصحابة أنه أولى بنظر رسول الله ، ولا يذني أحدٌ ويقربه من مجلسه إلا من شهد له الجميع أنه مقرب .

حينما اطمأن السحرة إلى الأجر ، واضمأوا إلى أنهم سيكونون من المقرين ، حينما تيقنوا من هذا كله التفتوا إلى موسى ، فقد جاءت لحظة التحدى .

لحظة التحدى بين الفريقين

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَتَنْتَرُونَ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا أَتَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يوس : ٨٠ ، ٨١] موسى ^{عليه السلام} أراد أن يربب السحرة ليضعف معنوياتهم ، فلما ألقى السحرة عصيهم قال لهم : ﴿ مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ ﴾ [يوس : ٨١] ، وما دام ما جاءوا به سحراً ، والسحر تخيل وليس حقيقة ، فإن الله سبحانه وتعالى سيبطله ؛ لأنه سيغير حقيقة عصا موسى ويجعلها حية حقيقة وليس مجرد تخيل ؛ ولأن السحر إفساد في الأرض فإن الله لا يصلح العمل لمن يريد الإفساد ، ويصر سبحانه الحق بكلماته ، وهو سبحانه وتعالى بمجرد أن يقول : ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] ، فأمره بين الكاف والنون ولا ينتظر التنفيذ أن يكتمل اعرفان ، وذلك قوله : ﴿ وَنَحْنُ اللَّهُ الْحَيُّ يَكَلِّمُونَهُ وَكَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [يوس : ٨٢] ليربح العالم من إصلاص المجرمين ومفاسدهم .

لما تجمع السحرة في اليوم المعلوم وبدأت المبارزة طلب موسى منهم أن يلقوا هم أولاً ، قال تعالى : ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَتَنْتَرُونَ ﴾ * فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الشعراء : ٤٣ ، ٤٤] فألقوا ما معهم من حبال وعصى ، وأقسموا بهر فرعون إنهم هم الغالبون ، وقد حايوا في القسم ؛ لأن لعنة معناه أنه لا يُغلب ولا يُفهر ، وهذه

العرة الفرعونية عزة كاذبة ؛ لأنها بلا رصيد .

موسى عليه السلام طلب من السحرة أن يلقوا ما يريدون إلقاءه ، والآية لها جاءت بالعاية التي انتهى إليها بعد المشاورة بينه وبين السحرة ، وإلا فهناك آية أخرى تدل على أن المسألة لم تنته إلا بعد مشاور وحوار ، فالآيات لم تأت لتكرر الحدث الواحد ؛ وإنما جاءت لتستوعب كل إجراء الحدث ، فاتفق موسى معهم أن يلقوا هم أولاً ما معهم من أدوات السحر ، قال بعض العلماء : إن الحبال والعصى كانت مجوفة ، ورضعوا فيها رتباً حتى إذا ألقوها في الشمس تلوثت كأنها ثعابين وهذا من جيل السحرة ، لكن السحر هو تحييل للمسحور ، فبرى الشيء على غير حقيقته ؛ لأن حقيقة الشيء لا تتغير لكن المسحور يرى الحقيقة عن طريق التحييل .

فالسحرة ألقوا حبالهم وعصيهم وأقسموا بعزة فرعون أنهم سيفعلون ، والعزة هي القوة والمنعة والغلبة ، ومنها العزة بالإثم وهي أنفة وكبرياء بلا رصيد من الحق .

هناك آيات كثيرة أخرى تعرضت لموضوع السحرة منها قول الله تعالى : ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِجَابُهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ بِجِئْلٍ إِبْرَءٍ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ تَسَى ۖ فَأَرْجَسَ فِي تَعْيِيهِ جِيعَةً مُؤَمِّنٍ ۖ قُلْ لَا تَخَفْ إِنَّمَا أَنْتَ الْأَعْلَى ۖ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كِبْدٌ سِحْرٌ وَلَا يُفْلِحُ كَسَائِرُ حَيْثُ أَنْ ۖ ﴾ [طه : ٦٦ - ٦٩] أى أن السحرة لما ألقوا حبالهم وعصيهم تحيّل موسى أنها تسعى فحاف ، فأوحى الله إليه : ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّمَا أَنْتَ الْأَعْلَى ۖ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كِبْدٌ سِحْرٌ وَلَا يُفْلِحُ كَسَائِرُ حَيْثُ أَنْ ۖ ﴾ .

إذن .. موسى ألقى عصاه بعد وحي من ربه أثناء المعركة ، قال تعالى . ﴿ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْكُلُونَ ﴾ [الشراء ١٥] كلمة ﴿ تَلْقَفُ ﴾ معناها تتبع بسرعة وبقوة ، فانسريعة في احتصار الزمن ومعها القوة ، فجمعت بين السرعة والقوة ، « والإفك » هو قسب الحقائق ؛ ولذلك سعى الكذّاب إفكاً ؛ لأنه يقب الحقيقة ، فالكذب لا يوافق واقع الأشياء فالنسبة الكلامية فيه لا تطابق النسبة الواقعية .

إيمان السحرة .. وعقاب فرعون لهم !!

بعد ذلك قال الحق سبحانه وتعالى ﴿ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَهُمْ فَقَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ۖ ﴾ [طه ٧٠] ، شيء عجيب ، كما قال الرمخشري : من العجيب أن هؤلاء ألقوا حبالهم

وعصيتهم للكفر والجحود ، فإذا بهم يلقون أنفسهم للشكر والسجود . فهم قد دخلوا هذه المعركة وهم كفرة جاحدون ، وخرجوا منها وهم مؤمنون موحدون ؛ وذلك لأنهم جمعوا كل كيد السحر وهنونه ، ووجدوا أن العمية ليست من هذا النوع أبداً ، فالساحر يرى الأشياء على حقيقتها ، وهم لم يروا عصا موسى على حقيقتها ، بل رأوا لها حركة حياة ، فأيقنوا أن هذا ليس من فنون السحر ، ولكنه شيء أعنى ، وهذا يدل على أن العطرة الإيمانية هي النفس تطمسها الأهواء ، هذه العطرة التي أحبر بها رسول الله ﷺ بقوله : « كل مولود يولد على الفطرة » . فالهوى يطمس على العطرة الإيمانية . ولكن أحياناً تستيقظ هذه العطرة ، وحين تستيقظ العطرة الإيمانية ، فأقل شيء يصادف هذا الاستيقاظ يؤثر عليه ، والذي يدل على أن هذه العملية جاءت على هوى السحرة : أنهم سيقولون لفرعون . ﴿ إِنَّا مَأْمَأَ بِرَبِّنَا لِيُفْعِرَ لَنَا حَطْلَيْنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ سَبَّ وَتَقَى ﴾ [طه ٧٣] فهذا دليل على أن طائفتهم وفطرتهم كانت تأتي هذا ، لكن فرعون هو الذي كان يُكرههم على السحر ، وحين يكبر الواحد منهم في الس يأمره بأن يأخذ مجموعة من العلماء ليعلمهم السحر : لأن هذا مناسب لشعوذة فرعون وإدعائه الألوهية .

ومولهم : ﴿ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ﴾ : يدل على أنهم وإن كانوا سحرة إلا أنهم كانوا مقهورين لأوامر الطاغية ، لكن إذا خدوا إلى أنفسهم تستيقظ فطرتهم ، فإذا جاء شيء يرتكى الفطرة ويقتضيها مثل : عصي موسى فلا يملكون إلا التسليم ؛ ولذلك فإن الحق سبحانه حين تحدث عن إلقاءهم للحبال والعصى قال . ﴿ قَالُوا جِئَانَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ وَقَالُوا بَعْرُ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الشعراء ٤٤] ، فالإلقاء عمل اختياري منهم . ولكن ساعة رأوا المعجزة واستيقظت عندهم العطرة الإيمانية ، قال الحق سبحانه عنهم : ﴿ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا ﴾ [ص ٧٠] ، فهذا الفعل « ألقى » مسمى للمجهول ، فكأن موسى من تلقاء نفسها حررت ساجدة لله فكان قوة الحق فاجأت صخوة العطرة ، فلم يملكوا ، لا أن يفعلوا ساجدين بدون اختيار ، وهذا السجود عملية مرئية .

وهناك عملية أخرى قوية هي قولهم : ﴿ إِنَّا مَأْمَأَ بِرَبِّنَا هَارُونَ وَهَارُونَ ﴾ . إذن هاك منظر رآه الناس وهو : أنهم ألقوا سجدتاً ، والذي ألقاهم هو قوة الحق ؛ لمواجهته العطرة فاسكبوا على الأرض ساجدين دون اختيار أو شعور ، وبعد أن سجدوا يدعوا يعلنون رأيهم ، حدث هذا منهم

جميعاً مرة واحدة، فلم يتباطأ منهم أحد، مما يدل على أنهم كانوا مكرهين على هذا العمل ومسحurin لأدائه، ودليل ذلك أنهم في آية أخرى قالوا لفرعون: ﴿إِنَّا لَنَأْتِيَنَّكَ بِكُنتَ نَحْنُ الْعَالِيِينَ﴾ [الشعراء: ٤٦] فكأنهم كانوا مسحurin لأداء هذا العمل لفرعون؛ لتحويل أتباعه أو لإصفاء القوة وإدخاله على نفسه، وأدعائه الألوهية أمام رعيته، فكانوا يقومون بهذا العمل لفرعون دون أجر، ولكن هذه المرة سألو فرعون أن يعطيهم أجراً؛ لأن هذه الحركة ليست هيئة مثل غيرها، فلما سألو فرعون هل سيعطيهم أجراً إن استطاعوا أن يغلبوا موسى؟ قال لهم: ﴿نَعَمْ وَإِنِّكُمْ إِذَا أَتَيْنَ الْمُرِّيِينَ﴾ [الشعراء: ٤٧]؛ أي أنه سيعطيهم الأجر ويقرّبهم منه وسيكونون هم مدّة الفرعونية، وفرعون أراد بذلك أن يشجّد هممهم، فلا يذحرون وسقاهم فثمهم؛ أملاً في أن يستطيعوا هزيمة موسى، ومع أن موسى هو المرسل وهارون هو القصد، إلا أنهم حينما سجدوا قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَى﴾. بعض الناس قد يتساءل، ماذا قال السحرة؟ من قالوا: آمنا بـ ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَرُونَ﴾ [الشعراء: ٤٨]، أم قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالِيِينَ﴾ * رَبِّ مُوسَى وَهَرُونَ [الشعراء: ٤٧، ٤٨]؟ ونحن نقول: إذا كان رؤساء السحرة سبعين فلا بد أن الأتباع يصل عددهم إلى سبعمائة أو يزيد، فهل من المعقول أن يتحدثوا جميعاً في الحركة وفي القول، أم أن كل واحد انفعّل بحسب مداركه الإيمانية الجديدة، فبعضهم قال: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالِيِينَ﴾ * رَبِّ مُوسَى وَهَرُونَ، وبعضهم قال: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَى﴾؟ فقلت هذه وهذه، والقرآن عدّد كل هذه اللفظيات مجتمعة؛ لأنه ليس من المعقول أن يتمق هذا العدد الضخم في الحركة وفي اللفظ. ولذلك نجد الواحد من حصوم الإسلام يقول: القرآن يقول عن السحرة مرة أنهم قالوا كذا، ومرة يقول: إنهم قالوا كذا.. فأيهما قالوا؟ نقول له: هذه جمهرة لا تستطيع أن تحكم أقوالهم، فكل واحد انفعّل بما يقول؛ فنحن نستطيع أن نردّ على من يقول: إن القرآن يحكي أقوالاً متعددة عن كلام السحرة بعد إيمانهم، فأنت قول قبل؟ فنقول له: هذه نقاط لمجتمع جماهيري لا تضبط حرّكاته، ولا تضبط كلماته، بل كل واحد يفعل حسب مداركه الإيمانية. فالقرآن عدّد النقاط؛ ليقصّر كل ما حدث في القصة.

وقال تعالى: ﴿قَالُوا لَا مَبِيتَ لَنَا إِنَّا رَبَّنَا مُتَعَلُِّونَ﴾ ٥١ ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغِيْرَ لَنَا رَبُّنَا حَطِيئَتًا أَوْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٥٠، ٥١] أي نحن لا نخشى الضرر؛ لأننا مهما طال العمر

سموت وبنى الله ، فسواء قتلنا أو تركتنا لأبد من الموت ، وإذا متنا على يدك فسئقي ربا
وتشقى أنت بجزاء ربك ؛ ولذلك أخذ الطاعة المستبدين هذه خصيصاً له بالقتل ، فضحك
للخصم ، فقال له : أتسخر مني وتضحك ؟ قال له : وكيف لا أضحك لأمر تفعله بي يسعدني
الله به ، وتشقى به أنت ؟ ! فالسحرة لما آمنوا لم يخافوا من تهديد فرعون لهم بالقتل ؛ لأنهم إن
قتلوا سيرجعون إلى الله وسيخرجون من ألوهية باطلة إلى لقاء ألوهية حقة ، فأنت ستحمل لما
يلقاء الله ، فالذي تظنه تعذيباً لنا هو عاية ما نرجوه ؛ وبذلك المسسم الذي فهم هذا المعنى قال :

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أى شئ كان في الله مصرعي
هم أرادوا أن يقولوا : إن الذي سيفعله بهم فرعون لن يضرهم ولكن سينفعهم ؛ لأن هناك
شيئاً يمنع الضرر ، ولكن لا يجلب نفعاً ، مع أن النفع هو نفى الضرر أولاً ؛ لأن درء المفسدة
مقدم على جلب المصلحة ؛ فإن قتلهم فلن يضرهم ذلك بل سيجنب لهم نفعاً ، وهو لقاء ربهم
الذى آمنوا به ، فعسى أن يعمر لهم خطاياهم بذلك قالوا : ﴿ إِنَّا نَقْطَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا حَطَئًا أَنْ
كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ لأن فرعون أكرههم على السحر والكذب على الناس وتصلبهم ،
وكانوا في خدمته وطاقته بعد أن أجبرهم على أنه ربهم الأعلى ، فحينما ثبتت المعجزة لموسى
وآمنوا به ، فعسى الله أن يغير لهم ؛ لأنهم كانوا أول المؤمنين بالله رب العالمين وأعلنوا إيمانهم
برب موسى وهرون ، فاعتاظ فرعون منهم ؛ لأنهم خذلوه ولم ينصروه كما كان يظن ، فانقسم
على الانتقام منهم ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ مَاسْتُمْ لَكُمْ قَبْلَ أَنْ مَادَنَّ لَكُمْ إِنَّمَا لَكِبَرُكُمْ أَلَدَى
عَلَمِكُمْ السِّحْرُ فَلَا تَطْعَمُونَ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ جَانِبِ الْأَصْلَابِ لَكُمْ فِي جُدُوعِ السَّحْلِ وَلَنُفْلِتَنَّ إِنَّمَا
أَشَدُّ عَذَابًا وَأَنفَرَنَّ ﴾ [طه ٧١] .

فرعون جمع السحرة لينصروه على موسى ، ولكن الله جعل حدلانه وهريمته على يد من
توسم فيهم عزه ونصره ، ولكنه أراد أن يتماسك أمام الناس ، فأعلن سحقه عليهم ؛ لأنهم
آمنوا بموسى قبل أن يأذن لهم ، ودرع أنهم لو فعلوا ذلك لأذن لهم ؛ ودرع أن موسى هو كبير
السحرة الذي علمهم السحر ؛ ولذلك آمنوا به .

هنا يجد التعبير القرآني يفرق بين الأمر والإذن . فإذا أمر إنسان إنساناً بعمل شيء ، فهو
يحب أن يتم عمل هذا الشيء ، ولكن إذا أذن لأحد بعمل شيء معين ، فليس من الضروري أن
يكون محباً لهذه العمل ، فرعون قال ﴿ قَالَ مَاسْتُمْ لَكُمْ قَبْلَ أَنْ مَادَنَّ لَكُمْ ﴾ ، ولم يقل قبل أن

أمركم ، فهو لم يأت منه أمر بهذا الشيء لأنه ليس على هواه ولا يحبه . أراد فرعون أن يشوه إيمان السحرة أمام الناس ، فقال : أنتم آمنتم به ؛ لأنه كبيركم الذى علمكم السحر ، فهذا وفاء من تلاميذ لأستاذهم ، فلا يصح أن يتمردوا عليه وهو كبيرهم وعلمهم . وكلمة ﴿ءَاَمَنْتُمْ﴾ أخذت في القرآن مجالات متعددة وهى من مادة « آمن » ، والأمس هو الاطمئنان وعدم الخوف . وتأتى مرة ثلاثة أحرف - الهمزة والواو واليـاء - ومرة تزداد الهمزة فتقول : آمس رياده ألف على الهمزة ، والفرق بينهما أن « آمس » بمعنى اطمأن . ومعنى ﴿ءَاَمَنْتُمْ لِرَّبِّ﴾ أى صدقتموه مثل قوله تعالى ﴿فَمَآ ءَاَمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ [يوس : ٨٢] إذن : « آمس » بمعنى صدق ، وآمس به : أى اعتقده . وآمه ، أعطاه الأمن ، إلا أن الصيغة فى اللازم والمتعدي هى الحرف مثل : آمن وآمس تأتى بمعنى واحد فى بعض الأساليب . فمثلاً يعقوب القليل طلب منه أولاده أن يعطيهم بهيامين ، فقال يعقوب القليل : ﴿هَلْ ءَاَمَكُم عَلَيَّ﴾ ؛ ها فرعون قال : ﴿ءَاَمَسْتُ لِرَبِّ﴾ أى صدقتموه وقوله ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه : ٧١] . سوء تعليل لواقع الإيمان ؛ لونه يتهمهم أنهم جاملوا موسى لأنه كبيرهم وعلمهم .

ثم هددهم بقوله : ﴿وَلَا أَقِيلُكُمُ أَيِّدِيكُمُ وَارْحَمَكُم مِّنْ خَلْفٍ وَلَا أَصْلِيَنَكُمُ فِي جُدُوعٍ لِّتَحِلَّ﴾ [طه : ٧١] . هذا تهديد ووعيد من فرعون للسحرة بعد إيمانهم بموسى القليل فهتد بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، ومعنى ذلك أن يقطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى والعكس بالعكس ، وقد تكلمنا سابقاً عن بعض الحروف التى تأتى بمعنى بعضها ، مثل قوله تعالى : ﴿وَلَا أَصْلِيَنَكُمُ فِي جُدُوعٍ أَلْتَحِلَّ﴾ والتصليب يأتى بوضع شئ على شئ وربطه ربطاً محكماً . فهذا جاء حرف الجر ﴿فِي﴾ بدلاً من « على » ، فتم يقل : (لأصليكم على جدوع التحل) ، ولكن قال : ﴿فِي جُدُوعٍ أَلْتَحِلَّ﴾ .. لماذا ؟ بعض العلماء قالوا . لأن الحروف تأتى بمعنى بعضها ، ولكن هذا لا يليق بالأسلوب الأعلى للبيان .

إذن .. فالتصليب : أن تأتى بمصلوب عليه وهو الخشبة أو الحديد ، وتأتى بمصلوب وتربط المصلوب على المصوب عيه ، وتشد الرباط ، ويمكن أن تجزب هذا بنفسك ، بأن تأتى بعود كبيرت وتربطه على إصبعك بحيط وتشد الربط ، فتشد الربط تجعل عود الكبريت يعوص فى سم إصبعك ، فيصح كأنك لم تصلبه على إصبعك ولكن فى إصبعك ، وهذا مبادئة فى

التصليب .. إذن حين يأتي بعض العلماء في التفسير ويقول : ﴿وَلَا تُصَلِّبُكُمْ فِي جُدُوعِ النَّحْلِ﴾ أى : على جذوع النحل ، ثم يعلّ ذلك بأن حروف الجر يوب بعضها عن بعض تقول له : لا ؛ لأن المعنى : لأصلبكم في جذوع النحل تصليبا قويا ، بحيث تدخل أجزاء المصلوب في المصلوب عليه ، فكأنه ليس عليه ، بل هو داخل في حيره . فالمعنى لا يتم إلا بهذا .

وقوله : ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَلْوَنُ﴾ [طه ٧١] ، يقصد به العذاب الذي سيرل بهم ، فهو سيقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وسيصيبهم في جذوع النحل ريتر كههم على هذا الحال ، فسيجمع في العذاب بين أمرين هما الشدة ودوام الرس

إيثار السحرة للإيمان على العقاب

قال السحرة لفرعون : ﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنكَ الْيَسْتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه ٧٢] الإيثار هو ترجيح أحد الاحتمالين على الآخر ، قولهم : ﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنكَ الْيَسْتِ﴾ ، تعبير في منتهى الدقة وهو تعبير واضح وحكيم ؛ لأنه كان من الممكن أن يقولوا : لن نؤثرك على موسى ، ولكنهم لم يدكروا موسى ، ودكروا البينة التي جاء بها ، وبذلك الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْآيَةُ ۖ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُفْهُنَّ مُطَهَّرَةً ۖ فِيهَا كُتِبَ قِيسَةٌ﴾ [البقرة ١٣٠] ؛ فالإرتقاء من الرسول إلى البينة التي جاء بها إلى من أعطى له هذه البينة ثلاث مراحل .

والبينات : هي الأمور الواضحة التي تحسم كل جدل حولها ، ونجمل الأمر واصفا غير محتاج إلى جدل ، فكانهم قالوا لفرعون : ﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنكَ الْيَسْتِ﴾ على يد موسى ، ولن نؤثرك على أعين من ذلك وهو الذي مطرنا . وربما كان قولهم : ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ قسم ، مثلما نقول : لن أفعل كذا وكذا والذى خلقت . كأنك تقسم على هذا الأمر ألا يحدث . وهذه حيشة عدم الرجوع فيما أعسوه من إيمان برب هارون وموسى ، بعد ذلك انتقلوا إلى ما هددهم به فرعون ؛ من تقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف وتصيبهم في جذوع النحل ، فقالوا له : ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أى . نقد ما أنت حاكم به من تقطيع الأيدي والأرجل والتصليب في جذوع النحل

أو أن المعنى . ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ أى : افعل ما يدا لك ، حتى لو كان أشد مما قلت .
 لماذا ؟ لأنك تقضى هذه الحياة الدنيا ، فأنت يا فرعون إنسان من الممكن أن تموت الآن ، فتكون
 قد قضيت مدة حياتك ، وقد باتى من بعدك من لا يفعل ذلك ، وهب أن من جاء بعدك فعل
 هذا الشيء فهو أيضًا حياته منتهية ، حتى ولو اتصلت الحياة حتى تقوم الساعة ، فالحياة الدنيا
 كلها منتهية ، وما دام الشيء منتهيًا ومتروكًا فلا يحزن عليه ، ثم قالوا بعد ذلك : ﴿إِنَّا آمَنَّا
 بِرَبِّنَا لِيَعْرِىَ لَنَا خُطْبَيْنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَاللَّهُ سَمِيرٌ وَبَقِيٌّ﴾ [طه ٧٣] ؛ فحسن آما
 برىا وما دما رجعا من الإيمان بالبشر إلى الإيمان بحالقي البشر ، فهذا رشد التفكير ، ولا يصح
 أن تلومنا على رشد تفكيرنا ؛ لأن رشد هذا التفكير سيعبر فيا أشياء كثيرة ، فحسن أخطأنا
 كثيرا ، فآما برىنا ليعفر لنا خطايانا ، ويعفر لنا ما أكرهتنا عليه من السحر ، فكأن المسألة كلها
 كانت عبارة عن جماعة مكرهين على عمل من الأعمال ، قد لا يوافق طبيعتهم ولا ميولهم ،
 وما أكثر ما يكون هذا ، فتجد واحدًا يمد أوامر الطاعة وهو غير مقتنع بها .

إذن .. يستفاد من ذلك أن هناك طاعة يحبون أن يحملوا الناس على ما يكرهون من
 لأعمال .

ومعنى ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ : أى إنك يا فرعون ستزول ، وملكك سينتهى ، وانطاعة
 الذين سيأتون بعدك سيزولون وتنتهى حياتهم ، ولا يبقى إلا الله وحده رب كل شيء ومليكه ،
 فهو سبحانه يعيش كل حقه فى أسبابه التى خلقها ، ولكن فى الآخرة لا يعيشون بالأسباب ،
 بل يعيشون بأسباب .

وإن الله خير من كل شيء ، ولذلك قالوا : إن الذى يجعل الله دائمًا فى باله ، يوقن أن فى
 الله عوصًا عن كل فائت . لأنك ساعة تجعل الله فى بالك دائمًا تستحى أن تعمل معصية وهو
 يراك ؛ ولذلك فالرسول ﷺ يقول : « وإن لم تكن نراه فإنه يراك » .

استكبار فرعون بغير الحق

قل تعالى : ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأْتِيَهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ عِزِّى فَأَوْفَىٰ لِي
 بِهِمْ عَلَىٰ كُلِّ لُطْفٍ فَاتَّخِذْ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطِيعُ إِلَٰهَ إِلَٰهِ مَوْتٍ فَرَىٰ لَأَظْلَمُ مِن
 الْكَافِرِينَ﴾ [الفصل ٣٨] كان فرعون بعد أن سمع كلام موسى ، أراد أن يبين لقومه أن هذا

الكلام لم يؤثر فيه ، وخشى أن يكون كلام موسى وهارون قد أثر في عقول قومه ، فأراد أن يلبس على هذه العقول مرة أخرى ، فقال : إن هذا الكلام غير صحيح ، وأنه ما زال إلهاً ، وما زال هامان هو الآخر يماثوه ، حتى إنه يقول له : ﴿ فَأَوْقَدْ لِي كَبْشًا كَبِيرًا فَصُغِّرْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ﴾ . فبأمر هامان بأن يسي له صرحاً عالياً ، ليصعد عليه حتى يظفر إلى الإله الذي يدعيه موسى ، وحتى نعرف أن هذا الكلام من فرعون كله عبث ، ومحاولة لكسب الوقت .

ومع أن هرعون تظاهر أمام الناس بأنه سيبنى صرحاً ليصمد عليه ، وينظر إلى إله موسى .. حتى يتحقق من مدى صدق كلامه ، فكان عليه أن ينتظر حتى يستجلى الأمر ، ولا يصدر حكمه مقدماً ، ولكنه لم يلتزم بذلك ، واتهم موسى بالكذب ، فقال : ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ وذلك حتى يحذر مشاعر الملأ ، والنوم الدين شهدوا هذا الموقف .

وقوله تعالى : ﴿وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَحُشْدُهُ فِي الْأَرْضِ يَكْبِرُ الْخَقُّ﴾ يفيد أن الاستكبار حين يكون بحق ، يكون لحماية ضعيف من بطش قوى أو مجرم ، فهذا أمر محمود ، وحين يصف الله تعالى نفسه بالكبرياء والعظمة فهذا الأمر لصاحبا جميعا ، لأنه حماية لنا جميعا ، ففرعون استكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق ، أى بغير أن يكون عندهم رصيد دائى لهذا الاستكبار فالاستكبار من الإنسان يعنى أن هذا الإنسان يظن أنه لن يرجع إلى الله الذى خلقه ورزقه .

وقد خاب من افتري

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَىٰ رَبِّكَ فَإِنَّكَ عِندَ رَبِّكَ بِرَأْيِكَ﴾ [طه . ٦٠ ، ٦١] إن
 فرعون ترك موسى وبدأ يدير أموره وبعد عدة لمواجهته يوم الزينة ، ومعنى : ﴿فَتَجَمَعَ
 كَيْدُهُ﴾ الكيد : هو التدبير الخفي للخصم ، وإذا دبرت في الخفاء للحصم فهذه ليست
 شهادة لك بالقوة ، ولكنها شهادة بالضعف ؛ لأنك ما دمت تدير تدبيراً خفياً فكأنك لا قوة لك
 على المجابهة الواضحة ، فمن يدس السم لواحد ليتخلص منه ، أو يسלט عليه من يصربه ، أو
 يقتله ، هذا معناه أنه يضعف عن مواجهته ، إذن .. الكيد ليس دليل القوة ولكنه دليل الضعف ؛

لذلك بعض الناس حينما يقرأ قول الله تعالى عن الساء ﴿إِنَّ كَيْدَكُمْ عَظِيمٌ﴾ يظن أن المرأة أقوى من الرجل ، في هذا تقول له - لا - لأنها ما دامت تكيد كيداً عظيماً ، فهذا دليل على أن ضعفها أعظم ؛ لأنه لا يكيد إلا الضعيف ، أما القوى فيواجه ولا يحاف .

وقال الله تعالى : ﴿قَالَ لَهُمُ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ﴾ يعنى أن موسى كلم السحرة الذين أتى بهم فرعون وقال لهم : لاحظلوا أن لكم رباً وإن فعلتم أى شئ مخالف منهجه يا ويلكم من عذبه ، فهو يحذرهم من عافية فعلهم ومحاولتهم بصرة فرعون ، ومضى : ﴿فَيُسْحِتَكُمْ﴾ أى يستأصلكم بمذاب الدنيا ، علاوة على عذاب الآخرة ، وكلمة ﴿أَفْتَرَى﴾ أى جاء بالفرية ، والفرية هى تعمد الكذب .

إعذار الله تعالى لآل فرعون

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا آلَ فِرْعَوْنَ يَالِيسِينَ وَنَقِصَ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ [الأعراف . ١٣٠] ، لم يأت الهلاك لفرعون وقومه فوراً ، بل جاء عبي مراحل ، وهذا من رحمة الله سبحانه وتعالى أنه يأخذ الكافرين بالشدة ، ليذكرهم بقوته وقدرته لعلهم يتوبون إلى الله ويرجعون إليه ، والنسبة هى العام ، ولكنها تطبق على الجذب والفحط ، وكان رسول الله ﷺ حينما يدعو حلى الكفار من قومه يقول - اللهم اجعلها عليهم ستين كسئى يوسف - أى أعظمهم شيقاً من الفحط ؛ لعلهم يصفون ويتأدبون ويرجعون إلى الله .

إذن .. فالسنة : المراد بها الفحط والجذب ، ولكن لماذا سميت كذلك ؟ لأن نعم الله على خلقه كثيرة ومتوالية وابتلاياته لهم فى الكون قليلة ، إذن فمدة النعمة طويلة ، ومدة الشدة قصيرة ، حتى إنه من قلتها يؤرخ لها فيقال : هذه - سنة الجراد أو سنة الجذب . أو سنة الفيضان المعرق . لماذا يؤرخ لهذه الأحداث المفجعة ؟ لأن الأحداث السارة مدتها طويلة جداً ، ولكن أحداث البلاء عادة لا تحدث إلا على فترات متباعدة ؛ ولذلك إذا أحصى أى واحد منا أيام البلاء فى عمره ، لوجدناها قليلة بالنسبة لأيام الرخاء .

وقوله ﴿وَنَقِصَ﴾ ، فإذا كانت السوء هى الجذب والفحط ، فما هو النقص من الثمرات ؟ نقول - إن قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَنَقِصَ مِنْ الثَّمَرَاتِ﴾ ؛ يدل على أنه من رحمته أنه ترك لهم بعض الثمرات لتحفظ لهم حياتهم ، ولكن هذه الثمرات لم تعطهم عادة ما

كانوا يأخذونه معها ، فيطرح النخل على سبيل المثال قليلاً بدلاً من أن يطرح الكثير من البلح ، وهكذا كل أنواع الثمرات . لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يبقى أسباب رحمته خلقه . وقوله ﴿لَمَّا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ في هذه الآية ؟ القضية هنا تكمن في أن الإنسان إذا أحس أنه قد استغنى بعلمه أو بقوته عن الله فإنه يظنى ، فقوم فرعون تعودوا أن يرزقوا وتعطيهم الأرض من خيراتها الكثير ، وظنوا أن ذلك يعلمهم ، فجاء موسى ليلفتهم إلى أن ذلك من عطاء الله ، وحدث معهم ما حدث فعندما رزقوا هلك معظم المحصول وما بقي أعطاهم ثمراً قليلاً ، إذن تغلبت عنهم الأسباب ، وفي هذه الحالة لا يوجد أمامهم إلا المسبب ؛ أي إلا أن يقولوا : يا رب .

آل فرعون علما رفع الله عنهم الجذب لفترة وأعطتهم الأرض من خيراتها قالوا : ﴿لَنَّا هَٰذَا﴾ ؛ أي أننا نستحق هذا الخير ؛ لأننا قد حرثنا الأرض ووضعتنا البيرة وسقينا .. إلى آخر هذا ، تماماً كما قال قارون : ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصر ٧٨] ، أي بسبب الأسباب إلى نفسه ، فخسف الله به الأرض ؛ لتعرف الدنيا كلها أنه لا حول ولا قوة في هذا الكون إلا لله ، وأن الإنسان مستحلف في الكون ، وأن الأسباب خاضعة للإنسان بأمر الله وليس بقدرة البشر .

آل فرعون أخذوا نفس أسلوب قارون ، فإذا جاءت الأرض بمحصول حس قالوا : هذا جهداً وعلمنا . ولكن ماذا يحدث إذا أُجِدبت الأرض مرة أخرى ؟ هل يرجعون إلى الله ويعترفون باحق ؟ لا ؛ يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلَا تُفْسِدُ سَعْتَهُمْ حَسَبَهُ يَغْفِرُونَ وَمَنْ مَعَهُ أَلَاءُ إِنَّمَا تَلْفُظُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَحْكَمَتْهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف ١٣١] .

إذا جاءت آل فرعون الحصة سيوها لأنفسهم ، وإذا جاءت السيئة تشاءموا بموسى ومن آمن معه ، فالطيرة هي التشؤم ، وهو ضد التفاؤل ويقال : فلان طائرته نحس ، وفلان طائرته يمين . وكانوا في الماضي إذا شغلهم أمر ، يأتي الواحد منهم بطائر يضعه على يده ثم يطلقه ، فإذا طار يميناً فهذا أأل حسن ، وإذا طار يساراً تشاءم الرجل ، فالله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتهم إلى أن هذا الجذب ليس من فعل موسى عليه السلام ، لأن موسى لا يملك في كون الله شيئاً ، إنما مالك الكون هو رب موسى ؛ ولذلك فالله سبحانه وتعالى لا يريد لأحد أن يُغنى في

موسى عليه السلام فيقول : إنه قادر على أن يأتي بالزرع والخير ، وقادر على أن يذهب بهذا الخير ويحمل الأرض جدتها .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَنُكْرَهُنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ معناها أنه توحدة تعلم وكثرة لا تعلم ؟ فماذا سم تتحدث القلة التي تعلم بما تعلمه ؟ نقول : إن هذه القلة سكنت حواف من طعيان فرعون ، فكثير من الناس يرى أمامه الفساد ولا يمتح منه ولا يتكلم ، على أن آل فرعون رغم هذه الآيات الصغرى التي أحدهم الله بها ، مصوا في تحذيرهم ، وهذه الآيات كان من المفترض أن تلفتهم إلى قدرة الحق سبحانه وتعالى ، ولكنهم أخذوها بالتحدى ، وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا نَأْتِينَا مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ وهذا تصرف منهم يبرر حدوث الهلاك لهم ، فهم أولاً : أخذوا آيات الله التي أراد سبحانه أن يلفتهم بها لقدراته على أساس أنها سحر ، مع أن السحرة الذين هم سادة من السحر ، حذروا ساجدين وآمنوا بالله ، وإذا كانت هذه الآيات سحراً ، فماذا لم يبطال السحرة هذا السحر ؟ ﴿ مَهْمَا ﴾ هنا تدل على استمرارية العباد وتصميم على عدم الاستماع إلى منهج الله ؛ أى أنهم أغلقوا الباب نهائياً ، فهم لم يؤمنوا مهما جاءهم من آيات . وفي وصفهم الآيات بأنها سحر عملة منهم ؛ لأن المسحور لا إرادة له مع الساحر ، وبذلك عندما قالوا عن رسول الله ﷺ بهتاناً وروؤاً إنه ساحر ، وبه يسحر الناس يؤمنوا . قو مردود عليهم ؛ لأنه ما دام قد سحر الناس ليؤمنوا ، فلماذا لا يسحركم أنتم ؟ ولكن كونكم لم تسحروا وتصرون عبي الصاد وعدم الإيمان ، فانسألة إذن ليس فيها سحر ، ولكن فيها مكابرة ، وأنت ساعة تسمع كلمة « مهما » تعرف أن هناك شرّاً وجواً ، ويقول العلماء إن أصلها « مه » معني كف ، أى أنهم يقولون لموسى : كف عن هذا الأمر فما تأتينا به من آيات لا تصدقك . وأمام إصرارهم وعنادهم أرسل الحق سبحانه وتعالى عليهم مريداً من الآيات التي تلفتهم إلى صعبهم وقدره الله ، وقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجُرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالْبَقَاةَ وَالْصَّارِغَ وَالذَّلَّةَ ، كُنْتَ مُفْعَلَةً فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف ١٣٣] ، و﴿ الطُّوفَانَ ﴾ هو : طغيان الماء ، يجعله الله سبباً للدمار ، ولكن الماء هو سبب الحياة فكيف يكون سبباً للدمار ؟ نقول لا تأخذوا بمع الدنيا بدائيتها ، ولكن خذوها بأوامر الخالق لها ، فلما سر الحياة ، فإذا أراد الله أن يكون سر الهلاك ، جعله طوفاناً يقضى على الحياة ، والطوفان الذي حدث في عهد نوح من المؤمنين

مع نوح هي السفينة ، ولكن الحق سبحانه وتعالى لم يذكر لنا هنا وجود سفينة جأ إليها أنبا نوح ، إذن . فلابد أن الطوفان الذي أصاب آل فرعون لم يصب بني إسرائيل .

ولكن آل فرعون بعد أن ذهب عنهم هذا البلاء رجعوا إلى كفرهم ، فجاءهم جراد ليهلك الررع ثم جاءهم القمل ، وهو غير القمل الذي يصيب الإنسان في بدنه وثيابه ، وهو حشرة تصيب النبات ، معروفة باسم « القراض » ، ثم جاءت آية الضفادع كلما وضع إنسان من آل فرعون - رجلاً أو امرأة - يده في مكان وجد فيه صمغة ، في الطعام صفادع ، في الماء صفادع ، في الثياب صفادع ، ثم جاءت آية الدم . كل شيء يمسكه أحد من آل فرعون يتحول إلى دم ، حتى قيل : إن المرأة من آل فرعون كانت إذا أرادت أن تشرب ماء ذهبت إلى امرأة من بني إسرائيل وقالت لها : حدى الماء في فمك وصعبيه في فمي ، وكأنها تريد أن تحتل عبي الله ، ولكن الماء في فم قوم موسى يكون ماء ، وإذا ما دخل فم قوم فرعون انقلب دماً .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَيُّكُمْ مُّضِلٌّ ﴾ : معناها : أن الله لم يرسل كل هذه الآيات دفعة واحدة ، بل كانت الآية تأتي لتبه ، فيستغيثوا ويعبدوا بالإيمان وعندما ترفع عنهم يعودون إلى كفرهم ، فتأتي الآية الثانية فيعدون فترفع فيكفرون وتأتي الآية الثالثة ، وهكذا ، وكانت هذه الآيات التسع هي الآيات التي أرسل بها موسى إلى آل فرعون ، وهي : العصا التي تحولت إلى ثعبان ، واليد التي خرجت يضاء ، والسيف ، ونقص الثمرات ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم . لقد وصفها الحق سبحانه وتعالى بأنها آيات ، لأن كل منها تحرق نواويس الكون ، تصيب من يريد الله إزالته ، وتبتعد عن المؤمنين موسى ، وعلى الرغم أنه في كثير من الأحيان كان المؤمن والكافر يقفان في بقعة واحدة ، هذه هي المعجزات . ولكنهم رغم كل هذه الآيات كانوا يعدون بالإيمان ، ويعودون إلى الكفر وكانوا قوماً مجرمين ، والحق سبحانه وتعالى يكمل لنا ما حدث ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَنْتَوَى أَذُنُ رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّْا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَلَكَتِجْ إِيَّاكَ ﴾ [الأعراف . ١٣٤] ، والرجز هنا العذاب الذي ساقه الله عليهم بالطوفان ، والجراد ، والقمل والضفادع ، والدم ، ولم يجدوا مجاة من هذا كله في آخر الأمر إلا أن يلجئوا لموسى ، ويطلبوا منه أن يدعو الله تعالى أن يكشف عنهم العذاب ، وفي هذا قد اعترفوا بأن موسى مرسل من الله ، وأن العذاب الذي هم فيه لا يستطيع أن يصرفه عنهم إلا الله . إذن فهم أولاً قد اعترفوا

بظلال ألوهية فرعون ، لأنه لو كان فرعون إلهاً ما لجئوا إلى موسى ليدعو الله تعالى ، وهم اعترفوا بأن موسى ﷺ مرسل من الله ، مقبول الدعاء عند ربه ، وهم اعترفوا أنه لا يمكن أن يرفع عنهم هذا العذاب إلا الله . وقولهم : ﴿يَمَّا عَهْدَ عِنْدَكَ﴾ ؛ أى بما أعطيتك من العهد بأدبصرك لأنت رسول ، وألا يتحلى عنك . ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿قَلَمًا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الزِّجْرَ إِلَىٰ لَجَلٍ هُمْ بِلَهْوِهِ إِذَا هُمْ يَكْثُونَ﴾ [الأعراف : ١٣٥] أى يقصون العهد ، وكان لهم مع كل آية من آيات العذاب عهد بالإيمان ، ومع كل رفع للعذاب نقص لهذا العهد ، ورجوع عنه ، ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول ﴿قَلَمًا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الزِّجْرَ﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى هو الذى كشف ، والكشف جاء استجابة لدعوة موسى ﷺ ، عندما قال له قوم فرعون : ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يَمَّا عَهْدَ عِنْدَكَ لَيْسَ كَشَفْتَ عَنَّا الزِّجْرَ لَمُؤْمِنٍ لَّكَ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَسْتَأْذِنُكَ وَلَوْ أَنَّ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ؛ فالله هو الذى جاء بالعذاب ، وهو الذى كشف هذا العذاب ، والله يعلم أنهم سيقصون العهد ، ولكم أراد أن يكونوا شهداء على أنفسهم ؛ حتى لا يجادلوا يوم القيامة ويقولوا : يا رب ، لو كشفت عنا العذاب لآما . ووصلت المسألة إلى نهايتها عندما نقصوا العهد مرات ومرات ، وكان فى هذا تحدياً وإصراراً على الكفر فجاءهم الهلاك ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى ﴿فَأَنقَضْنَا بِهِمَّ فَأَعْرَقْنَاهُمْ فِي آيَةِ يَأْتِهِمْ كَذَبُوا بِفَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا حَفِيلِينَ﴾ [الأعراف : ١٣٦] .

دعاء موسى على فرعون وملئه

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَقَالَكَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْتَ رِيَّةً وَأَقُولَ فِي الْحَبْوَةِ الذُّبَابَ رَبَّنَا يُفْسِدُوا عَلَىٰ سَبِيلِكَ﴾ [يوس : ٨٨] ؛ ما الزينة ؟ هى الأمر الرائد عن ضرورات الحياة ومقوماتها الأولى ، والإنسان محتاج لكي يعيش أن يأكل أى نوع من الطعام ولو لقمة خبز جافة ، أما كونى أتناول من أصناف الطعام كالسمك والدجاج والديك الرومي والحمام ، إلى غير ذلك من أطايب الطعام ، فهذا اسمه ترف الحياة .

مقومات ستر العورة أن أستر عورتى بجلباب ، ولكن كوى أرتدى الملابس الفاخرة فهذه ربة ، والإنسان حين ينام ليس محتاجاً إلى فاخر الفراش ، بل يكفيه - حصير - أو حتى سرير وعليه مرتبة من القطن أما أن أجعل - المرتبة - من ريش النعام ، والبراش من الديباج أو ما

شابه ذلك ؛ فكل هذا رية .

إذن . فالرية هي ما خرج عن ضروريات الحياة ، ولكن لماذا قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿رِيئَةً وَأَمْوَلًا﴾ . مع أن أصل الرية يأتي من الأموال ؟ نقول : هذا صحيح ، ولكن الرية خرج من الأموال ، وهناك الرصيد الأصيل للأموال وهو الذهب ، وهناك معادن وأحجار نفيسة كثيرة ، وأحياناً تكون أثمن من الذهب وأثمن من الفضة ، ولكن يظل الذهب هو مقياس الفنى لى العالم كله .. لماذا ؟ لأن الأحجار الكريمة لو كسرت - كالماس مثلاً - تقل قيمتها للدرجة كبيرة ، ولكن الذهب إذا كُسر يُجمع ويصهر وتعاد صياغته مرة أخرى ، وتبقى قيمته كما هي ؛ ولذلك فإن الرصيد المالى لكل دولة يقدر بقيمة الذهب الذى تملكه ، والمراعاة ؛ كانوا يسيطرون على الجبال من مصر إلى الحبشة ، وكانوا يرسلون البعثات لاستخراج الذهب من هذه الجبال ، وما رالت حفريات قدماء المصريين لشاحم الذهب موجودة حتى الآن فى سلسلة جبال البحر الأحمر ، ولقد برع المصريون القدماء فى استخراج الذهب من المناجم وصياغة الخلى ، والذهب أحياناً يكون موجوداً فى أماكن كثيرة ، ولكن استخراجه يتكلف مبالغ كبيرة ؛ ولذلك لا يستخرج ؛ لأن تكاليف استخراجه تزيد عن قيمته ، ويعتبر استخراجه غير اقتصادى .

إذن .. فالحق سبحانه وتعالى أعطى لهم الأموال والرية ، ولذلك ملثوا معابدهم بالقروش للرسمية بألوان لم تفسد رعم هذه القروش الطويلة ، كل هذا رية أو ترف ومعناها أن حركة الإنسان المترف أكثر من ضروريات حياته ؛ ولذلك ينفق ماله فى الكماليات والترف والرية وقول الحق تبارك وتعالى : ﴿رَبَّنَا يُفِثْ لَنَا مِنْ أَنْ نَحْمِلَ فِيهِ بِرَبِّنَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا نَحْمِلُهُمْ بِالْأَصْفَادِ﴾ [يونس : ٨٨] معناها : أنهم لم يكتفوا بالكفر لأنفسهم فيكونون صالين ، ولكنهم مصئون أيضاً يدفعون الناس إلى الكفر ، فكان عليهم ورررر : ورررر لأنهم ضلوا وكفروا ، ورررر فى أنهم أضلوا غيرهم ، ودفعوهم إلى عبادتهم من دون الله . ولكن هل الحق سبحانه وتعالى أعطى فرعون المال والرية ليصل عن سبيله هل هذه هي عبادة العطاء ؟ لا ولكن هناك «لام» اسمها لام العقاب .

دعاء موسى : ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ فَقَدْ جَاءَنَا مِنْهَا قَوْمٌ كَاذِبُونَ﴾ [يونس : ٨٨] .

الآلِيمُ ﴿[يونس : ٨٨] .

قوله : ﴿رَبِّنا اُخْرِسْ عَلَيَّ اَمْرًا لِيَهْرَ﴾ أى . امحها أو امسحها ، فلقد قال بعض العلماء . ر .
أمرون فرعون مُسِحت بعد هذا الدعاء ، فما كان عنده من ذهب أصبح حجارة ، والذى كان
عنده من مال أصبح زجاجا . وقوله . ﴿وَأَشَدُّ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ﴾ ، الأموال التى كانت عند
فرعون كانت وسيلة للإضلال وبشر الكفر لذا قال موسى : يا رب ، أسألك أمرين :

الأمر الأول . أن تطمس عني أموالهم فتحصني بلا قيمة

والأمر الثاني أن تشدد عني قلوبهم ، أى : اطع عليها واشدد الرباط على القلوب ؛
حتى لا يؤمنوا لأنهم افترروا بأنواعهم فرعون ورفضهم الدعوة وصددهم عنها ؛ لذلك فهم لا
يستحقون رحمتك ولا يستحقون هدايتك .

ولكن كيف يدعو موسى على فرعون وقومه بهذا الدعاء ولا يطلب من الله أن يهديهم ،
كما فعل رسولنا عليه الصلاة والسلام ، حين قال : « اللهم اهذ قومي فإنهم لا يعلمون » ؟
يقول إنه لا بد أن الله سبحانه وتعالى قد أطلعه على أن فرعون وقومه لن يهتدوا ، وأنه لا فائدة
منهم . مثل أن يطع نوحا عليه السلام في قوله تعالى : ﴿وَأَوْحِ إِلَى نوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا
مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا يَتَّبِعْهُنَّ يَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [مرد ٣٦] . إن هؤلاء الذين يعلم الله أنهم لن
يؤمنوا بعينه الشامل بكل هذا الوجود ، لا تكون هناك فائدة من هدايتهم .

وقوله ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ . تفسيرا [الآية] إلى أن هناك فرق بين إيمان
لاختيار وإيمان القصر ، فالكافر واشرك ساعة الاحتصار يكشف عنهما حجاب العيب ؛ ليرى
كل ما كان حافيا عنهما ، وعندما يريان العذاب يُعسان الإيمان ، ولكنه لا يُنقش منهما ؛
مصادقا لقول الحق تبارك وتعالى ﴿فَلَمَّا يَكُ يَفْعَلُهُمْ بِسُوءِ لَعْنٍ رَأَوْا بُسْرًا﴾ [غافر ٨٥] ،
ولذلك فإنه ساعة يأتي العذاب يكون قد انتهت الاختيار اشترى ، ولا تقبل نوبة ولا إيمان

فرعون عندما أدركه العرق قال كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ
الْعَرَقُ قَالَ ءَأَمْسَتْ أُنْفُ لَ إِلَهَ إِلَّا الَّذِى ءَأَمَسَتْ يَدُ نُوَّا إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يوس ٩٠] .
وعندما توجه موسى وهارون بالدعاء إلى الله ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿قَدْ أُجِيبَ
دَعْوَتُكُمَا﴾ [يوس ٨٩] . يلاحظ أن الذى دعا هو موسى ، وأن الله جل جلاله قال ﴿قَدْ
أُجِيبَ دَعْوَتُكُمَا﴾ ، مما يدل على أن هارون دعا مع موسى ، مع أن موسى هو أصل الرسالة ،

وهارون جاء ليشد عصده ، وإذا نظرت إلى طبيعه الاثنين تجد أن هذا رسول وهذا رسول والمهمة واحدة فإن اعتبرت الذات قلت : رسولان ، وإن اعتبرت وحيدة المهمة قلت : رسول .

خروج بنى إسرائيل من مصر

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَمَسُّ لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ﴾ [طه ٧٧] ، بعد أن انتهت المعركة بانتصار الحق وأمن السحرة بموسى ، انهدم بذلك جزء من سطوة فرعون وجبروته ، فجمع موسى بنى إسرائيل ، وهم بقايا ذرية يعقوب عليه السلام وسار بهم شرقاً إلى الأرض المقدسة في فلسطين ، فتبعهم فرعون وجنوده ، فأصبحوا في خوف شديد ؛ لأن البحر أمامهم وفرعون من خلفهم ، فلا مفر من القتل على يد فرعون وجنوده أو الموت غرقاً في البحر

وهذا حكم القصايا البشرية المعزولة عن مهج الله ، لكن القصايا البشرية عند المؤمنين قائمة على الإيمان بمهج الله تعالى ؛ ولذلك فالمؤمن حين تصيبه مصيبة في الدنيا يذكر الله ويقول : لا كُذِّبْتُ وَأَنْتَ رَبُّ فَمَا دَامَ اللَّهُ رَبَّنَا فَإِنَّهُ يَهْدِي كُلَّ كَرْبٍ يَقَعُ لَنَا فِي الدُّنْيَا ؛ لأنه سبحانه لم يتركنا أبداً . ونحن صرنا مثلاً - ولله المثل الأعلى - فننا هب أن إساناً معه « جيبه » ثم فقده ، في هذه الحالة يعضب هذا الإنسان إذا لم يكن معه غيره ، لكن إن كان معه غيره أو له رصيد في البنك أو في الخزانة ، فإنه لا يعضب ولا يحزن ، فكذلك المؤمن إذا ضاع منه شيء لا يحزن ؛ لأن عنده رصيماً ، ورصيد المؤمن هو إيمانه بربه الذي لا تنفد عطاياه ، ولا يتحلى عن عبادته أبداً ، الله سبحانه وتعالى أمر موسى أن يضرب لقومه طريقاً في البحر ، « والضرب » هو : إيقاع شيء من ضارب بالة على مضروب ؛ ليصبح صالحاً للاستعمال ؛ ولذلك كانوا يكتبون على النقود المعصاة أو الذهب « ضُرب في مصر » بمعنى ضرب النقد أى أنه تم سكّه وختمه وصار عُقْمَةً ، فبعد أن كان معدناً أصبح عملة نقدية متداولة . ولكن أن يضرب موسى لقومه طريقاً يشا في البحر ، فهذه مسألة غريبة في فوايد البشر ؛ لأن « اليس » أرض صلبة يابسة ، والبحر ماء .. فكيف يحدث ذلك في عرف البشر ؟ ربما سبحانه أوحى إلى موسى وقومه بأنه هو المتكفل بهذا الأمر ، وقال له : اضرب البحر بعصاك ولا تخش أن يدركك فرعون أو أن يفرقت البحر ، أى لا تخف دركاً من فرعون ولا تخش غرقاً من البحر ؛ لأن الطريق مضروب ، ولذلك

جحد المعجزة مع موسى غريبه جدًا : عصا يصرب بها ماء فيصير ما تحت العصا يتساقط وما حولها جبالاً ، ويصرب بها الحجر فينفجر منه الماء ، ويبقيها على الأرض فتصير حجة تسعى .

ومعنى «أمر» أى امش بالليل ؛ لأنه أستر عليك من عيون فرعون ، ثم يقول تعالى : ﴿فَأَنبَحَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُودِهِ فَعُشِبُهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِبَهُمْ ۖ وَأَصَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه ٧٨ ، ٧٩] ، هنا الحق سبحانه فى هذه اللقطة لم يذكر لنا ماذا قال قوم موسى له ، ولكنه ذكر ما قالوه فى لقطة أخرى ، فقال سبحانه : ﴿فَلَمَّا تَرَاهُ الْجَنَّتَيْنِ قَالَ أَحَسْبُ ثَمُوجَ إِنَّا لَمَذْكُورُونَ﴾ [الشراء ٦٠] إذا تكررت القصة فافهم أن فى كل تكرير لقطة جديدة ، «إذا جمعت كل اللقطات تعطيك القصة كاملة ، فلما قالوا : ﴿إِنَّا لَمَذْكُورُونَ﴾ طمأنهم موسى بقوله : ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشراء ٦٢] ، قال لهم : ﴿كَلَّا﴾ ، وهذه ليست من عدى ولكنها من عد الله ؛ لأنه ربى الذى سيهدينى إلى طريق النجاة ، فالقرآن يعطينا لقطات متعددة تشرح القصة كاملة .

وكلمة ﴿عُشِبُهُمْ﴾ معناها غطاهم من البحر ما عطاهم ، وأنت حين تبالع فى شىء تقول : لقد حدث ما حدث ، وحصل ما حصل . فأنت تبهم الشىء ؛ لأنك لا تقدر على الإحاطة به بالتفصيل . كذلك قوله تعالى : ﴿فَعُشِبُهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِبَهُمْ﴾ ؛ أى أنه أمر مهول لا يمكن حصره ، وهذه لقطة غير موجودة فى القصة هـ ، فموسى حينما مشى فى الطريق «البيس» ونجا بقومه بنى إسرائيل - وتبعه فرعون بجنوده ، أراد أن يضرب البحر بعصاه ؛ ليعود كما كان حتى لا يسلكه فرعون وراعيهم ، وكان هذا اجتهاذاً منه ، ولكن الوحي الإلهي أمره أن يترك البحر كما هو ، قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَأَتْرُكُ الْبَحْرَ رَهَوًّا ۖ إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [الدخان ٢٤] . وكانت الحكمة من ترك البحر على حاله إعراء فرعون وجنوده بالسير فى الطريق البيس ، حتى إذا كان الجنود داخله أرجع لله الماء إلى استطراف سيولته ؛ فيغرق فرعون وجنوده ، فيكون الله تعالى قد أنجى وأهلك بالشىء الواحد .

ومعنى : ﴿وَأَصَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه ٧٩] أى أنه قادهم إلى طريق الضلال والهلاك ؛ لأنه كان دائماً يدعى أنه يقرود قومه ويهديهم إلى سبيل الرشاد ، كما فى قوله تعالى : ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر ٢٩] . فرعون كذب فى هذا الزعم ؛ لأنه قادهم إلى الهلاك والغرق ، ولم يهديهم إلى سبيل الرشاد .

نجاة موسى وقومه ... وغرق فرعون ومن معه

ها هم قوم موسى أمام البحر يحشون العرق ، وتسجى معجزة الله تعالى لموسى عليه السلام في أن قوم فرعون حنقه والبحر أمامه فيوحى الله له أن يضرب بعصاه البحر ، فينشق البحر كل فرق كالطود العظيم . انتقل الماء من قايون السيولة المسحر به ، إلى قايون التجمد الذي أراده الله ، وصار البحر طريقاً ؛ ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَمَسُّ لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [ع ٧٧] ، طرق البحر التي تفرقت بعصا موسى صارت جافة يابسة ، تصلح للمرور والسير عليها ، لقد أرسل الله الريح لتجفف أرض الطرق التي انشقت بعصا موسى ، لقد أصبح البحر سراديب ، فسارت فيه الاثنا عشرة جماعة التي خرجت مع موسى عليه السلام ، وببما هم سائرون مع موسى ؛ ليحوا جميعهم خوفاً من أن يلحق بهم فرعون وحوده ، قال بعضهم : أين إخواننا الذين كانوا معنا ؟ أجابهم موسى عليه السلام بمساء : إنيهم يسرون في الطرق الأخرى التي انشقت بالعصا ، كما أراد الحق أن يسجىكم ، لكنهم شكوا في ذلك ، وربع موسى يده إلى السماء يدعو الخالق الأكرم أن يعينه على سوء خلق من لم يؤمن بقسرة الحق ، ورغب فقط في التمتع بمعجزات الإيمان .

وأوحى الله لموسى أن يضرب بالعصا على العرق العظيم ، فانشقت في كل فرق كوة يمكن لكل جماعة أن ترى الأخرى منها ، ويقال : إن جبريل كان قد ركب فرشا أتى آناه الشبق ، وهي تمخر في البحر . وكانت الفرس - التي لفرعون - قد شمت ربحها فملاها الهياج ، فافتحمت البحر وراءها ، فغرق فرعون ومن معه أجمعون ، ونجا موسى ومن معه هكذا شاءت إرادة الحق أن تهلك وأن تسجى بالنسيب الواحد ، انشقاق البحر ثم عودته مرة أخرى إلى حالته ، وعندما جاء العرق إلى فرعون أعلن الإيمان ، لكن لا قبول للإيمان في اللحظة الأخيرة ؛ وإنما بقي جسد فرعون آية لإثبات قدرة الله ، وفي ذلك يقول الحق : ﴿وَحُورُّنَا بِسَبِّ إِبْرَاهِيمَ الْبَحْرِ فَاتَّعَمَهُمْ فِرْعَوْنُ وَحُودُهُمْ بَعْبًا وَعَدَوْا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ مَا أَنتَ أَنتَ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ مَوْا إِبْرَاهِيمَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝ أَلْفَنُ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝﴾ فاليوم سيجدك يديك لتكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْآبَاءِ صَنَ آيَاتِنَا لَمِثْلُوكَ﴾ [يوس ٩٠ - ٩٣] ، لقد شاءت إرادة الحق أن يبقى جسد فرعون

بعد اسرق محفوظاً ؛ ليراه الناس من بعد ذلك ؛ ليعبروا باللعظة التي أرادها الله ، فقد عرق آل فرعون ولم ينج فرعون من العرق ، إنما الذي نجا هو جسده ، حدث ذلك أمام عيون من خرج مع موسى عليه السلام ، هرباً من ظلم فرعون ، وبعد أن تأكدوا من نجاتهم جميعاً ولما بدأ موسى الفرار بقومه من بطش فرعون وجبروته ، تبعه فرعون وقومه ، وأصبحت كل فئة على مرمى البصر من الأخرى ؛ أي أن قوم موسى يرون فرعون وجسوده مقلبين ، وقوم فرعون يرون موسى وأتباعه وهم يعمرون ، قال قوم موسى لسيدهم . ﴿ إِنَّا نَسْأَلُكَ رَبَّنَا بِأَن تَجْعَلَ لَنَا مِثْلَ مَا جَعَلْتَ لَإِسْرَائِيلَ إِذْ أَخْرَجْتَهُمْ مِنْ مِصْرَ ۚ وَجَعَلْتَ لَهُمْ يَمِينَ ۚ ﴾ [الشعراء ٦١ ، ٦٢] ، كان كلام قوم موسى منطقيّاً مع الأحداث ؛ لأن قوم فرعون وراءهم يسارعون إليهم ، وأمامهم البحر لا يستطيعون أن يهربوا ، فلا بد أن يدرّكهم قوم فرعون .

ولكن موسى قال ﴿ كَلَّا ﴾ ، ماذا ؟ لأنه رسول رب العالمين ، وربّه الذي أرسله لن يتركه ، وإذا كانت الأسباب قد عجزت ، فربّ الأسباب سبحانه وتعالى لا يعجزه شيء ؛ ولذلك فعندما تحلت الأسباب عن موسى وقومه ، التجأ إلى ربّ الأسباب ، ولم يلجأ إلى قدرات البشر ، وقال . ﴿ إِنِّي مَعِيَ رَبِّي سَيِّدِي ﴾ أي : إن الله تعالى معي وسيدي إلى طريق النجاة ؛ حينئذ جاءه المدد الإلهي من الله تبارك وتعالى ، يقول رب العالمين : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالْعَفْوَافِ ۖ ﴾ [الشعراء ٦٣] . وهكذا أنجى الله جل جلاله موسى وقومه بأن حرق لهم قانون سيولة واستطرق الماء فرعون وقومه حين تبعوا موسى وقومه ساعة فروا من مصر ماذا حدث ؟ يقول الحق عز وجل . ﴿ فَلَمَّا تَرَأَىٰ الْفِرْعَوْنُ أَنَّهُ مُخْرَجٌ مِنَ الْغَمَمِ ۖ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُوكُمْ ۚ ﴾ ، كان قول قوم موسى يتفق مع العقل والمطلق فالبحر أمامهم وفرعون وقومه أصبحوا على مدى الرؤية منهم ، وإذا وصل قوم موسى إلى البحر فلم يستطيعوا السير ، وسيدركهم قوم فرعون ، ولقد تصور قوم موسى أن البحر حرج عن قدرة الله سبحانه وتعالى ، وأنهم ما دموا قد وصلوا إلى البحر فقد انعدمت سبب النجاة أمامهم ، ولكن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يلفتنا إلى أن البحر لم يعبت عن قدرة الله ؛ لأنّ الله ما في السماوات وما في الأرض ، والبحر معها ، وموسى بشهادة السورة أدرك هذه الحقيقة فقال بثقة المؤمن في ربه . ﴿ كَلَّا ﴾ ماذا يعنى موسى بقوله . ﴿ كَلَّا ﴾ وفرعون وجسوده على مرمى البصر منهم ، والبحر من أمامهم ؟ موسى كان يعلم أن الله لن يتركه ، ولن يترك

المؤمنين معه ، وأنه سيفتح لهم سبل النجاة ؛ لذلك كان وحى الله تعالى إلى موسى : ﴿ أَنْ أَصْرِبَ يَصَّالَكَ الْبَحْرُ فَأَمْلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ ، وغرق فرعون وقومه ، وهكذا مجد أن موسى رفع الأمر إلى الله ، وبصرية واحدة من العصا ، أوجد الله سبحانه وتعالى لموسى وقومه طريق النجاة في البحر ، فأوجد لهم وسط هذه الأمواج - التي فقدت قانون استطرادها ؛ وتوقفت لتفتح طريقاً يابساً ؛ تكون فيه النجاة لموسى وقومه طريقاً ، ولكن هذا الطريق وهذه المعجزة التي كانت سبيلاً لراحة موسى وقومه كانت هي نفسها الطريق لهلاك فرعون وقومه ؛ فبعد أن عبر موسى وقومه البحر ، جاء قوم فرعون وراءهم ، وأبغى الله سبحانه وتعالى الطريق مفتوحاً ميسراً لهم ليسروا فيه ، وعندما نزل قوم فرعون وأصبحوا في وسط البحر ، أمر الله الماء أن يرجع كما كان ، فرجع كما كان ، وغرق فرعون وقومه . يقول تعالى : ﴿ وَارْتَدَّ ثَمَّ الْآخَرِينَ ۚ وَأَصْبَحَ مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ۚ ثُمَّ أَصْرَقَ الْآخَرِينَ ﴾ [الشعراء ٦٤ - ٦٦] معنى : ﴿ وَارْتَدَّ ﴾ أى قربا ، فقوم فرعون قرياهم من وسط البحر ، أى قربا هناك قوم فرعون إلى وسط الطريق ، وأبغى الله تعالى موسى ومن معه أجمعين ، فكسب موسى ومن معه المعركة دون أن يحسروا شيئاً ، ثم أغرق الله فرعون وجنوده في البحر ، فالدله تعالى أنجى وأغرق بالشئ الواحد .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ وَلَيْكَ زَيْلُكَ لَهْرَ الْعَرَبِ ۚ الرَّحِيمِ ﴾ [الشعراء ٨٠ ، ٩٠] ، والمعنى أن في هذا الذي حدث لآية ، و« الآية » هي الأمر العجيب الذى يخرج على العادة ، ويشير إعجاب الناس واندهاشهم ، وهذا مثل قولك : فلان آية في الذكاء أو الخلق . ومع هذه الآية الواضحة المعجزة ما كان أكثرهم مؤمنين ، مع أنه كان من المفترض أن يؤمن كل من رأى هذا الأمر العجيب ولكن هذا لم يحدث ؛ لأنه حتى الذين تبعوا موسى ، وأبجأهم الله وجاور بهم البحر وعمل لهم كل هذه المعجزات ، لما مروا صبي قوم يعكفون على أصنام لهم ، طلبوا من سبي الله موسى أن يجعل لهم إلهاً كآلهة هؤلاء الناس . وقال تعالى : ﴿ وَخَوَرْنَا بِسَبِّ إِبْرَاهِيمَ بِالْبَحْرِ ﴾ [يس ٩٠] ، ولم يقل : اجتاز به إسرائيل البحر ؛ لأن الاجتياز لم يتم بأسباب بشرية ، وإنما تم بقدرة الله سبحانه وتعالى التي هي فوق الأسباب ، فلو كان بنو إسرائيل قد حمروا خيلاً ، أو بنو حاططاً ، أو أعدوا بعض السفن ؛ ليعبروا بها البحر . إذن هم قد اجتازوا البحر بأسباب البشر ، ولكن قوله تعالى ﴿ وَخَوَرْنَا ﴾

تدل على أن العملية تمت بقدرة الله ، وليس بأسباب البشر ، ولكن الله سبحانه وتعالى أمر موسى أن يضرب البحر بعصاه ، وكما عرف فإن قانون الماء هو السيولة والاستطراق ، والله تبارك وتعالى طلب من موسى أن يضرب بعصاه البحر فانفلق وتجمد .

موسى عليه السلام بمجرد أن ضرب بعصاه البحر ، تحول الماء من السيولة إلى جليين بينهما وادٍ ، ماذا تمت المعجزة بهذه الكيفية ؟ لأنه لو انفلق البحر وأوجد لهم طريقًا يمرون فيه وحوله الماء من الناحيتين ، لحاف بهو إسرائيل أن يعبروا ، وقالوا : ربما غرقنا الماء ونحن لم نتم العبور ، والله سبحانه وتعالى يريدهم أن يطمئنوا ويمروا بسرعة وبلا تردد ، فجعل الماء على الناحيتين بجهد ؛ حتى يطمئنوا إلى أن عبورهم سيتم بسلام .

بعد أن عبر موسى وقومه البحر ، أراد أن يضرب البحر بعصاه ؛ فيعود مرة أخرى إلى السيولة ؛ حتى لا يمر جنود فرعون ويلحقوا بهم ، ولكن الله سبحانه وتعالى طلب منه ألا يفعل ذلك ، وقال له : ﴿ وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ زَهَوًا إِنَّهُمْ كَادُوا يَمْشُونَ عَلَى الْمَاءِ ﴾ ، أى أترك البحر كما هو ، وبه الممر اليابس الذى مر فيه موسى وقومه ؛ لأنهم سيستخدمون ويرلون إلى الممر الموجود فى البحر يتبعوكم ، وبمجرد أن يكون أوبهم قد اقترب من الشاطئ الآخر من البحر ، وآخرهم فى أول البحر ، يعيد الله سبحانه وتعالى للماء قانونه فيعود البحر مرة أخرى إلى السيولة ؛ فيغرق كل من هو موجود فى الممر ، فيسحق موسى وقومه ، ويعرق فرعون وجنوده بنفس الشيء .

قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَخَوَّضْنَا بِسَبْحِ إِمْرَةٍ إِلَى الْبَحْرِ فَأَلْبَسَهُمْ فِرْعَوْنَ وَخُودُهُمْ ﴾ . هى هذه الحالة الاتباع لا يتم بفكر بشرى مرتب ، بل يتم بانفعال الشر ؛ لأن فرعون وجنوده حين رأوا موسى وأتباعه قد بعدوا عنهم ، كان العقل يقول : لقد خلصنا من موسى وأتباعه ، وذهبوا بعيدًا ، ولكن نوارع الشر فى نفس فرعون ، وفى أنه يريد أن يقتل موسى وقومه هى التى جعلته يتبعهم ؛ ذلك أن موسى ومن معه ما داموا قد بعدوا عن فرعون ومن معه ، يكون خطرهم على ملكه قد زال ، وانتهت المسألة ، هذا إذا كان فرعون يريد ذلك ، ولكن فرعون يريد أن يثبت أنه إله ، وأنه لا يفلت من قبضته عدو ، وأنه لا بد أن يقتل موسى وقومه ليكونوا عبرة ؛ حتى لا تقوم دعوة إصلاح بعد ذلك .

الشر داخل فرعون هو الذى دفعه أن يعبر بجيشه البحر ، وإحساسه بقوة جيشه وضعف

موسى وقومه ، هو الذى جعله يصمت على أن يتكلم بهم ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿يَعْيَا وَعْدُوا﴾ ؛ والبعى هى تجاوز احد ، والعدوان هو الإصرار على الباطل . وحسبنا قرأ قول الله سبحانه : ﴿فَالْتَبِعْهُمْ فِرْعَوْنُ وَحُوْدُهُ بَعِيًا وَعْدُوا حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْعَرَقُ﴾ . نعرف أن الله سبحانه وتعالى كان قد أعد لفرعون وجيشه هذه النهاية ؛ ليكونوا عبرة لكل طاعيه يدعى الألوهية ؛ ذلك لأن فرعون أخذ بأسباب الأرض ، وسى قدرة الله المسبب ، ولو أن البعى والعدوان لم يكن بدخله ، نعرف بمجرد أن رأى معجزة انشقاق البحر ، أن إله موسى سيحجبه ولن يتركه يهلك ، ويوقف أمام هذه المعجزة ليصيق من كفره ، بل إن انشقاق البحر كان معجزة مرئية . تكفى لكى يؤمن فرعون برسالة موسى ؛ لأنه لا يقدر على هذه المعجزة إلا الخالق سبحانه وتعالى ، فليس من قدرة البشر ، ولا غير البشر ، أن يشقوا البحر ويتحول الماء إلى جبين يسهما بحر ، وكفى غرور فرعون وعدونه لم يجعله يلتفت إلى هذه المعجزة التى وضعها الله أمامه ؛ غلّه يفيق ، لقد كان مشغولاً بالوهميه وجبروته ، وكان الكمر يملأ قلبه ، فلم تؤثر هذه المعجزة الكبرى فيه .

ولذلك يقول الحق جل جلاله . ﴿حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْعَرَقُ﴾ . والإدراك : أن يقصد المترك أن يلحق بأشياء الذى يريد أن يتركه ، ويبدل كل جهده فى ذلك والعرق هو أن يغطى الماء الإنسان فلا يستطيع أن يفسس ، فيدخل إلى جسده بدلاً من الهواء ، وقول الحق سبحانه وتعالى ﴿أَذْرَكَهُ الْعَرَقُ﴾ ، كأن العرق جدى من جود الله وبه عقس ، وقد تنقى الأوامر من الله ؛ ليحيط بفرعون وجيشه ويعرفهم ماذا قال فرعون عندما أذركه العرق ؟ قال ﴿مَا مَسَّتْ أَنْتُمْ لَآ إِلَهَ إِلَّا الْآلِيَّةُ مَا مَسَّتْ يَدِي بَوًّا إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يوس ٩٠] . الإيمان إذا أطلق يكون دائماً إيماناً بالله سبحانه وتعالى ؛ ولذلك تقول . أمست ، فيعرف كل من يستمع إليك أنك أمست بالله ، ولكن فرعون لم يقل . أمست فقط ، بل قال : ﴿مَا مَسَّتْ أَنْتُمْ لَآ إِلَهَ إِلَّا الْآلِيَّةُ مَا مَسَّتْ يَدِي بَوًّا إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ، كل هذا يأتى لتأكيد المعنى ؛ لأن فرعون كافر ومدّع للألوهية . ولا يتوقع منه أن يعلن إيمانه بالله ، وخصوصاً أنه دعى أكثر من مرة إلى الإيمان ، ورأى أكثر من معجزة ولم يؤمن ، فلا بد هنا من تأكيد المعنى ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿هَآ أَفْلَحَ﴾ ، أى أنقروا الآن : إنه لا إله إلا الذى أمست به بنو إسرائيل ، وقد كنت تملأ الدنيا كفرًا ١٩٠ المردود هنا ليس الإيمان عسه ، ولكن

زمن الإيمان ؛ لأن هناك فرقاً بين إيمان الإجماع وإيمان الاختيار .

فرعون وهو يفرق كان في إيمان الإجبار ؛ لأنه يواجه الموت ويرى نهايته ، وإيمان الإجبار لا ينفع ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ مَا أَفْنَىٰ وَفَدَّ عَصَبَتْ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [يوس : ٩١] ؛ أي أنك يا فرعون وأنت تواجه الموت تقول : آمنت ، يساً كان عندك زمن طويل ؛ لتعلم إيمانك بعد أن أراك الله معجزات كثيرة على يد رسوله موسى ، ولكنك عصيت وأصررت على الكفر ، ولذلك فإن الإيمان لا يتقبل إذا بلغت الروح الخلقوم ، وعرف الإنسان أنه سيموت فيها ؛ لأن هذا إيمان إجبار .

والله سبحانه وتعالى يريد إيمان الاختيار من البشر ، ولو كان المطلوب إيمان الإجبار ، لقهر الله سبحانه وتعالى عباده على الإيمان ، وما استطاع واحد أن يكفر بالله ؛ لأن كل ما في الكون خاضع لأمر الله سبحانه وتعالى ، يستطيع أن يقهرهم على ما يشاء ، ولكن الحق جل جلاله يريد بإعطاء الإنسان الاختيار ، أن يأتيه عن محبوبة ، ولا يتم إيمان المحبوبة إلا إذا كان الإنسان مختاراً أن يؤمن أو لا يؤمن ، فالذي يأتي عن طريق الاختيار ، تكون له منزلة كبيرة عند الله ، إذن فالردود ليس القول ، ولكنه زمن القول ، يقول بعض الناس : إن الله ردَّ إيمان فرعون ولم يقبله مع أنه قالها ثلاث مرات ؟ نقول : إن إيمان الإجبار لا يقبل ممن له اختيار ، وفرعون حينما قال : ﴿ مَا أَنتَ إِلَّا الْوَيْ مَآسَتْ يَدُ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ كان بنو إسرائيل في ذلك الوقت يجسمون الله سبحانه وتعالى ، أنه جالس على صخرة من المرمر وقدماء في الماء ، وهكذا شاء الحق سبحانه وتعالى حتى ساعة إعلان إيمان فرعون ، أن يكون هذا الإعلان باطلاً ، الحق يقول : ﴿ قَالِ يَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً ﴾ [يوس : ٩٢] ، ونحو عرف أن الإنسان مكون من بدن وروح ، فالبدن أو الجسد هو الهيكل المادي ، والروح هي التي تعطى هذا الهيكل الحياة والحركة ؛ إذن فقوله تعالى : ﴿ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ أي بجسدك مجزئاً من الروح .

الحق سبحانه وتعالى يقول لفرعون : ﴿ قَالِ يَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ . أي بجسدك المجرد عن الروح ، ولذلك جعل الله سبحانه وتعالى البحر يلقي بجسد فرعون قبل أن يصبح جيفة ؛ حتى يراه الذين عبدوه جسداً بلا روح ؛ ليعرفوا أنهم قد عبدوا إلهاً غير قادر على أن يعطي الحياة لنفسه ، فكيف يعطي الآخرين الحياة ؟ ! ولو أن فرعون غاص إلى أعماق البحر بعد غرقه ، ربما

قال أتباعه : إنه قد احمى وسيعود ، ولكن ظهوره كجسد بلا روح يجعلهم يرون بهاجته ؛ عليها تكون عبرة لهم حتى لا يعيدوا بنشأ بعد ذلك ؛ ولذلك يقال : إن سبب حفظ أبدان الفراعنة أن الله سبحانه وتعالى أعطاهم أسرار تحيط الجسد البشري ؛ لكي تكون أجسادهم عبرة لمن يجيء بعدهم ، ويرى الناس أولئك الذين ادَّعوا الألوهية وهم أجساد لا حركة فيها ولا قدرة ، وأراد الله أن يرى قوم فرعون جسد فرعون ، ذلك الطاغية الذى كان يدعى الألوهية ويقول : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ سُجَّيْكَ ﴾ [يونس ٩٦] ؛ أى نجعلك بنجوى ؛ أى : مكان عال ؛ حتى يراك الناس جميعاً وتكون ظاهراً لهم ، لا يُخفى جسدك رمالاً لو تُلَّ أو أية عوامل طبيعية ، بل تكون عالياً أمامهم ؛ ليروك جميعاً ، لماذا ؟ لتكون لمن خلفك آية ، والآية هى الشئ العجيب الذى يلفتنا إلى طلاقة قدرة الله وعظمتها .

﴿ نَأْخُذُكَ وَنُحْشِرُكَ فِي أَلْيَسَ فَأَنْطَرُ كَيْفَ كَانَتْ عَنِةُ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص ٤٠] . أى أن الله تعالى عجل لهم العذاب فى الدنيا قبل الآخرة . والأخذ معناه : أن الأخذ عنده قدرة على أحد المأخوذين جميعاً فى قبضته مرة واحدة ، ويلقيهم أيما شاء ، وهذا ليس فى قدرة البشر ، وإنما فى قدرة الله تعالى وحده . لذلك يقول رب سبحانه : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود ١٠٢] . أما من أخذ للناهي فيريد منا الله أن نأخذ كل منهم من مناهج الخير بقوة ؛ قال تعالى : ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة ٦٣] . فسهج الخير والنعمة الذى جاءك من عند الله تعالى ، عليك أن تأخذه بقوة وتلتزم به . واليم : هو البحر ، فالله تعالى أخذ فرعون وجنوده ونبتهم فى البحر .

وبلغتنا هنا الحق سبحانه إلى أن نتعظ ونحذر من هذه الحادثة ، فيقول تعالى ﴿ فَأَنْطَرُ كَيْفَ كَانَتْ عَنِةُ الظَّالِمِينَ ﴾ ؛ لأن هذه العاقبة كانت عجيبة ، ولأن الماء والبحر جنودان من جنود الله التى تنصر الحق ، وتهزم الباطل .

فرعون يقدم قومه يوم القيامة إلى النار

يعصيا الله سبحانه وتعالى الصورة للمقابلة يوم القيامة ؛ أى أن الله تعالى أتى بصورة فرعون

وقومه في الدنيا ، وصورة فرعون وقومه في الآخرة ؛ ففى الدنيا هم يتبعون فرعون بلا فهم ويعبدونه بلا فكر ، وما داموا قد اتبعوه فى الأولى فلا بد أن يتبعوه فى الآخرة ولا بد أن يكون هو قائدهم ؛ لذلك يقول تبارك وتعالى : ﴿ يَهْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ﴾ [مرد ٩٨] ؛ فكما كان قائدهم فى الدنيا ، فهو قائدهم فى الآخرة ، فى الدنيا كان قائدهم ومتقدمهم إلى المنعة والتعيم الديوى ، وهم سائرون كلهم ورائه ، لا أحد منهم يحاول أن يسأل نفسه : كيف يكون هذا إلهاً وهو مخلوق ؟

قوله : ﴿ يَهْدُمُ قَوْمَهُ ﴾ ، أى يسير أمامهم ويتبعونه يوم القيامة ، وفى القرآن آيات فى شرح هذا الموقف .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَسَّرَ الْوَرْدُ ﴾ ؛ فيها تهكم عليهم ؛ لأنهم حين يذهبون إلى النار تأتهم حرارة شديدة ، فيريدون أن يذهبوا إلى الماء .

الله تعالى قال : ﴿ وَيَسَّرَ الْوَرْدُ الْمَرْوَدُ ﴾ ؛ فعندما يسمع الإنسان كلمة « ورد » يأتى فى باله ما يذهب الظمأ ويرد الحرارة ، ويستشعر أنه سيشرب الماء ، وبعد ذلك قوم فرعون حين يسمعون كلمة « ورد » يعتقدون أن فيه نجاة ، ثم بعد ذلك يعرفون أنه ورد فى النار ، وأنه عذاب ، وليس رحمة .

والحق سبحانه وتعالى فى آية أخرى يقول : ﴿ لَيْسَ لَكُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ صَرِيحٍ ۖ لَا يَسْمِعُ وَلَا يُفِي مِنْ جُوعٍ ﴾ [الغاشية : ٦ ، ٧] ، ساعة يسمع ليس لهم طعام أى منع عنهم الطعام يحسون بالخزى ، فإذا قال . « لا » ، فكأنه سيعطيهم بعض الطعام فيفرحون ، فإذا قال . « إِلَّا مِنْ صَرِيحٍ » ، تكون الحسرة حسرتين .

موسى فى حضرة ربه

يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ قَتْمٍ مِيقَتُ رَبِّهِ أَزِيمَةٌ لَّيْلَةٌ ﴾ [الأعراف : ١٤٢] الأعداد فى القرآن لها أسلوبان : أسلوب إجمالى ، وأسلوب تفصيلى ، فالله سبحانه وتعالى يقول فى سورة « البقرة » : ﴿ وَلَئِنْ وَعَدْنَا مُوسَى أَزِيمَةً لَّيْلَةً ﴾ [البقرة : ٥١] . أتى بها إجمالاً ، وفى هذه الآية أتى بها ثلاثين ثم أتم الثلاثين بمشتر . [د . . مالمقات أربعون ليلة ، وبذلك يكون العدد فى القرآن مجعلاً مرة ومنفصلاً مرة ،

واتفق الإجمال مع التفصيل فليس هناك خلاف ، ولكن إذا اختلف الإجمال عن التفصيل فأيهما يُحمل على الآخر ؟

وقال بعض العلماء : إن سبب امتداد الثلاثين يوماً إلى أربعين هو أن قوم موسى عبدوا العجل ثلاثين يوماً ، فكان لابد أن تكون هناك فترة ؛ حتى لا يعود موسى إلى قومه وهم يعبدون العجل ، فيحدث ما لا تحمد عقباه ، وعندما غادر موسى مكان قومه استحلف آحاه مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ كَسِّفْ عَلَيَّ فِي قَوْمِي ﴾ [الأعراف : ١٤٢] وموسى وهارون نبيان ، وموسى هو الذى طلب من الله أن يشد أزره بهارون ، ولكن قوله : ﴿ كَسِّفْ عَلَيَّ فِي قَوْمِي ﴾ . معناه أن ميقات الله ولقائه كان مهمة موسى وحده ، وكان لابد أن يوجد حليفة يقى على القوم فكان هارون ، وبعض الناس قد يتساءل كيف يكون الشريك فى رسالة حليفة شريكه ؟ نقول . إن الاثنين كانا رسولى رب العالمين ، ولكن لكل منهما حظ من الرسالة ، وحظ هارون أن يقى ، وحظ موسى أن يذهب للقاء الله ، وقوله سبحانه وتعالى . ﴿ وَأَصْلَحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٢] فيها أمر ونهى د : ﴿ وَأَصْلَحْ ﴾ أمر ، و : ﴿ لَا تَتَّبِعْ ﴾ نهى ، وتكاليف الحق سبحانه وتعالى لعباده لا تخرج عن ذلك افعل ولا تفعل لا ، ولا يقول الحق لعباده : افعلوا . إلا إذا كانوا صالحين للمعل وعدم الفعل ، ولا يقول لهم : لا تفعلوا إلا إذا كانوا صالحين أيضاً للمعل وعدم الفعل ، وهكذا كان التكليف الأول لآدم وحواء فى قوله تعالى . ﴿ وَلَا تَتَّبِعَا هَذِهِ السَّبِيلَ ﴾ [الأعراف : ١٩]

كلمة أصلح تستلزم على الأقل أن يقى الصالح على صلاحه فلا يفسده أحد ، ولكن يزيده صلاحاً ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ولم يقل « ولا تفسد » وهذا يلفتنا إلى أن هارون نبي لا يأتى منه إفساد ، ولكن الله يعلم أنه ستقوم فتنة بعد رحيل موسى ، وسيبعد قومه العجل ؛ لذلك ألهم موسى لكى يقول لهارون . ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ . أى لا تطع القوم إذا أفسدوا فى الأرض ؛ ولذلك عندما حدث الإفساد وأمست موسى برأس أخيه ولحيته اعتذر هارون بقوله . « إن القوم كادوا يقتلونى » . أى أنه فعل ما فى استطاعته لإبعاد القوم عن طريق الفساد ولكنه فشل .

الحق سبحانه وتعالى يكمل قصة موسى عليه السلام فيقول : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا ﴾ [الأعراف : ٤٣] والميقات هو : الوقت المحدد لعمل من الأعمال .

وقوله تعالى : ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ تدل على أن كلاماً حدث من الله لموسى ، ولكن الكلام يحدث بين البشر والبشر ، وكلام الله للبشر محدد في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ رُسُلًا رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى : ٥١] .

إذن .. فهناك نفى صريح بأن لا يكلم الله بشراً إلا بثلاث طرق : إما بالوحى ، وإما من وراء حجاب ، وإما بواسطة رسول . والوحى : هو الشيء الذى يأتى إلى العقل والقلب فيفهما الإنسان ، ويطمعن له وينفذه على الفور .

ويقول تعالى : ﴿وَأَخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ [الأعراف : ١٥٥] كلمة اختار تدل على أن ما فعله موسى هو فعل اختياري يستخدم فيه العقل ؛ لترجيح رأى على رأى ؛ ولذلك يقال اختار أى : طلب الخير ، واختار ما يؤدى به إلى هذا الخير . وهذا لا يحدث إلا فى الأمور الاختيارية التى هى مصاد التكليف ، فاللسان خاضع لإرادة صاحبه ، يحصع للمؤمن حين يقول لا إله إلا الله ، وللكافر حين يستخدمه فى ما ينقض الإيمان ، لم يعصر فى هذه ولا فى هذه ، ولكن يؤمن اختار الإيمان فقال : لا إله إلا الله ، والكافر اختار ما ينقض ذلك .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَأَخْتَارَ مُوسَىٰ﴾ معناه أن موسى فاعل للحدث ، وموسى لم يختار قومه كلهم ، ولكنه اختار منهم ، وقالوا فى علة أنهم سبعون رجلاً ؛ أنها عدد أسباط اليهود ، فقد أخذ من كل سبط رجلاً ؛ لتكون كل فرق اليهود ممثلة .

وقول الحق : ﴿لِيَقْبَلَنَّ﴾ معناه الموعد المضروب أو المحدد للقاء الله ، ولقد جاءت كلمة «يقبَلَنَّ» قبل ذلك فى قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِيُقْبَلَنَّا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف : ١٤٣] وهذا «المقبَلات» غير «الميقَات» الخاص بالأسباط ، لأن «المقبَلات» الأول كان ليكلم الله موسى ؛ أما «الميقَات» الثانى فهو لطلب العفو من الله عن عبادة العجل ، وإظهار الخضوع لله والندم على ما حدث ، وتجديد الإيمان .

قال الله تعالى : ﴿أَصْطَفَيْتُكَ عَلَىٰ النَّاسِ رِسَالَتِي وِجْدَانِي﴾ [الأعراف : ١٤٤] . إذن .. فكلام الحق سبحانه وتعالى ليس ككلام البشر ، ولكنه شيء اختص الله به موسى ﷺ فى الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يكلم الله سبحانه وتعالى خلقه ويحاسبهم . وبهذه الإشكال عند

هذا الجهد ، ولا نخوض فيه .

عندما خص الله موسى بميزة الكلام حدث عند موسى استشراق ، وقال : ما دام الله قد كلمني فلاأطلب منه فصلاً آخر ، هو أن أراه . وعادة فإن الأس والاشتراق بالله محبب إلى النفس المؤمنة ، أراد موسى أن يزداد أنسا بربه ، فقال : ﴿ رَبِّ ارْنِي ﴾ [الأعراف ١٤٣] . ولكن موسى لم يقل : رب أرني ذلك ؛ لأنه يعرف أنه بطبيعة تكوينه البشري لا يستطيع أن يرى الله ، ولكنه يعلم أيضا أن الله تعالى الذي خلق القوانين يستطيع أن يغيره ويبدلها متى أراد ، وما دام موسى ببشريته ليس معنا لهذه الرؤية ، فقد طلب من الله سبحانه وتعالى أن يراه ، أي يغير طبيعة خلق موسى كإنسان لكي يرى ، والمهم أن الله تعالى هو الذي سيفعل ، ولكن المخلوق في الدنيا لا يحتمل في تكوينه أن يرى الخالق ؛ ولذلك كان لابد أن يصطفى الله من الملائكة رسلاً ؛ ليلغوا مهجه إلى رسله المصطفين من البشر ؛ لأن رؤية الله تعالى في الدنيا لا يحملها بشر .

فكيف يمكن خلق الله أن يتنقوا عن الله بلا واسطة ١٩ والواسطة هنا لا بد أن تكون مستقلة ومعدة لمهمتها ؛ ولذلك لا يستطيع أى شئ أن يتلقى من الله سبحانه وتعالى . ولكن لا بد أن يكون ملكاً مختاراً معداً إعداداً خاصاً . وكذلك لا يستطيع كل البشر أن يتلقى الوحي من الملائكة ، ولكن لا بد أن يكون بشراً مختاراً ، وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : **هُوَ اللَّهُ يَصْطَلِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّكَ أَتَاهُ سَمِيعٌ بِضَرٍّ** [الحج : ٧٥]

والخيار من الملائكة يبلغ المختار من البشر ، والمختار من البشر يبلغ البشر كلهم .

كذلك رؤية الحق سبحانه وتعالى في الدنيا ، وهذه ستظهر عندما يعطينا الله الدليل أنه لم يخلقنا في احياء الدنيا على هيئة صالحة لأن نراه ، ولكن في الآخرة عندما تُعدّ إعداداً آخر ، عند ذلك يحدث هذا ؛ رؤية نظر وليس رؤية إحاطة ؛ يقول الحق سبحانه وتعالى عن المؤمنين في الآخرة : ﴿ رُؤُوسُهُمْ لِلْأَعْيُنِ ۖ وَهُمْ فِيهَا كَاظِمُونَ ﴾ [النبي : ٢٢ ، ٢٣] ويقول سبحانه وتعالى عن الكافرين في الآخرة : ﴿ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوُونَ ﴾ [الطافين : ١٥] ولا يمكن أن يستوى المؤمن والكافر في هذه المسألة ؛ فالكافر محجوب ، والمؤمن غير محجوب .

ولذلك حينما قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْنِي﴾ فماذا كان قول الحق سبحانه

وتعالى ؟ ﴿قَالَ لَنْ تَرَنِی﴾ بعض الناس يقول : إن قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿لَنْ﴾ معناه أنها تأييدية ، أى لن ترانى الآن ولا فى المستقبل ، ولا فى الآخرة ، وهى ذلك يكون معنى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿لَنْ تَرَنِی﴾ أى أن موسى لن يرى الله ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة
نقول لهم : من قال لكم إن زمن الدنيا كزمن الآخرة ، وقوانين الدنيا كقوانين الآخرة ، وأرض الدنيا كأرض الآخرة ؟ الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَكُلُّ شَيْءٍ يَكُونُ﴾ [إبراهيم : ٤٨] ، إذن فى الآخرة هناك قوانين أخرى وطبيعة خلق أخرى ، تجعل الإنسان مثلاً يأكل ولا تخرج منه فضلات .

قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿لَنْ تَرَنِی﴾ معناه أنك يا موسى ما دمت على همتك البشرية فى الدنيا ، فإنك لن ترانى ، ثم يعطيه الله سبحانه وتعالى الدليل على أن طبيعة موسى البشرية لا تتحمل رؤية الحق سبحانه وتعالى ، فيقول الله : ﴿وَلَكِنْ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَنِی فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ [الأعراف : ١٤٣] . لماذا قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ ؟ لأن الجبل مفروض فيه الصلابة والقوة والثبات والشماسك ، والجبل بحكم الواقع وبحكم العقل ، أقوى من الإنسان وأصلب منه ملايين المرات ، والله سبحانه وتعالى يقول لموسى : انظر إلى الجبل الصلب القوى المنيع ، فإن بقى مكانه فإنك ستراى ، وهنا يريد الحق سبحانه وتعالى أن يبين لموسى استحالة أن يتحمل من هو أقوى منه ملايين المرات رؤية الحق سبحانه وتعالى : فكيف يتحملها موسى ؟
ماذا حدث عندما تجلى الله للجبل ؟ يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ ، وه الذك : هو الضغط على الشئ من أعلى ؛ ليستوى بشئ أسفل منه ، كأن يكون هناك منزل عالٍ مثلاً وتدكه أى تسويه بالأرض ، ومن علامات يوم القيامة يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ [الفرقان : ٢١] أى أصبح كل ما عليها مسويًا لسطحها ، فلم يعد عليها شئ قائم ، وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ نعرف منه أن الله تعالى قد تجلى على خلق من خلقه وهو الجبل ، إذن ثبت أن الله يتجلى على خلقه ، ولكن هل المتجلى عليه يقدر على تحمل هذا التجلى أم لا يقدر ؟ من الممكن أن يتجلى الله على بعض خلقه ، ولكن المهم أن يقوى المستقبل للتجلى على

تحمل ذلك ، ولكن لجبل الديو هو أصلب من الإنسان ملايين ابرات ، لما تجلى الله عليه ؟ لم يقوَ عى استقبال تجلى الله ، وهما يريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفتنا لفتة تصاعدية ، فلما اندك الجبل : ﴿ وَحَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾ يقال : حر الشيء : إذا سقط من أعلى إلى أسفل ، وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ صَوِقًا ﴾ . يراد بها الوفاة . وكر من فى السماوات والأرض سيصعق عندما تقوم الساعة ؛ مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَيُؤَخِّجُ فِي الْأُصُورِ فَصَبِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِي يَوْمٍ يُنْقَضُونَ ﴾ [الزمر : ٦٨] . أى سيهلك كل من فى السماوات والأرض ، ثم يعثون ليحاسبوا ، وبعد أن أصابت موسى الصعقة يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ ثَبَّتْ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] ، ﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ ﴾ أى من الصعقة ، فكأنها أصابت موسى براغماء فقط ، والإفاقة هنا أعطيت موسى إفاقة ثانية ، من شغفه بالله الذى جعله يطلب ما ليس له به علم . إذن .. فهو أفاق من الصعقة ، وفى نفس الوقت أفاق لنفسه ، وأحس بأن حبه لله قد جعله يسأل شيئاً ما كان يصح أن يسأله ؛ ولذلك قال : ﴿ سُبْحَنَكَ ﴾ وإذا سمعت كلمة سبحانه ، فاعلم أن المراد بها التنزيه عما وقع ؛ أى تنزيهاً لله من أن يراه مخلوق له . لماذا ؟ لأن الرؤية قدرة بصر على مرئى ، فمتى رأيت الشيء ، فإنك تستطيع أن تدركه بقدرتك البشرية التى أنت مخلوق عليها الآن .

والقانون الذى يعمل به الضوء فى أعيننا فى الحياة الدنيا ، لا يجعلنا قادرين على أن نرى الله ، والمقدور عليه لا يتقلب قادراً ، والقادر لا يتقلب مقدوراً عليه ، ولكن موسى لم يره الله فقط عن أن يراه بشر ، بل قال : ﴿ ثَبَّتْ إِلَيْكَ ﴾ أى أن المسألة انتضت توبته وموسى تاب إلى الله ؛ لأنه سأل الله ما ليس له به علم ، ولم يقف عند الحدود البشرية ، بل أراد أن يتجاوزها إلى التجليات المخالفة لقوانين الكون ، وكان الموقف يدبى الله يقتضى ألا يسأل موسى ، وأن يتطهر عطاء الله ، والله كلم موسى دون أن يطلب موسى ذلك ، ولكن موسى التفت حثاً فى الله أراد أكثر وأكثر ، ونسى قدراته البشرية ، ولما أحس بما حدث اتجه إلى الله يطلب التوبة ، وقال : يا ربى ، أنا لم أصنع ذلك عن قلة إيمان ، بل ذاتك العلية لا يقدر مخلوق أن يراها أو يدركها ، ولكنى لمعت ذلك لفرط حثى لك ، وشغفى بك ، أنا أول المؤمنين ، إنك لا تدركك الأبصار .

السامري .. وصناعة العجل

سأل موسى ﷺ السامري عن صناعة العجل فقال له : ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَسْمِيرِيُّ * قَالَ
بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي
نَفْسِي﴾ [طه : ٩٥ ، ٩٦] .

كلمة : ما خطبت ، تقال في الحدث المهم ، وهو الحدث الجلل الذي يصلح لأن تقال
فيه : خطب ، ولذلك وردت هذه الكلمة في قول الله تعالى في سورة (يوسف) : ﴿قَالَ مَا
خَطْبُكَ إِذْ رَوَدُّنَا يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف : ٥١] .

إذن .. الخطب : هو الأمر الجلل المهم الذي لا يصح أن يمر عليه مروراً عابراً ، بل يقال فيه
كلام يصل إلى درجة الخطب .

لما سأل موسى السامري ردّ عليه بقوله : ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ . يقول لموسى :
أنا رأيت بعلمي ، وأن هذا شيء لم يعرفه القوم . فاجتهاده قاده إلى جمع الحلي ، وعمل العجل
والعكوف عليه ؛ لأنه رأى قومه طلبوا من موسى أن يجعل لهم إلهاً مثل القوم الذين مروا
عليهم ، وهم عاكفون على أصنام لهم .

ومعنى : ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ قبض عسى الشيء : أي أخذه بجمع
يده ، فوله : ﴿مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ روى عنه العلماء روايات متعددة ، فقالوا : إن السامري لما
كان جبريل يبعثه ، وكان يأتيه على جواد ، فلاحظ أن الجواد كلما مر بحافره على شيء
اخضر مكان الحافر ، أي دبت الحياة في مكان الحافر ، وهذا قول الذين قالوا : إن العجل كان
عجلاً حقيقياً له صوت طبيعي ، وليس بمرور الهواء يحدث منه صوت الحوافر ولكن العلماء
الآخرين قالوا كلاماً غير هذا فقالوا : إن معنى : ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾
الرسول كما تعلم هو المبلغ لشرع الله ، وهو حامل المنهج المكلف به . فالرسول هنا هو موسى ؛
لأن بني إسرائيل لم يروا جبريل ، بل ولم يسمعوا منه ، ولكنهم سمعوا من موسى ، فهو الذي
بلغهم أمر الله ومهجه .

ومعنى : ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أبعدها عن مخيلتي ، وتركت لنفسى العنان في أن تفكر أي
تفكير ، بدليل أنه قال بعدها : ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ ومعنى سوّلت له نفسه ، أي أنها

دفعته إلى معصية ؛ بأن يأخذ شيئاً من آثار الرسول ووحيه الذي جاء به من الله ، ويبذلها عن سهجه ، وبعد ذلك يسير بمحض فكره ومحض اختياره ، ولذلك لا يقال : سؤلت لى نفسى الطاعة . ولكن دائماً يقال : سؤلت لى نفسى المعصية .

بعد ذلك ماذا فعل موسى مع السامرى ؟ قال تعالى : ﴿ قَالَا فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَعَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْبِفَنَّ فِي أَتْرَابِنَا كَمَا أَنْتَ فِي الْبُتُونِ ﴾ [طه : ٩٧] .

موسى عليه السلام قال للسامرى : حراؤك أن تذهب ، وأن يكون قلبك الذى يجرى على لسانك دائماً : ﴿ لَا مِسَاسَ ﴾ ، والمساس هو المس . ولكن السؤال هو : لماذا فعل السامرى ذلك ؟ فعل ذلك حتى يكون له سلطة زمنية وأنباع ؛ لأنك دائماً تجد الدين يفترون الكذب ، ويدعون أن لهم مهمة ورسالة ، والدين يدعون النبوة ، هدفهم من ذلك هو السلطة الزمنية ، وهذه تجعل الواحد منهم يتحلل دائماً من مهج الحق ، ويسهل التكليف على الناس ؛ لأنه لو جاء بتشديد على الناس سيصرفون عنه ، ولكن إذا سهل لهم الأمور ، وأسقط عنهم بعض التكليف ، يتبعه كثير من الناس ضعاف النفوس .

إذن .. فمضى : ﴿ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾ أى أن تنعزل فى حياتك عن الناس وتبتعد عنهم ، ولا تحتمل أن يمسك أحد أو يقترب منك . قالوا : فانهزل السامرى عن المجتمع ، وهام على وجهه فى التبرارى لا يمس أحداً ولا يمسسه أحد ، وذلك لأن الصال عندما يرى جراً ضلاله يكره من أعانه على هذا الضلال .

موسى قال للسامرى : عقوبتك أن تنفى من المجتمع الذى كنت تريد فيه عزاً وسيطرة ومركزاً وأنباعاً . ثم إنك ستبصر من هذه المجتمع ، وتقول : إياكم أن يقترب أحدكم إلى ؛ لأنكم سبب البلاء الذى حل بى .

ومعنى : ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَعَهُ ﴾ [طه : ٩٧] أى أن عذاب لآخره قادم أيضاً ، فلن يعصى هذا النفى والبعد من المجتمع عن عذاب لآخره الذى هو أشد وأبقى .

وقوله تعالى : ﴿ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْبِفَنَّ فِي أَتْرَابِنَا كَمَا أَنْتَ فِي الْبُتُونِ ﴾ [طه : ٩٧] أى انظر إلى هذا المعجل الذى ظلمت على عبادته عاكفاً - أى مقوماً

- ومعنى ﴿لَحْرِقْنَهُ﴾ : الذهب لا يحرق حرقه ؛ لأنه إذا وضع فى النار لا يخرج منه إلا الخبث ، ولكنه لا يحترق ، ولذلك قالوا : إن معنى ﴿لَحْرِقْنَهُ﴾ : أى لصيرته كالمحروق ، بأن برده برادة تجعله مثل النُّر ، بحيث يذروه الهواء ؛ ولذلك قل بعدها : ﴿ثُمَّ لَنَسْفَعْنَاهُ فِي أَلْنٍ نَّسْفًا﴾ . نسفه أى نظيره ، ونزروه فى الهواء ، فحرقوا عجل الذهب ، بأن جعلوه مبروداً على هيئة درات وظهروه فى الهواء على البحر ، وبعد أن بين الحق سبحانه وجه البطلان فيما فعله السامري ، وفيما فعله القوم الذين اتبعوه فى عبادة العجل ، قال تعالى : ﴿إِن كُنتُمْ إِلَهُكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَمَعَ كُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه ٩٨] . حينما يقول الله تعالى : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ من الذى علمنا كلمة التوحيد ؟ الرسول ﷺ قلها ل بعد أن سمعها من ربه عن طريق الرحي .

فالله تعالى قال : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ ؛ أنا خلقت السماء والأرض والبشر والحيوان ، وخلقت الكون كله بما فيه ومن فيه ، فتنزل الدعوى له إلى أن يوجد من يعارض هذه الدعوى ، فنقول له أين دليلك ؟ ومع ذلك فلم يوجد حتى الآن من يدعى هذا الشيء ، حتى الذين كفروا بالله لم يستطيع أحد منهم أن يدعى أنه خلق شيئاً من هذا الكون .
إذن .. تثبت الدعوى لله سبحانه وتعالى فى أنه وحده الإله الخالق .

غضب الله على عبدة العجل

قال الله تعالى . ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْوُجُلَ سَيِّئَاتِهِمْ غَضِبَ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلِكَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَحْزِي الْمُفْضَرِينَ﴾ [الأعراف ١٥٢] ، حين يقال : ﴿اتَّخَذُوا الْوُجُلَ﴾ أى أخرجوه عن مهمته فى الحياة ، واتخذوه لشيء آخر احترعوه هم ؛ اتخذوا العجل إلهاً معبوداً ؛ لأن كل المهام التى هى دون ذلك ، والتى يصلح بها العجل ، هى مهام العجل مخلوق لها وبذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْوُجُلَ سَيِّئَاتِهِمْ غَضِبَ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلِكَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ، وغضب الله لا يزل على الذين اتخذوا العجل لما خلق له ، ولكن على الذين اتخذوه لغير ما خلق له . وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿سَيِّئَاتِهِمْ﴾ ؛ دليل على أن الغضب والذمة لم ترل بهم بعد ، ولكنها ستأتى ، ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ولم يقل : فى الآخرة ، هذا دليل على أن الحق يعلم أنهم سيتوبون إليه

بعد أن ثوق عيهم العقوبة ، والحق تعالى يقول فى آية أخرى : ﴿عَوِزُوا إِلَىٰ يَٰرَبِّكُمْ فَاُنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة : ٥٤] ؛ أى أن الحق سبحانه وتعالى من غضبه عليهم ، جعل طريق توبتهم إليه أن يقتلوا أنفسهم ، وهذا منتهى الدلة ومنتهى الإهانة ، ثم بعد غضب الله جاءت رحمته فقيل توبتهم .

إذن .. فقول الحق : ﴿سَيَنَامُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ دليل على أن غضب الله نزل عليهم فأصابهم ذلة ؛ لأن الله طلب منهم أن يقتلوا أنفسهم فأصبحوا أذلاء ، فالإنسان الذى يكتب عليه أن يقتل نفسه ، يحس بالذلة والهوان ، ولا تكون له عزة .

وقوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ دليل على أن هذا العقاب لا ينزل على بنى إسرائيل خاصة ، ولكن كل من يفتري على الله ، يناله غضب وذلة فى الحياة الدنيا ، وهنا علينا أن ننتبه إلى العبرة من هذه الآيات ، فالمسألة ليست رواية لتاريخ بنى إسرائيل ، ولكن ليعتبر السامع من سرد القصة ، ولا يمكن للسامع أن يعتبر إلا إذا وعى قول الحق سبحانه وتعالى : إن الغضب والذلة سينزلان على كل مفتر ، فإن هذا تحذير لأى إنسان يفكر فى الكذب على الله وعصيانه . ثم تأتى بعد ذلك الآية التى تنبأ بعفوان الله لهم بعد أن تابوا ، فيقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَأَمَرُوا أَن يُعَذَّبُوا لَعْنُهُمْ﴾ [الأعراف : ١٥٣] ، وهذا ما حدث فعلاً ؛ لأنهم حين تابوا غفر الله لهم . ومعنى ﴿تَابُوا﴾ أنهم بدموا على ما فعلوا ، وصمموا على ألا يعودوا إليه أبداً .

وفعل التوبة فيه عودة إلى الإيمان ، وهول الله للتوبة هو قيمة عودة العبد المذنب إلى ربه ، على أننا لا بد أن نلاحظ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَأَمَرُوا﴾ ، فكان السيئات التى فعلوها نقصت من إيمانهم ؛ ولذلك لا بد أن يجددوا إيمانهم ؛ لأن السيئة خفلة عن الله سبحانه وتعالى ، فلا تحدث السيئة ولا المعصية إلا إذا غفل الإنسان عن ربه ؛ ولذلك عندما يأتى الإنسان ليتوب لا بد أن يجدد إيمانه ، ويتعهد بأنه لن يفعل عن هذا الإيمان أبداً .

فالمعصية : هى مخالفة العبد لمنهج الله ، والتوبة : هى العودة إلى هذا المنهج وقول الحق سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ . لفظة لنا ألا تُذكر المذنب التائب بدنيه ؛ لأنه إذا كان الله عز وجل قد غفر له ؛ فكيف نتجاهل نحن غفران الله ، ونقول له : يا

زاسى أو يا سارق ؟ ما دام الإنسان قد تاب ، فعليه أن يتعد عن تذكيره بذنبه من جديد ؛ لأن هذا يؤله ، وقد يجعله يعود للذنب .

إخبار الله تعالى موسى بفتنة قومه

أخبر الحق سبحانه موسى بما حدث فى قومه بعد أن تركهم ، لميقاته إذ قال سبحانه : ﴿ قَالَ إِنَّمَا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾ [طه : ٨٥] أى احتبرنا قومك لكن السامرى أضلهم ، ومعنى أضلهم ، أى : سلك بهم طريقاً غير طريق الحق ، وسلوك غير طريق الحق قد يكون للذاتية المحضة ، فإن سلك هو يكون قد ضل وحده ، ولكن إن أضل غيره يكون عليه ورهم ، عليه ورر ضلاله ووزر إضلاله للغير ، ولذلك الحق سبحانه يقول : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَكَّةَ مَا يَرَوْنَ ﴾ [النحل : ٢٥] بعض المستشرقين يعترضون على القرآن ، ويقولون : كيف يقول القرآن : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ ﴾ مع أنه يقول فى آية أخرى : ﴿ وَلَا تَزِدْ لَهُمْ لَوْمَةً وَلَا تَزِدْ لَهُمْ لَوْمَةً ﴾ [الأنعام : ١٦٤] . نقول لهم : أنتم لا تفهمون اللغة العربية ، لأنكم تأخذون اللغة كصناعة ، وليس كملكة فطرية ، وإلا كنتم فرقه من أن يضل فى ذاته ، فهذا عليه وزر ، وأن يتسبب فى إضلال غيره ، فهذا وزر آخر .

والسامرى اسمه موسى السامرى ، وموسى لما سمع بهذه الفتنة فى قومه ، رجع إليهم غاضباً قال تعالى : ﴿ رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضَبًا أَيْسَفًا قَالَ يَبْقَوْنَ آلَتُمْ بَعْدَكُمْ زُرَّكُمْ وَهَذَا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحْمِلَ عَلَيْكُمُ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴾ [طه : ٨٦] .

ومعنى أسفا : أى عنده حزن شديد على ما حدث من قومه ، وسألهم : ﴿ بَقَوِيَ آلَتُمْ بَعْدَكُمْ زُرَّكُمْ وَهَذَا حَسَنًا ﴾ بأن يعطيكم التوراة فيها أصول حركة الحياة ، وفيها المنهج الذى يحسن حياتكم فى دياركم ، ويحسن ثوابكم فى الآخرة .

ومعنى : ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ ﴾ هل عهدي طال بكم للدرجة أن تنسوا تعاليم ربكم ؟ فأننا لم أغب عنكم إلا بضعة وثلاثين يوماً ، فأننا لم أغب عنكم كثيراً .. أم أنكم تريدون أن ينزل عليكم غضب الله ، وإذا كنت بينكم ولم أغب عنكم إلا مدة قصيرة فماذا ستعملون

من بعدى؟ فموسى يستنكر على قومه أن يضلوا، وهو يعيش معهم ولم يرغب عنهم إلا أقل من أربعين يوماً ذهب فيها ليقات ربه.

ومعنى: ﴿فَأَخْلَقْتُ مَوْعِدِي﴾ يشير إلى أن موسى كان له موعد مع قومه، حيث أوصاهم قبل أن يذهب ليقات ربه، وقال لهم: سلوكوا طريق هرون، واستمعوا لأوامره حتى أرجع، فهو الذى سيحلنى فيكم. فكان موسى ﷺ يقول لهم: حتى وإن طال عليكم العهد منى معكم هارون، وهو ليس فرداً عادياً، ولكن الله أشركه فى الرسالة معى، فكان يجب أن يكون له مهابة الرسالة، وأن تسموا له وتطيعوا.

ومعنى: ﴿مَّا أَخْلَقْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا﴾. أى نحن لم نحلف موعدك بإرادتنا، لكن حدثت أشياء أقوى منا، والأوزار جمع وزر، والوزر: هو الشيء الثقيل الحمل على النفس، كما يطلق الوزر على الإنم؛ لأنه يشغل على النفس ثقلًا يتعبها فى الآخرة أيضاً.

ولكن ما هى الأوزار التى حملوها؟ هذه الأوزار كانت من رنة القوم، وهم قوم فرعون، وقصتها: أنهم كانوا فى أعيادهم يستعير كل واحد من بني إسرائيل شيئاً من حلى القبط، يترن به فى أيام الأعياد، وقد أخذوا هذه الحلى ولم يستصحبوا أن يردوها إلى أصحابها، لأنهم أرادوا أن يسيروا ساعة خروجهم: حتى لا يستعد أحد لصددهم ومنعهم من الخروج. ومعنى «قلعناها»: القذف: هو الرمي بشيء، وكأن الرامى يتأفف من حمل هذا الشيء، فبنو إسرائيل قذفوا هذه الحلى، وهذا دليل على أن عندهم ساعتها إيماناً؛ لأنهم عضبوا لأحدهم هذه الأمانات وعدم استطاعتهم ردّها لأصحابها، ولذلك نجد أن موسى السامري دخل عليهم من هذه الناحية، فقال لهم: لى تبرعوا من هذا الدلب إلا بأن تلقوا هذه الحلى فى النار، مع أنه كان يقصد إلى شيء آخر، وهو أن الذهب سينصهر، ويخرج منه الخبث.

وإذا أمعنا النظر فى السياق القرآنى نجد، قول الحق سبحانه: ﴿فَقَدَفْتَهَا فَكَذَّبَكَ الْقَلَى السَّامِرِيُّ﴾ فعندما تحدث عن بني إسرائيل قال: ﴿فَقَدَفْتَهَا﴾ وعند الحديث عن السامري قال: ﴿الْقَلَى﴾، والإلقاء فيه لطف عن القذف. ثم يقول تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُمْ حَوَارٍ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِنَّهٗ مُوسَى نَبِيٌّ﴾ [صه: ٨٨] فالقوم حينما ألقوا الحلى فى النار لابد أنها انصهرت، ولكنها لا يمكن أن تتشكل على هيئة عجل، إلا إذا كان لسامري عمل

ففيها ، فصنعها على هيئة عجل ولكن لماذا العجل بالذات ؟ قالوا : لأن بني إسرائيل بعد أن جاوزوا البحر ، وجدوا قوماً يعكفون على أصنام لهم ، فقالوا لموسى عليه السلام : ﴿ أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُم آلِهَةٌ ﴾ [الأعراف ١٣٨] . إذن .. تشوقهم إلى الوثنية والصنمية موجود ، فالسامري استعمل هذا التشوق ولم يصنع لهم صنماً من حجر ، ولكنه صنع [لهم صنماً من ذهب] ، ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَداً لَّهُمُ خُوارٌ ﴾ والخوار . صوت البقر . وقيل . إنه صغره بطريقة خاصة ، بحيث إذا دحل الهواء من جهة يخرج من لأخرى ، ويعطى صوتاً مثل نوار البقر ، كما يحدث الآن في بعض المزامير ، فهذا في وصنعة ، وقوله : ﴿ عِجْلًا جَسَداً ﴾ كلمة جسد ذكرها الحق سبحانه وتعالى في حالتين اثنتين ؛ في الآية السابقة ، وفي قصة سليمان عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴾ [ص : ٣٤] ، ومعنى : ﴿ فَتَنَّا ﴾ أى : اخبرنا .

فالسامري أخرج لبني إسرائيل عجلاً جسداً له خوار ، وقالو عن هذا الجسد ﴿ هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَيَسْئَلْكُمْ ﴾ [طه ٨٨] ؛ لأنهم طلبوا صنماً فصنع لهم عجلاً له صوت ، فهذا ارتقاء في الصنعة ، ومعنى : ﴿ فَيَسْئَلْكُمْ ﴾ أى سى حميرة الإيمان الموجودة فيه . وأن هذا خروج عن الإيمان إلى الكفر ، وليته يكفر وحده ، ولكنه يريد أن يكفر القوم معه ، فلا بد أنه نسي ؛ لأنه لو كان عني ذكر من شئبة هذا الفعل ما فعله ، ثم يقول الحق سبحانه ﴿ أَفَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا تَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ [طه ٨٩] . أى : كيف يعبدون هذا العجل مع أنه لا يرد عليهم جواباً ، ولا يملك لهم أى ضرر أو نفع ؟ فلو كان عندهم ذرة عقل ما فعلوا ذلك !! ولذلك حين يتحدث القرآن عن الكفر في سورة « البقرة » يقول : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَنًا فَأَخْبَعَكُمْ فِي السِّجْنِ ثُمَّ تُبْسِكُمْ ثُمَّ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة . ٢٨] . فكان الكفر بالله جريمة شنيعة وعجيبة لا يمكن لأى عقل أن يقرها ؛ فيها استغراب لما فعله بهو إسرائيل من عبادة العجل ؛ لأنهم لو فكروا قليلاً لوجدوا أنهم لو كلموا هذا العجل فلن يرد عليهم ، ولو جسدوا أنه لا يصبرهم ولا ينفعهم ، ومعنى لا يرجع إليهم قولاً : أى لا يرد عليهم إن سألوه ، ولا يملك لهم ضراً إن كفروا به ولم يؤموا ، ولا يملك لهم نفعاً إن آمنوا به وعبدوه ، ثم يقول تعالى ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقْرِيبُ إِلَيْنَا فَنُشْرِبُهُ مِن رِّبِّكُمْ الرَّحْمَنُ فَالْيَعْبُودِ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴾ [طه ٩٠] ومعنى ﴿ فَنُشْرِبُهُ ﴾ . أى : احبرتم بهذا العمل

الذى جاء به السامرى .

والسامرى كانت أمه قد وضعت في الصحراء ، وبعد أن وضعت مائت في النفاس وتركته وحيداً في الصحراء لا يجد من يقوم برعايته ، قالوا : فكان جبريل عليه السلام ، يتعهد بالرعاية والتربية حتى كبر ، فالتى رؤى السامرى هو جبريل عليه السلام والذى رؤى نبي الله موسى هو فرعون ، ولذلك الشاعر تحدث عن هذه اللقطة العجيبة فقال :

إذا لم تصادف في بنيك عنايةً فقد كذب الراجى وحاب المؤمل

فموسى الذى رياه جبريل كافر وموسى الذى رياه فرعون مرسل

موسى عليه السلام حينما ترك القوم وذهب لميقات ربه ، استخلف عليهم أخاه هارون ، وأوصاه أن يصلح أمور القوم ويمنعهم من أى فساد . قال تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اكْفُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ . ومعنى أصلح أى . اعمل الصالح ، وبذلك أباح موسى لهارون أن يقلر المسائل التى يراها ، ويعمل على إصلاحها قدر استطاعته ، وهذه ستكون الشفاعة التى تشفع لهارون عند أخيه موسى ، بعد عودته غاضباً ، لما رأى من ضلال القوم وفسادهم ، لأنه وعظهم ولم يستجيبوا .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَفْقَهُوْا إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ ﴾ [طه : ٩٠] . قال العنماء : إن عبد بى إسرائيل الذين خرجوا مع موسى كان مئتمة ألف ، عبدوا العجل جميعهم إلا اثنى عشر رجلاً ، ظلوا على عهدهم مع موسى وهارون ، فلو أن هارون دخل معركة مع القوم بهؤلاء المؤمنين القليلين ، لنقضى عليهم أتباع السامرى ، فهو رأى أنه من الأصلح أن يعظهم فقط ، دون أن يدخل فى مواجهه معهم ، وهارون يئ لهم أنهم فتنوا يهد العجل الذى صنعه السامرى ، وأن ربهم هو الله صاحب الرحمة الواسعة ، وذكروهم بأن موسى أمرهم باتباعه وإطاعة أمره ، ولكنهم لم يستجيبوا ، وكان ردهم كما قال تعالى : ﴿ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْكَ عَاكِمِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴾ [طه : ٩١] أى : أنهم لن يتركوا عبادة العجل ، بل سيظلون عاكفين على عبادته ، حتى يرجع إليهم موسى . وكلمة : ﴿ لَنْ نَبْرَحَ ﴾ معناها . أنهم سيظلون فى مكانهم ، أو على حالهم الذى هم عليه من عبادة العجل ، ولن يفارقوا الحال الذى هم عليه ، حتى يعود إليهم موسى .

غتاب موسى لأخيه هارون

قال موسى لأخيه هارون عليهم السلام: ﴿يَهْتَرُونَ مَا مَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ صَلُّوا * أَلَا تَتَّبِعُنِي أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ [طه: ٩٢، ٩٣].

موسى يسأل هارون عن الذي سمعه من اتباعه، حين رأى القوم قد ضلوا؟ والسائل حين يستفهم عن شيء، قد يحاطب إنساناً وهو لا يعلم ديبه، ولكنه يذكر له صورة الذنب حتى يسمع الرد منه، وحتى يكون الرد على من يعترض عليه، فعمر بن الخطاب رضي الله عنه مثلاً وقف عند الحجر الأسود وقال: والله إنني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك.

إذن .. هو يقبله اقتداء برسول الله ﷺ، ولذلك جاء بهذا الكلام؛ ليعطيت الجواب الذي سيظل ناطقاً في التاريخ، بأن النبي ﷺ هو الذي فعل ذلك، فعمر رضي الله عنه أثارها شبهة حتى نسمع منه الرد، وحين نسمع هذا الرد يظل سائراً طول الأزمان.

بعد ذلك رد هارون على أخيه موسى موضحاً موقفه، ومدافعا عن نفسه، قال تعالى: ﴿قَالَ بَسْوَئٌ لَّا تَأْخُذُ بِلِجَنِّي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٤]؛ الحوار بين موسى وهارون لم يقتصر على الكلام فقط، ولكن يبدو أنه صاحبه حركة فعل. أخذتاهما من كلام هارون: ﴿لَا تَأْخُذُ بِلِجَنِّي وَلَا بِرَأْسِي﴾. وعلة ذلك أن هارون خشى أن يظن موسى أنه فرق بين بني إسرائيل، ولم يراع نصيحة موسى له، بأن يصلح بين القوم، والإصلاح: أن يحافظ على سلامة القوم، ويعمل الصالح لهم، فلو دخل معهم في معركة، لقضى العدد الأكبر من عبدة العجل، على العدد القليل من المؤمنين الموحدين مع هارون، الذين ظنوا على عهدهم مع موسى ﷺ، ولو حدث ذلك لانتهدت نخبة الإيمان في بني إسرائيل، وهارون اجتهد وعمل على الحفاظ على القوم، في إطار نصيحة موسى له، فكان موسى سأل هارون؛ ليسمع منه الإجابة ودفاعه عن نفسه؛ ليحفظها التاريخ وتسمعها الدنيا كلها.

وقوله: ﴿فَلَا تُشْعِثُ بِكَ الْأَعْدَاءُ﴾، فكان الذين كفروا من قوم موسى كانت بينهم وبين هارون عداوة، وقاومهم على قهر طاقته البشرية.

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلَا تَتَّبِعْ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف : ١٥٠] ؛ أى لا يظن أحد أن هارون انضم إلى هؤلاء الناس الذين عبدوا المعجل ، أو على الأقل أنه واقفهم . إذن .. فهناك موقفان ، موقف موسى الذى يملؤه العصب تجاه ما حدث ، وموقف هارون الذى يبين العلة فى أن القوم استصغفوه وكادوا يقتلونه .

حينما قال هارون ذلك ، تنبه موسى إلى أمرين :

الأمر الأول : كيف يلقى الألواح وبها المسهج ؟

والأمر الثانى : كيف يأخذ أخاه بهذا العصب الشديد قبل أن يتبين الحقيقة ؟ حين أحس موسى أن العصب قد أخذه ، فمنعه من أن يترى ثبل أن تصرف ، فأتجه إلى السماء ، وقال : ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف : ١٥١] . وطلب موسى الغفران من الله ، كان عن إلقاءه الألواح وظلمه لأخيه ، ولكن لماذا يطلب موسى الغفران لأخيه ؟ لأن هارون كان يجب أن يقاتل هؤلاء القوم الذين كفروا بعد إيمانهم وعبدوا المعجل ، بعد أن عثرهم الله سبحانه وتعالى بمعجزاته وآياته .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ، إذا سمعنا أرحم الراحمين ، تدكرنا خير الراقيين ، وخير الوارثين ، وأحسن الخالقين ، نعرف أن كل صفة لله تتعدى إلى خلقه ، لا بد من استخدام صيغة التفصيل ، فإله سبحانه وتعالى قد وضع فى خلقه الرحمة ، وطلب منهم أن يكرروا رُحماء بمن هم أضعف منهم ؛ لذلك يوجد «رحيم» ويوجد «راحم» ، ولكن المخلوق حينما يتخلق بالرحمة ، فإنه يرحم واحداً أو اثنين أو جماعة ، كل حسب قدراته وقوته . ولكن الحق سبحانه وتعالى رحيم بخلق كلهم ، قوته لا نهاية لها ؛ ولذلك فإن رحمته لا نهاية لها ، ولذلك فهو ﴿أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ .

سكوت الغضب عن موسى

قال تعالى : ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضِبُ﴾ [الأعراف : ١٥٤] ؛ فهل الغضب له سكوت وله كلام ؟ نقول : نعم ؛ لأن الغضب يهيج النفس ويلج عليها أن تتحرك وتنفعل ، والله صوّر الغضب فى صورة إنسان يلج على موسى أن يفعل كذا وكذا ، ولكن عندما أحس موسى وأفاق ، وتذكر أن الله غفور رحيم ، سكّت عنه الغضب ، كأن الغضب هو الذى أهاج موسى

حين دخل إلى نمسه وأخذ يأمره بكذا وكذا ، فلما سكّت عنه العصب عاد موسى إلى هدوئه ، فكان سكوت العصب معناه : أنه زال وانتهى .

عندما زال عن موسى العصب ، ماذا فعل ؟ أول شيء فعله أنه أخذ الألواح ، فالعصب جعله يلقي الألواح ويأخذ برأس أخيه قال تعالى : ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي نُحُوتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ ، ونحن نسمع كثيراً عن النسخة من الكتاب ، والنسخة هي الشيء المنسوخ ، أي المنقول من مكان إلى مكان ، عندما يوجد كتاب مخطوط ثم نطبعه ، نكون قد نقلناه من الأصل إلى الصورة ، فيصبح مسبوخاً .

وقول الحق سبحانه وتعالى . ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ . الهدى هو الطريق الموصل إلى الغاية ، ومنهج الله هو هداه للناس ؛ ليهتدوا إلى الطريق الذي يوصلهم إلى رضا الله ، ومن اتبع الطريق استحق رحمة الله .

إذن .. فما هو مكتوب في الألواح يهدينا إلى طريق الله ، ويجعلنا نستحق رحمته ، ولكن لم ؟ بين الحق سبحانه لنا الصورة فيقول ﴿لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف ١٥٤] ، حتى عرف أن الألواح فيها هدى ورحمة لمن يخاف ربه ، وليس لمن سمعها وغفل عنها ولم يعمل بها ، وصفات الجبار سبحانه وتعالى تهدي إلى طريقه ؛ لأنك إذا استحضرت صفات الجبار خفته ، وإذا خفته ملأت رهبة قلبك ، إذن فلا بد أن تهاب الله ، فتتبع منهجه ، فتال الهدى والرحمة ، ولكن الرهبة قد تكون مظهرية ، أي أنه من الجائر أن تتظاهر برهبة الله ليقال عنك حابد ، أو رجل صالح ؛ أي أن تعمل ذلك طلباً للسمعة ورياء للناس ، ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ ، أي لا يحافون أحداً إلا الله ، ولا يمعنون شيئاً رياءً أو نفاقاً أو سمعة ، وذلك هم أصحاب الإيمان الصادق .

اختلاف بنى إسرائيل على موسى

الحق سبحانه يقول : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَأُخْتَلِفَ عَلَيْهِ﴾ [هود : ١١٠] ، إذن .. فقد تقدم أمران على صميم الغائب «موسى ، والكتاب» ، قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَأُخْتَلِفَ عَلَيْهِ﴾ ، اختلف في من ؟ في موسى أم في الكتاب ؟ يقول . هي الاثنين لأن الخلاف في واحد منهما يؤدي إلى الخلاف في الآخر ، فلا يوجد انفصال بين

موسى والكتاب ، لأنه لا تكون مهمة موسى لولا الكتاب الذى أنزل عليه ؟ وماذا يكون موسى لو أن الله لم يرسله رسولاً ؟

إذن فهناك أمران يلتقيان ، أمر الرسالة والرسول فى الاصطفاء ، إذن فهما أمر واحد ، وليس أمرين ، لأنه لا يوجد رسول منفصل عن رسالته ، فالمنهج والرسول واحد . وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى هَذَا هُوَ الْمَذْكُورُ الْأَوَّلُ ﴾ . أَلَيْكَتَبٌ عاد الضمير على الأول ، ولذلك لو اختلف فى موسى أمور رسول أم غير رسول ؟ وقيل . إنه غير رسول انهدم الكتاب ؟ ولو اختلف فى الكتاب هل هو صدق أم كذب ؟ وقيل : كذب ، انهدم الرسول .. إذن فهما ملتقيان .

الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ . وكان يمكن أن يقول : « ولقد آتيت موسى الكتاب » . لأن الذى آتى موسى الكتاب هو الله ، ولكنه تعالى قال : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا ﴾ . لأن الفعل يحتاج إلى صفات الكمال فى الله وهى متعددة ، والكتاب مستحاج إلى حكمة وإلى علم ، وإلى قدرة وإلى حفو ، وإلى جبروت وإلى قهر ، وغير ذلك من صفات الكمال فى الله سبحانه .

الحق سبحانه وتعالى قد آتى قوم موسى الكتاب فاحتلفوا فيه ، فلماذا لم يأخذهم الله كما أخذ قوم نوح وقوم هود وقوم مدين وقوم عاد ؟ ماذا لم يأخذهم بالعذاب ؟ لأنه أجل لهم العذاب إلى يوم القيامة ، فكأنهم ما نجوا من عذاب الله بقدرتهم ، وإنما نجوا من عذاب الله ؛ لأن الله جعل للعذاب أجلاً هو يوم القيامة ، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِحَ بَيْنَهُمْ ﴾ [هود ١٠٠] . إذن .. فالله جل جلاله حكم حكماً بأن يؤجل لهم العذاب ، وكان حكمه فى الأمم السابقة أن يعجل لهم بالعذاب ، فالذين خالفوا دعوة نوح ولوط وصالح وغيرهم ، عجل لهم العذاب لكن بدلاً من رسالة موسى عليه السلام حكم الله تعالى بأنه سيؤجلهم إلى يوم القيامة ، هذه هى الكلمة التى سبقت ، والنبي قال الله ببارك وتعالى عنها : ﴿ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِحَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ شَرِيبٌ ﴾ [هود ١١٠] . فى شك من ماذا ؟ من دينهم ؟ أم من لقاء ربهم ؟

وقوله سبحانه وتعالى ﴿ وَإِنْ كُنَّا لَبِئْسَ مَا كُنَّا لَفِي شَكٍّ مِنْهُ لَأَكْثَرُ مِنْكُمْ ﴾

[هود : ١١١] ، إذن .. فقد كانت الرسل قبل موسى إذا كُذِّبَتْ ، [فنجِدُ أَنْ] الأمة التي تكذب رسولها يأخذها الله بعذاب من السماء ، فأجل الله العذاب إلى يوم القيامة ، ولا تعتقد أن تأجيل العذاب إلى يوم القيامة بأنهم نجوا منه ، أو أن الله سينساهم بل إن كل واحد منهم سيوفى جزاءه ؛ الثواب لمن أطاع ، والعقاب لمن عصى وأذنب ، ولكنه أمرٌ آتٍ لا محالة ؛ إن كل واحد من هؤلاء الذين اختلفوا في الكتاب وعصوا موسى ، سيلقى جزاءه على قدر الأعمال والذنوب التي ارتكبها ، فإن تاب وعمل صالحاً ، فسيجزى أجره يوم القيامة .

هل كل قوم نقضوا العهد ؟

قال تعالى : ﴿ قَوْلُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ إِلَّا رِيسَةٌ وَلِامْتِثِلْ فَلْيَسْعَى وَتَقُومُوا لِلْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٦] . ولقد قلنا : إنه عندما أخذ موسى الألواح وجد فيها رحمة من الله وفضل لأمة من الأمم ، فقال يا ربى اجعلها لأمتى ، فقال الله : هذه لأمة محمد .

وقال موسى لربه : إني لأجد في الألواح من يؤمنون بالكتاب الأول ، ويؤمنون بالكتاب الآخر ، فاجعلهم أمتى ، قال : تلك أمة محمد .

فكان أمة محمد ﷺ وحدها التي تؤمن بالكتاب الأول والكتاب الآخر ، وغيره من الأمم يؤمنون ببعض الكتب ويكفرون ببعضها .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٩] عندما قال الله عن قوم موسى . إنهم يقصون العهد لم يكن هذا الكلام حكماً دائماً ؛ لأن الحكم لو كان عائلاً لما وجد في أمة موسى من يؤمن برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، ولكن هناك مثلاً ابن صوريا وعبد الله بن سلام وغيرهما من قوم موسى آمنوا برسول الله ﷺ .

إذن .. فهناك دائماً شيء اسمه ضمان الاحتمال ، فإن منهم من لم ينضموا إلى عامة اليهود في المعصية والبعد عن طريق الله ، هؤلاء الذين يقول الله عنهم ﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْلَمُونَ ﴾ . أي يبدلون الناس على طريق الخير ، ويعملون في حكمهم بين

الناس ، وهم هؤلاء الذين آمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام ، ولذلك فإن الحكم لم يعمهم ، لأن خبر الإيمان برسالة محمد ﷺ كان موجوداً في أصلاب عدد وبو قليل من أمة موسى عليه السلام .

ذكر قصة موسى والخضر عليهما السلام

قصة موسى والخضر هي قصة العجائب الغيبية التي يقف أمامها العقل البشري خاشعاً ومسلماً ، فهي قصة رسول موحى إليه ومعه مهج حياة مثلاً في التوراة ، فيه افعل ولا تفعل ، وقصة عبد صالح أتاه الله رحمة من عبده وعنه من لده علماً ، ولكن خصوصيته .

روى التاريخ أن موسى عليه السلام قام حطياً في بني إسرائيل فلما انتهى من حصته سأل رجل هل تعلم أحد أعلم منك ؟

قال : لا . فأوحى الله إليه : إن لي عبداً يجمع البحرين على الساحل عند صخرة هناك هو أعلم منك . قال موسى لربه : فكيف لي به ؟

قال : تأخذ معك حوتاً فتجعله في مكمل فحيثما فقدت الحوت تجده هناك ، فأخذ موسى حوتاً في مكمل ، واصطحب معه يوشع بن نون ، وقال له : إذا فقدت الحوت فأخبرني . ثم انطلق ، وانطلق معه فتاه ، حتى وصلا إلى الصخرة وعشاهما العاص . فناما ، ومضى الحوت بعض الماء فاضطرب في المكمل ، وأخذ سبيله في البحر سرباً ، فرآه يوشع وهو بين النوم واليقظة ، فلما استيقظ موسى سأل يوشع عن أمر الحوت ، ونسى يوشع أن يخبره بما حدث ، فانطلقا بنية يومهما وليشهما حتى إذا كان العاص وقد أجهدهم السير ، قال موسى لفتاه : آتيا غداً لقد لقينا من سفرنا هذا تعباً لم نمده من قبل . ذلك أن موسى لم يجد من التعب مثل ما لاقاه منذ جاورا الصحرة ، ولما هم يوشع لإعداد الطعام تذكر الحوت الذي تسرب إلى البحر ، فقال لموسى : أريت إن أويما إلى الصخرة فإني نسيت الحوت ، وما أنساني ذكره إلا الشيطان ، وقد اتحد سبيله في البحر بحالة تدعو إلى العجب .

فقال موسى : إن فقدان الحوت هو ما كنا نصعبه ؛ لأنه أمانة على الفوز بما نطلبه ، فعاد إلى الطريق التي جاء منها : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ۝ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْكَ عَلَى أَنْ تَعْلَمَ مِنْ مِمَّا عَلَّمْتُ رُشْدًا ۝ ﴾ [الكهف : ٦٥ ، ٦٦] ومع

أن موسى رسول ، إلا أنه لم يتأبى أن يعلمه عبده من عباد الله ، تقرب إلى الله بأسرع الذي جاء به موسى ، وله اصطفاية محصورة فموسى عليه السلام مرسل لتبليغ الرسالة . افعل ولا تفعل - والخضر عليه السلام له تحقيق المعلوم لله الذي قد تعيب نتائجه على سلم العقل ، فإذا ظهرت حكمة الغيب فيه ، فمن به العقل ، وهذه الاصطفاية للخضر ليس معناها أن يفهم البعض أنه فوق موسى عليه السلام ، لا إنما لكل وجهة هو موليا ، [وهي الوصول إلى الله عز وجل في النهاية] . إن قول موسى للعبد الصالح ﴿هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِنِّي عِلْمًا رُشْدًا﴾ . يفسا الحق سبحانه (تعالى إلى أنه مهما رفعت درجة الإنسان ، فإنه يجب ألا يتكبر ، بل لابد أن تتواضع جميعا ؛ فالكبرياء لله وحده ، ويجب ألا يغتر إنسان بعلمه ، أو بما آتاه الله من فضله فيتكبر في الأرض .

العبد الصالح حين طلب منه موسى أن يتبعه ليتعلم منه ، قال له : ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف ٦٧ ، ٦٨] وهكذا قدم العبد الصالح علما لموسى ، بأنه لن يستطيع أن يصبر ، وليس هذا لفص في موسى عليه السلام ، ولكن لأن الله أحبر العبد الصالح بأمور لم يخبر بها موسى .

فيقول موسى وهو من أولى العزم من الرسل : ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف ٦٩] .

المشهد الأول من مشاهد قصة موسى مع الخضر عليهما السلام :

رغم أن موسى وعد العبد الصالح بعدم السؤال ، أو عصيان الأمر ، وأن يكون صابرا ، رغم ذلك لم يطق الصبر على حادث حرق السفينة ؛ لأن حرق السفينة في البحر مؤداه عرق السفينة بمن فيها ، فلم يصبر موسى عليه السلام أمام هذا ولم يلتزم الصمت ؛ لهذا قال للعبد الصالح ﴿أَحْرَقْنَاهَا لِتُفَرِّقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهف ٧١] . لقد شك موسى في ظاهر الأمر ، ولكن عندما أدرك الحكمة ، وجدها عين الخير ، فلو لم يخرق العبد الصالح السفينة ، لأخذها ملك ظالم بأحد السفن غصبا ؛ وذلك قول الحق تعالى ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف ٧٩] . فلو لم يخرقها العبد الصالح ، لما احتفظ أصحاب السفينة بسفينةهم ، وإن كان بها عطب .

المشهد الثاني من مشاهد القصة :

وفي مشهد آخر أعطانا الله المثل بشيء لا يوجد أعظم منه ، وهو القتل لقد قتل العبد الصالح غلاماً ، ما الحكمة في ذلك ؟

إن الإنسان ينجب ولداً حتى يكون قرّة عين وسنداً له في الدنيا ، فإذا ما كان هذا الولد سيئاً في فساد الدين فإنه يقوده إلى الجحيم ، ومن الخير أن يبعد الله هذا الولد من طريق أبيه ؛ لأنه سيكون وسيلة لاحتلاله .

وقد يقول قائل : وما ذنب الولد ؟ نقول للقاتل : أنت لا تعي الحكمة من ذلك ، فقد يكون الولد ذهب إلى ربه بدون تجربة في أن يطيع أو يعصى ، إذن يكون قد ذهب إلى رحمة الله مباشرة ، أو اقتضت حكمة العليم سبحانه أن يريح هذا الولد من طريق أبيه ؛ لأنه طبع كافراً ، وميشقى به والداه المؤمنان . لذلك كان القتل رحمة من الله تعالى لوالديه .

المشهد الثالث من مشاهد القصة :

ومشهد آخر مع العبد الصالح وموسى ، تتجلى فيه حكمة الحكيم ، وإرادة العليم ، لقد ذهب الاثنان إلى قرية واستطعما أهلها ، أى : طلبا من أهلها طعاماً ، لقد ورد التعبير في القرآن عن ذلك بدقة : ﴿ اُسْتَطْعِمَا أَهْلَهَا ﴾ . إن الواحد منهما لم يطلب نقوداً ؛ ودلت حتى لا تثار الطنون السيئة ، ولكن طلبا الطعام ليأكلاه ، لقد طلبا أولى الحاجات الضرورية للإنسان ؛ فقالوا لهما : لا ، لن نعطيكما ، لقد كانوا لئاماً .

ولما رأى العبد الصالح جدلاً يريد أن ينقض فأقامه ، فقال موسى ﷺ متسائلاً : لماذا لا تأخذ منهم أجزاء خاصة وأنهم معونا الطعام ؟

ها يوضح العبد الصالح لموسى ﷺ سبب قيامه بهذا العمل والحكمة منه فيقول : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف ٨٢] . إن أهل القرية لو علموا أو رأوا هذا الكنز لأخذوه ، فهم ليّام ، ولضاع حتى التيميم .

فائدة : إن الذي قص علينا قصة الخضر ﷺ هو الله تعالى ، وأنها حدثت مع نبي الله

موسى عليه السلام ، فإذا جاء أحد الآن وادّعى أنه الخضر ، فهو كاذب . فإنه لا يوجد حصر لكن زمان لا باسمه ولا بصمته ، إنى هى مسألة ضربها الله تعالى ؛ حتى تكون قضية عقدية يستقبل بها الناس أحداث الحياة فى مآلهم إن كان سقية ، وفى ذواتهم إن كان ولداً ، وفى جفوة الناس عنهم إن كانوا ظالمين .

إذن .. العاية من القصة الرضا بالقضاء والقدر ، والتسليم لأمر الله تعالى ، وأن كل ما يحدث فى الكون هو بقدر الله ، وله سبحانه فى ذلك حكمة ، فإن عرفتها حمدت الله تعالى وشكرته على ذلك ، وإن جهنتها حمدت الله ، فسبحانه المحمود على كل حال ، وأثر الله كله خبير .

كما أن الخضر عليه السلام قد انتقل إلى جوار ربه ، وهو ليس بحى الآن كما يزعم نمر من العلماء ، وكذلك لا ينتقل عنه شرع ولا علم .

وعاية القول فيه : إنه عبد صالح من عباد الله ، آتاه الله رحمة من عنده ، وعلمه من لده سبحانه علماً ، للقيام بمهمة ، وقد أدبها كما أرادها الله تعالى .
والله بقص الحق وهو خير الحاكمين .

قصة موسى عليه السلام ، مع قارون

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآيَاتُهُ مِنَ الْكُتُبِ مَا أَنْ مَقَاتِلُهُمْ لِيُسْأَلَهُ أُولُو الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُمُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ [القصص . ٧٦] .

لقد ابتلى موسى عليه السلام فى حياته ومشوار دعوته بمجموعة من الصناديد ، ابتلى أولاً بفراعون الذى رعم أنه إله ، واستعبد الناس ، ثم ابتلى ثانياً بموسى السامرى الذى صنع العجل ودعا بنى إسرائيل إلى عبادته ، ثم ابتلى ثالثاً بقارون [الذى جحد بهم الله تعالى عليه] .

يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى ﴾ . قوله : ﴿ مِنْ قَوْمِ مُوسَى ﴾ يعنى بنى إسرائيل ، ويقول أكثر المؤرخين وأهل العلم : إنه كان ابن عم موسى ، فهو قارون بن بصهب بن قاهث بن لاوى ، وموسى هو ابن عمران بن قاهث بن لاوى بن يعقوب ، وكان يسمى « النور » لحسن صوته بالترارة .

ولما أمر الله تعالى بالركلة ، كان على قارون من كل ألف دينار ، دينار .

فسولت له نفسه أن هذا لميلع كثير ، فجمع نفراً يثق بهم من بنى إسرائيل فقال : إن موسى أمركم بكل شيء فأطعتموه ، وهو الآن يريد أنخذ أموالكم . فقالوا : أنت كبيرنا وصيدنا فمرنا بما شئت . فقال : أمركم أن تحضروا فلانة البعي تجعلوها لها جُملاً فتقدفه بنفسها ، ففعلوا ذلك ، فأجابتهم إليه .

ثم أتى عبو الله إلى موسى عليه السلام وقال له : إن قومك قد اجتمعوا لك لتأمرهم وتنهائهم ، فخرج إليهم فقال : من سرق قطعاه ، ومن افترى جديده ، ومن زنى وليس له امرأة جلدناه مائة جلدة ، وإن كانت له امرأة رجمناه حتى يموت .

فقال له قارون : وإن كنت أنت ؟

فقال : نعم .

قال : فإن بنى إسرائيل يزعمون أنك فحرت بملانة .

فقال : ادعها ، فإن قالت فهو كما قالت .

فلما جاءت قال لها موسى : أقسمت عليك بالذى أنزل التوراة إلا صدقت . أنا فعلت بك ما يقول هؤلاء ؟

قالت : لا ، فقد كذبوا ولكن جعلوا لى جُملاً على أن أقذفك .

فسجد ودعا عليهم فأوحى الله إليه : «مر الأرض بما شئت تطعمك» .

قال : يا أرض خذيهم .

فلم يكن له ناصر من نفسه ولا من غيره ، ولما حل به ما حل من الخسف ودهاب الأموال ، وخراب الدار ، وإهلاك النفس والأهل والعقار ، ندب من كان تمنى مثل ما أوتى ، وشكروا الله تعالى الذى يدير عبادته بما يشاء من لحسن التدبير المحزون ؟ ولهذا قالوا : ﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَسَاءَ لِمَا يَفْعَلُ الْكَافِرُونَ﴾ [القصص ٨٢] .

وكان قد وعظه النصحاء من قومه قائلين : لا تبطل بما أعطيت ، ولتكن همتك مصروفة لتحصيل ثواب الله فى الدار الآخرة ، وتناول من الدنيا بما لك ما أحل الله لك ، وأحسن إلى خلق الله كما أحسن الله خالقهم وبارئهم - إليك ، وذلك قول الله سبحانه وتعالى :

﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ١٧٧].

فأجابهم قائلاً: أنا لا أحتاج إلى استعمال ما ذكرتم ولا إلى ما إليه أشركم، فإن الله أعطاني هذا لعلني أستحقه، وأنى أهل له، ولولا أني حبيب إليه وحظي عنده لما أعطاني ما أعطاني.

رد الله تعالى عليه بأنه قد أهلك من الأمم الماضية بدنوبهم وخطاياهم من هو أشد منه قوة وأكثر أموالاً وأولاداً، فلو كان ما قال صحيحاً لم يعاقب الله أحداً من سبب، واقرأ قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْبَرُ جَمْعًا﴾ [القصص: ١٧٨].

وكان عدو الله قد خرج على قومه في تحمل عظيم من ملابس ومراكب وخدم، فلما رآه من يعظم زهرة الحياة الدنيا، تمتوا أن لو كانوا مثله وغبطوه بما عليه وله، فمما سمع مقاتلتهم العلماء ذروا الفهم الصحيح، والرهات الألباء حذروهم، وأرشدوهم إلى أن ما وعد الله في الدار الآخرة خير وأبقى وأجل وأعلى، لمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، وذلك قول الله تعالى: ﴿وَيَلْعَنُكُمْ نُونٌ أَلَّهُ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [القصص: ٨٠].

وقد قص الله تعالى تلك القصة، حتى يعلم الناس أن أحداً لم يفلت من عذاب الله تعالى لا في الدنيا ولا في الآخرة، وأنه ﴿لَا يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [القصص: ٨٢]، وأن الله غالب على أمره، ولن تنفي عنهم أموالهم ولا قوتهم من الله شيئاً.

وحتى يعلم كل ظالم أنه ليس له من الله ناصر: ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾، وإن الدار الآخرة لهي الحيوان، وهي دار القرار، وهي الدار التي يُعبط من أعطيها، ويُعزى من حرمها، وأنها معدة للدين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، والعاقبة للمتقين.

ذكر قصة نبي الله يوشع عليه السلام

يقول الحق سبحانه وتعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لَنَجْوَ لَهُمْ أَهْمَتْ لَنَا مِلْكَنَا نَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ أَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

لقد اجتمع الملأ من بني إسرائيل وقالوا للنبي لهم : ابعث لنا ملكا نقاتل معه في سبيل الله ، وتطلق كلمة الملأ على أشرف القوم ووجوههم ، الذين يملكون إدارة الجماعة الكبيرة ولا يراحمهم في ذلك أحد .

إن أشرف هؤلاء القوم من بني إسرائيل من بعد موسى قد اجتمعوا للتشاور ، ثم ذهبوا إلى نبيهم يسألونه أن يعين لهم ملكا ، يقاتلون تحت إمرته

هؤلاء القوم من بني إسرائيل المجتمعين عند بيهم ، جاعوا بالعلة الموجبة للقتال ، لقد أخرجوا من ديارهم ، أي بلغ بهم الهوان أنه لم تعد لهم ديار ، وبلغ بهم الهوان أن تركوا أبائهم أسرى أو عبيدا ، لقد أخرجوا من آبائهم وديارهم فماذا قال نبيهم لهم : ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ إن بيهم يعرفهم ؛ لذلك يحذروهم ويحشون إن كتب الله عليهم القتال ، قد يتولى الكثير منهم ولا يقاتلون ، فماذا كان جوابهم : ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَهْلِيْنَا﴾ . ولنا أن نلاحظ الدقة في اللفظ القرآني ؛ لتعلم سعة عطاء الله ، لقد قالوا : ﴿نُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ . وهم حططوا هذا القتال في سبيل الله بالأسباب الموجبة للقتال ، وهي أنهم أخرجوا من ديارهم وتركوا أباءهم ، وهم إما أسرى في أيدي الذين أخرجوهم ، وإما عبيد .

إذن .. فالمسؤولية الكاملة تقع على هؤلاء القوم الذين أخرجوا من الديار وتركوا الأبناء ، وعندما طلبوا الإذن من بيهم بالقتال وأن يولى عليهم ملكا يقاتلون تحت رايته ، تشكك النبي في قدرتهم ، ومع ذلك أصرروا فكتب القتال عليهم .

ولنا أن نلاحظ أن الحق سبحانه لم يقل : من الذي طلب القتال . ذلك أنهم قد سألوه القتال فأصبحوا شركاء في التعاقد حين كتب عليهم القتال ، لكن ماذا حدث ؟ ﴿تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا

مِنْهُمْ. أي أعرضوا عن القتال إلا نمزا قليلاً منهم فبقوا على الأمر الذي طلبوه ، وهو القتال في سبيل الله .

ولماذا أراد الحق أن يورد لنا الأمر بهذه الدقة ؟ لماذا قال عن هؤلاء القوم إِيَّاهُمْ ﴿تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ ؟ لقد نص الله علينا خبر هذه القلة ؛ لنعرف قيمة الثبات على التعاقد الإيماني ، إنه الاستثناء المطلوب للتنبيه ؛ وذلك حتى يعلم المؤمن أنه حينما تتحسر الجمهرة عنه ، فلا يقل إنى قليل . لماذا ؟ لأن المؤمن حينما يدخل قتالاً في سبيل الله ، فإن له رصيصةً صخماً من القوة معتمداً في إيمانه بالإله القوي القادر ، وذلك عكس عدوه الذي لا يملك أى رصيد من هذا الإيمان ، وحتى هذا العدو لو كان كثير العدد والعدد فالمؤمن قادر بإيمانه بربه أن يهزمه بإذن الله .

وقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة : ٢٤٦] يعنى أن التولى والإعراض ظلم للنفس . ومعنى الظلم أنك تنقل حقاً لغير صاحبه ، أنهم أخرجوا من ديارهم وظلوا على هذه الحال ، فظلموا أنفسهم ، وظلموا أولادهم ، وظلموا مجتمعهم ، وظلموا القضية العقديّة .

لقد طلب هؤلاء القوم من بنى إسرائيل - من بينهم أن يبعث لهم ملكاً ، وكان يكفى السبى أن يختار لهم الملك ؛ ليقاتلوا تحت رايته ، لكنهم كعادتهم فى التلكؤ واللحاجة يريدون أن ينقلوا الأمر نقلة ليست من قضايا الدين .. كيف ؟ يقول الحق سبحانه : ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي أَوْسَعِهِ وَالْجَسَدُ وَاللَّهُ يُوْثِي مَلِكَكُمْ مِّنْ يَّشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة : ٢٤٧] .

إنهم يريدون الرجاحة والحسب والأصل والمال ، إنهم يسألون السبى المرسل إليهم أن يسأل الله أن يبعث لهم ملكاً ، فيقول لهم سبهم : ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ ، إن السبى المرسل يريد أن يطعنهم إلى أن أمر اختيار هذا الملك ليس مصدره بشريته هو ، إنما أمر الاختيار جاء من عند الله ، لكنهم يدخلون فى اللجاجة والتلكؤ ؛ فيقولون ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾ لقد دخلوا فى مثل هذه اللجاجة ؛ لأنهم قسموا أنفسهم إلى قسمين :

القسم الأول : هو نسل يأخذ النبوة ، وهذا القسم الذى يأتى من نسل بيامين .

والقسم الآخر : يأخذ الملوكة ، وهو الذى يأتى من نسل لاوى بن يعقوب

لما عرفوا أن الله قد بعث طالوت ملكاً عليهم ، بدعوا إلى النظر فى صحيفة نسبه ، فلم يجدوه من نسل الملك أو نسل الأنبياء ، فبدعوا فى السجاجة والتلويح ومحاولة رد الأمر على الأمر ، إذن فقد أخذوا المسألة على أن طالوت ملك جاء ليسطر عليهم ، رغم أن النبى أخبرهم أن طالوت جاء يعمل لصالحهم ، وليقودهم فى الحرب والمعركة ، وهكذا أصبح اختيار طالوت أمراً يحسب لهم وليس عليهم .

وهذا يدل على أن طالوت لم يكن من الشخصيات المشار إليها بالثراء والجاه . ونحسب عرف أن من عادة أى جماعة من الجماعات حين تفكر فى اختيار من يقودها ، فإن العين تختار شخصية من الشخصيات اللامعة فى الجماعة ثراءً وجاهاً ، وهذا الاعتراف من هؤلاء القوم ، إنما يدلنا على أن طالوت كان من خيار القوم ، وكان الحق سبحانه وتعالى يعلمنا من هذا السياق القرآنى كيف يختار الإنسان المناسب للمكان المناسب ، إن الناس حينما يريدون اختيار إنسان يقودهم من حال إلى حال ، فعندهم أن يختاروا الشخص المناسب للمهمة لا أن يختاروا الرجل المناسب لهواهم ؛ لذلك نجد هؤلاء القوم قد اعترضوا على اختيار طالوت ملكاً لهم ؛ لأنهم طلبوا الملك غطرسة وكبرياء ، بينما طالوت وإن كان غير مشهور فى الناس ، فالذى بعثه ملكاً هو الله . وهو آخرى بمن ياسب الموقف ، وهذا يدلنا على أن الله يعلمنا أنه حين يريد الاختيار رجل فى مهمة ، فإياك أن يفريك حسب الرجل أو نسب أو جاهه ، ولكن اختر الرجل على قدر المهمة والرجل اللائق بها ، وكان الحق يحسم هنا قضية أهل الثقة وأهل الخبرة .

إن الحق يعلمنا أن أهل الخبرة هم الذين يجب أن يكونوا أهل الثقة ؛ لأن أهل الثقة قد نقصهم الخبرة . فلا يصلون للمهمة بل يفسدونها ، والقضية التى نحن بصددنا الآن تشير سؤالاً : أستم أيها القوم تطلبون ملكاً لكم ؛ حتى يسوس أموركم أو يقودكم فى الحرب إلى النصر ؟ إن هذه المهمة تحتاج صفتين :

الصفة الأولى : أن يكون الرجل جسيماً .

والصفة الثانية : أن يكون الرجل عليمًا . والذى اختاره الله ملكاً لهؤلاء القوم ، إنما كان

بتمتع بالصفين مئى آن واحد ، ﴿ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفٰهُ عَلَيْهِكُمْ وَّرَادُمْ بَسْطَهُ فِي الْوَلَدِ وَالْجَسْرِ ﴾ ولما أن تأمل دقة القرآن الكريم ، تلك الدقة المتناهية فى أداء الكلمة للمعى وفى تصوير الموقف الذى أراد الحق إبلاغه للخلق ، لقد قال النبى المرسل لهؤلاء القوم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلَكًا ﴾ ، وكلمة ﴿ بَعَثَ ﴾ لا تخرج مشاعر هؤلاء القوم ، ولا تعيد أن طالوت أفضل من أى واحد منهم ، لكن بعد أن ردوا بلجاج وعطسة وقالوا : ﴿ أَأَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ﴾ . كان الرد . ﴿ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفٰهُ عَلَيْهِكُمْ وَّرَادُمْ بَسْطَهُ فِي الْوَلَدِ وَالْجَسْرِ ﴾ .

إذن .. جاء القول الحكيم ليحدد مكانة طالوت بينهم ، لقد اصطفاه الله ، واصطفاه الله لطالوت يعنى أنه لا يوجد بين هؤلاء القوم من يماثله للمهمة التى يجب أن يقوم بها .

الآية الربانية لاختيار طالوت

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ءَايَةَ مَلِكِهِ ءَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ مَكِّبَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَعَالُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٨] . الحق يأتى بالمعجزة التى تؤكد اختيار الله لصالح طالوت ملكاً ولقد كان من المفترض أن يستقبل هؤلاء القوم نبأ اختيار طالوت بأدب ودون لجاج ؛ لأن الذى يحمل لهم نبأ الاختيار هو سيهم الذى وثقوا به ولججوا إليه ، لكنهم لم يستقبلوا الأمر بأدب . ورغم ذلك فأدب النبوة يرد على لجاجتهم بأية رسالة من الحق سبحانه وتعالى ، إنها الآية الربانية التى تدل على صلاحية طالوت للملك باختيار من الله ، وتلك الآية هى : ﴿ إِنَّ ءَايَةَ مَلِكِهِ ءَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ مَكِّبَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ . ونأخذ من هذا القول الحكيم ثلاث مسائل :

المسألة الأولى : إن التابوت كان عائياً مفقوداً .

المسألة الثانية : إن التابوت كان أمره معروفاً لكل هؤلاء القوم .

المسألة الثالثة : إنهم كانوا فى شغف للحصول على هذا التابوت .

فما هو التابوت؟ إنه التابوت الذي جاء فيه قور الرحمن . ﴿وَإِذْ أَوْفَيْنَا إِلَىٰ آلِهِ مَا يُؤْتِيهِ﴾ أي أوفيناه في التابوت فأوفيناه في آية فليلقه اليم بالساحل يلقه عدو لي وعدو لكم [طه : ٣٨ - ٣٩] .

فالتابوت الذي جاء آية لذلك طالوت ، هو التابوت الذي أوحى الله إلى أم موسى أن تضع فيه ابها وتلقيه في اليم ؛ ليلقيه اليم إلى الساحل ، وهو الصندوق الذي كانت به التوراة . وما الذي كان في هذا التابوت ؟ يقول تعالى : ﴿وَبِهِ مَكِيدَتُنَا مِن رَّبِّكُمْ وَيَفِئَةٌ وَمِمَّا نَكَرَ آلُ مُوسَىٰ وَمَا لَ هَٰؤُلَاءِ مَكْرُودٌ﴾ . وكيف يأتي ؟ يقول تعالى : ﴿نَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ .

إذن .. ما دام التابوت يحمل تلك الآثار ، وفيه السكينة لهؤلاء القوم بما يحمله من آثار آل موسى وآل هارون ، وما دام هذا التابوت يأتي ونحمله الملائكة ، فلا بد أن أمره جليل وله مساس بأمور العقيدة ، إذن فهذا التابوت إنما جاء ذكره هنا ؛ ليدلنا على أنه كان مفقوداً من بني إسرائيل ، وكان افتقاده إما بسبب عدو قد غلبهم ، وحاول اقتناص المقدسات التي كانت في بلادهم ، وإما أن هذا التابوت قد فقد لتخادله في أمر الحماية به .

وصورة مجيء التابوت تُحرك المواجيد الدينية ، وعندما يأتي التابوت محمولاً بواسطة الملائكة ، نعرف أن التابوت قد جاء بصورة تنحلل لها القلوب ، والتابوت يحمل آثاراً مما ترك آل موسى وآل هارون ، فقد يكون بالتابوت بعض من صحف التوراة ، وقد يكون بالتابوت جزء من عصا موسى ﷺ .

وتقبل هؤلاء القوم طالوت ملكاً لهم ، وبدأ يمارس المهمة التي جاء من أجلها . لقد جاء ليظلم القوم ليخوضوا حرباً ضد عدو أخرجهم من الديار وأسر الأبناء ؛ لذلك كان لابد أن تفصيل طالوت الجنود عن القوم ، وذلك قول الله تعالى : ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ ماذا يعني بالفصل ؟ إنه يعني عزل شيء عن شيء آخر .

والمقصود بقول الله تعالى : ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ هو خروج طالوت بالجموعة الفاتلة التي فصلها عن بقية القوم ، والموجودة بمكان إقامة الجيش .

بعد أن فصل طالوت بالجند ، بدأ أول مباشرة لمهمته ، فقرر ألا يدخل المعركة بدون تجربة القوم الذين اعترضوا على أمر تعيينه ملكاً ، إنه يريد أن يدخل بجند مستعدين لقتال القلعي .

وكان الحق قد وضع طالوت منهنج الاختبار .

ذكر الله تعالى أن طالوت قال لجنوده : ﴿إِنَّكَ أَفْعَىٰ مِنْكُمْ يُنْهَكِرُ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة : ٢٤٩] .

والابتلاء الذي أُراده الله للجنود - التي تقاتل تحت راية طالوت الملك - كان يتلخص في المرور على نهر ، من يشرب من هذا النهر لا يكون من جيش طالوت ، ومن لا يشرب منه سيكون من الجيش المقاتل ، وقد أدرك الله لهم أن يشرب الجدي بمقدار غُرْفَةٍ من يده ، ولما أن لاحظ اندقة في تصوير هذا الرسم ، إنه يوحى في النفس معاني كثيرة : ﴿إِنَّكَ أَفْعَىٰ مِنْكُمْ يُنْهَكِرُ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ إنه قول يوحى بمعاني جمّة وعميقة ، إنهم سوف يمرون بعد عطش على نهر ، والمأمون على القتال هو من يمر على النهر وهو عطشان ؛ لأنه يلتزم أمر الله بعدم الشرب من النهر ، إنه إنسان يؤثر مطلوب الله على مطلوب بدنه ، لذلك هو مؤتمن على القتال ، لم يقس الله في الابتلاء ، بل أذن سبحانه بما يهدئ الإحساس بالعطش ، وهو أن يشرب الإنسان ملء غُرْفَةٍ من يده .

لقد سمح الله بقبيل من الماء على قدر الضرورة ، فلماذا كان الابتلاء هكذا ، وما صلة ذلك بالعملية الحربية المقبلة عليها ؟ إننا نعرف أن المقاتل أثناء العملية قد ينصد منه الزاد ، وهو عرصة لأنه يحاصر بواسطة العدو ، فإن امتلك المقاتل الشيء الضروري الذي يسمح له بالحياة ، واستطاع أن يتصر على شهورته فهو قادر على الانتصار ، وهو صالح للمهمة الحربية .

إذن .. فالاحتبار الذي وضعه الله كان مناسباً للمهمة التي هم مقبلون عليها ، لذلك نجد منهم من شرب من الماء ونسى المهمة ، ومنهم من حضع لأمر الله ولم يشرب إلا بالقدر الذي سمح به ، ومنهم من لم يشرب .

لقد مروا على أكثر من نقطة اختبار :

أولاً : بأن كتب الله عليهم القتال فتوبوا إلا قليلاً منهم .

ثانياً . بمسألة تعيين طالوت ملكاً عليهم ، جادلوا واعتصموا حتى جاءهم الثابوت دليلاً

على أن طالوت قد تم اصطفاؤه ملكاً لهم بأمر من الله .

ثالثاً : باختبار المرور على نهر وهم عطشى ، فلم يثبت إلا القليل منهم ، وهم الصالحون للقتال .

إن التصفية المتكررة تتيح للمؤمن أن يعرف كيفية ميثاق الابتلاء ؛ ليكون مستعداً للجهاد في سبيل الله ، فلا يجاهد في سبيل الله إلا المأمون على هذا الجهاد .

وتحسب التصفية الأخيرة ؛ لقد جاور طالوت النهر والدين آمنوا معه ويظهر لهؤلاء موقف جديد ، لقد نجحوا في أكثر من اختبار ، لكن بعضهم عند الاختبار الأخير قال ﴿ لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] وقال البعض الآخر : ﴿ كَـمْ مِّنْ فِتْنَةٍ قَبْلَ هَذِهِ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] .

وهكذا يرى اختلاف الشعور عند الفريقين لحظة رؤية جيش الخصم وقوته ، إن إدراك ووجدان ونروع القوم الذين عافوا عند رؤية الجيش المقاتل ، يختلف من إدراك ووجدان ونروع القوم الذين لم يهابوا الجيش الخصم ، رغم أنهم رأوه ، لقد اتحدت الرؤية واختلف النزوع باختلاف المواجيد .

وقد يقول قائل : ولماذا قال الحق هنا : ﴿ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ ؟ نقول لأن الملد يأتي على قدر الصبر .

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَمَّا بَرَرُوا لِحَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ نَكُفِّرْ بَعَثْتَ أَقْدَامَنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥٠] . لقد طلبت القلة المؤمنة المقاتلة أن يُفرغ عليهم ربهم وخالقهم : الصبر ، وأن يثبت أقدامهم في القتال ؛ وعاية الصبر وثبتت الأقدام أن يتحقق النصر على القوم الكافرين ، وهذا يعص عطاء الله لمن يقاتل في سبيله . ﴿ نَهَزْنَاهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَيْنَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمْنَاهُ مَا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمُ بَعْضِينَ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَـكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥١] . وتحقق أمر الله ، وانتصر المؤمنون .

ذكر قصة نبي الله إلياس عليه السلام

[قال الله تعالى بعد قصة موسى وهارون في سورة الصافات : ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ١٢٣] إذ قال لقومه أَلَا تَتَّقُونَ ﴿ ١٢٤ ﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿ ١٢٥ ﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿ ١٢٦ ﴾ فَكَذَّبُوا فَأَنَّهُمْ لَا مَحْصِرُونَ ﴿ ١٢٧ ﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿ ١٢٨ ﴾ وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْأَخْيَرِينَ ﴿ ١٢٩ ﴾ سَلَّمْ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿ ١٣٠ ﴾ إِنَّا كَذَّلَكْ نَجْرَى الْمُحْسِنِينَ ﴿ ١٣١ ﴾ إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصافات : ١٢٣ - ١٣٢] .

قال علماء السب هو : إلياس النشبي ، ويقال : ابن ياسين بن متحاصر بن العيزار ابن هارون . وقيل : إلياس بن العارر بن هارون بن عمران .
وقالوا : وكان لإرساله إلى أهل بعلبك غري دمشق ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، وأن تركوا عبادة صم لهم كانوا يسمونه « بعل » ، وقيل : كانت امرأة اسمها : « بعل » . قاله أعلم .

والأول أصح ولهذا قال لهم : ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ * أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿ ١٢٥ ﴾ اللَّهُ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ .

فكذبوه وخالفوه وأرادوا قتله . فقال : إنه هرب منهم واختفى عنهم . قال أبو يعقوب الأدرعي ، عن يزيد بن عبد الصمد ، عن هشام بن عمار قال : وجدت من يذكر عن كعب الأحبار أنه قال : إن إلياس اختفى من ملك قومه في العار الذي تحت الدم عشر سنين ، حتى أهلك الله الملك وولى غيره ، فأتاه إلياس فعرض عليه الإسلام ، وأسلم من قومه خلق عظيم غير عشرة آلاف منهم ، فأمر بهم فقتلوا عن آخرهم .

وقال ابن أبي الدنيا : حدثني أبو محمد القاسم بن هاشم ، حدثنا عمر بن سعيد الدمشقي ، حدثنا سعيد بن عبد العزيز عن بعض مشيخة دمشق قال : أقام إلياس عليه السلام هاربا من قومه في كهف جبل عشرين ليلة - أو قال : أربعين ليلة - تأتبه العربان برقه .

وقال مكحول عن كعب : أربعة أسياء أحياء . اثنان في الأرض : إلياس والخضر ، واثنان في السماء ، إدريس وعيسى عليهما السلام .

وقوله تعالى . ﴿ فَكَذَّبُوا فَأَنَّهُمْ لَا مَحْصِرُونَ ﴾ [الصافات : ١٢٧] أي للعذاب ، إما في الدنيا

والآخرة، أو في الآخرة. والأول أظهر ما ذكره المفسرون والمؤرخون.

وقوله: ﴿لَا يَبَادُ إِلَهُهُ الْمُخَلَّصِينَ﴾ [الصفات: ١٢٨] أى إلا من آمن منهم.

وقوله: ﴿وَوَرَّكُمَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الصفات: ١٢٩] أى: أبقينا بعده ذكرًا حسنًا له في

العالمين، فلا يذكر إلا بخير، ولهذا قال: ﴿سَلِّمُ عَلَيْكَ يَا سَلِيمُ﴾ أى: سلام على إلياس،

والعرب تلحق النون في أسماء كثيرة وتبدلها من غيرها كما قالوا: إسماعيل وإسماعيل

وإسرائيل وإسرائي، وإلياس وإلياسين وقد قرئ: (سلام على آل ياسين)، أى على آل محمد،

وقرأ ابن مسعود وغيره: (سلام على إدريسين)، ونقل عنه من طريق إسحاق عن عبيدة بن

ربيعة عن ابن مسعود أنه قال: إلياس هو إدريس. وإليه ذهب الضحاك بن مزاحم، وحكاه

قتادة ومحمد ابن إسحاق والصحيح أنه غيره^(١).

(١) ما بين المنكرتين من «قصص الأنبياء» لابن كثير (٢١٥ - ٢١٥).

ذكر قصة نبي الله حزقيال عليه السلام

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّكَ لَآتَىٰ ذَٰلِكَ فَضْلًا عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة ٢٤٣] إنهم بعض من بنى إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد ، وكانوا ألوفاً هاربوا وحافوا من الموت ، فأماتهم الله عدة أيام ثم أحياهم وقال بعض المفسرين : إنهم بعض من بنى إسرائيل ، جاءهم بأوباء شديدة الفتك بالناس ، هاربوا وتركوا ديارهم حذر الموت ، أو خوفاً من الموت ، فأماتهم الله ثم أحياهم .. لماذا ؟ لأن الحق أراد لهم أن يعرفوا أن أحداً لا يفر من قدر الله إلا لقدّر الله ؛ لذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما أراد للناس أن تهرب من الطاعون ، قالوا له : أتفر من قدر الله ؟ قال عمر : إنما نحن نفر من قدر الله إلى قدر الله إن ذلك يجعل الإنسان في تسليم مطلق بملء جوارحه لله ، صحيح أن على الإنسان أن يحتاط ، ولكن القدر الذي يريد الله سوف ينفذ ، والمؤمن يأخذ بالأسباب ويسلم أمره لله ، وفي هذه الآية الكريمة : الحق أراد أن يوضح لنا أن كثرتهم وهم ألوفاً إنما هي جمهرة ، لكنهم عشاء كفتاء السيل ، فلم يكن يسهم ناصح لله ، ولا أمرٌ بمعروف ونهى عن منكر ، لقد اجتمعوا على الضلال ؛ لذلك ساروا إلى الضلال ، ولقد ذكر الحق أنهم كانوا ألوفاً ؛ ليعين لنا أنهم كثرة ، والحق جل جلاله حين يلمت في بعض الأشياء إلى القيود إنما يريد بها مغزى ، ويذكرها لسبب .

ويريد الآن أن نتعرف على موقف لغوي دقيق عند قول الحق في كثير من الأشياء التي يريد بها إبلاغنا بعلم ما ، يقول سبحانه وتعالى مخاطباً رسوله ﷺ ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ ، وعندما يقول إنسان لإنسان : « ألم تر ؟ » فمعنى ذلك أنه يسأله ، هل شاهد هذا الأمر بنفسه أم لا ؟ لكن عندما يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ . فالتقصود بها سماع خبر قادم من عند الله ، وأنه ساعة يخبرك الله بشيء سابق عن وجودك ، أو شيء متأخر عن وجودك فاستقبله استقبالك لما رأيته بالفعل . ماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الخلق وخلق لهم الخواص .

إن الحق سبحانه وتعالى لم يقل : ألم سمع . أو : ألم تحيرك . لأن الحق حينما يخبرنا

بشيء سابق عن وجودنا ، أو بشيء متأخر عن وجودنا ، فعليا - نحن المؤمنين أن نستقبل ما يحيرنا به الله سبحانه استقبالا ما رأياه بالمعنى ، وذلك كقوله سبحانه : ﴿ أَأَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْآيِلِ ﴾ [الفيل ١] . فالرسول ﷺ لم ير ما حدث لأصحاب الفيل ؛ لأنه ﷺ لم يكن ولد بعد ، ولكن ما دام القاتل هو الله ، فعلى المؤمن أن يأخذ قوله سبحانه مصدقا مسلما ، به وكأنه رؤية عين .

إذن .. قوله سبحانه وتعالى . ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَعُوا مِنْ دِينِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أُنْزِلُهُمْ إِلَى الْأَرْضِ فَنُصِلَ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . علة الخروج من الديار ؛ إنما كانت مخافة أن يموتوا ، ولم يتعرض الآية الكريمة إلى السبب الذى جعلهم يخافون الموت ، وقد تعرض المفسرون لهذه الآية ، وحاولوا أن يجدوا الأسباب التى دفعت هؤلاء القوم إلى الخروج من الديار هربا من الموت ، وتكلم للمفسرون كلاما طويلا منقولاً من الإسرائيليات .. ولم ينتص هؤلاء المفسرون إلى أن القرآن الكريم عالج هذا الأمر من الزاوية التى يريد الحق أن يبلعها إلى أمة الإسلام لأهبتها ، وهى أن الخروج كان بسبب الخوف من الموت ، هذه هى الراوية التى أراد الحق أن يبرزها علاناً لهذه القضية ، ولم يعط القرآن الكريم للحارثيين من الديار ألوقاً إلا سبباً واحداً وهو الخوف من الموت ، ولم يحدد القرآن فى أى زمان كان هذا الخروج لعدم أهميته ؟ ولا على يد من كان هذا الخروج ؟ ولم يحدد القرآن من هم الأشخاص الذين خرجوا ، وعدم تحديد الحق سبحانه وتعالى للزمان أو المكان إنما هو لهدف ، إن هذا التجاهر لبرهان أو المكان إنما المقصود به أن تظل العبرة والعظة بيّنة ومحددة فى أنهم خرجوا من الديار ألوقاً حذر الموت ، فأمانتهم الله ثم أحيائهم ، ولو أراد إيضاح الزمان المخصوص والمكان المخصوص والأشخاص المحددة لأوضحه ؛ فالحق سبحانه حين يهتم فى قصة قرآنية الزمان والمكان والأشخاص ؛ إنما يريد عمومية الزمان وعمومية الأشخاص هى حياة فى كل زمان ، وحياة فى كل مكان ، وحياة مع كل شخص .

وستخلص من ذلك وما تقدم أن محاولة بعض المفسرين للبحث عن زمان ومكان خروج الألوف المؤلفة من بنى إسرائيل من ديارهم حذر الموت لا يحقق هدفهم منه ، فهذا البحث رعم ثل مقصده إنما يتم بهدف إثراء القصة ، لكنه فى الواقع يتقلب إلى إضعاف القصة ؛ لأن الحق أراد أن يهتم الأمر ؛ ليبين أن الخروج حذر الموت لا يمنع الموت فى أى زمان أو مكان . لقد

خرجتم حذر الموت فما الذى حدث ؟ أماتهم الله ؛ كما فى قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أُنِيبَهُمْ ﴾ . لماذا ؟ ليبين الحق للناس أن أمر الحياة والموت بيده وحده سبحانه ، سواء كان ذلك الخروج للحذر من الموت ، أو خوفاً من وباء ، أو هرباً من لقاء الأعداء . ولو كانت القصة على لون واحد محدد من الحذر كالخوف من العدو ، بهل كانت تعطى اللون الآخر من الحذر وهو الخوف من الطاعون ؟ لا .

لذلك فحين يصدر الأمر من الحق سبحانه بقوله - ﴿ مُوتُوا ثُمَّ أُنِيبَهُمْ ﴾ ، فلم يكن بإرادتهم أن يصنعوا موتهم أو أمر حودتهم إلى الحياة ، لكنه أمر قهرى ؛ يموتون بطلاقة قدرته المتمثلة فى قوله : ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ . ويعودون للحياة بتمام طلاقة قدرته المتمثلة فى : ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ . فليس بهم أمر فى مسألة الموت أو العودة للحياة ، إنه أمر قهرى .

فعندما قال الحق سبحانه لهم - ﴿ مُوتُوا ثُمَّ أُنِيبَهُمْ ﴾ . فهذا أمر قهرى بالموت ويعودتهم إلى الحياة .. أليس الموت هو ما خافوه وفروا منه ، واحتاطوا بالهرب منه ؟ ولكن لا أحد يقدر على أن يحتاط من قدر الله . وقد يقول قائل : لماذا لم يتركهم الله ليموتوا إلى أن يأتى البعث يوم القيامة ليحاسبوا ؟ يقول لمن هذا القائل : لقد أراد الحق بالإحياء ثانية أن توجد العبرة والعظة ، ولتظل ماثلة أمام أعين الخلق ومحفوظة فى أكرم كتاب حفظه الله مهيباً للناس ، وهو القرآن الكريم ، إن الحق أراد بالأمر عظة واعتباراً وتجربة ، يموتون بأمر ويعودون إلى الحياة بأمر آخر ، ثم يعيشون إلى الحياة المقتدرة لهم ويموتون بعد ذلك حتف أنفسهم ، ولتظل العبرة ماثلة أمام كل مؤمن حقاً ، فلا يخاف أحد الموت فى سبيل الله .

لقد أراد الله بهذه التجربة أن يعلم المجاهدون فى سبيله أن القتال لا يقدم أجلاً ، ولا يؤخر أجلاً ، إنما أمر الموت والحياة بيد واهب الحياة .

وقوله سبحانه : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَمْرَهُ وَطَعَنُوكُم بِخَبَرِ الْيَوْمِ ، وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر : ٦١] إن الفضل أن تتلقى عطاء يريد على حاجتك ، والحق سبحانه وتعالى لا يعطى الناس فقط على قدر حاجاتهم ، إنما يعطيهم ما هو أكثر من حاجاتهم ، بمعنى لو مات هؤلاء القوم الذين خرجوا من ديارهم بوباء أو بعدو ، لكان هذا الموت فضلاً من عند الله ؛ لأنهم لو ماتوا بالوباء لمااتوا شهداء وهذا فضل من الله ، ولو ماتوا فى لقاء عدو وحاربوا فى سبيل الله لمااتوا الشهداء أيضاً ، وذلك فضل من الله .

ذكر قصة نبي الله اليسع عليه السلام

[ذكره الله تعالى من الأنبياء في قوله : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوشَعَ وَلُوطًا وَكَانَ قَصَصُنَا عَلَى الْغَالِيينَ ﴾ (الأنعام : ٨٦) .

وقال تعالى : ﴿ وَادْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴾ [ص ٤٨] .

ذكر ابن إسحاق عن الحسن قال : كان بعد إلياس اليسع عليهما السلام ، فمكث ما شاء الله أن يمكث يدعوهم إلى الله مستمعاً بمهاج إلياس وشريعته حتى قبضه الله عز وجل إليه ، ثم خلف فيهم الخلو ، وعظمت فيهم الأحداث والخطايا ، وكثر الجبارة وقتلوا الأنبياء ، وكان فيهم ملك عيذ طاغ ، ويقال : إنه الذي تكفل له ذو الكفل إن هو تاب ورجع دخل الجنة ، فسمى : ذا الكفل .

قال محمد بن إسحاق : هو اليسع بن أخطوب . وقال ابن عساکر : هو الأسباط ابن عدي ابن شوتلم بن أفرايم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل . ويقال هو ابن عم إلياس النبي عليهما السلام ، ويقال : كان مستخفياً معه بجبل قاسيون من ملك بعلبك ثم ذهب معه إليها ، فلما رفع إلياس ، خلفه اليسع في قومه وبنأه الله بعده ^(١) .

(١) ما بين المكونين من : قصص الأنبياء : لابن كثير (ص ٥٢١)

ذكر قصة نبي الله شمويل عليه السلام

[هو شمويل ويقال : أشمويل بن بالي بن علقمة بن يرخام بن اليهو بن تهو بن صوف بن علقمة بن ماحث بن عموصا بن عرريا .

قال مقاتل : وهو من ورثة هارون . وقال مجاهد : هو أشمويل بن هلقافا ، ولم يرفع في نسبه أكثر من هذا .. فإلله أعلم .

حكى السدي بإسناده عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من الصحابة والتعلمي وغيرهم : أنه لما غلبت العماليقة من أرض غزة وعسقلان على بني إسرائيل وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وسبوا من أيائهم جمعاً كثيراً ، وانقطعت البوة من سبط لاوي ولم يبق فيهم ، إلا امرأه حيلي ، فجعلت تدعو الله عز وجل أن يرزقها ولداً ذكراً ، فولدت غلاماً فسمته أشمويل ومعه بالعبيرانية إسماعيل أي سمع الله دعائي .

فلما ترعرع بعثته إلى المسجد وأسلمته عند رجل صالح فيه يكون عبده ليتعلم من خيره وعبادته فكان ، فلما بلغ أشده ، بينما هو ذات ليلة نائم إذا بصوت يأتيه من ناحية المسجدة ، فانتبه مدعوراً ، فظنه الشيخ يدعوه فسأله : أددعوتني ؟ فكره أن يفزعاه فقال . نعم نعم . فنام .

ثم ناداه الثانية فكذاك ثم الثالثة فإذا جبريل يدعوه ، فجاءه فقال . إن ربك قد بعثك إلى قومك فكان من أمره معهم ما قص الله في كتابه .

قال أكثر المفسرين . كان نبي هؤلاء القوم المذكورين في هذه القصة هو شمويل .
ونيل : شمعون . وقيل : هما واحد . وقيل : يوشع . وهذا بعيد لما ذكره الإمام أبو جعفر ابن جرير في « تاريخه » : أن بين موت يوشع وبعثه شمويل أربع مائة سنة وستين سنة . فإلله أعلم [(١)] .



(١) ما بين المذكورين من « قصص الأنبياء » لابن كثير (٣٢٥ - ٤٢٥) .

ذكر قصة نبي الله داود ﷺ

لقد كان داود أحمًا لعشرة من الأخوة هو أصغرهم . وقال النبي المرسل إليهم : إن الذي سوف يدخل المعركة لابد أن يكون درع موسى ﷺ على مقاسه ، وقد حاول كل واحد من إخوته أن يرتدى درع موسى ﷺ ، فلم يناسب الدرع إلا داود ، ودخل داود المعركة ضد جالوت بهذه الدرع ، فقتل داود جالوت ، لقد كانت هذه هي بداية فتح الحق سبحانه على داود ، وآتاه الملك والحكمة . لقد أحب داود صناعة الدروع ؛ لأنها كانت بداية فتح ، فقال الحق في عطايه لداود ﷺ : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِمَّا صَلَّا بِنِجَالٍ أُورِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَالنَّارَ لَهُ الْحَبِيدَ ﴾ [سبأ : ١٠ ، ١١] ، وهب الله داود ﷺ فضل الحكمة والكتاب ، وأمر الجبال بأن تردد التسبيح معه ﷺ ، وسحر له الطير ، وهب الله القدرة على تشكيل الحديد كيفما شاء ، يصنع منها دروعًا ذات نسيج معين ، تتيح لمن يرتديها الحماية وهو يقاتل ، وهى صعة علمه الله تعالى إياها .

ثم يقول سبحانه وتعالى . ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّ فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٩] والتسخير هو قهر المسخر على فعل لا يستطيع أن ينفك عنه ، فهو مقهور على هذا الشيء وليس مختارًا فيه .

وإذا كانت الطيور لها أصوات يمكن أن تسبح بها ، فكيف تسبح الجمادات كالجبال وغيرها ؟ العلماء حينما يستقبلون هذه الآية يأخذونها بظواهر التكليف ، وليس بعقل ولب الأشياء ، فقالوا . هو لا ير الجبال والجمادات تتكلم ، بينما يرى الطير لها أصوات تعبر بها عن مراداتها ، ولكن لا يسمعاها تتكلم .

ولنحتم نقول : وما هو العجب فى ذلك ؟ إن العجب يزول حينما نجرى مسحا بلكرة الأرضية مثلا أحناس البشر على اختلافهم فيهم أشياء تختلف فى السمات ، والأشكال ، والألوان ، حسب البيئات التى يعيشون فيها ، لكن الفرائز يشترك فيها الجميع .

كذلك يمكن للإنسان أن يتعلم بإذن الله - لغة الطير ، أو الحيوان ، بدليل أن الله تعالى أخبرنا أنه علم سليمان منطق الطير ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَىٰهَا

النَّاسُ فِلْمًا مِّنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا مَوْءِظَةٌ لِّلْمُتَّعِينَ ﴿١٦﴾ [الزل: ١٦] ومن الممكن أن يمن الله على أحد من خلقه ويعلمه منطق الجماد، فلماذا تستبعد ذلك؟! وكان الهدهد يتكلم مع سليمان ويفهم كلامه، ليس هذا فقط بل إن القرآن أخبرنا أن الهدهد كان يفهم قضية التوحيد وعبادة الله وحده؛ لذلك استغرب حينما رأى بلقيس وقومها يسجدون للشمس من دون الله.

بعض العلماء حينما سمعوا لقول الله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحُ وَأَلطِيطٌ﴾. قالوا: إن المقصود هنا ليس التسييح الحقيقي، ولكنه تسييح دلالة أي أنها بحالها تدل على الخالق، فكانهم فهموا تسييح هذه المخلوقات مع أن الله الذي خلقها قال: ﴿وَأَن يَمُنَّ شَيْءٌ إِلَّا يُسَبِّحَ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]. وهذا يعيد أن هذه الأشياء كلها تسيح لله، ولكن نحن لا نفهم لغتها التي تسيح بها.

إذن ربما سبحانه وتعالى أعطى لداود مزية أن الجبال تسيح معه. ومع ذلك فالجبال لا تسيح مع داود وحده، ولكنها تسيح مع غيره أيضًا، ولكن الميزة أن داود كان تسييحه يوافق تسييحها.

ولذلك الناس يقولون: إن من معجزات النبي ﷺ أن الحصى يسبح في يده. ونحن نقول لهم هذه العبارة غير دقيقة؛ لأن الحصى يسبح حتى في يد الكافر فقولوا: إن رسول الله ﷺ شجع تسيح الحصى في يده.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُخَفِّصَكُمْ يَزِيءَ بَأْسِكُمْ فَهَـذَا أَنَّمَا تَشْكُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

تعليم الله لداود ﷺ صناعة اللبوس، إن قلنا: بالروح يصح، أو بالتجربة والخطا يصح، وكل شيء فيه صفة لابد فيه من عمل وحركة، فلا يؤخذ حائثًا. ومعنى: ﴿صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾: اللبوس من مادة «لبس» ولكن هناك لباسًا ولبوسًا، اللباس بعمله ينستر به عورتنا، ويحفظ أنفسنا من الحر والبرد. لكن في حالة الحرب التي يتعرض فيها الإنسان للإصابة في أجزاء قاتلة من جسمه، اهتدى الناس إلى حماية مواقع الخطر في أجسامهم، ومعروف أن رأس الإنسان وقلبه ما دام يعيدان عن الخطر، فإن حياته يمكن أن تستمر حتى لو تعرضت أجزاء

أخرى من جسمه للخطر ؛ ولذلك فإن المحارب يحاول أن يحمي رأسه يوازي للرأس يسمى «الحوذة» . ويحمي منطقة الصدر والوجه باستخدام «الدرع الواقى» .

وهذا ما كان يصنعه داود عليه السلام ؛ دروع بحلقات تقي الجسم من الضربات ، فاللبوس أبلغ من اللباس ؛ لأن مهمته أبلغ من مهمة اللباس ؛ لأنه يقي الإنسان البأس ، والحرب ، وضربة العدو في مقاتل ، ولذلك قال ربما : ﴿لِيُحَصِّصَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ ومعنى تحصصكم : أى تمنعكم وتحوطكم وتحفظكم . ومعنى ﴿مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ أى من الحرب مع عدوكم .

زَبُور داود عليه السلام

يقول تعالى : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ كِتَابًا أَوْحَيْنَا إِلَيْهِ تَوْحِيحًا وَتَوْحِيحًا﴾ [النساء ١٦٣] هنا ملاحظ أن الحق سبحانه وتعالى ذكر الوحى عامًا ، ولكنه حينما جاء على داود ذكر اسم كتابه الزبور ، ولم يأت فى هذه الآية بأسماء الكتب المنزلة على الرسل السابقين ، مثال ذلك : نزول التوراة على موسى ، والإنجيل على عيسى ، لماذا ؟ لأن ما جاء به داود فى الزبور أمر تجميع عليه كل الشرائع ، وهو تمجيد الله والثناء عليه ، فلم يأت الزبور بأحكام . قد يقول قائل : إن عيسى أيضًا لم يأت بأحكام فى الإنجيل . ونقول لمثل هذا القائل : لا ، إن الإنجيل ملتحم بالتوراة ، فالإنجيل جاء بالوجدانيات الدينية ، والتوراة التى كانت موجودة قبله جاءت بالأحكام ؛ ولذلك فمن عجيب أمر اليهود والنصارى : أنهم رغم اختلافهم فى قمة الأمور وهى مسألة عيسى وأم عيسى ، جاعوا آخر الأمر ليلتقوا أو يسموا الكتابين العهد القديم والعهد الجديد ، ويعتبرونه كتابًا واحدًا يسمونه الكتاب المقدس .

وقد يقول قائل : ما معنى الزبور ؟ تقول : المادة مأخوذة من رير البئر ، فعندما يقوم الناس بحفر بئر ليأخذوا منها الماء ، فإنهم يحافون أن ينهال التراب من جوانبه عليه فيطم البئر ؛ لذلك يصنعون لجران البئر بطانة من الحجارة . ونحس فى الريف المصرى نجد أنهم يصنعون تلك البطانة من الأسمنت .

إذن . فكلمة رير البئر تؤدى معنى كن عملية لإصلاح البئر ، ثم أخذ الناس هذه الكلمة

فى معابٍ مختلفة فسموا العقل زبوا ؛ لأنه يعقل الأمور ، فإذا كان السياج من الحجارة يعقل
التراب عن البثر .. فكذلك العقل يحمى الإنسان من الشطط .

إذن .. فالعقل لم يخلقه الله ليتشتت الإنسان فى الأفكار ، ولكن ليضبط الإنسان حريته
فى إطار مسئوليته لمفكر ، إنه يعقل العرائض عن انفكاك بالإنسان إلى الشتات والضلال .



ذكر قصة نبي الله سليمان عليه السلام

قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل : ١٥] .

الله سبحانه وتعالى آتى داود وسليمان عليهما السلام العلم، وهو منهج الدين، وعلم سليمان منطق الطير، وألان لداود الحديد، وآتى سليمان مكاناً لا يسعى لأحد من بعده، ورغم كل هذه النعم لم يذكر الله إلا النعمة التي يجب أن يفرح بها المؤمن وهي العلم . وانظروا إلى داود وسليمان حينما حمدا الله على فضله عليهما بالعلم حيث قالوا : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ؛ أى أن هاك من الناس من هو أفضل منا ، وهذا تواضع الأنبياء والعلماء .

ثم يقول تعالى : ﴿وَوَيْتَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَأْتِيهَا النَّاسُ عُلًى مِّنطَرٍ وَأُوتِيَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَمَرَأَةٌ عَالِيَةُ الْقَيْنِ﴾ [النمل : ١٦] . ومعنى كلمة : ﴿وَوَيْتَ﴾ أى بقيت النبوة فيه بعد أبيه ، و﴿مِّنطَرٍ﴾ هو لغة التفاهم بينها ؛ لأن لكل خلق من خلق الله لغة يتفاهم بها ؛ قال تعالى : ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُنمِّمُ أَشْأَنَكُمْ﴾ [الأنعام : ٣٨] . والعلماء يعكفون في العصر الحاضر على معرفة لغات الحيوانات ، مثل : لغة السم ، والمحل ، والسمك ، فهذه الحيوانات تتعالم فيما بينها تفاهتها غريزا .

قوله تعالى : ﴿وَوَيْتَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ . الأنبياء لا تورث ، ولكنه ورثه في النبوة والدعوة إلى الله وتطبيق منهجه .

ومعنى : ﴿عُلًى مِّنطَرٍ﴾ ، أى أننا بشرتنا لو لم يعلمنا الله لما فهمنا منطق الطير كسائر الناس ، فالناس لا يفهمون منطق الطير ، مع أن الطير له منطق . وعلماء اللغة يقولون : النطق خاص بالإنسان ، وأما في الطير والحيوانات الأخرى فيسمونه صوتاً ، فهذا مواء القططة ، ونباح الكلب ، وحوار البقرة ، وتقيق الضفادع ، وزئير الأسد إلخ .

تسخير الريح لسليمان عليه السلام

قال تعالى : ﴿وَسُلَيْمِنَ الرِّيحَ طَائِفَةً تَحْرِى بِأَمْرِى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ

شَيْءٌ عَجِيبٌ» [الأنبياء: ٨١] سليمان قد استفاد من تعليم الله لأبيه داود، فأخذ هذه النعمة، وروده الله بهم أخرى خاصة به، فأعطى له الريح العاصفة تسير بأمره، ويستقل بها من مكان إلى آخر في الأرض - التي بارك الله فيها من صحراء فلسطين حتى العراق - فكانت الريح تمثل مواصلات داخلية له في مملكته.

وفي آية أخرى قال سبحانه وتعالى: ﴿مَسَحَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُفًا حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣١] ها الريح رحاء ولينة، وهناك الريح عاصفة، فالريح العاصفة تعطى سرعة، والريح اللينة تعطى راحة، فكانها جمعت بين السرعة في ﴿عَاصِفَةً﴾ وبين اللين والنومة في ﴿رُفًا﴾.

إذن .. جمع له الحق سبحانه وتعالى بين ما يعطيه السرعة إلى مراده، وبين ما يجعلها مريحة ناعمة هادئة لا تؤثر في جسمه؛ لأن هذه السرعة قد تصيب الجسم بأضرار، ومعنى: ﴿بَنَزَكْنَا فِيهَا﴾ أى أنها أرض بها رروع وثمار وخصب ونماء، كما أن فيها البوة وأثر البوة، فتسحير الريح لسليمان في أنه يأمرها أن تهب في الاتجاه الذي يريد، فهي لا تهب إلا على مراده هو وبأمره هو، والريح مسخرة له كمواصلات داخلية وخارجية، فالداخلية هي التي تحملها داخل مملكته، أما الخارجية فتتمثل في قول الله تعالى: ﴿وَلَسُلْبَتُنَ الرِّيحَ عُدُّهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبا: ١٢]. فهذه الريح للرحلات الخارجية خارج مملكته. وقوله تعالى: ﴿وَمَكَّنَّا يَكُفَّ شَيْءٍ عَجِيبٍ﴾ [الأنبياء: ٨١]، أى عندما العلم الكافي لترتيب الأمور وفق ما نشاء، بل وجعلها تحرق القانون وتخالف طبيعتها .. هذا بالنسبة لتسحير الريح.

وهناك سحير الشياطين أيضًا، قال تعالى: ﴿وَمِمَّا كَسَبَ الشَّيَاطِينُ مَنْ يَقُولُ أَفِئَّةً وَمِنْ يَفْجُورُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٢] العوص: هو النزول إلى أعماق البحر، فالشياطين كانوا يغوصون في البحر؛ ليخرجوا له كنوز البحر ونفائسه، ويعملون أعمالاً أخرى شاقة لا يستطيع الإنسان أن يؤديها.

ولذلك يقول سبحانه وتعالى في آية أخرى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ مَا بَشَأُكَ مِن مَّخْرِبٍ وَتَنْشِيلُ وَجْهَانِ كَالْجَوَابِ وَقُدُورِ رَاسِبَتٍ أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ [سبا: ١٣]. وهذه الآية بيت قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾ [الأنبياء: ٨٢] فهذا

العمل في صناعة الخارب والتائب والجمان - أى القصعة التى يأكل الناس منها - وكنمة
﴿كَلْبَرَابٍ﴾ نذل على أن هذه الجمان واسعة وكبيرة، تتمتع لإطعام عشرات الرجال،
والقدور الراسيات هى القدر الصخمة التى لا يمكن نقلها من مكانها ؛ لأنها قَدْرٌ ضخمة تكفى
لإطعام مئات من الناس .

وقوله : ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَكِيمِينَ﴾ ؛ لأن الناس دائماً يحاقون من الشياطين ويصيبهم الرعب
منها ؛ لذلك أحى الله هذه الشياطين بحيث إن الناس لا يروهم وهم يعملون هذه الأعمال ،
ولا يحسون بهم ، وقد بين القرآن الكريم أن الجن المُسخرين لسليمان ، كان هو وحده الذى
يراهم ولا يراهم أخذ غيره ، ولذلك لم يشعروا بموته وهو يجس متكفاً على عصاه . وظلوا
يعملون بجد ظانين أنه يراقبهم فلما أكل السوس العصا ، وانكسرت وسقط سليمان على
الأرض ؛ علمت الجن بموته ، وهذا يدل على أن الجن لا يعلمون الغيب ، قال سبحانه وتعالى :
﴿فَلَمَّا قَصَبْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنَّا فَأَسْأَفُوكَ فَمَا خِرَ نَيْبِهِ
لِالْجِنِّ أَنْ لَوْ كَانُوا بِمَآئِمِنَ الْعَيْبِ مَا يُنْشَئُوا فِي الْعَذَابِ الْمُبِينِ﴾ [سأ ١٤]

جنود سليمان عليه السلام

يقول سبحانه وتعالى ﴿وَحِشْرَ لَسُلَيْمَانَ جُودُودٍ مِنَ الْجِيِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوعُونَ﴾
[النمل : ١٧] ، ما داموا تحشروا فمعنى ذلك أنهم مجمعون من كل مكان .

معنى قوله ﴿يُوعُونَ﴾ أى يمعنون ، ويروى : إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .
أى أن السلطان يمكنه أن يمنع الفساد بسلطته وقوته أكثر مما يمنع الدعاء بحظيهم ومواعظهم ؛
لأنهم يستطيعون عذاب الله وعقابه لأنه أجل فى الآخرة ، ويخشون عقاب السلطان ؛ لأنه
عاجل فى الدنيا ولذلك الأنبياء الملوك مثل داود وسليمان لم يعارضهم أحد ؛ لأن السلطان
والقوة كان فى أيديهم .

إذن .. ﴿يُوعُونَ﴾ هنا أى يمنع من يذهب منهم للقاء سليمان حتى يأتى بالقون ،
ويحضر المتحلفون فلا يهوز أحد بلفائه دون غيره حتى يحدث توازن بين الرعية . ولذلك كان
من صفاته ﷺ أنه كان إذا جلس فى مجلس تورعت نظراته وعيناه على كل الجالسين ؛ حتى
لا يعلم أحد أنه ينظر لأحد أكثر منه ، فلا يتميز أحد على أحد ، حتى فى نظرة السى ﷺ ، كما

كان لا يُقَرَّب منه إلا أهل الفضل ، الذين يعلم أن تقربه لهم لا يعطيهم بسط سلطة على الناس
فكلمة ﴿ثَوْرَعُونَ﴾ أى يمنعون ، فيمتنع السابق أن يسبق حتى يأتى اللاحق ؛ ليكونوا
سواسية فى الدخول على سليمان عليه السلام .
وفى آية أخرى يقول سليمان عليه السلام ﴿رَبِّ أَوْرِعْهُ أَنْ أَشْكُرَ بِفِعْلِكَ آلَئِنْ أَفْعَمْتَ عَلَى
وَعَلَى وَلَدَيْكَ﴾ [النمل : ١٩] .

فهذا معنى ﴿أَوْرِعْهُ﴾ أى أجبى على شكر نعمتك ، ولما كان ﴿أَوْرِعْهُ﴾ معاها
امعنى ، فمعنى الآية إذن يكون : رب امعنى عن الغفلة عن نعمتك لأظل شاكرًا لك .

ما الذى حدث فى وادى النمل ؟

قال تعالى : ﴿حَقَّقْ إِدَا أَوْرَا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَتَأْتِيهَا النَّمْلُ أَذْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا
يُحِطُّكُمْ مُلْكُهُمْ وَجُودُهُمْ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل : ١٨] .
قول الله تعالى : ﴿حَقَّقْ إِدَا أَوْرَا عَلَى وَادِ النَّمْلِ﴾ ؛ يدل على أنهم جاءوا بهذا الوادى من
أعلى الجبل ، وهذا ما تفيد كلمة ﴿عَلَى﴾ .

والمعنى أنه لما مر سليمان بالوادى سمع تحذير النملة لقومها بأن يدخلوا مساكنهم ؛ خشية
أن يحطمهم سليمان وجوده دون أن يشعروا بهم ، وهذا يفيد أن هناك نملة كانت موكلة
بمراقبة حركة المرور من وإلى وادى النمل وهذه مهمتها ؛ لأن النمل أمة منظمة وكل فرد له
مهمة .

وهذه المخلوقات أتم مثلاً لها بنظام حياة ، ولعة ، ومعيشة ، وتخطيط . إلخ ، وصدق الحق
سبحانه إذ يقول : ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلْمٍ يُعْطَى بِحَاجَتِهِ إِلَّا أُمٌّ آمَنُ الْإِنْسَانِ﴾ [الأعنام
: ٣٨] .

الحق سبحانه سعى لعة النملة قولاً ؛ ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ ؛ النملة التى قالت وحلرت النمل ،
أين رأت سليمان وجوده ومتى اكتشفتهم ؟ لا بد أنها رأته قبل أن يأتى إلى وادى النمل ؛ حتى
تستطيع أن تحذرهم وتنبههم قبل وصوله إليهم ؛ حتى لا يحطمهم هو وجوده دون أن يشعر
بهم لضآلة أجسامهم .

وقول الله تعالى : ﴿مَسَمَّ صَاحِبًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْرِعْهُ أَنْ أَشْكُرَ بِفِعْلِكَ آلَئِنْ أَفْعَمْتَ عَلَى
وَعَلَى وَلَدَيْكَ﴾ [النمل : ١٩] .

أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيْكَ ﴿[الزل ١٩]﴾. يدل على أنه سمعها ، فالسملة رأته قبل أن يوجد المرتضى ، وسليمان سمع قبل أن يصل إلى وادي الزل ؛ سليمان عليه السلام تبسم صاحبا ، أى بدأ بالبسملة التي قد تصل إلى الضحك ، وشعر بفضل الله الذي أنعم عليه هذه النعمة ، قال تعالى : ﴿فَلْيَسِّرْ صَاحِبَاكَ مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَرْضِيَّ أَنْ أَشْكُرَ يَمَنَّتْكَ إِلَيَّ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيْكَ وَأَنْ أَتَمَلَّ صَدِيقًا نَزَحْتُهُ وَأَذْخُلِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [الزل ١٩] ؛ أى يارب لا تجعلني أسئ ففعلك عليّ ؛ حتى أظل شاكرا حامدا لك ؛ لأن هذا نعمة فوق ما أنعمت به علي عامة الخلق ، ونعمة فوق ما أنعمت به علي من سبقني من الأنبياء .

سليمان سمع قول السملة قبل أن يصل إلى وادي الزل ، فكيف حدث ذلك ؟ بعض العلماء يقولون : إن الريح نقلت له الصوت . ونحن نقول : إن هذا تفسير ميكانيكي ، والمسألة ليست ميكانيكية ، ولكنها عمل رب قادر على كل شيء ؛ السملة لما قالت : ﴿يَكُونُهَا كَتَمَلٍ أَدْخُلُوا مَنَازِلَكُمْ﴾ . هذا يفيد أن لهم مجال معيشة يبحثون فيه عن رزقهم ، ولهم مساكن يأرون إليها ويريحون فيها بعد جمع قوتهم - من فضلات الحلوى والطعام التي تقع على الأرض من الإنسان - فهذا المكان الذي فيه رزقهم يتجمع فيه الزل .

ومعنى ﴿لَا يَحْطَمَنَّكُمْ﴾ : الحطيم هو الكسر ؛ ولذلك يقول ربنا عز وجل : ﴿كَلَّا لَيَنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾ [الهمزة ٤ ، ٥] .

فسليمان عليه السلام ضحك بسبب ثلاثة أشياء :

أولاً : لأنه سمعها عن بعد ، والسملة عرفت أنه سليمان قبل أن تراه .

ثانياً : لعذالة حكمها ؛ لأنها قالت لقومها : إن سليمان ليس متجبرا حتى يحطمكم هو وجنوده ، ولكنهم لن يروكم لدقة أجسامكم .

ثالثاً : لأنها شهدت بحق .

فهذه النملة رأته عن بُعد ، ونطقت بحق ، وحكمت بعدل ، وعلى ذلك فأى إنسان يرى نعمة من نعم الله تطرأ عليه ، يجب عليه أولاً أن يحمد الله عليها .

وقوله : ﴿وَأَذْخُلِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ ؛ وكأن الفضل والرحمة من الله هما اللذان يفرح بهما الإنسان ؛ لأنهما اللذان سيدخلانه في عباد الله الصالحين ؛ ولذلك قال

رسول الله ﷺ : « لن يُدْجِلَ أحدًا معكم عمله الجنة » قالوا : « ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه بمفضل ورحمة » . وذلك قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ يَفْعَلُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ فِيمَا يَشَاءُ قُلْ لَيْسَ رَحْمَتِي كَرِيمٌ ﴾ [يونس ٥٨] ، فإياك أن تعتز أو تفرح بمملك ولكن افرح بفصل الله وارج رحمته .

لمحة عن هدهد سليمان عليه السلام

يقول الله تعالى : ﴿ وَتَقَعَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدَّ هَذَا أَمْ كَأَن مِّنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [النمل ٢٠] ، مادة فقد ، الفاء ، والقاف ، والdal ؛ إما أن تكون فقد بمعنى ضاع ، فتقول . فقدت الشيء ؛ أى : ضاع منى ، وإما تعقدته ، فمعناه : أنه لم يضع ولكنك تبحث عنه فى مظانه . والتفقد هو : بحث عن شيء فى الأماكن التى تتوقعه فيها

وقول الله تعالى : ﴿ وَتَقَعَّدَ الطَّيْرَ ﴾ . يدل على أن الرئيس ، أو للئيس على شيء لا بد له من المتابعة ، فساعة أن يجلس فى مجلس القضاء أو مجلس العلم أو أى مجلس كان ؛ لا بد وأن ينظر ليتفقد المجلس ، والتفقد من سليمان عليه السلام يدل على المتابعة ، وكان محتاجا لهدهد ، فيبحث عنه فلم يجده ، لأن سليمان كان يريد أن يقوم برحلة فى الصحراء ، والهدهد خبير فى منابع المياه فى الأرض ، فهو يرى الماء فى الأرض ؛ ولذلك جعل الله له متقاربا طويلا ؛ لأن ميزته أنه يأكل أى شيء على سطح الأرض ، بل يأكل مما احتبأ تحت سطح الأرض .

لذلك لما تكلم عنه بلقيس وقومها الذين كانوا يعبدون الشمس ، استعجب من أمرهم وقال : ﴿ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى يَخْرِجُ الْحَبَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ . لأن رزقه من هذا الشيء الخبوء فى الأرض .

وقول سليمان : ﴿ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدَّ هَذَا أَمْ كَأَن مِّنَ الْكَافِرِينَ ﴾ ساعة يستفهم واحد عن شيء جوابه عند نفسه لا يكون هذا استفهاما ؛ لأنه يقول : ﴿ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدَّ هَذَا ﴾ . كأنه قد استبعد أولا أن أحدا يتخلف عن مجلسه ، فهو استفهم أولا ثم يقن أنه غائب ، فقال : ﴿ أَمْ كَأَن مِّنَ الْكَافِرِينَ ﴾ وما دام كان من العائين ، لا بد له من اجراء ؛ لأن أى مخالفة لا تقابل بجراء تثمر مخالفات متعددة .

والهدهد لما كان غيابه بدون إذن من سليمان ، قال سليمان : ﴿ لَا عَذَابَ عَظِيمًا ﴾

أَوْ لَا أَنْبَحَهُ أَوْ لَا يُنَبِّئُ بِسُطُورِ مُبِيرٍ» [النمل ٢١] - هذا ليس جبروتاً من سليمان ولكنه خزم، ومع ذلك خلق أمر العقوبة على حجة الهدد، مما يستخلص منه أن المرموس إن رأى خيراً يخدم فكرة رئيسه ويخدم الفكر العام، وكان الوقت صيقاً لا ينتظر حتى يأخذ الإذن أو الأمر، بل يصرف ثم يخبر رئيسه بها.

العلماء بحثوا في العذاب الشديد الذي توعد سليمان به الهدد، فقالوا: إن الهدد يتمير ويتفاخر على بانى الطيور بأن شكله جميل - ألوانه المخططة، وعرفه، ومنفاره الطويل، والتاج الذى فوق رأسه، فقال سليمان - هذا الريش الذى يتخايل به الهدد سائفه، وألقيه إلى السمل والحشرات. أو أن العذاب الشديد للهدد أن يرميه سليمان؛ ليعيش مع غير بنى جتسه من الطيور الأخرى، وهذا عذاب شديد له؛ لأنه لن يكون له إلف بحركتهم أو نظامهم أو التعامل معهم، فيكون غريباً طريئاً بينهم، ومن العذاب أيضاً أن يجعله يخدم أقرانه من الهداهد الأخرى، أو يجمعه مع أضداده؛ لأن هناك بعض الطيور يضاد بعضها بعضاً، ساعة يرى طائر مائزاً، من أضداده يتشاجر معه، وتقوم بينهم معركة، ولذلك يقولون: «أصيق من السحن عشرة الأضداد». ومعنى: ﴿فَقَالَ﴾ أى أنه كلم سليمان قبل أن يهره، وقال له بكل ثقة: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ﴾. انظروا سليمان الذى كان عنده كل هذا الملك الذى لم يؤته أحد، وحوله كل هذا الصولجان يقول له هدهد ضعيف: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾. فكيف يجرؤ على أن يقول ذلك لسليمان النبى الملك؟ ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ﴾. تعبير قرأى جميل يسموه فى اللغة الجناس، والجناس أن تأتى بلفظين متشابهين فى المعنى ومختلفين فى المعنى، والتبأ هو الخبر المجيب وليس الخبر العادى؛ يقول تعالى ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ١١ عَنِ النَّبِىِّ الْعَظِيمِ [النبا ١، ٢] -

فلا يقال: بيا، إلا إذا كان الخبر هاماً وعجيباً. ومسألة بلقيس وعرشها وقومها الذين يسجدون للشمس خير هام جداً، هو قال: وجئتك من سبأ بخبر؛ لا يرمى بالمعنى المطلوب ولا يناسب أهمية الحدث.

ومعنى: ﴿أَحَطْتُ﴾ الإحاطة معاً إدراك المعلوم من كل جوانبه، فالحيط يحيط بالمركز إحاطة مستوية من كل نقطة بأصاف الأقطار، وهى إحاطة تامة

ولكن هل قول الهدد لسليمان : ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ . هل هذا نقص في سليمان لأنه لا يعرفها ؟ لا ، بل هذا تكريم لسليمان ؛ لأن الله سحر له ناسا يخدمونه في كل ناحية ، وفرق بين أن تفعل أنت الشيء لذاتك ، وبين أن تفعل لك . فمضى أن يفعل لك فهدد سيادة أخرى وتكريم كبير ، ولأجل أن يعلمنا الله سبحانه وتعالى أننا لا نكتف مواهب الثابفين ونعطى لهم مجالا أن يقولوا رأيهم ويأخذوا فرصتهم ويبرروا مواهبهم لأن هذه خدمة لك أنت أيها الرئيس أو المسفون ؛ ولصالحك ، ولأن سليمان لم يسأل الهدد عن سبأ ، فمضى هذا أنها كانت معروفة أو سمعوا عنها ، ولكنه لا يعرف التفاصيل التي عرفها الهدد . ولكن ما هذا البيا الخطير الذي عرفه الهدد عن سبأ ؟

نبأ عظيم جاء به الهدد

قال تعالى موضعا : ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَبْلُغُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَقٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل : ٢٣] .

﴿تَبْلُغُهُمْ﴾ أى : تحكمهم ، ومعنى : ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَقٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ أى مما يؤتاه أقرانها من الملوك ، وليس مثل الذى أوتي سليمان ﷺ ، لأن هذا شيء آخر . والعرش هو مكان جلوس الملك وكان عادة يتمشى مع عظمة الملك

والهدد أخبر سليمان ﷺ بقوله : ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَبْلُغُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَقٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ هذا فيما يتعلق بالملك ؛ لأن نبي الله سليمان كان ملكا نبيا ، وذكر له الأشياء التي رآها وتعلق بالملك ؛ وفيما يتعلق بالعقيدة التي تهم سليمان - لأنه نبي أخبره بقوله عن ملكة سبأ : ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [النمل : ٢٤] .

فكان الهدد يعرف قضية العقيدة وقضية الإيمان ، وأن الخلق لا يجب ولا يصح أن يعبدوا إلا الله ؛ ولذلك يقول إنه وجدها وقومها يعبدون الشمس من دون الله ، ولماذا لا يعبدون الله الذى يخرج الخبء فى الأرض ؟ كيف لا يعبدون النعم عليهم بكل النعم ؟

إذن .. هنا نعلم سر الحق فى قوله تعالى : ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ إِلَّا يَسْحُوحٌ يَجْهَرُونَ وَلَكِنْ لَا تَعْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء : ٤٤]

انظروا إلى كلام الهدد وعقيدته ووعظه الجميل فى قوله تعالى : ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا

يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنَ دُونِ اللَّهِ فَرَيْنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَصْنَفَهُمْ فَصَدَّ عَنْهُمْ سَبِيلَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ [النمل . ٢٤] .

والذى أحزن الهدهد أنهم يسجدون للشمس من دون الله ؛ ولذلك قال مستكبرا فيعلمهم : ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْغَبَّ فِي السَّانَاتِ وَالْأَرْصِ﴾ .

والهدهد حلال طيرانه فى قصر بلقيس رأى كورة أر طاقة تدخل منها الشمس ، وهى منية بشكل هندسى بحيث تدخل منها الشمس كل يوم بعد شروقها ، فتنبه بلقيس وتستقبلها بالسجود ؛ ولذلك حيسا ذهب الهدهد بكتاب سليمان إليهم ، وقف فى الطاقة وسدها بجناحيه ، فانتظرت بلقيس دخول شعاع الشمس وارتفعاعها ، فصعدت إلى الطاقة لترى ما بها ، فطار الهدهد وألقى كتاب سليمان العظيم ، فأخذته بلقيس .

إذن .. الهدهد يستغرب أن يسجد هؤلاء القوم للشمس ، ولا يسجدون لله الخالق الرازق الذى يخرج لهم رزقهم ، ويعلم سرهم وجههم .

ثم يقول سبحانه . ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل . ٢٦] .

فالله هو المستحق للعبادة وحده ، وهو رب العرش العظيم ، قلنا إن عظمة عرش بلقيس ، وعروش ملوك الدنيا كلها هى على قدر عظمة البشر وقدرتهم ، ولكن عظمة عرش الله على قدر عظيمته وقدرته سبحانه .

سليمان لم يأخذ كلام الهدهد حجة مسلمة ، ولكنه أراد أن يتأكد فقال . ﴿سَنْظُرُ أَصَدَقَتْ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النمل . ٢٧] .

النظر محل العير ، والصدق والكذب لا يعرفان بالعين ، ولكن كلمة النظر هنا انتقلت من العير إلى معنى العلم بالحجة ؛ ولذلك مى التوقيع على كثير من الأوراق يقول «نظر» والناس يقولون : هذه مسألة فيها نظر . أى أنها لا تمر مرور الكرام ، بل لابد من بحثها والتأكد منها . ولذلك قال سليمان : ﴿سَنْظُرُ أَصَدَقَتْ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ . مع أن المقابل لكلمة صدقت هو كذبت ، ولكن سليمان لم يقل للهدهد ستنظر أصدقت أم كذبت ، ولكن قال : ﴿سَنْظُرُ أَصَدَقَتْ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ . وهذا لطف وترفق من الحاكم برعيته ؛ لأن معنى : ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ . أى حتى إن كذبت فأنت لم تكذب وحدك ، ولكنك ستكون

ضمن كثير من الكاذبين ؛ لأن كثيرا من الناس يكذبون ، أو أنه من الكاذبين ميلا لهم أو قرينا لهم ، وهذا يدل على أن الإلهامات سليمان كنى جعلته يعرف أنه صادق ، ولكنه أراد أن يتأكد ؛ حتى لا يجهل جنديا من جنوده .

ثم يقول بعد ذلك : ﴿ أَذْهَبَ يَكْنِي هَكَذَا فَالِقَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ قَوْلَ عَلَيْهِمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ [النمل : ٢٨] هذا معناه أن سليمان فكر في الأمر ، وقال : يكتب لها كتابا وترسله مع الهدد ؛ حتى يتأكد من الرد ويعرف أبعاد الموقف .

ومعنى : ﴿ ثُمَّ قَوْلَ عَلَيْهِمْ ﴾ أى أبعد عنهم قليلا وانظر ماذا يفعلون ؛ لأنهم سيراجعون بعضهم البعض ؛ لأن معنى : ﴿ يَرْجِعُونَ ﴾ أى يراجع بعضهم بعضا .

رسالة سليمان إلى بلقيس ملكة سبا

يقول تعالى : ﴿ قَالَتْ يَأْتِيَ الْهَؤُلَاءُ إِلَيَّ الْغَيْبُ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل : ٢٩] ، الهدد أحد الكتاب وطار إلى سبا ، وذهب إلى بلقيس ، وألقى إليها الكتاب ، فلما قرأته ؛ ﴿ قَالَتْ يَأْتِيَ الْهَؤُلَاءُ إِلَيَّ الْغَيْبُ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ولكن القرآن لم يذكر هذا كله ؛ للدلالة على أن أوامر سليمان ﷺ أوامر محمولة بالتفديد العاجل ؛ ولذلك وصلت إجابة بلقيس فى الكلام الذى أمر به الهدد مباشرة ، دون ذكر لما حدث من الهدد بعد صدور الأمر إليه ، وكان الهدد بعد صدور الأمر إليه نفذ الأمر بمنتهى السرعة ، فوجدنا كلام بلقيس إلى قومها بعد أن تلقت كتاب سليمان ﷺ . والملا هم أعيان القوم وأشرافهم والمستشارون عند الملكة - بلقيس - ووصفت كتاب سليمان بأنه : ﴿ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ فهل كانت تسمع عن سليمان ؟ أم لأن الخطاب يهرها بحظه الجميل وورقه الراقى وختمه العريب .

وبعد ذلك قالت ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِرِسْوَةِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ① أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَى وَأَتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل : ٣٠ ، ٣١] .

وهذا يدل على أنها كانت تعرف حكاية سليمان وأنه ملك ونبي .. إلخ ، وانظروا إلى كتاب سليمان وإيجاره الشديد حيث يقول : ﴿ إِنَّمَا أَمْرٌ أَكْثَرُ الرَّحْمَنِ ② أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَى وَأَتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ . فنص الخطاب عبارة عن برفية موجرة كلمة ﴿ تَعْلَمُونَ ﴾ أى : تعطرسون وتظنون أنفسكم موكبا ، وتزهون بما عندكم من ملك ولا تستجيبون لدعوتى ،

فإياكم وهذا تعالى والتكبر؛ مثلما نقول: «هى كلمة واحدة». بلفظ جيسا ألقى إليها الخطاب وفرائه، جمعت الملأ وقالت لهم: لقد وصلى كتاب من سليمان وبصه كذا وكذا، وبعد ذلك طلبت مشورتهم وأن يمشروا عليها بما تفعل فقالت: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَتُمْنُونِ فِي أَمْرِى مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرَ حَقِّ تَشْهَدُونَ﴾ [النمل: ٣٢].

معنى: ﴿أَتُمْنُونِ﴾ أى: أعطوي قوة فى الحكم الذى تصدرونه، هى سألتهم أن يفتوها فى أمرها، مع أن الأمر ليس أمرها وحدها، ولكنه أمرهم جميعًا، ولكن المقصود بقولها أن هذا الأمر فىل أن يحدث الرعية سيخاضها هى أولاً.

وقولها: ﴿مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرَ حَقِّ تَشْهَدُونَ﴾. أى لا أبك فى أمر ﴿حَقِّ تَشْهَدُونَ﴾ أى تحضرون عندي، وهذا يدل على أنها رعم مالها من سيطرة وهيمه وسلطان، إلا أنها شاورت الملأ وأرادت أن تسمع رأيهم فى هذا الأمر.

قال تعالى: ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْنَا فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل: ٣٣].

أى نحن أصحاب قوة وعدنا شجاعة وعدنا بأس، وعدنا كبير وعدنا عدد وآلات وجيش قوى، وهذه كلها مظاهر قوة، فإن كنت تريدن الدخول مع سليمان فى حرب فنحن جاهزون، ونحن لا نقول هذا للدفعك إلى الحرب، ولكن الأمر والرأى الأخير لك.

ولكن المرأة كانت عاقبة فلم تعتر بالقوة، وحدثت قومها من دمار الحرب وأثارها، فردت عليهم بقول الله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤].

لأن الذى جاء ليأخذ الملك يريد أن يأخذ المالكين، ويهيب كل ما عندهم، لأنه ساعة يصل إلى مكان القوم لا يضمن أن ينتصر عليهم، فيحرب ما يستطيع تخريبه من ممتلكاتهم، ولا يحافظ على شىء إلا بعد أن يضمن استقرار الأمور له.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾. كلام صحيح؛ لأنك إذا نظرت إلى أى حاكم يستولى على الحكم بعد حاكم آخر، أو أى نظام يحلف نظامًا فى الحكم، تجد الانتقام يكون من الحكام السابقين، والصاق شتى التهم بهم من فساد وغيره؛ لأن الحكم الجديد قام

على أنفاسهم ، وبين النظامين لَدَد وخصومة .

وقوله : ﴿وَكَذَلِكَ يَقُومُونَ﴾ وهذا الكلام من الله تعالى تأييداً لكلام بلقيس ، فهي قالت رأيها والحق سبحانه وتعالى أبدها فيه ، أي أنها صادقة في هذا ، مما يدل على أن الحق سبحانه وتعالى - رب الخلق أجمعين - إذا سمع من عبد من عبيده كلمة حق يؤيده فيها ، كما ترك اللأ القرار الأخير للملكة ؛ لتفعل ما تراه مناسباً ، بدأ عقبها وقطعتها يعملان ، فقالت : إن كان ملكك سيظلم في حبرنا ، وإن كان بيننا من يأبه بهذا الخير ، فأنا سأرسل إليه بهدية .

عده الهدية تناسب سليمان وبقيس معاً ، فهو ملك وهى ملكة ، فلا بد أن تكون الهدية ثمينة جداً ؛ حتى تأخذ بلب سليمان ، وحتى تثبت له أنها على جانب كبير من الثراء والعى والترف ، فقالت لقومها : أنا سأرسل إليه بهدية ، فإن كان من أهل الملك والدينا سيقبل الهدية ، فنعرف أنه يريد بعض الخراج والمال ، وإن رد الهدية فهو بى لا يظلم فى شيء مما فى أبدىها ؛ قال تعالى على لسانها : ﴿وَأِنِّى مَرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَاِظْرَرْهُمْ يَوْمَ يُرْجَعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل : ٢٥] .

أى سنرى كيف يقابلهم وماذا يقول لهم ؟ وهذا رأى جميل منها ، ودليل على حصافتها وذكايتها ، مما جعل القوم يفوضونها فى تسيير أمور مملكتهم . ﴿وَالْمُرْسَلُونَ﴾ هم الذين أرسلتهم بالهدية إلى سليمان ﷺ .

الله اعطى سليمان سرّاً من علم الكتاب

ثم يقول الله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ عَلَىٰ مَاءِ مَسِينَا فَقَالَ اتَّبِعُونِي يَزِيدُكُمْ مِّنْ مَّا تَأْتُونَ بِنَارٍ﴾ [النمل : ١٦] .

أى : لما جاء الرسول سليمان بالهدية ، قال له سليمان . لست بحاجة إلى مالكم ؛ لأن الله أعطانى حبراً مما عندكم ، وقوله لهم ﴿يَزِيدُكُمْ مِّنْ مَّا تَأْتُونَ بِنَارٍ﴾ . يصحح أن يكون معنى قوله : إنكم أناس تفرحون بأنكم قدمتم هدية لى لتأسرونى بها . أو أن معناه إنهم يفرحون حين تأتيهم هدية من أحد ، فكلاهما صحيح ، أو أنا رددت الهدية وسرّج لكم وستفرحون برجوعها . هذه ثلاث معان ، فأتم بهدية منكم لى تفرحون حين تأتيكم هدية ، أو أننى حين أرد الهدية لكم ستفرحون برجوعها إليكم .

ثم قال لرسول بلقيس في هجة حاسمة : ﴿ أَتَرْجِعُ إِلَيْهِمْ فَلَسَأَلِسْتَهُمْ بِمُحْشَرٍ لَا يَكِلَ لَكُمْ بَيْتًا وَلَمْ يُخْرِجَهُمْ مِنْهَا أُولَئِكَ وَهُمْ صَائِرُونَ ﴾ [النمل : ٢٧] .

كلامه هنا يكشف كلامها الذي قالت لقومها ؛ فهي قد قالت : ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أُولَئِكَ ﴾ . فكانه من مطلق النبوة يرد عليها وعلى كلامها بالحرف .

ومعنى ﴿ لَا يَكِلَ لَكُمْ بَيْتًا ﴾ القيل : هو المقابل ، أى لا يستطيع مقابلة هذا الأمر أو مواجهته ، أو أنهم أضعف من أن يواجهوا هذا الأمر .

ومعنى : ﴿ أُولَئِكَ وَهُمْ صَائِرُونَ ﴾ أى يخرجهم من الملك و أولئِكَ ؛ لأنهم كانوا ملوكًا ، وسلب منهم الملك فصاروا أذلة ، والصغار يكون بالأسر أو القتل .

ثم التفت سليمان حوله وقال : ﴿ بَنَاتِ الْمُلُوكِ آتِيْنِي بِعَرْشِي قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل : ٢٨] .

هذه أيضًا من إلهامات النبوة ، فكان الله أعلمه أن القوم يعد أن رد إليهم هديتهم ، سيأتونه مسلمين طائعين ولن يحاربوه ، فكانه قد علم أنهم سيأتون إليه ، فأراد أن يرسل من يذهب إلى سبأ ، ويأتيه بعرش بلقيس قبل أن يصل القوم إليه ، ولأن هذا الأمر صعب التحقيق ويطلب فترات خاصة .

وقيل إن الذى تكلم عفريت من الجن ، قال : ﴿ أَنَا عَلَيْكَ بِدءٍ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَرَئِي قَبْلِي لَقَوِيَّ أَمِينٌ ﴾ [النمل : ٢٩] .

وقوله : ﴿ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ ﴾ . هذه كلمة مجملة ؛ لأن مقام سليمان فى مجلسه بهم للحكم والعلم ومدرسة الأمور ، مقام طويل قد يستمر ساعات ، والذى يحدد هذا المقام مدة الإقامة التى كان يجلسها معهم ، من أجل هذه الأمور ، ومعنى هذا أن العفريت سيأتيه بعرش بلقيس قبل أن يترك مجلسه هذا ، أى أنه لن يتأخر به جلسة أخرى .

هذا القرآن لم يخبرنا أن أحدًا آخر تكلم فى هذا الموضوع إلا بالوصف حيث قال تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ جُودٌ مِنْ أَلَيْكَ أَنَا عَلَيْكَ بِدءٍ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ [النمل : ٤٠] .

أنت لو حسبت المدة التى يستغرقها هذا الكلام : ﴿ أَنَا عَلَيْكَ بِدءٍ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ

طَرَفُكَ ﴿٤٠﴾ تجد أن طرفك اريد خلالها مرتين أو ثلاثاً ، فالعفريت من الجن طلب إعطائه مدة من الوقت ، هي مدة بقاء سليمان في مجلسه ، وليكن ساعة أو ساعتين أو أكثر ، لكن أن يأتي به قبل أن يرتد إليه طرفه ، فهذه سرعة خارقة !!! لأن الطرف يرتد بسرعة ، وبذلك لم يقل القرآن هذهب الذي عنده علم من الكتاب فجاء بالعرش ، ولكن جاء بالخبر مباشرة في قول الله تعالى : ﴿قَالَ أَلَيْسَ عِندَ عِلْمٍ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرَفُكَ فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ . وهذا دليل على السرعة الفائقة .

بعض العلماء قالوا : إن هذا الرجل هو أصعب من برغيا ، وكان رجلاً صالحاً أعطاه الله من أسرار قوته .

وقال آخرون : الذي عنده علم من الكتاب هو سليمان نفسه ، فكان العفريت لما قال له : ﴿أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ قال له هو : ﴿أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرَفُكَ﴾ . فهو إذن سليمان ، لماذا ؟ قالوا لأنه لو كان هذا الرجل واحداً غير سليمان ، فمعنى هذا أن له تفوقاً في معرفة الكتاب قبل سليمان .

ورد بعض العلماء على ذلك بقولهم : إن هذه عظمة لسليمان ؛ لأنه فوق من يعرف هذا العلم ، والمرايا لا تقتضى إلا فضيلة ؛ لأن هذا الرجل مع ما عنده من علم بأسرار الكون سخره الله لخدمة سليمان .

وبس بالضرورة أن يكون الرجل العظيم عارفاً بكل شيء ، فلا يمكن أن نطلب من الملك أن يكون ماهراً في بعض ما يجيده الصبيبة في الصناعات اليدوية مثلاً . فمن عظمة سليمان أن الله سحر له كل هؤلاء .

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَتْلُوَنَ ءَأَشْكُرَ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل ٤٠] .

وما دام سليمان قال : ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ . فهذا يدل على شيئين لا ثالث لهما : إما أن الله سخر له أحداً فجاءه بالعرش ، أو أن الله أعطاه علماً من الكتاب فجاء به ، وإن كانت هذه أو تلك ففضل من الله عليه بإعطائه هذا العلم له أو لأحد من أتباعه .

ومعنى ﴿لِيَتْلُوَنَ﴾ . الابتلاء هو الاختبار ، والاختبار ليس مذموماً لذاته ، ولكنه يدم

لعيجه والذي يسبح فيه يكون سعيداً ، وإن فشل يكون حزيناً ، ولذلك سليمان ذكر التيجتين معاً فقال : ﴿ يَسْلَوْنَ ءَأَشْكُرْ أَمْ أَكْفُرْ ﴾ . فالشكر معناه : أنه ذكر النعم ولم يلهه جمال النعمة عن جلال الواهب ، وأما كفر النعمة ، أن يقول الإنسان . هذا من ذكائي وجهدي . وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ شَكَرْ فَإِنَّمَا يَنْتَكِرْ لِنَفْسِهِ ﴾ أى أن الله لا يحتاج إلى شكرنا ، فشكرك لا يزيد بى صفات الله صفة كمال .

كذلك الذى يكفر النعمة ولا يشكر الله عليها فإن الله ﴿ عَنِ كَرِيمٍ ﴾ أى غنى عن الشكر ، وكرم يعطى بغير حساب .

سليمان عليه السلام يختبر ذكاء بلقيس

ولما جاء العرش واستقر عند سليمان أمر ينصبه ونجهزه ، لأن بلقيس قادمة إليه فى الطريق ، وهو يريد أن يختبرها اختباراً عقلياً واختباراً إيمانياً ، فأمر بأن ينكروا عرشها ، فقال لهم : ﴿ نَكِرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَنْهَدَى أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل ٤١] .

كلمة : ﴿ نَكِرُوا ﴾ عكس عرّفوا ، فعرشها جاء عسى هيته كما كان فى سبأ ، فلو أنها جاءت ورائته كما هو متعارفه بسهولة ، ولا يعرف سليمان ذكاءها فى الجواب ، فأمرهم أن ينكروا لها العرش ، بأن يعبروا بعض معاملة

وقوله : ﴿ نَنْظُرْ أَتَنْهَدَى أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ . إن كان المقصود به الهداية الإيمانية فهو أن تهتدى إلى الإسلام ، وإن كان عقلياً بأن تهتدى إلى الجواب الصحيح . وحسباً سألها حاول أن يعنى عليها فى السؤال فقال لها : ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُكَ ﴾ [النمل ٤٢] . فكأنه يقول لها : إن هذا ليس عرشك ، ولكنه قال : هل عرشك مثل هذا ؟ فهو يريد أن يختبرها فصعب عليها السؤال فماذا قالت ؟ نظرت إلى العرش فوجدته مثل عرشها ، ولكن التكير الذى حدث له يدل على أنه ليس عرشها ، فجاءت بجواب يحتمل الحالتين معاً فماذا قالت ؟ قالت : ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ . فعرف سليمان من هذه الإجابة أنها ذكية وحصيفة وعاقلة . هذا بالنسبة لهداية الإيمان ، فهى لكى تعلم أنها تركت عرشها هناك فى بلادها وجاءت إلى سليمان ، فكيف جاء سليمان بالعرش بهذه السرعة مع أنها تركته حلمها ؟ ! فلا بد أن هذه قدرة فوق مستوى البشر .

وقول سليمان : ﴿ تَكْرُؤًا لَّمَّا عَرَسَهَا نَظَرْنَا أُنْهَدَى ﴾ أى أنهتدى إلى جواب يجمع الأمرين فى المنكر - وهو عرشها - أو تهتدى إلى أن الذى صبح ذلك إنما يكون مؤيدًا من الله بأسرار الكتاب ؛ فنقل العرش بهذه السرعة هزمن .

وتول الله تعالى : ﴿ وَأَوْنِيَا أَلْهَمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ . إن كان هذا الكلام تكمة كلام بقرس ، فمعناه أنها أوتيت العلم قبل هذه الحادثة ، وعلمت أنه نبي خاصة بعد أن رد الهدية الشمية ، وقال لهم : ﴿ بَلْ أَنْتُمْ يَهْدِيكُمْ لَقَرْحُونَ ﴾ . إلى آخر هذه المواقف ، فكأنها تقول له نحن عرفنا قبل هذه الحادثة أنك نبي وأسلمنا . أو أن الكلام كلام سليمان ﷺ .

إسلام بلقيس مع سليمان لله رب العالمين

ثم يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَصَّاهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ [النمل ٤٣] . أى أن سليمان بما صبح من أحداث صدها عما كانت تعبد من دونه ؛ لأنها كانت من قوم كافرين .

وقوله تعالى : ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ ﴾ [النمل ٤٤] . الصرح إما أن يكون القصر المشيد ، وإما أن يكون البهو الكبير الذى يجلس فيه الملك ، وإما أن يكون مثل إيوان الأكاسرة مثلاً ، لما جاءت لتدخل الصرح وجدت أمامها ماء فيه سمك ، فظنت ذلك ماء يريد سليمان أن يفرقها فيه ، فرفعت ثيابها وكشفت عن ساقها ، فمعنى ذلك أنها فهمت أن هذا ماء ؛ لأن سليمان كان قد بناه من زجاج مثل الكرستال ، ووضع تحته ماء وأسماكاً فهي ظنته ماء فشمرت ثوبها ؛ حتى لا يتل فقال سليمان . ادخلى فهذا صرح ممد من الزجاج ، فماذا كان ردها ؟ ﴿ قَالَتْ رَبِّ انِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ إِلَى رَبِّي أَلْمِينَ ﴾ [النمل ٤٤] ظلمت نفسها فى ماذا ؟ الكفر أولاً .

إذن .. فليست هى التى قالت ﴿ وَأَوْنِيَا أَلْهَمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ أو أنها لم تنطق بالكلمة نطقاً صريحاً ، إلا بعد أن دخلت الصرح ، أو أنها ظلمت نفسها فى أنها اتهمت سليمان بأنه يريد أن يفرقها فى الماء ، حينما قال لها : ﴿ ادْخُلِي الصَّرْحَ ﴾ . ومعنى : ﴿ حَسِبَتْهُ لُجَّةً ﴾ أى ظنته لجة ماء ، وكونها كشفت عن ساقها ، هذه عملية قسرية لكل إنسان قد

يُغْرِضُ نَفْسَهُ لِلْسِيرِ فِي الْمَاءِ ، فَأَتَتْ حِينَ سِيرَ فِي الطَّرِيقِ ، وَتَجَدَّ فِيهِ مَاءٌ نَرَفَعَ طَرَفَ ثَوْبِكَ ؛ حَتَّى لَا يَصِيبَهُ بَلَلٌ ، وَبَعْضُ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ الدَّاحِلَةِ فِي كِتَابِ التَّفْسِيرِ تَرَعَّمُ أَنَّ سُلَيْمَانَ صَلَّ هَذِهِ الْعَمَلِيَّةُ ؛ حَتَّى تَكْشِفَ بَلْقَيْسَ عَنْ سَاقِيهَا لِيَرَاهَا ، لِأَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّهَا مَشْعُرَةُ السَّاقِيَيْنِ ، وَهَذَا كَذِبٌ فَلَا يَلِيقُ أَنْ يَقُولَ هَذَا عَنْ نَبِيِّ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ .

حكم داود وسليمان عليهما السلام في قضية الحرث

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٨ ، ٧٩] .

كلمة : ﴿ يَحْكُمَانِ ﴾ تدل على أن هناك خصومة في قضية الحرث ، والحرث هو إثارة تربة الأرض مثلما يحرث الفلاح الأرض ، سقى ربنا الزرع والتمر والخدائق بالحرث ، فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَسَّ فِي الْأَرْضِ لُفْيَسَدٌ فِيهَا وَتُتْلَى لَكَ الْحَرْثُ وَاللَّسْلُ ﴾ [البقرة : ٢٠٥] .

فمعنى : ﴿ وَتُتْلَى لَكَ الْحَرْثُ ﴾ أى يهلك ما نشأ من الحرث من زروع وثمار وفواكه ، يسمى الزروع حرثاً مع أن الحرث هو إعداد الأرض للزرع ، وهذا يوضح لنا أنه لا يمكن زرع إلا بحرث .

وقصة الحرث التي حكم فيها داود وسليمان عليهما السلام ، أن رجلاً عنده زرع ورجل عنده غنم ، فراعى الغنم غفل عن غنمه فهربت إلى الزرع وأكلته ، قام صاحب الزرع فاشتكى لنبي الله داود ، وداود لأول وهلة قال لصاحب الغنم : أعط الغنم لصاحب الأرض وانصرف ، في هذا الوقت كان عمر سليمان أحد عشر عامًا ، فلما تخرج الراعى وصاحب الأرض من عند داود قال لهما ماذا قضى أبى ؟ قالوا له : قضى بأن يأخذ صاحب الأرض الغنم .

وتأويل ذلك : ربما وجد داود أن قيمة الزرع الذي أكلته الغنم ، يساوى قيمة الغنم ، فحكم هذا الحكم .

لما نص الرجلان قصتهما على سليمان لم يقل : هذا ظلم أو جور . ولكن قال هناك حل أرقت فما قال هذا الكلام وبلغ داود أرسل إليه ، وقال له : ما هو الأمر الذي تراه في هذه

القضية ؟ قال له . يعطى الغنم لصاحب الررع ، فيستفيد بلبسها وأصوافها ، وترك صاحب الغنم يزرع الأرض حتى تثمر ، وتصبح كما كنت قبل اعتداء الغنم عليها ، وعدت يأخذ صاحب الغنم غنمه ، ويأخذ صاحب الأرض أرضه .

فربنا هو الذى بهم حل هذه المسألة لسليمان ، وهذا ليس طعنا فى داود ؛ لأن الله أتى كل واحد منهما حكما وعلما .

السحر ومملكة سليمان

قال تعالى . ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُرِیَ عَلَى الْمَلَٰئِكَةِ بِمَا لَمْ يَكُنُوا يَكُونُونَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِصَٰحِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢] .

ولنا أن نلاحظ أن هذه الآية قد نزلت بعد قوله سبحانه وتعالى . ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَأَوْا ظُهُورَهُمْ لَكَاظِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١] .

وهكذا يتضح لنا أن بعضا من بنى إسرائيل قد ترك كتاب الله المصدق لما معهم من التوراة ، ولم يقفوا عند الترك لآيات الحق ، بل اتبعوا ما جاء به الباطل .

إذن .. فالكتاب الذى كان يجب أن يتبعوه تركوه وخالفوه ، والبهتان الذى كان يجب أن يحتسبوه اتبعوه ، وهذا سلوك مخالف لقضية الحق بين الخير والشر .

وقلنا : إن الآية الكريمة تعرضت لأمر قد شاع عند بعض من بنى إسرائيل ، لقد قالوا : إن سليمان إنما صار ملكا وثريا بفضل ما تعلمه من سحر . وهذا قول باطل ، برأ الله سليمان منه فى قوله : ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ . إن سليمان لم يكفر ، إنما تلقى نعمة الله بالبرهان والشكر ، وسخر الله له ما شاء من خلقه تكريما له ، وإرادة الحق فى ذلك لها حكمة بالغة ، ومن حكمته تعالى أن يعطيه ملكا لا ينبغى لأحد من

العالمين ، لقد شأنت إرادة الحق ذلك ؛ ليكون سليمان رسولاً له مكانة في قومه ، [أعني] مكانة تليق بالرمس الذي جاء فيه سليمان .

إن التأمل لعموك الرسالي يجد أن كل رسول قد صادف في قومه المكابرين والمعاندين والكافرين والمتربصين به الدوائر لماذا ؟

لأن الرسول لا ينجى إلا وقد استشرى الشر ، وما دام الشر قد استشرى ، فلا بد أن للشر قوماً ينتفعون به ، وحين يأتي رسول لينهي سيادة الشر في الأرض ، فهو يواجه أول ما يواجهه المنتفعين بالشر ، ولا يتبع السي عالياً إلا الصعفاء ؛ ليخلصهم الرسول برسائلته من شر الأقوياء ، وقد أراد الله برسالة سليمان أن يبين لنا طبيعة الإنسان .. حين يؤيد رسولاً تملك لا يمكن لأحد أن يخالفه ، إنه رسول ومليك من نوع خاص .

فالممك يملك ما يدخل تحت قدرتهم بالإمكانات المادية ، لكن الله أعطى سليمان ملكاً لا يسبي لأحد من العالمين ؛ لأنه سحر له لقوى التي لا يمكن أن تسخر لبشر عادي ، فكان الله يريد أن يبينه الإنسان أنه لو أراد حكماً من السماء مسوداً بحكم ملكي ، فلن يستطيع إنسان أن يرفع رأسه ؛ لأن الخالق جل وعلا قادر على أن يسخر لئله ذلك الحكم ما يجعله يقهر الجميع عسى أن يدعوا له لكن الحق لا يريد ذلك ، إنما يريد سبحانه طوعية الإيمان واختيارية البقين . لذلك يترك الرسل صعفاء ؛ ليعلم من يقبل عليهم بداء الإيمان لا بمجرد القهر .

ولذلك سخر رسول الله ﷺ أن يكون بي ملكاً ، فرفض رسول الله . لماذا ؟ لأنه إذا كان ملكاً نبياً ستكون به من أسباب القوة ما لا يستطيع أحد أن يحالف دعوته ، قهراً وغبوة ؛ لذلك اختار رسول الله ﷺ الرسالة والنبوة دون الملك . اختار أن يدعو الناس إلى الله ، فيأتونه رغبتاً في منهج الله لا رهبة من ملكه هو .

ولقد اتهم بعض من بنى إسرائيل سليمان بأنه كفر ، ويقرر الحق [عدم كُفره في قوله تعالى] : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ ويدل الحق أن الكفر كان من الشياطين الذين يعصون الناس السحر ، وكشف من ذلك أن نبي الله سليمان لم يكن يعلم السحر ، وأن ملكه واستتباب الأمر له لم تكن قضية سحر ، إنما هي مشيئة الحق سبحانه وتعالى .

ذكر قصة نبي الله إشعيا بن امصيا

[قال ابن كثير: قال محمد بن إسحاق وكان قبل زكريا ويحيى وهو ممن بشر بعيسى ومحمد عليهما السلام. وكان في زمانه ملك اسمه حزقيا على بني إسرائيل يبلاد بيت المقدس، وكان سامعًا مطيعًا لإشعيا فيما يأمره به ويهناه عنه من المصالح، وكانت الأحداث قد عظمت في بني إسرائيل، فمرض الملك وخرجت في رجليه فرحة وقصد بيت المقدس ملك بابل في ذلك الزمان وهو سنحاريب. قال ابن إسحاق: في ستمائة ألف راية، وفزع الناس فرعًا شديدًا. وقال الملك للنبي إشعيا: ماذا أوحى الله إليك في أمر سنحاريب وجوده؟ فقال: ثم يوح إلي فيهم شيء بعد. ثم نزل عليه الوحي بالأمر للملك حزقيا بأن يوصي ويستحلف على ملكه من يشاء، فإنه قد اقترب أجله. فلما أخبره بذلك أقبل الملك على القيلة فغصلى وسبح ودعا وبكى، فقال وهو يبكي ويتضرع إلى الله عز وجل بقلب محلس وتوكل وصبر: اللهم رب الأرباب وإله الآلهة يا رحمن يا رحيم، يا من لا تأخذه سنة ولا نوم. اذكرني بعملى وفعلى وحسن قضائى على بني إسرائيل، وذلك كله كان ملك فأنت أعلم به من نفسى، ومسى وإعلاني لك.

قال: فاستجاب الله له ورحمه، وأوحى الله إلى إشعيا أن يشره بأنه قد رحم بكائه وقد آخر في أجله خمس عشرة سنة وأنجاه من عدوه سنحاريب. فلما قال إشعيا له ذلك؛ ذهب منه الوجع وانقطع عنه الشر والحزن وخر ساجدًا وقال في سجوده: اللهم أنت تعطى الملك من تشاء، وتنزع من تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء، عالم الغيب والشهادة، فأنت الأول والآخر والظاهر والباطن، وأنت ترحم وتستجيب دعوه المضطرين. فلما رفع رأسه أوحى الله إلى إشعيا أن يأمره أن يأخذ ماء التبرع يجعله على قرحته فيشفى ويصبح قد برئ. ففعل ذلك فشفى.

وأرسل الله على جيش سنحاريب الموت فأصبحوا وقد هلكوا كلهم سوى سنحاريب وحمسة من أصحابه منهم يُختصَّر أرسل ملك بني إسرائيل فجاء بهم فجعلهم في الأغلال وطاف بهم البلاد على وجه التكيل بهم والإهانة لهم سبعين يومًا ويطعم كل واحد منهم كل يوم دغيعين من شعير، ثم أودعهم السجن، وأوحى الله تعالى إلى إشعيا أن يأمر الملك بإرسالهم

إلى بلادهم ليندروا قومهم ما قد حل بهم ، فلما رجعوا جمع سنحاريب قومه وأخبرهم بما قد كان من أمرهم ، فقال له السحرة والكهنة : إنا أخبرناك عن شأن ربهم وأبيائهم فلم تطلعنا ، وهي أمة لا يستطيعها أحد من ربهم فكان أمر سنحاريب مما حو فهم الله به . ثم مات سنحاريب بعد سبع سنين .

قال ابن إسحاق : ثم لما مات حزقيا ملك بني إسرائيل مَرِحَ أمرهم واحتلظت أحداثهم وكثر شرهم ، فأوحى الله تعالى إلى إشعيا فقام فيهم فوعظهم وذكرهم وأخبرهم عن الله بما هو أهله وأنذرهم بأسه وعقابه إن خالفوه وكذبوه فلما فرع من مقاتله عدُّوا عليه وطلبوه ليقتلوه ، فهرب منهم فمر بشجرة فاضلقت له فدخل فيها وأدركه الشيطان فأخذ يهدبه ثوبه فأبررها فلما رأوا ذلك جاءوا بالمشار فوضعوه على الشجرة فنشروها وشرروا معها ، فإنا لله وإنا إليه راجعون^(١) .



ذكر طرف عن أرميا بن حلقيا

من سبط لاوى بن يعقوب

[قال ابن كثير وقد قيل : إنه الخضر . رواه لضحاك عن ابن عباس . وهو غريب وليس بصحيح .

وقال ابن عساکر : جاء في بعض الآثار أنه وقف على دم يحيى بن زكريا وهو يثور بدمشق فقال : أيها الدم .. هنت الناس فاسكن . فسكن ررسب حتى عاب . وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : عن عبد الله بن عبد الرحمن قال : قل أرميا : أي رب ، أي عباد أحب إليك ؟ قال : أكثرهم لي ذكرا ؛ الذين يشتعلون بذكرى عن ذكر الخلائق ، الذين لا تعرض لهم وساوس الفناء ولا يحدثون أنفسهم بالبقاء ، الذين إذا عرض لهم عيش الدنيا قلوه وإذا زوى عنهم سروا بذلك ، أولئك أحبهم محبتي أعطيهم فوق غاياتهم^(١) .



(١) ما بين المكرفين من قصص الأنبياء (٥٧٣) .

ذكر خبر عن دانيال

[قال ابن كثير : روى بسنده عن عبد الله بن أبي الهذيل : قال ابن أبي الدنيا : أحضر باختصر أسدين فألقاهما في جب ، وجاء دانيال فألقاه عليهما فلم يبيجا ، فمكث ما شاء الله ، ثم انتهى ما يشتهي الآدميون من الطعام والشراب ، فأوحى الله إلى أرميا وهو بالشام أن أعد طعنا وشرابا لدانيال . فقال : يا رب ، أنا بالأرض المقدسة ودانيال بأرض بابل من أرض العراق . فأوحى الله إليه : أن أعد ما أمرناك به فإننا سنرسل من يحملك ويحمل ما أعددت . ففعل وأرسل إليه من حملة وحمل ما أعدده حتى وقف على رأس الجب ، فقال دانيال : من هذا ؟ قال : أنا أرميا . فقال : ما جاء بك ؟ فقال : أرسلني إليك ربك . قال : وقد ذكرني ربى ؟ قال : نعم . فقال دانيال : الحمد لله الذي لا يسي من ذكره . والحمد لله الذي يجيب من رجاه ، والحمد لله الذي م وثق به لم يكله إلى غيره ، والحمد لله الذي يجزي بالإحسان إحسانا ، والحمد لله الذي يجزي بالصبر نجاة ، والحمد لله الذي هو يكشف ضرنا بعد كثرنا ، والحمد لله الذي يقينا حين يسوء ظنا بأعمالنا ، والحمد لله الذي هو رجاؤنا حين تنقطع الخيل عنا .

وقال أبو العالية قال : لما اختبنا كشتر وجدنا في مال بيت الهرمزان سريرا عليه رجل ميت عند رأسه مصحف ، فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر بن الخطاب فدعا له كعبا فنسخه بالعربية ، فأنا أول رجل من العرب قرأه ، قرأته مثل ما أقرأ القرآن هذا . فقلت لأبي العالية ، ما كان فيه ؟ قال : سركم وأموركم ولحون كلامكم وما هو كائن بعد . قلت : فما صنعتم بالرجل ؟ قال : حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبرا متفرقة ، فلما كان بالليل دفناه ؛ وسوينا القبور كلها لنعميه على الناس فلا يبشونه قلت . فما يرجون منه ؟ قال . كانت السماء إذا حبست عنهم هزوا بسيره فيمطرون . قلت : من كنتم تظنون الرجل ؟ قال : رجل يقال له : دانيال . قلت : منذ كم وجدتموه قد مات ؟ قال : منذ ثلاثمائة سنة . قلت : ما تغير منه شيء ؟ قال : إلا شعرات من قفاه ، إن لحوم الأنبياء لا تهلها الأرض ولا تأكلها السباع . وهذا إسناد صحيح إلى أبي العالية ، ولكن إن كان تاريخ وفاته محفوظا من ثلاثمائة سنة فليس يسي بل هو رجل صالح ، لأن عيسى ابن مريم ليس بينه وبين رسول الله ﷺ نبي ينص الحديث الذي في

«البخارى»، والفترة التي كانت بينهما أربعمائة سنة، وقيل: ستمائة. وقيل: ستمائة وعشرون سنة، وقد يكون تاريخ وفاته من ثمانمائة سنة وهو قريب من وقت دانيال، وإن كان كونه دانيال هو المطابق لما في نفس الأمر، فإنه قد يكون رجلاً آخر إما من الأنبياء أو الصالحين، ولكن قربت الظنون أنه دانيال؛ لأن دانيال كان قد أخذه ملك الفرس فأقام عنده مسجوناً كما تقدم.

وقد روى بإسناد صحيح إلى أبي العالية أن طول أنه شهر. وعن أنس بن مالك بإسناد جيد أن طول أنه درع، فيحتمل على أن يكون رجلاً من الأنبياء الأقلمين قبل هذه المدد.. والله تعالى أعلم.

وروى أبو بكر بن أبي الدنيا في كتاب «أحكام القبور»: عن أبي الأشعث الأحمري، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن دانيال دعا ربه عز وجل أن تدفنه أمة محمد». فلما اتضح أبو موسى الأشعري «تُسْتَر» وجده في تابوت تصرب عروقه ووريده، وقد كان رسول الله ﷺ قال: «من دل على دانيال فبشروه بالجنة». فكان الذي دل عليه رجل يقال له: حرقوص فكذب أبو موسى إلى عمر يخبره فكذب إليه عمر. أن ادفنه وابعث إلى حرقوص، فإن السبي بشره بالجنة. وهذا مرسل من هذا الوجه وفي كونه محفوظاً نظر.. والله أعلم.

ثم قال ابن أبي الدنيا: حدثنا قاسم بن عبد الله عن عبيدة بن سعيد - وكان عالماً - قال: وجد أبو موسى مع دانيال مصحفاً وجرّة فيها ودك ودراهم وخاتمه، فكذب أبو موسى بذلك إلى عمر فكذب إليه عمر: أما المصحف فابعث به إلينا، وأما الودك فابعث إلينا منه ومر من قبلك من المسلمين يستشفون به، واقسم الدراهم بينهم، وأما الخاتم فقد بطلناكه.

وروى ابن أبي الدنيا من غير وجه: أن أبا موسى لما وجده، وذكروا له أنه دانيال التزمه وعانقه وقبله، وكذب إلى عمر يذكر له أمره، وأنه وجد عنده مالاً موضوعاً قريباً من عشرة آلاف درهم، وكان من جاء اقترض منها فإنه ردها إلا مرض وإن عبده ربعة، فأمر عمر بأن يغسل بماء وسدر ويكفن ويدفن ويحضر قبره فلا يعلم به أحد، وأمر بالمال أن يرد إلى بيت المال وبالربعة فتحمل إليه ونفله خاتمه.

وروى عن أبي موسى أنه أمر أربعة من الأسراء فسكروا بهراً وحفروا في وسطه قبراً

لدفنه فيه ، ثم قدم الأربعة الأسراء فضرب أعناقهم فلم يعلم موضع قبره غير أبي موسى الأشعري عليه السلام

وروى ابن أبي الدنيا : عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال : رأيت في يد ابن أبي بردة ابن أبي موسى الأشعري خاتماً نقش فضة أسدان بينهما رجل يلحسان ذلك الرجل ، قال أبو بردة : وهذا خاتم ذلك الرجل الميت الذي زعم أهل هذه البلدة أنه دانيال ، أحله أبو موسى يوم دفنه ، قال أبو بردة فسأل أبو موسى علماء تلك القرية عن نقش ذلك الخاتم ، فقالوا : إن الملك الذي كان دانيال في سلطانه جأه المنجيون وأصحاب العلم فقالوا له - إنه يريد كذا وكذا غلام يعور ملكك ويفسده . فقال الملك : والله لا يبقى تلك الليلة غلام إلا قتلته ، إلا أنهم أحلوا دانيال فألقيوه في أجمية الأسد فبات الأسد وليزته يلحسانه ولم يضراه ، فجاءت أمه فوجدتهما يلحسانه فوجه الله بذلك حتى بلغ ما بلغ ، قال أبو بردة : قال أبو موسى : قال علماء تلك القرية : فنقش دانيال صورته وصورة الأسدين يلحسانه في فص خاتم ؛ لئلا يسيئ الله عليه في ذلك . [هذا] إسناده حسن ^(١) .



ذكر قصة نبي الله العزيز ﷺ

قال الله تعالى : ﴿أَو كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا قَالَمَاتَةٌ أَلَّهِ مِائَةً عَامٍ ثُمَّ بَعَثُوهَا قَالَ كَيْفَ لَيْتُ قَالَ لَيْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ نَكَل لَيْتُكَ مِائَةً عَامٍ فَأَنْظُرْ إِلَى مَلْعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَأَنْظُرْ إِلَى جَمَارِكَ فَانْجَمَلْكَ مِائَةً لِلنَّاسِ وَأَنْظُرْ إِلَى الْوُطَايِ كَيْفَ تُنْشِرُهَا ثُمَّ نَكَّسُوهَا لِحِصًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُمْ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩] عندما نظر إلى الآية .. نجلدها تبدأ بـ (أو) ، وما بعد أو لا يكون معطوفاً على ما قبلها ، فكان الحق يريد أن يقول لنا : ألم تَرَ إلى مثل الذي مرَّ على قرية ، ونحن أيضاً عندما نسمع كلمة ﴿قَرْيَةٍ﴾ فإنها تفيد مجتمع جماعة من الناس ، ونفهم أن الذي مر على هذه القرية ليس من سكانها ، إنما هو قد مر عليها سياحة في رحلة ، ونلاحظ كذلك أن الحق لم يشأ أن يأتي لنا باسم القرية ، أو باسم الذي مر عليها . قال البعض : إنه أرمب ، وقال بعض آخر : إنه الخصر ، وقال بعض ثالث : إنه عزيز ، ونحن نقول : إن التشخيص لا يعيننا ؛ لأن الحق حين يهم التشخيص ، فذلك لأمر يريده هو سبحانه ، والآية هنا في مجال عرض قدرة الخالق .

ونلاحظ أن الحق قد وصف القرية بأنها : ﴿خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ ، والقرية الخاوية على عروشها ، الخالية من السكان ، وقد تكون أبنيتها موهمة ، إنها أبنية بلا عروش والعروش السقوف ، أي أبنية خربة ، والعرش حين يكون على البيت فالمقصود به القسطنط المصنوع مما تصنع منه السقوف ، فكان العرش قد سقط أولاً على الأرض وتراكت الجدران مهتمة من فوقه ، ويقول الذي مر على هذه القرية : ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ . والذي مر على القرية عندما يتكلم عن إحياء القرية بعد الموت ، فكانه يسأل عن حياة الناس الذين هم أهل القرية . فالقرية لا حياة لها بدون أهل ، إن القرية تكون خربة بدون أناس يسكنونها ، فالقرآن الكريم حين يذكر القرية في بعض الأحيان فهو يريد الحديث عن أهلها . إذن .. فسؤال الذي مر على القرية الخاوية على عروشها هو سؤال أهلها عن أنها قرية خربة .. وهكذا نفهم أن عمارة المكان من لوازم الكائن الحي وهو الإنسان ، والقرية الخاوية على عروشها هي : قرية بلا سكان .

وعندما يقول الـدى مر على هذه القرية : ﴿أَنْ يَتِمَّ هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أى كيف يحيى الله هذه القرية بعد موتها ؟ إن إحياء هذه القرية يتطلب أن يوجد فيها بشر لإقامة الجدران والعروش ؛ وذلك حتى يتحقق العمران ، إن الإنسان لازم لمزوم هو العمران وهو دليل الحياة ، عندما يسأل واحد مثل هذا السؤال كيف يحيى الله هذه القرية بعد موتها ؟ التساؤل لا يدل على أنه مؤمن ويشك فى أن قضية الحياة أو الموت من عند الله ، إنما هو يريد أن يتعرف الكيفية التى يتم بها الإحياء .

إذن .. فتساؤل العبد المؤمن عن كيفية عمارة الله لهذه القرية ، وتساؤل إبراهيم عليه السلام عن كيفية الإحياء بعد الموت هو التعجب . والتعجب فرع الإيمان بالحدث ، والسؤال عن الكيفية معناه تيقن للحدث وإيمان بصانع الحدث ، فعندما يسأل السائل أنى يحيى الله هذه القرية بعد موتها ؟ فهذا السائل لا يشك فى قدرة الله على الإحياء ، ولكنه يريد أن يعرف الكيفية ، والكيفية ليست مناطاً اعتقادياً أو ساطعاً إيمان . إن الله لم يتعبدا بأن يعرف الكيفية ، وإنما تعبدا بأن تؤمن بأنه قادر على الإيجاد لهذا الحدث ؛ لأنه القادر على كل شىء .

إذن .. فقول السائل : كيف يحيى الله هذه القرية بعد موتها ؟ وقول إبراهيم خليل الرحمن : ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ ؟ هذان القولان لا يفتيان الإيمان عن السائل عن عمارة القرية بالحياة ، ولا عن إبراهيم عليه السلام ، ولكن كليهما مشتاق إلى معرفة الكيفية ؛ ليعيش فى جو الإبداع لمن أنشأ هذه الصفة ؛ وعندما يسأل الرجل المؤمن : ﴿أَنْ يَتِمَّ هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ؟ فحين نجد لازماً وملزوماً ، والمراد الاثنان ، إنه يتكلم عن قرية خاوية على عروشها ، ويتساءل عن الإحياء . والإحياء كما نعرف يكون للبشر الذين سيقومون بالحركة التى تعبر وجود تلك القرية ، فكان الناس هم حيلة ولهم موت ، والقرية بأنقاضها لها حياة ولها موت وسؤال العبد المؤمن : ﴿أَنْ يَتِمَّ هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ؟ جاءت الإجابة لسؤاله إجابة عملية .

لقد كان سؤال العبد المؤمن عن الكيفية . وهناك شىء نفتتح به بالدليل ، وشفىء تقنع به بالمشاهدة ، وقد أراد الله أن يجعل الدليل إيماناً مشاهداً ، ﴿فَأَمَّا اللَّهُ فَعَالِمٌ﴾ ، لم يجعل الله الدليل المشهدى فى القرية ، إنما جعل الله الدليل المشهدى فى ذات السائل ، قال تعالى : ﴿فَأَمَّا اللَّهُ فَعَالِمٌ ثُمَّ بَعَثْنَا قَالَ كَيْفَ كُنْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ ويخبرنا الحق

سبحانه بحوار دار بينه وبين هذا العبد . فإما أن يكون الحق سبحانه قد كلمه كما كلم موسى **العليه** ، أو سمع العبد المؤمن صوتاً أو ملكاً ، المهم أن سؤالاً قد حدث : **﴿كَمْ لَيْتُ﴾** ؟ فأجابه الرجل : **﴿لَيْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾** . إن إجابة الرجل تعنى أنه قد تشكك ، وقد قال المفسرون : إنه زجّد اليوم قد قارب على الانتهاء ، أو انتهى ، أو أنه عندما رأى الشمس مشرقة أجاب هذه الإجابة ، قال ذلك لأنه لا يستطيع أن يتحكم فى تقدير الزمن ، فهل هو صادق فى قوله أم كاذب ؟ إنه صادق . لماذا ؟ لأنه لم ير شيئاً قد تغير فيه ؛ ليحكم بمقدار التغيير .

لو كان قد نام بشعر أسود ، وقام بعد ذلك بشعر أشيب ، لو حدثت آية تغييرات فيه لكان قد لمسها ، لكنه لم يجد تغييراً فماذا كان جواب الحق ؟ قال تعالى : **﴿بَلْ لَيْتُ مِائَةً عَامٍ﴾** ، إنا هنا أمام قولين ؛ ويكد الأمر يصبح لغزاً ، قول الرجل الذى يقول : **﴿لَيْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾** ، وقول رب تعالى : **﴿بَلْ لَيْتُ مِائَةً عَامٍ﴾** . الحق سبحانه صادق ومنزه ، والعبد المؤمن صادق فى حدود ما رأى من أحواله . ونريد دليلاً على هذا ودليلاً على ذلك ، نريد دليلاً على صدق العبد فى قوله : **﴿لَيْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾** . ونريد من الحق سبحانه وتعالى دليلاً على أن الرجل قد مات مائة عام وعاد إلى الحياة .

ونحن نقول : إن فى القصة ما يؤيد صدق الرجل فى أنه تصور الزمن الذى مرّ عليه يوماً أو بعض يوم ، وما يؤيد صدق قول الحق سبحانه **﴿بَلْ لَيْتُ مِائَةً عَامٍ﴾** . لماذا ؟ لأن الرجل كان معه حماره ، وكان معه طعامه وشرابه من عصير وعنب وتين ، وأراد الحق سبحانه أن يدل على الصدق فى القصصتين مقارناً فقال الحق : **﴿فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ﴾** . ونظر الرجل إلى صمامه وشرابه فوجد الطعام والشراب لم يتغير منهما شيء ومعنى عدم التغير أنه لم يمكث إلا يوماً أو بعض يوم . ههنا دليل صدق الرجل .

وبقيت مسألة موت الرجل مائة عام ، قال الحق سبحانه للرجل : **﴿وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾** . وحين يقول الحق : **﴿لِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾** . فهذا يدل على أن شيئاً عجيباً قد حدث .. إنه آية ، والآية تعنى : شيئاً عجيباً ؛ وأراد الله له أن يبين بطلب النظر إلى الحمار ، أن يجد الرجل عظام الحمار مبعثرة ، ولا يمكن أن يحدث ذلك فى

يوم وليلة ، لا يمكن أن يموت الحمار ويرم جسمه ثم ينتهي لحمه إلى رمد ، ثم تبقى العظام مبعثرة ! إن حدوث ذلك للحمار يتطلب زماناً طويلاً ، لا يتسع له إلا مائة عام ، فكأن نظرة الرجل إلى الحمار تجعله يصدق أنه لبث مائة عام ، ونظرة الرجل إلى الطعام تجعله يصدق أنه لبث يوماً أو بعض يوم .

فالقضية هي قضية عجيبة ، إذن .. كيف طَوَّى الرمس في مسألة الطعام ؟ وكيف يُبسط الرمس في مسألة الحمار ؟

إن الله يريد أن يثبت أنه هو القابض والباسط لأشياء ، إنه الله الذي يقبض الرمس في حق شيء ويبسط الرمس في شيء آخر ، والشيطان متعاصران معاً ، وتلك العملية لا يمكن أن تكون إلا لقدرة الله الخالق سبحانه .

إن الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَلَجَعَلْنَا آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ . من هم الناس الذين سيجعل الله من قضية الذي مر على تلك القرية « آية » لهم ؟ كان لا بد أن يوجد أناس في القصة ، لكن القرية كانت خاوية على عروشها ، فلا إنسان ولا بنيان . فهل هم الناس الذين كانوا في القرية أم سواهم ؟ قال البعض من المفسرين هذا ، وقال البعض من المفسرين ذلك . وأصدق شيء يتصل بصدق الله في قوله ﴿ وَلَجَعَلْنَا آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ . كدليل على قبض الله الزمن في حق شيء وبسطه في حق شيء آخر ، هو ما يلي : إن عزيزاً هو الذي مر على تلك القرية كما قال جهمرة العلماء ، وعزير كان من الأربعة الذين يحفظون التوراة ، إن أربعة فقط هم الذين حفظوا التوراة ؛ موسى ، وعيسى ابن مريم ، وعزير ، ويوشع عليهم السلام .

أراد الله أن يرى عزيزاً العظام كيف ينشزها بقدرته جل وعلا ، ثم يكسوها لحماً ؛ فإن عزيزاً قد رأى رأى العين عملية الإحياء . لقد مال عزير من قبل . كيف يحيى الله هذه القرية بعد موتها ؟ والحق سبحانه أراه التجربة عملياً ؛ قال له : انظر إلى عظام حمارك ينشزها : أي رفعها ، أي نرفع كل عظمة من الأرض ، وركب كل عظمة في مكانها وبعد ذلك تأتي الحياة لتدب في الحمار ، لقد وجد عزير حياة في نفسه ، ورآها في الحمار .

وبعد ذلك تذكر عزير قرية قد خرج منها وأراد أن يعود إليها ، ولما عاد إلى تلك القرية وجد أمرها قد تعمر تعمرًا يتناسب مع مرور مائة عام . وكان في هذه القرية مولاة لأسرة العبرانيين أي

أُمَّةٌ أَوْ جَارِيَةٌ - وكانت هذه الأمة قد عميت ، فلما دخل العزيز عليها وقال : أنا العزيز ، قالت الأمة : ذهب العزيز من مائة عام ولا ندرى أين ذهب ولم يعد ، فكرر عليها القول : أنا العزيز ، قالت الأمة : إن للعزيز علامة ، وهذه العلامة أنه كان مجاب الدعوة ، فإن كنت حقاً العزيز فادع الله أن يرد علي بصري ، وأن يخرجني من قعودي هذا . إن الأمة لا تنسى نفسها والعزيز أراد أن يؤكد لها أنه هو . فدعا الله لها برد البصر والقيام من القعود فبرئت الأمة ، ولما برئت الأمة نظرت إليه فوجدته هو العزيز ، فذهبت إلى قومها وأعلنت أن العزيز قد عاد .

بعد ذلك ذهب العزيز ليرى أبه ، فوجده رجلاً طاعثاً في السن قد بلغ من العمر مائة عام ، وكان العزيز لا يزال شاباً ، ونقل : إنه كان في الخمسين من عمره ، ولذلك نرى الشاعر يقول مثيراً : وما ابن رأى أباه وهو في ضعف عمره ؟ !

لأن العزيز قد مات في عمر الخمسين ، وقد بعثه الله على نفس عمره أما أبه فقد بلغ من العمر مائة عام لأنه لم يمت ولم يعبث ، بل عاش حياة متواصلة ، وهكذا أصبح الولد في عمر المائة ، وأصبح الوالد في عمر الخمسين ، فقال ابن العزيز إني كنت أعرف لأبي علامة إنها شامة بين كتفيه ، فلما كشف له العزيز كتفيه وجد الابن العلامة التي يعرفها هي أبيه .

وقال بعض المفسرين شيئاً آخر : إن يحتصر حينما جاء إلى مدينة بيت المقدس وتخرّبها حرق التوراة ، إلا أن رجلاً قال : إن أباه قد دفن في مكان من كرم [ومعه] نسخة من التوراة ، فجاءوا بالنسخة فقال العزيز : وأنا أحفظها وقرأ عزيز التوراة كما وجدت في النسخة ، فصدق الناس أنه العزيز . تلك هي الآية ، وتعجب الناس أن لاين في سن مائة والأب في سن الخمسين ، وهذه هي الآية للناس ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَكُمْ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . هذا القول يأتي على لسان العزيز ، فهل معنى ذلك أنه لم يكن يعلم من قبل أن الله على كل شيء قدير ؟ لا . لقد كان يعلم علم الاستدلال ، ولأنه قد أصبح يعلم علم الشهادة ، علم الضرورة وليس مع الغنى أثن .

إذن .. قول العزيز : ﴿ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . ما الذي تبين له ؟ لقد تبين له قدرة الله على بسط الرمن وقبضه ، لقد كان يعلم من قبل علم اليقين والآن أصبح يعلم حق اليقين .

دعوى باطله

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِي قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَنَزَّلْنَا اللَّهُ الْكِتَابَ بَيِّنًا ۖ وَنُفِّسُوا فِيهِ ۚ [الحجرات : ٣٠] .

نقول : إن هذا الادعاء فيه مساس بجلال الله ، فالإنسان يتحد ولدا لعدة أسباب ، إما لأنه يريد أن يبقى ذكره في الدنيا بعد أن يرحل ، والله سبحانه وتعالى هو الحي الذي لا يموت ، وإما لكي يعيه ابنه عندما يكبر ويضعف ، والله سبحانه وتعالى هو القوي ، وإما ليرث ماله وما يملك ، والله تبارك وتعالى يرث الأرض ومن عليها ، وإما ليكون عزوة له والله جل جلاله لميزد دائما ، وهكذا تنتفي كل الأسباب التي يمكن أن تؤدي إلى هذا الادعاء ، ولا يعقل أن يرسل الله سبحانه وتعالى رسولا ليبين للناس منهج الحق فيقول : إنه ابن الله .

ثم يقول سبحانه : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ رَمَوْا أَمْرًا إِلَّا يَعْْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَنِ ثَمَرِ شَرِكُونِ ﴾ [البقرة : ١٧٠] ، الحق سبحانه وتعالى استهل هذه الآية بقوله ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا ﴾ وهذا مناف لما أمروا به ؛ لأنهم أمروا بأن يعبدوا الله الواحد الأحد ، والأرباب هنا منافية للألوهية الواحدة ؛ وقوله تعالى : ﴿ رَمَوْا أَمْرًا إِلَّا يَعْْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ . فالمسيح رسول الله ، ولا يمكن أن يأتي بأوامر ونواه من عنده ؛ لأنه جاء ليعدل ميزان إيمان الناس بربهم ، ومعنى أنهم قالوا : إن المسيح ابن الله . أنهم ألوهه لأن يعبد ؛ وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ [الزمر : ١٦] . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُوا إِلَّا يَعْْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ . أعطت الوحداية لله من جانب إثبات الألوهية ، وقوله تعالى : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ؛ نفت وجوده إلا الله سبحانه وتعالى ، فكان الله جاء بها من جانبي الإثبات والنفي .

وقوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ ، تترى لله سبحانه وتعالى عن أى شيء يوجد في البشر ، فكلمة ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ ولفظ الجلالة «الله» لا تقال إلا لله سبحانه وتعالى ؛ لذلك يقول الله

سبحانه وتعالى : ﴿زَيْتُ السَّنَوْبِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا قَاعْبُدُهُ وَأَصْلَبُ يُصَدِّقُهُ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾
[مرم : ٦٥] .

إذن .. قاله سبحانه وتعالى بالقدرة والقهر حجز السنة البشر جميعا أن يقول أحدهم لأحد : « سبحانك » ، أو أن يسمى أحد ابنه « الله » .

الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ، وموقف المشركين وأهل الكتاب واقع تحت هذه الآية ، لماذا ؟ لأن مهج الله لا يأتي إلا إذا هم الفساد ، والله يريد من الإنسان أن يكون مصلحا ، وأقل درجات الصلاح أن تترك الصالح فلا تفسده ، فإن استطعت أن ترتقى به يكون ذلك أحسن ؛ فإذا كانت هناك بحر يشرب منها الناس ، فالصلاح أن تترك هذه البحر ولا تردمها ، والأصلح منه أن تحمي جذرائها بالطوبى ؛ حتى لا تنهار الأتربة وتسدها ، وأن تحاول أن تسهل حصول الناس على الماء من البحر ، والأصلح منه أن تصنع خزائنا عاليا ، ومن هذا الخزان تمد المواسير ، ليصل الماء إلى الناس في منازلهم بدون تعب ، هذا إصلاح .

إذن .. قاله جل جلاله يريد من الإنسان أن يصلح في الأرض ، والمجتمع كله يسعد بأى إصلاح في الأرض ؛ ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى يعطى اختيارات فى أشياء ولا يعطىها فى أشياء أخرى ، فالإنسان له اختيار فى أن يصلى أو لا يصلى ، يتصدق أو لا يتصدق ، يعمل أو لا يعمل إلى آخر ما نعلمه ، ولكن الكون الأعلى محكوم بالقهر .



ذكر طرف من قصة نبي الله زكريا ﷺ

ركبها هو الذى كفل مريم وقام على خدمتها ، وكأن الله تعالى اختاره لهذه المهمة ، لأن القوم حينما تسابحوا إلى كماله مريم واستهيموا على ذلك ، كان هذا الشرف من نصيب زكريا ﷺ

انظروا .. الناس كانت تتسابق فى الخير ، وكانوا يفهمون أن كفالة مريم شرف كبير ، فضربوا قرعة على هذا الأمر ، فجاءوا بالأقلام والقوها فى البحر ، والقلم الذى يطفو هو الذى يكفل صاحبه مريم . وذلك قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَتَمُهمْ أَيْهَمُ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَوِصُونَ ﴾ [آل عمران : ٤٤] . مما يدل على أنهم فهموا أن كفالة مريم شرف كبير يسمى إليه كل إنسان ، ولا يصح لأحد أن يخاله دون اقتراح ، والقرعة هى وزن للمسائل حتى لا ينصب أحد .

وكان زكرياد كلما دخل على مريم يجد عندها رزقا لم يأت به هو ؛ فيستغرب ، ويسألها : من أين أتاها هذا الرزق ؟ فتحيره أنه من عند الله ، وذلك قول الله تعالى : ﴿ كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ مِنْهَا رِزْقًا قَالَ يَنِيْمُ أَنَّى لَهِىَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٣٧] .

وهذا يعلمنا أن الإنسان المستول عن الإنفاق عن أهل بيته إذا وجد شيئا فى البيت لم يحضره هو ، عليه أن يسأل : من أين جاء هذا الشيء ؟ لأنه ربما يكون أتى من طريق غير شرعى ، لأنه هو المستول عن أهل بيته ، والله سبحانه سائله عنهم وعليه ألا يفص بصره عن هذه لأشياء ؛ لأنها مداخل للشر .

فلما دخل زكريا ووجد الرزق المنقوع عند مريم ، وقالت له عنه مصدره . ﴿ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٣٧] هنا تساءل زكريا : كيف فاتنى هذا لأمر ؟ ولذلك يقول الحق عن زكريا : ﴿ هَآئِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبِّمُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاِ ﴾ [مريم : ٣٨] ساعة أن قالت له : إن الرزق من عند الله . وأنه الذى يورق من يشاء بغير حساب ، وأعطت فيه القصيدة الإيمانية ، قال زكريا لنفسه : فليطلب من ربه أن يرزقنا ما نرجوه لأنفسنا . وكونه قال ذلك ، فمعنى هذا أن زكريا صدق مريم فى

مولها : بأن هذا الرق الذي يأبىها هو من عند الله . ودليل آخر في التصديق هو أنه لابد وقد رأى أن الأشياء التي توجد عند مريم ليست هي بيثته وليست في زمانه ، إنها أشياء متعددة ، إنه يدخل عليها الخراب وكلما دخل وجد عندهما رزقا .

ونحن نعرف أن الخراب كلمة يراد بها بيت العبادة ، والخراب هو مكان الإمام في المسجد ، أو هو حجرة يصعد إليها يسلم كالمباعدات التي تقام في بعض المساجد ، وما دامت مريم قد أخبرت زكريا وهي في الخراب بأن الرق من عند الله ، وأيقظت تلك القضية الإيمانية لديه ، فقد دعا زكريا في أثناء وجوده في الخراب : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ ، إنه هنا يطلب الولد ، ولكن لابد لنا أن نلاحظ ، هل كان طلبه للولد لما يطلبه الناس العاديون من أن يكون زينة للحياة أو عزوة أو ذكرا ؟ لا ، إنه يطلب الذرية الطيبة ، وذكر زكريا لسرية الطيبة تفيد معرفته أن هناك ذرية غير طيبة .

وفي قول زكريا : ﴿ يَرْثِي وَيَرِثُ مِنْ آلٍ مُقْتَوٍ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ . أى : أن يكون وعاء لإراث النبوة وإراث المناهج وإراث القيم ، هكذا طلب زكريا الولد ، لقد طلبه لمهام كثيرة وكبيرة ، وقول زكريا : ﴿ هَبْ لِي ﴾ تعنى أنه استعطاء شيء بلا مقابل ، إنه يعترف ويقول : أنا ليس لى المؤهلات التي تجعل لى ولدا ، لأنى كبير السن وامرأتى عاقر ، إذن فعطائك يا رب هو هبة ليس حقا لى ، كأن الذى عنده استعداد لأن يكون هذا الأمر حقا ، فعليه أن يعرف أن عطاء الله له بطل هبة ، فإياك أن تظن أن اكتمال الأسباب والشباب هي التي تعطى الأبناء ، إن الحق سبحانه ينهبها ألا نفع فى خديعة غش أنفسنا بالأسباب ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِشَاءً وَنَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ۖ أَوْ يُرْوِحُهُمْ ذَكَرًا وَإِنِشَاءً وَتَحْمِلُ مِنْ يَشَاءُ عَقِيْمًا إِنَّكُمْ عَلَيْهِ قَائِرُونَ ﴾ [التورى : ٤٩ ، ٥٠] إن فى ذلك لعنا واصحا وتحذيرا محددا ألا نفتن بالأسباب .

إن دعاء زكريا ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ﴾ ، كلمة هب توضح ما جاء فى سورة مريم : من قول زكريا : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي كُنْتُ مِنْ غُلَامٍ وَكَانَتْ أُمْرَاتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ [مريم - ٨] ، إن ﴿ هَبْ ﴾ هي التي توضح لنا هذه المعانى ، هكذا كان دعاء زكريا : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ . هل المراد أن يسمع الله الدعاء أم أن يجيب الله الدعاء ؟ إنه يصعب كل أمله فى الله ، كأنه يقول : إنك يا رب فور أن

تسمعني ستجيبني إلى طلبي بطلاقة قدرتك ، لماذا ؟ لأنك يا رب تعلم صدق نيتي في أنني أريد
العلام ، لا لشيء من أمور قرة العين والذكر والرعرع وغيرها ، إنما أريد الولد ليكون وارثاً لي في
حمل مهجك في الأرض .

بشارة الملائكة لزكريا عليه السلام

يقول الحق : ﴿ فَدَآئُهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْغُرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرَكَ بِمُصَدِّقٍ
بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الْمَكْلُوبِينَ ﴾ [آل عمران ٣٩] ؛ هل سمعت الملائكة
جوقة لتنادي زكريا ؟ لا ؛ لأن جبريل عليه السلام هو الذي ناداه ، ولماذا جاء قول الحق سبحانه على
هذا النحو ؟ الجواب . لنفطن إلى أن الصوت له جهة يأتي منها ، فالصوت القادم من الملائكة
الأعلى لا يعرف الإنسان من أين يأتيه ؛ وكأنه يأتي من كل الجهات

إذن .. فقول الحق : ﴿ فَدَآئُهُ الْمَلَكَةُ ﴾ . فهذا يعني أن الصوت قد جاء لزكريا من
جميع الجهات ﴿ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْغُرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرَكَ بِمُصَدِّقٍ بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ
وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الْمَكْلُوبِينَ ﴾ . لقد نادته الملائكة حال صلاته لله ؛ أو هو حينما دعا
لأحد ما علمه الله الأنبياء إذا حزبه أمر قاموا إلى الصلاة ، وعلى كل واحد منّا عندما يصعب
عليه شيء وتتأزم الأمور وتمتنع الأسباب ، أن يقوم فيعوضاً ويقف بين يدي الله ويسأله من فضله
ورحمته ، ويطلب منه سبحانه أن ييسر له أمره ويمهله على قضاء حاجته .

ومعنى حزنه أمر أي : أن أسبابه ضاقت ، لذلك يذهب إلى الصلاة بخشوع إلى الله خالق
الأسباب ، إنها دهاب إلى المسبب ، وبدلاً من أن تتشعب نفسك وتتحير ، اذهب إلى الله من
أقصر الطرق وهو الصلاة ، لماذا تنصب نفسك ولك رب حكيم ؟ إن من له أب لا يحمل همّاً
والذي له رب أليس أولى بالاطمئنان ؟ إن زكريا قد دعا الله في حاجة له ، دعاء الوالدي من ربه
عما كان إلا أن بدته الملائكة وهو يصلي ، إنها لم تنتظر إلى أن ينتهي من الصلاة ؛ لأنه لا بد لها
من الإسراع في إبلاغ أمر الله ، لا تأخير ولا انتظار ، دعا الله فاستجاب له وبادته الملائكة وهو
واقف بين يدي ربه بهاجيه : ﴿ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ ﴾ والبشارة هي إخبار بخير منه لم يأت .

قوله تعالى : ﴿ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِمُصَدِّقٍ بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ . لقد قال الله له : سأعطيك ، وزيادة على العطاء
سماه الله به : يحيى ، وفوق كل ذلك : ﴿ مُصَدِّقٌ بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ ، ولننظر إلى دقة البلاغ في

قوله تعالى . ﴿يَسْمِعُ مُمِصَاتٍ﴾ هذا دليل على أنه سميع مجسم لله ، ودليل على أنه سميع الطاعات وهو مصدق ، وهو سيأتي بكلمة من الله ، أو هو يأتي ليصدق بكلمة من الله فهو ﷻ أول من آمن برسالة عيسى ﷺ .

وقد وصفه الحق سبحانه بقوله : ﴿وَسَيِّدًا وَحُصُونًا وَنَبِيًّا مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أى ممنوعاً من كل ما حرم عليه ، وهو نبي أى قدوة فى الاتباع .

لما دعا زكريا ، وتلقى البشارة بحبى عدئذ قال زكريا بيشريته : ﴿رَبِّ أَنْ يَكُونُ لِي عَلَنٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَأَمْرَاتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَقْضِي مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران : ٤٠] . إن زكريا وهو الطالب تعجب من الاستجابة ؛ فيسأل : كيف يكون ذلك ؟

يقول زكريا . ﴿أَنْ يَكُونُ لِي عَلَنٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَأَمْرَاتِي عَاقِرٌ﴾ ؛ إن بلوغ الكبر ليس نصاً فى أنه غير قادر على إخصاب امرأة ، ذلك أن الإخصاب بالنسبة لرجل يس أمراً يتحكم فيه تقدّم العمر ، إن لم يكن عاقراً ، ولكن المرأة هى الطرف المهم فى ذلك ، فإن كانت عاقراً فذلك قمة العجز فى الأسباب ، ولو أن زكريا قال فقط : وأمرأتى عاقرة ، لكان أمراً غير مستحب بالنسبة لزوجته ؛ لذلك أوردها من أولها : ﴿وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَأَمْرَاتِي عَاقِرٌ﴾ . تأمل دقة القول فى « بلغنى الكبر » ، إنه لم يقل : بلغت الكبر ، إنه يقول : إن الكبر هو الذى جاعنى ، ولم أجد أنا إلى الكبر ؛ لأن بلوغ الشيء يعنى أن هناك إحساس ورغبة بأن تذهب إليه .

وقال زكريا : ﴿وَأَمْرَاتِي عَاقِرٌ﴾ ، وذلك تميم لطلاقة القدرة عند من يستمع القصة ، لقد أورد كل القوال البشرية ، وبعد ذلك أتى القول الفصل . ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَقْضِي مَا يَشَاءُ﴾ . إنها طلاقة القدرة التى فوق الأسباب ؛ لأنها قدرة خالق الأسباب .

تعلم زكريا أن الله يعطى ، وإن عزت الأسباب

لم يصدق البشرى من فرط معادته ، فأراد أن يؤكد معها ؛ لذلك قال : ﴿رَبِّ أَنْ يَكُونُ لِي عَلَنٌ وَكَانَتْ أَمْرَاتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مرم : ٨] . فأوحى إليه أن يطرح الأسباب التى عرقها ؛ لأن الذى يكلمه هو الخالق عز وجل ، الذى قال له : ﴿هُوَ عَلَى هَيْئٍ وَقَدْ خَلَقْتَنِي مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا﴾ [مريم : ٩] . ولكن من أين تعلم

ركبها أن الله يعطى وإن عزت الأسباب ؟ عرف هذا لأنه كان موصولاً بالله عز وجل .

واستجاب الله سبحانه وتعالى دعاء زكريا ووهبه يحيى قال تعالى : ﴿ فَاتَّخَذَ لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْحَيْرَةِ وَيَدْعُونَ رَبَّهُمْ الرَّحْمَنَ رَحِمًا رَحِيمًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴾ [الأنبياء : ٩٠] . فالله سبحانه وهب لزكريا علامة رغم تعطل الأسباب ، وفوق ذلك هو الذى سماه : « يحيى » ، إن الله سرًا فى هذه التسمية ؛ لأن الناس يصنعون الأسماء بمسمياتها ، وكل واحد حر فى أن يضع اسمًا لـ « مسمى » ، فلو أن امرأة رجمت أجهت بنتًا واختارت لها اسم « قمر » لا يستطيع أحد أن يمنعها من ذلك ، فالتناس أحرار فى تسمية ما يريدون ، فالاسم يخرج من معناه الأصلي إلى أن يصير علمًا على هذا للمسمى ، وإن حاد عنه المعنى ؛ فتسمى واحدًا « سعيد » وهو شقى ، وتسميه « فاضل » وليس عنده شىء من الفضل ؛ لأن الناس يسمونه هذه الأسماء تفاؤلاً أن يكون المولود كذلك ، فأنت إذا سميت ابنك « يحيى » لا تملك له أن يحيا أو يعيش ، ولكن إذا سماه من يملك الموت والحياة فلا بد أن يحيا والذى يقوه الله فيه لا بد أن يظل ذكره حتى بعد موته ؛ ولذلك شاء الله ليحيى أن يموت شهيدًا ، حتى يظل حيًا ، وكلمة « وَوَهَبْنَا » معناها أن هذا المولود لم يجئ عن طريق القانون التكويني للناس ، ولكن جاء هبة من الله رعم كبير والده وعقم أمه .

فلا بد أن يعطيه أطول من حدود أعمار الناس ، بل إنه لا يموت أيضًا [لأنه شهيد] ، لكن الكل من البشر يموت ، الحق سبحانه يهيئ ليحيى من حصومه ومن أعدائه من يقتله ؛ ليكون شهيدًا وهو بالشهادة يصير حيًا ، فكانه يحيى دائمًا .

ومعنى : ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ . أى جعلناها صالحة للإنجاب بعد أن كانت عاقراً إذن .. « يحيى » جاء بقدرة الله وحده بغير الأسباب الكونية لليلاد ؛ لأن الله تعالى أراد ذلك ، فربنا سبحانه أصلح الزوجة التى كانت غير صالحة للإنجاب .

وعسمية الإنجاب هذه ليست عملية ميكانيكية ، ولكنها متعلقة بإرادة الخالق ومشيته ، فأحياناً تجد زوجين صالحين للإنجاب ومع ذلك يتأخر الحمل شهوياً أو سنوات ، لأن الله تعالى لم يأذن بالذرية ، وأحياناً تجد زوجين استمرت حياتهم الزوجية سنوات طويلة دون إنجاب ،

وربما يحدث طلاق بينهما وتزوج الروجة فتجب ، وتزوج الرجل مهتجب فهذه أشياء ليست مكانكية ، ولكنها تحضج لمشيئة الخالق ؛ ولذلك فعلى المسلم الذى يتلى بالقسم ويستغنى الأسباب أن يكثر من فعل الخيرات ويدعو الله سبحانه وتعالى ويلج عليه فى الدعاء . ومعنى ﴿ كَشِيعِينَ ﴾ أى راضين بقدرهم فى وجود العقم ، ولا يرفع قضاء حتى يرضى صاحبه به ، فإذا كنت عقيماً فلا تبخل بمالك وتضمن به على المحتاجين ، وانظر إلى أولاد لناس على أنهم أولادك ، وانزع من نفسك الحقد والكراهية التى قد يسيبها لك عدم الإنجاب ، وسارع فى الخيرات ، وادع الله سبحانه أن يعطيك من فضله ؛ لأنه هو سبحانه ولى ذلك والقادر عليه ، وبعد ذلك اخشع له ، ومعنى الخشوع : هو الاطمئنان لمقادير الخالق فى الخلق ، فترضى بقدر الله فىك بأنك عقيم ، وبعد هذا الرضا تدعوه أن يهبك من فضله ذرية صالحة مع رضائك التام وتسليمك بقدر الله ، مع يقينك الكامل فى قدرته على كل شيء ، وحكمته البالغة فى كل ما كتبه على الناس من أقدار .

لماذا طلب زكريا آية على حمل زوجته ؟

قال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالنَّسِيِّ وَالْإِنْسَانِ كَثِيرًا ﴾ [آل عمران : ٤١] ؛ إن زكريا يطلب علامة على أن القول انتقل إلى فعل ، لماذا يطلب علامة إذا كان الله قد . ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَفَدَّ خَلْقُكَ مِنْ قَبْلِ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا ﴾ [مرم : ٩] . لقد كان هذا القول تأكيداً لا شك فيه ، فبمجرد أن قال الرب انتهى الأمر ، فمادريد زكريا من بعد ذلك ؟ إنه يطلب « آية » أى علامة على أن « يحيى » قد تم إيجاده فى رحم أمه ، فكانت استغالة زكريا . يا رب لا تتركنى أفهم بالعلامات الظاهرة المحسة ؛ لأننى أريد أن أعيش فى إطار الشكر لك عليه ، فبمجرد أن يحدث الإخصاب لابد أن أحيا فى نطاق الشكر ؛ لأن النعمة قد نأتى وأنا غير شاكر ، إنه يطلب « آية » لعيش فى نطاق الشكر ، إنه لم يطلب « آية » عن شك فى قدرة الله ، معاد الله ، ولكن لأنه لا يريد أن يفوت على نفسه شكر النعمة من أول وجودها .

والذى يعطينا هذا المعنى هو قول الحق سبحانه ﴿ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالنَّسِيِّ وَالْإِنْسَانِ كَثِيرًا ﴾ . فهل معنى ذلك أن يتمتع هو

عن الكلام ؟ أو أن معناه أن يرغب في الكلام فلا يستطيع ، إن هناك فرقاً بين أن يقدر على الكلام ولا يتكلم ، وبين ألا يقدر على الكلام ، وما دامت الآية هبة من الله ، فالحق هو الذي قال له سأمنعك من أن تتكلم مع الناس إلا رمزاً . أى : بالإشارة ، كفاقد القدرة على الكلام ، وحتى نعرف أن الآية قادمة من الله ، وأن زكريا لا يريد أن تمر عليه لحظة من نعم الله بدون شكر لله عليها ، فإننا نعلم أن الله سيعطيه .

وقوله تعالى : ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا﴾ تفيد أن زكريا قادر على الذكر ، وغير قادر على كلام الناس ؛ لذلك لا يريد الله أن يشعله بكلام الناس ، وكأن الله يريد أن يقول : ما دمت قد أردت أن تعيش مع النعمة شكرًا ، أجعلك غير قادر على الكلام مع الناس لكثك قادر على الذكر . والذكر مطلقاً هو : ذكر الله بالآله .

لذلك كانت الآية قوله تعالى : ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالنَّعِيقِ وَالْإِنْكَارِ﴾ . الحق جعل الآية ألا يكلم زكريا الناس ثلاثة أيام إلا بالإشارة ، وقد يكون عدم الكلام في نظر الناس مرضاً . لا ، إنه ليس كذلك ؛ لأن الحق يقول له : ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالنَّعِيقِ وَالْإِنْكَارِ﴾ . إن الحق يجعل زكريا قادرًا على التسبيح وغير قادر على الكلام ، إنها قدرة أخرى من طلاقة قدرة الله ، إن اللسان الواحد غير قادر على الكلام إلا بالرمز ، ولو حاول أن يتكلم لما استطاع ، ولكن هذا اللسان نفسه أيضًا يصبح قادرًا فقط على التسبيح بالنعش والإبكار ، وذكر الله ؛ إنه ذكّر الله باللسان وسمعه الناس ، إنها بيان لطلاقة القدرة .

اصطفاء الله تعالى لآل عمران على العالمين

قال تعالى . ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَمَا آَلَ عِمْرَانَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران : ٣٣] . نحن نعلم أن إبراهيم عليه السلام هو «أبو الأنبياء» ومن آل إبراهيم ، اصطفى الله تعالى من ضمن ما اصطفى آل عمران ؛ وكلمة : «عمران» ترد في القرآن اسم لشخصين : الأول : «عمران» والد موسى وهارون عليهما السلام .

والثاني : «عمران» والد السيدة مريم عليها السلام . «عمران» والد موسى وهارون عليهما السلام كان اسم أبيه «يصر» واسم جده «قاهت» ومن بعده «لاوى» ومن بعده

« يعقوب » ومن بعده « إسحاق » وبعده « إبراهيم ». وقد حصل إشكال عند عدد من الدارسين وهو أئى العرائن ذكره الله تعالى هنا ؟

ولما اختلفوا لم يقطوا إلى أن القرآن قد أعطى الهوية والمعنى ، وكان يجب أن يفهموا أن المقصود هنا ليس عمران والد موسى وهارون ، بل عمران والد مريم أم عيسى عليهم جميعا السلام .

وعمران والد مريم هو ابن ماثان وهو من نسل سليمان ، وسليمان بن داود ، وداود من إيشا ، وإيشا من يهوذا ، ويهوذا من يعقوب ، ويعقوب من إسحاق ؛ وهو ابن أبو الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم ﷺ .

لذلك كان على المختلفين أن يقطوا إلى ذكر اسم مريم عليها السلام من بعد ذلك ، فيعلمون أنه عمران والد مريم .

وذكرنا ﷺ كان اسم والده . دان ويقال لدن - وكان معاصرا لماثان . إذن .. يكون المراد هنا هو عمران والد مريم ، والذي راد من حيرة المختلفين هو وجود أخت موسى وهارون كان اسمها مريم ، وكانوا في هذا الزمن يتعاطون باسم مريم ؛ لأن معناه العابدة فى لغتهم . وعندما نقول : اصطفت كذا على كذا . معنى ذلك أنه كان من الممكن أن يصطفى واحداً على الآخرين ، ولذلك نفهم المقصود بقوله تعالى : « على العالمين » . أى : على عالمي زمانهم ، إنهم قوم كانوا موجودين وقد اصطفتى منهم واحداً ، أما الذى سيولد من بعد ذلك فلا اصطفاء عليه ؛ إننا نتكلم عن عالمهم الموجود فى زمانهم .

وقوله تعالى : ﴿ ذُرِّيَّتُهَا مِنْ بَقَرٍ ﴾ [آل عمران ٣٤] يجب أن نعلم . هل المقصود بذلك الأسباب ، أم الدين والقيم ؟ خاصة أن الحق سبحانه قد علمنا فى مسألة إبراهيم أن الأسباب بالدم واللحم عند الأنبياء لا اعتبار لها ، وإنما الأسباب المعترف بها بالنسبة للأنبياء هى أنساب القيم والدين .

إذن .. نحن نعلم قون الحق سبحانه : ﴿ ذُرِّيَّتُهَا مِنْ بَقَرٍ ﴾ . على أنها ذرية فى توارثها للقيم .

دافع مناجاة امرأة عمران لله تعالى

قال تعالى : ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيْ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران ٣٥] . عندما قرأ «إِذْ» فلنعلم أنها طرف ، ويقدر لها في اللغة : «أذكر» ، ويقال : «إذ جئت» ، أى : «أذكر أسمى جنتك» : وعندما يقول الحق تعالى : ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾ فبعض الناس يفهم أن الحق سبحانه سمع قول امرأة عمران ، وعلم سبحانه دافعها وقت أن قالت امرأة عمران : ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي﴾ ؛ إنهم يحاولون أن يربطوا هذه الآية بما جاء قبلها من أن الله تعالى سميع وعليم ؛ لأن الحق قال قبلها : ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ .

وقولها : ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ ؛ فالدافع إلى هذه المناجاة لله سبحانه . أنها كانت موجودة في بيئة ترى الناس يعتزون بأولادهم ، وأولاد الناس يحكمون حركة الناس ، والناس يحكمون حركة أولادهم ، ويكد الناس من أجل أن يكون الأبناء عزوة وقرة عين ، ولم تعجب امرأة عمران بذلك ؛ لقد أرادت ما في بطنها محرراً من كل ذلك ، إنها تريد محرراً منها وهي محررة منه ، وهذا يعنى أنه غير مرتبط بشيء أو بحب أو برعاية ؛ فلماذا ؟ إن الإنسان مهما كان مجاهداً لنفسه في طاعة الله ، فإن المسائل التي تتصل بالناس وبه تمر عليه وتشغله ؛ لذلك أرادت امرأة عمران ما في بطنها محرراً من كل ذلك .

وقد يقال : إن امرأة عمران إنما تتحكم بهذا البذر في ذات إنسانية كذاها .

ونرد على ذلك بما يلي . لقد كانوا قديماً عندما ينثرون ابناً للبيت المقدس - ما دامت لهم الولاية عليه - يظل كما أرادوا إلى أن يبلغ سن الرشد ، وعند بلوغ سن الرشد فإن الابن له أن يختار بين أن يظل كما أراد والده ، أو يحيا حياته كما يريد . وبلوغ سن الرشد هو اعتراف بدانية الإنسان في اتخاذ القرار للناسية لحياته .

إن امرأة عمران لا تريد ما في بطنها أن يكون قرة عين ، أو أن يكون معها ، إنها تريد محرراً لخدمة البيت المقدس ، وطلب امرأة عمران هذا يقتضى هي التصور البشرى أن يكون المولود ذكراً ؛ لأن الذين كانوا يقومون بخدمة البيت هم الذكور .

إذن .. فمعنى طلب امرأة عمران : ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ ، أى أنها

تطلب ولداً ذكراً ، ونحن نعرف أن كلمة الولد يطلق على الذكر والأنثى ، ولكن الاستعمال الشائع هو أن يطلق الناس كلمة ولد لا على الذكر فقط ، ولكن الولد كلمة معناها المولود سواء أكان ذكراً أم أنثى . وكلمة « نذر » عندما تسمعها تفهم أنها أمر أريد به طاعة فوق تكليف المكلف من جنس ما كُلف .

إن النذر هو زيادة عما كُلف المكلف من جنس ما كلف . وكلمة ﴿مَذَرْتُ﴾ إن امرأة عمران كانت تقية ورعة ، ولكنها ليست مجبرة على النذر ، وفعلت ذلك - وهو أمر رائد من أجل خدمة يربى الله - لأنه إن قام البعض بخدمة البيت فلنثر خدمة البيت يسقط عن الآخرين ، وإن لم يتم أحد بخدمة البيت فإن ذلك معناه وقوع الجميع في الإثم ، وما دامت امرأة عمران قد نذرت ما في بطنها محرراً ، فهذا يدل على حبها لربها جل وعلا ؛ لأن النذر كما نعلم يظهر حب العبد لربه ولأوامره ؛ فإنك لو لم تحب ربك لما زدت فوق ما كلفك من جنس ما كلفك .

والمقصود بقوله تعالى : ﴿فَتَقَبَّلَ رَبِّي﴾ القول هو أخذ الشيء برضا ؛ لأنك قد تأخذ بكروه أو تأخذ على مضض أما ﴿فَتَقَبَّلَ﴾ فذلك يعنى أن الأخذ بقبول ورضى . واستجاب الله لهذا الدعاء ؛ قال تعالى : ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ .

والرب هو المتولى للتربية ؛ لذلك قالت امرأة عمران : ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ أَسْمِعُ الْغَيْسُ﴾ . هكذا كان الدعاء . وهكذا كانت الاستجابة : ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ : الحسن هنا هو زيادة في الرضا ؛ لأن كلمة : ﴿بِقَبُولٍ﴾ تعطينا معنى الأخذ بالرضا ، وكلمة : ﴿حَسَنٍ﴾ توضح أن هناك زيادة في الرضا ، وذلك بما يدل [على] أن الله قد أخذ ما قدمته امرأة عمران برضى وبشيء حسن ، وهذا دليل أن الناس ستلح في تربيتها شيئا من الرضا ؛ إنه ليس قبولا عاديا ، لكنه قبول حسن .

وقوله تعالى : ﴿وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ . يدل على أن امرأة عمران كانت تقصد حين نذرت ما في بطنها ألا تربي ما في بطنها إلى العمر الذي يستطيع فيه المولود أن يخدم في بيت الله ، ولكنها نذرت ما في بطنها منذ اللحظة الأولى لميلاده ، إنها لن تنعم به ، ولذلك قال

الحق : ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ ، وذكرها هو روح خالة السيدة مريم عليهما السلام .

امنية امرأة عمران

قال تعالى : ﴿فَلَمَّا وَصَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَصَعْتُهَا أَنْثَىٰ . هَذَا الْقَوْلُ مِنْ امْرَأَةِ عِمْرَانَ ؛ لَأَنَّهَُا كَانَتْ قَدْ قَالَتْ : ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ لخدمة البيت . وقولها : ﴿مُحَرَّرًا﴾ ؛ تعنى أنها أرادت ذكرًا لخدمة البيت ، فلما جاء المولود أنثى فهمت أن ذلك لا يؤدي إلى الغرض المطلوب الذي أرادت ؛ وهو خدمة البيت فقالت : ﴿رَبِّ إِنِّي وَصَعْتُهَا أَنْثَىٰ﴾ فكأنها قد قالت : إن لم أمكن من الوفاء بالنذر بلأن قدرك سبق في أنه غير مدور . ولكن الحق يقول بعض ذلك : ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَصَعْتَ﴾ [آل عمران : ٣٦] ؛ إن هذا القول يعنى أنها لا تعترض على قدر الله ، ولكنها تريد أن تظهر التحسر ؛ لأن الغاية من نذرها لم تتحقق ، لقد كانت تتحسر لأنها كانت تحب أن يكون المولد ذكرًا لخدمة البيت ، فإن لم تقدر على الوفاء فلأن الله قدر أن يكون المولود أنثى .

الحق سبحانه يقول بعد ذلك : ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾ . فهل هذا كلامها أم من كلام الله تعالى ؟ إما أنه كلام الله تعالى ؛ فكأنها لما قالت : ﴿إِنِّي وَصَعْتُهَا أَنْثَىٰ﴾ . قال الله تعالى : ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾ . كأن الحق يقول - ما معناه - لا تظنى أن الذكر الذي كنت تسمين سيصل إلى مرتبة هذه الأنثى ؛ إن هذه الأنثى لها شأن عظيم .

أو أنه من تمام كلامها : ﴿إِنِّي وَصَعْتُهَا أَنْثَىٰ﴾ ويكون قول الحق سبحانه : ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَصَعْتَ﴾ هو جملة اعتراضية ، ويكون تمام كلامها : ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾ . أى أنها قالت يا رب إن الذكر ليس كالأنثى ؛ إنها لا تصلح لخدمة البيت ؛ وليأخذ المؤمن المعنى الذى يحبه ، وسنجد أن المعنى الأول فيه إشراف أكثر .

فلا يقول أحد ذكرًا أو أنثى لأن بية امرأة عمران فى الطاعة أن يكون المولود ذكرًا ، وشاء قدر الله أن تكون أنثى ، وتكون هذه الأنثى أسمى من تقدير امرأة عمران فى الطاعة لذلك قال : ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾ . أى أن الذكر لن يصل إلى مرتبة هذه الأنثى .

وقالت امرأة عمران : ﴿وَلِإِنِّي سَمِعْتُهَا مَرَّةً وَإِنِّي أَحْبَبْتُهَا إِلَيَّ وَوَدَّيْتُهَا مِنْ أَشْجَلَنِ الرَّجَسِ﴾ [آل عمران : ٣٦] .

إن امرأة عمران قالت ما يدل على شعورها ، فحينما فاب المولودة أن تكون على الخدمة لبست الله تعالى ؛ لأنها جاءت أنثى ، تمتت امرأة عمران وتفاعلت أن تكون المولودة طائعة عابدة ، فسئلتها مريم لأن مريم في لعنتهم معناها العابدة ، فما فات المولودة في خدمة البيت ، فليكن في خدمة عقائدها وخدمة منهجها في ذاتها ، وأول ما يقدم العبودية هو الشيطان ؛ فإنه هو الذى يجعل الإنسان يحمده على العبودية .

إن الإنسان يريد أن يصير عابداً فيجىء الشيطان ليزين له المعصية ؛ لأجل ذلك أرادت امرأة عمران أن تسمى ابنتها من نزغات الشيطان ؛ لأنها عرفت بحجرتها أن المعاصى كلها تأتى من نزغات الشيطان ، وقد تمت لمريم أن تكون عابدة ؛ لقد كانت امرأة عمران تمتلك عقلية إيمانية حاضرة تحمل المسحج التعمدى كله ، فقالت : ﴿وَلِيَّ لِيُحْيِدْهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ .

وعلمنا الرسول ﷺ حين يأتى الرجل أهله أن يستعيد بالله تعالى من الشيطان ؛ لأن إتيان الأمل مظنة لمولود قد يجىء ، فعلى العبد أن يقول « اللهم نجِّننا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقنا » ، ومن يقول هذا الدعاء قبل إتيانه أهله فلا يكون للشيطان ولاية أو سبيلاً على المولود إن قدر أن يكون ، ولذلك قالت امرأة عمران : ﴿وَلِيَّ لِيُحْيِدْهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ .

والذرية قد يفهمها الناس على أنها النسل المتكاثر ، ولكن كلمة ذرية تطلق على الواحد وعلى الاثنين وعلى الثلاثة ، والنزيرة هنا بالنسبة لمريم هي : عيسى عليهما السلام .

كفالة زكريا لمريم

يقول تعالى : ﴿فَنَقَّبَلْنَا رَبَّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَلْبَسْنَاهَا ثِيَابًا حَسَنًا وَكَلَّمَهَا زَكْرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكْرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ مِنْهَا بَرْنًا قَالَ يَمْرُؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران : ٣٧] . قد عرفنا القبول الحسن والإنبات الحسن ، أما قوله تعالى : ﴿وَكَلَّمَهَا زَكْرِيَّا﴾ . فهذا يعنى أن المسألة جاءت من أعلى ، إنه الرب الذى قبلها بقبول حسن وهو سبحانه الذى أنبأها نبأاً حسناً .

إذن .. فرعاية زكريا لها بأمر من الله ، والدليل على ذلك أنك ساعة تمد فرعة أو سهاً

فالناس تكون قد خرجت من مراداتها المختلفة إلى مراد الله ، فعندما يختلف على شيء ، فإننا نُجرى فرعة ويُخصص سهم لكل مشترك فيها ، وبرى بعد ذلك من الذى يخرج ، ذلك لنمنع هوى البشر ؛ وهذا ما حدث عند كفالة زكريا لمريم .

ولذلك فالحق سبحانه يقول لرسوله محمد ﷺ ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أُنْبِيَآءِ الْمَسِيحِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَنتَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٤٤] .

إذن . فالكمالة جرى فيها تنازع ، دليل ذلك أنهم اتفقوا على إجراء فرعة بالنسبة لكفالة مريم ، ولا يمكن أن ينجثوا إلى هذه القرعة إلا إذا كان قد حدث تنازع بينهم عن : ﴿ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ ؟ ومن فضل الله أن زكريا عليه السلام كان متزوجاً من أشياخ أخت حنة التى هى أم مريم ، فهو زوج خالتها .

وموله : ﴿ أَفْلَنتَهُمْ ﴾ قيل : إنها القنداح التى كانوا يصنعونها قديماً ، أو : الأقلام التى كتبوا بها التوراة ، فرموها فى البحر ، فمن طفا قلمه فاز بكفالة مريم ، ومن عرق قلمه فى البحر لم يمز بكفالة مريم .

إذن .. فهم قد خرجوا عن مراداتهم إلى مراد الله سبحانه ، والخروج عن المرادات والخروج عن الأهواء كالقرعة مثلاً لا توجد فى النفس غصاصة ، لكن لو كان سيأخذ رعاية مريم بالقوة والغضب ، لكانت نفوس الآخرين بمثابة المرارة أو العصب ؛ ولذلك فقد كان سائداً فى ذلك العصر عملية إجراء السهام إذا ما خافوا أن يقع الظلم على أحد أو أن يُساء الظل بأحد .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ : يرشدا إلى أن زكريا عليه السلام هو الذى كان يقوم برعاية شؤون مريم .

اصطفاء مريم على نساء العالمين

يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَسِّرِيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْمَكَوِيْنَ ﴾ [آل عمران : ٤٢] .

« الملائكة » ، قيل : إن المراد بالملائكة جبريل عليه السلام . وعلة أن الحق سبحانه يورد ذلك بقوله : ﴿ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ ﴾ ، لأن كلام التكلم له رابطة انطلاق يأتى من جهتها الصوت ،

وتستطيع أن تتأكد من ذلك إذ سمعت صوتاً ، وإنك تجد ميل أذيك لجهة مصدر الصوت ، وإن جاء الصوت من ناحية أذنك اليمنى فأنت تلتفت وتميل إلى يمينك ، وإذا جاءك الصوت من شمالك تلتفت إلى الشمال ، لكن التكلم هنا هو الملائكة يتكلمون بنفس واحد ؛ لذلك فالصوت قد جاء مريم من كل جهة حتى يصير الأمر عجيباً .

ماذا قالت الملائكة ؟ قالت : ﴿يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءٍ ۚ فَكُونِ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ .

في هذه الآية نجد أن الحق سبحانه لم يورد ﴿عَلَىٰ﴾ في الاصطفاء الأول ، وأورد بعده أنه طهرها ، ثم أورد في الاصطفاء الثاني : ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءٍ﴾ .

إذن .. لابد لنا أن نعلم ما هو الاصطفاء ؟ الاصطفاء : اختيار واجتباء مأخوذ من الصفر ، والصفر أو الصافي : هو الشيء الخالص من الكدر ؛ لذلك يكون قول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ . أى : اختارك واجتباك .. بماداً ؟ بالإيمان والصلاح والخلق الطيب ، كل ذلك بالمعنى ، ولم يورد في الاصطفاء الأول على من يكون الاصطفاء ، ولكن في الاصطفاء الثاني قال الحق : ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءٍ﴾ .

إذن .. فهذا خروج للرجال عن دائرة الاصطفاء ، إنه ليس موضوع رجال ، وإنما هي مصطفاة على نساء العالمين ؛ إذ لا توجد أنثى في العالمين تشاركها في هذا . لماذا ؟ لأنها هي الوحيدة التي مثلد من دون ذكر ، وهذه مسألة لن يشاركها فيها أحد .

ولنا أن نسأل : نتيجة الاصطفاء ؟ لقد عرفنا أن الاصطفاء هو الاجتباء والاختيار . والمصطفى : بفتح الفاء يقتضى «المصطفى» بكسر الفاء . والمصطفى هو الله تعالى ، ومن الذى اصطفى ؟ إنها من وقع عليها الاصطفاء ، ولكن ما حلة الاصطفاء ؟ لير هذا الأمر . إن الذى يصطفيه الله يصطفيه لمهمة ، وتكون مهمة صعبة .

إذن .. فهل يجب على الناس أن يفرحوا بالمصطفى أم لا يفرحوا به ؟ إن عليهم أن يفرحوا به ؛ لأنه جاء لمصلحتهم . وبعد ذلك يقول الحق جل وعلا : ﴿يَمْرُؤُا أَنتُنَّ لِرَبِّكِ وَأَسْبَغِي وَأَزْكِي مَعَ الرَّاكِبِينَ﴾ [آل عمران : ٤٣] .

فكان ما تقدم من حيثيات الاصطفاء الأول والاصطفاء الثانى ، يستحق منها القبول ،

أى : العبادة الخالصة الخاشعة الخاشعة

ومعنى قوله تعالى ﴿يَسْتَرِيحُ أَقْنَىٰ رِيكٍ﴾ . إنه أمر بالعبادة الخاشعة المستدامة لربها ، وكلمة ﴿رِيكٍ﴾ أى : لخالفك الذى ربك ، فكأن الاصطفاءات يقيم على مريم ، تستحق منها القنوت . وقوله تعالى : ﴿وَأَسْجُدِي﴾ أى : بالنى فى الخشوع والخضوع بوضع الجبهة التى هى أشرف شيء فى الإنسان على الأرض ؛ لأن السجود هو أعلى مرتبة فى الخضوع ، لكن هل هذا اللون من الخضوع يعفيها مما يكون مع الناس ؟ لا .. إنه الأمر الحق يصير لمريم : ﴿وَأَرْكَمِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ .

فليس فى فعلك السجود وهو القمة فى الخضوع عفاة من فعل الركوع ، بل عليك أن تركعى مع الراكعين ، أى : كونى معهم راكعة ، فلا يحق لك يا مريم أن تقولى : لقد أمرى الله بالسجود الذى هو قمة الخضوع والخشوع . إن الحق يأمرها أن تكون أيقنا ضمن ركب الراكعين ، ولم يقل الحق مع «الراكعات» [لماذا] ؟ قبل الإجابة عن هذا السؤال نحب أن نتهّد تهيتا بسيطا على فلسفة الأسماء فى وضعها على مسياتها ، والأسماء ألفاظ فى اللغة تعين مستها ، والمسيات مختلفة ؛ فمنها الجماد ، ومنها النبات ، ومنها الحيوان ، ومنها الأسماء التى تدل على عالم الغيب كالجن والملائكة .. إلخ . هذه الأسماء تدل على معانيها ، وهى الله سبحانه البشر إليها بما علم آدم من الأسماء ؛ لأن الحق لو لم يعلم آدم الأسماء فكيف كان باستطاعة آدم معرفة الأسماء ، وكيف كان باستطاعته التعبير عن معطيات الأسماء بمسياتها ؟ قول الحق سبحانه وتعالى لمريم : ﴿وَأَرْكَمِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ ؛ الركوع ليس خاصا بالمرأة حتى يقول : «مع الراكعات» ، ولكنه أمر عام يشمل الرجل والمرأة ، ولو افترضنا أن الحق قد قال : «اركمى مع الراكعات» . فهل كان ذلك منقلا للرجال من الصلاة أو معها هى من الصلاة ؟ لا .. لذلك جاء الأمر لمريم بأن تركعى مع الراكعين ، ومجيء الأمر عائنا بدخل الراكعات مع الراكعين ، ولو قال الحق : «اركمى مع الراكعات» لم يدخل الراكعين فى الراكعات ؛ إن المعنى هنا عام يشمل الجميع .

مريم من ذرية إبراهيم عليه السلام

قال الله تعالى : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ

وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ [الأنعام : ٨٤] .

حينما نسمع قول الحق : ﴿وَوَهَبْنَا﴾ نعرف أن العطاء لم يأت بالأسباب ، وإنما جاء بلا أسباب ، فإذا عملت عملاً وأخذت أجراً عليه ، فهذا ليس هبة ، والله سبحانه وتعالى قد جعل التكاثر البشري هبة من عنده .. فالذرية هي هبة من الله لحلقه ، ومجرد الزواج الذي هو التقاء الرجل بالمرأة لا يأتي بالذرية ، ولكنها هبة من الله ؛ لأنها ليس فيها مشقة للعمل ، وهكذا تخرج من منطق الأجر إلى منطق الهبة ، كذلك فإن العقم الذي يُعطى به أي من الزوجين هو أيضاً هبة ؛ ذلك لأنك إذا استقبلت العقم بالحمد ولم تنظر إلى أبناء الغير بالحق والحمد ، يجعل الله كل من تراه ابنائك ؛ هذا يخدمك ، وهذا يخدمك ، هذه هي هبة العقم . أما هبة الإناء فإنك لو رضيت بها ، تجد أن الله يبعث إليك رجالاً يتزوجون بناتك ، ويصبح هؤلاء الرجال أفصل لك وأكثر طاعة من أبنائك .

إبراهيم عليه السلام ورزقه لم يكرها بنجان ، وتزوج إبراهيم هاجر وأنجب منها إسماعيل عليهما السلام ، ربما كان ذلك أخذاً بالأسباب ؛ لأن إبراهيم لم يكن في هذا الوقت قد أصبح شيخاً ، ولكن عندما كبر إبراهيم وكانت زوجته سارة عقيمة لا تلد وحبه الله إسحاق عليهما السلام ؛ لتكون هذه الهبة مع عجز الأسباب دليلاً على طلاقة القدرة ، وإسحاق تزوج وأنجب يعقوب .

الإنسان منا يعلم بواقع قوانين الكون أنه ميت ، وعندما يكبر الإنسان يريد أن يكون له ابن ليرث اسمه في الحياة ، فإذا جاءه ولد فكأنه صين استمرار حياته جيلاً ، فإذا جاء له حفيد ضرس استمرار حياته جيلين ، فإذا كان الولد تقياً صالحاً كان ذلك قرّة عين الأب ، ولذلك فعلياً أن نطلب دائماً النسل الصالح اقتداءً بالأنبياء ؛ فهنا ذكرنا حينما دعا ربه قال : ﴿وَأِنِّي رَحِمْتُ الْمَوْلَى مِنْ وَرَثَتِي وَكَأَنِّي آمُرُكَ بِكَافِرٍ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۝ يَرْثُنِي وَيَرْثِ مِنْ عَالِي يَعْثُوبٍ وَأَجْعَلْهُ رَبِّي رَضِيًّا﴾ [مريم : ١٥ ، ١٦] .

أي أنه يجب ألا نطلب الولد فقط ، ولكننا نطلب الولد الصالح الذي يحمل الخير للناس ، وهنا نلاحظ أن قول الحق سبحانه . ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا

هَدَيْتَنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ هـ هبة من الله تعالى ، ومكافأة لحليل الرحمن الطيبة .

إذن . مكافأة إبراهيم ﷺ على طاعته لله سبحانه لما ابتلاه بكلمات فائمهن ، جاءت مدية صالحة ؛ فلم يُفْطَ الولد والحفيد فقط ، ولكنه أعطيهما مهديين نبين ، ونعم الهبة الولد الصالح ، ولم تكن هبة الله لإبراهيم مقصورة على ذلك ؛ بل جعل في ذرية إبراهيم الأنبياء : داود ، سليمان ، أيوب ، يوسف ، موسى ، هارون ، زكريا ، يحيى ، وعيسى ، وإلياس ، وكذلك إسماعيل ونيسا محمد صلوات الله عليهم وسلامه .

عندما بلغت إلى أسماء الأنبياء التي ذكرت في هذه الآيات ، نجد أن القرآن الكريم قد بين لنا أن هبة الله لإبراهيم لم تقتصر على هؤلاء ، بل قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الْمُتْلِينَ ﴾ ٨٥ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَلْنَا عَلَى الْمُنَالِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَالِيهِمْ ذُرِّيَّتُهُمُ وَإِسْمَاعِيلُ وَإِسْحَاقُ وَيُوسُفُ بْنُ مَرْيَمَ وَهُدْيُهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ [الأنعام ٨٥ - ٨٧] .

المذكورون في هذه الآيات من الرسل ثمانية عشر ، وهناك سبعة من الأنبياء لم يذكروا في هذه الآيات ، وذكروا في آيات أخرى من القرآن الكريم ، وهم : إدريس ، وهود ، وشعيب ، رصالح ، ودو الكفل ، وآدم ، ثم خاتم الأنبياء محمد رسول الله ﷺ . وأطول آية قسم فيها الرسل هي هذه الآية من سورة « الأنعام » .

ولننظر إلى حكمة التقسيم . فمن هؤلاء الأنبياء المذكورين : اثنان كانا ملكين هما سليمان ، وداود عليهما السلام .

إن الله أعطى سليمان وداود عليهما السلام سعة الملك والسلطان ، صادا أعطى أيوب ﷺ ابتلاء وأعطاه الصبر على البلاء ، وموسى وهارون وعيسى عليهم السلام أعطاهم شهرة الاتباع ؛ ولذلك لا نكاد نعرف شيئا من الأديان إلا اليهودية والمسيحية ، وزكريا ويحيى وإلياس عليهم السلام أعطاهم الزهد ، فهؤلاء أخذوا ملكة الزهد ، وإسماعيل واليسع ويونس ولوط عليهم السلام أعطاهم رهرة الحياة ؛ ولذلك لا نعرف لهم أتباعا ، ونأتى بعد ذلك إلى نيسا محمد ﷺ فقد أعطاه الله تعالى الهدى الذي يقفدى به خلق الله كلهم فهم بهداه مهتدون .

وحين ذكر الله تعالى عيسى عليه السلام وقف العلماء عند قول الله سبحانه: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ ، أى : من ذرية إبراهيم ، وهل عيسى من ذرية أحد ؟ نعم ، العنصر البشرى فى عيسى وهو الأم مريم عليها السلام من ذرية إبراهيم ، وهذا ما احتج به أبو جعفر محمد الباقر ، حين قال له الناس فى موسم الحج : أنتم تدعون أنكم من نسل رسول الله ﷺ مع أن رسول الله ﷺ لم ينجب ذكورا ؟ قال لهم : كأنتكم لم تقرأوا القرآن فى قول الحق : ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ . إلى أن تصل إلى نبي الله عيسى ، وعيسى عليه السلام ولد من غير أب ، من أنثى فقط ، إذن فنحن من ذرية محمد ﷺ .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ذَلِكَ هُدًى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَلَيْهِمْ ثَمَرًا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام ٨٨] .

وهنا استعمال ذلك إشارة إلى ما تقدم وهم : إبراهيم وإسحاق ويعقوب وسليمان . لماذا قال الحق : ﴿ذَلِكَ﴾ ولم يقل . « أولئك » مع تعددهم ؟ لأن الإشارة هنا إلى شىء جامع ، وهم المهديون من الله ، لذلك فهو شىء واحد ، أما « الكاف » فإن الله يخاطب بها مفردا ، وهو رسول الله ﷺ وخطاب الرسل ﷺ هو خطاب لكل أمته .

شمول المعجزة مريم وعيسى ، عليهما السلام

قال سبحانه وتعالى : ﴿وَحَاطَّا ابْنَ مَرْيَمَ وَآمَنَهُ عَائِدَةً وَآوَيْنَهُمَا إِلَىٰ رِبْوَةٍ فَأَتَىٰ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون . ٥٠] . حين يوجد لفظ مفرد ولكنه جبر عن اثنين فلا بد أن نعم الخير الطرفين ، فقول الله سبحانه : ﴿وَحَاطَّا ابْنَ مَرْيَمَ وَآمَنَهُ عَائِدَةً﴾ . يفيد أن الآية ليست من واحد منهما ، ولكنها من مجموع الاثنين معا ، لأن الآية هنا أن عيسى عليه السلام ولد من غير أب ، ومريم أنجبت ولم يمسهما بشر لا بروج ولا رثى ، فالمسألة متعلقة بكل منهما ، فالآية لا تكون فى واحد منهما دون الآخر .

ونظرا لأن الآية متعلقة بهما على حد سواء ، نجد الحق سبحانه مرة يذكر ابن مريم أولا ، فيقول تعالى كما فى هذه الآية : ﴿وَحَاطَّا ابْنَ مَرْيَمَ وَآمَنَهُ عَائِدَةً﴾ .

ولى آية أخرى يذكر مريم أولا حيث يقول سبحانه : ﴿وَالَّتِي أَحْصَيْتَ فَزَحْمَهَا فَفَعَصَا فِيهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهَا وَأَسْكَنَ فِيهَا لَمَعْلُوفَةٍ﴾ [الأنعام . ٩١] .

فالاثنان سواء في حبرية الآية ، وليس لأحد منهما تمجيز على الآخر ، وهذا يدل على أنهما شريكان في الآية ، أى : المعجزة ، فلا يمكن أن تتحقق الآية بواحد منهما .

فالآية في مريم أنها ولدت بدون رجل ، وما دام حدث معها هذا لابد أن تتعرض للمطاردة والاصطهاد ، كما تخجل هي من نفسها ؛ لأن هذه طبيعة في الأنثى ، وإذا كانت بت شعيب ذهبت إلى موسى وهي تمشي على استحياء ، فما بالك بمريم حين تأتي قومها وهي تحمل وليدها على كفها دون أن يكون لها رجل ١١ .

وقد حفظ الله مريم وابها من كل سوء حتى أن حظيها يوسف النجار الذى كان يجب أن يعار ويمصب لما حدث ، أنزل الله على قلبه السكينة والقبول ، وظل في خدمتها ورعايتها ؛ لأن الله يحوّل بين المرء وقلبه ، فقلبه كان يجب أن يتغير من ناحيتها ؛ لأن هذه طبائع البشر ؛ ولكن الله أنزل هذا الأمر عليه برذاً وسلاماً ، فلم يفعل شيئاً إلا أنه سألها سؤالاً واحداً فقال لها : يا مريم ، أريد منك أن تقولى لى : هل رأيت فى حياتك شجرة تبست بدون بكرة ؟ فضحكت وقالت له : الشجرة التى أنبتت أول بكرة .

ومعنى قوله تعالى : ﴿رَأَوْنَهُمْ إِنْ رَّبُّوَكَ ذَاتُ قُرَارٍ وَمَعِينٌ﴾ [المؤمن ٥٠] .

أوبناهما من الإيواء ، ومعاها أن إنساناً اضطرت الظروف واحتاج إلى مكان يعيش فيه دهر مكاناً أوى إليه . ومريم فى هذه الحالة مضطرة ومضطهدة . وكل الناس ينظرون إليها نظرات الاستغراب والشك ، فلابد أن يهين الله لها مكاناً تأوى إليه ، وهذا المكان لابد أن تكون فيه مقومات الحياة ، وأولها الهواء ثم الماء ثم الطعام ، ونحن نعرف أن سطح الأرض يكون حاراً ، ولكن إذا ارتفعت على جبل مثلاً تجدد الحرارة أقل ، فكلما ارتفعت عن سطح الأرض انخفضت درجة الحرارة .. فالجو المعتدل لا يكون إلا فى ربوة ؛ لأنها تعلو عن سطح الأرض ، وهى فى ارتفاعها أقل من الجبل فتكون مقبولة فى الحروفى البارد ؛ لأنها مكان متوسط الحرارة . هذا من ناحية الهواء . ومعنى ﴿ذَاتُ قُرَارٍ﴾ من أسباب القرار والاستقرار : الطعام ، فلابد أن فى هذه الربوة زرعاً .

والمعين هو الماء - فالربوة فيها ماء أيضاً - حيسا أراد ربنا سبحانه وتعالى أن يضرب المثل بالأرض التى تؤتى أكلها مرتين قال . ﴿كَمْثَلِ جَنَّتِكُمْ يَرْتَوُوا أَصَابَهَا وَابِلٌ فَتَأْتِ أَكْلُهَا يُنْعَقُوبُ فَإِنْ أُنْمِ يُمِيبَهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَأَنَّ يَمَا تَسْمَلُونَ بِمِيبٍ﴾ [البقرة ١٦٥]

بشارة الملائكة لمريم

يقول تعالى : ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ بِبَشِيرِكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ أَسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران : ٤٥] .

لقد كانت المرحلة الأولى بالنسبة لإعداد مريم - هي قول الحق سبحانه . ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران : ٣٧] . وفيها عرفت طلاقة قدرة الله تعالى .

والمرحلة الثانية : هي معرفتها بحكاية زكريا ويحيى عليهما السلام ، وتأكيد الحق سبحانه أنه اصطفاها على نساء العالمين ، وكان ذلك إتيانًا لها .

ثم تدخل مريم إلى مرحلة جديدة ، وهي قول الحق تعالى : ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ بِبَشِيرِكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ . والبشارة لا تكون إلا بخبر عظيم مفرح ، وقد يتساءل واحد : ماذا يقصد الحق بقوله . ﴿بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ ؟

والإجابة . هي أن الحق سبحانه علمنا ذلك في قوله تعالى : ﴿كَذَلِكَ قَالَ لَهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ إِذَا قَسَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران : ٤٧] .

وهذا القول هو مجرد إيضاح وتقريب ؛ لأنه لا يوجد عندنا أقصر من الأمر بكلمة ﴿كُنْ﴾ ؛ لأن طلاقة قدرته سبحانه تسبق نطقًا بالكاف وهي الحرف الأول ﴿كُنْ﴾ . ولكن الحق سبحانه يوضح بشيء قريب لعقولنا نستطيع أن نستوعبه .

إن الحق سبحانه وتعالى إذا أراد أمرًا فإنه يقول له : كن فيكون . وهنا قد يسأل سائل : لم يقول الحق ﴿كُنْ﴾ ؟ إنه يقول للأمر ، أى أن الأمر يكون موجودًا قبل نطق الحق به ، لقد وجد الأمر بمجرد إرادة الله تعالى ، إن الحق يقول للأمر : ﴿كُنْ﴾ فيكون ، وذلك إيضاح أن مجرد الإرادة الإلهية لأمر ما فإن هذا الأمر ينشأ ، و﴿كُنْ﴾ هي مجرد إظهار الأمر للخلق .

إذن .. فكلمة : ﴿كُنْ﴾ جاءت لتدل على أن الحق يأمر بإظهار الأمر الذي أراده سبحانه ، هكذا نفهم معنى إشارة الحق سبحانه لمريم بكلمة مه .

ويقول الحق سبحانه : ﴿أَسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ .

ثلاثة أسماء : المسيح ، عيسى ، ابن مريم ، ما معنى المسيح ؟ قد يكون المسحوق من

الذنوب ، أو أن تكون من آياته أن يمسح على المريض فيبراً ، أو المسيح : المبارك . وعيسى هو الاسم ، والمسيح هو اللقب ، وابن مريم هو الكنية .

وجاءت الثلاثة أنواع في عيسى ﷺ : ﴿ أَسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۚ ﴾ .

وقوله تعالى ﴿ وَجِئَهَا فِي الدُّنْيَا ۚ ﴾ . نحن في حياتنا اليومية كثيراً ما نسمع كلمة وجيه ، والوجيه هو : ذو الجاه والشرف . وقيل الكريم على من ياله .

وكانت وجاهة عيسى ﷺ في الدنيا بيوته وما أنزله الله عليه ، وما أعطاه من آيات ومعجزات كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، وإذا كانت تلك وجاهة عيسى في الدنيا ، فلماذا نصر الحق على وجاهته في الآخرة ووصفه بأنه من المقربين ؟ !

الحق سبحانه وتعالى يعلمنا أن فتنة بعض الناس في عيسى ﷺ ، واعتقادهم فيه وفي أمه الطاهرة البتول أنهما إلهان من دون الله تعالى ، فإن هذا الاعتقاد الباطل والقول الزور لا يؤثر في مكاة عيسى ﷺ عند ربه وخالقه ، فإن للمعالى جزاءه ، والمعالى فيه تنجيه رحمة العزيز الغفار ، وقرأ قول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ أَنِجْدُوهُ وَأُنِجِ الْهَيْبِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَقْلُمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ [المائدة : ١١٦] .

وقول الحق تعالى : ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي النَّهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الْمَكَلِيلِ ﴾ ، و﴿ النَّهْدِ ﴾ هو ما أعد كفراش للوليد أى أنه يتحدث وهو طفل

و﴿ وَكَهْلًا ﴾ أى : في حالة تقدم العمر به ، ولقد أورد الحق سبحانه ﴿ النَّهْدِ ﴾ و﴿ وَكَهْلًا ﴾ رمزين لشيء : هو أن عيسى ابن مريم من الأعيار ؛ بطراً عليه مرة أن يكون في مهد ، ويطراً عليه مرة أخرى أن يكون كهلاً ، وما دام في عالم الأعيار فلا يجب أن تقتنوا فيه ، وعلى ذلك لا يصح أن تقولوا : إنه إله أو ابن إله .

ميلاد عيسى عليه السلام حدث عظيم

اعتقد كثير من الناس أن مريم هي ابنة عمران ، وأخت هارون كما وصفها القرآن ؛ قال سبحانه وتعالى : ﴿ يَكْنُحْتَ هُزُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أَثْلُكَ بَغِيًّا ﴾ [مريم : ٢٨] . ولذلك لما ذهب صحابة رسول الله ﷺ إلى اليمن قال لهم أهل اليمن : إنكم تقولون . إن مريم بنت عمران ، وتقولون : إنها أخت هارون ، مع أن ابن موسى وعيسى مدة تبلغ أحد عشر جيلاً ، فكيف يتأتى هذا ؟ وعجز الصحابة عن الإجابة ، ولما عادوا قصوا القصة على رسول الله ﷺ ، فقال لهم النبي ﷺ : (ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم) .

أى : إنهم كانوا يتفاءلون بأسماء الأنبياء ، فالمسألة تشابه فى الأسماء فقط ، إنها بس عمران ولكنه ليس عمران أباً موسى ، وأخت هارون وليس هارون أخاً موسى عليهما السلام فلما نذرتها أمها للخدمة بيت المقدس ، شاء الحق سبحانه وتعالى بعد أن كانت تفرع للبيت المقدس مكاناً ، أمرت نفسها لخدمة البيت المقدس فيما ، فصرغت بلقيم الدنية التى أنشئ من أجلها البيت المقدس ، حتى إنها هجرت أهلها وذهبت إلى مكان بعيد تخلو فيه بعيداً عن الناس ؛ قال تعالى : ﴿ وَادَّكُرَ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْفِيًّا ﴾ [مريم : ١٦]

وقوله تعالى : ﴿ انْتَبَذَتْ ﴾ أى : ابتعدت ، نبتت نفسها عن الناس وعن أهلها ، والإنسان يأبس بأهله ، ولكنها ابتعدت عن أهلها ، واتخذت من دونهم حجاباً أيضاً ؛ لكن تبعها هذا لا يمنع أن يمر عليها أحد ، فاتخذت حجاباً تستر به عمن يمر عليها فى هذا المكان ؛ أى : أرادت أن تعزل نفسها عن ديار الناس وعن أسسها بهم ؛ لأنها اكتفت بأنسها بالحق سبحانه وتعالى . قوله تعالى ﴿ مَكَانًا شَرْفِيًّا ﴾ أى شرقى بنتها ، أو شرقى البيت المقدس ، واختارت جهة المشرق ؛ لأنهم كانوا يتفاءلون بشروق الشمس ؛ لأن سمة المور المادى أن يجعل الإنسان لا يتعثر فى الأشياء ويستطيع أن يسير فيه على هدى .

وقوله تعالى . ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ [مريم : ١٧] . الحجاب هو ما يجعله الإنسان حاجباً له عن غيره ، وحاجباً لغيره عنه .

وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم ١٧].

كلمة الروح لها إطلاقات متعددة في القرآن، أول هذه الإطلاقات التي نفهمها: أنها قووم حياتنا المادية، فإذا نفخ في الإنسان الروح يصير في هذه المادة حس وحركة ونشاط وكل أجهزة تعمل، قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمُ سَجِيدِينَ﴾ [ص ٧١].

فهذه هي الروح التي تجعل المادة تحس وتحرك، الله تعالى يقول: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [مريم ٧١]. وهو جبريل، وكلمة ﴿تَمَثَّلَ﴾ تعني أن هذه ليست صورته وليست حقيقته، ولكن حقيقته شيء مختلف من بوارية وشفافية، وغير ذلك من الأجنحة مشي وثلاث ورباع، وحقائق أخرى، ولكنه لم يظهر لها على حقيقته وتمثل لها في صورة بشر؛ لأنه لا يمكن أن يلتقي الملك بملكه مع البشر بشريته؛ ولأن هذا له قانون وهذا له قانون، وإما أن يتمثل الملك في صورة بشر، وإما أن الإنسان نفسه يرقيه الله؛ ليأخذ صفة الملائكية، كما رقى النبي محمدًا ﷺ في المعراج.

فليس من الممكن أن يتفاهم معهم الملك، إلا إذا تمثل في صورة بشر وذلك من أجل الإناس؛ لأن الناس لم يروا الملائكة، فربما لو رأوا الملك على صورته الحقيقية يحدث لهم رعب وفزع، فلا بد أن يتمثل في صورة بشر.

إذن .. تمثل جبريل لمريم في صورة بشر من جنسها؛ لأنها لم تكن لتطيق النظر إليه وهو في صورته الحقيقية.

ومعنى: ﴿سَوِيًّا﴾ يقال: ملان سوى التكوين إذا كانت أبعاد جسمه مسجمة مع بعضها؛ فليست جبهته عريضة أو أنفه مملطحة أو ظهره مقوساً أو فيه عيب ظاهر؛ ولكنه بشر سوى أي: مستوى الأعضاء والأبعاد؛ وذلك للإناس، وأيضاً ليثبت أن مريم عفيفة شريفة، بدليل أنها لما رأت هذا الإنسان السوي الوسيم الجميل قالت: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَفِيًّا﴾ [مريم ٨١]. ومعنى: ﴿أَعُوذُ﴾ أي: ألتجئ إلى الله سبحانه؛ لأنني أخاف أن تعتدي عليّ وأنا امرأة ضعيفة. وإذا استعدت بالله تعالى، فافهم أن الذي يحترم استعادة إنسان بربه هو الإنسان المؤمن؛ فإن استعاد أحد بالله تعالى أمامه يعصو عنه؛ لأنه لا يستطيع أن يجترئ

حلى من استعداد يربه .

وكلمة : ﴿أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ﴾ تعنى أن عندها أملاً ، فحتى إن لم يكن هذا الرجل تقياً فرحمة ربها تقبها منه .

فماذا قال لها الملك ؟ ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ ، أى أنا لست قادماً من تلقاء نفسى ، ولكى رسون من عند ربك إليك . لم يقل : رسول الله تعالى . لأن الرب هو المتولى التربية ، والذى تولى تربية شىء يصونه عن أى إفساد ؛ ولأن الربوبية عطاء مادي ، أما الألوهية فمعطى للقيم والعبادة . وكلمة : ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ كان المقروض أن يفهم منها أنها هبة ، فليست مسألة أسباب ، ولكن الأمر هبة من عند الله . كما كان يحيى عليه السلام هبة من الله للنبي زكريا ؛ لأن زكريا كان قد بلغ من الكبر عتياً وامرأته كانت عاقراً لا تلد ، لكن فى مسألة مريم هناك أنوثة فقط بدون ذكورة .

وقوله تعالى : ﴿عَلَّمَا زَكِيًّا﴾ : هناك ذكى من الذكاء ، وزكى أى مطهر وصائب ونقى ، وحين قال لها الملك : ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ ، كانت الفتلة تفتصى معرفه أنه هبة ، وما دام هبة ، فلا تسأل عن الأسباب .

فماذا كان رد فعل السيدة مريم عليها السلام ؟ ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي زَكْرًا وَلَمْ أَكُ وَفِيًّا﴾ [مريم : ١٩] نحن نعرف أن التقاء الرجل بالمرأة له وسائل : الأولى : شرعها الخالق سبحانه وهى الزواج الشرعى بأركان المعروفة ، وهنا يكون مس الذكر للأنتى حلالاً ؛ لأنها زوجته .

الثانية : الاتصال المحرم بين الرجل والمرأة ، وهو الرمى ، فإذا تم هذا الأمر بموافقة الأنتى فهو زنى ، وفيه حكم شرعى ، وإذا تم رغماً فهو اعتصاب .

كلمة : «مسنى بشر» إذا جاءت فى القرآن فمعناها النكاح ، وقرأ قول الله تعالى : ﴿وَإِنْ طَلَفْتُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُمْ فَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُمْ فَرِيضَةً مِمَّا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة : ٢٣٧] . فالمس بمعنى النكاح . والإمام أبو حنيفة رضى الله تعالى عنه لما وقف عند قول الله تعالى : ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء : ٣٤] . قال : ليس المراد اللمس أو الملامسة ، ولكن المقصود هنا

الجماع . فكلمة : ﴿لَمَسْتُمُ﴾ ؛ أى جامعتم . وكلمة : ﴿أَنْ﴾ يستفهم بها عن الكيفية ، ومريم حين تحدثت معب الكيديات التى تعرفها من الزواج اخلال أو الالتقاء المحرام والبهى : هى التى تبغى الرجال ، وتتخذ مكانًا معروفًا لممارسة هذا الإثم ، وهناك معنى آخر للكلمة : «بغيا» أى : مبالغه فى البغى ؛ وهو الظلم .

وبعد ذلك رد عليها الملك بقول الله تعالى : ﴿قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىٰ هَٰئٍ وَلَنَجْعَلَ لَكُم مَّآبَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً يَتَّ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم : ٢١] .

وقال تعالى : ﴿هَرَّ عَلَىٰ هَٰئٍ﴾ كما قال فى الرد على زكريا أيضًا ؛ وكلمة هين وأهون بالنسبة لله تعالى لا تأنى على حقيقتها ؛ لأن كلمة . هين معناها أن هناك أهون ، وهذا بالنسبة للفعل حين يعالجه الإنسان ؛ فهناك فعل صعب بالنسبة له وغيره أصعب ، وأقل منه هين أو أهون ؛ لأن الإنسان يعمل على قدر طاقته ، ولكن ربما لا يعالج ، وإنما يقول للشيء : كن فيكون ، ولكنه يكلمها بالأسلوب الذى نفهمه ، فمعرفنا أنه إن كان قد خلقنا من غير شيء ، بإعادة خلقنا من أشياء أهون ، وهذا بمطقتنا نحن ، فهو سبحانه يخاطبنا على قدر عقولنا .

فخلق عيسى عليه السلام من أم بدون أب ، شيء هين على الخالق سبحانه . ولاحق سبحانه يريد أن يجعل خلق عيسى عليه السلام آية للناس ، والآية تعنى الأمر المبهج الذى يخرج عن مألوف العادة والأسباب .

ويريد أن يقف وقفة تأمل وتدبر عند قول مريم عليها السلام ﴿رَبِّ أَنْ يَكُونَ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسَّ مِنِّي بَشَرٌ﴾ . فلو أنها سكنت عند قولها : ﴿أَنْ يَكُونَ لِي وَلَدٌ﴾ ؛ لكانت تسألها أمرا معقولا ، ولكن إصافتها ﴿وَلَمْ يَمَسَّ مِنِّي بَشَرٌ﴾ . تثير سؤالا : من أين أتت بهذا القول ؟ هل قال لها أحد : إنك ستلدن ولدا من غير أب ؟ إن الملائكة لم تخبرها بذلك ، لكن ذهبها انصرف إلى مسألة المس مباشرة لماذا ؟ إنها بطرة وفطنة لمعرفة فى التلقى عن الله تعالى ، عندما قيل لها : ﴿أَسْمُهُ الْيَسُوعُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران : ٤٥] . قالت لنفسها . ما دامت نسبته إلى فلا أب له ؛ لذلك جاء قولها : ﴿وَلَمْ يَمَسَّ مِنِّي بَشَرٌ﴾ ؛ إذ لا يمكن أن ينسب الطفل للأُم مع وجود الأب .

هكذا نرى فطنة التلقى عن الله فى مريم البتول ؛ لقد مر بها خوف عندما عرفت أن عيسى

منسوب إليها؛ قالت لنفسها: إن الحمل بعيسى لن يكون بواسطة أب، وكيف يكون الحمل دون أن يمسي بشر. فقال الخالق القادر جل وعلا: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أى لن يمسك بشر، وكان من الممكن أن يقول لها: لقد سبناه لك؛ لأنك مددورة لخدمة البيت، لكن الحق قال ﴿كَذَٰلِكَ﴾ تأكيداً لما فهمته من أنها مستنجب عيسى دون أن يمسيها بشر، وتتجلى طلاقة القدرة فى قوله سبحانه: ﴿اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾.

نوله تعالى: ﴿وَكَاثُ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أى: متبها لا مناقشة فيه.

وقوله تعالى: ﴿فَعَمَلَتْهُ فَانَبَذَتْ بِهٖ مَّكَانًا قَوِيًّا ۖ فَلَجَّاهَا الْعِمَاسُ إِلَىٰ حَنْجٍ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِثُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّسِيًّا﴾ [مريم: ٢٢، ٢٣].

﴿فَعَمَلَتْهُ﴾ أى حملت به، ﴿فَانَبَذَتْ﴾: بعدت، ﴿مَّكَانًا قَوِيًّا﴾: أى بعيداً؛ لأنها شعرت بالحمل وخافت أن يطلع على سرها أحد. وكلمة: ﴿فَلَجَّاهَا﴾ أى جعلها نجى؛ لأن جاء معناها جاء من نفسه بمحض إرادته، ولكن السيدة مريم دفعها المحاض إلى المجيء إلى جذع النخلة، أى أتى بها المحاض إلى جذع النخلة، والمحاض هو الوجد الذى يصيب المرأة عند الولادة المباشرة ويسمونه «الطلق»، فحين جاءها المحاض أتت إلى جذع النخلة؛ لأن ألم الوضع يجعل صاحبه تمسك بأى شىء حولها تستند إليه من شدة الألم، فربما جاءت إلى جذع النخلة تستند إليه، وفى الآية قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ حَنْجٍ النَّخْلَةِ﴾. ولم يقل جذع نخلة. مما يدل على أنها كانت نخلة معروفة، وجذع النخلة يطلق على الساق الذى يـ من جلرها حتى الجريد.

لما حدث هذا الأمر لمريم؟ وأصبحت المسألة حقيقة واقعة من حمل ومحاض وولادة، حدث لها نوع من النزوع الانفعالى؛ لأنها فى البداية استعربت الأمر، وقالت كيف يكون لى غلام وأنا لم يمسينى بشر ولم أكُ بعياً؟! وبعد ذلك حملت، والحمل فى بطنها مستور، ولكن عند الوضع سينكشف الأمر، ويرى الناس الغلام وتواجهها المشاكل، فهذا شىء صعب على النفس فى مثل هذا الموقف.

ولذلك نجد النزوع الانفعالى فى هذه الحالة فى قولها: ﴿يَلَيْتَنِي مِثُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّسِيًّا﴾ [مريم: ٣٢]. هذا نم، إنها تمنى أن تكون قد ماتت قبل أن

يحدث هذا الأمر ، مع أن المشرع الحكيم نهانا أن نتمنى الموت ، لماذا ؟ قالوا : لأن تمى الموت ورد فيما ادعى اليهود أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأن البار لن تمسهم إلا أياما معدودة ، وأن البار الآخرة لهم حالمة عند الله ، حيث نزل قول الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَمْرِي وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

أى : إن كان ما تقرؤونه حقا في الآخرة لكم وحدكم ، فتمنوا الموت إن كنتم صادقين في ادعائكم . وفي نفس الآية أكد الحق سبحانه أنهم لن يتموه أبدا ، لأنهم أحرص الناس على حياة ، ولذلك فلن يتمنوا الموت أبدا .

وقلنا : إن السيدة مريم هنا تمت الموت ، مع أن الرسول ﷺ قال : « لا يتمن أحدكم للموت من ضر أصابه ، فإن كان لابد فاعلا فليقل : اللهم أحى ما كانت الحياة خيرا لى ، وتوفى إذا كانت الوفاة خيرا لى » . إن تمنى الموت المنهى عنه يسبب حدوث ما تكره . نكأنك كرهت الحياة وتمردت على القدر فتميت الموت لكى أن تمنى الموت ؛ لأنك تريد لقاء الله وتخشى الفتنة فى ديك وأنت مستصير إلى خير مما تركت ، فهذا موضوع آخر .

ثم يقول تعالى : ﴿ مَا دَبَّحْنَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنَ قَدْ جَعَلْنَا رُبَّكَ نَحْلًا سَرِيًّا ﴾ [الشعراء : ٢٢٦] .

﴿ مِنْ تَحْتِهَا ﴾ بكسر الميم ، وهناك قراءة : (فنأدأها من تحتها) بفتح الميم ، وكلمة من تحتها : دلت على أن الذى نادىها هو الوليد الذى وضعته وهو عيسى عليه السلام ، فقال لها : لا تحزنى . والحزن هنا ينشأ من أمرين : انقطاعها عن الناس ، وانها فى حالة ولادة ولم تجد أحدا يساعد أو يرعاها أو يقدم لها شيئا . فقال لها : إن ربك جعل تحتك سريرا . والشرى هو النهر الذى يجرى ماؤه زلالا .

وبالنسبة للطعام قال : ﴿ وَفَرَّغْنَا إِلَيْكَ إِذْ يَضْعَى الْوَلَدُ ﴾ فأعطاهما سبحانه الطعام والشراب ، وهذه منطوية مع احتياج الإنسان .

ومن المعلوم أن عناصر اسبقاء الحياة ثلاث مرات حسب أهميتها : منها الطعام ، ونحن

فى العادة نأكل ثلاث مرات فى اليوم ، ويستطيع أن نصبر على الطعام شهراً ؛ والماء أعلى من الطعام فى المرتبة ، ولا نستطيع أن نصبر على شرب الماء أكثر من ثلاثة أيام إلى عشرة على قدر ما فى الجسم من ماء ، وأهم هذه المقومات الثلاثة هو الهواء حيث لا يستطيع الإنسان أن يستغنى عنه لحظة .

إذن .. فالمسألة مرتبة حسب الأهمية ، فمرم عدها عناصر استبقاء الحياة الثلاثة : الهواء موجود ، والماء موجود ؛ فقد جعل الله تعالى تحفاً سرّاً أى ماء رالاً متدفقاً ، والطعام من رطب النحلة التى أمرها بهز جذعها ؛ لتساقط عليها الرطب .

وهنا نقف وقفة : إن هر جذع النحلة شىء صعب ؛ لأنك لو أتيت بأقوى رجل فى العالم ليمسك بنحلة من جذعها ويهزها فلن تسقط عليه واحدة من رطبها ؛ لأنه جذع ثابت ، ولكن الحق سبحانه أراد أن يجمع بين شيئين هما : طيب الأسباب مع الاعتماد على المسبب هو : هز النحلة مع أنها فى حالة محاض ومتعة ومتألة ، وجاءت إلى النحلة ؛ لتستر إليها ، فكيف تهرها وهى فى هذه الحالة من الضعف والألم ، مع أن أقوى الرجال لا يقدر على ذلك ؟ قالوا : لأن الله تعالى يريد أن يبقى اتخاذ الأسباب مهما كان الإنسان ضعيفاً ، فعليه أن يبدل جهده فى الأخذ بالأسباب ، ثم يعتمد على رب الأسباب . والرطب هو الثمر الناضج ، وكلمة ﴿ حَيَاتًا ﴾ تعنى أنه استحق أن يحيى ، أى إنه نضج واستوى . إذن .. لا بد من التوكل على رب الأسباب .

وقول الحق سبحانه ﴿ فَكُلْ وَاشْرَبْ وَقَرَى عَيْتًا ﴾ ، ذكر الأكل قبل الشرب ، بينما فى الرزق ذكر الشراب أولاً ، ثم جاء بالطعام بعد ذلك فى قوله تعالى ﴿ قَدْ جَمَلْنَا رِئَاسَكَ سِرًّا * وَهُرَيْرَةً لِّإِنِّكَ يَصْنَعُ النَّحْلُ ﴾ ؛ فذكر الشراب أولاً ، ثم الطعام الذى سينزل من النحلة بعد ذلك ؛ لأن هذا رزق ، لكن فى الأمر بالانتماع قال ﴿ فَكُلْ وَاشْرَبْ وَقَرَى عَيْتًا ﴾ . فذكر الطعام قبل الشراب ؛ وذلك لأن الإنسان فى العادة لا يشرب إلا بعد تناول الطعام .

الحق سبحانه أعطى لمرم قوام الحياة المادية من طعام وشراب ، ولكن بقيت الناحية المعنوية ؛ لأنها حُرمت وتمت الموت من صعوبة هذا الموقف فكيف ستواجه قومها بهذه الفضيحة فى نظرهم ؟

وهنا قال الحق سبحانه لها : ﴿وَقَرِي عَيْسَى﴾ ؛ وهذا معناه السرور ، وكلمة قرى أى اسكنى ، وسكون العين على رأى واحد عند العرب ، دليل على أن العين صادفت مرأى جميلاً جداً لا يغنى عنه أى مرأى آخر ؛ ولذلك تظل ناظرة إليه ، فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول لمريم : لا تحزنى ، ولتقر عينك بما أنت فيه ، فليس هناك أحمل ولا أفضل من أن يصطفيك الله ويجعلك سيدة نساء العالمين ، فأى سعادة وأى مكانة وأى شرف أنت فيه ؟

الحق سبحانه وتعالى يقول لمريم : ﴿فَإِذَا تَوَيَّعَ مِنَ النَّبِيِّ أَحَدًا مَقُولًا إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ [مريم : ٢٦] . أى : إلك إذا رأيت أحداً ستدحلي معى فى جدل ؛ لأن المسألة التى أنت عليها لن تستطعى أن تأتى بمررات لها ؛ لأن امرأة تحمل وتلد دون أن يمسه رجل ؛ كلام غير مقبول عند الناس ولن يصدقوه ، وستكلمون معك بسعاة وجهل ، فعليك بالصمت ، ﴿فَكَلَّمْنِي وَاقْرِي عَيْسَى﴾ وإن رأيت أحداً من البشر وسألك عما أنت فيه فقل : إني نذرت لله صوماً فلى الكلام فلى أكلم أحداً . فالصوم عند زكريا الطهارة كان عن الكلام ، وهما أيضاً الصوم عن الكلام [عند مريم] ؛ لأن المعجزات كانت قريبة من بعضها .

وقول الحق سبحانه . ﴿فَكَلَّمْنِي وَاقْرِي عَيْسَى فَإِنَّمَا تَوَيَّعَ مِنَ النَّبِيِّ أَحَدًا مَقُولًا إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ بعض المشككين فى القرآن يقولون : كيف يستقيم الأمر بالصوم عن الكلام مع أن القرآن يقول لها : ﴿فَقُولِي﴾ . أى بأمرها بالكلام وأن تقول لهم كذا وكذا ؟

وبحق نقول لهم : يجوز أن هذه الكلمة هى التى تقطع بها مريم الكلام مع القوم ، أو يجوز أن تكون الدلالة بالإشارة ، والدلالة بالإشارات أقوى الدلالات وأعمها ؛ ولذلك فالأخرس حين يكون فى بيئة تفهمه يستطيع أن يفاهم مع الناس ، ويفهم الناس منه ما يريد قوله عن طريق الإشارات ، ويكون مثار حديثهم وبوادهم .

ومريم يمكنها أن تشير إلى من يسألها بما يفهم منه أنها صائمة عن الكلام .

وكلمة : ﴿إِنْسِيًّا﴾ أى من الإنس ؛ أمرها الحق سبحانه ألا تتكلم مع أحد من البشر ؛ لأنها قد تتكلم مع جبريل ؛ حتى نجد مخرجاً من هذا الموضع المخرج الذى هو فيه .

هنا نعود إلى الحديث عن الخاض ، ونسأل من الذى كلمها هذا الكلام من تحتها ؟ قيل : إنه جبريل ، وقيل : إنه عيسى عليه السلام . ولذلك حين رآها قومها وقد أنتهم بولدها تحمله ، وأنكروا عليها ذلك الأمر ، أشارت إلى الوليد !! فكيف تشير إليه ؟ لابد أنها علمت أنه سيتكلم ، وعرفت هذا الأمر من كلامه لها حين ناداها من تحتها ، وقال لها ألا تحزن وتأكل وتشرب وتفرحين ، فعين تكلم الوليد تأكد لها أنها فى معجزة عظيمة ؛ ولذلك وثقت تمام الثقة بأنها حين تشير إليه سيتكلم هو ويدافع عنها ؛ لأن كلامها لن يقنع الناس ببراءتها مما حدث لها ؛ لكن حين يتكلم عيسى عليه السلام وهو لم يزل فى المهد ، فمعنى ذلك أن هذه معجزة ، ومادام الذى تكلم [وهو] وليد معجزة كائنه ، [فإن] أمه [تكون معجزة هى الأخرى] من باب أولى .

إذن .. قوله تعالى : ﴿ فَتَدْنِيهَا مِنْ تَحْتِهَا ﴾ ليس المقصود بها جبريل ، ولكن المقصود وليدها عيسى عليه السلام .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَاتَتْ بِهَا قَوْمَهُمْ تَحْمِلُهَا قَالُوا يَبْرَأَ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ۝٢٧ يَكْفُرُ بِهِ جَاهِلُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْوٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعِيًّا ﴾ [مريم : ٢٧ ، ٢٨] ، فهى التى ذهبت به إليهم ، فلم تتوار عن عيون القوم أو تهرب بولدها إلى مكان بعيد ، ولكنها ذهبت إليهم بنفسها ؛ وذلك لأن معها الحجة والبرهان ، ولأن موقعها سليم ، وهى واثقة من تأييد الله تعالى لها ، فجاءت إلى قومها تحمله وليدها على صدرها ، فلما رآها القوم عنى هذه الحالة قالوا : ﴿ يَبْرَأُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ . لأنهم يعلمون أنها غير متزوجة !!

يُحكى : أن بعض المستشرقين سألوا الشيخ محمد عبده فى « باريس » عن حديث الإفك الذى تقوّه الماسقون على السيدة عائشة فقالوا له : بأى وجه قابلت عائشة قومها بعد حديث الإفك ؟ فقال لهم : بالوجه الذى قابلت به مريم قومها حين جاعتهم تحمله !! أى بوجه الوائى من البراءة ، وأن الله لا يمكن أن يسلمها ، أو يحدلها ؛ ولذلك فالسيدة عائشة رضى الله تعالى عنها لما ظهرت براءتها وأرسل الله قرآنا ، قالوا لها : قومى إلى النبى ﷺ فقالت لا ، وإنما أخذ الله الذى برأنى .

فكون مريم تأتى بولدها إلى قومها بهذه دلالة عنى أنها واثقة أن الحجة ستوافيها بالوليد ،

ولا فكان [من] المفروض أن تحجل وأن تتوارى من القوم حتى لا يروها ومعها الوليد ، لأنها واثقة من نصر الله ومعونته .

وكلمة : ﴿ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ ، أى : لم يحدث مثله ، أو أنه من العربة وهى تعمد كذب ، وقولهم ﴿ يَكْأُخْتُ هَنُورًا ﴾ مبالغة فى التعبير ، لأنهم عرفوها عابدة قاتنة فكيف يحدث منها ذلك ؟ هذا تفرغ لها ، لأن أباهما لم يكن رجلاً شيئاً ولا أمها أيضاً ، فكان القوم استعربوا أن يحدث هذا من مريم وهى العابدة القاتنة التى جاءت من أبوين كريمين مستقيمين ، فكيف يحدث منها ذلك ؟

لما كثرت الأسئلة على السيدة مريم ، وكثر الاستكثار من القوم ، ماذا فعلت قال تعالى ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ تُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ [مريم ٢٩] . أى أشارت إلى وليدها ، فكانها تقول لهم : أسألوه ! وهذا دليل على أنها عرفت أنه سيتكلم ، لأنه سبق أن كلمها قبل ذلك ، فاطمأنت على أن تحمله إلى القوم ، ليس على أنه جسم الجريمة ودليل إدانتها ، ولكنها تحمله على أنه دليل برائتها .

فلما أشارت إليه استعرب القوم وقالوا : ﴿ كَيْفَ تُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ . فهم لم يستبعدوا أن يتكلم الرضيع فقط ، ولكنهم أنكروا الحديث معه ، وقالوا هل نحن مجازين حتى نكلم طفلاً رضيعاً !

لقد انبهروا ابهارة فشت فيهم القوى ، وحتى قوى اللد والخصومة حين ترى هذا لا تجد إلا الابهار ؛ فالحق أبلج والباطل لجلج . لقد كان الأمر يدهم ففى نوراتهم أن من يرئى يجب أن تُرجم ، فلماذا لم يرجموا أم عيسى إذن ؟ لا بد أنهم صدموا بقوة جعلت موارد عقولهم وحقدهم تحتل ، هذه القوة هى كلام عيسى ابن مريم فى المهد . ﴿ إِنْ عَبْدُ اللَّهِ مَا تَلَوْا الْكِتَابَ وَجَعَلْنِي نَبِيًّا ﴾ الآية .

هذه المفاجأة جعلت الجبار فيهم يتهار وتخور قواه ، هذا من ناحية اليهود ، فماذا عن النصارى ؟ إن رضيعاً يتكلم فى المهد ، هو معجزة بكل انقياس ، فكيف تحلو كل الأنجيل التى بين أيدينا الآن من هذه الواقعة ؟

إنه طعل تكلم فى المهد ، وكان لا بد أن تكون الكلمة التى قالها مدروسة بعناية ، ولا يمكن

أن تنسى . لابد أن تكون كلمة رائعة ، من طفل يتكلم ، فكيف لا تأتي هذه الكلمة من الأنجيل ١٩ ؟ إن جنود الله سبحانه وتعالى هم الدين حفظوا الكلمة ثم قالها عيسى عليه السلام وحتى تقوم الساعة . إن الأنجيل لم تذكر ذلك ؛ لأنها لو ذكرت ذلك لسألناهم ماذا قال ؟ سيكون الرد دون مواربة : لقد قال : ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ ؛ وهذا ينفي أنه إله

وبينما القوم على هذه الحال ، من مفاجأتهم بما تحمل مريم ، ثم من استكثارهم الكلام مع طفل رضيع ، نطق عيسى عليه السلام قائلا لهم ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۖ وَبَرًّا بِوَالِدِيَّ وَنَمَّ تَحَمُّلِي حَبْرًا شَقِيًّا ﴾ [مريم : ٣٠ - ٣٦] .

فكانه يقول لهم : لا تتكلموا أنتم ولكن أنا الذى سأتكلم . وأول شيء قاله : ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ ؛ واستهلاله كلامه بعبوديته لله تعالى ، دليل على أنه قد يقال : إنه ليس عبداً وإنه إله أو شريك لله سبحانه ، فأول كلمة نطق بها أنه عبد لله تعالى ؛ وبذلك تجد أن أهل الكتاب يقولون عنه : إنه تكلم فى المهد . فإذا سألناهم ماذا قال حين تكلم ؟ تجدهم يصمتون ولا يطقون بما قاله أبداً ، لأن كلامه ينفي معتقدتهم .

لم يقل : ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ ؛ فقط ، وبكيفية أضاف شيئاً آخر فقال : ﴿ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ ؛ ولكن كيف يؤتاه الكتاب وهو مارال طفلاً فى مهده ؟ قالوا : كأن هذا امرأ ثانياً ومعروفاً به . ومعنى ذلك أن هذا الوليد أهل لأن يتحمل أمانة السماء والأرض ، وجعله نبيا ذا سلوك قويم ولا يمكن أن يكون كذلك وفيه أى مطعن ، وفوق ذلك : جعله مباركا أينما كان ، فهذه الصفات هى أنه عبد الله ، آتاه الكتاب والكتاب ، لم يأت بعد ولكنه سيحل فى المستقبل ؛ وذلك لأن هذا الوليد يتكلم عن الحق سبحانه فلا بد أنه ملقن ، والذى يلقيه هو الذى سيؤتاه هذه الأشياء وهو الحق سبحانه وتعالى ، وبعد ذلك قال أيضا : ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ [مريم : ٣١] .

ومعنى : أوصانى بالصلاة والزكاة . أى أن الحق سبحانه وتعالى شرع له هذه العبادات والشرائع . ثم يقول تعالى : ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدِيَّ وَلَمْ يَجْعَلْنِي حَبْرًا شَقِيًّا ۖ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم : ٣٢ ، ٣٣] .

والبر بالوالدين معروف فهو بار بوالدته ، بمعنى أنه حين يكبر ويعرف القصة أنه وُلِدَ ولدٌ من غير أب دون أن يمس أمه بشر ، فهذه الأحداث لم تسبب له أى ضيق ، أو عراية ؛ لأنه هو نفسه الدليل على صدق هذه المعجزة ، والدليل لا يشكك فى المدلول ، أى إياكم أن تظنوا أنى سأكون عاقلاً لو الدنى ؛ بل سأكون باراً بها عطفوا عليها ، ومعنى ﴿وَلَمْ يَحْضَرْ حِبَارًا شَقِيًّا﴾ . إن الحق سبحانه وتعالى حين يرسل رسولا لا بد أن يحمله ليل الجباب ؛ لأنه سيأتى ليخرج الناس مما ألغوه من الفساد ، ومعنى : ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ . أى : يوم ميلادى كان سلاماً ؛ لأن هذا الحدث لم يقع لىنت فى أسرة أخرى كان من الممكن أن يقتلوا ، ويقتلوا وليدها ، ولكنها مرت بسلام ، والسلام عليه أيضاً يوم يموت ، وهما حصص يوم مولده ويوم موته بالسلام ؛ لأن الميلاد مقابل الموت ، والسلام عليه يوم موته ؛ لأنهم سيأتون ؛ ليأخذوه بعمه صلبه وقتله ، وبعد ذلك يُشجِّه لهم أنهم صلبوه وقتلوه ، ولكن الله تعالى بجأه منهم ومن كيدهم ورفعهم الله سالماً من كل سوء .

وذكر السلام على نفسه يوم يبعث حياً ؛ لأنه ليس هناك رسول سيسأله الله هذه الأسئلة إلا عيسى عليه السلام ، وهى قول الله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَمْتِ لِلنَّاسِ أَنْ يُعْبُدُوا مِن دُونِ اللَّهِ قَالُ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَقُولُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٧﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَتَى الْقُرْبَى عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة : ١١٦ ، ١١٧] . والحق سبحانه يعلم أن عيسى عليه السلام لم يقل لهم إلا ما أمره الله عز وجل به ، ولكن هذا تفرع لمن يرعمون أنهم أتباعه ، وقد حرفوا رسالته وجعلوه إلها من دون الله .

ثم يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَكَ الْحَقُّ الَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿١٢١﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَكَ إِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [مريم : ٣٤ ، ٣٥] .

كلمة : ﴿ذَلِكَ﴾ أى : الذى تقدم ، وهو قصة عيسى ابن مريم ، ﴿قَوْلَكَ الْحَقُّ﴾ : أى يقولها الله قول حق ، أى هذه قصة عيسى ابن مريم يخبرنا بها الحق سبحانه وتعالى ، أو أن معنى ﴿قَوْلَكَ الْحَقُّ﴾ أى أنه صد الباطل ، فالمعنيان متفقان : ﴿قَوْلَكَ الْحَقُّ﴾ أى أنه قول الله

الحق سبحانه ، أو أنه الحق الذي ضد الباطل ﴿أَلَدَىٰ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ : أى يشككون ، فكأنه يجبرنا أنهم سيشتكون فى هذا الكلام ويتقوّنون فيه الأقاويل ، والمعنى : اتركوا هذه الأقاويل الباطلة ، وخذوا الكلام من الحق سبحانه ؛ لأن قول الحق هو الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وكما قلنا كلمة : ﴿ذَلِكَ﴾ أى : الذى تقدم أمره من أول قوله تعالى : ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ إلى هنا . ثم ذكر قضية هامة جداً فقال سبحانه : ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا فُتِحَ أَمْرًا فَإِنَّا يَقُولُ لَمْ كُنْ فَيَكُونُ﴾ . ولكن لماذا بدأ بموضوع الولد ؟ قالوا : لأن قضية الشريك تنفى بأولية العنصر ؛ لأن الشريك لله ماذا يفعل معه ؟

فاتخاذ الولد قضية مضمية بالنسبة لله سبحانه وتعالى ؛ لأنه إن كان لاستدامة الحياة والذكر فى الدنيا ، فإله تعالى لم تذهب حياته حتى يكون موصولاً إلى ولده ؛ لأنه هو الحى الذى لا يموت ، وإن كان من أجل العزوة والاستعانة . فإله تعالى لا يحتاج إلى معونة أحد لأنه المعبود سبحانه ، وهو الصمد الذى يحتاج إليه كل أحد ولا يحتاج هو إلى أحد .. لذلك قال تعالى : ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا فُتِحَ أَمْرًا فَإِنَّا يَقُولُ لَمْ كُنْ فَيَكُونُ﴾ .

ومعنى قوله تعالى : ﴿إِذَا فُتِحَ أَمْرًا فَإِنَّا يَقُولُ لَمْ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ؛ لأن هذه الأشياء كلها مخالفة للنواميس ، فإياك أن تعجب أن يفعل الله سبحانه ذلك مع ركبنا ويحى عليهما السلام لعطب الآلة ، وإياك أن تتعجب من أن الطفل الذى كان فى المهد صبيّاً قد تكلم .

كل هذه نواميس خارقة للعادة بأحدها كلها فى إطار : ﴿سُبْحَنَهُ﴾ أى : تنزيهاً له ؛ لأنه إذا أراد شيئاً لا يعالجه بعلاج وعمل وإنما يعالجه بقوله : ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ والفعل كن مكوّن من حرمين فقط ، فحين يقول الحق لشيء : كن ؛ يكون فى الحال .

معجزة كلام عيسى عليه السلام فى المهد

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصُّلُوبِ﴾ [٤٦] . والكلام معناه : اللفظ الذى ينقل قول الناطق إلى السامع ، وقول الحق ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ معناه : أن المواجهة بكلام عيسى عليه السلام فى المهد هم الناس ومنهم من قوله تعالى : ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ سر وجود آية معجزة وهبها الله تعالى لعيسى عليه السلام ، وهو أن يكلم الناس وهو طفل فى المهد ؛ لأن المسألة تعلقت بعرض أمه وبكرامتها

وعمتها ، فكان لابد من آية لتسحر عجب الناس حين يرونها وقد ولدت بدون روح ، وهذه المسألة لم نجد لها وجرداً في الأناجيل الموجودة بأيدي النصارى ، مع أنها مسألة كانت يجب أن تذكر من كنية الإنجيل ، لأنهم يمجدون سيهم ، وكان من الواجب ألا يغفلوا عن هذا الشيء العجيب ، ذلك أن كلام طفل في المهد أمر عجيب وكان لابد أن يكون محل حفظ وتداول بين الناس . إن الطفل عندما يتكلم في المهد لن يقوم الناس برواية واقعه كلامه في المهد فقط ، بل سيحفظون ما قاله ويرددون قوله ؛ لأن العجيب أن يتكلم وهو في المهد ، ويحرم من الناس على أن يعرفوا ماذا قال : والكلمة التي قالها عيسى عليه السلام في المهد لا تسعف زاعمي التبعية بعيسى عليه السلام فيما يدعون ؛ لأن الكلمة الوحيدة التي نطق بها أول ما نطق قال : ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ ، فأخضروا هذه المسألة كلها لماذا ؟ رغم أن كلام طفل في المهد يكون أمراً عجيبيّاً ، وما دام أمراً عجيبيّاً ولا حقاً للأدهان ؛ فلا بد أن يكونوا قد سمعوا ما قاله ووعوه . وما دام قد سمعوا القوم ووعوه فلا بد أنهم تناقلوا ما قاله . وهو قد قال في أول ما نطق : ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ . وبهذه الكلمة ينتفي ادعاء ألوهية عيسى عليه السلام .

إن الحق سبحانه يقول : ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ . ونحن نعرف أن الكلام في المهد ، أي : وهو طفل . وكهل : أي بعد الثلاثين من العمر ؛ أي في العقد الرابع ، والبعض قد قال : إن الكهولة بعد الأربعين من العمر . وقد حدثت له في رواياتهم ما أسموه حكاية الصلب قبل أن يكون كهلاً ، فإذا كان قد تكلم في المهد فينبغي أن يتكلم وهو كهل ، ولما كانت حادثة الصلب أو عدم الصلب أو الاختفاء عن جس البشر ليسمونها كيف شاؤوا المهم أنها تمت قبل أن يكون كهلاً .

إذن .. فلا بد أن يأتي وقت يتكلم فيه عيسى ابن مريم عندما يصير كهلاً . وأيضاً قول الحق سبحانه : ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ إلا أنه كان في المهد طفلاً ، وكهلاً أي باضح التكوين ، وبذلك نعرف أن عيسى ابن مريم فيه أغيار وفيه أحوال ، فإذا كنتم تقولون : إنه إنه فهل الألوهية وهو في المهد ، هي نفسها الألوهية وهو في الكهولة ؟ !

لو كانت الألوهية في المهد فهي ناقصة ؛ لأنه لم يستمر في المهد وحدثت له أغيار . وما دم قد حدثت له أحوال فهو محدث ، وما دم محدث فلا يكون إلهاً .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه في عيسى ابن مريم : ﴿وَمِنَ الْمُكَلَّمِينَ﴾ ؛ مقصود بها

عنه أى الحركة السلوكية لماذا؟ لأنه لا يكفى أن يكون ملبأ ولا يكفى أن يكون حامل آية ، بل لابد أن يكون على السبوك الإيماني .

افتراء اليهود في دعواهم على مريم عليها السلام

قال الحق سبحانه : ﴿ وَكَفَرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ هَتَّنَا عَظِيمًا ﴾ [الساء : ١٥٦] . أى . أن الله قد أخذهم بدنوبهم ؛ بداية من نقصهم الميثاق ، وكفرهم بآيات الله ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، وادعائهم أن قلوبهم ﴿ عُلْفُ ﴾ [الساء : ١٥٥] لا يدخلها الإيمان ولا يخرج منها الصلوات ، ثم كفرهم وقولهم على مريم البهتان العظيم ؛ فكأن قول البهتان على مريم لم يشأ إلا من مطلق الكفر .

﴿ وَكَفَرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ هَتَّنَا عَظِيمًا ﴾ ؛ عندما بما سبق ما قالوه عن أم عيسى الصديقة مريم ، وهم بقولهم البهتان يافقصون أفهامهم ، ويافقصون عقولهم ، ويافقصون وفاقا شهوده . لقد كانت مائة ميلاد عيسى عليه السلام من « أم » دون « أب » شيقا معجزا ياقص داموس الكون في أن كل تكاثر إنساني يشأ من لقاء رجل بامرأة ، أو ذكر بأنثى . ولكن الحق سبحانه شاء أن يرد على مادية اليهود ، الذين أرادوا أن يروا الله جهرة ولم يؤمنوا به غيبا مطلقا ، وطن اليهود بسحافة عقولهم أن الله إن رآى بأعينهم جهرة كان إلها يستحق أن يُعبد ، وما علموا أنه لو كان مرآجا جهرة لخلق لما استحق أن يُعبد ؛ لأن المرآى تقدر عليه عين الرائي لتسيره ، فيصبح المرآى مقدورا عليه ، والله تعالى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام : ١٠٣] .

[ذن] فمن غباء اليهود أنهم جعلوا يقتضى للإيمان مانعا من الإيمانيات ، إن المقتضى للإيمان أن الحق سبحانه لا يقدر أن يحيط به أحد من خلقه أبدا ، وهم طلبوا إدراك حاسة من حواس الإنسان له ، ومعنى ذلك أنهم طلبوا أن يكون الله مقدورا لعيونهم ، حينما قال اليهود ذلك البهتان ياقصوا عقولهم في الفهم ، وياقصوا الواقع الذى شهوده .

تعلم عيسى عليه السلام الكتاب والحكمة

يقول الحق سبحانه عن عيسى عليه السلام : ﴿ وَتَعَلَّمَهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾

[آل عمران : ٤٨] .

حين سمع قوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ﴾ نفهم أن المقصود بها: الكتاب المنزل والحق سبحانه قد أتبع ذلك بقوله: ﴿وَالْتَوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾. فلا بد لنا أن نسأل إذن: ما المقصود بالكتاب؟ فهل كان المقصود بذلك الكتاب: الكتب المتقدمة، كالزبور والصحف الأولى كصحف إبراهيم وموسى عليهما السلام؟ قد يكون ذلك صحيحا. ومعنى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ﴾ أن الحق قد علمه ما برل قبله من زبور داود، ومن صحف إبراهيم، وبعد ذلك توراة موسى الذى جاء عيسى ناسخا لها. وبعض العلماء قد قال: أثر عن عيسى عليه السلام أن تسعة أعشار جمال الخط كان فى يده. وبذلك يمكن أن نفهم ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ﴾ أى: القدرة على الكتابة. وما المقصود بقوله تعالى: ﴿وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ بعد قوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ﴾.

كلمة «الحكمة» عادة تأتي بعد كتاب مزبور، مثال ذلك قول الحق: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلُو فِي يَدَيْكَ مِنْ بَيْتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب ٣٤].
أما الله المقصودة هنا: هي القرآن الكريم، والحكمة هي كلام الرسول ﷺ، فالرسول له كلام يتلقاه ويلفه، ويعطيه الحق أيضا الحكمة وهي سنته ﷺ.

أما التوراة التي عسىها الله لعيسى عليه السلام، فكما نعلم أن مهمة عيسى عليه السلام أنه جاء ليكمل التوراة ويكمل ما أنقصه اليهود من التوراة، فالتوراة أصل من أصول التشريع لعصره والمجتمع ايموث إليه، فهو كما قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَمُحُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَتْرَى الْأَكْشَمَ وَالْأَثَرَمَ وَأَنِّي الْمَوَدُّ إِذْنِ اللَّهِ وَأُنشِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران ٤٩].

إن كلمة «رسول» تحتاج إلى دليل، فليس لأى أحد أن يقول: أنا رسول من عند الله، إلا إذا قدم بين يدي دعواه معجزة ثبت أنه رسول من الله.

إذن .. فالمعجزة تلزم المكر الذى يتحدى وتفحمة؛ لأنه لا يستطيع أن يأتي بمثلها؛ وبذلك قلنا إن من لزوم التحدى أن يجعل الله تعالى معجزة الرسول من جنس ما يبغي فيه القوم؛ لأن الحق لو جاء لهم بشيء لم يدرسوه ولم يعرفوه، فالرد منهم يكون للرسول بقولهم:

إن هذا أمر لم نروض أنفسنا عليه ، ولو روضنا أنفسنا لاستطعنا أن نفعل مثله . لذلك يرسل الحق
الرسول - أي رسول - بمعجزة من جس ما يميّز فيه القوم المرسل إليهم . وقوم عيسى كانوا
مشهورين بالحكمة والطب . لذلك كانت الآيات من جنس ما نفعوا فيه ، ثم تتسامى لأن الذي
يطبب جسما ليس له علاقة بموت إنسان ، وإذا ما مات إنسان فقد خرج الميت عن دائرة علاج
الطبيب ، ولذلك رقى الله آية عيسى أنه يشفي المرضى ويحيى الموتى أيضا ، وهذا نزق في
الإعجاز ، وقد أحبر الله سبحانه وتعالى عن عيسى ابن مريم عليهما السلام أنه قال لقومه : ﴿ إِنِّي
قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ
طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَآخَرُ الْأَكْثَمَةِ وَالْأَثَرَمِ وَأَمِّي الْمَوْقُ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ ۝

إن كلمة : ﴿أَلْمَلُوكُ﴾ تحتاج إلى وقفة ، وكذلك ﴿أَلَطِيفُ﴾ و«الهيئة» و«الظَّيْرِ» .
لأنَّه مألوف من الخلق . والخلق هو إيجاد شيء - على تقدير أنه شيء - قبل أن يوجد ،
فأنت في ذهنك أن تأتي به على هذه الحالة ، فإن كان يأتي على غير تقديره ، فليس خلقاً إنما هو
شيء جزائي . وإن كان سيأخذ قطعة من الطين ويصنع منها أي شيء ، فهذا ليس خلقاً ، الخلق
هو المطلوب على تقدير ، والخلق على تقدير فيه إيجاد من عدم ، إنه شيء كان معدوماً فوجد .
إن أول فرق بين خلق الله وخلق الإنسان أن خلق الله سبحانه وتعالى يكون من عدم ،
وخلق الإنسان من موجود ، وإن كان الإنسان على تقدير . وأيضاً خلق الله سبحانه وتعالى
يعطيه سرّاً لا يستطيع البشر إعطاءه لصنعه ؛ فآله عز وجل يعطيه سر الحياة ، والحياة فيها نمو
وفيها تكاثر .

إذن .. فالخلق إيجاد على تقدير ، هذا الإيجاد يوجد من معدوم ، والمعدوم موجودة مادته ، هذا في خلق الإنسان . أما في خلق الله ، فالله يخلق من معدوم لا توجد له مادة ، البشر حين يوجدون شيئاً يوجدونه جامداً على ما هو عليه لاهية فيه ، ولا يمكن أن يتأتى منه التكاثر لإيجاد مثله . لكن الله يخلق من الشيء ذكرًا وأنثى ، ويعطيها القدرة على التناسل .

بعض من معجزات عيسى عليه السلام

قال تعالى : ﴿ أَتَىٰ أَهْلَهُمْ مِنْكُمْ رُسُلٌ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَقْبَرُ الْعَذَابِ فَأَمْنُهُ يَوْمَ يَبْعَثُهُمْ اللَّهُ فِيهِمْ فَبِأَيِّ آلَاءِ اللَّهِ هُمْ شَاكِرُونَ ﴾ [آل عمران : ٤٩] .

إن كل إنسان يستطيع أن يصنع من الطين تماثيل كهيفة الطير لكن الله خص عيسى بمعجزة أنه يحق من الطين كهيفة الطير ويفخ فيه ، وقد سأل فيم ينفخ ؟ ينفخ في الطير أم في الطين ؟ أم في الهيفة ؟ إن قلنا إن النفخ في الطين بعدها صار طيرا ، فيكون النفخ في الطين كالنفخ في الطير ، وجاء في آية أخرى أنها نفخ في الهيفة وذلك في قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ادْكُرْ فَمَتَىٰ هَٰذَا الَّذِي كُنْتَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ يَدَوْنِ فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ﴾ [المائدة : ١١٠]

إن النفخ ﴿ فِيهَا ﴾ تكون للطين أو للطير ، والنفخ ﴿ فِيهَا ﴾ تكون للهيفة ، وهاك آية أخرى بالنسبة للسيدة مريم البتول : ﴿ وَبَرَّحَ ابْنُ عِمْرَانَ ابْنَتِ ابْنِ آخَصَ فَرَجَهَا فَفَعَمَّكَ فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتَ بِكَلِمَتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنَ الْقَنِينَ ﴾ [التحريم : ١٢] . إن النفخ ها في الفرج . في الآية الأخرى قال : ﴿ وَابْنُ آخَصَ فَرَجَهَا فَفَعَمَّكَ فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَأَسْهَأَ آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٩١] ، أي في مريم عليها السلام . فمرة يقول : ﴿ فَعَمَّكَ فِيهِ ﴾ أي في الفرج ، ومرة يقول : ﴿ فَتَنفُخُ فِيهَا ﴾ أي فيها هي ، والقولان متساويان .

وهنا في هذه الآية مجد أن الإعجاز ليس في أن عيسى صنع من الطين كهيفة الطير ؛ لأن أي إنسان يستطيع أن يفعل ذلك ، فكأنه حينما قال : ﴿ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَانْفُخْ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ كأنه صار طيرا من الطين ماى إنسان يمكن أن يعملها ، ولكنك : ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ تجمع بين الشكل وصناعة الطين كهيفة الطير ، فيكون طيرا بإذن الله . نعم إن عيسى لم يكن لهجتري وبصع ذلك كله إلا بإذن الله . لقد جاءت كلمة ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ من قول عيسى وعلى لسانه . فهذا اعتراف منه بأن ذلك ليس من صاعته . وكأنه يقول لقومه : إن كنتم تفتشون بهذه فكان يجب أن تفتنوا بإبراهيم من باب أولى ، حينما قطع الطير وحمل على كل جبل جردا مسهن ثم دعاه .

ومن معجراته أيضا ماورد في قول الله تعالى : ﴿ وَأَرِى الْأَكْثَمَ وَالْأَكْرَمَ وَأَخِي الْمَوْتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران : ٤٩] لماذا هذين المرصين بالذات ؟ لأنهما كانا من الأمراض

المستعصية في ذلك العصر . والأكمه هو الذي ولد أعمى ، أى لم يحدث له العمى بعد ميلاده . والبرص هو أن تبيض بقعة من الجلد وإن كان صاحبه أسود . ثم تظهر بعد ذلك بقع متناثرة في جميع الجسم يبيض اللون ، مما يدل على أن الجلد صار أبيض . وهو مرض صعب لم يكن باستطاعتهم أن يداووه . فلما أرسل الله تعالى عيسى ابن مريم إلى قومه أعطاه الله سبحانه وتعالى الآية من جس ما نبغوا فيه وهو الطب ، وجاء لهم بآية فيه هي إبراء ما كانوا عاجزين عنه .

وبعض من الذين يحاولون أن يقرّبوا بين المعجزة وعقول الناس يقولون : إن هذه المعجزات إنما هي سبق زمن ، بمعنى أنه من الممكن أن يتوصل الإنسان إلى أن يكتشف علاجاً لهذه الأمراض ، ولهؤلاء نقول : لا . لنأخذ كل أمر بأدواته ، إن عيسى ابن مريم عليهما السلام كان يرى بالكلمة والدعوة ، فمهما تقدم العلم هل يستطيع أن يرى المرض بالكلمة والدعوة ، إنما سيأخذون أشياء ويقومون بتحليل هذه الأشياء ، وخلط الكيماويات وإجراء الجراحات ؛ لذلك تظل المعجزة التي جاء بها عيسى ابن مريم عليهما السلام معجزة ؛ لأنه كان يرى بالكلمة والدعوة !!

ما هي شريعة عيسى عليه السلام ؟

وقوله : ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي هُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ [آل عمران ٥٠]

وقد قلنا : إن ﴿ وَمُصَدِّقًا ﴾ تعنى أن ما جاء به عيسى ابن مريم مطابقاً لما جاء في التوراة . وقلنا . إن ما بين يدي الإنسان هو الذي سبقه ، أى : الذي جاء من قبله وصار أمامه ، وما دام عيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة في زمانه ، وكانت التوراة موجودة فلماذا جاء إذن ؟ جاء بأحكام جديدة ، ويتضح ذلك في قول الحق سبحانه وتعالى في سورة آل عمران ﴿ قَوْلَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ قَدْ جَاءَ بِي الْبَيِّنَاتُ وَأَنَا نَذِيرٌ ﴾ .

إذن .. فليس الأمر هو التصديق فقط ؛ ذلك أن عيسى عليه السلام جاء ليحلّ بعضاً من الذي حرّمته التوراة .

وقد يقول قائل : إذا كانت الكتب السماوية تأتي مصدقة بعضها بعضاً ، مما فائدة توالي

نزول الكتب السماوية ؟ إن الإجابة هي : إن فائدة الكتب السماوية اللاحقة أنها تذكر من غفل عن الكتب السابقة ، هذا في المرتبة الأولى . وثانيًا تأتي الكتب السماوية بأحكام تناسب التوقيعات الرمية التي تنزل فيها هذه الكتب ، هذه هي فوائد الكتب السماوية التي توالي نزولها من الحق سبحانه على رسله ؛ إنها تذكر من غفل ، وتعدس في بعض الأحكام . ومن المسلمات أننا جميعًا نهم أن العقائد لا تبدل فيها وكذلك الأحبار والقصص ، لكن التبديل يشمل بعضًا من الأحكام التي تناسب عصر الرسالة وما بعدها لحين لإرسال رسول آخر وهكذا .. إلى أن ختمت الرسالات برسالة المصطفى ﷺ ؛ ولهذا كان مما أرسل به عيسى ابن مريم عليهما السلام ما جاء في قوله : ﴿وَلَا جِدْلَ لَكُمْ بِعَصَى آلِ إِبْرَاهِيمَ حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ . ونحن نعرف أن القوم الذين أرسل الله عيسى ابن مريم إليهم هم بنو إسرائيل ، والتحريم والتحليل يكون لحكمة من الله .

إن لله حكمة فيما يحلل وحكمة فيما يحرم ، وليس بالضرورة أن كل شيء يحرمه الله يكون ضارًا ، قد يحرم الله لسبب آخر ، وهو تأديب الخلق ؛ فيأمر بالتحريم ؛ ولذلك لا يجب أن نسأل عن الضرر فيما حرم الله ، فقد يعيش المؤمن دياه ولم يثبت له ضرر بعض ما حرم الله ، فإن تسأل أحدًا ماذا حرم الله ذلك ؟ نقول له : من الذي قال لك إن الله حين يحرم يحرم الشيء الصار فقط . إن الحق سبحانه يحرم الضرر ويحرم بعض ما هو غير صار ؛ دليل ذلك قول الحق سبحانه وتعالى . ﴿فِي ظُلُمٍ لِّلَّيْلِ هَاجُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبَعَتْ أُغْلَتْ لَهُمْ وَبَصَدِهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء : ١٦٠] .

دعوة عيسى إلى وحدانية الله

وجماع دعوة عيسى والأياء كلهم ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران : ٥١] . إذا اجتمع الرسول والمرسل إليهم في أنهم جميعًا مريدون لإله واحد ؛ فهذا يعنى الوجدانية المطلقة لهذا الإله ؛ ذلك أن هذا الإله هو الذى تولى تربيتهم ، والتربية تقتضى رعاية قومية ، وعيسى ابن مريم يقر بعبوديته لله ، وكأنه يقول وأبالم أصع ذلك لأكون سيدًا عليكم ، ولكننا جميعًا مشتركون في العبودية لله : ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾

ومعنى : ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أى أنه صراط غير ملتو ؛ لأن الطريق إذا التوى انحرف عن الهدف ، والطريق المستقيم الذى يجمع الناس هو عبادة الله وحده .

وإذا ما كان الحق جميعاً يتوجهون فى عبادتهم إلى إله واحد ، فهذا يعنى الاتفاق ، لكن الاختلاف يحدث بين البشر كلما بعدوا عن المركز ؛ ولذلك لا تجد للناس أهواء ولا تجدهم شيئاً إلا إذا ابتعدوا عن المركز الجامع لهم ، والمركز الجامع لهم هو العبودية للإله الواحد ، وما دامت عبودية لإله واحد ففى هذا جمع للناس بلا هوى أو تفرق .

إن قضية عبوديته ﷺ لله تعالى قد تحسنت من البداية ، وهى قضية القمة . إنه عبد الله ، والقضية الثانية هى قضية الرسالة ونشئ مراد الله وتكليفه إلى خلق الله ؛ حتى يؤسسوا حركة حياتهم على مقتضى ما أنزل الله عليهم ، ومن الطبيعى أنه عندما يأتى الرسول بمهجع من عبد الله ؛ ليدعو الناس جميعاً إلى اتباع هذا المهجع ، ويحدد حركة حياتهم به أفعال كذا ، و لا تفعل كذا ؛ فقد يجد فى التكليف مشقة . لماذا ؟ لأن الأمر به أعمل كذا ؛ يُلزمه بعمل قد يشق عليه ، والنهى به لا تفعل كذا ؛ يبعده عن عمل كان يحبه ، والرء فى الأحداث بين أمرين . عمل يشق عليه ، فيجب عليه أن يجتنبه ، وعمل يستهويه ، فيجب عليه أن يقترب منه ، والمتهج قد جاء من الله ليقول للإنسان « افعَل ولا تفعل »

وأففة الناس أنهم لا يحددون هدفهم ؛ لذلك يعتبرون غير الهدف هدفاً ، وما دام هناك من يعتبر غير الهدف هدفاً ، فلا بد من حدوث هوصى وضلال ، فالذى يعتبر أن الحياة هى الهدف ، فهو يريد أن يحقق لنفسه أكبر قدر من اللذة فيها ، أما الذى يعرف أن الهدف ليس هو الحياة ، إنما الحياة مرحلة ، فسأله ما الهدف إذن ؟ فيقول : إنه لقاء الله فى الآخرة . هذا الإنسان المؤمن سيكون عمله من أجل هذا الهدف . لكن الضال الذى يرى الدنيا وحدها هدوه ، ولا يؤمن بالجنة أو النار ، فهو معرور بضلاله ؛ إنه يقبل على ما تشتهيه نفسه ويعتمد عما يتبعه ، ولكن إذا كان يعرف أن الهدف ليس هو الدنيا ، وإنما الهدف فى السعادة التى سوف يحصل عليها فى الآخرة ، فإنه سيسعى من أجل بلوغ هذا الهدف .

إذن .. ما يفسد سلوك الناس هو جهلهم بالهدف ، وحين يوجد الهدف ؛ فالإنسان يحاول أن يعرف العمل الذى يقربه من الهدف فيفعله ، فهذا هو الخير . أما الذى يعد عن

الهدف ويفعل عكس الموصل إليه ، فهذا هو الشر . وإذا كان الأمر كذلك ، فالمسألة هي متى
تحدد الهدف .

قصة الحوارين مع عيسى ﷺ

يريد الحق سبحانه وتعالى أن يوضح للمؤمنين قدر الخلاف بينهم وبين أهل الكتاب ؛
ليعرف كل مؤمن أن إيمانه برسالة النبي الخاتم تعطيه مرحلة الإيمان الرفيعة ، وذلك على قدر صدق
بيته ، وأداء واجباته الدينية بما فيها من عبادات ، ومعاملات ، وبترة الحق عز وجل للمؤمنين برسالة
النبي محمد عليه الصلاة والسلام عن أن يكونوا في مستوى قوم موسى ﷺ ؛ هؤلاء القوم
الذين تمتوا مع موسى ﷺ ، وسألوه أسئلة تدل على مدى إغراقهم في المادية ، وضعف إيمانهم
بالعيب ، لقد حاطب الله عز وجل المؤمنين بقوله : ﴿ أَأَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ
مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ۚ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ وَالْإِثْمَ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝ ﴾ [البقرة ١٠٨] .

إن الحق ، جل وعلا ، لم يصح المسلمين موضع التشبيه المباشر بقوم موسى ، فالحق جل
وعلا يزه المسلم أن يكون متشبهًا بواحد من اقوم الذين ظنوا أن التمايز بالسلالة ؛ ذلك أن
بعضًا من قوم موسى قد ظنوا خطأً وروغ ، وتحريفًا للتوراة أنهم متميزون عن بقية خلق الله ؛
فجحد أنهم أبناء ليعقوب ﷺ .

إن دين الإسلام الذي جاء به محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يضع تمايزًا لأحد
فوق أحد إلا بالإيمان ، والعمل الصالح .

إن الذين طالبوا رسول الله أن يأتيهم بالآيات والمعجزات ، هم الذين لم يقنعوا بما آتاهم الله
من قرآن مجيد يقنع دوى الألباب ، وقد أجرى الله عز وجل منه هي الخلق مع الرسل ؛ فإذا
صالب قوم الرسول البعوث إليهم بآية معجزة ، فإن الحق يرسل هذه الآية ، بأن لم يؤمنوا
استأصهم بالعذاب ؛ مثلما حدث مع قوم ثمود ؛ فبه أرسل إليهم فطلبوا [منه] آية ، فأعطاهم
الله معجزة واضحة وهي الناقة فكفروا بها ، فكان ما كان من العذاب الذي أنزل الله عليهم .
وقد طلب الحواريون من عيسى ابن مريم ﷺ أن ينزل عليهم مائدة من السماء فأنزلها الحق ،
وحذرهم من الكفر بعد ذلك حتى لا يعذبهم عذابًا لا يعذبه لأحد من العالمين وقرأ قول الله
تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ الْخَوَارِجُ إِنَّ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هُوَ قَائِلُكُمْ رَبِّكُمْ أَنْ يُزِيلَ عَلَيْكُم مَائِدَةً مِنَ

السَّمَاءَ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَمْلِكَ مِنْهَا وَنَقْطَعِ قُلُوبَهُمْ
وَنَعْلَمَ أَنَّ قَدْ صَدَقْتَ وَأَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ
عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾
قَالَ اللَّهُ إِنَّهُ مُنِزِلُهَا عَلَيْكُمْ قَصٍّ بِكَفَّرَ بِهِ مِنْكُمْ فَأَمْضَى أَعْيُنُهُمْ عَذَابًا لَا أَعْيُنُهُمْ أَشَدُّ عَذَابًا مِنَ النَّارِ ﴿١١٥﴾
[المائدة: ١١٢ - ١١٥]. إن محمدا ﷺ يتلقى الأمر من ربه بأن يذكر للناس قصة الحوار بين
أنبياء عيسى ابن مريم عليه السلام عندما صاروا أصفياء، فسألوا عيسى ابن مريم عليه السلام أن يرسل عليهم
طعاما من السماء فقال عيسى عليه السلام لهم : إن كنتم مؤمنين بالله فحافوه وأطيعوا أوامره ونواهيه ،
ولا تطلبوا حججا أو آيات غير التي بعثني الله بها .

لكنهم قالوا : إنا نريد أن نأكل من هذه المائدة ؛ تطعمن قلوبنا بما يؤمن به من قدرة الله ،
ونعلم عن رؤية مادية صدق ما أخبرتنا به عن الحق سبحانه ، وشهدت بك بهذه المعجزة . ولقي
عيسى ابن مريم طلبهم ودعا الله قائلاً : يا مالك كل أمر ، أنزل علينا مائدة من السماء يكون يوم
نرولها عيداً للمؤمنين يرسلك المتقدمين والمتأخرين ، معجزة تؤيد بها الدعوة المنهجك
واستجاب الحق وأنزل مائدة من السماء وتوعد الحق بالعذاب أي جاحد بهذه البعثة ، بعد أن
أنزلها ، إن من يطلب أية للإيمان بعد أن نزل القرآن الكريم فهذا دليل على عدم تفكير الإيمان من
قلبه .

و شاء الحق سبحانه وتعالى ألا يعذب أمة محمد رسول الله ﷺ ما دام رسول الله فيهم وما داموا يستغفرون الله كلما ألموا بذنب ، وفي ذلك جاء قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٣] .

إن الحق تبارك وتعالى قد فضل أمة محمد عليه الصلاة والسلام على الأمم ، ووعد ألا يعذبها ورسول الله ﷺ فيها ، ذلك أن منهم من سوف يؤمن ، ويستغفر الحق تبارك وتعالى ، ولذلك لم يشأ أن يهرل الآيات التي طلبها بعض المعتنقين ، لأن الحق عندما يترلى آية ثم يكذبها أحد بعد ذلك ، فإن الحق يأخذه أخذه عزيز مقتدر .

لِلَّذِلكَ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَأَمثَارِ هَؤُلَاءِ الْمُتَعَتِّرِينَ: ﴿وَأَمَّ تَرْيِذُورِكَ أَنْ تَسْأَلُوا رُسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعْ أَلْحَقَّ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨].

إذن .. فأى سؤال عن أية غير الذى أنزله الحق على رسوله الكريم محمد ﷺ ذلك كُفْر ؛ لأن الذى يسأل عن آيات غير القرآن الكريم يستبدل بذلك الكفر بالإيمان ، وكأنه يريد أن يترك الإيمان إلى الكفر ، ومن يفعل ذلك فقد ضلّ سواء السبيل . فسواء السبيل أى : فى وسط طريق الإيمان يتخللهم الإيمان بالابتعاد عن المعاصى ؛ لأن السير فى وسط الإيمان يتيح لهم الحساية والوقاية والأمان من كل الجهات ، مكان مراد الله عز وجل من مهج الإيمان أن يتمكن الإيمان من نفس الإنسان فيكون قوياً بالإيمان . وبعد تلك الآيات الكريمة التى تحدث فيها الحق سبحانه وتعالى عن مريم وعيسى عليهما السلام ، قال الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْ أَهْوَائِهِ قَالَ مَنْ أَعْصَى أَمْرًا إِلَى اللَّهِ قَالَهُ الْكَاذِبُونَ كُنْ أَنْصَارًا لِلَّهِ عَامِلًا يَأْتُوا وَآشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران . ٥٢] .

لقد ذكر سى الله عيسى ابن مريم عليهما السلام القصة الإيمانية الجامعة المانعة أولاً ، حين قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ .

إن نبي الله عيسى أوصح لهم بما لا يقبل الجدل ، أما وأنتم سواء فى عبوديتنا لله الواحد وأنا لم آت لأتميم عنكم بشيء فيما يتعلق بالعبادة ؛ فالله رب لى ورب لكم ، والصراط المستقيم هو منهج عبادة الله الحق ، إننا حين نسمع لفظ الصراط المستقيم ، فإننا نتجلى على الفور الطريق الموصلة إلى العاية وهى أقصر الطرق الموصلة إلى الغاية ، إننا نعرف أن الطرق تُصنع لتوصل إلى الغاية . وحين نسمع كلمة ﴿ صِرَاطٌ ﴾ فلما أن نفهم على الفور الغاية التى يريد أن نصل إليها ، فالحق سبحانه يقول : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا أَتْلَافًا فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام . ١٥٢] .

أى اتبعوا طريقى فهو أقصر شيء يوصل إلى أى عاية مطلوبة ، ومادام هناك طريق لعاية ما ، فلا بد لنا أن نحدد الغاية أولاً ، ونحدد العاية إلى يهدف إلى إيضاح السبيل أمام الإنسان ؛ ليسلك الطريق الموصلة إلى العاية ، وهكذا يقول لهم سى الله عيسى عليه السلام : ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾ .

والعبادة هى إطاعة العابد لأمر المعبود . ولا تظن أن العبادة كما يريد خصوم الإسلام أن يضلوا الناس ، بأن الإسلام قد جاء فقط للصلاة والصوم والزكاة ، وأن يقتصر لإسلام على

أركانه ، وداخل جدران المسجد فقط ، فينفصل الإنسان عن ربه بين أوقات الأركان التعبدية .
 إن الأركان التعبدية لازمة ؛ لأنها تشحن الطاقة الإيمانية للنفس ، حتى تقبل على العمل الخاص
 بعمارة الدنيا ؛ فالإسلام مهج حياة متكامل وكل حركة تؤدي إلى إسماع الناس وعمارة الكون
 وفق منهج الله تعالى فهي عبادة ، والأركان التعبدية هي تقسيم اصطلاحى وضعه العلماء فى
 الفقه ، فجعلوا باباً للعبادات وباباً للمعاملات ، لكن عليهما أن يعرف أن كل شئ يأمر الله به فهو
 « عبادة » ، إلا أن العبادة أنواع فمنها ما يصل العابد بالمعبود جل جلاله ؛ ليأخذ الشحنة الإيمانية
 من حائفه ، ومنها ما يتصل بعمارة الكون .

هكذا نعرف العبادة ، وهكذا نستوعب قول الحق سبحانه وتعالى الذى أرسل به نبيه
 عيسى عليه السلام : ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ .

وبعد ذلك يقول الحق : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ ﴾ . لقد حسم نبي الله عيسى
عليه السلام أمر العقيدة حينما قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ ﴾ ؛ إن فى ذلك تحذيراً من أن يقول
 أتباع عيسى أى شئ آخر عن عيسى ، غير أنه عبد لله ، مأمور بالطاعة والعبادة له سبحانه ؛ لأنه
 وصح أمامهم للنهج فقال . ﴿ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ .

وقول الحق : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ ﴾ . يدل على أن كل صاحب دعوة ،
 وكل صاحب مهمة ، وكل صاحب هدف ؛ لابد أن يكون يقظ الإحساس ؛ لأن صاحب
 الدعوة الدينية يخرج الناس من الظلمات إلى النور وقد يقول قائل : ولماذا يعيش الناس فى
 الظلام ولا يتجهون إلى النور من أول الأمر ؟ وتكون الإجابة : إن هناك من يستفيدون من وجود
 جموع الناس فى الظلمات فالظالم الذى يأخذ حق الآخرين اغتصاباً ، يخاف من رجل الدعوة
 الذى ينهائهم عن الظلم ويدعوه إلى الهداية وإلى مطلق العقل ، ومثل هذا الظالم عندما يسمع
 كلمة لمنطق والدعوة إلى الإيمان لا يحب من ينطق هذه الكلمة ؛ لأنه يكره الكلمة وقائلها .
 لذلك فالداعية مأمور من الله بأن يكون يقظاً .. لماذا ؟ لأنه إن اهتدى بكلماته أناس
 وسعدوا بها ، فإنه يُغضب أناساً آخرين ؛ ذلك أن المجتمع الفاسد يوجد به المستفيدون من
 الفساد .

إن نبي الله عيسى عليه السلام عندما أعلن منهج الحق وجد أنصار الظلم ، وأنصار البغي ، غير

مستعدين للإيمان بالله ؛ بذلك أحس منهم الكفر . لقد كان مليقا باليقظة والانتباه ؛ فحيما بعثه الله تعالى ليخرج الناس من الطمعات إلى النور ، أحس منهم الكفر ؛ ولذلك أراد أن ينتسب جماعة ليعيونه على أمر الدعوة فقال : ﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ . إذ الدعوة تحتاج إلى معركة ، والمعركة تحتاج إلى تضحية ، والتضحية تكون بالفسس والنفيس ؛ لذلك لابد أن يستشير من يجد في نفسه العون على هذه المسألة . إنه لم يباد أفرادا محددين ، إنما طرح الدعوة ، ليأتي الأنصار الذين يستشرون في أنفسهم القدرة على حمل لواء الدعوة ، ولتكون التضحية بإقبال النفس استجابة لدعوته ﷺ [وهي] قوله : ﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ .

كلمة : « أنصار » هي جمع « نصير » . والنصير : هو المعين لك على بغيتك ، وعندما قال عيسى ﷺ : ﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ ؟ كانت ﴿ إِيَّايَ ﴾ في السؤال تفيد العاية وهو الله تعالى ، أى من ينصرنى نصرا نصير عابته إلى الله وحده لا إلى أهواء البشر ؟ إنه لا يسأل عن واحد يدخل تحت لواء الدعوة من أجل العيمة ، أو يدخل آخر من أجل الجاه أو غير ذلك . إنه يسأل عن أهل العزم ؛ ليكون كل منهم متجهيا بطاقته إلى نصرة الله وحده .

إذن .. فعندما قال عيسى ﷺ : ﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ ؟ فكأنه كان يسأل - من يعيسى معونة غايتها الله ؟ وعندما يأخذ هذا المعنى تكون الإجابة : لقد أخذت المعنى على قدر ذهني ؛ لأن مرادات الله في كلماته لا تنتهى ، فقد يأتي واحد آخر يفهم أن معنى النصير هو من ينصر ، وسوف نرى البصر بى الإيمان وكيف يأتي .

إن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن النصر فى الإيمان قال : ﴿ يَتَّخِذُ الَّذِينَ آمَنُوا بِنُصْرَةِ اللَّهِ وَنُصْرَةِ رَسُولِهِ إِحْسَانًا وَمَا لَهُمْ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ مِنُومًا ﴾ [محمد : ٧] .

إذن .. فالنصر منا لله بأن نعبد حقه عبادته بالتزام أمره واجتناب نهيه ، وهذا مراد الله ؛ وبذلك يأتي النصر مرة من المؤمن لربه ، ومرة من الرب لمربوبه لذلك فمعنى سؤال عيسى ﷺ : من ينصرنى مظلوما فنصره إلى الله . إذن فهناك معسكران معسكر الإيمان ومعسكر الكفر . لقد سأل : عيسى من يكون نصيرى إلى الله ؟ وحينما سأل وقال : من أنصارى إلى الله ؟ أى أنه يسأل عن الذين بإمكانهم أن يصموا إلى غاية الله ، وهكذا يعرف هذا المعنى على ضوء ما قاله الحق سبحانه : ﴿ يَتَّخِذُ الَّذِينَ آمَنُوا بِنُصْرَةِ اللَّهِ وَنُصْرَةِ رَسُولِهِ إِحْسَانًا وَمَا لَهُمْ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ مِنُومًا ﴾ .

إذن .. هالك نصر من المؤمنين لربه ، وهناك نصر من الله للمؤمن ، وهكذا يكون سؤال عيسى بن مريم عليهما السلام ﴿مَنْ أَصْبَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ قد أفاد المعين . وكانت الإجابة : ﴿قَالَ الْخَوَارِثُ نَحْنُ أَصْبَارُ اللَّهِ عَامِنَا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران ٥٢] . و﴿الْخَوَارِثُ﴾ مأخوذة من الحور وهو شدة البياض في العين ، وهم جماعة أشرقت في وجوههم سيم الإيمان ، فكان وجوههم مشرقة بالنور وبور الوجه لا يقصد به البشرة البيضاء ، ولكن نور الوجه المؤمن يكون بإشراق الإيمان في النفس ؛ وبذلك يصف الحق المؤمنين برسالة رسول الله محمد ﷺ فيقول : ﴿تُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [التح: ٢٩] .

فحتى لو كان المؤمن أسود اللون فإن له سمة على وجهه .. كيف ؟ ولماذا ؟ لأن الإنسان مكون من أجهزة ومكون من ذرات ، والأجهزة لكل منها مطلوبات ؛ وكل جهاز في الإنسان له مطلوب محدد ، وحين تتجه كل الأجهزة إلى الله تعالى ، ملتزمة أمره وبهيته ، فإن الذي يحدث للإنسان هو انسجام كل أجهزته ، وما دامت الأجهزة مسجحة ، فإن النفس تكون مرتاحة ، ولكن عندما تتضارب مطلوبات الأجهزة تكون الملامح مكفهرة .

إذن .. فعندما قال عيسى عليه السلام ﴿مَنْ أَصْبَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ قَالَ الْخَوَارِثُ نَحْنُ أَصْبَارُ اللَّهِ عَامِنَا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ .

إذن .. فالخواريون قوم لهم إشارات انسجام النفس مع الإيمان ، أو هم قوم يرض القلوب ، معانيهم بيضاء ومشرقة . ومنه كلمة «الحور» وهو شدة البياض في العين . والنبي ﷺ سُمِّيَ بعضاً من صحابته خواري رسول الله . إنهم الذين جعلهم رسول الله معه طوال الوقت . وحين قال الخواريون : ﴿نَحْنُ أَصْبَارُ اللَّهِ﴾ ؛ إن الواحد منهم يريد نصرة الله فيضم إلى كل ناصر للمنهج ، وهذا يتطلب أن يعرف كل منهم المنهج ، ونحن نعرف مقومات النصرة لله وهي الإيمان .

ولذلك قال الخواريون : ﴿نَحْنُ أَصْبَارُ اللَّهِ عَامِنَا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ . ولماذا يشهد الرسول لهم ؟ لأن المعروض في الرسول أن يبلغ القوم بلاغاً عن الله فيشهد عليهم ، كما

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ بَلَّةَ أَيْكُمُ الْإِسْلَامُ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

ولنا أن نلاحظ أن الحوارين آمنوا أولاً؛ لأنه أمر غيبي عقدى في القلب، ثم من بعد ذلك أسلموا؛ لأن الإسلام حضوع لطلبات الإيمان وأحكامه؛ ولذلك فقولهم: ﴿وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾. هو طلب منهم للرسول عيسى عليه السلام: أن يلغنا كل مطلوبات الإسلام، وقل لنا قواعد اسهج افعل ولا تفعل، لا إنهم كانوا «آما»، وما داموا قد أعلنوا الإيمان بالله، فهم آمنوا بمن يلهم من الله، والمطلوب من نبي الله عيسى عليه السلام أن يشهد بأنهم مسلمون، ولا تتم الشهادة إلا بعد أن يلغهم كل الأحكام.

وقالوا من بعد ذلك: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا آتَاكَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الْبَارِئِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣]. وقد يكون إعلانهم الإيمان إيماناً برسالة سابقة، ولكن لنا أن نعرف أن الإيمان هنا مقصود به ما جاء به عيسى من عند الله؛ لأن كل رسول جاء برسالة من الله. ومعنى أن رسولاً بجيء، أن هناك أمراً أريد الله إبلاغه للناس، ونحن نعلم أن العقائد لا تتغير فيها وكذلك الأخبار والقصص، ولكن الأحكام هي التي تتغير. فكان إعلان الحوارين هو إعلان بالإيد بما جاء سابقاً على رسالة عيسى وبما جاء به عيسى عليه السلام، فهو إيمان كامل.

فضل الله ونعمته على عيسى وأمه عليهما السلام

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ادْكُرْ بِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ مِمَّا كَسَبْتَ وَكَُنَافًا وَاذْكُرْ بِلِقَائِي إِذْ أُنزِلْتُ وَبِالْإِنشِاطِ إِذْ تُخَالِقُ مِنَ الطِّينِ فَتُخَالِقُ بِهَا طَائِفًا مِنْ بَنِي آدَمَ وَتُرِيَهُمْ الْأَكْثَمَ وَالْأَلْوَمَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جَعَلْتَ لِي إِلَهِتَ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنَّا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠].

وفي هذه الآية الحن سبحانه وتعالى يسرد نعمه على عبده ورسوله عيسى عليه السلام. ومرد النعمة على الرسول ليس المقصود منه تنبيه الرسول إلى النعمة، فالرسول يعلم النعم جيداً؛ لأنها

جرت عليه ، ولكنه تقريع من رأى هذه الأحداث والنعم ولم يلتزم الإيمان بالله بعدها إن النعمة أجراها الله على عيسى وأئمه الله بما يركى رسالته إلى قومه ، فكأنها كانت نعمة أولاً عليه ؛ لأنه مصطفى مختار مؤيّد ، وهذا الذكر للنعمة تقريع لمن رآها وعرف أنها كفيلة بأنها تثبت صدق عيسى في بلاغه عن ربه ولم يؤمن

ونلاحظ أن هذه الآيات والنعم تنقسم إلى قسمين :

الأول : قسم يفتح أصحاب العقول والألباب والفكر والمواجيد النفسية .

الثاني : قسم يفتح القوم الماديين الذين لا يؤمنون بملكوت الله في غيب الله .

والقسم الأول : الذى يفتح أصحاب العقول والألباب : هو تعليم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل . والقسم الثانى الذى يفتح الماديين : هو الأمور المادية الحسية التى يعلم من يراها أنها لا يمكن أن تجرى على يد بشر ؛ كأن يخلق من الطين كهية الطير ثم يتنخض فيها فتكون طيراً ، وإحياءه ﷻ الموتى بعد موتهم ، وإبراء الأكف والأبرص ؛ إن هذه الآيات خرق للناموس المادى ، ولذلك ينبع الحق كل واحدة منها بذكر كلمة ﴿يَاذِى﴾ أى : أن هذه المعجزات لم تكن لتحدث لو لم يأذن بها الله ، ولم يذكر الحق ذلك بالنسبة للآيات الأخرى ؛ لأنها أمر ظاهري ومعروف ، وقد فعل الحق ذلك حتى يكون الأمر واضحاً أمام كل إنسان ممن يحيون عيسى ويؤمنون به ويؤمنون بآياته .

فعل الحق ذلك حتى لا يحدع قوم عيسى فى هذه الآيات ويظنوها مربة مطلقة له ، ولكنها

مجرد آيات معجزات لإثبات صدق عيسى ﷻ

إن الحق يفعل ذلك لإثبات صدق الرسول فى البلاغ عنه ، وهذا الإثبات مشروط بشروط : أولها : أن يكون النبوغ قد بلغ درجة قصوى فى المجال الذى نحدث به تلك المعجزة ، ومثال ذلك خرق الحق لناموس العصا - وهى فرع من الشجرة - وجعل موسى ﷻ يلتقيها فإذا هى حية تسعى ؛ إن ما أجراه الله على عصا موسى ﷻ لم يكن سحراً ولكنه نقلها من جس إلى جس ، وكان قوم عيسى ﷻ قد نبحوا فى الطلب ، ولم يجروا أحدهم على أن يسمي بكلمة واحدة الأكف والأبرص أو أن يخرج الميت من موته إلى الحياة ، وعلى الرغم من تقدمهم فى الطلب لم يستطيع أحدهم أن يفعل ذلك ، وإن قال قائل : لقد تقدم الطلب وصرنا

برقع قريبة عين الأعمى فيبصر، أو أنا بسبيل اكتشاف الدواء الذي يعيد لون البشرة إلى الأبرص. فإننا نقول: إن ما نراه في زماننا هو سبق ابتكار، لا خرق اقتدار كما فعل عيسى بإذن من الله، لقد فعل عيسى ﷺ ذلك بكلمة لا بإجراء عمليات جراحية ولا بتحضير أدوية كيميائيات.

واحق يسرى عن عبده ورسوله عيسى ﷺ يذكر هذه الآيات، لكن الكافرين من قوم عيسى ﷺ قالوا: إنها سحر. إن المبلغ من الله لا يحشى إلا الله، وهو يحث أن يؤمن معه كل الناس، إلا أنهم جحدوا بها وكفروا، وقالوا كما قص الحق سبحانه في القرآن الكريم: ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

إن الحق سبحانه خلق الخلق، وجعل الإيمان أمراً فطرياً فيهم، ثم تأتي الغفلة فتبتهت جرئية، وتأتي غفلة ثانية فتبتهت جرئية أخرى، وتأتي غفلة ثالثة فتصير إلى يهتان.

وفي الحديث الذي رواه حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر؛ حدثنا أن الأمانة رلت في جدر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة، ثم حدثنا عن روع الأمانة قال: «ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيطير أثرها مثل الوكت، ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل الحجل كحجر دحرجته على رجلك فتفظ فتراه منتبهاً وليس فيه شيء - ثم أخذ حصي فدحرجه على رجله فيصبح الناس يتتابعون لا يكاد أحد يؤدي الأمانة، حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، حتى يقال للرجل: ما أجلك! ما أطرفه! ما أعقله وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان. وقد أتى عليّ زمان وما أبالي أيكم بايعت، لئن كان مسلماً ليردنه عليّ دينه، ولئن كان نصرانياً أو يهودياً ليردته عليّ ساعيه وأما اليوم فما كنت لأبايعكم إلا فلاناً وفلاناً».

وفي حديث آخر عن روع الأمانة والعتة، قال حذيفة: كنا عند عمر فقال: أيكم سمع رسول الله ﷺ يذكر الناس؟ فقال قوم: نحن سمعناه. فقال: لعنكم تعون فتنة الرجل في عمله وجاره؟ قالوا: أجل قال: «تلك تكفرها الصلاة والصيام والصدقة». ولكن أيكم سمع النبي ﷺ يذكر الفتن التي تموج موج البحر؟ قال حذيفة: فأسكت القوم. فقلت: أنا. قال:

أنت ، لله أبوك ! قال حذيفة : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تعرض الفجر على القلوب كعرض الحصير عودًا عودًا ، فأى قلب أشرها نُكث فيه نكتة سوداء ، وأى قلب أنكرها نُكث فيه نكتة بيضاء ، حتى تصير على قبين : على أبيض مثل الصفاء فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض . والآحر أسود مرابذا كالكوثر مُجَحِّها لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه » . قال حذيفة : وحدثته : أن يسك ويسها بآثما مغلَقًا يوشك أن يكسر . قال عمر : أكثرت ، لأبأنت ! فلو أنه فُتِح لعله كان يعاد . قلت لا بل يكسر . وحدثته : أن ذلك الباب رجل يُقتل أو يموت حديثا ليس بالأغاليط

هكذا كان حديث الرسول ﷺ عن رفع الأمانة وضياع المناعة الإيمانية من النفس البشرية . والحق أراد للمناعة الإيمانية أن تبقى هي عبادته ؛ لذلك أرسل الرسل حتى تتكون المناعة ويكبح المجتمع جماح كل فرد تحدث له الفتنة . لذلك عندما كان يظهر فساد في الأرض يُرسل الرسول حتى يعيد البريق إلى النفس اللوامة . ويحيى في المجتمع القدرة على أن يتناسق السلوك فيه على ضوء منهج الله ، ولذلك نجد أن المقاومة التي تحدث لرسل إنما تحدث من الذين يستمتعون بالفساد وبآثار الفساد .

إن منهج الهداية حيسما يأتي فهو يأخذ بأيدي المظلومين ، ويعضب منه الظالمون والأقوياء الجبارة ، ولذلك يهاجمون الرسل ويحاربون منهج الله ، ذلك أن منهج الله سيقطع عليهم سبل الفساد الذي يُدِرُّ عليهم عائداً هو في نظرهم كبير ؛ ولذلك رأينا صناديد قريش وقد تصدوا للدعوة ، فمحمد ﷺ جاء بالمساواة بين كل البشر ؛ لقد كانوا يعرفون أن مجرد النطق بالشهادتين : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . يعنى فقدانهم لسلطان إرهاب الناس والقبائل ، فلو كانت المسألة مجرد كلمة تقال ويبقى الأمر على ما هو عليه لقالوها ، ولكنها كانت كلمة تغير من الأمر سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ، ولا يبقى من جبروت لأحد ؛ فكل الناس سواسية .

لذلك تصدى صناديد قريش لدعوة الإسلام ، ولذلك نجد أن كل رسول يأتي فإن له من يعاديه من الجبارة ومن أصحاب الفساد في الأرض مصداقاً لقول الحق : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَاطِئِينَ إِلَّا إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنعام - ١١٢]

ولذلك أراد الحق أن يجعل صبيحة الإيمان في الجاهلية تأتي أولاً إلى آذان سادة العرب جميعاً ، وهم قريش الذين لا يجرؤ أحد من العرب على التعرض لهم ، ولم يجعل الحق النصر يأتي لمحمد وهو في مكة حيث كانت مقام السيادة ؛ لأن النصر لو كان قد حدث ومحمد ﷺ يحيا بين قومه في مكة ؛ لقال قائل : لقد حدث النصر من قوم ألفوا السيادة وأرادوا أن يسودوا العالم كله ، لا الجزيرة العربية وحدها ؛ لذلك جعل الحق مقام النصر ينبع من المدينة المنورة ، لقد جاءت الصرخة أولاً في آذان السادة ، ثم التف حولها المستضعفون في الأرض الذين لا يستطيعون حماية أنفسهم ، ثم هاجروا ونصرهم الله من بعد ذلك على الأقوياء .

لذلك فنحن نجد أن كل داعٍ إلى الله يأتي إنما يريد إقامة مذهب الله في الأرض ؛ حتى لا يأتي الران على القلوب ، بسبب العملة التي حدثت بالبعد عن مذهب الله . وذلك ما يعضب منه الجاهلية والمنحرفون الذين يريدون السيادة على العالم بفكرهم . ونجد أن الداعي إلى الله الذي ليس له عدو يصبه بالسوء هو داعٍ حظه من منهج النبوة ضعيف ، وميراثه من النبوة ليس بكثير !! والكافرون يمسى ﷺ علماً رأوا قوة الآيات التي جاء بها عيسى عليه السلام . ماذا قالوا ؟ ﴿ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصافات : ١٥] .

ومعنى ذلك أن معجزات عيسى عليه السلام قد أحققتهم ، وملاأت مشاعرهم بالخيبة ، لقد جاء مثل هذا القول من قوم يكرهون مذهب الحق ، وعلى ذلك يكون كفر الكافر نعمة ، يدعم بها الحق الداعي إليه ؛ لأن مقاومة الإيمان تظهر قوة المؤمن بالعقيدة التي يؤمن بها . إذن .. فكلما رأينا داعياً إلى الله يهاومه الناس ويصدونه بالسباب ؛ فهذا دليل على صدق الداعي ، ما دام متبصراً بما يؤمن به .

والحق جل وعلا يقول . ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّتِ أَنْ مَآسُوا فِي وَيَسْئُلُوا قَالُوا مَآسَا وَأَشْهَدَ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة : ١١١] .

وانوحى بمعناه العام هو الإعلام بحفاء ، أى أن الحق ألهمهم أن يؤمنوا برسالة عيسى المبلّغ عن الله . والحق أوحى إليهم أى : أعلمهم بحواطر القلب التي أعظم بها أم موسى أن تلقى ابنها في اليم وهو غير الوحي للرسول ؛ فالوحي إلى الرسول هو الوحي الشرعى بواسطة رسول مبلّغ عن الله ، إن وحي الله إلى أم موسى أو إلى الخواريين هو استمرار خاطر إيماني ، يلتصق

بعده الموحى إليه ليجد الواقع يؤيد ذلك ، وعندما لا يصادم إلهام القلب الواقع ، ولا يجد الإلهام ما يصادمه من نفس الإنسان ، فهذا لون من الرضى ، أى هو إعلام بحقاء ، كأن يتوقع الرجل مقدم صديق من سفر ، أو لوناً من الطعام يشتهي فيجده على المائدة ؛ إذن .. فالإلهام وارد من الله خلق الله ما دام لا يتصادم بشيء مع النفس أو الواقع ؛ لأن الإلهام الذى يقابل صدقاً ليس من الله . كذلك أوحى الله للحواريين أن يؤموا به وبرسالة عيسى عليه السلام ، ولمجرد مجيء عيسى وسماعهم أنه رسول من الله ، أعلنوا الإيمان به وصاروا من تخلصائه . ولذكر بما قلناه مراراً : حين ترى : «إذ» فلتعلم أن معناها : «ادكر إذ» ، أى تذكر وقت الحدث الذى قال فيه الحواريون : نحن آمنّا بعيسى نبياً من عبد الله . وأشهدوه على إيمانهم .

قوله تعالى : ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَتِينَاتِ وَابْتَدَأَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ . فلما أن نلاحظه جيداً أن الحق سبحانه وتعالى يؤكد دائماً فى الكلام عن نبيه عيسى عليه السلام أن عيسى ابن مريم ، ذلك ما يقرره الله ، أما عن تأييد الحق سبحانه لعيسى ابن مريم بروح القدس ؛ فهذا لأن المسائل التى تعرض لها المسيح عيسى ابن مريم هى مسائل تستدعى أن تغفل روح القدس تسانده ، ففى ميلاده تعرض لإشكالات ، وفى دعوته تعرض لإشكالات ، وكل هذه الأمور تحتاج إلى مساندة من روح القدس ؛ لذلك يقول : ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم : ٣٣] .

إذن .. كل إشكالات التى تعرض لها عيسى ابن مريم كانت مشاكل كبرى ففى الميلاد تعرض لمشكلة ؛ لأنه وُلِدَ على غير طريقة ميلاد الناس ، وتلك مشكلة اتهمت فيها أمه ، وجاء القرآن وبرهنا وبرأها ووضع الأمر فى نصابه الحق . وفى رفعه ، كان الأمر مشكلاً ؛ فلقد أرادوا أن يقتلوه ولكن رفعه الله إليه . إذن .. هو عليه سلام يوم ولد ويوم يموت ويوم يُبعث حياً .

ماذا عن مائدة السماء ؟

قال تعالى : ﴿إِذْ قَالَ الْخَوَارِجُونَ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة : ١١٢] .

كان عيسى عليه السلام قد قال للحواريين : عليكم بتقوى الله عز وجل ، فلا تسألوه هذه الآية ؛ لأنكم ما دمتم أهلتم الإيمان فأنتم لا تقترحون على الله آية لإثبات صدق رسوله ، وحسبكم ما

أعطاه الله لى من آيات لصدق رسالتى ؛ إد عبيكم أن ترموا أنفسكم بالمهج الذى أعتسم إيمانكم به ولكرئ الحوارين أجاوبا ﴿بُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَنَطْمِئَ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَ وَتَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة : ١١٣] .

وكأنهم أرادوا أن يتشبهوا بإبراهيم خليل الرحمن ﷺ عندما سأل الله عز وجل عن كيفية إحياء الموتى ؛ ليطمئن قلبه . لقد آمنوا بعلم اليقين ويريدون الآن الانتقال إلى عين اليقين ؛ بذلك سألوا عن المائدة التى صارت من بعد ذلك حقيقة واضحة وهكذا يعرف أن هناك فرقاً بين أن يؤمن الإنسان بداته ، وبين أن يشهد بالإيمان عند غيره . ويقول الحق عن استجابة عيسى لطلب الحوارين ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ زَيِّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَرِزْقًا وَكَتَ حَيَّرَ الرَّزَاقِينَ﴾ [المائدة : ١١٤] .

وفول الحق : ﴿مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ لا يعنى أن هناك موائد منصوبة فى الأرض ؛ ذلك أن الكون كله مائدة فيها من الخير الكثير ، والإنسان ما عندما يكذب ويكدر ويستخرج من الأص الررع ويرعى أنعامه ، فإنه يأنى إلى روجه وأولاده يخزون قد يكفيهم لمدة عام من دقيق وأرر وعسل وسكر وريت . وقد تأتى الزوجة بشيء من الطمر فتذبحه وتطهر معه الخضروات

إذن .. فالكون كله مائدة الله المنصوبة التى يأخذ منها كل إنسان على قدر عمله وكلمة ﴿مَائِدَةً﴾ لا تطلق إلا على الخوان وعبيه طعام ، أما إن كانت بعير طعام مطلق عليها : خوانا ؛ لأن المائدة مأخوذة من مادة الميم والألف والبدال لا والمائدة تميد أى تصطرب من كثرة ما عليها من أشياء ، أو هى تعطى مما عليها من أشياء ، وصارت هذه المائدة عيداً أى يوماً يحب الناس أن يعود عليهم مثله ؛ لأنهم يسرون به ، فالعيد هو ما يعود علينا بالخير وبما يسر ، وقد توقف العلماء عند قول الحق سبحانه ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ . وتساءلوا : كيف كان هذا القول ، وخصوصاً أن معناه الظاهرى : أيقدر ربك ؟ وكيف للحواريين أن يقولوا ذلك بالرغم من أنهم أشهدوا عيسى ﷺ بأنهم مسلمون ؟ .

وفال العلماء أيضاً : إن من يتكلم فى انعة عيه أن يكون متبصراً باشتقاقات الألفاظ ، واستعمالات الألفاظ ، وسمات الألفاظ ، وكسمة ﴿يَسْتَطِيعُ﴾ يطق ويراد منها الاستجابة وكان معنى سؤالهم أيستجيب الله لإرسال مائدة لنا من السماء ؟ واستطاع ؛ تقابل

« استجاب » . إن الحق سبحانه وتعالى هو القادر على كل شيء وهو الذى يخصص لحكمه كل شيء ، وحق لا يطلب إنما يأمر : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْءٌ أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] .

فكان الحق عندما يقول : ﴿ كُنْ ﴾ فهو قد طلب من الشيء طوعاً أن يكون . وعلى هذا فإن سؤالهم يكون كالآتى : هل يطلب ربك طوع الكون له ؟ فيستجيب لنا بإرسال مائدة تكون [لنا] عيداً . ولنا أن نعلم أن قول الله ﴿ كُنْ ﴾ لا يمكن أن يصدر إلا والحق يعلم أن المطلوب منه يجب أن يطيع الله سبحانه وتعالى ، وأن يكون استعداداً الانفعالي أن يطيع على النور أمر الخالق ، وحتى نعلم ذلك فلنقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۖ وَأُنْزِلَتْ رِيحًا وَخَفَّتْ ۖ ﴾ [الاشفاق : ١ ، ٢] إنها لن تنظر إلا سماع الأمر فقط ، وحين تسمع الأمر فهي تفعل ، ومعنى تفعل أى : تصيع ، وكل الكون مطيع لخالقه سبحانه وتعالى وقول الحق ﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَنَقْلَمِيزَ قُلُوبِمْ وَكَلَّمَهُمْ أَنْ قَدْ صَدَقْتُمْ وَتَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ . لقد طلبوا مائدة من السماء وقدموا الرعية فى الأكل والطعام على ضرورة التصديق الإيماني الحارم ، ولنا أن نرى اختلاف قولهم فى هذه المائدة عن قول عيسى ابن مريم عليه السلام لما سأل ربه هذه الآية ، فيقول تعالى فى ذلك ﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ آتِيَنَا بِمَائِدَةٍ مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَآرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [المائدة : ١١٤] .

إن قول عيسى عليه السلام هو قول مسمى بكل المعاني القيّمة . إنه يطلب أن تكون المائدة عيداً يفرح به الأولون والآخرون ، وآية من الحق سبحانه وتعالى . ويعترف بعض ربوبية الرازق ، ويعترف بامتنان أن الحق سبحانه حير الرارقين ، والمقارنة بين قول الخواريين وقول عيسى عليه السلام تدلنا على العارق بين إيمان المتبع عن الله وهو عيسى عليه السلام ، وإيمان الذين تلقوا البلاع عنه وهم الخواريون ، إن إيمان عيسى عليه السلام هو الإيمان القوى الناصح ، وإيمان الخواريين إيمان لا يرقى لإيمان عيسى عليه السلام ، ولقد كانت قوة إيمان عيسى عليه السلام نابعة من أنه يتلقى عن الله سبحانه وتعالى مباشرة . صحيح أن الخواريين آمنوا بالبلاع عن الله عز وجل ، وتم ذلك بواسطة عبده ورسوله عيسى عليه السلام ؛ ولذلك يعلو الرسول عن المؤمنين ببلاغه ؛ ولذلك صحح عيسى عليه السلام صديقه من الله سبحانه وتعالى وهو يدعو ربه . إنه رسول مصطفى محببى ؛ لذلك يصعب الأمور

فى نصابها فيقول: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا﴾ وكلمة: ﴿اللَّهُمَّ﴾. فى الأصل هى «يا الله»، وعندما كثر النداء، بها حذف منها حرف النداء وعرضنا عنه بيمين فى آخرها فصارت «الهم»، وكان هذا اللفظ تنهياً به من الإنسان لمسحاة الله عز وجل فى تقديس وثقة هى أن الحق يستجيب لعبده، وهو نداء يقوم على حب العبد لمولاه، فلا يوسط بينه وبين اسم ربه أى واسطة حتى وإن كانت هذه الوسطة حرفاً من حروف النداء ولنا أن نلاحظ أن عيسى عليه السلام قدم كلام الله بصممه الألوهية، إنه كسبى مرسل يعلم تجليات صفة الله عز وجل، وهى تجليات عبادة من عابد إلى معبود، أما تجليات كلمة «ربلاً» فهى تجليات مريب ورب، إنه يعلم الفارق بين عطاء الألوهية للحلق وعطاء الربوبية، إن عطاء الألوهية تكليف من معبود إلى عابد والعايد بطيع المعبود فيما يأمر به وفيما ينهى عنه. أما عطاء الربوبية فهو سبحانه المتولى للتربية؛ التربية للأجسام والعقول والمواهب والقلوب والأفوات. والرب هو رب كل شيء، رب للمؤمن والكافر، والرب يتولى تربية الكافر رغم إنكاره للألوهية، إنه يرمى الماديات التى تقيم حياته؛ ولذلك نجد الحق يقول عن هؤلاء الكافرين: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [نجم: ٢٥].

إن الحق سبحانه يبلغ نبيه محمداً ﷺ أن يسأل الكافر عن خلق السماوات والأرض، ولن يجدوا إجابة على ذلك إلا قولهم: إن الله عز وجل هو الخالق. إن هذه هى إجابة المظرة الأولى، ونحن نرى فى حياتنا أكثر من مثل على ذلك - ولله المثل الأعلى - عندما يسأل الأطفال عن شيء ومن الذى أحضره؟ فإنا نجد الإجابات تتسلسل إلى أن تصل إلى أن معطى كل شيء هو الله. إن سأل طفل أمه ماذا سأل كل؟ فستجيب الأم على - سبيل المثال - سأل بامية..، ويسأل الطفل: ومن أين؟ تجيب الأم: اشتراها والدك من بائع الخضار. ويسأل الطفل: من أين جاء بها بائع الخضار؟ تقول الأم: من تاجر الجملة فى السوق. يسأل الطفل: من أين جاء بها تاجر الجملة؟ تجيب الأم: من الفلاح الذى حرث الأرض وتلأ فيها بذور البامية؟ يقول الطفل من الذى خلق الأرض، وأنت النبات؟ تقول لأم: إنه الله سبحانه وتعالى ربا خالق كل شيء. لقد وصلت الأم بحوارها مع الطفل إلى عطاء الربوبية الذى يستوى فيه المؤمن والكافر. وللمؤمن هو الذى يأخذ بجانب عطاء الربوبية عطاء الألوهية أيضاً، وهو التكليف. فعطاء الألوهية يعنى المؤمن عطاء الربوبية مضافاً إليه العطاء الذى لا

بعد . إنه يعطى المؤمن زماناً لا يموت فيه وسعة لا يتركها ولا تتركه . يأخذ به المؤمن يقين الإشراف ، والإقبال على العمل فى ضوء منهج الله ؛ ولذلك قال عيسى ابن مريم داعياً الله جلّ صفاته وأسمائه : ﴿ اَللّٰهُمَّ رَبَّنَا اَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾

لقد أُرِمَ عيسى عليه السلام نفسه بداء الألوهية أولاً ؛ معترفاً بالعبودية لله جلّ وعلا ملتزماً بالتكليف القادم منه ، ثم جاء بداء الربوبية ؛ فيما أنزلت علينا التكليف ، وبما منّ تولى تربيتنا ، نحن ندعوك أن تنزل علينا مائدة من السماء . لقد أُرِمَ عيسى عليه السلام نفسه بالعبودية ، وأخذ بداءه من رابطة القيم ثم [من] الزاوية الحادية وهى الرق . لقد قدم الحواريون بشريتهم فطلبوا من المائدة الأكل والطعام ، وقدم عيسى ابن مريم عليه السلام بصفتها اختياريه رسولاً ، القيم على الطعام . صحيح أن الرق يمس الأكل ولكن الرق ليس كله أكلاً ، هو كل شيء يحتاج إليه ويتنفع به ؛ فالأكل رزق ، والشرب رزق ، والملبس رزق ، والعلم رزق ، والغلم رزق ، والهداية رزق ، وكل شيء يُنتفع به هو رزق من عند الله ، ولذلك جاء عيسى بالكلمة العامة التى يدخل فيها الأكل وتتسع لغيره .

ويجيب الحق دعاء عيسى ابن مريم . ﴿ قَالَ اَللّٰهُ اِنِّى مُرِلُّهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ يَسْمَعُ فَاِنَّ اَعْدِيَّكُمْ عَذَابًا لَّا اُعِدُّهُ لَعَدَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ ﴾ [المائدة - ١١٥] . وحين يقول الحق : «إني» فهو يستخدم بنون الأفراد . ونعلم أن هناك أسلوبين لحديث الحق سبحانه عن نفسه ، فحين يتحدث سبحانه عن وحدانيته يأتي بنون الإفراد فيقول : ﴿ اِنِّى اَنَا اَللّٰهُ ﴾ [طه : ١٤] .

وحين يتحدث سبحانه وتعالى عن سياق القدرة الشاملة العامة لكل صفات القدرة الشاملة يأتي بنون التعظيم ، فيقول : ﴿ اِنَّا نَحْنُ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيْمُ وَ اِنَّا لَمُحْكِمُوْنَ ﴾ [الحجر . ٩] . وهو سبحانه وتعالى أراد بها أن يعطيا معنى التوحيد فقال : ﴿ اِنِّى مُرِلُّهَا عَلَيْكُمْ ﴾ ؛ ذلك أن المائدة تستنزل من السماء ، ولا يقدر على ذلك إلا الله سبحانه وتعالى .

ثم يقول الحق بعد ذلك : ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ يَسْمَعُ فَاِنَّ اَعْدِيَّكُمْ عَذَابًا لَّا اُعِدُّهُ لَعَدَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ ﴾ [المائدة - ١١٥] .

إن الحق سبحانه يرسل رسله بعد أن يجتبيهم ، وإياك أيها العبد أن تقول : إن فلاناً من الرسل أفضل من فلان . لأن الحق هو الأعلم يرسله ، ولنا فى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سُبْحٰنَ مَا أَطْعَمَنَا وَسَقَمَنَا﴾ [البقرة ٢٨٥] الأمر باتباع الرسل . وعندما حاول بعض من أهل الجاهلية التعجب من شأن القرآن الذي نزل على محمد ﷺ ، مرد الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله : ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هٰذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ ۚ أَهْمُ بِقَسْمُونَ رَبِّكُمْ رَبُّكُمْ فَكَيْفَ قَسَمَ بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَرَفَعَهَا بَعْضَهُمْ فَوقَ بَعْضٍ دَرَجٰتٍ لِّسَجْدٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ سَاجِدٌ مُّحَرِّقًا وَرَبُّكُمْ رَبُّكُمْ حَزِيزٌ مِّمَّا يَتَخَسَّبُونَ﴾ [الزمر ٣١ ، ٣٢] .

إن أهل الجاهلية قالوا : لماذا لم يُنزل القرآن على رجل عظيم من مكة أو الطائف ؟ لقد قالوا ذلك استهزاء بشأن محمد ﷺ ، وقال الحق سبحانه وتعالى في ذلك القول انفصل ؛ فليس لأحد أن يختار الرسول ؛ لأن الرسول مصطفي من الله ، ولا يملك أحد من البشر أن يختار رسولاً من أصحاب السبطان أو الحماة ، إنه سبحانه وتعالى يعد كل رسول الإعداد للآلئ بمهمته ، ومقام الرسالة والنبوة هو المقام الأعلى في الدنيا والآخرة ، والحق سبحانه هو المنظم لأمر خلقه ، وقسم المواهب رحمة منه فيما بين العباد ؛ ليتساندوا ويتأروا ويحتاج كل منهم لعمل الآخر . والحق سبحانه وتعالى حين يرسل رسولاً فهو يختار الآية المناسبة له ، ويعصر اندى جاء فيه ، فإذا ما اقترح قوم أية فإن الحق يضع هذا الاقتراح شرطاً للتسليم برسالة الرسول . فإن لم يؤمن الذين اقترحوا الآية فإن الحق يرسل بهم العذاب الأليم . إن طلب الآيات من أتباع الرسول يحمل في طياته بعض التفات كأأن الذين يطلبونها يصرون على الكفر بالرسول رغم طلبهم للآية ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿وَمَا مَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيٰتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَمَآئِذَا ثُمُودُ نَافَاةٌ مُّبِصِرَةٌ فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيٰتِ إِلَّا تَخَوِيفًا﴾ [الإسراء ٥٩] .

لقد اقترح الكفار والمشركون على رسول الله ﷺ أن يأتيهم بالآيات والمعجزات الدالة على صدقه ؛ حتى يصدقوا أنه نبي مرسل من الله إليهم ، وسنة الله سبحانه وتعالى مع الدين يطلبون الآيات ثم لا يؤمنون بها واضحة وهي العذاب الشديد ؛ ومثال ذلك قوم ثمود الذين طلبوا ناقة تكون معجزة ، وبرغم ذلك كفروا بها ، فعاقبهم الله شر عقاب ، إن بعضاً من الكافرين عالوا في طلب آيات عرية : ﴿وَقَالُوا لَنْ نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَخْرُجَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۖ أَوْ تُكُونَ لَكَ جِنَّةٌ مِّنْ جَبَلٍ ۚ وَسَبَّحْتَ مُنَاجِرَ الْأَنْهَارِ جُلَّةً مِّنَ الْأَعْيَانِ ۚ أَوْ تُسْقَطَ

السَّمَاءَ كَمَا رَعْنَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بَآئِلَةً وَأَلْمَلِكَةً قَبِيلًا ﴿٩١﴾ أَوْ يَكُونُ لَكَ يَمِينٌ مُخْرِبٌ
أَوْ تَرْقَى السَّمَاءَ وَلَنْ نُؤْمِنَ بِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِسْفًا تَقْرَؤُهُمْ فَلَنْ مُبَحَّانَ رَقَى هَلْ كُنْتُ إِلَّا
شَكْرًا رَسُولًا ﴿٩٢﴾ [الإسراء ٩٠ - ٩٢].

إن محمداً ﷺ كان رحيماً بقومه ، لذلك لم يطلب من الحق آيات غير التي أنزلها الله
عليه . وعيسى عليه السلام دعا الله بأدب الرسل أن ينزل المائدة . واختلف العلماء أنزل الحق سبحانه
وتعالى المائدة أم لم ينزلها ؟ هناك من تمسكو بقول الحق سبحانه : ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا ﴾
وهناك من قالوا : إن الحق سبحانه وضع شرطاً لنزول المائدة وهو إنزال العذاب إن لم
يؤمنوا ، فتراجعوا عن طلب إنزال المائدة ، ولذلك لم ينزل الحق تلك المائدة . ومن قالوا بنزول
المائدة اختلفوا في مواصفاتها ؛ فقليل إن المائدة برلت وعليها سمكة مشوية من غير فُلوس ولا
شوك فيها ؛ ذلك أنها مائدة من السماء ، ومعها خمسة أرغفة وعلى كل رعيء شيء مما
يعرفون ، رعيء عليه غسل ، وآخر عليه ريمون ، وثالث عليه سمس ، ورابع عليه حن ، وخامس
عليه قديد

كان ميلاد عيسى ابن مريم عليه السلام ووفاته آية

قال تعالى : ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَوُوهُ
وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِمَّا هُمْ بِهِ مِنْ حِلٍّ إِلَّا لُغَاةَ الظَّالِمِينَ وَمَا قَتَلُوهُ
يَقِينًا ﴾ [النساء . ١٥٧] . نلاحظ أن الآية : تبدأ بوار العطف على ما قبلها ، وهو قول الحق :
﴿ فِيمَا تَغْتَابُهُمْ فَيَشْفَعُ لَهُمْ وَكَفَرِهِمْ يَقَابِلُ اللَّهُ وَفَقِيلَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ
طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ﴿ وَكَفَرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْبَرٍ بَيْنَنَا وَعَيْنَاهُ ﴾
[النساء ١٥٥ ، ١٥٦] . إن الحق سبحانه وتعالى يعطف على جرائمهم هذه الجريمة الجديدة :
﴿ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ وأكثر ما يدهش في هذا القول هو كلمة :
﴿ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ ، فهل كلمة ﴿ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ هنا من قولهم ؟ .

إن كانوا قد قالوها ، فهذا دليل الحاجة المطلقة ، فلو أنهم قالوا : إنهم قتلوه فقط ، لكان
الجرم أقل وطأة ، ولكن إذا كانوا قد عرفوا أنه رسول الله ومع ذلك قتلوه فهذا جرم عظيم
لغاية ، أو أن كلمة « رسول الله » في هذه الآية ليست من قولهم الحقيقي ، إنما من قولهم

التهمكم ؟ وأضرب المثل ؛ لأوضح هذا الأمر : قد يأتي شخص ذو قوة هائلة ومشهور بقوته ، ثم يأتي شخص آخر يضربه ويهزمه ، فيقول لأتباع ذلك القوى المهزوم - لقد ضربت القوي القوى فيكم !

إذن .. قد يكون قولهم ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾ . هو من قبيل التهمك ، أو أن تكون كلمة ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾ هنا هي من قول الحق سبحانه وتعالى مصمومًا إلى قولهم : ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ فكان الحق لم يشأ أن يذكر عيسى ابن مريم إلا مرتبطًا أو موصوفًا بقوله - ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾ ذلك ؛ لنعلم بشاعة ما قالوه فيه وفي أمته عليهما السلام ، فأراد الحق أن يبين أن عيسى ابن مريم رسول الله رغم أنوفهم ، وكأن الحق يسخر منهم ؛ لأنه ما كان الله ليرسل رسولاً ليعين منهجه للناس ، ثم يسلط الناس على قتله قبل أن يؤدي مهمته ، إنه سبحانه وتعالى قد جاء بكلمة ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾ هنا كمتقدمة يلفت بها الذهن إلى أن ما قالوه هو الكذب .

بعد ذلك يقول لنا سبحانه : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ ومجىء كلمة ﴿وَمَا صَلَبُوهُ﴾ ؛ لتوضيح أن مجرد ظنهم أنهم قتلوا المسيح جعلهم يشيعون ذلك ويعلمونه للناس . فعلوا ذلك قبل أن يوجهوا إلى فكرة الصلب ، إنهم قتلوا شخصاً شبهه الله لهم ، لم يكن هو المسيح . ثم صلبوه من بعد ذلك ، ولكهم بمجرد قتل هذا الشخص طاروا بحير القتل قبل أن يقوموا بالصلب ويقطع الله عليهم هذا الأمر فقال : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ إن الحق القادر سبحانه وتعالى لعنا من قبل إلى أن عملية ميلاد المسيح قوبلت من بني إسرائيل بصحة رغم علمهم بالخبر . خبر مجيء المسيح بالنيلاذ من غير أب ، ورغم أنهم علموا بناتهم الاستشراء إلى أن يكون لواحدة منهن شرف حمل المسيح رغم ذلك قالوا في مريم البهتان العظيم .

إن ميلاد المسيح كان له صفة ، وكذلك كان لمسألة الوفاة صفة . واقتراء الصفتين معاً في رسالة المسيح يدلنا على أن العقل يجب أن يكون له وحدة تفسيرية ، فحين يسمع العقل عن قصصه الميلاد بالنسبة لعيسى ابن مريم لابد أن يستشعر أنها جاءت على غير سمة موجودة . وحين يلمح الحق أن بني إسرائيل بيتوا الية لقتل عيسى ابن مريم عليه السلام وأن الله عز وجل رفعه إليه ، هنا تكون المسألة قد جاءت أيضاً بقضية محالفة ، ولا بد أن نصدق ما بلغنا الله عز وجل به كما

صدقنا أن عيسى ابن مريم جاء من غير أب ، لابد أن نصدق أن الحق رفعه في النهاية إليه .
إن الميلاد لم يكن في حدود تصور العقل لولا بلاغ الحق سبحانه وتعالى لنا . وكذلك
الوفاة لابد أن تكون مقبولة في حدود بلاغ الحق لنا . إن الميلاد والنهاية بالنسبة لعيسى ابن مريم
عليهما السلام كل منهما عجيبة ، ولابد أن نفهم أن العجيبة الأولى في الميلاد يجب أن تكون
تهيئداً لى أن عيسى ابن مريم عليهما السلام دخل الوجود ودخل الحياة بأمر عجيب ، فلماذا لا
يخرج منها بأمر عجيب ؟

إن الحق سبحانه وتعالى حكم وقال : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ وكلمة
﴿ شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ هي دليل على العرضي التي أوقعهم الله - تجلّت حكمته - فيها ، فقد ألقى شبهة
على واحد آخر ، وذلك دليل على أن المسألة كانت غير طبيعية ؛ ليس فيها حزم التبين من
المتر بصين القتلة ، ونحن نعلم أن الخواريص وأتباع عيسى عليه السلام كانوا يلقون رءوسهم ؛ ويدبرون
سماتهم ؛ ولذلك قال الحق لنا : ﴿ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ أى أنه قد شبه لهم أنهم قتلوه .. كيف
حدث هذا ؟ وما الحكاية ؟ إن كلمة ﴿ شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ اختلفت فيها الروايات ، فقيل : إنهم حينما
طلبوا عيسى ابن مريم ليقتلوه دخل حوطة ، والحوطة هي فتحة في باب ؛ ففي البيوت القديمة
كان يوجد للبيت باب كبير لإدخال الأشياء الكبيرة ، وفي هذا الباب الكبير يوجد باب صغير
يسمح بمرور الأفراد ، وفي سقف البيت توجد فتحة اسمها - رورة فلما طلبوا عيسى دخل
الحوطة ، ولما دخل الحوطة دخل خلفه رجل اسمه تطيانوس ، وعندما رأى عيسى عليه السلام هذا
الأمر ألهمه الله سبحانه وتعالى أن ينظر إلى أعشى ، فظفر ، فوجد شيئاً يرفعه ، فلما استبطأ القوم
تطيانوس خرج عليهم فتساءلوا إن كان هذا تطيانوس فأين عيسى ؟ وإذا كان هذا عيسى فأين
تطيانوس ؟ إذن .. فقد اختلط عليهم الشبه بين تطيانوس وعيسى ، لما ألقى الله شبه عيسى على
تطيانوس . إذن .. عيسى باق ، ولم يأت الحق بخير موت عيسى عليه السلام ، وعلى ذلك بقي الأمر
على أصل ما وردت به الأحاديث من أن الله رفع عيسى ابن مريم ، وما دمنّا مسلمين لا نستبعد
أن يكون الحق سبحانه وتعالى قد رفعه إلى السماء ، لماذا ؟

لأن المبدأ مبدأ وجود بشر في السماء قد ثبت لرسولنا ﷺ ، ولقد علمنا أن رسوماً محمد
ﷺ قد عُرج به إلى السماء وأنه صعد وقابل الأنبياء ورأى الكثير من الرؤى . إذن . فمبدأ
صعود واحد من البشر من الأرض ، لا يرال على قيد الحياة البشرية المادية إلى السماء هو أمر

وارد، والخلاف يكون من المدة الرسمية والمدة الرمزية لا تنقص مبدأ سواء صعد وبقي في السماء دقائق، أو ساعات، أو شهرًا.

إذن .. قد ظن اليهود وقالوا إنهم قتلوه وصلبوه.

وقد قال المسيح ﷺ: أيكم يبقى شبهى عليه وله الجمة؟ فمادا إذن يريد الحوارى لنفسه أكثر من الجمة، لقد قدم عيسى ﷺ الجائزة الكبرى من يدفع الثمن من أتباعه، وقبل واحد من الحوارين هذه المهمة ويقال له: سرجس لا، فألقى شبه المسيح عيسى عليه فقتله اليهود. وقيل: إنه حينما عرف بعض من الذين ذهبوا لقتل عيسى أنه رفع، حافوا أن تنتشر هذه الحكاية بين الناس فيؤمنوا برسالة عيسى، وقد ينتقم الناس من الذين أرادوا قتله؛ لذلك جاء القتل بواحد وقتلوه، وألقى على هذا القتل شبه عيسى ابن مريم، أو أن القتل هو واحد ممن باعوا عيسى لليهود، ولكن لما رأى المشهد ووجد المتربصين بعيسى يدخلون على الحوارين وفيهم عيسى؟ سأل المتربصون الحوارين: أيكم عيسى؟ فاستيقظت ملكة التوبة في نفس الديو وشى بعيسى وقاده تأنيب الصمير على خيانة الرسول إلى أن قال أنا عيسى. وم يتصور المتربصون أن يجيب إنسان على قولهم: أيكم عيسى، إلا وهو عيسى بالفعل؛ لأن مشهد المتربصين يوحى بأنهم سيقتلون عيسى فقتلوا الديو اعترف على نفسه دون تثبت. إن هذا الديو باع عيسى باعه مقابل ثلاثين دينارًا، واحتبط الأمر على القوم، فقتلوا الواشى ولم يظفروا بعيسى ابن مريم ﷺ.

وحس كمسلمين لا يهتم اهتمامًا كبيرًا بهذه الروايات، ولكن المهم أنهم قالوا: قتلنا عيسى وصلبناه فقال الله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾، كيف حدث ذلك؟ بأن رفعه الله إليه وانتهت المسألة بالنسبة لنا؛ لأننا كمؤمنين لا تأخذ الجرائد الدمية أولًا. نحن نؤمن أولًا بمُرسل هذه الجرائد وصدق من يعد ذلك كل ما جاء من الحق سبحانه وتعالى. والبحث في هذه المسألة لا يعيبنا في شيء، ويكفينا أن الحق سبحانه وتعالى قال ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾.

إن قول الحق عز وجل: ﴿وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾. يدلنا على عدم تثبت القتل من شخصية القتل، وهذا أمر متوقع في مسألة مثل هذه؛ حيث يمكن أن تحتلط الأمور

إننا في حياتنا اليومية نرى أن حادثة ما يمكن أن تحدث في وجود أعداد كبيرة من البشر وهم ينظرون إليها ، ومع ذلك تقع الحادثة ، وتختلف فيها الروايات ، وقد تكون الحادثة مصورة ومسجلة ، ورغم ذلك تختلف الروايات ، فما بالنا بوجود حادثة مثل هذه ، في زمن قديم لا توجد كل الاحتياطات التي نراها في زماننا ؟ كان لابد أن تصطبب الآراء ، والروايات في تلك الحادثة ، وبكسر يكفينا أن الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ وَمَا قُلُّوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ﴾ . إن الحق سبحانه وتعالى يخاطب العقل كثيرًا لأنه ميسرًا به ، إن الله سبحانه وتعالى خالق رحيم لا يورد نصًا إلا وهو يتوافق مع العقل السليم ، وإن لم يتفق . فالأمر يرجع إلى قصور في فهم العقل ؛ ذلك لأن الأمر من الله ، ومادام الأمر من الله فلا بد من التسليم المطلق . إن الأمر الذي قد تقف فيه العقول يشاؤله الحق سبحانه وتعالى تناولا موسى رحمه بالملكوتين .

وقول الحق : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ارْقُطْ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [آل عمران : ٥٥] .

إن علينا أن نتجه إلى واو العطف بين « متوفيك » و « رافعك » ، فمن قال : إن واو العطف تقتضي الترتيب . ومن قال : إن واو العطف تقتضي الجمع فقط ، كقولنا : جاء زيد وعمرو ، وهذا يعنى أن زيدا جاء مع عمرو أو أن زيدا جاء أولا أو أن عمرا جاء أولا ، وتبعه زيد . إن واو العطف لا تقتضي الترتيب وإنما مقتضاها هو الجمع فقط . لكن لو قلنا : جاء زيد فعمرو ، فزيد هو الذى جاء أولا وتبعه عمرو ؛ لأن الفاء تقتضى الترتيب والتعقيب ، إن الواو تأتي لمطلق الجمع ، ولا تتعلق بكيفية الجمع ، وقد قال الحق سبحانه : ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ . هذا الضرب من الجمع لا يدل على أن الوفاة قد تمت قبل الرفع ، ودليلا على ذلك أن الحق سبحانه أرسل في القرآن آيات تدل على هذا ، كقوله سبحانه : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَمْ وَرَبُّهُمْ ﴾ [الأحزاب : ٧] .

إن الحق قد أخذ الميثاق من محمد ﷺ ، وجمع معه نوحا وإبراهيم فهل هذا الجمع يقوم على الترتيب ؟ لا عليهم السلام ؛ لأن نوحا كان متقدما جدًا في موكب الرسالات وسبق رسول الله ﷺ بقرون طويلة ويفصل بينهما رسل كثيرون .

إذن . فالواو لا تقتضي الترتيب في الجمع إذن .. لماذا جاء الحق بأمر الوفاة مع أمر

الرفع ؟ إن ذلك يُعلم أنه الرعاة أمر مقطوع به ؛ لكن الرفع مجرد عملية مرحلية مجيء قور الحق تبارك وتعالى : ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾

والإنسان منا خلقه الله سبحانه وتعاني مادةً وهي داخلها الروح ، وعندما يريد الحق أن يُهيى حياة إنسان ما ، فهو يقبضه بدون سبب في البية ويموت حتفً أمه ، إما إذا ما صرب إنسان إنساناً صربةً عيفة على رأسه ، فالمصروب أيضاً يموت ؛ لأن الروح لا تحل في جسم به عطب شديد .

إذن الحق سبحانه وتعالى قل لعيسى - أنا آخذك إلى وراعتك مستوفياً ليس بجسدك أى نقص لبنيتك أو هدم لها أو بعضها ؛ إني آخذك كاملاً فقلوه ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ يعنى الأخذ كاملاً دون نقص فى البيان ؛ ولذلك فنحن نرى بين القتل والموت . فالموت هو أن تقبض الروح حتف الأنف ، أما القتل فهو هدم البنية فتزهد الروح . والدليل على ذلك أن الحق قال فى كتابه الكريم : ﴿أَفَأَنْتُمْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ [آل عمران ١٤٤] .

إذن .. فعين قال بنو إسرائيل : إني قتلوا عيسى ابن مريم عليه السلام كذبهم الحق ببارك وتعالى وقال : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ . ورفع الله عز وجل إليه كاملاً إنه سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِمَّنْ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الْقُلُوبِ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ . إن الحق سبحانه وتعالى يقول لنا : إن القوم تيقنوا أنهم لم يقتلوه ، لكنهم شكوا فى مسألة القتل . لم يعرف الخريصون لقتل عيسى هل قتلوا عيسى أم نطليانوس أم سرجس ؟

نحن قد عرفنا من قبل معنى النسب فحينما ينسب الإنسان شىء إلى شىء فهو يتبع إحدى النسب المعينة ، فإن قال قائل . ذكر محمد ، فإن دأكر لأحدث نسبه القائل إلى محمد والنسبة تأتى على خمسة أوجه :

نسبة علم : وهى النسبة المتينة المقطوع بها ، وتقدر على إقامة الدليل عليها .

ونسبة جهل : وهى أن يقول قائل بقضية : كأنها وقعت وهى لم تقع قط والقائل يعلم أن بوله محال للواقع .

ونسبة شك : وهى التى يتساوى فيها الأمران ؛ حدوث الحدث ، أو عدم حدوثه ،

والشك نسبة متأرجحة .

ونسبة ظن : وهي التي يترجح فيها أمر على أمر فالظن نسبة راجحة .

ونسبة وهم : وهي التي يقلد فيها قائل ما سمعه ويردده ، دون أن يستطيع إقامة الدليل عليه ، كقول الطفل مُقلِّداً أباه ﴿ نَلَّ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ . إن الطفل لا يستطيع أن يدل على أن الله أحد ، ولكنه يقلد أباه أو أمه أو أستاذه ، فإن تمنع الطفل من بعد ذلك أن يقيم عليه الدليل صارت نسبة علم .

إذن .. نالعلم يطلب واقعة يقوم عليها الدليل . أما الجهل فهو أن يعلم القائل أن ما يقوله مخالف للواقع والفرق بين الجهل والامية . أن الجاهل يقول ما يحالف الواقع وهو يعلم ذلك ، أما الأمي فهو لا يعلم . إذن ، فالجاهل يحتاج إلى نزع الباطل منه وإعطائه الحق المتيقن ، ولذلك نجد أن الجهلاء هو الذين يرهقون أهل العلم ؛ لأن الجاهل يعرف قضية مخالفة للواقع ، يحاول العلماء أن يصححوا له معلوماته .

واحق سبحانه وتعالى جاء بسبستين متقابلتين ، فبعد أن نفى سبحانه تعالى بأ مقتل عيسى ابن مريم عليه السلام قال : ﴿ وَرَبِّكَ الَّذِي اكْتَنَفُوا فَيُدْخِلُهُمْ شُكٌّ مِمَّا هُمْ بِهِ مِنْ غِلْمٍ إِلَّا زَبَّاعَ الْطَلْقِ ﴾ [الساء ١٥٧] . والنسبة الأولى المذكورة هنا هي الشك ، والشك كما قلنا نسبة يتساوى فيها الأمران ، والنسبة الثانية هي إتباعهم للظن ، والظن نسبة راجحة لقد بدأ الأمر بالنسبة إليهم شكاً ، ثم انقلب ظناً . وقد تنتهى من بعد ذلك إلى علم يقين

بقوله تعالى : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ . إن الله سبحانه وتعالى يصى أنهم قتلوه يقيناً . واليقين هو الأمر الثابت الذي لا يتغير ، فهو أمر معقود في الواقع والأعماق بحيث لا يطفو إلى الدهر لياقش من جديد

واليقين كما علمنا له مراحل :

مرحلة العلم : واسمها علم اليقين . ومرحلة العين : واسمها عين اليقين ومرحلة الحقيقة : واسمها حق اليقين .

بعدما يخبرنا أحد أن جرماً من « نيويورك » اسمه مانهاتن وأن « مانهاتن » هذه هي جزيرة عدد سكانها عشرة ملايين نسمة ، وعيها ناطحات سحاب . فهذا الخبر جاء من إنسان لا يعرف

عنه الكذب فيسمعه من لم ير «بيويورك» فيصبح هذا الخير عنده علماً متيقناً . هذا علم يقين لأن الذي أخبر به موثق به ، وإذا جاء آخر ووجه السامع من «بيويورك» دعوة لزيارتها ، ولي السامع الدعوة وذهب إلى «بيويورك» هنا نقول : انتقل الخير من علم اليقين إلى عين اليقين ، وإذا جاء ثالث وصحب السامع إلى قلب نيويورك وطاف به في كل شوارعها ومبانيها ، فهذا هو حق اليقين . وأسمى أنواع اليقين هو حق اليقين ، وقبلها عين اليقين ، وقبل عين اليقين هناك علم اليقين . والحق سبحانه وتعالى حينما عرّض لهذه المسألة قال ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ [التكوير ٣ - ٧] إن الحق سبحانه وتعالى يعطيها علم اليقين ويصدقها المؤمنون بهذا العلم قبل أن يروه ؛ وسيرى المؤمنون النار وهم على الصراط ؛ وذلك عين اليقين . أما مسألة دخول الدين يرون الجحيم إليها فأمر سكت عنه الحق ؛ هناك من يدخل الجنة ولا يدخل النار ، وهناك من يدخل النار ولا يدخل الجنة وهناك من يدخل النار ثم يدخل الجنة ، إن الكافرين بالله هم الذين سيرون الجحيم ، حق اليقين . ويأتي حق اليقين في موضع آخر من القرآن الكريم ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكْذِبِينَ الصَّالِحِينَ ۝ مَرَّةً ۚ بَيْنَ حَمِيمٍ ۝ وَتَصْلِيَةُ حَمِيمٍ ۝ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾ [الواقعة ٩٢ - ٩٥] . إن كل مكذب ضال سبيل إلى الجحيم ويضلّ الجحيم ويعانى من عذابها حق اليقين .

إذن .. فقول الحق سبحانه وتعالى عن مسألة قتل عيسى ابن مريم عليه السلام قال ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۚ ﴾ . هذا القول يصدقه الدين لم يشاهدوا الحادث تصديق علم يقين ؛ لأن الله هو القائل ، والدين رأوا الحادث عرفوا أنهم لم يقتلوه ، ولكنهم شكوا في ذلك ، أما الذي يشر عملية القتل لإنسان غير عيسى عليه السلام فهو الذي عرف حقيقة اليقين .

وخلاصة القول أن الذي حدث هو أن : ﴿ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ ، لقد رفعه الله وهو الذي لا يعليه أحد على الإطلاق ، فهو القوى الشديد الذي لا ينال منه أحد ، وإذا كانوا قد أرادوا قتل رسوله عيسى ابن مريم عليه السلام ، والله عالب على أمره ، وهو العزيز الحكيم ؛ عزيز في حكمة ، حكيم في تدبير ملوكه .

عيسى عليه السلام لم يُصلب ولم يُقتل بل رفعه الله إليه

وقول الله تعالى : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ سُبُّوا لَهُمْ ﴾ [النساء ١٥٧] .

الذين ادعوا ألوهية عيسى أو أنه ابن الإله الخالق، كان الواجب عليهم أن يحترضوا على مسألة الصلب هذه، فكيف يقولون باللوهية أو بنوّة اللوهية ثم يحجّء أعداؤه فيقتدرون عليه ويقتلونه ويصلبونه؟ إنه بذلك يكون قد انقلب من قادر إلى مفدور عليه، إنه بذلك يكون بشرا يقلير عليه غيره من البشر.

إذن .. فعندما يأتي الإسلام ويرى عيسى عليه السلام من هذه المسألة. فهو يعين أتباع عيسى على تبرئته من القتل والصلب، وكان يجب أن يتلقف أتباع عيسى عليه السلام قول الله عز وجل في هذه القصية: ﴿وَلَكِنَّ شَيْئَ لَّهُمْ﴾ ليؤمنوا به ويعملوا به

ويقول ربنا وهو أصدق القائلين ﴿وَمَا نَقُلُوهُ يَفِينًا * كُلُّ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْنَا﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨]، فالنصارى راعوا التبعية لعيسى عليه السلام يقولون بالرفع، ولكن بعد الصلب، وبحسب المسلمين - نقول بالرفع ولا صلب؛ ﴿كُلُّ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْنَا﴾.

والدين ينفون عن هذه المسألة يجب عليهم ألا ينفقوا؛ لأن قصة عيسى عليه السلام بدأها الله بمعجزة، وهي أنه ولد من أم دون أب، فإن كسم قد صدقتم بالمعجزة في الميلاد، فلماد لا تصدقون بها في مسألة الرفع؟!

وإذا كان هذا نحن المسلمين من يقول: إن عيسى عليه السلام مات ولن ينزل. نقول لهؤلاء: ماذا تقولون في نبيكم محمد ﷺ؟ أخرج به إلى السماء؟ سيقول المسلمون نعم. ونقول لهم: ألم يكن رسول الله ﷺ حيا بقانون الأحياء؟ سيقولون: نعم كان حيا بقانون الأحياء. ونقول: وظل رسول الله ﷺ مدة وجيزة في السماء ثم نزل إليها. إذن .. فالمسألة هي أن يذهب خلق من خلق الله بإرادة الحق وقدرته إلى السماء وهو حي وما يزال حيا ثم ينزل إلى الأرض .. هذه المسألة ليست عجيبة، والخلاف بين رفع عيسى عليه السلام وصعود محمد ﷺ بالمعراج، هو خلاف في المدة، ولما أن يعرف أن الخلاف في المدة لا يقتضي خلافا؛ المهم أنه صعد بحياته ونزل بحياته وظل فترة من الزمن بحياته.

إذن .. مسألة الصعود إلى السماء والبقاء فيها لمدة أمر وارد في شريعتنا الإسلامية. ويقول الحق في هذه المسألة تأكيداً لهذه القصية: ﴿وَلَا يَنْ أَهْلِي الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [النساء: ١٥٩]

قد يقول السامع لهذه الآية : إني أؤمن أن يكونوا قد أسأوا به . ويقول لا لقد آمنوا به إيماناً مراداً لأنفسهم وليس الإيمان المراد لله ، لقد أسأوا به إلهاً أو جزاءً من إله أو ابن إله ، ولكن الله يريد أن يؤمنوا به على أنه بشر وأنه رسول وأنه عبد ، فإذا قال الحق : ﴿وَلَا يَنْفَعُ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا الْيُؤْمِنُ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِمْ﴾ ، فإنما قال الحق : ﴿وَلَا يَنْفَعُ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا الْيُؤْمِنُ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِمْ﴾ .

إن هذا القول معناه : ما من أحد من أهل الكتاب إلا ويؤمن بعيسى ﷺ رسولاً وعبدًا وبشرًا قبل أن يموت .

وقلنا في اختلاف الضمائر : إن الهاء لا الموحدة في قوله ﴿إِلَّا الْيُؤْمِنُ بِهِ﴾ يرجع هذا الضمير إلى عيسى .. فسوف يؤمن به كل واحد من أهل الكتاب بمجرد إله كعبد الله بشر ورسول ، والضمير الآخر الموحدة في ﴿قَبْلَ مَوْتِهِمْ﴾ : يرجع إما إلى عيسى أى قبل موت عيسى ، أى إن عيسى لم يمضِ المئة الحقيقية التى تنهى أحله فى الحياة إلا بعد أن يؤمنوا به عبدًا ورسولًا وبشرًا ، ولا يؤمنون به إلا إذا جاء بلحيه ودمه ، ويقول لهم : أنتم محطون فيما اعتقدتم ، وأنتم محطون فى أنكم أنكرتم بشارتى محمد بنى الخاتم ﷺ . وأنتم محطون فى اتهامكم لأئمة ، والدليل على محطكم هو أنى جئت لأدعوكم بالإيمان يا رسول الخاتم محمد ﷺ ، وهأنذا أصلى خلف واحد من أمة ذلك الرسول .

وذلك يدل على أن عيسى ﷺ س يأتى بنشرى جديد : بل إنه ساعة بروله ، سيجد الصلاة قائمة فيصلى خلف واحد من المؤمنين بمحمد بن عبد الله ﷺ . حين يصنع عيسى ابن مريم ذلك ماذا يقول إذن الذين فتوا فيه ؟ لا شك أنهم سيعلنون الإيمان برسالة محمد ﷺ ، أو أن كل كتابى من الذين عاشوا فى المسافة الزمنية من بعد رفعه وحتى بروله مره أخرى سيعلن الإيمان بعيسى كبشر ورسول وعبد ، قبل أن يموت ولو فى عيبوبة النهاية . إن الآية يصح أن تكون عامة ، فالحق قال فيها : ﴿وَلَا يَنْفَعُ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا الْيُؤْمِنُ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِمْ﴾ .

إن الضمير فى الآية قد يعود إلى كل كتابى قبل أن يموت ، لأن النفس البشرية لها هوى قد يستر عنها الحقائق ويحجب اليقين ، وعزور الحياة يدفع إلى ذلك ؛ فإذا ما جاءت سكرة الموت بالحق انتهى كل شئ بعد الإنسان عن مسيح الحق واليقين .. ولا تبقى إلا انفصاها بحقها وصدقها وقيمتها ، وتستيقظ النفس البشرية على اللحظة تظن أنها ستلقى الله فيها ،

ويستقط عرور الحياة ويراجع الإنسان نفسه في هذه اللحظة . ويقول الكتاب في تلك اللحظة لنفسه : أنا اتبعت هوى نفسى في أنى جعلت عيسى إلها ، ولكن هل ينع مثل هذا اللون من الإيمان صاحبه ؟ لا ، لا ينفج إيمان الإنسان حال موته ، فإنه في تلك الساعة عاتى كل شيء وكشف عنه الحجاب وعرف مقعده في الجنة أو في النار ، وحينئذ لا يتمتع بعض إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها حيرا .

إن إيمان فرعون خطة العرق لم ينفعه وكذلك إيمان أى من أهل الكتاب قبل الموت . فقد قال عز وجل : ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ أَمَانَتِكَ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْتِبَاهُ لَوْ تَكُنَّ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا حَبِيرًا قُلِ أَنْتَظِرُونَ إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ [الأنعام ١٥٨] .

إن قول الله : ﴿وَأَنْ يَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ لا أحد من أهل الكتاب إلا وهو سيؤم بعيسى قبل أن يموت عيسى أو قبل أن يموت الكتابي . وقوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ .

إن عيسى عليه السلام سيشهد على من عاصر نوله في الدنيا ، وسيرويه يعضى خلف واحد من أمة محمد ﷺ ، وبعد ذلك يكسر الصليب ويقتل الخنزير كما يشهد يوم القيامة على السابقين من أهل الكتاب الذين قالوا : إنه إله أو ابن إله ، يحدث ذلك في موقف مهيب يوم يجمع الله الناس للحساب ويستدعى عيسى عليه السلام للشهادة على قومه فيسأله : ﴿يَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ أُعْبِدُونِي وَأُتَى إِلَهُي مِنْ دُونِ أَقْوَمِ﴾ [المائدة ١١٦] .

سؤال واضح صريح محدد وعلى رءوس كل الخلائق ، وفي حضور أنبياء الله وملائكته .. هذاذا يكون جواب ربى الله عيسى عليه السلام : ﴿قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة ١١٦] .

هكذا ستكون شهادة عيسى ابن مريم على من اتحدوه وأمه إلهين مع الله .

وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا

قال تعالى ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِكْرَامًا ۝ تَعْبَادُ السَّمَوَاتِ يَنْعَبُونَ مِنْهُ وَيَسْأَلُ الْأَرْضُ وَيَسْأَلُ الْجِبَالُ هَذَا ۝ أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝ وَمَا يَنْبَغِي

لِيَرْجِي أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا [مرم ٨٨ ٩٢]

الذي قالوا هذا الكلام قالوه بعد ثلاثمائة سنة من ميلاد المسيح **القيصر** ؛ لأنه قبل ذلك لم يقل أحد هذا الكلام ، فما الذي راد في ملك الله بعد أن جاء الولد ؟ الشمس هي الشمس ، والنجوم هي النجوم ، والأرض هي الأرض ، والهواء هو الهواء . فالذي نظم هذا الكون مد بدء الخليفة لا يحتاج إلى ولد يساعده في هذا الأمر . إذن .. فموضوعية اتخاذ الولد عبث ؛ لأنه لم يزد شيء في الملك على يد هذا الولد ، فلم تكن هناك صفة معطلة عند الحق سبحانه وتعالى .. ولما جاء الولد كمل الكون بهذه الصفة ١ : ١٩ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ؛ لأن الصفات الكمالية لله قبل أن يخلق أي شيء ؛ فهو حائق قبل أن يخلق ورائق قبل أن يرق ، ومُنحى قبل أن يحيى ، وميت قبل أن يُوجد من يموت ، فكل صفات الكمال موجودة قبل متعلقاتها ، فصفات الله أزلية .

قال تعالى في سورة الكهف : رَدُّا عَلَىٰ اقْتِرَائِهِمْ ﴿٥٠﴾ كَذَّبَتْ كَلْبَةَ فَخَرُّوا مِنْ أَهْلِهَا
إِنْ يَقُولُوكَ إِلَّا كَذِبًا [الكهف : ٥٠] .

وهنا قال : ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ۖ تَكَادُ السَّكَرَاتُ يَغْمِظُنَّ سِتْرَهُ فَنَشْأُ الْأَرْضُ
وَنَحْنُ الْجِبَالُ هَذَا﴾ [مريم ٨٩ ، ٩٠] .

الإد : هو المتناهي في الثكر والمضاعفة ، من أدّه الأمر إذا أثقله ولم يقوَ عليه ؛ ولذلك يقول سبحانه في آية الكرسي : ﴿وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ . أي . لا يثقله حفظهما . فكانهم جاءوا بكذبة لا تتحملها الجبال .

واتخاذ الولد له مقاصد : منها أن يكون لك عروة وترداد به قوة ، وربما سبحانه لا يحتاج لشيء من ذلك فهو العزيز القوي عن كل شيء ، كذلك أنت تتخذ الولد ؛ ليكون لك ذكر بعد موتك ، وربنا لا يحتاج هذا ؛ لأنه حي لا يموت ويقاؤه لا يتناهى ، كذلك أنت تتخذ الولد ليرث تركتك بعد مماتك ، والله لا يحتاج هذا ، فهو سبحانه يرث الأرض ومن عليها . إذن .. اتحاد الولد ليس له علّة عند الحق سبحانه ، كما أن اتحاد الولد يبقى سواسية العبودية لله ؛ لأن الله يريد أن يكون خلقه سواسية ، فإذا صار له ولد تنفى السواسية .

ومعنى قول تعالى : ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ أي : فظيما ومنكرا ومستبشما ، ومادام

شيئا مذكرا فلا يكره المكلفون من الإنس والجن فقط ، ولكن تكره الأشياء التي لم تكلف من الجبل والسموات وغيرها ؛ ولذلك يقولون : هذا أمر تهتر له السماوات السبع ومعنى قوله : ﴿ نَحْنُ كَادُ السَّمَوَاتِ يَنْقَطِرْنَ مِنْهُ ﴾ . أى : تتشقق وتنمطر ، ولكنها لم تنمطر ؛ لأن الله تعالى يمسك السماوات والأرض أن تزولا ، والحقيقة فى انقطار السماء واشتقاق الأرض وحر الجبال أنهم دعوا لرحمن ولدا ، ورد الحق سبحانه وتعالى على هذا الرعم بقوله ﴿ وَمَا يَسْعَى لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَنْجِذَ وَلَدًا ﴾ .

هناك شيء اسمه نفى الحدث وشيء اسمه نفى ابتغاء الحدث ، فمعنى : ﴿ وَمَا يَسْعَى لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَنْجِذَ وَلَدًا ﴾ . أى : أنه سبحانه لو أراد اتحاد الولد فلن يجمعه أحد ، ولكنه لم يفعل ولم يُرد ، وأكرر ذلك على من رعموه كدثا ووروا ، فنفى الابتغاء يدل على أن الحدث إن أرادته الله كان ، ولكن لا يبغي له أن يتحد ولدا ، لماذا لأن الولد حتى ولو كان ولدا بازا وطائعا ، فانه تعالى غير محتاج له ؛ لأن الكل عبيده ولا يستطيع أحد أن يتمرد عليه ؛ لأنه قادر عليهم جميعا ، فهم فى قبضته ورهن مشيئته .

ثم قال تعالى تأكيداً لذلك : ﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾

[مرم ٩٣] .

فكل المخلوقات عابدة لله ، وحتى الذين كفروا لم يخرجوا عن أنهم عبيد لله ؛ لأن الإنسان فيه منطقة اختيار ، هذه المنطقة هى أن يفعل أو لا يفعل ، ولكن أيضا هناك منطقة قسر ، فالكافر بما أعطاه الله من صفة الاختيار أن يكون طائعا أو عاصيا ، مؤمنا أو كافرا ، هذا الكافر اعتاد أن يخالف أوامر الله فى الأمور التى وضع له فيها اختيارا ، فهذا الكافر الذى اعتاد على المخالفة والتمرد على الإيمان ، لماذا لا يتمرد على المرض فلا يمرض ؟ لماذا لا يتمرد على الموت فلا يموت ؟ وإذا اضطر لماذا لا يتمرد على الفقر ويرفضه ؟

إذن .. أنت لك حرية الاختيار فى أشياء ؛ ومجبر على أشياء أخرى ، وهذا فى الدنيا فقط ، أما فى الآخرة فإن هذا الاختيار يسلب منك ، فانؤمنون حقا هم الذين آثروا طاعة الله ، واختاروا رصده واتباع بيده ﷺ ؛ ولذلك فكل تصرفاتهم موافقة لما يريد الله ؛ ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ رَسَّ يَتَّعِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ

فَقَدْ صَلَّى صَلَاتًا مُبِينًا ﴿٣٦﴾ [الأعراب . ٣٦] .

وقوله سبحانه وتعالى ﴿لَمَّا أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۖ وَكَلَّمَهُم بَيِّنَاتٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَتُرَدُّ﴾ [مرم ٩٤، ٩٥] قلنا إن الإحصاء هو العد، وكلمة الإحصاء مأخوذة من العد بالخصى الذى كان متبعًا قديمًا؛ فربما أحصى الناس وعدهم عدًّا، وكل إنسان يأتيه يوم القيامة بمفرده؛ لا حاشية ولا حراس ولا عزوة ولا أولاد ولا جاه ولا سلطان ولا أى شيء!!

ويقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُوا أَتُحَدِّثُ الرِّجْسَ وَلَدًا مِّمَّنْ حَبَشَ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٧﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء ٢٦، ٢٧] . هذا تنبيه لله عن أن يكون له ولد، فالحق سبحانه يقول: ليس لله ولد بل عباد مكرمون، ومع أنهم مكرمون إلا أنهم لا يسبقونه بالقولريطعون أمر ربهم؛ فلا يعملون شيئًا لم يأمرهم به، فهم طوع أمره . إذن .. آفة المجتمعات أن عظماءه يسبقون بالقول، ويعملون بأوامرهم لا بأمر الله!! وهم على خطر عظيم .

لقد خلق الله الليل مكملاً للنهار، والدكر مكملاً للأُنثى، فإذا كان الله قد خلق التكامل فى المخلوقات، فكيف يحاول بعض الناس أن ينهوا الكمال عن الله سبحانه وتعالى!!؟ قال تعالى ﴿قَالُوا أَتُحَدِّثُ أَنَّ اللَّهَ وَلَدًا مِّمَّنْ حَبَشَ ۚ هُوَ الْعَفِيفُ﴾ [يوس ٦٨] .

الادعاء بأن لله سبحانه وتعالى ولدًا نقصان فى كمال الله جل جلاله؛ ذلك أن الإنسان يتحد الولد لعدة أشياء؛ إما ليكمل نقص الوجود؛ لأن عمره فى الدنيا محدود، ولذلك يريد أن تبقى ذكراه فى الدنيا، والله سبحانه وتعالى به كمال الوجود؛ فهو الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية، فلم يتخذ ولدًا، وهو أصل الوجود، وله كمال الوجود سبحانه وتعالى!!؟ وإما أن يتخذ الإنسان ولدًا؛ ليرثه فهو لا يريد أن يذهب ماله للآخرين، إنما يريد امتداد ما يملك إلى ابنه .

والله سبحانه وتعالى هو مالك الملك دائماً وأبداً، وهو جل جلاله الذى يرث الأرض ومن عليها ومن فيها، له الملك وحده، وعندما يصعق من فى السماوات ومن فى الأرض يقول الحق سبحانه وتعالى ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [عالم ١٦] .

لذلك فهو تبارك وتعالى ليس محتاجاً لأن يمتد ملكه؛ لأنه هو المالك الحقيقى لمن فى

ثم من أين جاءت هذه الأنثى ؟ إذا كان الله سبحانه وتعالى قد خلقها فهي من خلق الله وعباده ، وإذا كانت قد خلقت نفسها فكأنها إله ، وبذلك يكون عندنا ثلاثة آلهة بدلاً من إله واحد ، وهنا يفسد الكون ؛ لأن كل إله له أمر ، وكل إله له خلق ، وكل إله يريد أن يعلم على الآخر فتكون النتيجة كارثة

وإذا نظرنا إلى الآية الكريمة : ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ [يوس ٦٨] . فإن القرآن يسميه يكذبهم ؛ لأننا عندما نقول : اتخذ فلان بيتاً ، فلا بد أن فلاناً كانت له ذاتية قبل أن يوجد البيت ، فقولهم : ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ . فقبل أن يتخذ الله الولد أكانت له ذاتية مكتملة أم لا ؟ كانت له سبحانه وتعالى ذاتية مكتملة . وحتى هذا الولد احتلوا فيه ، فقال الكفار : الملائكة بنات الله ، فرد الحق سبحانه وتعالى بقوله ﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴾ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَقْكُونُ ۝ . أى : عندما يريد الحق سبحانه وتعالى أن يتحد ولداً أيتخذ الجنس الأقوى أم الجنس لأضعف ؟

ومرة قالوا . إن الله قد اتخذ ولداً من الأنبياء ، وقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّىٰرُ بْنُ اللَّهِ ۖ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۚ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُكْهِنُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ۖ فَسَنَلْهُمُ اللَّهُ أَفَّ ۖ يَوْفَكُونُ ﴾ [التوبة ٣٠] . والآية الكريمة : ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ ترد عليهم ؛ لأنهم عندما قالوا ذلك فمعناه أن الولد قد جاء بعد أن وجدت ألوهية مستقاة لله سبحانه وتعالى ، وبهذه الألوهية أخذ الولد ، وأول أسباب الاتخاذ : الحاجة ، فعندما تقول : فلان اتحد بيتاً . لأنه محتاج له ليكمل نقصاً فيه ، فما هي حاجة الله سبحانه وتعالى إلى الولد ؟ وله الكمال المطلق في الكون كله ؟ ! ولذلك يأتي قول الحق جل جلاله : ﴿ سُبْحَنَكَ هُوَ النَّبِيُّ ﴾ . أى أن الله سبحانه وتعالى مستغن عن الكون كله ، فكيف يحتاج إلى ولد ؟ ولقد تحدثنا عن أسباب الاحتياج إلى الولد ، والله تعالى منزّه عنها كلها ، وهم يقولون : من لا ولد له ؛ لا ذكر له . لأن الإنسان سيموت لا محالة ويريد أن تستمر حياته في ولده ، والله سبحانه وتعالى حيّ لا يموت ، قوى قادر لا يضعف ، غنى له ملك السماوات والأرض إذن .. فكل أسباب احتياج الولد الله مره عنها ؛ ولذلك يقول تعالى ﴿ سُبْحَنَكَ هُوَ النَّبِيُّ ﴾ ، سبحانه : تقطع كل شك أى أنه مره عن هذا

كنه ، وهي تنزيه لدن سبحانه وتعالى عن مشاركة أى شىء له ؛ لا فى الدات ولا فى الصفات ولا فى الأفعال . وبذلك إذا ورد شىء هو لله وصف ، ولخلقه وصف ، إياك أن تأخذ هذه الصفة كمثلك ، فإله غنى ، وفلان غنى ، فهل عسى الله كفى خلقه ؟ ! الله سبحانه وتعالى غنى بذاته والخلق أعياء غنى زائلا ، إما أن يرول عنهم فى حياتهم ، وإما أن يرولوا هم عنه بالموت . فعنى الله سبحانه وتعالى باقى ، وهو جل جلاله عسى بداته ، عسى دائما عن كل خلقه ، إذن . لا تشبيه . الله سبحانه وتعالى حتى وأنت الآن حتى ، ولكن حياتك سبعا عدم ، وحياة الله تبارك وتعالى لم يسبقها عدم ؛ لأنه دائم الوجود ، وحياتك يلحقها العدم ، وحياته جل جلاله لا يلحقها العدم .

إذن .. فعندما باتى وصف لله ووصف لخلق الله ، فلا بد أن تقول : سبحان الله ؛ لأن الله تعالى ليس كمثله شىء ، ولا تدخل فى التعاضيل ؛ لأنك وأنت المخلوق لا يمكن أن تحيط بحالقت ، ولكن كل ما خطر بعقلك فإله بخلاف ذلك . وتصرب لذلك مثلا ، ولله المثل لأعلى ، عندما تأتى لطفل فى الحصاة ويطعنه ثمريتا هدميئا مفرزا على السسة البهائية بكلية الهندسة أيقدر عليه ؟ طبعا مستحيل ، فإذا كان هذا فى عُرف البشر فى عالمهم ، فكيف بالنسبة لله جل جلاله ؟ إذن .. كل شىء يحظر ببالك فنزه الله عنه .

والتنزيه صفة ذاتية فى الله سبحانه وتعالى ؛ ولذلك فهو جل جلاله منزه قبل أن يخلق من ينزهه ومنزه بعد أن خلق من ينزهه ؛ منزه منذ الأزل وإلى الأبد ؛ ولذلك نجد هذا التنزيه فى القرآن الكريم فى قوله تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء . ٢٢] . وقوله تعالى : ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم ١٧] وقوله تعالى : ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي يَبْدُؤُا مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [س ٨٣] وقوله تعالى : ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [الصدات ١٥٩] .

والله سبحانه وتعالى قبل أن يُشهد أحدا على ألوهيته أشهد نفسه ، وهذه شهادة الدات لذات ولذلك قال جل جلاله ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْغَيْبُ الْمَكِينُ﴾ [آل عمران ١٨] .

ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى قبل أن يطلب منا أن نشهد أنه إله واحد أحد ، شهد هو

مسيحانه وتعالى ، ثم شهدت الملائكة وشهد البيوت . وكما قلنا : الله مُسَبِّحٌ قَبْلَ أَنْ يَوْجِدَ مَسِيحًا ، ثُمَّ خَلَقَ اللَّهُ الْمَسِيحَ بِمَجْدِ الْوُجُودِ ، وَجَاءَ بَعْدَهُ خَلْقُ فَسَبِّحُوا ، وَالْوُجُودُ كُلُّهُ مَسَبِّحٌ لِلَّهِ ، وَلِذَلِكَ يَقُولُ الْحَقُّ جَلَّ جَلَالُهُ فِي سُورَةِ « الْحَدِيدِ » : ﴿ مَسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الحديد : ١] .

ولكن هل مَسَبِّحٌ وانتهى ؟ هل قالها مرة وسكت ؟ نقول : لا ، ولذلك يأتي في سورة « الجمعة » قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [جمعة : ١]

وقال تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التغابن : ١] . وقال تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ الْمُنَبَّغَةُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَلِلَّهِ مِنَ الثَّمَنِ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

وهكذا حتى لا يظن أحد أن الكون مَسَبِّحٌ لله مرة واحدة وسكت . نقول : إن الكون مَسَبِّحٌ لله ومراراً مسبحاً وسبّظلاً مسبحاً . والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ رَكْداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَفِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ .

وهكذا يعطينا الحق جلَّ جلاله الرَّدَّ الخامس : ماذا يكون سبحانه له ولداً ؟ وله ما في السماوات وما في الأرض ، فما حاجته إلى الولد وكل ما في الكون ملكه ؟ ! ثم يقول تبارك وتعالى : ﴿ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَنِ بِهَذَا ﴾ [يوس : ٦٨] .

يعنى هل عندكم دليل عني ما تقولون ؟ « إِنْ » تأتي للنفي ، وسلطان يعنى : حجة . فما هي حججكم على أن لله سبحانه وتعالى ولداً ؟ .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ أَنْتَقُولُ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . وهل يعلم أحد عن الله جلَّ جلاله إلا ما أخبرنا به الله ؟ ! عَلَّمَنَا عَنِ اللَّهِ لَا يَدَّ أَنْ يَأْتِيَ مِنَ اللَّهِ ، وَمَادَامَ اللَّهُ لَمْ يَجْعَلْكُمْ بِذَلِكَ ، فَصَ أَيْسَ جَاءَكُمْ هَذَا الْكَلَامُ ؟ ! .

ثم يقول الحق لرسوله ﷺ : ﴿ قُلْ إِنَّا الَّذِينَ يَمْذُوبُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يَمْلِكُونَ ﴾ [يوس : ٦٩] . ماداموا يقولون على الله ما لا يعلمون فهم يكذبون ، لأن العلم هو إدراك حقيقة مجرَّوم بها وواقعة وعليها دليل ، فإذا احتل واحد من هذه الأركان فهذا ليس علماً ، ولكنه إما

أن يكون جهلاً أو اهراءً أو كذباً ، والحق تبارك وتعالى حينما يتكلم عن المؤمنين يصفهم دائماً بالملاح ؛ وقرأ قوله تبارك وتعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَشِعُونَ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون : ١ - ٣] .

ومادة الفلاح مع أنها تستخدم في الأمور المعنوية ، لكنها مأخوذة من الأمور المادية المتصلة بحياة الإنسان ؛ لأن الإنسان محتاج لكي تستمر حياته إلى الهواء والماء والطعام ؛ والهواء متوافر للجميع ، والماء ينزل من السماء ، والطعام أصله من الأرض ، والفلاحة هي أحد الأسباب الثلاثة لاستبقاء الحياة ؛ لأنك حين تفلح الأرض تشقها وتضع فيها البدور وترويه بالماء فتخرج لك الثمرة . ويقال : أفلح يعنى : أتجنت رراعته . إن الحق تبارك وتعالى أتى بالخصيلة الإيمانية وسماها فَلَاحًا ، ولذلك قالوا : الدنيا مزرعة الآخرة ، فإذا كنت تريد الثمرة فلا بد أن تعمل العمل الذى يعطيك فى الآخرة ، والله حين يطلب منك ذلك لا يقص عما عندك ؛ بل يريدك تمامًا ؛ مثل الفلاح حين يحصد القمح ، ثم يأخذ عدة أرادب إلى المحرر ؛ لتكون تقاوى للعام التالى ، فإذا مرضنا أن امرأته حمقاء وأخذت هذه الأرادب وأطعمتها لأولادها ، تكون بذلك قد منعت محصولاً وبيزاً سيأتى فى العام التالى ؛ ولذلك حينما يأخذ الفلاح عدة أرادب من المحصول كقفاوى للعام التالى ، فإنه لا ينقص المحصول بل يزيده ؛ لأن هذه الأرادب ستأتى بأضعاف أضعافها عندما تزرع فى العام التالى وهكذا الذى لا يأخذ منك إلا ليعطيك أضعاف أضعافه . وكما أن الأرض تعطيك على قدر حظك من العمل والتعب ، كذلك أمر الآخرة جزاؤك فيها على قدر تعبك وعملك فى الدنيا ؛ فإذا حرثت الأرض جيداً ، ووصعت فيها البذرة والسماذ ، وحرصت على أن ترويه فى مواعيدها ، فعلى قدر عملك وتعبك يأتى المحصول الوفير . وإذا جلست على المفهى مرتاحاً لا تفعل شيئاً ؛ فلن تأخذ شيئاً .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّكَ الْوَكِيلَ يَمْشُرُونَ عَلَى الْكُذِبِ لَا يَفْلِحُونَ ﴾

[يوس : ٦٩] .

والاهراء هو الكذب المتعمد ؛ بأن تعرف الحقيقة وتقول كذباً ، وهؤلاء يعلمون أن كل ما يتعلق بالله لا نعلمه إلا بإخبار الله لنا به ، ومع علمهم بهذه الحقيقة فإنهم يكذبون ، فالذى يريد أن يحقق لنفسه بقا بأن يصبح له مستقبل مرموق فى المجتمع ، يأخذ بالأسباب فى ذلك يصل إلى ما يريد بتوفيق الله ، والذى لا يصحو من النوم ولا يذهب إلى المدرسة يريد أن يحقق

لنفسه نعمًا أيضًا ، بالأ تعبه معه في شيء . إذن . فكلاهما يريد نفعًا والذي تعبه واستيقظ مبكرًا لم ينظر إلى النعم السريع ، ولكنه نظر إلى النعم المستقبلي بعد خمس أو ست سنوات أصبح إنسانًا له كيان في المجتمع ، والذي نام كما يشتهي فلم يستيقظ مبكرًا ، وأمضى يومه بتسكع ، نظر إلى النعم العاجل فلم يتعب ، ولكنه أصبح صعلوكًا في المجتمع

إذن .. فقيمة العمل ليست على قدر النعم العاجل ؛ ولكن على قدر امتداد النفع وضاحته ؛ فالحسان الذي يهرب من المعركة حقق نعمًا بأن هرب من الموت ، والشجاع الذي ألقى بنفسه في المعركة حقق نعمًا باستشهاده ، ولكن الأول نظر إلى نفع وقته في الدنيا ، والثاني نظر إلى نفع أبدئ في الآخرة .

نعود إلى السؤال : ما الذي يجعلهم يفترون على الله الكذب ؟ إنها عملية تسمى : انهيار الذات . ما معنى انهيار الذات ؟ سصرب لذلك مثلًا يقرب ذلك إلى الأدهان : هب أن حلاقًا في القرية يقوم بعلاج الناس ، ثم جاء أحد أبناء القرية وقد درس في كلية الطب وفتح عيادة ، حينئذ ماذا يصيب حلاق القرية ؟ يصيبه شيء اسمه انهيار الذات ، أي أنه تصاعل وانهيار أمام ما لا يقدر على دفعه ، فعادًا يفعل ؟ إن كان عاقلاً يحاول أن يبحث عن مهمة أخرى ، وإن كان غير مثقن العقل فسيحاول أن يحارب هذا الطبيب بالأكاذيب ؛ كي يستعيد نفوذه الذي انهيار .

وهكذا عصابة الكفر والضلال فهي مستفيدة من المجتمع الذي تعيش فيه ، يأخذون الأموال والقرابين ويعطون للناس الجهل ، تمامًا كحلاق القرية ، وهم بذلك مستفيدون ولهم ذاتية وسيادة . ولكن عندما يأتي رسول فإنه سيأخذ السيادة منهم ، ليس لنفسه ، ولكن لديه الله الحق هذه السيادة كانت مكانتهم ووجاهتهم وثروتهم واستقلالهم للناس ؛ حينئذ يصابون بانهيار النفس ، ويطلقون الأكاذيب حتى منهج الله ، ويقولون على الله سبحانه وتعالى ما لا يعلمون ؛ ليحتفظوا بنفوسهم ويحاربوا ذلك الذي جاء بالدين الجديد ؛ يسلبهم سلطتهم . فمثلًا عندما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وفي اليوم الذي وصل فيه رسول الله ﷺ كانوا سيصنعون التاج فوق رأس عبد الله بن أبي ؛ ليصبح ملكًا على المدينة ، وعندما وصل رسول الله ﷺ بطل هذا كله فانهار عبد الله بن أبي وبدأ بالعداء . ثم آمن نفاق وظل كافرًا ، وكان يحارب الإسلام ويطلق الإشاعات ضد رسول الله ﷺ والمؤمنين .

والحق سبحانه وتعالى يبين لنا لماذا اختاروا الكذب فيقول: ﴿مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا﴾
إذن .. فالذي حملهم على هذا الافتراء، أنهم يريدون أن يحتفظوا بسلطتهم وسيادتهم
في الحياة الدني، ولذلك لم يقل الحق تبارك وتعالى: متاع. فقط، بل قال: ﴿مَتَّعَ فِي
الدُّنْيَا﴾ [يوس ٧٠] وحدها، وما دام المتاع في الدنيا محدود القدرات، فهم قد احتاروا
عدم الفلاح؛ لأنهم اشتروا الدنيا بمتاعها المحدود القليل، وباعوا الآخرة بمتاعها الأبدي، التي
فيها ما لا عين رأت ولا أدنى سمعت ولا خطر على قلب بشر.

والحق تبارك وتعالى قال: ﴿مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا﴾ فما معنى كلمة في الدني؟ إن الأسماء هي
سمات التسميات تنسب إليها، فإذا قلت: فلان طويل. نسبت إليه الطول، وإذا قلت
قصير. نسبت إليه القصر، وإذا قلت أبيض أو أسمر أو أشقر نسبت إليه صفات معينة. فإذا
قلت: الدني. فما معناها؟ معناها: الدنو أو الدناءة. وهنا يختلف المعنى فلا يمكن أن توصف
الدنيا بالدنو المطلق؛ لأنك إذا أحدثتها عنى أنها الطريق الموصل لعيم الآخرة فهي أول درجة في
هذا الطريق، إذن فهي الدرجة الأدنى التي تصعد منها إلى ما هو أعلى.

إذن فالذي يريد أن يجعل الدنيا بمعنى الدنو والدناءة على إطلاقها يقول له: لا، هي
درجة دنيا للدرجات العالية في الآخرة. وهي دنيا لأن هناك حياة عليا فيها اخود، إذن فما
دامت هناك دنيا فهناك عليا، فلا بد لكي تصعد إلى العليا أن تصعد السلم من أوله، فلا يمكن
أن تصل إلى أعلى الدرجات دون أن تبدأ بالدرجة الدنيا.

عمرك لا يقين فيه، والحياة الدنيا هي موضوع الدين، فمهما جاء ليحكم حركتك في
الحياة الدنيا بـ: اعمل لأ ولا تفعل لأ، وأب مطالب بأن تتبع مهج اعمل لأ ولا تفعل لأ في
انديا، أما الآخرة فهي حراء، والحراء على الشيء ليس هو نفس الشيء. وأنت في الدنيا إما أن
تجعلها مررعة للآخرة فتكون قد أحدثت منها المعنى بأنها الدرجة الأولى المؤدية إلى الحياة
لأعلى، وإما أن تتمسك بها فتكون قد جعلت كل حطك هو الدرجة الدنيا من الحياة، التي
خلقها الله سبحانه وتعالى للإنسان، فهي دنيا في عدد السنين؛ لأن عمرك فيها قليل قصير،
ولا تقل. إن الدنيا عمرها ملايين السنين؛ فدياك أنت على قدر عمرك في الدنيا، وعمرك فيها
مطلوب يس فيه يقين، فأنت لا تعرف ولا تستطيع أن تعرف الرمن الذي ستقصيه في انديا

لأنك قد تعيش فيها شهراً أو شهرين أو سنة أو بضع سنين ، يقيناً لا تعرف . فمفارقة الدنيا ليست في يدك ، ولكنها في يد الله تبارك وتعالى وهو لم يجعل لعمرك فيها رمزاً معروفاً لك ، ولم يجعل مفارقة لك لها سبباً معروفاً لك وذلك على عكس الآخرة فحياتك فيها يقين لأن الله سبحانه وتعالى أحبرك أنك ستحلل فيها لا تموت أبداً ، وهكذا تعلم يقيناً أن حياتك في الآخر أبدية ، ونعيمك فيها أبدي ، ولذلك فإننا نعرف أن الآخرة دار يقين ، والدين يفترقون على الله الكذب لا يظنون أنهم ملاقوه ولا أن هناك يوماً للبحث يحاسبون فيه ؛ ولذلك مكن تصرفاتهم هي أن يأخذوا كل ما يستطيعون من متاع في هذه الحياة الدنيا ، وبكل الوسائل ؛ ذلك لأنهم يعتقدون أنه ليس هناك شيء بعد ذلك ، فيأتي الحق سبحانه وتعالى ويحبرهم بالحقيقة : ﴿مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثَمَرَ الْإِنْسَانِ مَرَجَعُهُمْ﴾ .

أى لن يتمتع أحد في الدنـى ويظلم ويفعل كل ما يعصب الله ، ثم بعد ذلك يُترك ، بل سيرجع إلى الله ولن يفلت منه .

ولكن لماذا ذكر الحق سبحانه وتعالى هذه الحقيقة ؟ لأن الإنسان قد يتمتع عن فعل أعمال كثيرة إذا تذكر عاقبة هذه الأعمال ، فإذا رأيت مثلاً ولداً صغيراً يلعب بالكرة وأنت تريد أن تضربه وتأخذها منه ، فإذا قيل لك إن هذا الولد له أخ كبير قوی سيأتي إليك ويضربك ويستعيد الكرة . فإنك ستراجع عن أحد الكرة من الولد الصغير . والله سبحانه وتعالى يريد هذا أن يذكر هؤلاء الذين يريدون متاع الدنيا بأى ثمن ويفترقون على الله الكذب يريد أن يذكرهم بأنهم سيعودون إلى الله سبحانه وتعالى لمتهم يتراجعون عما هم فيه ؛ حرقاً مما سيحدث في المستقبل ، ثم يكمل الله تبارك وتعالى لهم الصورة يقول : ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يوس ٧٠] .

عيسى عليه السلام ابن الله أم عبد الله ؟

قال تعالى : ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَّمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [البقرة ١١٦] .

إن من ضعف البصيرة أن تتخيل أن الخالق له ابن ، وقد بين الحق هذه القصة في سورة الكهف حين قال : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَرْسَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكَتَابَ وَلَقَدْ يَحْمِلُ ثَرَمَ يَوْمًا﴾ ① فَيَسَا

يَسِيرَ بِنَا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُسِيرَ الْمُتَوَكِّلِينَ الَّذِينَ يَسْأَلُونَ الصَّالِحِينَ أَنَّهُمْ لَهُمْ أَمْرٌ
حَسَنٌ ﴿١﴾ مَّا كُنْتُمْ بِهِ أَبَدًا ﴿٢﴾ وَيُسِيرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٣﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ
عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٤﴾ [الكهف: ١-٥].
إن الحق سبحانه تعالى أن يكون له ولد ، إنه مزه عن ذلك ، وكانت البداية هي أن
المشركين من كفار مكة قد تروهموا أن الملائكة بات الله ، ومضوا يتصورون ذلك ، وكان ذلك
قمة الشرك بالله ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لا يمكن أن يتخذ من الخلق أبناء أو بات .

ثم جاء بعد ذلك مثل هذا الضلال في التصور من بعض اليهود فقالوا ما بيننا لنا الحق تبارك
وتعالى حيث قال : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ
ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِآلِهَتِهِمْ يُحْشَرُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَسَبْنَا لَكَ اللَّهُ أَنَّهُ
يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٠] .

وعزير هو كاهن من نسل هارون ، وكان يكتب التوراة ، وعندما تصور اليهود أنه ابن لله
خرجوا عن الرشدانية لله جل وعلا ، وابتدع البعض من أتباع المسيح أيضًا تصوروا بأن المسيح
ابن لله ، وهذا قول لم يأت به كتاب أو رسول ولا حجة عليه ولا برهان ، فكيف يقع في ذلك
أهل الكتاب الذين أنزلت إليهم كتب من السماء وجاءت إليهم رسل من الحق جل وعلا ؟ إن
قول الحق عن ذاته ﴿ سَتَجِدُنِي ﴾ تعني التنزيه المطلق عن ذلك ، فقال جل وعلا في كتابه
الكريم : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾ ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾ ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ
يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ دَفَعًا ﴾ ﴿ وَتَشَقَّى الْأَرْضُ وَجِئِرُ السَّمَاءُ ﴾ [مريم : ٨٨-٩٠] .

إن المشركين واليهود والنصارى قد وقعوا في ضلال التصور أن لله أبناء من الملائكة أو
البشر ، وذلك قول شديد مكبر تكاد الجبال تسقط قطعًا مفتحة منه ، وتكاد الأرض تنحسف ،
وتكاد السماوات يتشقق منه ، كأن المخلوقات التي لا تمك قدرة التفكير كالإنسان تكاد تنهار
من مرط الإنكار لمثل ذلك القول ، إن ضلال ذلك التصور نسل من عجز الفهم عن طلاقة قدرة
الحق عندما يقول لشيء ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ . إن المسيح كلمة من الله هي ﴿ كُنْ ﴾ فكان
منلما خلق آدم الطين ، وفي ذلك يقول الحق سبحانه . ﴿ مَثَلُ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ
خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : ٥٩] .

إن شأن عيسى عليه السلام واضح مثلما أوضح الحق كيف خلق آدم ، وكان الأجدر أن يفتى الناس بخلق آدم عليه السلام ؛ لأن عصر الأبوة والأمومة هي إيجاده تمتنع ، أما عيسى عليه السلام فعصر الأبوة وحده الممتنع ، وبعد ذلك يعلم الحق حلّ وعلا رسوله محمداً ﷺ لو كان لله ولد لكان الرسول أول العابدين له يقول تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ [الزحرف : ٨١] .

إن الحق يعلم رسوله أن يبلغ المشركين أن لو صبح بالبرهان أن للرحمن ولداً لكان الرسول أول العابدين لهذا الولد ، لكن البرهان لا يستقيم ؛ فكيف يكون لله - الذي ليس كمثله شيء ، القديم الذي لا نهاية لوجوده - ولد من البشر ؟

إن كل كائن بشري إنما هو حدث عارض بالبيلاذ والموت ، ثم البعث بين يدي الحق ؛ لئال الثواب أو العقاب ولكن الله حتى لا يموت .

إن الخالق هو مالك الملك ، له ما في السماوات وما في الأرض ، والكون كله خاضع خاصص له ، وملكية الكون تنعني الوالدية عن الحق سبحانه .

إن الكون مفعول من قبل الله ، والكون بكل من فيه وما فيه أقل من فاعله . وإذا كان الإنسان يحتاج للأولاد خلقاً له بعد مماته ، فخالق الحياة سره عن ذلك إن الأبناء في الحياة مظهر قوى للأباء ، لكن خالق الحياة قوته منزهة عن أن تتم طلاقتهما من وجود أباء .

إن الأبناء يوجدون في الحياة معونه للأباء . والحق لا يستمد معونة من أحد ؛ إنه حتى بلا نهاية ، إنه انتفاخر فوق كل عباده ومخلوقاته ، تتعمل الأشياء كلها بإرادته إنه يريد الشيء غيرره إلى الوجود : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢]

إن الحق جل وعلا سبحانه وتعالى له كل صفات القدرة . إن كل الخلق متمتع بقدرة الله ، وقدرة الله موجودة قبل خلق الكون .

الله سبحانه وتعالى لم يتخذ ولداً

قال تعالى : ﴿ وَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلَكُوتِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِفْءٌ مِّنَ الدُّنْيَا وَكَثِيرٌ مِّنَ الدُّنْيَا ﴾ [الإسراء : ١١١]

فكان عدم اتخاذ الله سبحانه وتعالى ولداً نعمة كبيرة يجب أن يحمد عليها ، لأنه سبحانه

لو كان له ولد . وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - فخصه بالرعاية وترك بقية الخلق ، فكان الحق يقول : أنا ليس لى ولد حتى تكونوا كلكم سواء . فالخلق كلهم سواسية عند الله ، وهذه نعمة لخلق جميعاً ؛ لأن رحمة الله وحنانه سيكونان لنا جميعاً ؛ كما أن اتحاد الولد يجعل الوالد مذكوراً بعد موته ، والله تعالى مثله عن الموت ، فلا حاجة له فى ذلك تعالى عما يقولون علواً كبيراً ، بينما الإنسان عكس ذلك فهو يحب السرية ، حتى يمتد ذكره بعد موته ويفرح بولده ؛ لأنه سيخلقه ويحمل اسمه كما يفرح بحفيده لهذا السبب أيضاً ، ولأن الأبناء عزوة وقوة وريّة الحياة الدنيا لكن الله هو القهار ، وهو الجبار ، وهو القوى ، فهو سبحانه منزّه عن الصاحبة والولد .

وأنت إذا نظرت فى الكون وجدت أن المصاد يأتى إما من الصاحبة ، وإما من الولد ، كذلك لو كان لله شريك فى الملك فمن فيهما الذى ترضيه ؟ ومن الذى تعيده وكيف يسير الكون ؟ إنها عملية غير مقبولة .

ولذلك قال سبحانه . ﴿ صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا يَدْعُو شُرَكَاءَ مُتَشَكِّمُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ [الزمر : ٢٩] .

هذا عبد مملوك لعدد من الأسياد المختلفين ، لهذا يأمره أحدهم بشيء والآخر يأمره بعكسه فلا بد أنه سيتعب جداً ، ولكن العبد الآخر له سيد واحد ، فهذا لا شك أنه سيكون مستريحاً عن الآخر ، وكذلك الإنسان الذى يعبد الله وحده والذى يعبد آلهة متعددة ، فما دام الله ليس له شريك فى الملك فأوامره نافذة بدون معقب ، وتطمئن إن أمرت بشيء منه أنه ليس هناك قوة أخرى تمنعك من تنفيذه . والولى هو الذى يليك ، وأنت لا تجعله يليك إلا إذا كان نافعا لك فهو قوى وأنت ضعيف ؛ فيتصرك لأن لك أعداء ، فلأنك ذليل وليس عندك داتية تذهب إلى من عنده داتية ونحتمى به وتأخذ ولائه ، فالحق سبحانه وتعالى ليس له ولى من الدل لأنه هو العزيز المعز .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَكِبْرُهُ تَكْبِيرًا ﴾ يشير إلى تكبير الله تعالى جعله شعار الأذان والصلاة ، فكل ما دون الله من الأخيار فالله أكبر منه ، فإن ناداك وأنت فى أى عمل فقل . الله أكبر من عملى ، إن ناداك وأنت مع عظيم قل : الله أكبر من أى عظيم فمعنى ﴿ وَكِبْرُهُ ﴾

تكبيراً : أن تقدم أوامره ونواهيه على كل أمر أو كل نهى ؛ لأنك إن كبرت الحق سبحانه وتعالى أعززت نفسك ، ولذلك معزة الله لخلقه تأتي لمن يخلص العبودية . وكلمة العبودية مكروهة إلا إذا كانت لله ؛ لأن العبودية لله عزة ، ولكن عبودية الإنسان للإنسان هي المكروهة والمدمومة ، وتقوم بسببها معارك وحروب في العالم كله ؛ وذلك لأن في هذه العبودية السيد يأخذ خير العبد ، ولكن عبوديتها لله نأخذ من العبد خير السيد وهو الله ، وهذه حرة وليست ذلة ؛ فإن يكون الإنسان عبداً ذليلاً لله ففي ذلك كمال عرته ، كما يقول أحد الصالحين :

حسب نفسي عزاً بأنني عبدٌ يحتصى بي بلا موعيد رب
هو في قدسه الأعزُّ لك أنا ألقى مستى وابن أحب

ونحن قلنا سابقاً : إذا أردنا مقابلة عظيم من العظماء ، نكتب له طلباً للمقابلة ، ونوضح له فيه أننا نريد مقابلته من أجل كما وكذا ، فإن كان عنده وقت رد عليك وحدد لك زمان ومكان ومدة المقابلة ، وهو الذي ينهي اللقاء ، لكن ربنا سبحانه أخبرنا أن الزمام في يدك بمجرد أن أمنت به خالقاً ، في أي وقت شئت كلفته في أي شيء تريد ، وأنت الذي تنهي اللقاء ؛ لأن الله لا يمل حتى تملوا ، كما قد أخبرنا رسول الله ﷺ : « عليكم من العمل ما تطيقون ، فوالله لا يمل الله حتى تملوا » . فهل هناك عز أكبر من هذا ؟

ولذلك كانت حيلة الرفعة لرسول الله ﷺ في الأسراء وانعراج أنه عبد الله ؛ قال تعالى :
﴿ شَبَّحْنَاهُ الَّذِي أَسْرَيْنَا بِعَبْدِهِ لِنُؤْتِيَ الْكَافِرِينَ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَكَرَنا حَوْلَهُ يُزَيِّرُ مَن مَّائِنَتْنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الاسراء ١] .

إذن .. العبودية له سبحانه عزة فكبره تكبيراً ، واعلم أنك إن التجأت إليه وكنيت في معيته كنت أكبر من غيرك ، ولا يستطيع أحد أن يناك بسوء ؛ لأنك في معية الله ، ومن كان الله معه فلا يحزن ، ولكن الذي يشر من معية الله هو الذي يتعب ، إن الذي يظل في معية ربه لا يستطيع أحد أن يناهه بسوء أبداً .

ولذلك فالإنسان الصحيح القوى يعيش في معية نعمة الله ، فإذا مَرَضَ أصبح في معية الله ذاته ، وبوصح ذلك الحديث القدسي الذي يقول فيه الحق سبحانه : « يا ابن آدم ، مرضت فلم تعدني . قال : يارب ، كيف أعودك وأنت رب العالمين قال : أما علمت أن عبيدي فلاناً مَرَضَ

فلم تعده ، أما علمت أنك لو تحدثت لوجدتني عنده . . . فأى مريض يشعر بأن الله معه ماذا يكون موقفه ؟ لا يشعر بألم المرض أبداً ، ويستحي أن يتأوه ، وكيف يتأوه وهو فى معية الله ؟ ولذلك يقولون : الصحيح مع نعمة الله ، والمريض مع الله ذاته ، والشرع حفظنا على عبادة المريض لنحفظ عنه ونؤسسه ونسبى آلامه ، ثم إذا عرف أنه فى معية الله واستحضر هذه المعية لا يشعر بألم أبداً .

بهذه الآية ختمت سورة الإسراء : ﴿ وَقُلِ نَحْمَدُ اللَّهَ الَّذِي لَمْ يَخْذَ لَنَا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكَ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَمْ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِيرًا ﴾ [الإسراء : ١١١] وأعظم نعم الله علينا هذه النعم الثلاث وهى ليست كل النعم التى أنعم الله بها علينا ، بل لله نعم كثيرة ، لكنها قمة النعم التى نحمد الله عليها .

فالحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ؛ لأنه لم يلد ولم يولد ، وهو الواحد الأحد ، والحمد لله الذى لم يتخذ شريكاً لأنه واحد ، والحمد لله الذى لم يكن له وى من الذل ؛ لأنه قاهر عزيز قوى ، ولهذا يجب أن نكبر هذا الإله تكبيراً فى كل نعمة نستقبلها منه .

إيمان أهل الكتاب بعيسى عليه السلام

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ١٥٩] .

وإن لاها هى إن لا النافية وهى غير إن لا الشرطية واليكم هذا المثال عن إن النافية من موضع آخر من القرآن حين قال الحق : ﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِمَّنِ يَسْتَأْذِنُ قَدْ هَرَبَ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا آلِيهِمْ وَلَدْنَهُمْ ﴾ [المائدة : ٢] .

إن الحق هنا يقول لهؤلاء الذين يظاهرون من نسائهم يقول الواحد منهم لزوجته : أنت محرمة عني كظهر أمي لأ . هؤلاء يقول الحق لهم مصححاً هذا الخطأ الذى وقعوا فيه : ﴿ وَإِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا آلِيهِمْ وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُسْكِرًا تَبَ الْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ [المائدة : ٢] . أى أن الحق يوضح ما يلى : ما أمهاتهم إلا اللاتى ولدنهم ، وإن لا فى هذه الآية التى نحن بصدددها هى « إن لا » النافية ؛ كأن الحق يقول : ما من أهل الكتاب أحد إلا يؤمن به قبل موته . هذا معنى « إن لا » النافية .

وقد يقول قائل : ما حكاية الضمائر في آية سورة «النساء» ؟ لأن الآية بها أكثر من ضمير ، مثال ذلك قول الحق في نفس الآية : ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكَ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا لِلْوَمْتِ بِمِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ على من تعود ﴿بِهِ﴾ ؟ وعلى من تعود «الهاء» في آخر قوله : ﴿مَوْتِهِ﴾ ؟ هل موت عيسى أم موت واحد من أهل الكتاب ؟ فأنذكور عيسى ومذكور أيضًا أهل الكتاب في ﴿بِهِ﴾ الأولى فيها «هاء» قد يصح أن يكون القول كالاتي . «لَنْ يَمُوتَ وَاحِدٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ» . لماذا ؟ لأن الضمير لا يُعرف إلا بمرجعه ، والمرجع هو الذي يبيت الضمير ، فالواحد ما يقول : جاءني رجل فأكرمه . الضمير هنا يرجع إلى إكرام الرجل . وحين رُجع الضمير على مرجعه ، فالمرجع هو الذي يحدد معناه ؛ فإن كانت هناك ألقاظ كل منها يصح أن يكون مرجعًا ؛ إنها تحتاج إلى عممية عقلية ، فعندما يقول قائل «تصدق بدهم ونصفه» فمعنى ذلك أن الرجل تصدق بالدرهم ونصف مثيل له .

إذن .. فالضمير إما أن يعود على كل المرجع ، كأن يقول واحد : «جاءني رجل فأكرمه» . وإما أن يعود الضمير على مثل المرجع كأن يقول واحد : «أكلت رعيًا ونصفه» . أي أن هذا القائل قد أكل رعيًا ونصف رعيًا آخر ، أو أن يعود الضمير على بعض مرجعه ؛ كقول الحق سبحانه : ﴿وَمَا يَعْزُّ مِنْ مُعْتَرٍ وَلَا يَقْصُ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر : ٦١] .

إن المعمر هو الإنسان الذي طلع في السن ولا يقص من عمر هذا المعمر ، إلا كما أراد الله . إن الهاء في ﴿عُمْرِهِ﴾ تعود إلى بعض من المعمر ، فالمعمر ، ذات ثبت أن لها التعمير ، ذلك أن كلمة ﴿مُعْتَرٍ﴾ مكونة من عنصرين هما : ذات الرجل لا وعمر الرجل لا فلما عاد التعمير عاد على الذات دون التعمير ، فيكون المعنى هو : وما يعمر من معمر ولا يقص من عمر ذات لم يثبت لها التعمير ؛ لكن ماذا يكون الحال حين يوجد مرجعان ؟ .

مثال ذلك ، كما في قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِفِرِّ عَمِدٍ زُرُوتَهَا﴾ إنا هنا أمام مرجعين : «السماء والعمد» فعلى أي منهما تعود الهاء الموجودة بكلمة ﴿زُرُوتَهَا﴾ ، هل تعود «الهاء» إلى المرجع الأول وهو السماوات ، أم للمرجع الثاني وهو العمد ؟ يصح أن تعود «الهاء» إلى السماوات ويصح أيضًا أن تعود إلى العمد ، وهي عمد بنظام آخر غير عمد

المعروفة لنا . إنها عمد وضعتها الحق سبحانه بقوانين الجاذبية . نحن نرى السماء بدون عمد وقد رفعها الله ، أو هو رفع السماوات بغير عمد ، أى أن العمد محتفية عن رؤية البشر ؛ لأن الرفع قد تم بقوانين الجاذبية ، هكذا يصحح أن ينسب الضمير إلى أحد المرجعين .

وهكذا عرفنا أن الضمير من المعارف ، إلا أنه فيهم لا يبين معناه إلا بمرجه ، فإن رجع فإما أن يكون معاه للمرجع كنه أو مثل مرجعه أو من بعض مرجعه ، فإن رجع إلى أمرين قد سبقا ، فالعملية العقلية تسمح لنا أن نعرف أن الضمير يرجع إلى كل منهما أو إلى منهما .

الآية التي نحن بصددنا نجد أنه قد تقدم فيها شيخان هما : المسيح ، وأهل الكتاب ؟ وفيها ضميران اثنان ؛ فهل يعود الضميران على عيسى ، أم يعود الضميران على أهل الكتاب ؟ أم هل يعود ضمير منهما على عيسى والآخر على أهل الكتاب ، وأى منهما الذى يرجع على عيسى ، وأى منهم الذى يرجع على أهل الكتاب ، أم أن هناك مرجعا ثالثا لم يذكر ويُعلم من السياق وهو محمد ﷺ ؟

نقول . إن الضميرين يرجعان إلى المرجع الثالث الذى لم يذكر ونعلمه من السياق ، إن الضميرين يرجعان إلى محمد ﷺ الذى بشر بجميعه عيسى ابن مريم ، وتواترت الأحاديث عن أن عيسى يوشك أن ينزل فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، وسوف يصلى عيسى ابن مريم خلف واحد من أمة رسول الله ﷺ .

إقرار عيسى بعبوديته لله تعالى

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتُ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأَهْلِيَّ
إِلَهُينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيْ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِيْ بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُمْ فَقَدْ
عَلِمْتُمْ قَوْلَكُمْ مَا فِيْ أَنْفُسِكُمْ وَلَا أَعْلَمُ مَا فِيْ نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ [المائدة : ١١٦]

وعلمنا أن نعرف أن هذا هو الحوار الذى سوف يدور بين الحق سبحانه وتعالى وعيسى ابن مريم يوم يجمع الحق سبحانه الرسل . ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ [المائدة : ١٠٩] .

قد يقول قائل : لماذا جاء الحق سبحانه وتعالى بهذا الحوار في صيغة الفعل الماضى ؟ للإجابة عن ذلك علينا أن نأمل قول الحق سبحانه ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ

لِنَّاسٍ أُنْجِذُونَ وَإِنَّ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ أُولَئِكَ .

فيجب أن نعرف أن لكل حدث زماناً ومكاناً ؛ وزمان هذا الحدث يوم القيامة ، ومكان هذا الحدث في ساحة المشهد والحشر . فالحق سبحانه وتعالى خالق كل زمان وكل مكان ، وله أن يتحدث في أي أمر بأي صيغة شاء ، سواء أكانت صيغة الماضي أم الحاضر أم المستقبل ؛ فالحق قد أوجد كل شيء من ماضٍ وحاضر ومستقبل ، ويده أمر كل ما خلق ومن خلق . وذلك أمر مختلف عن حالة الحادث العارض وهو الإنسان ، فالحق تقدست أسماؤه وصفاته أرلى قيوم ، أما بالنسبة للإنسان فالأمر مختلف . إن الزمن بالنسبة لأنفاسنا واحد من ثلاثة : ماضٍ ، أي أن يكون الحدث قد وقع قبل أن أتكلم مثل قولي : قابلني زيد . ومعنى ذلك - أن الفعل قد تم وصار مُحَقَّقًا .

وحاضر : أي أن يكون الحدث في حالة وقوعه الآن ، مثل قولي : يقابلني زيد . ومعنى ذلك أن العين ترى زيداً الآن .

ومستقبل : أي أن الحادث سوف يقع ، كقولي : سيقابلني زيد . وهذا الزمن المستقبل لا يملك الإنسان فيه أن يحدث منه الحدث ، ولا يملك ألا يقع أمر على الإنسان الذي سوف يقابله قد يمنعه من إتمام الحدث ، ولا يملك الإنسان أن يضل السبب قائماً .

إذن .. فمع المستقبل لا يصح للإنسان أن يحكم بشيء ؛ لأنه لا يملك أي عنصر من عناصر الحدث . إن الذي يملك ذلك كله هو الله سبحانه وتعالى وحده ؛ ولذلك يأمرنا الله عندما نزم على فعل أمر أن نقول : ﴿وَلَا تَقُولُوا لِنَاغِي إِنْ فَعِلَ ذَلِكَ عَدَا ۖ إِنَّا لَا نَسْأَلُ اللَّهَ ۖ﴾ . إن على الإنسان أن يحترم قدرته المحدودة ، وأن يتذكر دائماً قدرة الحق سبحانه وتعالى عليه ، وليس معنى ذلك أن الحق سبحانه يمنعنا من التخطيط للمستقبل أو الأحكام بالأسباب . لا ، إنه يطلب منا أن نحط ، وأن ندرس كل الاحتمالات ، وعلينا أن نقول : إن شاء الله قبل وبعد هذا التخطيط ؛ لأننا بذلك نقدم مشقة من يملك كل أمر ، والذي لا يُعَقَّبُ لحكمه ولا رادُّ لقضائه .

وقد حاول بعض المستشرقين من أعداء الإسلام أن يمشوا سموهم في عقول المسلمين ، بالسؤال عن عدم ترتيب الأعمال على سبب حدوثها في بعض من آيات القرآن ، فقال قائل

مهم : كيف يقول الحق تعالى : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل ١] .

إن هذا خبر عن يوم القيامة ، وكيف يأتي به الله سبحانه وتعالى على صيغة الماضي ، وكيف يقول : ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ وكيف يكون الاستعجال على شيء لم يحدث بعد ؟ |
نقول لمن قال ذلك : إن الذي يتكلم هو الحق سبحانه وتعالى ، وليس إنساناً مثلك محكوماً بأزماءه . إن التكلم هو صاحب كل الأزمان ومخالقها ، فسدما يقول سبحانه : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ . بمعنى ذلك أن الأمر آت لا محالة ؛ لأنه لا قدرة تحرج عن مراده ؛ لأن أي فعل من الحق سبحانه وتعالى إنما يتجرد عن ملاسبات الزمان وعن ملاسبات المكان . فإن كنا نقرأ على سبيل المثال : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء : ١٠٠] . فليس معنى ذلك أن مغفرة الله ورحمته هي فعل ماض ، ولكن لنقل . كان الله غفوراً رحيماً ولا يزال غفوراً رحيماً ؛ إنه سبحانه وتعالى غفور رحيم قبل أن يوجد من يغفر له ويرحمه ، ومن باب أولى أن يكون غفوراً رحيماً بعد أن يوجد من يستحق المغفرة والرحمة . إن الحق سبحانه شريطة أن نعتريه الأحداث فيتغير . إن الزمن مخلوق من مخلوقات الله ، فلا تقل متى أو أين ؟ لأنهما به وجدا ، والحق يأتي بالماضي ؛ لأنه متحقق الوقوع ، وإذا قال الله عن شيء : إنه سيحدث ؛ فلا بد أن يحدث . والحق سبحانه عندما يذكر عيسى عليه السلام في أي موضع ؛ فإنه يسبه لأمه ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَكُونَنَّ ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ ﴾ . ونعرف أن السؤال إنما يأتي دائماً على وجهين : إما سؤال يعرف به السائل ما كان يجمله ، فيريد أن يعلمه من المستول ، كقول القائل أقابلك فلان أمس ؟ وإما ليقر المستول بما يعلمه السائل . ومثال ذلك أن يسأل الأستاذ التلميذ ، إن الأستاذ يسأل التلميذ ليقر بما تعلمه . وحاول بعض المستشرقين أن يقولوا : إن هناك تناقضاً في القرآن - والعياد بالله - واستندوا في ذلك إلى قول الحق : ﴿ وَفَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [الصافات : ٢٤] . أي أن الحق يقرر أن كل كائن مسئول عما يفعل ، ويعتقد . ولكنه سبحانه يقول في موضع آخر : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ ﴾ [الرحمن ٣٩] فهل معنى ذلك أنهم لن يُسألوا ؟ لا ، سوف يُسألون ، ليقرروا ما فعلوه ، لا لعصم الله منهم ما فعلوه ؛ فهو سبحانه عليم بكل شيء . وهؤلاء المستشرقون لا يعلمون أن السؤال يرد عند العرب على وجهين : وجه ليعلم السائل ، ووجه ليقرر المسئول . وسؤال الحق

لناس يوم القيامة ؛ ليقرروا ما فعلوه وما كان منهم ؛ لأن الإقرار سيد الأدلة ، وليس سؤال الحق سبحانه وتعالى سؤال من يرغب في أن يعلم ؛ لأنه سبحانه وتعالى عليم بكل شيء والإنسان عليه أن يحتفظ بالمقام الذي وضعه فيه ربه ، وكذلك كان عيسى ابن مريم ﷺ . وكذلك يكون سؤال الله لعيسى ﷺ ، إنه لتفريع من قالوا عن عيسى ﷺ ما لم يُلَعمهم إياه ، إن عيسى ﷺ لم يُلَعمهم أن يتحدوه هو وأمه إنهم من درن الله ، لأن عيسى ابن مريم ﷺ إنما بلغ ما أوحى له به ربه فقط ، ولهذا تأتي إجابة عيسى ﷺ ردًا على هذه الانحرافات من الاتباع . ﴿ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ [المائدة: ١١٦] . وحين نسمع ﴿ سُبْحَنَكَ ﴾ نعرف أنها إجمال التنزيه لله عز وجل ، وهو تنزيه أن يشابهه خلق من خلق الله ، فله - تَقْدُس اسمه - وجود وللإنسان وجود ، ولكن إياك أن تقول أيها الإنسان : إن وجودك كوجود الله سبحانه وتعالى ؛ لأن وجود الله عز وجل ذاتي ، ووجودك غير ذاتي . وكل ما فيك مرهوب لك من الله سبحانه وتعالى ، وكذلك فليس عنك كسبي الله سبحانه وتعالى ، ولا قدرتك كقدرة الله سبحانه وتعالى ، ولا أي صفة من صفاتك كصفات الله ؛ لأنه سبحانه له مطلق القدرة والقوة ، إن كل شيء يتعلق بالله في نطاق سبحانه لأ ، وكذلك يكون تنزيه عيسى لربه وحالقه : ﴿ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ إنه ﷺ يعلم أن الرسول المصطفى من الله سبحانه ، ليس له أن يقول : إنه إله ، وفي هذا القول تفرع لمز ادعى على عيسى ﷺ مثل هذا القول ، ورد عيسى ﷺ على ذلك بقضية متفق عليها فقال لربه - ﴿ إِنْ كُنْتُ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ ﴾ . إن الكل متفق على أن الله سبحانه وتعالى يعلم كل ما يدر من العباد من سلوك وأقوال وأفعال ، والكل يعلم تنزيه الحق سبحانه وتعالى عن أن يحصى عليه شيء ، والكل يعلم أن الله سبحانه وتعالى يعلم خفايا الصدور ؛ يخبرنا عيسى ﷺ بذلك : ﴿ تَقْلُمُ مَا فِي قُلُوبِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ إن عيسى ﷺ يقرر أن الحق سبحانه وتعالى العليم بكل شيء يعرف أن ذلك لم يخطر له على بال . وهذه هي العلة في إيراد ثلاث صور هي هذه الآية :

الصورة الأولى : تنزيه عيسى ﷺ لربه عز وجل بقوله : ﴿ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ .

والصورة الثانية : هي قول عيسى لربه : ﴿ إِنْ كُنْتُ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ ﴾ .

ولصورة الثالثة : هي قوله لربه ﴿تَعَلَّمْ مَا فِي تَقْيِي وَلَا أَعْلَمْ مَا فِي تَقْيِيكَ﴾ .

إذن .. فلا شيء من جانب عيسى عليه السلام ولم يقل ذلك ، وإنما هو تقريع من الله عز وجل لمن قالوا في عيسى عليه السلام وأمه غير الحق ، ويحتج عيسى ابن مريم عليه السلام بقوله : ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمْتَ الْقُيُوبَ﴾ وكلمة «عَلَام» هي مبالة في ذات الحدث ، ومبالغة في تكرار الحدث ؛ فهو سبحانه يعلم غيب كل واحد من خلقه وغيب كل ما في كونه يعلم كل ما كان وما يكون سبحانه ؛ لأن الكون كله ملك له .

عيسى عليه السلام شهيد على بني إسرائيل

يقول الحق تعالى على لسان عيسى عليه السلام : ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة : ١١٧] .

إن عيسى عليه السلام يقرر أنه لم يبلغ قومه إلا ما أمره الله ببلأغه ، وأنه دعاهم إلى عبادة الله كرب له ورب لهم جميعاً ، وعيسى شاهد عليهم في كل تصرفاتهم وهو موجود بينهم ، والشهيد كما يعلم هو الذي يشهد السلوك ولا يقدر أن يجمع الناس المشهود عليهم عن فعل ما يفعلونه . وبعد أن يترفع الله يكون الحق سبحانه وتعالى هو الرقيب عليهم ، والرقيب هو الشاهد الذي يقدر أن يمنع الحدث ، والحق رقيب ويقدر أن يجمع الناس عما ارتكبوا من المخالفات ؛ كأن يبعث لهم من يذكّرهم ، ليهديهم أو يكف أيديهم ، وهكذا يعرف أن هناك فرقاً بين مشهدية الخلق ورقابة الحق ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ .

إنه لا يترك المسألة لشهادة الخلق فقط ، ولكن لرقابته أيضاً ، ويؤكد ذلك بتدليل الآية : ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ .

إن الحق الذي يشهد ويقدر أن يفعل ما يريد ، ومسألة الرفع كما يعلم هي الأخذ كاملاً دون نفوذ في الهبة بالقتل أو الموت . ونحن المسلمين نعرف أن الحق رفع محمداً ﷺ بالإسراء

والمعراج إلى السماوات وعاد إليها مرة أخرى ؛ ليكمل رسالته ، فنحن نصدق أمر رفع عيسى وأنه سوف يعود مرة أخرى ليصلي حلف مؤمن بالله وبمحمد رسول الله ﷺ .

إن أمر الرفع في الإسلام مقبول ؛ فقد رفع الله رسوله محمد ﷺ ودار بينه وبين إبراهيم ﷺ حوار ، وكذلك دار الحوار بينه وبين يحيى ﷺ ، وأدم ﷺ وفرض الحق الصلاة على أمة المسلمين في تلك الرحلة . وهكذا نعرف أن مسألة صعود الإنسان بشحمه ولحمه إلى السماء أمر وارد ، أما طول المدة أو عدمها فذلك لا ينقص لها شيئاً . إن الحق سبحانه أراد بالقرآن رحمة بالخلق ؛ لذلك فكل شيء يقف فيه العقل ولا يزيد به حكم من الأحكام . فإن الله يأتي به في أسلوب لا يسبب الفتنة ، فإن صدقنا أن عيسى رفع فلن يزيد ذلك علينا حكماً ولن ينقص حكماً . ولذلك جاء الحق بمسألة الإسراء بص قصص ، أما مسألة المعراج فلم تأت نصاً إنما التزاماً ؛ لأن الحق سبحانه قال : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ۖ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ۚ عِنْدَهَا جَهَنَّمُ الْأُولَى ۚ ﴾ [النجم ١٣-١٥] وهكذا فالإسراء آية أرضية والمعراج آية سماوية . وقد وصف رسول الله ﷺ بيت المقدس لمشركي قريش ؛ قال تعالى : ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ۚ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْمَذِينَةِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۚ ﴾ [الإسراء : ١] .

إذن .. جاء الإسراء نصاً ؛ لأنه آية أرضية . أما الآية السماوية وهي المعراج فجاءت التزاماً ، وكذلك أمر رفع عيسى ﷺ فمن يرى أن القدرة المطلقة لله فهو يصدق ذلك ، ومن يقف عقله يقول له : إن وقوف عقلك لا يخرجك عن الإيمان واليقين وعندما نتأمل بالدقة اللغوية كلمة ﴿ تَوَفَّيْتَنِي ﴾ فنجد أن الوفاة تعني إمانة لا والحق يقول : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَسْذَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ﴾ [الأنعام : ٦١] .

أي : أماته . والحق تعالى يقول : ﴿ قُلْ بَنَوْنَكُمْ مَلَكَ الْمَوْتِ الَّذِي ذُكِّرَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [السجدة : ١١] .

والله سبحانه وتعالى يقول أيضاً : ﴿ اللَّهُ يَتَوَكَّلُ الْإِنْسَانُ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَكُنْ فِي مَرْأَتِهَا فَيُمْسِكُ الْبَاقِي قَصَصَ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْآخِرَةَ إِلَيْنَا لَعَلَّ نَعْلَمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ

لَا تَكُنْ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ .

إنه يسمى النوم : وفاة ، وسماه موتاً ، وهو أمر فيه إرسال وفيه قبض ، ومعنى الموت فى بعض مظاهره : غياب حس الحياة ، والذى ينام إنما يغيب عن حس الحياة .

إذن .. من الممكن أن تكون الوفاة بمعنى النوم ، ويقال أيضاً عن الذين : توميت ذبى عد فلان : أى أحدث ذبى كاملاً غير مقوص ، وكذلك أمر قتل المسيح قال فيه الحق تعالى القول المصبل : ﴿وَمَا قُلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ .

ونعرف أن الموت يقابله القتل أيضاً ، فقد قال الحق : ﴿أَفَأَمِنَ ثَمَّاتُ أَوْ قُتِلَ﴾ . إن الموت هو خروج الروح مع بقاء الأيعاص سليمة ، أما القتل فهو إحداث إتلاف فى الهنية فذهب الروح ، وقد قال المسيح ابن مريم كما بين لنا ربنا : ﴿فَلَمَّا تَوَقَّعْتِي﴾ . أى أخذتى كاملاً غير مقوص . وهذه مسألة لا تنفض الرفع ، وعلم أن كل ذلك سيكون مجالا للحوار بين عيسى ابن مريم وبين الحق سبحانه يوم المشهد الأعظم . وعيسى عليه السلام يقول عن نفسه : إنه مجرد شهيد على قومه فى رس وجوده بينهم ، ولكن بعد أن رفعه الله إليه فإن الرقابة على القوم تكون لله . لقد قسم المسألة بينه وبين ربه ، فالحق سبحانه شهيد دائماً ورقيب دائماً ، ولكن عيسى يبشرينه بقدر أن يشهد فقط ، والله القادر وحده على أن يشهد ويعير فسبحان الذى يُعْزِّرُ ولا يُعْزِرُ .

تفويض عيسى عليه السلام أمر قومه لمشيئة الله تعالى

جاء على لسان عيسى : ﴿إِنْ تُعِيبُهُمْ فَلْيُعِيبُهُمْ جِبَادُكَ وَإِنْ تَعِيزْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة : ١١٨] .

ولقائل أن يقول : أليس فى ذلك الأمر إشكال واصبح لقد فتر بعض أتباع عيسى ، فاتخذوه هو وأمه إلهين من دون الله ، فكيف يطلب لهم عيسى المغفرة فى هذه الآية ؟ يقول : إن عيسى عليه السلام لم يقل : يارب اغفر لهم ، ولكن : قال مجيباً ربه : ﴿إِنْ تُعِيبُهُمْ فَلْيُعِيبُهُمْ جِبَادُكَ وَإِنْ تَعِيزْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ لقد مؤوض عيسى الأمر لربه عز وجل ، وهو كرسول من عند الله تعالى يعلم أن رحمة الله سبحانه وتعالى سبقت غضبه ، وأن له طلاقة القدرة .

وسن نعرف أن كل خلق الله هم عبيد لله ، لكن المطيع لله عز وجل والمؤمن به خاصة ، هم عباد الله سبحانه وتعالى . فالحق نوعان : عباد لله ذهبوا إليه إيماناً ومحبة وطاعة ، والنوع الثاني هم العبيد الذين يُقَهَرُونَ لقاهرة سيدهم ، وحتى الكافر لم يكفر رغماً عن الله ، بل كفر بما آتاه الله من قدرة اختيار في أن يفعل أو لا يفعل ، وكان الحق قادراً على أن يخلق خلقاً لا يعصون الله سبحانه وتعالى ما أمرهم ويفعلون ما يأمرهم به صاحب الأمر والسهي ، وقد فعل الحق ذلك مع الملائكة ، لكن قدرة الله تثبت صفة من صفات الله وهي القهر ، ولا تثبت صفة المحبة ؛ فالمحبة تأتي من أن يكون المخلوق مختاراً أن يؤمن أو أن يكفر ، ثم يختار الإيمان ، إنه بذلك آمن محبة واختياراً ، وهكذا يريد الله عز وجل بحلقه المؤمنين به ، لكل الوجود ما عدا الإنس والجن مقهور ولا يقدر على العصية بالشمس والقمر والمطر والهواء والسحاب وكل ما في الكون مقهور لله القهار .

إذن .. فهو أراد الله جلَّت قدرته - خلقاً مقهورين على الإيمان به ما استطاع أحد من خلقه أن يكفر به ، ولكن الحق أراد أن يثبت صفة القهر فيما دون الإنس والجن ، أما الإنس والجن فقد خلقهم الله مختارين بين الكفر والإيمان ، حتى يأتي بعض من العباد ليصنعوا ما يحبه الله ويرضاه ويتبعوا منهج الله ، فيجاريهم الله الجزاء الحسن ، ويأتي فريق آخر فيكفرون بالله ويرفضون منهجه فيمحض اختيارهم فأولئك لهم الجزاء السيء حسب عملهم . وهناك فريق آخر ليس عليه تكليف ؛ إذ إن التكليف للعباد لا يتم إلا بوجود ثلاثة شروط :

الشرط الأول : أن يوجد العقل .

والشرط الثاني : أن يكون العقل في تمام النضج وهو الرشد .

والشرط الثالث : ألا تكون هناك قوة أعنى من الإنسان تهدد حياته وتقهره عن فعل ما .

وهكذا نعم أن هناك ثلاثة يخرجون من دائرة التكليف ؛ وهم : المجنون ، ومن لم يبلغ الحلم ، والمكره . والحق قد أعطى مع التكليف الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية ، وبذلك ليس لك عند الله سبحانه وتعالى حجة أيها الإنسان ، ومن دخل التكليف طائفاً فهو من عباد الله سبحانه وتعالى ، ومن عصى الله وخرج عن التكليف فهو من العبيد المقهورين في كل شيء ، فيما عدا الاختيار . إذن .. فالعباد هم الذين دخلوا للعبودية بأن وازنوا بين الإيمان

ونقيضه الكفر. أي بين المراد لله عز وجل وغير المراد لله سبحانه وتعالى

ككيف إذن يقول عيسى ابن مريم عليه السلام، رعم علمه بكفرهم: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ عَذَابُكَ﴾ ؟ نقول : إن معنى العباد والعبيد - الذي شرحناه سابقا - هو وضع الإنسان في الدنيا ، لكر لنا أن نعرف أن هذا الخور الذي نقرؤه بين عيسى عليه السلام وبين الحق سبحانه وتعالى يكون في الآخرة ، وكلما في الآخرة عباد مقهورون ، وعندما نستقرئ كلمة عباد لا في القرآن ، نجد أن العباد هم الصفوة المختارة التي اختارت مراد الله لفرق اختيارهم فاستوت مع المقهور تماما ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَتَشَوَّعْنَ عَلَى الْأَرْضِ هَوَاً﴾ .

إنه يأتي هنا بالخصال الجميلة بهذه الصفوة من العباد ، والشيطان نفسه يعلن عدم استطاعته إغواء العباد المحاصرين : ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصُونَ﴾ .

أما في الآخرة فكما عباد فيها هو ذا الحق سبحانه وتعالى يحاطب الدين أضوا غيرهم : ﴿وَيَوْمَ يَخْشَرُهُمْ وَمَا يَعْشُرُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ مَا أَسْرَ أَخْلَقْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ صَحُوتُ السَّيْلِ﴾ [المزاح : ١٧] . إن الكل عباد لله عز وجل يوم القيامة ، والكل ينفذ مراد الله سبحانه وتعالى ولا ولاية لأحد على أي شيء حتى أعضائه ، فالعين التي كانت مسحرة للعبد في الدنيا تأتمر بأمر العبد فيحتر أن يرى بها الحلال أو يرى بها الحرام ؛ هذه العين تسترد حريتها من صاحبها فلا ولاية له عليها في اليوم الآخر ، وكذلك اليد واللسان والجلد والقدم وكل الأجزاء . إن النفس الإنسانية تكون كالفائد لكل الأجزاء والجوارح في الدنيا تنفذ أوامره سواء بالخير أو بالشر ، سواء لطاعة أو لمعصية لكن هذه الأجزاء والجوارح تنطلق يوم القيامة لتشهد على الإنسان في كل ما فعل ، وليس لأحد مرد غير مراد الله ﴿لَعَنَ الْمَلَكُ الْيَوْمَ إِلَهُ الْكَافِرِينَ﴾ [عمر : ١٦] . لقد انتهت مرادات البشر وبقي مراد الله فصار الكل عبادا لله عز وجل ، وعلى هذا فليس هناك إشكال في قول الله سبحانه : ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ عَذَابُكَ﴾ .

ونعلم أيضا أن كلمة عبيد لا تشملنا كلها فيما نحن غير محترين في مثل إدارة النفس ، أو ميعة الميلاد ، أو ميعة الموت ، ولكن المؤمنين يرتقون ، بعبوديتهم لله جنميد منهجه وطاعته . أما الكافرون فهم يعصون الله بما بهم من اختيار ويسيروا في درب العصيان على معاندة مسيح الله سبحانه وتعالى ، وحتى ثبت الحق سبحانه وتعالى لنا جميعا أنهم في قبضته وإن كفروا ، فإنه

يصيبهم بالمرض والفاقة والآلام النفسية المنيقة ، ولا يجرؤ واحد منهم أن يعارض مراد الله في هذه الأحداث التي يجريها عليهم ، وقد يستنرجهم بالغي والجاه والسلطان ويكون ذلك عذاباً لهم ؛ ولذلك يقول الله : ﴿ سَتَجِدُنَهُمْ فِي حَيِّثُ لَا يَحْتَسِبُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ لَئِنْ كِيدِي نَبِيِّنَ ﴾ [القصص : ٤٤ ، ٤٥] ولذلك فالمؤمن يشكر الحق عز وجل باختياره ؛ لأن الله عز وجل حماه بأدوات الاختيار وجوداً ونصيحاً وعدم إكراه .

وكما قلنا : عندما يسأل الله عيسى في الموقف العظيم ، يوم القيامة ، عن الذين فتوا فيه وفي أمه ، سيجيب قائلا : ﴿ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ عَذَابُكَ وَإِنْ تَعْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة : ١١٨] . وهذا التذليل لكلمات عيسى ابن مريم ﷺ لم يأت باعتذار أو طلب الحما من الله على الذين كفروا بالله ، وأشركوا به . فالعزيز الحكيم هو الذي لا يعلب على أمره ولا تسيطر عليه قوة ولا تحمي هؤلاء الناس قوة من دون الله . إنه القادر العزيز إن شاء عفر لهم وإن شاء عذبهم بمقتضى عزته وحكمته سبحانه وتعالى . وبعض السطحيين قالوا تلتزوا في القرآن ألم يكن الأجدر أن يقول عيسى : إن تعفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم . ويرد على هؤلاء السطحيين فنقول : إن كل كلمة في القرآن تأتي في مكانهم بالضبط ولا تحل مكانها كلمة أخرى ؛ لأنه كلام الله وإلا لاختلف المعنى المراد ، ولذلك جاء التذليل في هذه الآية دالاً على إعجاز القرآن الكريم .

والموقف عسير يوم القيامة فلا ينفع المال ولا الجاه إنما الذي ينفع هو الصدق ، والعمل الصالح ؛ ولذلك يقول الحق : ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [المائدة : ١١٩] . فالصدق ينفع أصحابه يوم القيامة ولما كان عيسى ﷺ صادقاً مع ربه فيما أمر به ، فإنه سيجيب على سؤال ربه قائلا : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَمْرِي ﴾ [المائدة : ١١٦] ، ولذلك يقول الله ﴿ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ وكيف ينفعهم ذلك الصدق ؟ إنهم يعمون ويفترون برضا الله عنهم ﴿ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ .

وإن تساءل إنسان كيف يرصى العبد عن ربه ؟ نقول . إن العباد المؤمنين عندما يعاينون أخراء المعد لهم في الآخرة يمتلئون بالحبور والسرور والفرحة ويقولون : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

صَدَقًا وَعَدَمُ وَأَوْزِنَا الْأَرْضَ نَبَوًّا مِمَّنْ آتَيْنَاكَ حَيْثُ نَشَاءُ ﴿١٠٠﴾

وبدلت الحق الآية التي تحدثت عن يوم يرفع الصادقين صدقهم بقوله : ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ، والفوز فوزان : فوز عظيم وفوز سطحي ، والفوز السطحي هو ما يعطيه الإنسان لنفسه في دار التكليف من متعة قصيرة العمر والأجل ، فيبدو ظاهرها كأنه قد فاز لكنه في الحقيقة لم يفز ؛ لأن الندم سيعقبه ، وأي لذة يعقبها الندم ليست فوزًا . إن الدنيا بكل ما فيها من نعيم على قدر إمكانات الإنسان وتصوره وهو نعيم مهتد بهشين :

الشيء الأول : أن يزول النعيم عن الإنسان ، وكثيرًا ما رأينا منعمين زل عنهم النعيم .

والشيء الثاني : أن يترك الإنسان هذا النعيم بالموت ويحس نرى ذلك كثيرًا .

أما النعيم الذي هو المورد العظيم فهو النعيم الموصول الذي لا يمنعه أحد ، ولا يقطعه شيء .

كما قال تعالى : ﴿يُبَيِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَتِهِمْ إِنَّهُمْ لَرِضْوَانٍ مِّمَّنْ أُنِيبُوا إِلَيْهَا يَبْتَغِيهَا ﴿١٠١﴾﴾
[التوبة : ٢١ ، ٢٢] .

ويحتم الحق سبحانه سورة « المائدة » بقوله : ﴿إِلَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [المائدة : ١٢٠] . والسماء والأرض هما ظرف للوجود فله ملك السموات وما فيها وملك الأرض وما فيها .

إذن .. يقول الحق : ﴿إِلَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وإجابة عيسى يوم القيامة عن سؤال

ربه : ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الرَّحِيمُ الْكَرِيمُ﴾ نفهم منهما : أنه ليس شيء من خلق الله يستطيع أن يخرج عن مرادات الله . أما في الدنيا فقد جعل الله سبحانه وتعالى أسبابها في أيدي الناس فإن لكل إنسان من هو أعلى منه ، فهناك المسئول عن الطعام ، والمسئول عن البيت ، والمسئول عن الثوب ، ولكن ليس كل مسئول منك ، لأن الملك هو الذي يملك كل شيء ، وهذه سنة الله عز وجل في كونه ، لكن في الآخرة هناك مالك واحد هو مالك يوم الدين .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فِيمَا نَقُصُّهُمْ نَبِّئُهُمْ وَكُفِّرِهِمْ يَكُونُ أَقْوَمُ وَقَوْلُهُمْ

الْأَنْبِيَاءُ يَمْتَرُ حَتَّى وَقَوْلُهُمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَعَّ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾ [النساء : ١٥٥] .

لقد نقضوا كل المواثيق ، ونقض الميثاق هو حله ؛ لقد كفروا بآيات الله وقتلوا أنبياء الله بغير حق ، وأدعوا أن قلوبهم عصف لا تسمع للدعوى الإيمانية .

إذن .. قدم الحق سبحانه وتعالى حثيات ، وهذه الحثيات هي :

أولاً : نقضوا الميثاق ، وذلك يستوجب ما يتوعدهم الله به

وثانياً : كفروا بآيات الله التي أنزلها ؛ لتؤيد موسى .

وثالثاً : قتلوا الأنبياء بغير حق .

وقالوا عللياً لذلك ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ ؛ أي قلوبهم مغلقة ، ممسى ذلك أنها قلوب محتوم

عليها ختم كالعقائد بحيث لا يخرج منها ما فيها ، ولا يدخل فيها ما هو خارج منها ، إنهم بذلك يريدون الاستدراك على الله ، فقالوا : قلوبنا لا يخرج منها ضلال ، ولا يدخل فيها إيمان ،

وقد تقدم مثل لهذا حين قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ١٠ ﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ [البقرة - ٦ ، ٧] .

نقول لهم : هل القلوب خلقت علقاً ، أم خلقت محتوماً عليها بحيث لا يدخلها هدى ولا يخرج منها ضلال ؟ إن الحق سبحانه الذي ختم على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاة ؛ فالحتم على القلب حتى لا يتعرف على الدليل ؛ لأن القلب محل الأدلة واليقين والعقائد والحتم على السمع والبصر هو الحتم على آلات إدراك الدلائل البينات على وجود الحق سبحانه ، فمقر العقائد محتوم عليه ، وهو القلب ، ضربت غشاة على الآذان وعلى البصر ، فهل هذا كائن بطبيعة تكوين هؤلاء ؟ لا ؛ لأنه إذا كان هذا بطبيعة التكوين ، فلماذا لم يخصهم الله بذلك التكوين دون غيرهم ؟ والذين اعتدوا لم يكن محتوماً لا على قلوبهم ، ولا على أسماعهم ، ولا على أبصارهم . لماذا ؟ .

وللرد على هؤلاء نقول : إن الواحد منهم يريد أن يبرر انحرافه وإسرافه عن نفسه بالقول بأن الله خلقه هكذا ؛ ولكن هذا قول مريب وكادب ؛ لأن الواحد منهم إنما يكفر أولاً ، فلما كفر وانصرف عن الحق تركه الله على حاله ، لماذا ؟ لأن الله أعصى الشركاء عن الشرك ، فمن اتخذ مع الله شريكاً تركه الله وشركه .

إذن ... الختم جاء كنتيجة للكفر والآيات قدمنا الخشية ، وهي أن الكفر يحدث أولاً ، ثم يأتي الختم على القلب والسمع والبصر نتيجة لذلك . وكذلك قول الله سبحانه وتعالى ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

إذن .. فالكفر هو الذي يأتي أولاً ، ولذلك فالرد على أى إنسان يقول : إن الله لا يهدي . هو أن الله لا يهدي من كفر به ، فإن كفر الإنسان مانع بهدايته .

وقوله تعالى ﴿ فِيمَا نَقُصُّهُمْ ﴾ . يدفع إلى سؤال هو : لماذا جاءت ما لأها ؟ بعضهم قال إن ما لأها رائحة . ويقول . ليس فى كلام الله حرف رائد ؛ لأن معنى ذلك أن المعنى كان بهم بغير وجوده .

إن القرآن هو الكلام المعبر ، وجاء محمد ﷺ ليبلغهم أنه جاء بالقرآن معجزة يعجزون عن محاكاته ، مع أنهم عرب وفصحاء ؛ وبما أن المتحدث دائماً يحاول أن يتصيد خطأ ما ، وبما أن العرب لم يقل واحد منهم : إن فى القرآن خطأ . فهذا دليل على أن الأسلوب يتفق مع الملكة العربية .

إن قول الحق . ﴿ فِيمَا نَقُصُّهُمْ ﴾ معناه بقصصهم الميثاق فعلمنا بهم ما صاروا إليه . قبل . إن « ما » هنا زائدة ، وهى زائدة لتأكيد ، ونكرر « ما » إياك أن تقول إن فى كلام الله حرفاً رائداً . لقد جاءت ما لأ هنا بمعنى واضح ؛ نقوله : ﴿ فِيمَا نَقُصُّهُمْ مِمَّنْ قَبَّحْتُمْ ﴾ ، أى بسبب نقض الميثاق فصنا بهم ذلك .

لماذا إذن أثار العلماء هذه الضجة ؟ إن ما بعد « الباء » هو السبب فى هذه الضجة ، ونحن نعلم أنه يوجد فعل ومصدر للفعل كقولنا « أعجبنى ضرب السيف » وضرب مصدر للفعل « ضَرَبَ » فالذى يعجب هو الضرب ، والضرب لا يثبت إلا من حدث ، فكأنه يقول : « أعجبنى أن يضرب ريد » ، أى أن المصلوق قد انحل إلى فعل ، وقد يقول قائل . « أعجبنى علم زيد بالمسألة » ومعناها « أعجبنى أن يعلم زيد بالمسألة » ومعناها أيضاً « أعجبنى ما علم ريد من المسألة » و « ما » هنا مصدرية أيضاً .

إذن .. فنقول الحق : ﴿ فِيمَا نَقُصُّهُمْ مِمَّنْ قَبَّحْتُمْ ﴾ هذا النقص هو مصدر ، والمصدر حدث ، والحدث لا يأتي إلا من فعل ، والنقص معناه أنهم نقصوا الميثاق ، وتحلوا منه ، فكأن الحق

يقول : فيما تَقْضُوا مِن حَـدِثٍ فَعَلْنَا بِهِم كَذَا وَكَذَا . لَسْتُ دَخَلْتُ مَالاً بَعْدَ الْبَاءِ وَقِيلَ الْمَصْدَرُ ؛
لأن المصدر فيه أصل الاشتقاق الفعلي ، ويكون المسمى : بسبب نقضهم الميثاق وبكنا وكنا
طبع الله تعالى على قلوبهم .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ نَبِيَّتَهُمْ وَكَفَرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ
بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِكَفَرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ، نجد أن الحق
لم يقل : فيما نقضهم ميثاقهم ، وكفرهم بآيات الله ، وقتلهم الأنبياء بغير الحق وقولهم قلوبنا
غلف طبع الله على قلوبهم لأن وجود « بل » يدلنا على أن هناك أمراً أضربنا عنه ، فنحن
نقول : جاءنا ريد بل عمرو أى إن المتكلمين قد أخطأوا فقالوا : جاداً ريد لا واستدر كوا
أنفسهم : فقالوا . « بل عمرو » إنهم قد نفوا مجيء ريد ، وأكدوا مجيء عمرو . والحق سبحانه
قال : ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِكَفَرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ .

كان المقتضى أن يقول الحق بكفرهم وقتلهم الأنبياء طبع الله على قلوبهم ؛ لكن الله لم
يقُل ذلك لحكمة بالغة ، وحتى يعرف هذه الحكمة فسبحت عن المقابل لطبع الله على قلوبهم .
إن المقابل هو فتح الله على قلوبهم بالهدى .

وجاء قول الحق معبراً تمام التعبير عن موقفهم : ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ نَبِيَّتَهُمْ وَكَفَرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ
وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ .

إن عظمة القرآن أنه يأتي بالمعنى الذى يجب أن تفكر فيه ، وأن تتدبر كل كلمة فيه ، مكان
الله قد قال : فيما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، وقولهم قلوبنا
غلف لم يفتح الله بالهدى عليهم ؛ بل طبع على قلوبهم بالكفر ، فلا يؤمنون إلا قليلاً .

إذن .. فالله يقدم الأسباب لما ضيقه بهم فتدبرها هنا بالحججيات من نقضهم للميثاق
وكفرهم بآيات الله ، وقتلهم للأنبياء بغير حق ، لذلك لم يفتح الله عليهم بالهدى ؛ بل طبع
الله على قلوبهم بالكفر . إن وجود « بل » دليل على أن هناك أمراً قد نفى وأمر قد تأكد ونجد أن
الأمر الذى نفاء الله عنهم أنه لم يفتح عليهم بالهدى والإيمان ، والأمر الذى تأكد هو أنه
سبحانه قد طبع على قلوبهم بالكفر .

وفي آية أخرى قال عنهم الحق سبحانه وتعالى . ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ

يَكْفُرِهِمْ قَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٨٨﴾ [البقرة . ٢٨٨] . إن قلوبهم ليست غُلْفًا ، ولكن لمة الله عليهم وإبعاده لهم وطرده إياهم واستغَاؤه عنهم ، لذلك تركهم لأنفسهم فغلبت عليهم الشهوات . وقد يقول قائل : لماذا ذُكِّلَ الحق الآية بقوله : ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ؛ ونقول : إن هناك سامعًا للقرآن أو قارئًا له تغلبه الآيات ومن بعد ذلك تستيقظ نفسه وتصحو ، ولا تستيقظ النفس وتصحو إلا إذا نُثِبت بشيء . إن الحق بقوله : ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ هو قول مقصود به عدم إغلاق باب الإيمان على إطلاقه أمام هؤلاء الناس . إنه صيانة الاحتمال وصيانة الاحتمال أن يعمن واحد من هؤلاء إيمانه رغم أن الله قال عنهم : ﴿طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ ؛ إن إيمانه إحد لن يكون أمرًا مفاجئًا ؛ لأحد ؛ لأن الحق قال : ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ . ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَيَكْفُرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بَنَاتُ عِطِيمًا﴾ [النساء : ١٥٦] .

قد يقول قائل : ألم يقل الحق من قبل أن «كفرهم» هو سبب من أسباب طبع الله على قلوبهم ؟ وأقول : إياك أن تقول : إن هناك كلمة في القرآن مكررة ؛ لأن الذي يتكلم هو الله سبحانه وتعالى ، فهو لا ينسى شيئًا ، ولا يكرر من غير داع . فالكفر أيضًا على درجات مرة يكون الكفر بالله ، ومرة يكون الكفر بآيات الله ، ومرة ثلاثة يكون الكفر بالرسول ، ومرة يكون الكفر ببعض السنين ، ومرة يكون الكفر ببعض الكتب السماوية . إن الكفر أشياء شتى ، والكفر في الآية السابقة كفر بآيات الله ، وكفرهم في هذه الآية يشرحه قول الحق : ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بَنَاتُ عِطِيمًا﴾ . لقد كفر هؤلاء بعيسى عليه السلام وقالوا البهتان على مريم ، لقد كفروا إحد بآيات الله ، وبرسول من رسل الله ، وهكذا تتعدد أشكال الكفر .

وقول الحق : ﴿وَيَكْفُرِهِمْ﴾ هو عطف على ﴿مَقْصِهِمْ﴾ ، وعلى ﴿وَكْفُرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ ، وعلى ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ﴾ ، وعلى ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ ؛ ونلاحظ أن الحق لم يكرر الباء التي جاءت في أول الآية السابقة حين قال : ﴿فِيمَا نَقُصُّهُمْ مَيْسَرَةً﴾ ، ولم تتكرر «الباء» في بقية المعطوفات في الآية ؛ وهذا يدل على أننا أمام ماطر الرحمة من ربنا سبحانه وتعالى ، فقد كان يكفي ارتكابهم لأى عمل من هذه الأعمال أن يطبع على قلوبهم ، ولكنهم ارتكبوا كل الأعمال المذكورة مجتمعة ، ولم يرتكبوا فعلًا واحدًا منها وهذا يدل على أن الله لا

جرمٌد لعبيده ، ولكن يشتم العباد إلى الإيمان ، لقد ارتكبوا أربعة أفعال جسيمة : نكسهم للميثاق ، وكفرهم بآيات الله ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، وقولهم طبع الله على قلوبنا . ومن رحمة الله أن جعل هذه الأفعال الأربعة جريمة واحدة .

وبعد ذلك يذكر الحق جريمة أخرى من جرائمهم ، يقول تعالى : ﴿ وَيَكْفُرْهُمْ عَنْ مَرْيَمَ إِذْ نَبَتْهُنَّ عَوْلِمًا ﴾ [النساء : ١٥٦] .

إن الحق قد ساوى بين قولهم البهتان على مريم وبين كل الأفعال السابقة . لماذا ؟ لأنهم اعترضوا على رسالة ونبوة نبيٍّ من أولى العرم من الرسل إنه نبي حطه الله بأشياء ، وهذه الأشياء قد تكون ضمن الأسباب التي قتت بعض الناس فيه ، إنه عيسى ابن مريم عليه السلام الذي حلقة الله خلقاً خاصاً ، فآله تبارك وتعالى خلق آدم عليه السلام من الطين ، وصرخ فيه من روحه ، فجاء من غير أصول ، لا أب ، ولا أم . وخلق حواء من أصل واحد هو آدم عليه السلام ، بدون أم ، وخلق البشر وجعل سلسلهم من سلالة من ماء مهين ، أما عيسى عليه السلام ، فقد خلقه الله ، فجاء من أم بدون أب ، فكيف تكفرون به ؟ ! ! ؟ .

وأيضاً أمه مريم البتول عليها السلام ، التي عاشت في كماله نبي الله زكريا عليه السلام ، وكانت حادمة بيت المقدس ، وتربت تربية دينية عظيمة ، كيف تتهمونها بالفاحشة ؟ ! ! ؟ إن هذا الاتهام الباطل من أعظم البهتان . إن الحق سبحانه ها يحدد سبيلين لكفرهم :

الأول : قولهم البهتان على مريم ، وهو كفر بالله .

الثاني : كفرهم بعيسى عليه السلام ، الذي ولد بغير طريقة للميلاد العادية ؛ رغم أن هذا تكريم له ، وتقريع لليهود الذين عرقوا في المادية ، حتى إنهم قالوا : ﴿ أَرَأَيْتُمْ أَفْعَدَّ لَكُمْ ﴾ [النساء : ١٥٣] .

وعندما رزقهم الله بربق غيبى لا يعرفون أسبابه ، كما رزقهم بالملك والسلوى ، قالوا لهذا الربق : لا ، نحن نريد أن نرعى نباتاً ليسو من الأرض ولا نتظر الغيب ، لأن الغيب قد يضن عنها ، وذلك قوله تعالى : ﴿ فَادْعُ لَنَا ذَلِكُمْ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُخِثُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَائِهَا وَفُؤْمِهَا وَغَدَائِهَا قَالُوا لَنْ نَسْمُرَكَ الَّذِي هُوَ آذَنَ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾ [البقرة : ٦١]

إنهم لا يثقون بما في يد الله ويريدون الأمر المادى .

لذلك يفتهم الحق سبحانه وتعالى بلفظة قسرية، ويأتي بأمر ياقض قانون المادة من أساسه، وهو ميلاد عيسى عليه السلام؛ إن البشر في مجيئهم المادى إلى الدنيا يأتي الواحد منهم من أب وأم، ولكن الحق سبحانه وتعالى في خلق عيسى عليه السلام جاء به من أم دون أب، وبذلك انتقضت المادية، ذلك أنهم ماديون، وغفلوا عن الخلق الأول.

إذن .. فلماذا الفتنة في عيسى عليه السلام؟ لقد صنع ميلاد عيسى ابن مريم هزة لليهود الماديين، ونقص أمامهم الأساس التقليدى نجى الإنسان إلى الدنيا بأصل واحد وهو الأم، فانه سبحانه يثبت بذلك طلاقة القدرة، والحق سبحانه وتعالى إنما جعل الأسباب للبشر، فإذا أراد البشر شيئاً فعليهم أن يأخذوا بالأسباب، ولكنه سبحانه وتعالى حين يريد شيئاً فإنه يكون بلا أسباب، فهو سبحانه الذى خلق كل الأسباب.

ولذلك قلنا قديماً: إن قضية الخلق دارت على أربعة أنحاء.

إما أن ينشأ الشيء من وجود الشئيين. هذه هي الصورة الأولى.

وإما أن ينشأ الشيء من غير وجود الشئيين. وهذه الصورة الثانية.

وإما أن ينشأ الشيء من وجود الشيء الأول، وعدم وجود الشيء الثانى وهذه هي الصورة الثالثة.

وإما أن ينشأ الشيء من وجود الشيء الثانى وعدم وجود الشيء الأول. وهذه هي الصورة الرابعة.

تلك هي الصور الأربع لوجود شيء ما، ولم ينشأ الله أن يجعل الخلق وهو الإنسان المكرم الذى سخر له الخلق كل الكون على نحو واحد (أى في قضية الخلق)، لماذا؟ حتى لا يقول أحد إن السببية مشروطة الوجود، ولكن لتعرف أن إرادة الله هي الشرط في الوجود، بدليل أنه سبحانه قد خلق آدم عليه السلام من غير أب ولا أم، وخلقنا نحن من أب وأم، وخلق عيسى عليه السلام من أم دون أب، وخلق حواء من أب دون أم، هذه هي القسمة المعقبة الواضحة، ليست المسألة توفر الأسباب للوجود ولكن المسألة إرادة الخالق جل وعلا.

ومن يرى أيضاً قدرة الحق حينما يكون الأسباب موجودة كالأب والأم، ولكن يشاء الحق أن يكون الاثنان عقيمين، وذلك قول الحق سبحانه: **هُوَ الَّذِي مَلَكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**

يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنْتَعَا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكُورَ ﴿٥٠﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنْسَاءً
وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ﴿٥١﴾ [الشورى : ٤٩ ، ٥٠] .

إذن .. فليست المسألة مدار أسباب توجد ؛ بل مسبب يريد أن يوجد ، ولقد أراد الحق أن يكون مجيء عيسى عليه السلام بهذه الصورة ؛ ليلفت بى إسرائيل بعلمهم يخرجون من ماديتهم ، ويثبت لهم طلاقة قدرته . ولكن اليهود استقبلوا هذه المسألة استقبالا على غير ما كان يجب عليهم .



سيرة الرسول محمد

صلى الله
عليه
وسلم

بعثة الرسول محمد ﷺ وأحوال المشركين في ذلك الوقت

الله سبحانه وتعالى حين تفصل على خلقه في الأرض فأرسل إليهم رسوله محمداً ﷺ ، كان ذلك بعد أن مرت فترة طويلة على إرساله من سبقوه من الرسل . ومعنى ذلك أن مهج الله كان قد سبه الناس وحرروه ، والله خلق ضميراً إيمانياً في كل نفس بشرية ، وحين تسرف نفس على نفسها وترتكب المعاصي يهيج الضمير الإيماني من داخلها ، فهناك من يتوب ويرجع إلى الله من ذات نفسه بضميره الإيماني ، وتلك هي النفس اللوامة ، ومعنى وجود اللوم في النفس هو أن الإيمان ما زال موجوداً فيها ، وهذا الإيمان هو الذي يوقف المعصية ويود صاحبه إلى الطريق الصحيح .

ولكن هناك من عندما يهيج فيها الضمير الإيماني لا ترتدع ، بل تحاول إسكات هذا الضمير ببريرات زائفة ، وتظل ترتكب المعاصي حتى تعود على المعصية . ويموت فيها الوارع الإيماني ، فتجدها قد ألفت - والعياد بالله - مخالفة مهج الله ، ولم تعد نفساً لوامة ، بل أصبحت نفساً أمارة بالسوء ، وحين تصبح النفس أماره بالسوء يقل الله المناعة الإيمانية من النفس إلى المحيطين بها من عباد الله ، فتجد المحيطين بمرتكب المعاصي يردعونه عن المعصية ، ويقفون معه مواقف الإيمان من الردع والمقاطعة والجموع حتى يعود إلى رشده . وتلك مرحلة ثانية من مراحل الإيمان .

فإذا ما فسد المجتمع كله ، ولم تعد هناك طائفة تأمر بالمعروف ونهي عن المنكر ، فلا بد من رسالة جديدة ورسول جديد مؤيد بمعجزة ؛ لينقذ الناس من هذا الفساد ، وينبهم إلى ذلك انفساد الذي لم يشمل الأفراد فحسب ، بل شمل المجتمع كله ، وعندما جاء رسول الله ﷺ ، وواجه هذا المجتمع الذي انتشر فيه الكفر أفراراً وجماعات كان لابد أن يحدث تصادم بين الإيمان وهذا المجتمع . ذلك أن العداوة الشرسة التي واجهت رسول الله ﷺ . واجهته من المشركين بالفساد في الأرض ، والمتمعون بالفساد هم السادة الذين استعادوا من ضيع الحق وانتشار الباطل ؛ فأخذوا حقوق غيرهم واستعبدوا الناس ، وجعلوا دماءهم من عرق غيرهم ، وستأثروا هم بالخير ومعوه عن باقي عباد الله ، والمتمعون بالفساد يكرهون أيّ مصلح جاء ؛ ليعطل ميزان حكمة الحياة في الكون ، فلا بد أن يقفوا في وجهه ؛ ليدافعوا عن سيادتهم وعن

أموالهم التي حصلوا عليها بالباطل والظلم وس استعبادهم لناس .

والجزيرة العربية في ذلك الوقت كانت مكونة من قبائل متعددة ، كان لكل قبيلة قانونها الذي يضعه شيخها ؛ ليستأثر لنفسه بكل شيء .

ومعنى ذلك أنه لا توجد رابطة بين هذه القبائل ، ولا قانون عام يحكمها ، وكل قبيلة لها عزوتها ولها شوكتها ولها حروبها ، وكل فرد في قبيلة لا يد أن يكون مقاتلاً يحمل سلاحه مستعداً للحرب في أي وقت ؛ لأنه مهدد في أي لحظة أن يُعير عليه قبيلة أخرى ؛ إلا قبيلة واحدة هي قريش أخذت السيادة فلا يُعتدى عليها ولا تُهاجم قواؤها ، ولا تستطيع قبيلة في الشمال أو في الجنوب أن تهاجم تجارتها ، لأن هذه القبائل كلها ستأتي في يوم من الأيام وتتحج إلى بيت الله الحرام في مكة .

وخلال الحج فإن هذه القبائل محتاجة إلى الأمان من قريش ؛ لذلك حرصت كل قبائل العرب أن تحافظ على علاقاتها مع قريش ؛ لأن السيادة على بيت الله الحرام جعلها الله لقريش ، وقد تكفل الله بحماية البيت من أي عدوان ، حتى عندما جاء أبرهة بأفياله ، ليهدم الكعبة^(١) ... جعله الله هو وجيشه كعصف مأكول ، فإذا قرأت السورة التي بعد سورة « الفيل » مباشرة التي تروى قصة أبرهة وما حدث له ، تجد أنها ﴿ لَا يَلْفُ قَرْيَشٌ ① لِأَيْدِيهِمْ رِجَالٌ أَلْسِنَةٌ وَأَنْصَبٌ ② فَلْيَقْبِذُوا رَبَّ هَذَا أَلَيْسَ ③ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمْنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ④ ﴾ [قريش ١ - ٤] ، فكان حفظ الكعبة من الهدم كان حفظاً من الله سبحانه وتعالى لسيادة قريش . ولذلك كان من الواجب أن تستقبل قريش رسالة رسول الله ﷺ بالإيمان والشكر وفهم النعمة ، بدلاً من أن تقف من الإسلام هذا الموقف المنعوت وتجاربه هذه الحرب الرهيبة ، ولكن بدلاً من ذلك فإن العكس قد حدث ، وظنت قريش - كدباً - أن الإسلام جاء ؛ ليهنّد سيادتها فقامت تحاربه .



(١) القصة كما تروى : أن أبرهة بن الصباح ملك اليمن من قبل أوصحمة النجاشي ، بنى كنيسة في صنعاء وسماها القليس ، وأراد أن يهرف إليها الحج ، فخرج رجل من بني كنانة فقمعد بها ليلاً ، ويقال : إنه قضى بها حاجته أو أنه أحرقها ، فأعصب الملك ذلك ، فحلف ليهدم الكعبة ، فخرج بالأحباش ومعه ميل عظيم فوي يسمى « محمود » وبيعة كثيرة لإرهاب العرب قاصداً مكة متدلّياً على كل من وقف في طريقه ، حتى وصل إلى -

فجر الدعوة ومراحلها

لقد شاء الله سبحانه وتعالى أن تكون صيحة الحق في مواجهة جيروت الباطل ، وأن يواجه الإسلام في أول أيامه جيروت سدة الجزيرة العربية ، حتى يحص الله قلوب المسلمين الأوائل ، الذين سيحملون دعوة الإسلام إلى العالم ، فلا يعتنق الإسلام منافع أو متفجع أو ضعيف الإيمان ، بل يعتنقه أولئك الذين في قلوبهم إيمان حقيقي ، يتحملون كل مظاهر الاضطهاد والتعذيب بقوة إيمانهم ، ويهرب من الحلقة ضعاف الإيمان والمافقون ؛ لأن هؤلاء لو كانوا ضمن المسلمين الأوائل ، لصاعب قصية الدين تماماً . ولكن الإسلام الذي شاء الله له أن يبدأ في مكة ، لم يجعل الله له النصر من مكة .. ولكنه جعل له النصر من المدينة لماذا ؟ لأن قريشاً لو وجدت واحداً منها انتصرت دعوتها ، فإنهم سيحتضونه ويحتونونه ليسودوا به الدنيا ، وحينئذ يكونون قوماً قد تعصبوا لواحد منهم ؛ لتظل لهم السيادة ، ويكون اعتناق الإسلام نفاقاً وليس إيماناً حقيقياً ؛ ولذلك جعل الله انتصار الإسلام من المدينة ؛ ليعلم الناس جميعاً أن العصية محمد ﷺ لم تحلق الإيمان برسالة محمد عليه الصلاة والسلام . ولكن الإيمان برسالة محمد ﷺ هو الذي خلق الثمرة لمحمد ﷺ ، وفي هذه الحالة كان لا بد أن تكون هناك مواجهة شرسة بين حملة الإيمان ، وبين رعوس الكفر ، وهذه المواجهة أخذت عدة مراحل : المرحلة الأولى : كانت الدعوة للإيمان ، والدعوة إلى المؤاخاة ، والدعوة إلى المساواة ،

= المعش قرب مكة ، ثم أرسل أبرهة رجلاً من الحيشة ، ليعبر عن الأمكنة القريبة ، فساق إليه أموال قريش ومها مائتا بعير لعبد المطلب بن هاشم ، ثم بعث حاطة الحميري إلى مكة ، ليأتيه به سيد هذا البلد وشرهم ، ليخبره أنه لم يأت خربهم وإنما أتى لأهدم البيت .

ويقال إن عبد المطلب أقبل على أبرهة ، فلما رآه نزل من سريه وقتل ما حاجته ؟ فطلب إليه ، فلما طلب عبد المطلب الجمال سقط من عن أبرهة رقاب له . جئت لأهدم البيت الذي هو دين آبائك وشرمك ، فإلهك يهلك عنه ؟ فقال عبد المطلب : أما رب الإبل ، ولليت رب حميمه .

ثم رجع عبد المطلب وأخبر قومه بضرورة الخروج من مكة والتحصن والتحرر في الجبال ، وذهب هو إلى البيت يدعو واليخ في الدعاء ، وعياً أبرهة جيشه وقدم الفيل « محمود » ، فكانوا كنساً وجهوه إلى جهة البيت برك ولم يرح ، وإذا وجهوه وجهة أخرى أسرع وهروا .

وفي اليوم الثاني أرسل الله عز وجل جنده بحجارة من سجيل عن جند أعدائه ، فتنازلهم وتسايط . وملكوا في كل طريق وهرب ، وحفظ الله بيته وحمل حرمه . والله أعلم . « تيسير التفسير » (سورة الفيل)

وعدم مقابلة التعذيب والقتل بالعنف ، وهذه البداية جعلت قريشاً تستهين بالمؤمنين ، وظنوا أنهم قادرون عليهم ، فلما وجدوا الدعوة تقوى رغم كل ما تواجهه من مراحل التعذيب والبطش ، ازدادوا تنكياً بالمؤمنين ، وبدأ المؤمنون يبحثون عن يحميهم ويستجبرون به ، ولم يبق في الإسلام إلا من ملأ قلبه حب الله ورسوله ، فاستهان بالاضطهاد والقتل والتشريد ، وهؤلاء هم المؤمنون حقاً الذين حملوا الدعوة بعد ذلك إلى الدنيا كلها .

ثم بدأت المرحلة الثانية : حين حاول الكفار أن يستميلوا المؤمنين بالحيلة ، بعد أن فشلت القوة والبطش والإرهاب ، فقالوا : نعيد إليكم فترة وتعبدون آلهتنا فترة ، وهذا أنزل الحق سبحانه وتعالى قوله الحق : ﴿ قُلْ بَنَاتِنَا الْكَافِرُونَ ۝ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ لَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ۝ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝ ﴾ [الكافرون : ١-٦] ، وكان هذا إعلاناً بأنه لا مهادنة ولا حلول وسط بين الكفر والإيمان ، وكان الهى هنا في هذه الآيات الكريمة يشمل الحاضر والمستقبل ، وهكذا فشلت المرحلة الثانية من المواجهة بين الكفر والإيمان .

موقف قريش من الدعوة

أول ما أعلن رسول الله ﷺ دعوته كانت في مكة .. أعسها في وجه الجبابرة ، وأقرباء الجزيرة العربية كلها . ولو أن رسول الله ﷺ بدأ دعوته في قبيلة ضعيفة خارج مكة ، لقالوا : استضعفهم . أو لقالوا : يريدون به السيادة ، أى أنهم كقبيلة مستضعفة لم يأخذوا رسالة رسول الله ﷺ إيماناً ، ولكنهم أخذوها نفاقاً ، ليسودوا بها الجزيرة العربية . ولكن الرسالة جاءت في مكة ، وأول من سمعها هم سادة قريش ؛ لتأتى في مركز السيادة ويكون المراد بها هو الحق ، وإعلاؤها في وجه سادة الجزيرة العربية ، وكان للمركة بين سادة قريش والإسلام ، ولكن هل امتد الإسلام وانتشر من مكة ؟ لا ، بل كانت الهجرة إلى المدينة ، ومن هناك امتد الإسلام إذن . فالإسلام بدأ من مكان السيادة في الجزيرة العربية ، ولكنه انتشر في مكان لا سيادة فيه .. لماذا ؟ لأن الإسلام لو انتشر من مكة ، لقالوا قوم ألقوا السيادة على الناس ، وتعصبوا لواحد منهم ؛ ليمدوا سيادتهم من الجزيرة العربية إلى أماكن أخرى في العالم ، ولكن انصر جاء من المدينة لتعلم الدنيا كلها أن الإيمان بمحمد هو الذى خلق البصرة لمحمد ﷺ ، ولم يخلق العصبية لرسول الله أنه من قريش ، أو أنه من قبيلة اعتادت سيادة الجزيرة العربية .

العصبية للحق

في عصر الرسالة كان العالم معسكرين ؛ معسكر في الشرق وهو فارس ، ومعسكر في الغرب وهو الروم ، فارس يكرون وجود الله ويعبدون النار ، وروم أهل كتاب يعبدون الله ، فلما وقعت المعركة بين فارس والروم ، أتدرون لمن انحاز المؤمنون ؟ انحازوا للروم ؛ لأنهم أهل كتاب يؤمنون بالله وإن كانوا كافرين بالنبى ﷺ ؛ لذلك حزن المؤمنون حينما تغيب العرس على الروم وهزمهم ، فأزل الله تعالى عسى رسوله ﷺ أن الروم سينتصرون في المعركة القادمة وسيهزمون الفرس .

فقال تعالى : ﴿الَّذِينَ هُتِفُوا لِرُؤْمٍ فِي الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَكِينٌ﴾ [١] في يضع بينك الله الأمر من قتل زين بعد يومين يفرح المؤمنون ﴿٢﴾ ينصر الله [الروم : ١ - ٥] . مع أنهم لم يكونوا مؤمنين بمحمد ﷺ ولكنهم مؤمنون برب محمد ﷺ .

وانظر إلى حكمة الحق سبحانه وهو يُحسر رسوله بنتيجة معركة لم تبدأ بعد ، وبحسم نتيجتها مع أنها ستقع بعد بضع سنين ، بهذا شيء لا يقدر عليه إلا رب يعلم ما هو قاض وما قتر على عباده ، وما هو كائن وما سيكون في الكون .

وهذه الأحجار التي عبدها الكفار من دون الله ، هي معبودات لا أوامر لها ولا تكاليف . ومع ذلك ادعوا أنهم يعبدونها مع أن العبادة تكليف ؛ فبأي شيء كلفتهم هذه لأحجار ؟ لم تكلفهم بشيء ؛ ولذلك عبدوا هذه الآلهة المزعومة التي بدون تكاليف وليس عندها ثواب أو عقاب .

هذه الأحجار التي عبدوها تكرههم وتلمهم ، وهي الآخرة ستكون وقود النار الذي يحرق به الكافرون ؛ ولذلك غار حراء لما كان النبي ﷺ يحلو فيه إلى نفسه يعبد الله على دين إبراهيم ﷺ ، فكل أحجار الأرض حسنت غار حراء على هذا الشرف العظيم أن يأوى إليه نبي آخر الزمان ﷺ ، فلما كانت الهجرة اختبأ النبي في غار ثور ، فشمّر هذا الغار بالفخار .

ما لاقاه النبي ﷺ من أدى في سبيل الدعوة

الحق تبارك وتعالى يقول : ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا يَنْجِدُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا أَهْدَا الْآيَاتِ يَذْكُرُ إِلَهَهُمْ وَاللَّهُ يَكْفُرُ عَنْ قَوْلِهِمْ كَيْفَ هُمْ كَاذِبُونَ﴾ [الأنبياء : ٣٦] . هذا كلام لرسول الله ﷺ عن واقع حدث له مع الكفار ، وحرف ﴿إِنَّ﴾ هنا بمعنى النفي ، وهي تأتي أحيانا شرطية وأحيانا للنفي ، والمعنى هنا : حين يراك الكفار يا محمد ما يتخذونك إلا هروا ، أى ساعة يرونك يسخرون منك ويهرعون بك ، ويقولون : أهدا هر الرجل الذي يعيب آلهتهم ، ويقول إنها باطلة ولا تنفع ولا تضر . فهم غاصبون من الرسول ﷺ ؛ لأنه يسب آلهتهم الباطلة ، مع أنهم يسبون الإله الحق ويكفرون به .

الله سبحانه وتعالى يخبر رسوله أنه لبس أول رسول يتعرض للاستهزاء من قومه ، يقول تعالى : ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَآتَلَيْتَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرعد ٣٦] استهزئ : أى طلب من الغير أن يستهزئ به ، فهدى إلى الضلالة . إدن فسيوء برأئمه واثم غيره .

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعنى لست بذعاً أن يقف الناس منك هذا الموقف ، واحد مثلاً ينظر كيف يمشى النبي ﷺ ، والنبي كان يمشى كأنما يحذر من صيب .. يعنى مثلاً يكون نارلاً من مكان عالٍ ، وبصره في الأرض دائماً ، فالناس تعودت على مشى النبي ﷺ والنبي مطمئن لنعمة ربه فيسير هكذا .

فيأتي الحسن بن مروان يقلد النبي في مشيه ، ولما رآه النبي ﷺ يفعل ذلك قال ما معاه : « كن على هذا » . فبقيت مشيته على هذا ، ثم نفاه إلى الطائف ، فلما نفاه إلى الطائف رعى الغنم . وبعد ذلك لم يعف عنه النبي ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر ، حتى جاء عثمان ، فشهد وقال : والله لقد استأذنت رسول الله ﷺ فيه ، فقال لى « إن قدرت أن تعمل فافعل » . فلما فوصت أى أخذت تفويضاً من النبي ، وأنا لا أعش نفسى ، وقد قدر رضى الله تعالى عنه بتوليته الخلافة فأعاد الحسن بن مروان .

وتروى كتب التاريخ أن ابن الوليد بن عبد الملك وولد من أبه يزيد بن معاوية - أحو خالد - وكان اسمه عبد الله ، كان لهما خيل تتسابق وكادت خيل عبد الله تسبق خيل الوليد ، فقام

أنصار الوليد يوصع عراقيل في طريق حيل عبد الله لتثبته ، ولما فهم عبد الله الخدعة اتهم الوليد وأنصاره بالعرش والخداع واشتد الخلاف بينهما ، وسب الوليد عبد الله أخا خالد ، يذهب خالد أخو عبد الله إلى عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين ، وقال له يا أمير المؤمنين ، إن الوليد سب أخى وفعل معه كذا وكذا .

فقال له الأمير : أتكلمنى فى عبد الله .

قال : نعم .

قال : لقد دخل على آتفا فما أقام لسانه من اللحن ، يعنى . لا يعرف أن يتكلم فرد عليه وقال : والله لقد أعجبتى فصاحة الوليد - الوليد ابنه - وكان أيضا لا يعرف أن يتكلم .

فقال له : إن يكى الوليد يلحن ، فإن أخاه سليمان لا يلحن ، قال : وإن كان عبد الله يلحن فإن أخاه خالد لا يلحن ، فرد عليه وقال : اسكت يا هذا ، فليست فى العير ولا فى النعير .

هذا مثل نقوله الآن ، لأن قريشا كانت لها العير الآتية بالبضاعة من الشام وعليها أبو سفيان ، والنعير^(١) الذى نفر لينقذ البضاعة من النبی فى معركة بدر فسيء جاء مع النعير وسيد جاء مع أبي سفيان صاحب العير ، وجدى عتبة صاحب النعير يعنى السيادة لى من الأب والأم . ولكن لو قلت - شويهاات وعيميات ودكرت الطائف ، ورحم الله عثمان كان أولى ، يعنى لو تذكرت الشويهاات التى كان يرعاها جدك فى الطائف ، التى نفى فيها ولم يقدر به أن يعود ، وذكر عثمان الذى فك أسره وأتى به ، لكان أولى من هذا الكلام .

فالشاهد أن المستهزئين كان كل مهما يخاف أن يستهزئ بآخر ﴿ إِنَّا كُنَّا مِنَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾^(٢) [الحجر : ٩٥] سيتولى الله عنك عقابهم .. ﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِنا مِنْ قَبْلِكَ ﴾ [الرعد : ٣٢] فلك أسوة فيمن سبقوك من الأسياء فلقد استهزأت أممهم بهم ، ولكن العاقبة لك كما كانت لهم .

(١) النعير اجماعة من الناس كالنعير ، والمجمع من كل ذلك أنفلر ونعير قريش الذين كانوا يغزوا إلى بدر ليمتصروا عير أبي سفيان . « لسان العرب » (٥ / ٥٢٢) .

(٢) سبب نزول الآية أن الوليد بن المغيرة ، والأسود بن عبد يغوث الزهرى ، والأسود بن المطلب أبو ربيعة - من -

أعداء الرسل والرسالات

يقول ربنا عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَاطِئِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢]. الحق سبحانه وتعالى يعطى الرسول الأسوة بالرسل السابقين له فى موكب الرسالات. ويقول له: إنك لست بدعاً^(١) فى أن تواجه بأعداء، فكل رسول من الرسل ووجه بهؤلاء الأعداء. ولكن هل استطاع هؤلاء الأعداء منع الرسل من الدعوة؟ هل أثروا فيهم فتركوا الدعوة؟ أم أنهم ظلوا صامدين فى دعوتهم حتى أتاهم نصر الله؟ فإذا كنت أنت خاتم الرسل وسيد المرسلين والمعقب على رسالات من قبلك، ولا معقب على رسالتك، فلا بد أن يكون أعداؤك ماسسين لمهمتك فى شدتهم وفى ضراوتهم وفى عدائهم للدعوة. ولكن هذه العداوة لن تؤثر فى دعوتك ولن توقفها، بل إن هذه العداوة لصالح الدعوة، وهى لصالح رسالتك. كيف يكون ذلك؟ لأن الإنسان لا يهيج فى نفسه منهج الخير إلا إذا أهاجه شر؛ ولذلك لا نجد الصحوات الإيمانية إلا حيسا يصادف المؤمنون تحديا من خصومهم، حينئذ تحدث الصخرة الإيمانية. فالدين طالما ترك يؤدى مهمته، ثم ذلك يهدوء ويسر. وإذا جاء خصوم الدين ليطمعوا الدين، وجدت حتى صعاب الإيمان يشتعل الإيمان فى قلوبهم ويهيون للدفاع عن دينهم. فالعدوة تمضى هادئة مادام ليس هناك تحد. فإذا حدث التحدى من خصوم الإسلام لأى قضية دينية، تجد حتى غير الملتزم بالمنهج يقوم ويهيج ويتحمس، إذن فالعدوة لها فائدة فى أنها تهيج الإيمان، والشر له رسالة؛ لأنه لولا الشر وما يصيب الإنسان من أذاه ما كان الناس يتحمسون للخير.

= بنى أسد بن عبد العزى، وأغارث بن عيطل السهمي، والعاص بن وائل، كانوا يستهزئون برسول الله ﷺ فشكاهم إلى جبريل، فعاقبهم الله فى أبدانهم عقوبات شديدة، لكن الرواية لم تثبت من طريق صحيحة. «السيرة النبوية الصحيحة» (٢٥١/١).

(١) يدع الشيء يدعه بلذًا وابتدعه أنشأه وسأه. والبديع والبدع - الشيء الذي يكون أولاً، وفي التنزيل ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّن الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩] أي: ما كنت أول من أرسل، قد أرسل قبلي رسل كثيرة. «لسان العرب» (٦/٨).

إذن .. فقول الحق: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا قَمَلُوا مَذَرَهُمْ وَمَا يَفْقَرُونَ﴾ [الأعراف ١١٢] الحق سبحانه وتعالى جعل للأنبياء أعداء حتى يستيقظ الدين في نفوس المؤمنين؛ لأن التعرض للإيمان والعقيدة أكثر ما يهيج الإيمان في نفوس المؤمنين؛ إن الدين يظل هادئاً في النفوس حتى يتعرض له الأعداء، فتجد الإيمان قد استيقظ حتى في نفوس صعاف الإيمان الذين لا يؤدرون حق مهج الله على التمام. تجدهم قد تحمسوا واطلقوا لنصرة الدين، ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾، أي أن هذه المسألة لم تحدث خارج قدر الله، ولكنها حدثت بما أودع الله في الناس وأعطاهم حث الاختيار؛ وماداموا مختارين، فالذي احتار الهدى يكون نصيراً للأنبياء. والذي اختار الضلال يكون عدوًّا للأنبياء.

وكلمة «عدوا» في ظاهرها أنها مفرد، ولكنها مفرد يطلق على الواحد وعلى الاثنين، وعلى الجماعة، وعلى المؤنث وعلى المذكر، فتقول: هذا عدو لي، وتقول: هذه عدو لي. ولا تقل عدوة لي. وتقول: هذا عدو لي. ولا تقل عدوان. وتقول: هاتان عدو لي. ولا تقل عدوتين، وتقول هؤلاء عدو لي. ولا تقل: أعداء؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَاتَّبَعْتُمُ عَدُوًّا لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [النساء ٧٧].

ويقول جل جلاله: ﴿أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوًّا﴾ [البقرة: ٢٦] هنا ذكر الله سبحانه وتعالى كلمة «عدو»؛ لأن أعداء الرسل كتبهم يجمعهم هدف واحد أو سبب واحد هو العبادة لسين الله.

تعنت الكافرين والمشركين وطلبهم للآيات

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ إِنْ جَاءَتْهُمْ بَايَةٌ لِيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشِيرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١١٩] أقسموا بالله .. إذن هناك قسم ، وهناك منقسم به ، وهناك منقسم عليه . المنقسم به هو الله سبحانه وتعالى . ومعنى : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ﴾ أى قالوا : والله ! ، والمنقسم هو الجماعة المخالفون لرسول الله ﷺ ، لماذا يقسمون ؟ الإنسان عادة يقسم فيما يكون غير مصدق ، أو حين يُغلب في الجدل ، فيقسم حتى يصدقه الناس . وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ﴾ تستحق وقفه .. فما دمت قد أقسمتم بالله الذى تدعوكم للإيمان به ، تكونون قد اقتربت منى ، لأنك لا تقسم إلا بمعظم . وما دمت قد أقسمت بالله يكون الله عظيما فى نفسك وقلبك . ولكن القول لم يتوقف عند القسم فقط ، بل جهد أيمانهم ، والجهد هو المشقة ، والجهد هو الطاقة .

إذن .. فقد بالغوا فى القسم بمبالغة تجهدهم . والإجهاد فى القسم هو أن تعلن أنك حريص على أن تبر بالقسم وتوفيه ، وتؤكد هذا تماما حتى يشعر الجميع أنك محليص فى قسمك . وإفراغ الجهد والمشقة فى القسم معناه أنك تقسم قسما محبوبا لك ، وأن تنعبد هذا القسم محبوب لك أكثر .

على ماذا أقسموا ؟ ﴿لِيُنْجِيَهُمْ مِّنْ يَدَيْهِمْ يُؤْمِنُوا بِهِ﴾ ، ألم تكفهم آيات القرآن الكريم التى جاءت ؟ وصدق رسول الله فى التبليغ عن الله ؟ ولكنهم لا يريدون هذا ، إن الآيات أمامهم إذا أرادوا أن يؤموا ، ولكنهم يريدون أن يقترحوا الآيات على الله . ألم يقولوا : ﴿لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنُورًا ۖ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ جَهَنَّمَ ۚ وَنُصِيبَ فَتَنِيَرِ الْأَنْهَارِ ۖ خَلَقْنَا تَقْوِيمًا ۝١١ أَوْ نَسْفُطَ السَّمَاءَ كَمَا رَفَعْتَ هَٰذَا يَسْفًا ۖ أَوْ تَأْتَىٰ بِنَا إِلَهُ الْمَلَائِكَةِ فَبِئْسَ مَا ۝١٢﴾ [الإسراء ٩٠ - ٩٢] والزعم هو مطية الكذب . وهذا أول خلل فى القسم . وكانهم قد قالوا : نحن لن نؤمن بالآية الأصلية وهى القرآن ، ولكننا نتحدثك فى أن تنزل علينا هذه الآيات التى نطلبها . والله سبحانه وتعالى الذى يعلم سرهم وجهرهم ، يعرف أن كل هذا من المجادلة والكبر ، وأنهم لن يؤمنوا مهما جاءهم من الآيات

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَابِينَ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الأنعام : ٧] . ويقول الحق جل جلاله : ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَنْفُسُنَا بَلْ هُمْ قَوْمٌ مَّشْحُورُونَ﴾ [الحجر : ١٤ ، ١٥] وسواء أن المسحور لا يملك حيلة مع الساحر ، وإنما تكون إرادته ورؤيته تبعاً لإرادة ورؤية من سحره .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَأَنقَسُوا بِأَلْسِنِهِمْ أَنِ إِنَّا كُنَّا بِمَا نَعْمُهُمْ إِتْوَينَ رَبَّهُمْ﴾ [الأنعام : ١٠٩] . إن الحق سبحانه وتعالى ذكر لنا كل ما قالوه عن مطالبتهم لرسول الله ﷺ بأن يأتيهم بآية . ولكنهم لم يلتفتوا إلى أعظم الآيات التي نزلت على رسول الله ﷺ ، وهي القرآن الكريم ، والمعجزات التي تضمنها القرآن ، وقد جاء القرآن ليتحداهم فيما نبعوا فيه ، لقد كانوا أمة نحو وصرف وبلاغة وبيان وأدب ، وجاء القرآن إعجازاً في هذا ، وتحداهم الله سبحانه وتعالى أن يأتيوا بآية من مثله فمجزوا .

والله سبحانه وتعالى حين يرسل الرسل ويؤيدهم بالمعجزات ، تأتي المعجزات من جنس ما تفوق فيه قوم الرسول .

ذلك أن التحدى لا يأتي إلا فيما ينبغ فيه الناس ، فإذا أردت أن تتحدى في العلم مثلاً ، فإنك لا تتحدى جامعاً لا يقرأ ولا يكتب ، ولكنك تتحدى أكبر العلماء وأبرعهم .

وإذا أردت أن تتحدى في قوانين الفضاء فإنك لا تأتي إلى أمه لم تطلق صاروخاً واحداً ، ولكنك تتحدى أمة وصلت بأبحاثها إلى القمر أو تجاوزت هذا

هكذا يكون التحدى معجزة نبغ فيها القوم ، بحيث لا يكون ذلك مسألة سهلة ، بل يكون تحدياً معجزاً أصلاً .

والمعجزة تأتي محرقاً لنواميس الكون .. لماذا ؟ لأن نواميس الكون ألفتها الناس وهي تحكمهم ولا يحكمونها ، ومن هنا فإنهم لا يستطيعون السيطرة عليها أو تعبيرها أو إيصالها ، فالنار مثلاً بامرئها الكوني الإحراق فلا يستطيع أحد أن يجلس وسط النار ولا يحترق ، والماء مثلاً بامرئها الاستطراق فلا يستطيع أحد أن يأتي ويشق البحر . وقوانين الأسباب أن الذي يموت لا يعود إلى الدنيا إلا عند قيام الساعة ، ولا أحد يستطيع أن يحيى الموتى إلا أن يحييهم

الله ، هذه القوايب هي أكبر من قدرة الإنسان ، فلا يستطيع إنسان مهما بلغ من العلم أن يُخضعها لما يريد ، فإذا تحدّاه الإنسان أهلكته

والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفت الناس إلى صدق بلاغ الرسول عن الله ؛ فلذلك فهو يحرق له نواويس الحياة ، وهو شيء لا يقدر عليه إلا خالق هذه النواويس ، حتى يصدق بعد أن نرى هذه المعجزات أن هذا الرسول يبلغ عن الله صدقاً وحققاً ، وأن الذي خلق نواويس الكون قد حرقها لرسوله ، ولم يخرقها لأحد غيره .

وقد جاءت معجزات الرسل كلها خرقاً لنواويس فيما نبغ فيه أقوام هؤلاء الرسل ؛ وكان قوم عيسى متعوقين في الطب ، لذلك كانت معجزاته إبراء الأكمه والأبرص ، وإحياء الموتى بإذن الله .

ونبغ قوم موسى في السحر ، فجاء بهم موسى بما يبطل سحرهم . وكان العرب متفوقين في البلاغة والأداء والبيان فجاءتهم معجزة القرآن الكريم من جنس ما تعرفوا فيه .

ولكنهم لم يقتنعوا بالمعجزة ، بل اقترحوا . قالوا : ﴿لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْعَرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ [الإسراء : ٩٠] . وسوا أنه بقليل من العزم يمكن أن يكشف الإنسان أماكن الينابيع في الأرض ويحصر فتتصجر المياه ، وقالوا : ﴿أَوْ تَكُونُ لَكَ جَسَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَعَشَبٍ﴾ [الإسراء : ٩١] . ونسوا أن هناك بشرًا يملكون جئات فيها النخيل والأعناب .

وقالوا : ﴿أَوْ يَكُونُ لَكَ يَنْبُوتٌ مِنْ زُرْعٍ﴾ [الإسراء : ٩٣] . وسوا أن أي إنسان لديه المال وسعة الرق ، يستطيع أن يملك بيتا من زحف .

وقالوا : ﴿أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ﴾ [الإسراء : ٩٣] وكان هذا تحديا لا يملكونه ، فهم لم يسخروا في الرقى في السماء ، حتى يأتي الله لهم بمعجزة من جنس ما نبعوا فيه .

والله لا يتحدى بالمعجزة إلا فيما نبغ فيه القوم ؛ ليكون هذا التحدى مؤثرا وقويا ودامعا ؛ لأن ما نبعوا فيه هم أقدر الناس على فهمه ؛ ولذلك فعندما تأتي المعجزة يكونون أكثر الناس فهما لمذلولها فتعزهم بموة .

ولكن إذا أتت بالمعجزة فيما لا يسخ القوم فيه ، ربما تكون نوعا من الخداع استعمالا لجهلهم

بالعلم ، وفي هذه الحالة لا يستطيعون أن يكشفوا هذا الخداع ، وهم إما أن يستقلوا فيه ، فيعتقدوا أنه معجزة وهو ليس بمعجزة ، أو لا يهتمونه فلا تؤثر المعجزة فيهم .

وقالوا أيضا ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام : ٨] . وهذا دليل على جهلهم ، ذلك أنه لو أنزل الله ملكا فلن يراه البشر ؛ لأن طبيعة تكوين الملك أنه يرى البشر وهم لا يرونه . إذن .. فلو أنزل الله ملكا لما روه ، وفي هذه الحالة لن يعرفوا أنه ملك ، وسيقولون هذا بشر . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسَ عَلَيْهِ مِمَّا يَلْبَسُونَ﴾ [الأنعام : ٩] .

إذن .. فهذه المعجزة لو حدثت فلي ينتبه أحد إليها ، ولقد نزل جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ عدة مرات ، وتكلم معه أمام القوم ، فهل نزل بطبيعة تكوينه ؟ لا .. بل نزل بطبيعة البشر ، فكان على هيئة رجل جاء من السفر . فلو تشكل الملك بطبيعة البشر ما عرفه أحد . والملائكة والجن قادرون على التشكل ، ونحن بقوانيننا لا نستطيع أن نرى الجن وهو يرانا ، ولكن عندما يريد أن يراها نفسه يتشكل بشكل مادي على صورة رجل أو حيوان ، ولو أن هذه المسألة غير مقيدة بقوانين تحفظ التوازن بين الإنس والجن ؛ لاستطاع الجن تشكله أن يوجد فرعا رهيبا في حياة البشر ؛ ولذلك فإن الجنة تخاف أن تتشكل بشكل مادي أكثر مما نخاف نحن منهم ؛ وهم على هذه الصورة المادية .. لماذا ؟ لأن الجن يعرف أنه إذا تشكل حكمته القوانين المادية ، فإذا تشكل جسي في صورة إنسان وأطلقت أنت عليه النار قتله ، فالجن يخاف أن يتشكل في صورة مادية حتى لا يصيبه الأذى ؛ ولذلك فهو إذا ظهر في أى صورة مادية كان ذلك كوميض البرق ، ثم يختفى قبل أن تنتبه أنت له وتتعامس معه في صورته المادية ، وهذا بقاء لتوازن في الكون . فلو أن الجنة تستطيع أن تبقى هي شكلها المادي ولا تخضع لقوانين المادة ؛ لآثارت الفزع في الدنيا كلها ، ولأنت بأعمال رهيبة ، ونحن لا نستطيع أن نفعل لها شيئا ؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ ما معناه : إن الجن تشكل لى ، وقد همت أن أربطه بسارية المسجد . أى يعمود المسجد ، حتى يشاهده صبيان المدينة . واجن عندما يتشكل يترك قانونه ويصبح خاصصا لقانون البشر .

إذن .. فقولهم : ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام : ٨] هي جهل بالطلب ؛ لأنه لو نزل

الملك على طبيعته من يروه ، ولو جاء على هيئة بشر لقالوا : إنه رجل مثلنا . والذي لابد أن نتنبه إليه أنه إذا اقترح قوم آية على الله ، وجاء الله لهم بهذه الآية فكذبوا بها ، فإن الله يأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، ولا يؤجل عذابهم إلى الآخرة ، بل يعذبهم في الدنيا . ولما كان الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَمَا كَكَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال ٣٣] . فلم يحقق لهم هذا العذاب ، وكان من الممكن أن يزل عليهم الملك في صورة بشر فيكذبوا به فيصيبهم العذاب في التور والسحطة ، ولكن رسول الله ﷺ أرسل رحمة للعالمين ؛ ولأن هذه الرحمة نصيب المؤمنين والكافر ، فإن الله سبحانه وتعالى لم يحقق لهم ما طلبوه .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمِينِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ . وهذا يريد الله سبحانه وتعالى أن يلفتهم إلى رحمته بهم رغم معادلتهم في الإيمان - فيقول : ﴿ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ . أي أن الله سبحانه وتعالى هو الذي ينزل الآيات ، وكان من الممكن أن يرلها بقدرته فهو سبحانه القادر على ذلك ، أما قانون قدرة رسول الله ﷺ فإنه مساو لقانون قدرات البشر ، إلا فيما ميزه الله سبحانه وتعالى به بالوحى في أمر الرسالة ، إذن فالتحدى بينهم وبين رسول الله ﷺ لا ينفع ؛ لأن الآيات عند الله وهو الذي يرلها ، والله سبحانه وتعالى يعلم أن في الاستجابة لهذا التحدى عذابا وإهلاكا لأولئك الذين يسألونه .. لماذا ؟ لأننا لو تأملنا المروس المستفادة من الرسائل السابقة لوجدنا فيها الإجابة .

الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَمَا مَعْنَا أَنْ تَرْبِيعَ الْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾ [الإسراء ٥٩] أي أن الكفار في الرسائل السابقة طلبوا آيات فاستجاب الله لهم . ولكن عندما رأوا الآية كذبوا بها ، أي أن الآيات لم تثبت الإيمان في قلوبهم ، بل عجلت بعذاب الله لهم ؛ إذن فالتكذيب هو الأصل بالنسبة لهم ، سواء جاءت الآيات أم لم تأت .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ الخطاب هنا ليس للكفار ، بل لابد أن يكون للمؤمنين فكان المؤمنين حينما أقسم الكفار أنه إذا جاءتهم آية يؤمنون بها .. أراد المؤمنون أن يدخلوا الكفار إلى الإيمان ، فسألوا رسول الله ﷺ أن يسأل ربه أن يرل عليهم آية ، وهنا يرد الحق سبحانه وتعالى على سؤال المؤمنين ، وكأنه يقول لهم : أنتم مؤمنون ، قلوبكم طيبة ، وقلوبكم حسنة .. تريدون أن يعبدى هؤلاء الناس إلى الإيمان . ولكن .. ﴿ وَمَا

يَتَّبِعُكُمْ). أى ما يعلمكم أنه ﴿إِذَا جَاءَتْ﴾ الآيات التى اقترحوها فإنهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ويقول الحق سبحانه وتعالى . ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ الْفُرِّ﴾ [الأنعام : ١٢٤] .

وهذا حدث من الوليد بن المغيرة ، الوليد كان أكبر سنا من رسول الله ، وكان أكثر مالا وأكثر ولدا ، ولذلك عندما جاءت الرسالة قال إذا كانت هناك رسالة من الله فأنا أولى بها ، لأننى أكبر سنا ، وأكثر مالا وولدا . قاسها بمقاييس البشر التى لا وزن لها عند الحق سبحانه وتعالى .

ليس القرب من الله بالمال ولا بالولد ولا بالجه والسطة ، ولكن الناس جميعا متساوون عند الله وأقربهم هو أتقاهم ، ومازل الدنيا لا علاقة لها بالآخرة ، ويعرض القرآن الكريم هذه القضية فيقول : ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف : ٣١] واسمع إلى العليم الحكيم إذ يقول ﴿أَمَرُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ حَتَّىٰ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّوْعِدَتَهُمْ فِي الْخَيْفِ الذِّيَّانِ﴾ [الزخرف : ٣٢] أى . أن هؤلاء الكفار يريدون أن يقولوا لله أيس ينزل رحمته ؟ مع أن الله سبحانه وتعالى هو الذى قسم بينهم حياتهم ومعايشهم ، فأعطى المال لهذا ، وأعطى الولد لهذا ، وأعطى العلم لهذا . قال أبو جهل عندما جاءوا اليكسوة فى أمر الرسالة : راحنا بو عبد مناف فى الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، كسوا فكسونا ، دبحوا فدبحنا ، حتى صرنا كغرسى رهان ، قالوا : منا نبي يوحى إليه ، والله لا تتبعه ولا تؤمن به ، حتى نؤتى مثل ما أوتى من الوحي .

وهكذا نقل أبو جهل أمر الرسالة إلى سباق الدنيا ، وأحله بروع الكبر ، وليس بفكر العقل . والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفت إلى أن كل هذا الصراع هو من أجل جاء الدنيا ، وليس له علاقة بالحق أو بمهجة الله أو بالوصول إلى رضا الله .

ولذلك يقول تبارك وتعالى ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ [الأنعام : ١٢٤] فكأن الآية بلغ من وضوحها ، ومن كمالها ، ومن دلائلها ومن خصوصيتها . أنها عندما تأتى يعرف الجميع أنها آية من الله لشدة وضوحها ، ولكسهم بدل أن يؤمنوا ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ [الأنعام : ٢٤] . ويرد الحق سبحانه وتعالى عليهم أنهم لا تعلمون الله ، ولكن الله هو

الذى يعلمكم ﴿أَفَلَا أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام ١٢٤] لماذا؟ لأن الرسالة جاءت لتعطي الخير لجميع، ولكنها تعف نفسها عن آثار ذلك الخير، فمنهج الله يعطي الخير لكل من اتبعه؛ لأن الله عسى عن العالين، يسما المناهج البشرية تأتي لتأخذ الخير لصاحبها أولاً، فالذي يضع قانوناً أو منهجاً بشرياً يريد العائدة الكبرى له أو لصاحبه، والباقي يذهب للناس، فإذا كان الله سبحانه وتعالى غنى عن العالمين لا يريد من خلقه شيئاً، فهو وحده الذي لا هوى له ولا غرض له.

ولذلك يجد رسول الله ﷺ، وهو النبي والقائد والحاكم يموت ودرعه مرهونة عند يهودى، أى أنه لا يريد من الدنيا شيئاً، ولم يأخذ من الدنيا شيئاً. وأهل رسول الله ﷺ لا يأخذون من الزكاة ولو كانوا فقراء، وإذا ترك الرسول شيئاً فهو صدقة لا يورث.

وهكذا لا ينتفع الرسول ولا أهله من الرسالة بجاه دنيوى، وبذلك لا يكون له فائدة شخصية أو منفعة ذاتية من الرسالة، أما الذى يريد الدنيا فإن هوى النفس يملأ صدره، ويتعذ به عن الحق إلى الظلم حتى يأخذ ويأخذ ويأخذ.

إذن .. فالحق سبحانه وتعالى أعلم بمن يحمل رسالته؛ لأن اختيار الله إنما يكون عن حكمة وعلم وليس عن هوى.

ولذلك حينما جاء رسول الله ﷺ فى بيعة العقبة وقال له الأنصار: اشترط لنفسك .. قال عليه الصلاة والسلام: «تعموى مما تمعون منه أنفسكم . . .» وتفعلون كذا وكذا وكذا. فقال له الأنصار: أنت اشترطت لنفسك . بما لنا إن نحن وفيها، أى ماذا سأأخذ إن نحن وفيها وأدينها ما اشترطته علينا؟

ماذا قال رسول الله ﷺ؟ هل قال لهم ستمدكون الدنيا، أو سيكون عند كل واحد منكم مال وهر أو ضيعة كبيرة؟، لم يقل ﷺ هذا، ولكنه قال: «لكم الجنة». هذا هو الثمن الذى ستأخذونه للإيمان، أما الذى يريد غير الجنة فحسن لا نملك شيئاً.

ولكن لماذا لم يشرهم رسول الله ﷺ بالخير القادم لهم فى الدنيا؟ لأن من هؤلاء الذين يابغوه من قد لا يدرك خيراً فى الدنيا، فمهم من سيموت والإسلام مارل صحيحاً، والإسلام مارل محاصراً، والإسلام مارل مضطهداً، ومهم من سيموت شهيداً ولى يترك شيئاً فى

الدنيا ، ولكن المضمون لهم جميعا هو الجنة . هذه واحدة .

والثانية : أن الدنيا أهون من أن تكون جزاء على العمل الصالح ، فالعمل الصالح لا يكون جزاؤه وثيقا ، ولا يكون بهذه القيم المتواضعة في النعم ، ولكن لابد أن يكون جزاء خالد لا يذهب ولا يفسد ، وأن يكون بقدرته الله سبحانه وتعالى ، فتكون فيه من النعم مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

الحق تبارك وتعالى يقول : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَفْعُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴾ [الإسراء ٩٠] . ولما تأييد النفي . ومضى تأييد النفي أن النفي ثابت في الماضي وثابت في الحاضر ويريد أن يجعله ثابتا في المستقبل ، وهذه كلمة لا يقدر عليها إلا من يملك الأحداث ، إنما صاحب التغيرات لا يستطيع أن يصمم تحقيقها ؛ ولذلك نجد أن كثيرا ممن أعلنوا هذا الكلام آمنوا بعد ذلك ودخلوا في الإسلام ؛ دون أن يفجر الرسول لهم ينبوعا من الأرض كما اشترطوا قبل ذلك ؛ لأن الإنسان لا يقدر أن يجزم بشيء سيقع في المستقبل ، ولكن الذي يقدر هو من يملك الأحداث والتغيرات .

فمثلا عكرمة بن أبي جهل كان من أعداء الإسلام حتى بعد « فتح مكة » ، رجع وآمن وحسن إسلامه واعتذر للنبي ﷺ عما حدث منه ، ولما كانت موقعة « اليرموك » وأصيب في المعركة إصابة قاتلة بعد أن أبلى بلاء حسنا ، جاء ووضع رأسه على رجل خالد بن الوليد قبل أن تفيض روحه ، وقال له : أهذه ميتة ترضى عني رسول الله ﷺ ؟ ومات شهيدا . فهذا واحد من الدين قالوا : لن نؤمن . فقد آمن ولم يعجز له من الأرض ينبوعا .

إذن الذي يقول كلمة لابد أن يكون قادرا على إعادتها ، والإنسان لا يملك ذلك ؛ لأنه ابن أغيار .

وقريش طلبت هذا الطلب من النبي ﷺ ؛ لأن هذا شيء هم محرومون منه ، وطلبوا منه مطلباً آخر وهو قولهم : ﴿ أَوْ نَكُونُ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعَسَبٍ فَتَجِرَ الْأَنْهَارُ جُلَّةًهَا قَضِيحًا ﴾ [الإسراء ٩١] مرة يطلبون لهم ومرة يطلبون له ، فطلبوا أن يكون له جنة من نخيل وعسب ، وحتى تستمر هذه الثمار طلبوا أن يفجر خلالها الأنهار لتروىها وتحفظها من الجفاف ، كما طلبوا منه ﷺ أن أراد أن يؤمنوا به أن يسقط السماء عليهم كسفا فقالوا ﴿ أَوْ نَسْقُطَ

السَّمَاءَ كَمَا رَعْنَتْ عَلَيْهَا يَسْفًا أَوْ تَأْتِي يَأْفِكُ وَالْمَلَكُوتُ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ [الإسراء: ٩٢] والزعم مطية الكذب ، والرسول لم يرعه ولكنه بلغ كلام الله ، والآية التي يقصدونها بقولهم هذا هي قوله تعالى : ﴿ أَمَلَّ بَرًّا لَكَ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نُحَسِّفَ فِيهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِكُلِّ عَبْدٍ مُبِينٍ ﴾ [سبا: ٩] فقالوا: أنت هددتنا بحسف الأرض أو إسقاط السماء عليها كسفا فافعل ذلك وكسف جمع كسفة مثل قطع وقطعة أو تأتي بالله والملاحكة مقبلين ، أي براهم بأعيسا ، ولذلك قالوا في آية أخرى . ﴿ لَوْ لَا أُرِيدَ عَلَيْنَا الْمَلَكُوتُ أَوْ نَعْنَا رَبَّنَا ﴾ [الفرقان: ٢١] والمسألة ليست مسألة معجزات ؛ لأن القرآن تحداهم وأعجزهم ، ومع ذلك لم يؤمنوا ، ولكن لأنهم لا يريدون أن يؤمنوا فهم يطلبون المستحيل حتى لا يؤمنوا ، وقد قال الحق سبحانه عنهم . ﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكُوتَ وَكُنْهُمْ أَتَوَنُّ وَحَمَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الأنعام: ١١١] . فالمسألة مسألة تمنع وعناد ، ولذلك قالوا أيضا : ﴿ أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيِّنٌ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ بِرُفُودِكَ حَتَّى نُنْزِلَ عَلَيْكَ كِتَابًا فَتَقْرَأُهُ ﴾ [الإسراء: ٩٣] . وقالوا أيضا كما جاء في القرآن : ﴿ لَوْ لَا أُرِيدَ عَلَيْنَا كُفْرًا أَوْ جِسْمًا مَعَهُ مَلَكٌ ﴾ [هود: ١٢] يدلنا على أن الكفار يطلبون آيات تفسد منهج الله ، فتجعل المادة هي قيمة الحياة ، ومنهج الله قيم وليس مادة ، ولذلك يطلبون أن يأتي مع رسول الله ﷺ ملك ، وهذا لن يعيد قضية الإيمان ؛ لأنه لو جاء الملك على صورته الملائكية ، فهم لن يستطيعوا رؤيته ، ولو جاء على صورة بشر أو رجل ، فإنهم سيحسبونه رجلا أبيل عليهم ، إذن فهذه القضية لا تفيد منهج الله سبحانه وتعالى ، وقرأ قوله جل جلاله : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَشَرًا مِثْلُ رَسُولٍ ﴾ [الإسراء: ٩٤] .

إذن .. فهم لا يريدون بشرا ، بل يريدون من يملك قوة فوق البشر .

الحق سبحانه وتعالى يأمر نبيه أن يقول لهم ﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكُوتًا يَشْكُرُ مَطْمَئِينَ لَآتَانَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٥] إذن .. فالرسول لابد أن يكون بشرا ، والملك إذا كان على هيئة بشر ، فلن يكون الناس على يقين أنه ملك . فسكذبونه ، ولو نزل على صورته الملائكية ، فكيف يكتمهم ويعطيهم المسحوق وهم لا يرونه ، وفي الوقت نفسه فإن التكليف الذي سيأتيهم به لن يطيقوه ، لأنه سيكون على قدر قدرات

ذلك ، فيقولون : يا رب ، كلفتنا فوق طاقتنا ، فنحن بشر وقدرتنا محدودة ، وهذا منك له لدرجات كبيرة ، ونحن لا نستطيع أن نطبق المذهب بقدرات الملك .

إذن فلابد أن يكون الرسول بشرا ، لأنه قدوة لقومه في تطبيق المذهب ، وفي هذه الحالة تسقط حججهم ؛ لأن الذي يطبق المذهب أمامهم ويعلمهم بشر مثلهم ، فلا يستطيعون أن يقولوا هذا فوق قدرة البشر .

والله سبحانه وتعالى يقول لرسوله ﷺ : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [هود : ١٢] . لأن مهجة كل رسول هي إبلاغ منهج الله إلى قومه ، وإنذارهم بالعذاب الذي ينتظرهم إن لم يؤمنوا ، وبالنعيم الذي ينتظرهم إن آمنوا ، والله سبحانه وتعالى هو الوكيل على كل شيء ، هو الذي يعلم يقيناً إن كان هؤلاء الكفار يطلبون هذه الآيات ليؤمنوا ، أم للمعاندة فقط ، فكم طلب الكفار آيات ونزلت الآيات فاردادوا كفرا وعناداً .

والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾ [الإسراء : ٥٩] . ولكن الله سبحانه وتعالى هو الوكيل ، ومعنى وكيل أنه يتصرف كما يشاء ، ووكله الله سبحانه وتعالى على الخلق بآية أرادوا أم لم يريدوا ، وهو يعلم حقيقة ما في صدورهم ، ويعلم أنهم طلبوا هذه الآيات لاعتاد والإصرار على الكفر .

ومن تغفيل أهل الكفر أنهم طالبروا بإبرار ملك رسول ، وذلك ما يرد الله عليه في موضع آخر من القرآن الكريم - ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [الأنعام : ١٠٨] . قل لو كان في الأرض ملأها من الملوك لم يمتثلوا لأمر رسول الله ﷺ ، والحق يأمر رسوله أن يرد عليهم . بأنه لو كان بين البشر ملائكة ، أو إن كان هناك ملائكة يمشون في الأرض لنزل إليهم ملك رسول .

لقد أرسل الحق لهم رسولا من البشر ؛ لأن المعروض أن يكون الرسول أسوة سلوكية لمنهج ، وأن يطبق المنهج على نفسه ، فلو كان الرسول من الملائكة لقال البشر : إنك ملك تقدر على ما لا نقدر عليه ، وأنت لا تصلح أسوة لنا . لذلك كان لابد أن يكون الرسول من نفس جنس المرسل إليهم حتى يكون أسوة لهم وقدوة . وهذا ما يطل الادعاء بالوحيه عيسى ،

أو يؤتوه لله ، لأن عيسى عليه السلام طالعهم أن يفعلوا مثله .

إن الحق أراد بيشرة الرسل أن يؤكد القدوة والأسوة في الرسل ، ولذلك قال : ﴿ وَكَوَّأْرَكْنَا مَلَكَائِمْ لِّقُصِّ الْأَنْبِيَاءِ ﴾ [الأنعام : ٨] . إن البشر لا يستطيعون استقبال إشعاعات وإشراقات الملك ، لأنهم غير معلمين لاستقبال تلك الإشعاعات والإشراقات .

وبذلك يقول الحق ﴿ وَكَوَّأْرَكْنَا مَلَكَائِمْ لِّجَعْلَانَهُ رَجُلًا وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَّا يَلْبَسُونَ ﴾ [الأنعام : ٩] إذن فلو أراد الله أن يبعث رسولا من الملائكة لجعله على هيئة البشر ، يلبس ما يلبسون ، وذلك ما فعله الحق من قبل ﴿ وَبَيَّنَّاهُمْ عَنْ حَيْثُ إِنزِيلِهِمْ ﴾ ٥١ ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجَاءُونَ ﴾ ٥٢ ﴿ قَالُوا لَا تَجْعَلْ لَنَا بَشِيرًا يُعَلِّمُ عَلِيمًا ﴾ [الحجر : ٥١-٥٣] لقد أنزل الله الضيف من الملائكة على إبراهيم عليه السلام فحاف منهم ، فقالوا له ما يطمئنك وبشروه ببشارة من الله هو إسحاق من روجه سارة بعد أن رزقه الله من قبل إسماعيل من زوجته هاجر .

وكذلك أنزل الحق إلى مريم البتول ملكا ، وتمثل لها بشرا سويا لينجبها بحمل عيسى عليه السلام . إذن فالملك يتجسد في صورة بشرية عندما يرسله الله في مهمة إلى البشر ولا يأتي الملك إلى البشر على حقيقته .

وس امتنان الله على رسوله أنه أعطى له الفرصة ليرى جبريل على حقيقته مرة عند سيرة المنتهى ، ومرة حين تجسد له على هيئة دحية الكلبي في صفة رجل مسافر جاء يسأل الرسول ﷺ عن الإسلام والإيمان ، وهو حديث عمر بن الخطاب الذي قال فيه . يسمانحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسد ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه .

وقال : يا محمد أخبرني عن الإسلام ؟

فقال رسول الله ﷺ : « الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتخرج البيت إن استطعت إليه سبيلا » . قال : صدقت .

قال : فمجبنا له بسأله وصدقه .

قال : فأخبرني عن الإيمان ؟

قال : « أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسوله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر حيره

وشره »

قال : صدقت .

قال : فأخبرني عن الإحسان ؟

قال : « أن تعبد الله كأنك تراه ؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك »

قال : فأخبرني عن الساعة ؟ قال : « ما المسئول عنها يأعلم من السائل » .

قال : فأخبرني عن أمارتها قال : « أن تلد الأمة ربها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء

الشاة يتطاولون في البنيان » .

قال : ثم انطلق فلبث مليا ، ثم قال لي : « يا عمر أتدري من السائل ؟ » قلت : الله

ورسوله أعلم . قال : « فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم »^(١)

إذن .. فتحن يشرتنا لا يستطيع رؤية الملك إلا بعد أن يجعله الله بشرا ، ولذلك قال

الحق : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام : ١١] إذن

فالبشر موجود بسبيل أن الله أرسل الملائكة في صورة بشر لإبراهيم عليه السلام ، ومريم ابنة عمران ،

ومحمد ﷺ وهو جالس بين قومه .

الرسول ﷺ مبلغ عن الله

أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقول للمشركين : ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا

أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ

أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام : ٥٠] ، وقل : كما نعم هي أمر من الله لرسول الله ﷺ ، والرسول

يبلغ ما أمر به الله ، وكان يكفي أن يقول الرسول ﷺ : لا أقول لكم عندي خزان الله . ولكن

دقة البلاغ من الله ؛ ولأن القرآن توقيفي ؛ بمعنى أن كل كلمة فيه نزلت من الله كما هي ،

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧٧) عن أبي هريرة عليه السلام ، ومسلم (١/٨) واللفظ له .

وبلغها الروح الأمر لرسول الله ﷺ ، وبلغها لنا رسول الله ﷺ كما هي ، وذلك يدل على أن أحد لا يملك التصرف حتى في اللفظ ، وأن أمانة النقل مطلقة . والرسول ﷺ أرسله الله هادياً ومبشراً ونذيراً وأبلغنا أنه رسول من الله لنا ، بآية دالة على صدق البلاغ عنه ، وهي القرآن . وكان يجب على من يستقبل هذا البلاغ عن رسول الله ﷺ ، أن يستقبله بحق فلا يطلب منه إلا ما يتمشى مع الوصف الذي ادّعاه لنفسه ﷺ ، فليس من حق أحد أن يطلب من الرسول آيات غير التي أنزلها الله .

إن الرسول ﷺ لم يقل إلا أنه مبلغ عن الله ، فيجب أن تكون المقابلة له في إطار هذا القول ، أما أن يطلب منه شيء لم يدخل في إطار القول ، فذلك تعنت ، وقد تعنت الكاهنون فطلبوا من رسول الله ﷺ آيات أخرى ، كتعجير الأرض بينابيع المياه ، وأن يكون له بيت من زخرف ، وبذلك يقول له الحق سبحانه : أن يبلغهم أنه لا يملك مع الله خزائن السماوات والأرض ، فكيف تطلبون بيوتاً وقصوراً ؟ وكيف تطلبون معرفة الغيب حتى تقبلوا على النافع وتجنبوا الضار ؟ ألا يكفيكم المهج الإلهي الذي يهديكم إلى صاعدة كل نافع لكم ، ويحبسكم كل أمر ضار بكم ؟ ثم إن الرسول ﷺ لم يقل لهم : إنه يعلم الغيب

وهو بشهادتهم هم يقولون عنه كما قص علينا القرآن الكريم : ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ رَبِّنَا فِي السَّمَاوَاتِ لَوْلَا نُزِّلَ إِلَيْهِ مَا كُنْتَ مَعَهُ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كُرًى أَوْ تَكُونُ لَمْ جَنَّةً يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ [الفرقان : ٧ ، ٨] .

لقد سخروا من رسول الله ﷺ وطالبوا بأن تكون له آيات أخرى ، وتساءلوا : كيف يمكن أن يزعم أنه رسول وهو يأكل الطعام كما يأكلون ، وينشئ الأسواق لكسب العيش كما يفعل البشر ؟ ولو كان رسولاً لكفاه الله مشقة كسب العيش ، ولأنزل إليه ملكاً يساعده في البلاغ عن الله ، أو يلقي إليه الله من السماء بكثرة ينفق منه ، أو تكون له حديقة غناء يأكل من ثمارها . هذا ما قاله كبار المشركين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر ، وأرادوا أن يصدوا الناس عن الإيمان بدعوة رسول الله ﷺ ، فتارة يتهمونه بأنه مسحور ، وتارة أخرى بأنه مجنون ، وثالثة بأنه بهذي ، ورابعة بأنه كذاب ، وخامسة بأنه يتلقى القرآن من أحاجم ، ويدحض الحق كل هذه

الأكاذيب وكل تلك الاصرعات التي ضلوا وأصنوا بها كثيرا .

إن الرسول ﷺ كنهية الرسن ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَشْتَونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْغَنِيِّ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بِصِيرِكُمْ ﴾ [الفرقان : ٢٠] أي : أن الرسل من قبل رسول الله محمد ﷺ كانت تأكل الطعام ، وتكسب العيش من العمل ، ويترددون على الأسواق ، فإذا كان المشركون يعميون عليك ذلك ، ويحاولون إضلال الناس بكل الأساليب ، فأنت ومن معك يا رسول الله من المؤمنين سيكتب الله لكم النصر ويجزى كل بما عمل .

إن الآيات التي يطلبها المشركون من رسول الله كانت كلها تعنتا ، وهو لم يقل لهم : إنه ملك . لقد قال لهم : إنه رسول مبلغ عن الله ، وأساس مهمته هو صدق البلاغ عن الله ، فكيف يطلبون منه أشياء تتعلق بملكية الله لخزائن الأرض ؟ وكيف يطلبون منه أن يعلمهم الغيب ؟ وكيف ينتقدون أنه رسول بشر يأكل ويتزوج ويمشي في الأسواق ؟

إن هذه الأقوال هي دليل التعصب ؛ لأنهم قد طلبوا أشياء تخرج عن مجال ما قاله رسول الله ﷺ من أنه رسول مبلغ عن الله . إنهم طلبوا الخير النافع برعهم ، واليساع التي تجرى ، والجنات والقصور ، وأشياء كثيرة كلها ليست في مقدور رسول مبلغ عن الله ؛ لأن الذي يهبها هو الله سبحانه وتعالى .

وكلمة : ﴿ خَزَائِنُ ﴾ هذه مفردتها « خزانة » وهي الشيء الذي يكثر فيه كل نفيس ليخرج منه وقت الحاجة ولا تقال « خزانة » إلا لشيء جعلته ظرفا لشيء نفيس تحاف عليه من أن يخرج مخرج في غير أوان إخراجة .

وقوله : ﴿ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنْ مَلَكٌ ﴾ ، إن الرسول ﷺ نفى عن نفسه ثلاثة أشياء : شيان منها ينفيان الألوهية عن الرسول ﷺ ، وهما : ملكية خزائن الكون ، وعلم الغيب . والشيء الثالث : أنه ليس ملك . فهل يعنى ذلك أن الملك أرفع من النبي ؟ لا . . . ولكنهم قالوا له : إنه يمشى في الأسواق ويتكسب العيش بالعمل ، والملك لا يفعل ذلك ، ولكن الرسول أرقى منزلة من الملك ؛ لأنه يتبع ما يوحى إليه ملك الملوك ، سبحانه وتعالى ، كما في قوله : ﴿ إِنْ أَنْتَ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ ﴾ .

إنه من شرط ارتدعه في الصدق المبلغ عن الله يعلم حقيقته ﷺ فهو بشر ، والبشر ابن الأغيار ، يعصم شيئا ، ويجهل أشياء ، ومن مصلحة المرسل إليهم أن يكون الرسول متبعا لا مبتدعا ، ذلك أنه يقل لهم كلام الخالق بلفظه ، لا أفكار البشر التي قد تتغير أو تتبدل . إنه لو ابتدع لا بدع في إطار بشريته ، وفي ذلك نزول بالمستوى المنهج ، لكنه في الانبعاث يأتي بالارتقاء للبشر ؛ لأنه يتبع منهج الإله الذي اصطفاه رسولا .

تكذيبهم بالحق

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَنْتُ عَنْكُمْ بَؤْكَدٍ ﴾ [الأنعام : ٦٦] عندما نتأمل في هذه الآية نجد أن كلمة « كذب » تنطبق على الكافر والمشرِك ومن يكذب بالقرآن ومن يكذب برسول الله ﷺ ، ومن يكذب بأحكام هذا الدين ، فالمكذِب به إما هو الحق ، والحق هو الشيء الذي لا يتغير ، الشيء الثابت ، ولعلنا إذا أردنا أن نقرب المعنى نقول إنه إذا وقعت مشاجرة مثلا أو أية حادثة وجاء وكيل النيابة بشهود ، ماذا نجد ؟ نجد أن الدين شهدوا الواقعة فعلا أقوالهم ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ؛ لأنهم يقولون الحق ، ولكن الذين لم يروا تصطبرب أقوالهم وتتغير وتتبدل ؛ لأنهم يشهدون بالباطل ، ولكن شرعان ما يكشف الحق ويختفي الباطل ، وفي ذلك يقول الله : ﴿ أَلَمْ يَكُنْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ يَقْدَرُهَا فَأَحْتَمَلَ الشَّيْطَانُ زِينَةً رَبَّاهُ وَفَمَا يُؤْمِنُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ جَلِيلَةٍ أَوْ مَتَعٍ رِيءٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزُّبَدُ بَدَهَبٌ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَبْعَثُ النَّاسُ فِيمَنْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد : ١٧] .

والله يريد أن يخبرنا أن الماء يرل بأمره من السماء فيعطى الحياة للنبات والحيوان والإنسان ، ويأخذ كل واحد من هذا الماء على قدر حاجته ، ولكن الماء عند نزوله من سفوح الجبال إلى الوديان يصحب معه بعض الشوائب التي تطفو على الماء ، وأنت حين تنظر إليها تراها طافية تماما ، وعندما يصهر الذهب أر أي معدن ثمين ؛ فإن المعادن الخبيثة تطفو على السطح ويبقى المعدن النقي منصهرا ، وهكذا يكون الباطل مثل هذا الزبد ، أو الخبث ، يطفو على السطح ولكنه شرعان ما يختفي ويبقى الحق وحده ، وتكذيب القوم لمنهج الله وتكذيبهم بالقرآن هو بهتان لن يبقى ولن يستمر ، إنه مثل الخبث سرعان ما تحسب ويبقى الحق وحده .

﴿وَكَذَّبَ بِرَبِّهِ قَوْمُكَ﴾ وكلمة: ﴿قَوْمُكَ﴾ هي تبريع للكافرين؛ لأن رسول الله ﷺ جاء منهم، وهم عرفوه صادقاً أميناً لمدة أربعين سنة، وما جريوا عليه كذباً قط.

وكان الأجدر بهم فور إبلاغهم الرسالة أن يقولوا: إن محمداً لم يكذب علينا أبداً ونحن من خلق الله. فهل يكذب على الخلق؟

ولذلك يقول الله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَأْتُكُمْ فِيهِ فَقَدْ لَيْتُ بِكُمْ عُمَّرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦].

ثم يثني الله تعالى على رسوله فيقول تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

إذن.. فكون القوم الذين شهدوا لرسول الله ﷺ بالأمانة والصدق يأتون ويكذبونه في الرسالة فإن ذلك يدل على تكبرهم وعنادهم.

ذلك أن رسول الله ﷺ حتى بعد الرسالة كان الناس لا يجدون من هو أشرف منه ليلمسوه أماناتهم، وعندما هاجر من مكة إلى المدينة كلّف على بن أبي طالب أن يُسلم الأمانات إلى أصحابها.

الجهر بالدعوة.. وحماية الله لرسوله ﷺ

قال الله سبحانه وتعالى مخاطباً رسوله ﷺ: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤، ٩٥] الحق سبحانه يأمر رسوله ﷺ أن يتفرغ لمهمته، وهي الصدع بما أمره ربه، والصدع: هو أن تصنع شيئاً في شيء متماسك، فتأني للوح من الزجاج فتكسره مثلاً، أو حائط فتهدمه؛ وذلك لأن الرسول ﷺ جاء ليشرق الكفر والفساد بوجوده ويصدعهما، وهذا بنيان قوى له صايد وسادة لهم قوة وجبروت، هذه تحتاج إلى صدع، وإن كان الصدع شاع استعماله في الزجاج خاصة؛ لأن كل صدع من الممكن أن يلطم إلا صدع الزجاج، والإيمان جاء ليصدع بنياناً من الكفر والفساد قوياً ومتماسكاً، فيقول له: افرغ إلى هذه المهمة، أي اصدع بما تؤمر.

وقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤] أي: لا تبال بهم ولا تسأل عنهم؛ لأنك لا تتصور أنهم سيهادنوك؛ لأنهم يحاربون لأجل بقاء الفساد الذي يعيشون عليه فلا

تأمل في أنهم سيكونون معك لكتبهم سيأتون تبعاً ؛ ولذلك قال خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص : استقام الأمر لمحمد ، ولم يعد هناك فائدة من معاداته ، فمعارضتنا له لم تعد تفيد ، فلندخل في الصف ، فدخلوا في الإسلام لسبب من الأسباب ، ثم ذاقوا حلاوة الإيمان .

محالد بن الوليد كان في معسكر الكفر وهو صديد أصبح بعد ذلك كما سماه الرسول : « سيف الله المسلول » ؛ ولكن كيف يعرض عن المشركين وهم يتعبونه ، ويصعبون أمامه المراقيل ويستنهرون به وبأصحابه ؟ لذلك قال له سبحانه : ﴿ إِنَّا كَتَبْنَاكَ الْكَافِرِينَ ﴾ [الحجر ٩٥] وقد صدق الله ، فما من مستهزئ منهم إلا وناله الله بعقاب على وعرس الأَشْهاد ، فهذا الوليد بن المغيرة ، يمشي متبحراً في ثيابه فيمر على قَيْبٍ « أَيْ : حِداد » فتعلق شظية من الحديد في ثوبه ؛ فيتكبر أن يحني ليزيلها ، ويمشي دون أن يُغيرها اهتماماً ، فحجره الشظية في رجله وتحدث له « غرغرياً » فتقطع رجله وتكون هذه نهايته ، والأسود بن عبد يهوئ ، يأتيه عَمَى في عينيه فيكب بصره ، وكذلك الحارث بن قيس ، واعاصي بن وائل ، كُلُّهُمْ أصابه الله بشيء وجعله عثرة . إنه ما من أحد استهزأ برسول الله ﷺ إلا عاقبه الله على رؤوس الأَشْهاد وجعله عثرة لمن يعتبر .

أما الذين لم تصبهم هذه العاهات والآفات فيموتون بسببها ، رجدوا مصارعهم في « بئر » على أيدي القلة المؤمنة المؤيدة من عند الله ، فأغلب صناديد قريش وساداتها سقطوا صرعى في عزوة بدر ، ورسول الله ﷺ - بما آتاه الله من علم - نُحِطُ في الأرض ويقول : هذا مصرع فلان ، ويحدد المكان الذي سيقتل فيه هؤلاء المشركين قبل أن تقوم المعركة ، فهل هناك قائد في الدنيا يواجه جيشاً قوياً من أعدائه ، يستطيع أن يحدد الموقع الذي سيصرع فيه كل محارب من أعدائه ؟ لا أحد يستطيع ذلك .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّا كَتَبْنَاكَ الْكَافِرِينَ ﴾ [٩٥ ، ٩٦] أَيْ : أنهم لم يستهزئوا بك ؛ إلا لأنهم يعبدون آلهة أخرى . وكلمة : ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ ، ﴿ سَيَعْلَمُونَ ﴾ [الفر ٢٦] ، و ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ ، كلها استيعاب للأرمة . [أَيْ] يعلمون الآن ، سيعلمون بعد قليل ، سوف يعلمون بعد زمن . والقصود بذلك توسعة المراحل ؛ لأن المشركين لم يؤخذوا كلهم مرة واحدة ؛ ولذلك حكمة ؛ لأنه عندما يؤخذ المتطرف في الإيذاء قد يهدأ الأقل تطرفاً ، ولكن استيقاظ بعض هؤلاء الأشداء من

المشركين ، وهداية بعضهم للإسلام بعد ذلك ستجعل هذه الشدة والقوة في جانب الحق ، ولذلك قسا : إن عكرمة بن أبي جهل ، حين أصيب في معركة اليرموك ، وذهب إلى خالد بن الوليد واستلقى على فخذه وهو يقول له : يا خالد ، أهذه ميتة ترصني على رسول الله ﷺ ؟ هذا دليل على أنه يريد أن يفعل شيئاً كبيراً ليرضى الرسول ﷺ .

إذن ... فقلوه تعالى : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ . وما دمنا كفيباك ، فقد انتقمنا منهم ، فاتحادهم مع الله إلهنا آخر لم يقدمهم بشيء ؛ لأن آلهتهم هذه لو كان لها نفع أو قوة لوقفت معهم ومنعتهم من عقابنا .

ونوله : ﴿ قَسَوْكَ يَقْمَرُونَ ﴾ أى : إن كانت الآلهة مستمنعهم عند وقوع عقابنا بهم ، فيكون كلامهم صدقاً ، وإن لم تمنعهم ، فيكفيهم أنهم سحابوا في اتخاذ الآلهة ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَصِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ [الحجر : ٩٧] انظر إلى احترام مشاعر النبوة ، فكان الله سبحانه يقول لرسوله : نحن نطلب منك أن تعمل كذا وكذا ، في حالتين ، في قوله تعالى : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكَذِبُونَكَ وَلَكِنَّ أَطْلَافِينَ يَقَاتِبُ اللَّهَ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٢٣] فيسليه ويخفف عنه بقوله ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يَكَذِبُونَكَ ﴾ فأنت عدهم أكرم من أن تكذب ؛ لأنهم يشهدون لك بأنك صادق ، ولكن المسألة تتعلق بكفرهم بالله ورجحدهم لآياته فإلهه يسرى عن رسوله ﷺ ويحيره بأنهم لا يكذبونه هو ، وإنما يكذبون بآيات الله .

وهما يقول سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَصِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ ومعنى ضيق الصدر : نحن نعرف أن الصدر وعاء ، فيه أهم جهازين في الجسم « القلب والرئة » . فالقلب يختص بالدم الذي يسير في أعضاء الجسم ، ويعطيها الطاقة والحرارة وغيرها . لكن الدم لا يعطي هذه الطاقة إلا إذا نقي من أضرار الغذاء وما يتعلق به من « ميكروبات » ، فالعناء الذي يحمله الدم إلى الخلايا لا بد أن يصفى ويأخذ « الأكسجين » عن طريق الرئتين ، فالدم لا يؤدي وظيفته إلا عن طريق الأكسجين الذي يأخذه من الرئة . فالرئة تستقبل الدم فتعطيه « الأكسجين » ، وتأخذ منه « ثاني أكسيد الكربون » تخرجه خارج الجسم ، مثل عادم السيارة ، فهذا عادم الحركة في جسم الإنسان ؛ إذن فهو يحتاج إلى « أكسجين » يدخل الجسم ، ثم يخرج رطب فيه الهواء

العاسد مثل «ثاني أكسيد الكربون» ؛ لكي يكون الدم صالحاً لإيجاد الطاقة .

هذه العملية وردت في القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ عَلَّمُنَاكَ يُصِقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ فكانه ﷺ حين يعرض لموقف فيه سحرية أو استهزاء من المشركين ، [ومن ثم] تتحرك أجهزة الجسم وتتفاعل ، فتحتاج إلى دم أكثر وطاقة أكثر ، والدم يحتاج إلى هواء أكثر ، فيصيق الصدر عن استيعاب الهواء المطلوب للحركة ، وحين يأتيك إنسان متضايق أو عصبان ، تقول له . وسع صدرك . فكأن مجهود أجهزة الجسم والطاقة التي يحتاج إليها تتطلب كمية هواء تتسع لها الصدر .

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَمْشِمْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ صَيِّقًا حَرِيًّا كَأَنَّمَا يَصْقُدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام ١٢٥] فمن يرد الله هدايته يوسع صدره للإسلام . وكلمة ﴿يَصْقُدُ﴾ لم يقبل : يصعد فقط ، لأن «يَصْقُدُ» تعني أنه يكابد الصعود ، فتكون المشقة أكبر والمجهود أصعب ، مع أن هذا بخلاف القضية المعروفة ، أنك كلما صعدت إلى أعلى وجدت هواء أنقى ، فكلما صعدت قل «الأكسجين» في الهواء ، وبعد ذلك تصل إلى منطقة يس فيها هواء ، ومن هنا تأتي صعوبة التنفس إذا ارتفعت كثيراً في الجو ، فكأن الله سبحانه وتعالى يقول لبيه : نحن نعلم أن صدرك يصيق بما يقوله هؤلاء المشركون ، فلكي تتغلب على هذا الكيد الجأ إلى ربك .

لذلك يقول سبحانه له بعد ذلك : ﴿فَتَسْبِّحُ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر ٩٨] . إذن فهذا التسبيح هو الذي تلجأ إليه ، فكلما جفاك البشر ، سبّح بحمد الله ؛ ولذلك يقول العارفين : إذا أوحشك الله من خلقه أي : ضاق صدرك منهم ومن تصرفاتهم فاعلم أنه يريد أن يؤنسك به . فاجعهم يقطبون في وجهك لكي تقول : لا يوجد إلا ربي أعتمد عليه ، ولا أعتمد على أحد غيره . كذلك إذا ضاق صدرك فعليك بتسبيح الله وتزيهه وحمده ، فحين تحمد ربك تعيش في كنف رحمته سبحانه ؛ إذن .. إذا ضاق صدر امرئ من أي شيء يقول له : إنما ضاق صدرك من الأسباب ، فاجأ إلى المسبب وأرح نفسك .

الهجرة إلى الحبشة

نحن نعلم أن رسول الله ﷺ حينما جهر بدعوته اتبعه بعض الناس ، وهؤلاء الذين اتبعوه

عانوا من اصطهاد أهلهم وذويهم حتى أن البيت الواحد انقسم [إلى أقسام] . مثال ذلك تجد أم حبيبة وهي بنت أبي سفيان تؤمن ، يسما والدها هو شيخ الكفرة . وتذهب أم حبيبة مع زوجها إلى الحبشة ، حرصاً من رسول الله ﷺ على هذه الخلايا الإيمانية . لقد أراد الرسول ﷺ أن يحمي براعم الإيمان هذه ؛ لتكون هي مركز انتشار الإيمان من بعد ذلك ؛ ولهذا نصح بالهجرة الأولى إلى الحبشة ؛ حتى يأمنوا على أنفسهم في مكان بعيد عن أيدي المشركين ؛ لأنهم سيؤدون من بعد ذلك مهمة إيمانية .

إن الشجاعة تقتضي الحرص ، وشاعرنا أحمد شوقي رحمة الله عليه قال في إحدى مقطوعاته الشرية التي سماها « أسواق الذهب » : « ربما تقتضيك الشجاعة ، أن تجيئ ساعة » . هذه الشجاعة لا تكون على العدو فقط ، ولكنها تكون شجاعة في مواجهة النفس ؛ مثال ذلك : لو أن جماعة من الأقوياء كانوا في جلسة سر ، ثم دخل عليهم صعلوك يحمل مسدساً ، وقام بتوجيه السباب لكل منهم ، هنا يتحارب عليه هؤلاء إلى أن يتمكنوا منه ليعاقبوه . إذن ... فالشجاعة تقتضي أن يجبن الإنسان لحظة إلى أن يتمكن من الخصم ، وعلى ذلك فلا بد لنا أن نعرف أن الإيمان ليس انتحاراً ، ولكن الإيمان يقتضي ألا يدخل المؤمن معركة إلا وعنده حساب من الكسب ، وما هو حبيبنا رسول الله ﷺ يسمى خالد بن الوليد « سيف الله المسلول » في معركة لم يتصر فيها خالد ، ولكنه انتصر انتصاراً سليماً بأن عرف كيف يسحب الجيش ، فالأمر بسحب الجيش يحتاج إلى قوة أكثر مما يحتاج إليه النصر ، فالتصر تكون الريح معه ، أما المهروم فتكون الريح ضده ، ولذلك لمجد القرآن الكريم يقول : ﴿ وَمَنْ يُرِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُورَهُمْ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ لَّقَدْ كَفَرَ وَخَسِرَ مِنْ أَفْوَءٍ وَمَا وَدَّ أَنَّهُ كَبِدٌ حَامِلٌ وَلَا أَنَّهُ يَكْفُرُ بِآيَاتِهِمْ وَلَا أَنَّهُ لَسَاءُ مَا يَكْفُرُ بِهَا وَلَقَدْ كَانَ لَكُم مَّا تَدَّبَّرُونَا مِنْهُ لَعْنَةً وَأَنَّ اللَّهَ يَكْفُرُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأنفال ١٦] .

إذن .. فالناوورة والكيد من المهارة القتالية ؛ لأنها تتيح بعد ذلك القدرة على مواجهة العدو . والوحي الإلهي ينير بصيرة رسول الله ﷺ ، فيستعرض الأرض كلها حتى يختار مكاناً أما يذهب إليه هؤلاء المؤمنون .

إنه لم يرغب في أن يأمرهم بالذهاب إلى أي قبيلة من القبائل ، فهو يعلم أن كل قبائل الجزيرة تحس قريشاً ، فموسم الحج موسم جامع للقبائل تحت سيادة قريش ، ومن يقف ضد

إرادة قريش يتعرض للمتاعب ، وعلى ذلك قرر يأمن رسول الله ﷺ على خلايا الإيمان أن يذهبوا إلى أى قبيلة . واستقرأ رسول الله ﷺ الأرض كلها ، واختار الحبشة لماذا ؟ ها هي كلمات رسول الله ﷺ باقية إلى زماننا : « إن بها ملكاً لا يظلم عنه أحد ، فأقيموا بيلاذه حتى يجعل الله لكم مخرجاً مما أنتم فيه » .

وتسللوا في جنح الليل إلى الطريق متجهين إلى الحبشة ، وعندما علمت قريش بالخبر ، حاولت أن تقطع عنهم الطريق ؛ لتعيدهم إلى مكة وتواصل الحملة عليهم ، ولكن الحق أراد أمراً خلاف ذلك فقد كان الطريق سهلاً ، ووصلوا إلى الحبشة وأنجاهم الله من كيد الكافرين . إن رسول الله ﷺ يملك الخبرة الكاملة بالرقعة الأرضية ويعرف من يظلم من الحكام ومن لا يظلم ، وقد صدق رسول الله ﷺ في فراسته الإيمانية ، فحين ذهب المؤمنون المهاجرون إلى الحبشة ، وجدوا أنهم دخلوا إلى دار أمان ؛ أسوا فيها على دينهم .

وعنده جن جنون قريش ، وأرادوا استرداد هؤلاء القوم من النجاشي ملك الحبشة ، أرسلوا اثنين من صناديدهم ، ومعهم الهدايا والتحف تلك الحبشة . سافر عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة ، وطلبا من النجاشي أن يسلمهم هؤلاء المهاجرين إلى الحبشة . وحاولا الدس للمهاجرين عند النجاشي ، فاتهموا المسلمين المهاجرين بأنهم قوم تركوا دين الآباء واعتنقوا ديناً جديداً يعادى الأديان كلها ، ويقولون في عيسى ابن مريم قولاً لا يبيح به أو بأمه ، ورفض النجاشي أن يصدق حرفاً واحداً .

لذلك طلب النجاشي أن يسمع من هؤلاء المهاجرين ، فتقدم جعفر بن أبي طالب وقال : أيها الملك ، كنا أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، وبأكل الميتة ، وبأثى الفواحش ونقطع الأرحام ، ونسئ الجوار ، وبأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ؛ فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونحلق ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، فصدقناه وأمانا به واتبعناه على ما جاء به من الله وحده ، لا نشرك به شيئا ، وحررنا ما

حرم علينا وأحلنا ما أحل لنا ، فمادانا قوماً فعذبوا وفتنوا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان وترك عبادة الله تعالى . وأن سنتحل ما كنا عليه من الخبائث ، فلما قهرونا وضيّقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك ، وآثرناك على سواك ، ورجونا ألا نظلم عندك .

وثبت للنجاشي أن المسيح بشهادة القرآن نبي نقي طاهر العرض ؛ ولذلك لم يستمع إلى وشاية وفد قريش ، وامتلأ النجاشي بالإيمان ولم يستكبر ، ووقف أمام محاولات قريش لليل من أصحاب رسول الله ﷺ .

وعندما سمع ما برل على رسول الله ﷺ من سورة « مريم » قال : إن هذا والدي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة .

وعرف رسول الله ﷺ أن الإيمان خامر قلب النجاشي ، بدليل أن أم حبيبة بنت أبي سفيان عندما هاجرت مع زوجها إلى الحبشة ، وتصرّ الروح لكنها بقيت عني دينها ، وكانت تحبه خالص الحب وها انفصلت أم حبيبة عن زوجها ؛ وذلك حتى ثبت الحق أن الهجرة له وأراد الله أن يكرمها ، وأن يكرم النجاشي على موقفه من عدم تسليم المؤمنين إلى وفد قريش ، وموقفه من أنه شهد للإسلام بأنه يخرج من نفس المشكاة التي خرج منها الإنجيل عيسى عليه السلام ؛ لذلك جعله ولي نكاح لأم حبيبة .

إنه مأمون على ما عرف من الإنجيل ، ومأمون على ما سمع من القرآن في مريم ، ومأمون على أنه لم يسلم المهاجرين ؛ لذلك اختاره وكيلاً عنه في زواجه من أم حبيبة بعد أن تنصر زوجها ، إنها حادثة واحدة أضاعت أكثر من موقف . أضاعت موقف أم حبيبة ، وأثبتت أنها لم تذهب إلى الهجرة تبعاً لزوجها ، فلو تبع زوجها لتنصرت كما تنصر الروح . وأضاعت أن رسول الله كان لا يعلق عن الهوى حين قال مسبقاً في النجاشي ما معناه : « إنه لا يظلم عنده أحد » . وعندما بلغ الرسول نبأ وفاة النجاشي صلى عليه صلاة الغائب .



الصبر ... من أهم أسلحة الداعية

حين قام رسول الله ﷺ بالإبلاغ ما يُوحى إليه ، وقُوبِلَ من مجتمع الشرك ، ومن المترفين فيه الذين اعتادوا على العساد والظلم بمقاومة شديدة ، ولا بد من الصبر حتى يتغلب عليهم ؛ ولذلك أمره ربه سبحانه وتعالى كما جاء في سورة «يوسف» : ﴿وَأَصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يوسف ١٠٩] . دليل على أن هناك عقبات وإيذاء ، ومقاومة يتطلب عليها بالصبر والعزم والإصرار ، فالله سبحانه ، وسيكون هذا الحكم خير للمؤمنين .

الله تبارك وتعالى خير الحاكمين ؛ لأنه سبحانه العادل الذي لا يظلم أحد ، ولا يغيب عنه شيء يمكن أن يؤثر في حكمه ، فهو جل جلاله محيط بكل فرد من خلقه .

والله سبحانه وتعالى أمر رسوله بالصبر ؛ لأنه مقبل على معركة مع جياورة العصاة وأئمة الكفر ، وقوله تعالى : ﴿وَأَصْبِرْ﴾ [يوسف ١٠٩] دلت على أن الذي يتبع مهج الحق لا بد أن يتعرض للمتاعب ؛ لأنه لولا أن العساد يملأ الدنيا ، ما جاء مهج العدل ليقيّد ميزان الحياة . ولقد كانت المعركة بينه عليه الصلاة والسلام - وبين أئمة الكفار قوية لا هوادة فيها ؛ لعظم محاربه ﷺ للفساد والمفسدين ، ورسول الله ﷺ استقبل الوحي منذ كُلف بالرسالة ، والله بارك وتعالى خاطبه قائلاً : ﴿وَأَنْتَ مَآ يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ [يوسف ١٠٩] ، ولم يقل ما أوحى إليك ؛ لأنه حل جلاله لو قال : ما أوحى إليك . لكان الوحي قد جاء مرة واحدة ثم امتنع ، وكون الله سبحانه وتعالى هو الذي سيحكم وهو خير الحاكمين الذي لا يخفى عنه شيء ، لذلك كانت عدالة الحكم وتبعده عن الهوى ، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ . لأنه لا شيء يغيب عليه سبحانه وتعالى ، ولا يميز إنساناً على إنسان ، فالكل خلقه .

هجاؤهم للرسول وكراهيتهم للحق

قال الله تعالى ﴿مَقَدْ كَانَتْ آيَاتُنَا عَلَيْكُمْ فَكَفَرْتُمْ عَنْ أَنْعَقِكُمْ نَسَكُونُ ۝﴾
 مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَعِيرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون : ٦٦ ، ٦٧] ، والمستكبر هو الذى يطلب مؤهلات كبر
 وليس لداتيته شيء ، والإنسان لا يتكبر إلا إن ملك ذاتيات كبره ، وأى مخلوق لا يملك ذاتيات
 الكبر .

إذن .. الكبر يجب أن يكون صفة لله تعالى وحده ، ومن رحمة الله تعالى بخلقه أن من
 صفاته المتكبر ؛ ليحمي خلقه من خلقه . فإن تكبر عليك وأجرى عليك قدرًا وأت واحد لأنك
 فعلت شيئًا ، فعلم أنه يتكبر على الآخرين جميعًا إن فعلوا بك شيئًا ، فأنت صاحب المصلحة
 فى ذلك .

وكلمة ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَعِيرًا تَهْجُرُونَ﴾ بأى شيء يستكبرون ؟ المسألة ليس فيها إلا
 الرسول الذى أرسل ، والقرآن الذى أنزل عليه معجزة ومنهجا ، ونحن نعلم أن قريشًا كان لها
 وضع سيادة وشرف ومكانة فى الجزيرة العربية كنها ، ولا أحد يجزؤ أن يتعرض لقوافلهم فى
 رحلة الشتاء ورحلة الصيف ، مع أن القبائل كانت تغير على بعضها ، وتسطو على قوافل
 غيرها ، ويحدث السلب والنهب ، إلا قوافل قريش ، لم يكن أحد ليجزؤ على التعرض لها ، لا
 فى طريق الشام أو طريق اليمن ؛ لأنهم أخذوا السيادة من البيت الحرام ، فهم سدة البيت
 وخدمه والقائمون على أمرهم .

ومع أن السيادة تأتيهم من بيت الله إلا أنهم كانوا يستكبرون بهذه المكانة ، ويطعمون
 السامر فى بيت الله ؛ ليتناولوا على محمد ﷺ ويسبوه ، ويشككوا فى القرآن الذى جاء به .
 والسامر : هم الجماعة الذين يجلسون بالليل للسمر واللهو ، ويذكرون الناس بسوء ، فهم
 يستكبرون بالبيت على غيره من القبائل ، ومع ذلك يسلمون فيه بهجر ، والهجر هو الفحش
 من الكلام ، وذلك فى القرآن وفى الرسول ﷺ .

فأليت الحرام الذى أخذوا السيادة بسببه اتحدوه مكانًا للسمر واللهو ، ومهاجمة الرسول
 الذى جاء ليظهر البيت من الأصنام ، مع أن رب البيت هو الله سبحانه الذى أرسله إليهم .
 فأنتم استكبرتم على الأمة كلها بالبيت الحرام ، ومع ذلك جعلتم البيت مكانًا تسلمون

فيه ، ولا تسرون فيه بحير ، بل بهجر وسمو وطيش ، فتصفون الرسول بشتى الأوصاف الباطلة التى لا تليق به ﷺ ، وتشككون فى القرآن وتقولون : إنه أساطير الأولين . مع أن الحق سبحانه وتعالى حينما أراد أن ينهكم ، وبين لكم أنه ضروريات حياتكم ، فهذا تفضل منه سبحانه ، فحينما جاء أبرهة وأراد أن يهدم البيت ويقطع هذه العظمة عده ، رده الله مفهوزاً ، ودحر جيشه وقضى عليهم ، حتى القيل قيد الله خطاه فلم يتقدم خطوة واحدة ليقرب من البيت ، فكلما وجهوه نحو البيت برك ، فحصى الله بيته من عدوان أبرهة ، فلو أن الله تعالى مكن هؤلاء من أن يهدموا البيت ، ويحولوا القداسة عندهم ، لانتهد مهابة قريش وسقطت سيادتها ، ولاجترأ عليها العرب كما يحترثون على بعضهم ، ولأصبح لها فى كل يوم مشكلة ومعركة مع غيرها من القبائل .

فالله حفظ البيت لكم وحفظ لكم السيادة على العرب ، وبعد ذلك حين يرسل إليكم رسولاً منكم بكتاب مبين ، تكذبونه وتعاندونه ؟! هذا شيء غريب وعجيب !

يقول تعالى فى سورة « الفيل » : ﴿ وَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۖ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۚ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۚ ﴾ [الفيل : ١٠ - ١٥] ، والعصف المأكول مثل التبن أو قشرة الشيء الذى يؤكل .

وفى سورة « قريش » التى تلى سورة « الفيل » مباشرة فى ترتيب المصحف يقول فيها : ﴿ لَا يَأْتِيَنَّ قُرَيْشٌ ۚ لِإِلَهِمُّهُمْ رِحْلَةُ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴾ [قريش : ١ ، ٢] ، أى أن الله سبحانه دمر أبرهة وجيشه ، وجعلهم كعصف مأكول ، وحفظ البيت من شرهم لتألف قريش السيادة كميدها فى السابق ، وذلك رحمة بكم حتى لا تمتعوا عن رحلتى الشتاء والصيف وتألموهما كما تعودتم ، فكان الواجب عليكم أن هذا الإله الذى حماكم وحفظكم وأدام لكم هذه السيادة والمكانة ، أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، لذلك يقول تعالى فى نهاية سورة « قريش » : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۚ ۝ آلَؤُتِ أَلْعَمَّهُمْ مِّن جُورٍ وَءَامَنَّهُمْ مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش : ٣ ، ٤] .

بعد ذلك أراد الحق سبحانه أن يريخهم ببعض الأشياء فذكر بين أنهم أحوال أربعة ، قال تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَذَرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمن : ٦٨] ، أى ما الذى

حدث لهم حتى يقيموا هذه المواقف ؟ ألم يتدبروا القول الذى نزل فى القرآن مع أنهم أمة البلاغة والفصاحة والبيان ، وكانوا يقيمون المواسم والمعارض للكلام والخطابة والشعر ؟ ! فهم أمة لها بصر بالأساليب والكلام ، فالقرآن الذى نزل على أعلى مستوى من البلاغة ، هل يمكن القول أنكم لم تفهموا ما فيه ؟ ! هذا غير معقول لا بد أنكم فهمتموه ووعيتم ما فيه ، فأنتم أمة البيان والبلاغة والكلام والأسواق فى عكاظ والجنة والمربد ، لا شك أنهم فهموا وعرفوا ما فى القرآن من بيان وبلاغة وعجزوا عنها ، ولكنهم لم يؤمنوا بدليل أنهم قالوا كما قال عنهم القرآن الكريم : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ الْفَرَقَانُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزمر : ٣١] .

إذن ... الاعتراض ليس على القرآن ، ولكن على من رل عليه القرآن ﷺ ، لأنهم ظنوا أن محمدًا جاء ليسلب منهم السلطة الزمنية التى يتمتعون بها ، مع أنه ﷺ جاء لمصلحتهم ، وهو لم يأخذ الحكم شرقًا ، ولكن أحذه مكيفًا بدليل أنه كان يعيش فى مستوى معيشة أقل منهم ، فلا ترى رسول الله ﷺ إلا أقل قومه طمعًا ، وأقلهم ثيابًا ، وأقلهم أثاثًا ، حتى أقاربه حرم عليهم ما أباحه لعامة المسلمين ، فإنهم كانوا فقراء لا يأخذون زكاة ، كما أنهم لا يوثون فى رسول الله ﷺ ، لأنه يقول ما معناه : « نحن معاشر الأنبياء لا نُورث ما تركناه صدقة » . فهل تريدون حكم الجبيرة لأنكم ألغتم العبودية لغير الله ، فعر عليكم أن يحرركم الله منها ؟ ! وتريدون أن تطلوا من عبودية المخلوق ، فتأيتم على عبوديتكم للحالق .

والدليل أيضًا على أنهم فهموا عظمة القرآن وعرفوا قدره ، هو قول الوليد بن العيرة حينما سمع القرآن من رسول الله ﷺ حيث قال : إن له خلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمشر ، وإن أسفله لمغددق ، وإنه يعلو ولا يعلى عليه ، وما هو من قول البشر ، فهم فهموا القرآن وعرفوا أنه من عند الله ، ولكنهم حسدوا محمدًا على هذه النعمة ، والمكافة .

ومعنى ﴿ أَرْجَاهُ مَا لَزَّ بَاتٍ مَّائَةً هُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون : ٦٨] أى هل حدث لهم ما لم يحدث لآبائهم من قبل ؟ وهل مجيء الرسول شىء جديد لم يسمعوا عنه من قبل ؟ هذا شىء طبعى ، ولا بد أنهم سمعوا من أهل الكتاب عن الرسل السابقة خاصة سيدنا إبراهيم ، فهم أبناء إسماعيل ، ويعرفون قصته مع أبيه إبراهيم عليهما السلام ، فكون أن يأتى لهم رسول فهذا ليس شىئًا عجيبًا .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى في معرض توبيخه بهم ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ مَكْرُورٌ﴾ أم يقولون بؤس جنة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون ﴿[المؤمنون: ٦٩] أم هل جاءهم رسول غريب عنهم لم يعرفوا سيرته أو خلقه، ولم يعايشوه ويعرفوا مسلكه قبل أن يبعث، فأكروه وأنكروا رسالته؟ هذا لم يحدث؛ لأن الرسول معروف لهم، وهم عايشوه وعرفوا خلقه وسلوكه، وكانوا يسمونه الصادق الأمين، وكانوا يحفظون عنده أماناتهم وودائعهم، ولذلك الحق سبحانه يقول ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، ومعنى ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أى: من جنسكم، ومن نوعكم، ومن قبيلتكم صاحبة السيادة والرعاية، حتى يكون معروفًا لكم بأخلاقه وسلوكه وصدقه وأمانته، فلو كانوا عقلاء لقالوا: إذا كنت لم يجرب عليه كذبًا عسى الحق، فهل يعمل أن يكذب على الخلق؟

ولذلك أبو بكر رضي الله عنه سمي الصديق؛ لأنه صدق رسول الله ﷺ في أشد الأوقات التي كذبه فيها المشركون، وحيثما عاد الرسول ﷺ من رحلة الإسراء والمعراج، وحدث الناس بما رأى وسمع كذبه الناس، حتى بعض من أسلموا، فلما جاء الكفار إلى أبي بكر وقالوا له: صاحبك يقول كذا وكذا. ما كان منه إلا أن قال لهم: إن كان قال فقد صدق. والنبي ﷺ يحملها تقديرًا لأبي بكر فيقول: كنت أنا وأبو بكر في الجاهلية كفرسي رهان - أى في الخلل الطيب والسلوك المستقيم - فسبقت للنبوة فاتبعتني، ولو سبقني هو لاتبعتته. فهم يعرفون الرسول حق المعرفة، وهم الذين لقبوه بالأمين، وهم يجربوا عليه كذبًا أو خيانة، كما لم يجربوا عليه ما كان يفعله أقرانه من الشبان؛ من الجلوس في أماكن السمر واللهو والشراب، فإذا كان هو كذلك وأنتم تعرفونه، فلماذا كذبتموه؟

ولذلك السيدة خديجة رضي الله عنها اعتبرت أول مجتهدة في الإسلام؛ لأنها اجتهدت من مقدمات رسول الله ﷺ قبل البعثة عسى صدقه بعد البعثة، وذلك حينما نزل الوحي على الرسول ﷺ في العار، وصممه بشدة ثلاث مرات حتى يبع منه الجهد، فلما عاد إلى السيدة خديجة وهو يرتجف ويرتعش، واستثنت وطمأنته وقالت له: «والله يا ابن عم لى يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الدهر وتقرى الضيف، فوالله لى يخذلك الله أبدًا».

إذن ... الحق سبحانه وتعالى أعد رسوله إعداداً دقيقاً ، وصّعه على عينه وهو معروف لكم ، فمن ناحية تدبر القرآن وتديرهم لمعانيه ؛ لأنهم أمة كلام وبيان ، كما أن إرسال الرسل ليس شيئاً غريباً عنهم ، فهم يعرفون قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وبناء الكعبة وغير ذلك . كما أن الرسول منهم وهم يعرفونه حق المعرفة ، ويعرفون خلقه وصدقه وأمانته ، ومعنى ﴿رَسُولُهُمْ﴾ [المؤمنون ٦٩] أى : رسول لهم ؛ لأنه مرسل إليهم ، كما أنه رسول منهم ، وقوله تعالى ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [المؤمنون ٧٠] ، يعنى القرآن عليهم وصدّهم للرسول ﷺ بالحبون ، والحبون معناه لخلل الآلة العقلية ، التى ترن الحركات على وفق النغم والضرب ، وتلجأ إلى النافع وتترك الضار ، وتأتى بالخير وتدفع الشر ، فإذا نظرت إلى محمد ﷺ لا تجد فيه حصلة واحدة من خصال الحبون ، فهو الصادق الأمين صاحب الخلق العظيم ، الذى تمثلت فيه كل خصال الخير .

وبعض نعرف فى حياتنا أن الكذاب يحب الصادق ويحترمه ، والغضوب يحترم الخليم فى أخلاقه ، والخائف يحترم الأمير .

إذن .. الأخلاق مقاييسها واحدة ، فعليكم أن تقيسوا محمداً لا بالرسالة التى جاء بها ولكن بخلقكم فيه !! لن يستطيع واحد أن يتهم محمداً فى خلقه ، وما دام لا يستطيع واحد أن يتهمه فى خلقه ، فلن يستطيع أن يتهمه فى خلقه ؛ لأن الذى يوجد الأخلاق هو العقل . والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿تَوَالَّفَ الْقَائِرُونَ وَمَا يَسْتَوُونَ ۖ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِمُعْتَرِكٍ لِّذَلِكَ يَمْتَجِزُونَ ۖ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَسْئُورٍ ۖ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم ١ - ٤] ، فالرسول ﷺ ليس مجرّناً كما زعموا ، ويشهد له بذلك خلقه العظيم ، ولكن العنة أنه جاءهم بالحق وهم يكرهون الحق ؛ لأنه جاء على يد غيرهم ، ولذلك إن أردت أن تعرف الحق فلا تأخذ المسائل على أنها لك دائماً ، بل حلّها مرة لك ومرة عليك .

ولذلك أمر الله سبحانه للإسان منا بأن يعص بصره عن محارم الغير ، هذا الأمر فى ظاهره أنه قيد على حرية الحركة لعبيك ، ومعهما من التمتع بالنظر إلى محارم الله ، ولكن لحقيقة أنه سبحانه قيد عينيك فى أن تنظر إلى محارم غيرك ، وقيد عيون الناس أجمعين أن ينظروا إلى محارمك ، فأنت المستفيد ، فعليك أن تأخذ الأمر على أنه لك وليس عليك ؛ لأنه لصالحك

ولصالح الناس أيضاً ، فالرسول ﷺ حينما جاءهم بالحق ، غضب أهل الباطل ، لأنهم مستعبدون من وجود الباطل وسطوته ، فهم يظلمون الناس ويستعبدونهم ، ويسلبون حقوقهم دون أن يردعهم أحد ، فإذا جاء من يعدل الميزان ويساوي بين الناس ، ويجعل معيار المقاصلة بينهم لا بسبب لون أو جنس ، ولكن بالتقوى والعمل الصالح ، فهذا لا شك سيفضب أهل الباطل ، ويحجزهم على محاربة الحق ، إذن غضب هؤلاء وعادهم كان يجب أن يكون معيار تصديق لرسول الله ﷺ .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّبَعِ الْخَلْقُ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾ [المؤمن : ٧١] ، فلو أن الحق سبحانه اتبع أهواء هؤلاء المفسدين ، لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن ؛ لأن الأمور لا تسير على هوى المحلوق ، ولكنها تسير على مرادات الخالق ؛ لأنه صانع هذا الخلق كله والكون بما فيه ، وكل صانع يعار على صنعه ، لكن الذي لم يصنعها لا يعرف قيمتها ولا يعار عليها ، فعذالة الصنعة أن تسير على وفق الصانع لا على مرادات المصنوع ؛ لأن مرادات المصنوع تملكها التغيرات ، فالشيطان قد يزين للإنسان الرشوة أو الكذب ، أو يزين له الظلم والسرقة ؛ لأنه ينظر إلى المكسب العاجل ، ولا ينظر إلى العاقبة الوخيمة !! لو أن الحق اتبع أهواء هؤلاء لفسدت السماوات والأرض . بعض الناس قد يقول : إذا فسدت الأرض باتباع أهواء أهل الباطل ، فكيف تفسد السماء ؟ وهل يستطيع أحد أن يصل إلى السماء ليفسدها ؟

وبحق نقول لهم : انظروا إلى مطالب هؤلاء المكذبين ، ألم يقولوا للرسول : إنهم لن يؤمروا به حتى يسقط السماء عليهم كسفاً ، أو يرقى في السماء ، ولن يؤمروا لرقبه حتى ينزل عليهم كتاباً يقرعون .

وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنْجِرَنا مِنَ الْأَرْضِ بِأَنْتُمْ ﴾ ١٥ ﴿ أَوْ تَكُونَ لَكِ جَنَّةٌ مِّنْ جَنِّيلٍ وَعَسَى تَنْفَجِرَ الْأَنْهَارُ جَلْالَهَا تَفْجِيرًا ﴾ ١٦ ﴿ أَوْ تُسْقَطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ فِئِيلًا ﴾ ١٧ ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ بِرُفُقِكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا تُفَرِّقُ فِيهِ كُلَّ كُفٍّ إِلَّا فَنُشْرَكَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ٩٠ - ٩٣] .

إذن ... هم يطلبون أن تخر السماء على الأرض ، ولو سقطت السماء على الأرض
لفسدت كلتاها فأهواؤهم لو اتبعها الحق لفسدت السماوات والأرض ؛ ولذلك الرسول ﷺ
يقول : لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به ^(١) لأنه ﷺ لا يطلق عن الهوى ،
وكل ما يتحدث به فهو وحى من الله تعالى .

هنا نجد المستشرقين يحسبون بالآية التي تقول : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ ويقولون : إذا
كان الرسول لا ينطق عن الهوى ، بمعنى ذلك أن كل كلامه وحى من عند الله ، وإذا كان
الأمر كذلك ، فلماذا ينزل القرآن ليعدل له بعض الأحكام والمواقف التي حدثت منه ؟ فهذا
دليل على أنه ساعة خكم هذا الحكم كان ينطق عن الهوى !! نقول لهم : أنتم لم تهملوا
المقصود ؛ لأن الهوى معناه أن تعرف الحق لكن هواك يجعلك تتعد عنه ، ورسول الله ﷺ لم
يعرف لهذه الأشياء حكما حتى يولي نفسه عنه ؛ لأنها أشياء لم يكن قد نزل فيها حكم الله
بعد ، فالرسول حكم فيها بمقتضى ما فهم ، والله تعالى عدل له هذه الأحكام ، فلم يكن له فيها
هوى ؛ لأن الهوى أن تعرف المسألة لكن هواك يجعلك بعيدا عنها ، كما أن الله تعالى يريد
بذلك تصديق الرسول ﷺ ؛ لأنه إذا كان الله قد عدل له بعض الأحكام دون أن يراه أحد أو
يسمعه ، وبعد ذلك جاء ليخبر قومه أن الله عدل له هذا الحكم ، فهذا معناه أنه أمين وصادق ؛
لأنه لم يتعصب لنفسه ، ولم يخف على الناس ما عدله الله له ، فهو يقول ما به وما عليه .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿بَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُّعْرِضُونَ﴾
[المؤمن . ٧١] دليل على ضلالهم ، وأنهم لا يفكرون في مصلحتهم ؛ لأن أمة العرب لم يكن
لها مكانة تذكر بين أمم الأرض ، بل عبارة عن قبائل متفرقة متناحرة يحارب بعضها بعضا لأنفسه
الأسباب ، وهذه القبائل متنقلة لا تستقر في مكان ، فلم يكن لهم أى قيمة حضارية بين الأمم
قبل الإسلام ، ومع أن العرب كانت فيهم بعض الصفات الدسمة ، فقد كان فيهم من الصفات
الحميدة الشيء الكثير ، مثل الكرم والجود والشجاعة والجدة ، حتى إن الواحد منهم كان
يستحي أن يأتيه ضيف دون أن يقدم له أقصى ما يستطيع تقديمه من طعام ، حتى إن بعضهم هم

(١) أخرجه ابن أبي عمير في السنة (١٥) عن عبد الله بن عمرو وقال - إسناده ضعيف رجاله ثقات غير نعيم بن
حناد ضعيف لكثرة خطئه .

أن يدبح ابنه للضيف حينما لم يجد شيئاً في بيته ، مع أنه كان طارئاً بالجوع هو وأولاده منذ ثلاثة أيام ، ولكن الله أكرمه فرأى على البعد قطيعة من الحمر الوحشية في طريقها إلى الماء لتشرب ، فأصاب أحدها وأطعم منه ضيفه وأولاده وعدل عن ذبح ابنه ، فالعرب كانوا أناساً عددهم حصال متناقصة ، فقد يسرق الواحد منهم ناقة ليدبحها لضيفه

والحق سبحانه وتعالى جعل أمة العرب هكذا حتى يأتي الإسلام ، وهي أمة أمية ليس لها دراية بالحصارة ، فحين تأتي بهذه الأساليب العالية التي تحكم العالم ، وهي بهذا الشكل لا يقال : إن هذه قفزة حضارية ، ويعلم الناس أن هذا منهيح من عند الله ؛ لأن أمة العرب لم تكن مؤهلة لأن تأتي بهذا الأسلوب المعجز ، إذن الأمية هي العرب شرف لهم ، والأمية هي رسول الله ﷺ شرف له ؛ لأنه لو كان متعلماً لقالوا : إنه قرأ لعلنا ودرس كتب كذا وكذا . فالرسول ﷺ لو لم يكن أمياً لكانت ثقافته جاءت من عند البشر ، ولكن لأنه أمي ثقافته كلها جاءت من عند الله وحده ، فالعرب عارضوا القرآن وحاربوه مع أنه كتاب نزل لهدايتهم وفيه ذكرهم وقوتهم وهو مصدر عزهم ومجدهم وبخارهم ، ولذلك الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَإِنَّكُمْ لِرَبِّكُمْ لَكُمْ وَلِقَوْمِكُمْ وَمَتَّوْفٌ تُشْتَلُونَ ﴾ [الزخرف : ٤٤] ، فهو شرف كبير للعرب والمسلمين وسيظل حتى تقوم الساعة ؛ لأن القرآن محفوظ من الله ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ صِبْغَاتٍ فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠] ، فكان يجب عليهم أن يتبعوا هذا القرآن ويدافعوا عنه ؛ لأن فيه شرفهم وتاريخهم وأمجادهم وذكرهم حتى تقوم الساعة .

ثم يقول سبحانه وتعالى ﴿ أَمْ تَنْتَظِرُونَ أَنْ يَخْرُجَ مِنْكُمْ خَيْرٌ مِنْ خَيْرِ الرَّسُولِ ﴾ [المؤمن : ٧٢] الخرج هو ما يخرج منك ، والخروج أنت تخرجه ، لكن الخراج تقلده رغم أمك ، والمسي : إن أردت خرجاً فلا تأخذ من هؤلاء ، ولكن اطلب من ربك الذي يرزق جميع الخلائق وحزائنه لا تنفد ، فلا تأخذ الرزق إلا من بيده الخير ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لا يمن على خلقه برزق يبرقهم به ؛ لأنه هو الذي استدعاهم إلى الكون ، وما دام هو لدى استدعاهم إلى الكون فلا بد أن يقيم لهم مائدة تسعهم طويلاً حياتهم ؛ لأنك أنت أيها المخلوق حين تدعو صيفاً لتناول الطعام عندك ، تصعب به طعاماً يكفى عدة أشخاص ، فما بالك بخالق الأرض والسماء ، فالرزق عند الله مضمون وما عني الإنسان إلا أن يسعى لتحصيل هذا الرزق ، الذي ضمنه الله له حين استدعاه إلى الحياة الدنيا .

ومعنى ﴿خَيْرُ الرِّزْقِ﴾ [المؤمن: ٧٢] لأنه سبحانه يرزق أصول الأشياء التي يبرق منها الرارقون من الخلق، فأنت تعطى للفقير طعاماً، فمن أين حث بهذا الطعام؟ لقد أحدث الحب الذي خلقه الله ووضعته في الأرض التي خلقها الله، ورويته بالماء الذي أنزله الله، واجتهدت بطاقتك التي منحها الله لك. إلح. فإذا نظرت إلى الأشياء التي تنفق منها تجدوها من عند الله، وهذا مثل الرجل الذي يشتري لوازم بيته، من دقيق وسكر وأرز، وخبر ولحم وخضراوات، وفواكه وسمن ومكرونة... إلح. فحين تقوم زوجته بإعداد الطعام من هذه المواد التي اشتراها زوجها، هل تكون هي التي جاءت بالطعام، أم أن زوجها هو الذي أحصره في البيت؟ إذن لو نسبت كل رزق إلى مصدره لوجدت الله هو الرزاق الواحد؛ ولذلك كثير من العلماء قالوا: نهوا أئمتكم عن أن تقولوا فلان رازق، واجعلوا هذه لله وحده؛ لأنه الذي خلق الرزق وأوجد أصوله التي تعطى منها وأنت مناول للغير فقط.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَلَيْكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المؤمن: ٧٢] أى: أنك يا محمد تدعو هؤلاء الناس إلى طريق الخير والعلاج والاستقامة والصراط المستقيم، حتى إن ضرراً واحداً يستفيد بالطريق المعوج، إلا أنه سيفيد الملايين، كما أنه سيتفجع بالصراط المستقيم في شيء آخر؛ لأننا قلنا: إن الإنسان يجب أن ينظر لا إلى ما أخذه التشريع منه، ولكن إلى ما وهبه التشريع له، فالعنى يقول له: لا تنصب حين نقول لك: أخرج من مالك للفقير؛ لأنك تريد أن تستقبل الحياة بشجاعة الاستقبال ولا تخش الفقر؛ لأنك لو أصبحت فقيراً سيعطيك الأغنياء من أموالهم، فالإسلام أتم لك حياتك وحياة أولادك بعدك، فإن أخذنا منك اليوم وأنت غنى، سنعطيك عدداً وأنت فقير، وحتى إن مت وتركت وراءك أطفالاً صغاراً لا ثروة لهم، فاطمئن على مستقبلهم؛ لأن المجتمع الإيماني لن يساهم بل سيعطيهم ما يكفيهم من مال الأغنياء والقادرين.

فالمجتمع الإيماني هو الذي يرى الناس فيه يؤمنون بالقدر إيماناً حقيقياً؛ لأن الناس لو رأوا بيتاً مضيقاً ربما سقطوا، لكن حين يُرى في المجتمع الإيماني أن كل مسلم أب ليتيم، فسيشعر أن أبا واحداً قد مات، فقام بدلاً منه عشرات الآباء لهؤلاء الأيتام، فيصح الإنسان لا يحسنى على أولاده من الضياع أو التشرد بعد موته؛ لأنه علم أن المجتمع المسلم سيكفلهم ويربيهم أحسن تربية، وحينئذ يستقبل الإنسان قلبه الله بالرضا، والصراط المستقيم هو الطريق المعتدل

الدى لا عوج فيه ، فلا هو منحرف يمينا أو شمالا ، ولا هو مرتفع ومنحدر في مساره .
ثم يقول تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَفِّرَنَّ ﴾ ومعنى
« ناكبون » أى أنهم منحرفون عن الطريق الذى كان سيوصلهم إلى الغاية فى أقل وقت ، بأقل
مجهود لأحسن غاية ؛ فالطريق المستقيم يوصلك إلى المطلوب فى زمن أقل ، وبأقل مجهود ،
ولأحسن غاية ؛ لأن الطريق لا يمهّد ويدلّ إلا إذا كان موصلا إلى منطقة هامة وجميلة ؛
ولذلك الطرق تأخذ اتساعها ورصعها والعناية بها بمقدار الغاية التى تؤدى إليها ، والأماكن التى
توصل إليها ، فالذين لا يؤمنون بالآخرة منحرفون عن الصراط المستقيم ؛ لأن لهم حظا فى هذا
الاعوجاج ، فهم لا يحبون الاستقامة ويعشقون العوج والانحراف .

وفاة أبى طالب وخديجة

وما عناه رسول الله ﷺ بعدهما

قال ابن إسحاق : ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا فى عام واحد ، فتتابعت
على رسول الله ﷺ المصائب بهلت خديجة ، وكانت له وزير صدق على الإسلام ، يشكو
إليها ، ويهلك عنه أبى طالب ، وكان له عصما وحرزا فى أمره ، ومنعه وناصره على قومه وذلك
قبل مهاجرته إلى المدينة بثلاث سنين ، فلما أهلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من
الأذى ما لم تكن تطمع به فى حياة أبى طالب ، حتى اعترصه سفيه من سفهاء قريش ، فثر على
رأسه ترابا ودخل رسول الله ﷺ بيته والتراب على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته ، فجعلت
تغسل عنه التراب وهى تبكى ورسول الله ﷺ يقول لها : لا تبكى يا بنية ، فإن الله مابع
أباك ^(١) .



تسرية الله عن رسوله برحلة الإسراء والمعراج

يقول ربنا جل في علاه : ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي تَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ السَّمَاءِ إِنَّهُمْ هُمُ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء : ١] ، فالإسراء حدث لرسول الله ﷺ ؛ تسرية له عما يقبه من الإيذاء من القوم الذين صدوا عنه ، وكلفوا السفهاء أن يؤدوه بالقول والفعل ، وحين ضاقت عليه الأرض بما رحبت توجه إلى الطائف ، فلقى ما لقي من العنت والإيذاء ، ثم رجع إلى مكة فلم يجد من يجيره إلا المطعم بن عدى ، وهو رجل كافر ، ولكن رق قلبه للرسول ﷺ .

كانت قسوة من أهل الأرض ما أبشعها ، فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يسلي رسوله ﷺ ؛ بأنه إن كان هذا جفاء أهل الأرض ، فانظر حفاوة أهل السماء ، فجاء حدث الإسراء والمعراج . إن حدث الإسراء جاء أولاً ، ثم جاء بعده بنص الحديث الجامع لهما ؛ حدث المعراج ، والإسراء آية أرضية من للمسجد الحرام ، وهو معلوم للقوم ، إلى المسجد الأقصى وهو معلوم أيضاً للقوم ، والمسافة بينهما أربعون يوماً يسير الإبل ، فكون الرسول ﷺ يُحدث أنه أثناء هي ليلة ، فذلك معجزة في قطع المسافات ، فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يقر بها لأذهان الخلق ، فقال لا تقمسوا فعل الله بفعلكم ؛ لأن فعلكم يقتضى علاجاً ويقتضى دواب ، ويقتضى مسافة ، وقطع المسافة حسب الجهد والقوة ، ولكن نزهوا الله في فعله أن يحتاج إلى زمن ، فصنّها بقوله ﴿سُبْحَنَ﴾ أى تنزيهاً لذاته ، وتنزيهاً لصفاته ، وتنزيهاً لفعله ، والنص القرآني هو عمدتنا في توثيق هذا الحدث ، وحين يجيء النص القرآن بحدث فليس لنا إلا أن نؤمن به ؛ لأنه ورد من الله سبحانه وتعالى ، وليس لعقولنا الفاصرة أن تبحث البحث الجارى في نواين الأرض ، وقوانين البشر ، لسحاول أن يفهم قوانين الله سبحانه وتعالى ، ولكن ما دام الله سبحانه هو لدى قال ؛ فالأمر الذى يجب على المؤمن هو أن يُسلم به ، وبعد ذلك على عقله أن يبحث في قياسات هذا التسليم ، أو هي مبررات هذا التسليم ، فيجد المبرر الأول للتسليم أنه آمن أولاً بالله سبحانه وتعالى .

إن الإنسان أول ما يدخل في الدين يؤمن بالله سبحانه وتعالى ، وبعد ذلك يتلقى عن الله سبحانه وتعالى .

إذن ... فخلق الله سبحانه وتعالى ، مشروط بأنه آمن به سبحانه وتعالى ، فما عليه بعد ذلك إلا أن يؤثق الكلام ، أضدَرَ مِنَ اللَّهِ ، أَمْ لَمْ يَضُدْ ؟ فَعَلَهُ إِيْمَانُ الْمُؤْمِنِ بِأَيِّ حُكْمٍ ، أَوْ بِأَيِّ حَدِثٍ صَادِرٍ عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ تَوْثِيقُ صُدُورِهِ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وبعد أن يؤثق صدوره عن الله سبحانه وتعالى ما عليه إلا أن يؤمن به وبأنه حدث ، وبعد ذلك لعقله أن يجول بطلاقاته ؛ حتى يمكن أن يؤنس عقله بأن ذلك الحدث يكون وليس مُحَالًا .

إن هذا الحدث استهله الله سبحانه وتعالى بكلمة : ﴿سُبْحَنَ﴾ ، ومعنى كلمة «سُبْحَنَ» أول ما تقع على الذهن تعطى الإنسان طاقة قوية تبعده عنه كل شبهة مقارئة ، والتي تأتي بين قانون المادة الأرضية الإنسانية ، وبين قانون الله سبحانه وتعالى ، وإن معنى «سبحان الله» : أن الله سبحانه منزه في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله ، فإذا صُدِرَ فعل ، وقال الله سبحانه وتعالى أنه صدر منه ، فجب أن أنزّهه أنا عن قوانين البشرية ، ولا أخضع فعل الله سبحانه وتعالى إلى قانون فعلى .

من أسباب الهجرة

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِغُوا مِنْ أَرْضِنَا لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِسُونَ جَنَاحَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء . ٧٦] يستفر أي يحب ، فهو من الخفة ، مثلما نقول لابتك المشاغل عن القيام : فر ، أي انهض بسرعة وخفة . والأرض : المقصود بها مكة ، والنبي ﷺ كان يحب مكة ولكن الكافرين بالعوا في إيذائه ومحاربه حتى يكره الإقامة بها ، ويخرج منها ؛ لأنهم يظنون أنه إذا خرج من مكة مستتهى دعوته ؛ لأنهم كانوا يرون أن أنصاره وأنبائه في مكة ، فإذا تركها حسر الأتباع والمناصرين . ولذلك يطمئن الحق سبحانه ورسوله ﷺ أنه حتى لو خرج من مكة فلن يلبثوا بعده إلا قليلاً فهم يؤذون الرسول ﷺ ليخرج ، ولكن الخروج لا يكون إلا بأمر الله تعالى ، قاله سيتركهم حتى يتركوا ويحبوا لقتل الرسول ﷺ ، ثم يظل سبحانه مكيدتهم وتأمرهم ويحيي بقدرته وعظمته ﷻ من مكرهم .

وذلك لأن الحق سبحانه وتعالى أخبر القوم المعادين لرسول الله ﷺ أنهم لن يظفروا به بأي شكل من الأشكال ، فلن يقدروا عليه لا بالمواجهة ولا بالتآبيس والمكر ، حتى لو استعانوا بالجن في الكيد للرسول ﷺ أو محاولة النيل منه ، فإن الله تعالى سيجي

فكانه سبحانه يقول لهم : لا سبيل لمحاربة هذا الدين ؛ لأنكم لن تستطيعوا أن تغلبوا عليه
 لا جهازاً ولا تيسراً ، وحتى لو استعنتم بالجزء الأقوى منكم ، فإن تقموا في وجه هذه الدعوة ؛
 ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ
 الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة : ٣٣] .

إذن .. قوله تعالى : ﴿وَإِنْ كَادُوا يَسْتَخْرِضُوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا
 يَلْبِثُونَ بِحِلَّتِكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فالمراد هنا : وإن كادوا ليجعلوك تحف إلى الخروج من مكة
 ليجرحوك منها ، ولو حدث لذلك عن يلبثوا حلالك إلا قليلاً ، وصدق الحق سبحانه فيما أخبر
 به رسوله ﷺ ، فبعد عام من الهجرة حدثت موقعة « بدر » وانتصر المسلمون انتصاراً كبيراً ،
 وقتلوا سبعين من صناديد قريش ، وأسروا سبعين آخرين ، فلم يتمتع المشركون بمكة بعد خروج
 الرسول وأصحابه منها ، لم يتمتعوا بالأرض ولا بالنعيم ولا بالسيادة التي كانوا فيها .

وقوله تعالى : ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾
 [الأنعام : ١٠٥] أي لماذا لم يغير هؤلاء القوم بما حدث للأئمة السابقة الذين كذبوا رسل الله
 وآدوهم ، فكانت عاقبتهم البوار والخسران . والسُّنَّةُ هي العادة التي لا تتغير ، وسُنَّةُ الله لا
 يستطيع أن يحولها أحد .

هجرة النبي ﷺ والصديق ﷺ

ما دام الإنسان قد آمن بأن العبادة لا تجوز إلا لله وحده ، والاستعانة به جل شأنه . ما دام
 هذا الإيمان قد استقر في القلب وظهر في السلوك ، فلا بد أن ينصر الخالق سبحانه عبده المؤمن
 على حصوم الإيمان ، وهنا نحب أن نذكر حقيقة يجب ألا تغيب عن الأذهان ، أن على المؤمن
 ألا يعتقد أن هناك مخلوقاً من مخلوقات الله قادر على أن يقف معانداً لله تعالى ، إنما يقف الخلق
 المعاندون ببعضهم لبعض في صراع بينهم ؛ لذلك فإننا نجد في العادة أن القوى يهزم الضعيف ،
 لكن إذا التحم الضعيف المؤمن بمهيج الله ضد خصم معادي فإن خصمه لن يقدر عليه حتى ولو
 كان الخصم قوياً ، وسوف يكون الانتصار للضعيف المؤمن الملتزم بمهيج الله على الذي تخيلنا
 أنه قوى ، لكن قوته مجردة من الإيمان .

ولنأخذ من هجرة الرسول الكريم ﷺ درساً ، فقد هاجر الرسول ﷺ من مكة ومعه أبو

بكر الصديق إلى المدينة : ليتقى المؤمنين هذا العذاب الذي كانوا معرضون له من قتل كفار قريش .

ودخل الرسول ﷺ ومعه أبو بكر إلى عار ثور ؛ يحتميان فيه من الكفار الذين خرجوا للبحث عن محمد ﷺ ، هذا الذي حطّم آلهتهم وسقّه أحلامهم ، وكلنا نعرف قول أبي بكر الصديق لرسول الله ﷺ في هذه اللحظة : « لو نظر أحدهم تحت قدميه لرأى » ، وكان رد الرسول الكريم ﷺ على صاحبه أبي بكر واضحا جليا يبعث على الاطمئنان ؛ لقد قال الرسول الكريم ﷺ : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما »^(١)

والقرآن الكريم يؤكد هذا القول الواضح بهذه الآية الكريمة : ﴿ إِنْ نَصْرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَابِتًا إِذْ هُمَا فِي الْعَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْرُجْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَاسْرُكْ اللَّهُ سَكِينَتُهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِقُوَّتِهِ فَلَمَّا تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٤٠] . إن هذا القول الفصل يوضح لنا أن الإيمان المطلق بالله تعالى ، وبأنه مالك كل الأسباب قادر أن يبعث الطمأنينة والسكينة في قلب الرسول ﷺ وصاحبه أبي بكر ، والله القوى القادر قد صرف بقدرته نظر الكفار عن الرسول ﷺ وصاحبه وهما في الغار .

ومن هذه الحكاية نستفيد ما يلي

أن أى صراع يحدث بين إنسان وآخر قد يكون أحدهما قويا أو يكونان متساويين في القوة ، فإن العلبة والانتصار سيكونان للأقوى ، أما إذا قام صراع بين إنسان مؤمن وآخر غير مؤمن ، فإن الغلبة ستكون للإنسان المؤمن مادام قد آمن بالله ، ولن يتصر عليه أحد إلا إذا شرد بعيدا عن مهج الله ، نصرب مثلاً على ذلك لتقريب المسألة العقائدية - ولله من نبل ومن بعد لكل الأعلى لنفرض أن رجلاً له غلامٌ صغير ، ووقف الرجل ؛ ليتحدث إلى صديق له ، ذهب الغلام الصغير بعيداً عن أبيه ليلعب في الشارع ، وتصدى لهذا الغلام الصغير أطفال أكبر منه في القوة والعمر ، فلم يلجأ الغلام ؟ لا بد أنه سيلجأ إلى أبيه ، وفي اللحظة التي يلجأ

(١) أخرجه البخاري (٣٦٥٢) ، ومسلم (١/٢٣٨١)

الغلام لأبيه يصاب الأولاد الأكبر منه بالخوف لأن اللطم أليماً فوالد قادر على حماية ابنه .

يحدث ذلك من أب وابن ، كليهما مخلوق من مخلوقات الله ، فما بالنا بالخالق لكل الوجود ، ماذا يحدث عندما يحتذى صاحب حق ضعيف بالخالق سبحانه وتعالى ؟ ما بالنا بإنسان بذل كل ما في طاقته ؛ لتحقيق هدف في حدود منهج الله ، فكثير عليه المكذبون بمنهج الله ، فاستجد هذا الإنسان المؤمن بالحى القيوم .

إن الحماية هنا لن تكون حماية أب لابنه ، ولكنها حماية خالق لمخلوق ؛ لذلك فعندما يقف عبد مؤمن ملتزم بمنهج الله ، فلا بد أن يهزم العبد المكذب بمنهج الله ، وقرأ قول الله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُنَاكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر : ٣٦] .

بهذا المطلق الإيمانى كان الرسول الكريم ﷺ يواجه قريشاً يكفرها وجاهليها وجاهليتها ، لقد اختاروا الصلال وأنزوا أن يُسلموا مع الرسول ﷺ لله الواحد الأحد ، فكانت النتيجة الحتمية أن انتصر الرسول ومن معه ، واندحر الشرك وحزبه ، وهكذا الإنسان المؤمن بالله تعالى .



الرسول ﷺ وصاحبه في غار ثور

في طريق هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة ، التجأ هو وأبو بكر رضي الله عنهما إلى غار ثور واختبأ داخله ، وجاء الكفار ووقفوا عند مدخل الغار ، وسيطر الخوف على قلب أبي بكر خشية أن يقع رسول الله ﷺ في أيدي الكفار ، وقال لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ، وكان أبو بكر بذلك يقرر واقفاً ، فالكفار واقفون على باب الغار ، والنبي ﷺ وأبو بكر في داخله ، وبظرة واحدة من الكفار إلى داخل الغار تكشف الأمر كله .

فماذا قال رسول الله ﷺ ؟

رفع الأمر إلى الله وقال : ﴿ حَاطَّتْ بَاطِنُ اللَّهِ ثَالِثَهُمَا ﴾ . وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة :

﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّكَ اللَّهُ مَعْنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] .

إذن .. فالرسول ﷺ رفع الأمر إلى الله ، فهو وأبو بكر في محبة الله ، قول أبي بكر : لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا . هو قول الإنسان الخائف ، ولكن قول الرسول ﷺ : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّكَ اللَّهُ مَعْنَا ﴾ . معناه أنه بقدرته البشر لو نظروا تحت أقدامهم لرأونا ، ولكن ما دما في حماية الله تعالى وعنايته فإنهم لن يرونا ؛ ذلك لأن قدرة الله ستريخ أبصارهم فلن يرونا ، وحتى إذا نظروا تحب أقدامهم فلن يرونا ؛ وذلك لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي يحفظنا ، ونحن لا نحفظ أنفسنا ، وهكذا جاءت هذه الآية ؛ لتبين لنا كيف أن الله سبحانه وتعالى إذا كان معنا كانت لنا الغلبة ، وأنا يجب أن نستعين بالله في جميع الأمور

اثنان .. الله ثالثهما

يقول تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ رِضْوَانُ اللَّهِ أَكْثَرُ لِيُثَبِّتَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [إبراهيم - ٢٧].

القول الثابت معناه أنه حق لا يحتره تغيير ، فالناس تتميز من حوله وهو يظل ثابتاً . والثبوت يختلف في أعراف الناس باختلاف المذهب ؛ افترض أن عندك عموداً محلخلاً في البيت وجئت له بمهندسين ليشبوه ، فمدا يفعلون ؟ يعمدون له دعائم رضية من أسفل . وتقول : أنا أحضرت له مهندسين كبيراً ثبته ، إذا كان هذا في البشر ، فما بالك إذا كان الله هو الذي سيثبت ؟ فهذا يردك إلى أن الميث لم يطرأ على تثبيته حلل

إذن .. فكلمة تثبت دلالتها على أن الإنسان ابن أغيار ، وقد تقابله مصاعب ومتاعب في حياته ، فنقول له : إياك أن تحور .. لماذا ؟ لأن لك رباً .

ورسول الله ﷺ حينما كان في العار وجاء القوم يبحثون عنه ، ومروا أمام الغار ، قال أبو بكر : لو نظر أحدهم تحت قدميه لرأنا . فمادا قال له الرسول ﷺ المطلق كلاً يقتضى أن يقول له : لا . حتى لو نظر أحدهم تحت قدميه فلن يرانا ، ولكنه لم يقل له ذلك ، وإنما قاله له : ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَكُمْ﴾ . أبو بكر يتكلم عن انقانون الكوني ، ورسول الله ﷺ يتكلم عن قانون حلق الكون سبحانه ، أبو بكر يقول بقوانين الكونيات لو نظر أحدهم تحت قدميه لرأنا ، ورسول الله ﷺ يتحدث وكنه ثقة بأن الله لن يسلمهما فيقول : ﴿يَا أَيُّهَا بَكْرُ ، مَا ظَنُّكَ بِاثنينِ اللهُ ثالثهما﴾ .

إذن .. فوجه الرد على عبارة أبي بكر وهو يقول له : لو نظر أحدهم تحت قدميه لرأنا . كيف عدل عن قوله : لا ، لن يرانا أحد حتى لو نظر تحت قدميه . إلى عبارة أخرى هي : ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَكُمْ﴾ ؛ ها النبي ﷺ أراد أن يلمت أبا بكر إلى قضية إيمانية ، ليس لأن نظره سكون صعباً فلن يرونا ، ولكن لأننا في معية الله سبحانه وما دمنا في معية الله ، فإله تعالى حافظنا مهم ومن شرهم ، والله تعالى بالعمى قد جعل لكل شيء قدراً .



دليل النبي ﷺ في الهجرة

كانت معرفة الطريق من مكة إلى المدينة على ركن رسول الله ﷺ تحتاج إلى خيرة حتى يتجنب الواحد منهم المفارقات والمناهات وحيسا قام الرسول ﷺ بالهجرة اتخذ دليلاً للطريق ، وكان دليله كافراً ، فلا يتأني السير في مثل هذه الأرض بلا دليل .

سراقة بن مالك يتتبع أثر رسول الله ﷺ

كان سراقة بن مالك يتتبع أثر الرسول ﷺ ليعوز بالجائزة التي جعلها الكفار لمن يدلهم على مكان الرسول ﷺ . وكان على فرس له ، فساخت قوائم الفرس في الرمل ، وهذه من المعجزات التي قال الله عنها : ﴿وَأَيُّكُمْ يَجْشُرُ لَمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة : ٤٠] ففهم سراقة من ذلك أنه مع من متابعتهم ، وأن النبي ﷺ ظاهر على قومه فناداهم وقال لهم : أنظروني أكلمكم هو الله لا أرىكم ولا يأتاكم مني شيء تكرهونه ، فأمر رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه أن يقول له : وما تبغني ما ، فقال سراقة : تكتب لي كتاباً يكون آية بيني وبينك ، فأمر النبي ﷺ أبا بكر أن يكتب له فكتب له ، فأحذه ورجع ولم يذكر شيئاً مما كان ، حتى أسلم بعد فتح مكة .

غزوة بدر الكبرى

خرج رسول الله ﷺ إلى بدر هو والمؤمنون للاستيلاء على قافلة لقريش كانت مع أبي سفيان ، وهو في قلة من العدد ، فلما بلغ أبا سفيان خبر خروج النبي ﷺ بعث إلى مكة صمصم بن عمرو يستنصر فريشاً لأجل أموالهم ، رغباً أبو سفيان بالعمير ثم بعث إلى قريش إن الله نجي أموالكم فارجعوا . فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نرى بدراً ، فنقيم هناك ثلاثاً ، ونحرق الجزر ، ونطعم الطعام ونشرب الخمر ، وتصرب علينا القيان ، وتسمع بنا العرب ، فلا يزالن يهايرننا أبداً .

وهكذا وجد الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين أنفسهم مدفوعين إلى حرب لم يستعدوا لها مع كفار قريش فاستشار ﷺ أصحابه . فقال أبو بكر فأحسن . وقال عمر فأحسن . وقال اعداد - يا رسول الله ، امض لما أمرك الله فنحن معك ، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل

لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون . والذي بعثك بالحق ، لو سرت بها إلى نزاره
العماد ، لجالدنا من دونه .

فقال له رسول الله ﷺ خيرا .

ثم قال : أشيروا علي . - وإنما يريد الأنصار - .

فقال سعد بن معاذ : امض لما أردت ، فوالذي بعثك بالحق ، لو استعزمت به هذا البحر
فمحصنته ، لحصناه معك ، إنا نصبر عند الحرب ، فيز بها على بركة الله .

فقال : سيروا على بركة الله وأبشروا ، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين والله لكأني
أنظر إلى مصارع القوم .

ثم سار حتى نزل قريثا من بدر ، فلما رأى ﷺ قريشا استقبل القبلة ومد يديه وقال :
« اللَّهُمَّ إِن تَهْلِكْ هَذِهِ الْعَصَاةَ ، لَا تَعِدْ فِي الْأَرْضِ »^(١) .

فما زال يستغيث حتى سقط رداؤه ، فأتاه أبو بكر ، فأخذ رجليه فرفأه ، ثم التزمه من وراءه
ثم قال : يا بى الله ، كمناك ماشدتك ربك ، فإنه سيسجز لك ما وعدك .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
لَكَرِهُونَ ﴾ [الأنفال : ٥] ؛ ذلك أنه حين أفلتت قافلة قريش ووجد المؤمنون أنفسهم يواجهون
حرثا لم يستعدوا لها ، كره بعضهم ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ لَكَرِهُونَ ﴾ ليست طلع في المؤمنين ؛ لأنهم خرجوا ولا خيل معهم إلا
ثلاثة ، فكان حيلة الكراهية ليست تأييدا على أوامر الله ، ولكن لأنها إذا أحداها بالأسباب ..
نرى أن المقاييس البشرية للحرب مختلفة بين المؤمنين والكفار ، فالكفار مستعدون استعدادا جيدا
للحرب ؛ معهم السلاح والفرسان ، وهم يزيد عددهم على تسعمائة .. بينما المؤمنون
يتجاوزون الثلاثمائة بقليل .

ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أب تعلم المؤمنين أن الصبر ليس بالعدد ولا بالغدة ، وإنما هو
من عند الله سبحانه ، فأراد الله تعالى أن يصبر هذه القبلة من المؤمنين على كفار مكة بعددهم
الضخم وعدتهم الكثيرة القوية وكل ما استعدوا به ، فكان الله يريد أن يؤكد لها حقا يجب أن

(١) أخرجه مسلم (١٧٦٣) من حديث عمر رضي الله عنه .

يلتصت إليه المؤمنين جيّدًا ، وهو أن النصر من عند الله .

والرسول ﷺ حرج في قضية حق ، وطالبا لحق ، ولكس فريقا من المؤمنين الذين كانوا معه كرهوا أن تُنقل العملية من مجرد استيلاء على قافلة عوضًا عما أخذته فريقًا منهم إلى قتال لم يستعدوا له .

والفرقة هي : الجماعة ، والجيش عادة يتكون من عدة فرق ، والذين قال عنهم الله تعالى :
إنهم كارهون . لم يخرجهم من صفة الإيمان .

فالحق تعالى يقول . ﴿ كَيْبَ عَلَيْهِمْ أَلْفِئَالٌ وَهُوَ كَزْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة ٢١٦] ثم يفهم القضية فيقول . ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ .

أى أن القتال ولو أنكم تكرهونه إلا أن فيه خير لكم ، فلو لم تقاتلوا لاستهان بهم الناس واستعبدوكم وأعلنوا كل ما تملكون .

أيكون القتال في هذه الحالة هو الخير ، أم عدم القتال والاستسلام للناس هو الخير ؟ بالطبع القتال هو الخير .

ولما خطب النبي ﷺ الناس ، وشاورهم ، وكأبه ﷺ يستطلع رأى الأنصار فقام سعد بن معاذ رضى الله تعالى عنه فقال : يا رسول الله ، إنك خرجت لأمر ، وأحدث الله غيره ، فانظر الذى أحدث الله إليك فامض له .

فنزل قول الحق تعالى : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ﴾ [الأنفال ٥] والبيت هنا مقصود به بلديّة النورة ؛ لأنها هي بيت رسول الله ﷺ والمؤمنين وذلك بعد أن هاجروا إليها واستقر بهم المقام فيها .

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ يُحَادِّثُونَكَ فِي الْحَقِّ بَدْمًا بَيْنَ كَانَمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَطْرُقُونَ ﴾ [الأنفال ٦] .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ يُحَادِّثُونَكَ فِي الْحَقِّ ﴾ أى : يجادلونك فى القتال بدعوى أن القوتين غير متكافئتين .

وقوله تعالى : ﴿ بَدْمًا مَا بَيْنَ ﴾ ؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد وعد رسوله ﷺ إما القافلة وإما النصر فى المعركة .

وكان فريق من المؤمنين يريدون الغنيمة السهلة ، بأن يستولوا على القافلة ويأخذوا أموالها ، وبذلك يكونوا قد استردوا جزءًا من أموالهم التي استولت عليها قريش حينما هاجروا إلى المدينة فرارًا بدينهم ، ولكنهم لم يتبهاوا إلى أنه ما دام الله قد احتار لهم القتال ، فهو أنفع لهم في دينهم وأنفسيهم من القافلة وما فيها ؛ لأن الاستيلاء على القافلة لا يعطى لقضية الحق شيئًا اللهم إلا حياكم دينوية يتفع بها فريق من الناس لوقت ثم تنتهي ، ولكن الانتصار في المعركة يعطى اسلمين القوة والهيبة ، ويُعلى شأنهم في الجزيرة كلها ، ويلقن كفار قريش درسًا بأن هؤلاء اسلمين الضعفاء قليلي العدد ، هم بدينهم وإيمانهم أقوى من الدنيا كلها ، ولذلك كان قدَّرَ الله سبحانه وتعالى هو القتال وليست القافلة .

ولكن فريقًا من المؤمنين لم يتبها إلى قدر الله في اختياره ، وهم الذين وصف الله تعالى حالهم في قوله تعالى : ﴿ كَانُوا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَمْطُرُونَ ﴾ والسوق لا يكون من الأمام ، ولكن القيادة هي التي تكون من الأمام ؛ لتدل الناس على الطريق ، أما السوق فيكون من خلف تمامًا كما يسوق الراعي العنم ؛ فهو يمشي خلفها ، حتى يتأكد أنه لا تشرد واحدة من العنم ، ولا يكون السوق بغاية من يساق ، فلا يتبع الراعي العنم حيثما تريد ، وإنما يتبعها إلى طريق مرسوم .

وقول الله تعالى : ﴿ يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ ﴾ معناه : أنهم ليسوا داهيين باختيارهم ، وإنما مدعوون دفعا ، فكان بشاعة صورة الموت في لقاءهم مع ما يقرب من ألف مقاتل من قريش مسلحين تسليحًا جيدًا وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر ، أى : أن كل واحد منهم سيقا تل ثلاثة من الكفار مجهرين تجهيزًا كاملاً للقتال . هذه الصورة جعلتهم يعتقدون أنهم بلا شك في هذا القتال سيقابلون الموت ولن يتجر منهم أحد .

ولذلك لم يكن ذهابهم لقتال دهاب إسان واثق من النصر ، ولكن ذهاب إنسان واثق من الموت ، ولم يتبهاوا إلى قدرة الله سبحانه الذي يستطيع أن يصمرهم حتى ولو أنهم قلّة في العدد والعدة .

الحق سبحانه وتعالى حينئذٍ كرههم بوعده لهم بالانتصار فيقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ يَبْعَثُكُمْ اللَّهُ إِتْدَى الطَّائِفِينَ أَمْهًا لَكُمْ رَوْدُوكَ أَنَّ عِبْرَ ذَاتِ الشُّوْكَوْ تَكُوْثُ لَكُمْ ﴾ [الأنفال : ٧] أى : أنه بالرغم من أن الله وعدكم بالنصر ، إلا أنكم تريدون نصرًا مريحًا ليس فيه

شوكة ، والشوكة هي الشيء المذنب العرف بعد بسهولة في غيره ؛ لأنها تكون سبيكة من أحد طرفيها رمية من الطرف الآخر ؛ حتى تكون قاعدتها غليظة تستوعب قوة الضربة ، ومقدمتها دقيقة تنفذ في الجسد بسهولة ، وتكون حادة تمامًا مثل رأس الحربة .

اللَّهُ سبحانه وتعالى وعدهم بالمصر ، وما دام الوعد من الله ، فهو لابد واقع لا محالة ؛ لأن وعد إنسان لإنسان قد لا يتحقق ، فالإنسان يعيش عالم أعيار ، قد يموت قبل تنفيذ وعده ، وقد يصعب فلا يملك القدرة على التنفيذ ، وقد يأتي من هو أقوى منه ويمنعه ، وقد يغير الإنسان رأيه عندما يحين تنفيذ الوعد فيبحث بوعده .

ولكن إذا وعد الله سبحانه وتعالى بوعده الحق ، لأنه رب كل شيء ومليك القادر القاهر فوق عباده لا يُغجره سبحانه شيء في الأرض ولا في السماء .

إذن .. المؤمنون يرمون غير ذات الشوكة ، أي القاطلة التي يستولون عليها بسهولة ، وبدون مشقة ، ولا تعرض في ذلك لقتل ؛ لأن حراس القاطلة قليل ، قيل : إنهم أربعون فارسًا ، يسما المؤمنون ثلاثمائة ويريد .

ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أمرًا آخر ، أراد سبحانه : ﴿أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ وذلك بأن يعلم الجميع أن المصر من عند الله سبحانه ، وأن الله الذي اصطفى محمدًا وأرساه للناس ، لا يمكن أن يتحلى عه حتى ولو كان في جيش ضعيف قوامه ما يزيد عن الثلاثمائة بقليل في مقابل جيش قوى يقارب عدده الألف جندي .

وقوله تعالى : ﴿وَيَقْطَعُ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ الدبر : هو الخلف ، ويقطع دابرهم ، أي يجعلهم يشعرون بالهوان والدلة ؛ لأنك في أي قتال أو حرب لا تشعر بالأمان إلا إذا كان وراءك من يؤمنوك ، فإذا ذهب هؤلاء وانكشف ظهرك عرفت أن الهزيمة بلا شك قادمة ، هربتك وتفر من القتال .

والله يريد بهذا أن يُغلّم الكافرون أن ظهرهم مكشوف ، وأنهم لا يستندون إلى شيء ، وإنما ظهورهم مكشوفة ؛ كما أن الله سبحانه وتعالى يُرى هؤلاء الكافرون أن كثرتهم وقوتهم مع اعتمادهم على اباطل لا يعطيهم نصرًا ، بل يستأصلهم من جذورهم ، فلا تقوم لهم قائمة .

وقوله تعالى : ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأمن ٨] : لأن المجرمين يكرهون إحقاق الحق

وأظهاره ولا أن تكون له دولة ؛ لأنهم يريدون أن تدوم دولة الباطل ؛ لأنها هي سلطانهم وهي قوتهم ، فإن زالت زالوا .

الملائكة تشهد بدر

يقول الله تعالى : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ ﴾ [الأنفال : ٩] الاستغاثة هي طلب الغوث ، ولا يطلب الغوث إلا من قادر عليه ، وأصلها : من العيث وهو المطر . فعندما تجذب لأرض يتجه الناس إلى طلب الغوث ؛ لأنهم يحسبون أن حياتهم مهددة ، فماء هو أصل الحياة ، وطلبهم الغيث هو طلب لإبقاء حياتهم .

والمؤمنون في حرب ، وهي حرب قد يمتد فيها ؛ لأنهم يواجهون عدوا أقوى منهم في العدد والمعدة ؛ لذلك هم يستغيثون بالله ، والذي استعاث هو رسول الله ﷺ ؛ فقد رفع يديه إلى السماء وقال : « اللَّهُمَّ أَنْجِرْ لِي مَا وَعَدْتَنِي »^(١) .

ولكن الله يقول : ﴿ تَسْتَغِيثُونَ ﴾ والمستغيث واحد هو رسول الله .

نقول : إن الناس غفلوا عن أن هناك داعيا واحداً ومعه مؤمنون ، الداعي هو الذي يدعو ، والذين معه يقولون : آمين .

وهذا واضح في قول الحق : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ مَآبَتِ رِجْوَانَا فَاخْلُصْنَا مِنْ هَٰذَا وَمَا كُنَّا بِمُعَظَّمِي لِحُكْمِكَ فَخَلَّصْنَا مِنْ هَٰذَا وَاجْعَلْ لَّنَا ذِكْرًا وَإِمَامًا ۚ إِنَّكَ بِمَا كُنَّا فَعَلْنَا لَنَشْكُرُكَ ۖ فَلَا يَؤُومُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٨٨] من الذي دعا ؟ الذي دعا هو موسى عليه السلام . بنص القرآن .. ولكن لاحظ ماذا قال الله سبحانه وتعالى بعد ذلك ، قال جل جلاله : ﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا ﴾ [يونس : ٨٩] وهذا دليل على أن موسى دعا وهارون قال : آمين . إذن .. فالمؤمن أحد الداعين .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ ۖ إِنَّكُمْ بِأَيْدِي مَلَكَيْتِكَ لَمُتَّحِقُونَ ﴾ [الأنفال : ٩] أي أنه عندما حدثت الاستغاثة استجاب لها الله ، وأمر ملائكته بأن يقاتلوا مع المؤمنين .

ولكن من هم الملائكة ؟ إنهم عالم من خلق غيبي عا ، يجب علينا الإيمان بهم ، والذي

(١) أخرجه مسلم (١٧٦٣) واللعظ له ، وأبو داود (٢٦٩٠) ، والترمذي (٣٠٨١)

أخص الله بهم هو الله سبحانه وتعالى ، كما أخبرنا عن وجود الحق ونحن لا نراه
الناس يقول : كيف يكون هناك موجود ولا يرى ؟ وبعض الناس أنكروا وجود الجن
والملائكة وقالوا : إن الملائكة هم الأسباب الميكانيكية في الكون !! وهذا جهل منهم بدين الله
تعالى ، وإنكار لمعلوم من الدين بالضرورة .

والحق سبحانه وتعالى حين يتكلم عن أمر غيبي ، فمن رحمته بعباده أن يوجد في كونه من
المشهودات ما يقرب هذا الغيب إلى عقولنا ، فيجعلنا نكتشف أشياء كانت غيباً عنا ، لم تخلق
وقت اكتشافها ؛ لنعرف أن هناك فرقاً بين وجود الشيء وإدراك وجوده .

فإذا تحدثنا عن الميكروبات مثلاً التي لم يتم اكتشافها إلا في القرن السابع عشر ، هل
خلقت الميكروبات في هذا القرن ؟ أم كانت موجودة من قبل ؟ كانت موجودة ، وتخترق
أجساد الناس وتدخل وتتكاثر وتسبب الأمراض ، كل هذا دون أن ندري عن وجودها شيئاً ،
فلما شاء الله سبحانه وتعالى لها الظهور دل على من اكتشفها ، فمرناها بعد أن كنا لا ندري
عنها شيئاً .

إذن .. إذا جاء حديث من الله عن أن هناك خلق موجود وأنت لا تدركه ، فخذ بما
أدركت وجوده ليلاً على تصديق أن هناك أشياء موجودة ، ولكنك لا تدرك وجودها .

غزوة أحد

غزوة أحد هي الغزوة الكبرى الثانية بعد غزوة بدر الكبرى ، وغزوة بدر الكبرى انتهت
بنصر المسلمين وهم قلة في العدد ، وفي العدة ، ومع أنهم لم يذهبوا إلى بدر ليشهدوا حرباً ،
ولمّا يصادروا أموال قريش في العمر القادمة من الشام عوضاً عن بعض أموالهم التي أجبروا على
تركها في مكة .

وشاء الله تعالى ألا يواجهوا العير المحملة ، ولكن قدر لهم أن يواجهوا الفقة ذات الشوكة ،
ونصرهم الله تعالى عليهم نصراً مؤزراً على ما فيهم من نقص في العدد والعدة .

ولكن هذا النصر - نصر بدر - وإن يكن قد جعل للمسلمين مهابة في قلوب خصومهم ،
إلا أنه قد أوجع نار الثأر والكره في قلوب المشركين الذين من المسلمين .

وروي أن أبا سفيان نذر ألا يمس النساء حتى يأخذ بثأر قتلى قريش في بدر ؛ كما منعت

النساء أن يكين على القتل ؛ لأن البكاء يريح النفس المنعبة ، وهم يريدون أن يظل الحزن مكبوتاً في نفوسهم ليصنعوا جيوداً حقدية تحرك النفس البشرية للأخذ بثأر هؤلاء القتل .

هذا من ناحية العاطفة التي يحبون أن تظل متأججة . أما من ناحية المال ؛ فقد احتفظوا بمال العير الذي نجا ؛ ليكون وسيلة لتدبير معركة يردون فيها اعتبارهم ؛ فقد مشى عبد الله بن أبي ربيعة ، وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش ممن أصيب أبائهم وإخوانهم يوم بدر فكلّموا أبا سفيان ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة فقالوا : يا معشر قريش ، إن محمداً قد وترككم وقتل حياركم فأعصونا بهذا المال على حربه ، لعلنا ندرك منه ثأراً . ففعلوا . فاجتمعت قريش ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة وخرجت بحدها وحديدتها وجدها وأحاديثها ومن تابعها وأطاعها لحرب النبي ﷺ والمؤمنين في جيش قوامه ثلاثة آلاف مقاتل ، ومعهم مائتا فرس ، وخرجوا ومعهم النساء الثماس الحفيظة ، وكلا يفروا ، فأقبلوا حتى نزلوا يعيين بجبل يطن السبعة من قناة عبي شعير الوادي مقابل المدينة .

تمحيص المؤمنين

حينما خرج المؤمنون لقتال كمار قريش تخلف المنافقون عن القتال بقيادة عبد الله بن أبي ابن سلول رعباً منه أن رسول الله ﷺ حالف أمره وخرج لملاقاة المشركين خارج المدينة ، وكانوا ثلث الجيش .

وفي هذا تمحيص للمؤمنين ، والتمحيص يأتي في الشيء الواحد ، والفرق بين التمييز والتمحيص هو : أن التمييز يأتي في شيئين ، كالتمييز بين الإيمان والكفر ، أما التمحيص فيأتي للمؤمن ويعرّفه عرّفاً يبين منه مقدار ما هو عليه من الثبات واليمين .

إن التمحيص يكون لفئة الواحدة ، وكأن الله يحص تلك الفئة المؤمنة ؛ لأنها ستكون بأمانة على حماية هذه العقيدة إلى أن تقوم الساعة . فلا يمكن أن يتولى هذا الأمر إلا أناس لهم ثلوث ثابتة ورباطة جأش وهم دونها زحارب الدنيا كلها . هذا هو التمحيص .

وبعد ذلك يعالج الحق النفس البشرية على أوضاعها البشرية ، وليس مجرد أنهم آمنوا قد انصبت فيهم كل عقائد الإيمان ؛ بل كل مناسبة تمر عليهم يعطى الحق فيها لفئة من العقيدة ، ليتكون من بعد ذلك الأمر العقدي كله

قال الله سبحانه وتعالى . ﴿إِذْ هَمَّتْ ثَلَاثَتَانِ مِنكُمُ أَنْ تَقَعَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران ١٦٢] إن الطائفتين هما : بنو سلمة ، وبني حارثة ، قيل : إنهما اختلفا في الخروج في العدة والمقام حتى هما بالفضل ، والفضل الجلب .
وقيل : إن عبد الله بن أبي ابن سلول حين انحزل ومن معه من قومه أهل الربيع والنفاق حاول أن يمرى بنى سلمة وبني حارثة بالرجوع معه وعدم لقاء المشركين ، فهما به ، ولم يفعلوا ، لأن الله تعالى قال . ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ ، أى : عاصمهما ، أو : أن الله ناصرهما

مشاركة النبي ﷺ لأصحابه

قال الله تبارك وتعالى : ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ يَتَّخِذُ لَهَا وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنَّصَرُوا مِنْ حَرِّكَ فَاعْتَفَ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرَ لَهُمْ وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران ١٥٩] .

إن قول الحق . ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ يَتَّخِذُ لَهَا وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنَّصَرُوا مِنْ حَرِّكَ فَاعْتَفَ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرَ لَهُمْ وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ . فأتت تبهم الأمر ، وعندها تبهم الشيء فكأنه شيء عظيم ، لأن الشيء تبهم إما لأنه صغير جدًا ، وإما لأنه كبير جدًا ، إن هذه الآية جاءت عقب أحداث حدثت في غزوة أحد منها :

الحدث الأول : لما سمع الرسول ﷺ والمسلمون بقدوم قريش ومن معه ونزولهم بعين على شفير الوادي مقابل المدينة شاور النبي ﷺ أصحابه ، فقال رجل من الأنصار متى نقاتلهم يا رسول الله إذا لم نقاتلهم عند شُغْبَا ؟

وقال رجال : ماذا نمنع إذا لم نمنع الحرب نروع .

وقال رجال قولاً صدقوا به ومضوا عليه منهم حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ قال : والدي أنزل عليك الكتاب بالحق لئلا تحالدهم .

رأى كثير من الناس إلا الخروج إلى العدو ، لم يتأهروا إلى قول الرسول ﷺ ورأيه ، فلما صلى الرسول ﷺ الجمعة وعط الناس وذكرهم وأمرهم بالجد والاجتهاد في التأهب للقتال وإعداد الجيش ، دعا بلامته فلبسها ثم أذن في الناس بالخروج ، فلما رأى رجال من ذوى الرأي أنهم أشاروا على رسول الله ﷺ بما يخالف ما كان قد بدر منه ، تراجعوا وقالوا . يا رسول

الله ، إن رأيت ألا تخرج ، فلا تخرج .

فقال ﷺ : « ما ينبغي لنى إذا ليس لأمت أن يضعها حتى يقاتل » . أى ما دام قد ليس أذاته فلا ينبغي له أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه .

الحديث الثانى : ثم بعد ذلك انحزل عبد الله بن أبى ابن سلول رأس المنافقين ومعه ثلاثمائة من قومه أهل البفاق والريب وقال : أطاعهم وعصاني ما ندرى علام تقتل أنفسنا هنا أيها الناس ، وكان رأيہ ألا يخرج من المدينة .

ومضى رسول الله ﷺ حتى برل الشعب من أحد فى عدوة الوادى وفى الجبل وحمل ظهره وعسكره إلى أحد وقال : لا يقاتلن أحد حتى أمره بالقتال وتعباً الرسول ﷺ للقتال وظاهر بين درعين - يضى ليس درعاً فوق درع - وأمر على الرماة عبد الله بن جبير ، وقال له : انضح الخيل عما بأن لا يأتوها من خلف ، إن كانت لنا أو علينا فائت مكالن لا تؤذين من قبلن وكان عندهم خمسون رجلاً ، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير .

وذلك قول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ حَضَرَتْ مِنْ أهلكَ نَبِيُّ الْمُؤْمِنِينَ مَقْلَعِدَ الْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٢١] .

قوله : « نبى » أى : توطن . ومعنى « توطن تعمى لهم مكانا يلتزمون به » . وكذلك كلمة : « مقاعد » فكأن الحق سبحانه وتعالى أعطى الإشارة فى الآيات لأن يكون المؤمنون عندما يوطنهم القائد فى أماكنهم عليهم ألا يتزعزحوا عنها .

وبعأت قريش وهم ثلاثة آلاف ومعهم متنا فرس قد جنبرها فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد وعلى مسرتها عكرمة بن أبى جهل ، وعلى المشاة صفوان بن أمية ، وعلى الرماة وكانوا مائة عبد الله بن أبى ربيعة ، وكان لواؤهم مع عثمان بن طلحة .

ولما وصل النبى ﷺ أحد صف المسلمين بأصل أحد أى سمحه . وصلى بهم الصبح صفوفاً عليهم سلاحهم وأعطى النبى ﷺ سيمه إلى أبى دجانه .. وصف المشركين بالسبحة .

فلما انتهى الناس كان أول من أنشب الحرب أبو عامر العاسق وكان يسمى فى الجاهلية الراهب ، همام رسول الله ﷺ العاسق - فنادى يا معشر الأوس : أنا أبو عامر . قالوا . فلا أنعم الله بك عينا يا هاسق ، فلما سمع ردهم عليه قال : لقد أصاب قومى بعدى شراً ثم قاتلهم

قتلاً شديداً، ثم تراموا بالحجارة، حتى ولى أبو عامر وأصحابه، فأقبل الناس حتى حميت الحرب، وقاتل أبو دجانة حتى أُمعن في الناس، وقاتل حمزة عم الرسول ﷺ فأُتخن خصوصاً في الرؤساء حتى قتل أطله بن شرحبيل وكان أحد حملة لواء المشركين من بني عبد الدار، والتقى حنظلة وأبو سفيان فعلاه حنظلة، فضره شداد بن أوس فقتله.

ولما قتل مصعب بن عمير رضى الله تعالى عنه أعطى النبي ﷺ اللواء علياً، وهنا نادى طلحة بن أبي طلحة وكانوا يعدونه في المعارك بألف، من يبارز، محرراً فلم يعجبه أحد من المسلمين، فقال: يا أصحاب محمد زعمتم أن قتلاكم هي الجنة وأن قتلاتنا في النار، كذبتهم واللات والعزى لو تعلمون ذلك حقاً لخرج إليكم بمصكم، فخرج إليه علي رضى الله تعالى عنه فقتله. ثم حمل لوعهم مانع بن طلحة فرماه عاصم فقتله، ثم حملة الحارث بن طلحة فقتله طلحة بن عاصم، ثم حملة كلاب بن طلحة فقتله الزبير، ثم حملة الجلاس بن طلحة فقتله طلحة بن عبيد الله ثم حملة شريح بن قارظ فلا يدري قاتله، ثم حملة صواب علامهم فقتله قرمان، ثم أنزل الله تعالى نصره على المسلمين وصدقهم وعده فحسوا الكفار، أي: استأصلوهم قتلاً بالسيوف حتى كشفوهم عن العسكر، فولى المشركون فارين هارين، وتبعهم المسلمون حتى أجهضوهم، ووقعوا ينتهبون العسكر ويأخذون ما فيه من العاثم وانتشلوا بها عن الحرب فلما رأى الرماة ذلك قالوا: الغنيمة العنيفة، لقد ظهر أصحابكم فما تنتظرون.

فقال لهم أميرهم عبد الله بن جبير رضى الله تعالى عنه: أنسيتم قول النبي ﷺ لكم: ألا ترحوا. فأبوا، وقالوا: والله لنأتين الناس فلبصين من الغنيمة، فاطلقوا يتبعون العسكر وينتهبون معهم عندئذ نظر خالد بن الوليد إلى خلاء الجبل وقلة أهله فكثرت بالخيول وتبعه عكرمة ابن أبي جهل فحمى علي من بقي من الرماة فقتلوهم وقتلوا أميرهم عبد الله بن جبير وتصور إبليس لعة الله تعالى عليه في صورة رجل من الصحابة يقال له: جعال، فصرخ ثلاث صرخات أن محمداً قد قتل، ثم قال عدو الله عليه لعة الله تعالى: أي عباد الله أخراكم، أي اخترروا من الذين في أحراركم، يريد عدو الله أن يغلطهم فيقتلوا بعضهم بعضاً، فمطفوا يقتلنهم وهم لا يشعرون من الدهش وانكشف المسلمون وأصاب منهم العدو حتى خلص إلى رسول الله ﷺ فكسرت رباعيته وشج وجهه وكُلمت شفته، فجعل ﷺ يمسح الدم ويقول: كيف يفلح قوم غضبوا وجه نبيهم، وهو يدعوهم إلى الله.

وقالت دونه أم عمارة نسيبة بنت كعب رضى الله تعالى عنها، وقلت فارت من المشركين وقال عنها النبي ﷺ: «ما التفت يوم أحد يمينا ولا شمالا إلا وأراها تقانن دومي .. وتترس دونه ﷺ أبو دجانه رضى الله تعالى عنه بنفسه يقع السيل في ظهره وهو لا يتحرك، ورمى سعد بن أبي وناص رضى الله تعالى عنه دونه رسول الله ﷺ بألف سهم بعضها من سهام النبي ﷺ حين فرغت سهامه، فكان النبي ﷺ يباوله السيل ويقول: ارم فذاك أبى وأمى، فكان ذلك هر.

الحديث الثالث. الذى فيه حالف الرماة أمر الرسول ﷺ وتركوا مواقعهم رعم أنه ﷺ حذرهم من ذلك وقال «لا تبرحوا مكانكم، إن رأيتمونا ظهورنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهورا علينا فلا تعيونا» [أو كما قال]. ولكنهم حالقوا أمر الرسول ﷺ.

الحديث الرابع: مى قرلرهم حين قيل: قُتل رسول الله ﷺ.

الحديث الخامس. أنه حين كان يدعوهم، فرأى لا يذوون على شىء.

كل هذه لأحداث كادت تترك فى نفسه ﷺ ألآزا؛ ولذلك يقول الله تعالى له. ﴿يَسْمَا رَحْمَةً مِّنَ اللَّهِ لَيْتَ لَهُمْ﴾ وكأن الله تعالى يقول لرسوله ﷺ ما دامت الرحمة موهوبة من الله فلا بد أن يجعل الله فيها طاقة تتحمل كل مخالفة من أمثلك ومن أتباعك، ولسائل أن يقول. ولماذا المخالفة؟ نقول: إن الدين الجديد يحررهم عما ألفوا من أمور الجاهلية. والذى يخرج واحدا عما ألف لا يصح أن يجمع عليه الخشن العظ.

ولذلك يقولون للذى يصبح إنسانا: إن الصبح ثقيل؛ لأن الصبح معناه تحريم الفعل فى المصوح. فتقول للمصوح وأنت فى موقف الناصح: «لا تفعل هذا الأمر». وهذا معناه أن ذلك الفعل ردىء. وما دمت وأنت ناصح لآخر تحرم له فعلا، فلا تجمع عليه أمرين:

الأمر الأول: أنك تفصح عنه.

الأمر الثانى: أن تخرجه مما ألف بأسلوب يكرهه؛ لأنه فى حجة إلى المودة والتعاطف. ونحن نستعمل هذا الأسلوب فى حياتنا، إذ تقوم شركات الأدوية بتغليف الدواء المر بملاط حلوة الطعم، بحيث يمر من الفم بلا ألم، لأن الإحساس كله فى الفم بالنسيبة لسواد المتناولة من خلاله؛ لذلك يطلى الدواء بطبقة ناعمة سمنس وحلوة الطعم غالبا، حتى تمر من

منطقة الغم والبلغم التي فيها الإحساس بالتدوق إلى المعدة بحيث لا يشعر المريض بحرارة الدواء . فإذا كنا نفعل ذلك في الأمور المادية ، فمن باب أولى أن نفعل ذلك في الأمور المعنوية ... لماذا ؟ لأن الصبح ثقيل ، فلا تجمع جديلاً ، ولا ترسله جيللاً . إن الحقائق مرة فاستمعوا لها حمة البيان ، إن حفة البيان هي التي تؤدي العرص بدون استشارة وبدون إثارة وبلغظ يحسن على التقبل .

وقوله تعالى : ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا﴾ . «الفظ» هو : ماء الكرش ، فالإبل عندما تجد الماء تحزبه في كرشها ، إلى حين تحتاج إليه فتسرجه مرة أخرى .

ومياه الكرش هذه غير جيدة الطعم وآسنة قليلاً ، وشرب مثل هذا اللون من الماء يولد غصاضة في النفس لذلك سموها هذا الماء بالفظ وأطلق العرب كلمة «فظاظة» على خشونة القول . وغلف القلب هو الذي تنشأ منه خشونة الأعطاف .

وقوله سبحانه ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ العفو هو محو الدب محوًا تامًا ، كما تمحو الريح آثار الأقدام من على الرمال .

والعفو يختلف عن كظم العيظ ، فكظم العيظ يعنى أن أثر الغضب موجود في النفس . ولكن الإنسان يكتم هذا العيظ ، بمعنى أن الإنسان يكف جوارحه عن إظهار الانفعال . لكن العفو يعنى أن يزرع الإنسان أثر الألم والغيظ من أعماق نفسه

وقول الحق سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ : ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ : يعنى : إن كانوا قد أذنبوا ، فعليك أن تعفو عنهم وتستغفر لهم ، وقول الحق ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ هذا العفو مسألة خاصة برسول الله ﷺ ، أما قول الحق : ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فالاستغفار من الرسول ﷺ لله جل وعلا ، وكان الحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ : ياك أن تكره التشاور بسبب ما أشاروا به ، وترتب عليه ما ترتب في أحد . لقد أردت أن تبى في المدينة لكنك شاورتهم في الأمر ، فأشاروا بالخروج لنقاء كفار قريش . وما حدث يوم أحد لا يجب أن يقل باب المشاورة .

لقد كانت معركة أحد معركة تهذيب وتأديب وغميصة ؛ لذلك فلا يجب أن يترتب عليها أن تلغى المشاورة ؛ وهذا أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه لما ولى الخلافة وجاءت حروب الردة شاور جماعة المسلمين ، وعندما أشاروا بعدم قتال من ارتدوا عن الإسلام لم يأخذ مشورتهم .

والمشورة هي تنفيح الرأي بآراء متعددة العرص منها إرادة المستشار والاستعانة بأهل الحلّ والمقد، فإذا ما شرح الله صدره لرأى عزم عليه وتوكل على الله .
ويقول الشاعر :

شاوور سواك إذا سابتك نائبة يومًا وإن كنت من أهل للمشورات
لقد اهتدى الشاعر إلى كيفية تفريب المعنى له ، مما دام الإنسان من أهل المشورة والناس تأخذ رأيه ، فلماذا لا يشارو غيره ؟
ويكمل الشاعر النصيحة :

فالعين تنظر منها ما دنا وبأى لا تسرى نفسفسها إلا بمرآة
إن العين ترى الشيء القريب والشيء البعيد . لكن هذه العين تعجز عن رؤية نفسها إلا في المرآة . هكذا ينصح الشاعر صاحب الرأي السديد .

إن رأيه في أمور الغير قد يكون صحيحًا ومصيبًا ومقبلاً ؛ لأن عقل صاحب المشورة قد يكون مستوفى القدر الكامل من الاستيعاب ، وقد يكون هذا العقل لا هوى له فيما يقوله من رأى ، وأن الحق فقط هو الذى يجذبه ، أما في المسائل الخاصة بالإنسان نفسه . فقد يدخل فيها الهوى ويلوى المشورة وقد يطغى الهوى فيفسد رأى الصالح .

لذلك يقول الحق سبحانه . ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران ١٥٩] وقد عزم رسول الله ﷺ وليس أذاته ليحارب . ولم يكن من المقبول أن يأخذ الرسول ﷺ بالعم ، ثم يرجع عنه ؛ لذلك يقول الحق سبحانه . ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ وهذه هي فائدة الإيمان . إن فائدة الإيمان هي هذه المعادلة ، إن الجوارح تعمل والقنوب تتوكل ، فالجوارح عليها أن تأخذ بأسباب الله ؛ فالفلاح إن أراد الزراعة ، لابد أن يختار أجود البذور وأحسن السماد ، وأن يقوم بحرث الأرض حرثة حيدة وأن يتنظم في مواعيد الري ، وأن يحافظ على الزرع ويعتنى به وهذا كله من عمل الجوارح ، وبى ذلك كله تكون القنوب متوكة على الله في إحراج المحصول وفق ما يشاء الله سبحانه ويقدر ؛ لذلك لا يجوز أبدًا أن يقول الملاح المؤمن المحصول آت ، آت ؛ لأنى أحسنت أسبأى .. لماذا ؟ لأن المؤمن يتذكر دائماً الحقيقة الكاملة ، وهى أن فوق الأسباب مسبها وحالها وهو الله العلى القدير .

صدق الله تعالى وعده

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّدَكُمْ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحْسُرْتُمْ بِأَيْدِيهِ حَقًّا إِذَا فُتِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا أُرْسِلْتُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ مَرَرَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

قول الحق سبحانه ﴿وَلَقَدْ مَكَّدَكُمْ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ كأنه قد حدث وعد، والواقع جاء على وفق الوعد. فقال الحق سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَصْرَوُا اللَّهَ يَصْرِبْكُمْ وَلَيَأْتِيَنَّ أَقْدَامُكُمْ﴾ [محمد: ٧].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَجِدَنَّكُمْ فِي الْفِتْنَةِ﴾ [الصافات: ١٧٣] وبعد ذلك في التطبيق العملي، فإننا نجد أن الوعد قد تحقق، لكن متى يتحقق وعد الله تعالى؟
الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ مَكَّدَكُمْ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحْسُرْتُمْ بِأَيْدِيهِمْ تَحْسُرْتُمْ﴾ أي تذهبون جثثهم بالقتل، وأصله من الحس الذي هو الإدراك باحاسة. ومعنى: أذهبت حسه، أي: أفقدته الحس، أو «الحس» هو الصوت الذي يخرج من الإنسان، وما دام قد فقد الحس فإنه مات.

إن الحق يوضح للمؤمنين: أنكم حين صدقتم لقاءكم بعدوكم على منهج الله .. صدق الله وعده، وهذا في أحد عندما انتصر المسلمون في أول الأمر.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿حَقًّا إِذَا فُتِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا أُرْسِلْتُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] لقد بدأ الوهم في أحد من لحظة عصيان أمر الرسول ﷺ وترك الرماة للمواقع التي حددتها لهم النبي ﷺ رغبة في العائم، خاصة وأن الجولة الأولى كانت للمسلمين وبدأت في الأفق تباشر الفوز والنصر.

إذن .. الله تعالى يعطينا العظة والعبرة من معركتين، معركة بدر وهي التي صدق الله وعده فيها وانتصر المؤمنون لما التزموا منهج الله، وأيضاً صدق الله وعده في أحد، بحبيما تَحْتَنِي الرماة عن مواقعهم وخالفوا أمر الرسول ﷺ حدث للمؤمنين ما حدث.

إذن . فالأمور بالتجربة الواقعية لا بالكلام النظري ، إن الله تعالى صدق وعده ، فحيثما دخل المؤمنون القتال والتزموا بتوجيهات رسول الله ﷺ أول الأمر انتصروا ، وقتل ابن أبي طلحة الذي كان يحمل راية الكفار ومعه بصعة وعشرون كافرا في أول المعركة .
وعندما يقتل حامل الراية ، فمعنى ذلك أن الراية انكسرت .

إذن .. ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِأَيْدِيكُمْ﴾ ولم تحدث الهزيمة إلا حينما خالفتم أمر الرسول يقول رب العزة سبحانه : ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُشِيتُمْ وَأَنَّكُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أُرْسِلْتُمْ تَلْحُجُونَ﴾

إذن .. كان المشل حين حدث الشارع والعصيان والطمع في العائمه . فلو لم يحدث ما حدث ؛ لتشكك المؤمنون في هذا الدين وصدقه ؛ ولعلموا أنهم عندما يتحلون عن أمر رسول الله ﷺ ، فلا بد أن يكون المآل هو المشل والهزيمة .

وقوله تعالى : ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ صار المعسكر الواحد فريقين فمن أراد العائمه ، أراد الدنيا ومن ثبت على أمر الرسول ﷺ أراد الآخرة .

قال عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه : ما كنت أرى أن أحدا من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدين حتى نزلت فينا يوم أحد : ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾^(١) .

وذلك لا يتقدح فيهم رضى الله تعالى عنهم فالرماة ظنوا أن المعركة قد حسمت بعد أن رأوا سقوط راية الشرك وقتل حامليها ومعه نفر من رعماء قريش وأشراؤها الأمر الذى دفعهم للتخلي عن أماكنهم ؛ لم يتحلوا حبا ولا هرا من لقاء العدو ، لذلك عفا الله تعالى عنهم .
وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ ؛ ليحسبكم ويمتحنكم .

إذن . الأمر كان ابتلاء واختبارا للجماعة المؤمنة بأن يلتزموا أمر الله ورسوله دائما وأبدا .
تصرف همتهم أبدا إلى الدنيا ورخرفها ، وقد وعى المؤمنون الدرس جيدا ، فبعد أحد لم تحدث

(١) رواه أحمد (٤٦٣/١) ، وصححه الشيخ شاكر (٤٤١٤) ، والطبراني في الأوسط (١٣٩٩) ، وذكره الهيثمي في المجمع (٣٣٠/٦) ، وقال : رواه الطبراني في الأوسط .

لهم هزيمة أبدًا طيلة عهد رسول الله ﷺ معهم

ولذلك يقال : إن الدرس الذي يُعلم النصر لا يعتبر هزيمة في الغالب . ومثل ذلك - في حياتنا العادية - نجد أن ابنًا قد رسب ستة دراسية ورأى دلة الرسوب وشماتة الناس فيه ، ورأى نظرة عدم التقدير من أسرته ومدرسيه وأهل الحي الذي يسكن فيه ؛ ها يلتفت الطالب لنفسه ويبدل الجهد حتى يعوض ما فات ، إن درس الرسوب الأول هو خير لطالب في مثل هذه الحالة .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ مِنَ الرُّسُلِ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَتِكُمْ فَأَنْتُمْ كُنْتُمْ عَمًا بَعَمٍ لِكَيْلًا تَحْذَرُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [آل عمران : ١٥٣] وكلمة « أذ » توحى باستحضار ما حدث ، وقوله : ﴿ تُصْعِدُونَ ﴾ أى فى الجبل هارين من أعدائكم والمعنى : ساعة نزل الرماة من على الجبل محالين بذلك أمر رسول الله ﷺ ، ولاحظ خالد بن الوليد - وكان يومها فى صفوف المشركين - ذلك فالتفت حول الجيش المؤمن وعلا الجبل فحدث هرج ومرج وتمكس الخوف والرعب من المؤمنين نتيجة لهذا التحول الخطير فى المعركة فكانوا لا يلتفتون إلى أحد .

وقوله تعالى : ﴿ وَالرُّسُلُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَتِكُمْ ﴾ . أى إلى ترك الفرار والعودة ، والرجعة ، والكره على عدوهم .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَنْتُمْ كُنْتُمْ عَمًا بَعَمٍ ﴾ .

الغم الأول : ما أصاب المسلمين من الهزيمة ، وما أصابهم من القتل والجرح بعد أن كانوا قاب قوسين أو أدنى من النصر والظفر بالبيعة .

والغم الثانى : حين قيل أن النبى ﷺ قد قتل .

كأن الغم الذى حدث أراد به الله تعالى أن يخرج من القلب ما دخله من الخرص على الغيمة ، قال تعالى : ﴿ فَأَنْتُمْ كُنْتُمْ عَمًا بَعَمٍ لِكَيْلًا تَحْذَرُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ إن الحق سبحانه يقدر برحمته وفضله ما الذى استولى على مشاعر هؤلاء المؤمنين . فمن الجائز أنهم من هول المعركة لم يسمعوا نداء رسول الله ﷺ لهم ؛ لذلك قاله خبر بكل فعل وإحساس .

سيد الشهداء .. حمزة عم النبي ﷺ

الشهيد هو من قتل في سبيل الله تعالى ، قال الله تعالى : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاكَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَوِّقُونَ﴾ [آل عمران - ١٦٩] فإذا كان هذا الذي قتل شهيداً حتى ، فإن الاعتداء عليه بعد استشهاده هو اعتداء على حي ، فكل الذين استشهدوا يوم أحد ومثله بهم هم الدروة من الشهداء ، ويأتي في طبيعتهم رضى الله تعالى عنهم أسد الله تعالى ، وأسد رسوله ﷺ : حمزة بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ ، فحينما قتله وخشى ، ونقل الخبر لهد زوجة أبي سفيان جاءته وبقرت بطنه وأكلت من كبده وجذعت أنفه وأذنيه ، فكانت كل مضعة ، وكل جدعة هي بمثابة قتلة جديدة له ، لذا قال الشاعر .

أحمزة عم المصطفى أنت سيد عسى شهداء الأرض طررة
وحسبك من تلك الشهادة عصمة من الموت فى وصل الخيأتين بالأحرى

حزن الرسول ﷺ على حمزة

[خرج رسول الله ﷺ يلتبس حمزة بن عبد المطلب فوجدته يطس الوادى قد بقر بطنه عن كبده ومثله به ، فجدع أنفه وأذناه ، فقال رسول الله ﷺ حين رأى ما رأى . «لولا أن تحزن صغية ويكون سنة من بعدى لتركته حتى يكون فى بطون السباع وحواصل الطير ، ولئن أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم » .

فلما رأى المسلمون حزن رسول الله ﷺ وعيظه على من فعل بعمه ما فعل ، قالوا : والله لئن أظهرنا الله بهم يوماً من الدهر لئمثلن بهم مثله لم يمتلها أحد من العرب ، فأنزل الله تعالى ، فيما قاله من ذلك رسوله صلوات الله عليه وسلم - ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَمَا قَبُولُ بِمِثْلِ مَا حُوِّشْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ۖ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَلَالٍ مِّمَّنْ يَمْكُرُونَ﴾ [الحل - ١٢٦ ، ١٢٧] ، فعما رسول الله ﷺ وصبر ونهى عن المثلة .

ويقال : إن رسول الله ﷺ لما وقف على حمزة قال : «لن أصاب بمثلك أبداً ! ما وقفت موقفاً قط أعيظ لى من هذا » . ثم قال : «جاءنى جبريل فأخبرنى أن حمزة مكتوب فى أهل

السموات السبع : حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله .

ثم أمر به رسول الله ﷺ فشجى بيرده ، ثم صلى عليه فكبر سبع تكبيرات ، ثم أتى بالقتلى ، يوضعون إلى حمزة وصلى عليهم وعليه معهم ، حتى صلى عليه ثنتين وسبعين صلاة ، وأقبلت صبية بنت عبد المطلب لتنظر إليه ، وكان أخوها لأبيها وأُمها ، فقال رسول الله ﷺ لابنها الزبير بن العوام : «القها فأرجعها ، لا ترى ما بأخيها» . فقال لها : «يا أمة : إن رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعي» . قالت : ولِمَ ؟ وقد علمي أنه مثل بأخي - وذلك في الله - فما أرضانا بما كان من ذلك ، لأحتسين ولأصبرن إن شاء الله ، فلما أُنخِر الزبير بذلك رسول الله ﷺ قال له : خل سبيلها ، فأنته فنظرت إليه فصلت عليه واسترجعت واستغفرت له ، ثم أمر به رسول الله ﷺ فذُن .

وزعم أن عبد الله بن جحش أن رسول الله ﷺ دهن عبد الله بن جحش مع حمزة في قبره ، وهو ابن أخته أُميمة بنت عبد المطلب ، وكاد قد مُثِّل به كما مُثِّل بحاله حمزه ، إلا أنه لم يقرر عن كيدِه وجدع أنفه وأذنيه ، فذلك يقال له : المجدع في الله ، وكان أول النهار قد لقي سعد بن أبي وقاص فقال له عبد الله : هلم يا سعد فلندع الله وليدكر كل واحد منا حاجته في دعائه وليؤمن الآخر ، فقال سعد : يا رب إذا لقيت العدو فلقتني رجلاً شديد بأسه شديدًا حرده أقاتله فيك ويقاتلني ثم ارزقني الظفر عليه حتى أقتبه وأسنه سلبه ، فأس عبد الله بن جحش ثم قال : اللهم ارزقني رجلاً شديدًا بأسه شديدًا حرده أقاتله فيك ويقاتلني ثم يحدع أعنى وأدنى ، فإذا لقيتكَ عدًا قلت لي يا عبد الله ، هب جدع أنفك وأذناك ؟ فأقول : فيك يا رب وفي رسولك . فتقول لي : صدقت ، فأمن سعد على دعوته .

قال سعد : كانت دعوة عبد الله خيرًا من دعوتي ، لقد رأيته آخر النهار وإن أذنيه وأنفه معلقتان في خيط ، ولقيت أنا حلاًثًا من المشركين فقتلته وأخذت سلبه .

وذكر الزبير أن سيف عبد الله بن جحش انقطع يوم أحد فأعطاه رسول الله ﷺ عرجونًا فعاد في يده سيفًا فائتًا منه ، فقاتل به فكان ذلك السيف يسمى العرجون ، ولم يزل هذا يتوارث حتى بيع من بغا التركي بمائتي دينار^(١) .

(١) ما بين المكرمين من الاكتماء في مغزى الرسول ﷺ والثلاثة الخمسة (١٠٨/٢ - ١١٠)

(فتح مكة) غزوة الفتح الأعظم

[وكانت في رمضان سنة ثمان من الهجرة ، وقد ذكرها الله تعالى في القرآن في غير موضع ، فقال تعالى ﴿ لَا يَسْتَوِي سِرُّ مَنْ أُنْفِقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَبْلُ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتَلُوا وَلَا وَعَدَ اللَّهُ لِلْحَسَنِ ﴾ الآية [الحديد : ١٠] . وقال تعالى ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَدَأَبْتَ الْبَنَاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِيبِ اللَّهِ أَهْوَآ ۖ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [النصر : ١ - ٣] .

وكان سبب الفتح بعد غزوة الحديبية كان في صلح الحديبية أنه من شاء أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل ، ومن شاء أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل ، فتوالت خراعة وقالوا : نحن ندخل في عقد محمد وعهده . وتوالت بو بكر وقالوا : نحن ندخل في عقد قريش وعهدهم . فسكنوا في تلك الهدنة نحو السنة أو السمانية عشر شهرا ، ثم إن بني بكر وثبوا على خراعة ليلا . بما يقال له الوثير . وهو قريب من مكة ، وقالت قريش . ما تعلم بنا محمد ، وهذا الليل وما نرا أحد . فأعانوهم عليهم بالكراع والسلاح . وقتلوه معهم ؛ للضيق على رسول الله ﷺ ، وإن عمرو بن سالم ركب عدما كان من أمر خراعة وبني بكر بالوثير ، حتى قدم على رسول الله ﷺ بخبره الخبر ، وقد قال آيات شعر ، فلما قدم على رسول الله ﷺ أنشد لهاها .

لاهم إني ناشد محمدا	حلف أيمو وأبنا الألد
قد كنتم ولدا وكنا ولدا	ثئت أسلعا فلم نثرع بدا
فانضرو رسول الله نصرنا	والع عباء الله بانوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا	إن سيم خشف وجهه تربدا
في فلق كالبهر مجرى مريدا	إن قريشا أشلفوك المؤيدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا	وجعلوا لي في كبد رصدا
ورغموا أن لست أدعو أحدا	فهم أذل وأقل عددا
هم يبتسوا بالوثير هجدا	وقتلونا زكعا وشجدا
فقال رسول الله ﷺ : « نصرت يا عمرو بن سالم » . فما ترح رسول الله ﷺ حتى مرم	

بأعانة في السماء، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ هَذِهِ السَّحَابَةُ لَتَسْتَهْلُ بِصِرِّي كَعْبٌ، وَأَمْرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْجَهَارِ، وَكَتَمْتُهُمْ مَخْرَجَهُ، وَسَأَلَ اللَّهُ أَنْ يُعْتَنِيَ عَلَيَّ فَرِيضَ حَبْرَةٍ، حَتَّى يَغْتَنَّهُمْ فِي بِلَادِهِمْ.

قال ابن إسحاق: وكان السبب الذي هاجهم، أن رجلاً من بني الحَضْرَمِيِّ، اسمه مَالِكُ ابْنُ عَتَاذٍ، من مخدعي الأسود بن رَزْبٍ خَرَجَ تاجراً، فلما تَوَسَّطَ أَرْضَ خُرَاعَةَ، عَدَوْا عَلَيْهِ، فَقَتَلُوهُ وَأَخَذُوا مَالَهُ، فَعَدَّتْ بَنُو بَكْرِ عَلَى رَجُلٍ مِنْ بَنِي خُرَاعَةَ فَقَتَلُوهُ، فَقَدَّتْ خُرَاعَةُ قُبَيْلَ الْإِسْلَامِ عَلَى بَنِي الْأَسْوَدِ بْنِ رَزْبٍ الدُّبَيْلِيِّ - وَهُمْ مَتَحَرُّو بَنِي كِنَانَةَ وَأَشْرَافُهُمْ؛ تَلَحَّى وَكُلُّوهُمُ وَدَوَّنَتْ - فَقَتَلُوهُمْ بِعَزَّةٍ عَدَا أَنْصَابِ الْحَزَمِ. قال ابن إسحاق: وحدثني رجل من الدُّبَيْلِيِّ قَالَ: كَانَ بَنُو الْأَسْوَدِ بْنِ رَزْبٍ يُودُّونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ دُبَيْشَ دُبَيْشٍ.

قال ابن إسحاق: فبما بنو بكر وخُرَاعَةُ عَلَى ذَلِكَ، إِذْ حَجَرَ بَيْنَهُمُ الْإِسْلَامُ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَدَخَلَ بَنُو بَكْرِ فِي حَقْدِ قُرَيْشٍ، وَدَخَلَتْ خُرَاعَةُ فِي حَقْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَتِ الْهَدُودُ، اغْتَنَمَهَا بَنُو الدُّبَيْلِيِّ مِنْ بَنِي بَكْرِ، وَأَرَادُوا أَنْ يُصَيِّبُوا مِنْ خُرَاعَةَ ثَأْرًا بِأُولَئِكَ الْفَرِ، فَحَزَّ نَوْفَلُ بْنُ مُعَاوِيَةَ الدُّبَيْلِيُّ فِي قَوْمِهِ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ سَيِّدُهُمْ وَقَائِدُهُمْ، وَلَيْسَ كُلُّ بَنِي بَكْرِ نَابِتَهُ، بَيْتُ خُرَاعَةَ وَهُمْ عَلَى الْوَتِيرِ - مَاءٌ لَهُمْ - فَأَصَابُوا رَجُلًا مِنْهُمْ، وَتَحَاوَرُوا وَاقْتَتَلُوا، وَرَفَدَتْ قُرَيْشُ بَنِي بَكْرِ بِالسَّلَاحِ، وَقَاتَلَ مَعَهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ مَنْ قَاتَلَ بِاللَّيْلِ مُسْتَحْفِيًا، حَتَّى حَازُوا خُرَاعَةَ إِلَى الْحَرَمِ، فَلَمَّا انْتَهَوْا إِلَيْهِ، قَالَتْ بَنُو بَكْرِ: يَا نَوْفَلُ، إِنَّا قَدْ دَخَلْنَا الْحَرَمَ الْإِلَهَكَ الْهَكَ. فَقَالَ كَلِمَةً عَظِيمَةً: لَا إِلَهَ الْيَوْمَ، يَا بَنِي بَكْرِ أَصَيَّبُوا ثَأْرَكُمْ، فَلَقَمْتُمْنِي إِنْكُمْ لَتَشْرِقُونَ فِي الْحَرَمِ، أَفَلَا تُصَيِّبُونَ ثَأْرَكُمْ فِيهِ؟ وَلَجَأْتُ خُرَاعَةَ إِلَى دَارِ بُدَيْلٍ مِنْ وَزْقَاءِ مَكَّةَ، وَإِلَى دَارِ مَوْلَى لَهُمْ يَقَالُ لَهُ: رَافِعُ.

وقد قال الْأَخْزَرُ بْنُ لُعْبِ الدُّبَيْلِيِّ فِي ذَلِكَ:

رَفَدْنَا بَنِي كَعْبٍ بِأَمَاقٍ نَاصِلٍ	أَلَا هَلْ أَتَى تُصَوَّى الْأَخْمِيشِ أَثَا
وَعِنْدَ بُدَيْلٍ مَخْبِئَةً عَمَرَ طَائِلٍ	حَتَّى شَاهَهُمْ فِي ذَارَةِ الْعَبْدِ رَافِعِ
شَتَبْنَا الثُّغُورَ مِنْهُمْ بِالنَّاصِلِ	بِدَارِ الدُّبَيْلِ الْأَخِيذِ الضُّيْمِ بَعْدَمَا
نَفَخْنَا لَهُمْ مِنْ كُلِّ شُعْبٍ بِوَابِلٍ	حَتَّى شَاهَهُمْ حَتَّى إِذَا طَالَ يَوْمُهُمْ

نَذَّبُكُمْ ذَبَحَ الشُّبُوسِ كَانُوا
هُمْ ظَلَمُونَا وَاعْتَدُوا فِي مَسِيرِهِمْ
كَأَنَّهُمْ بِالْجُوعِ إِذَا يَطْرُدُونَهُمْ
قال : فَأَجَابَهُ بُذَيْلُ بْنُ عَبْدِ شَمَّةَ بْنِ سَلَمَةَ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْأَجْبِ ، وَكَانَ يَقَالُ لَهُ : بُذَيْلُ بْنُ أُمِّ
أَضْرَمَ ، فَقَالَ .

تَعَاثَدَ قَوْمٌ يَفْخَرُونَ وَلَمْ نَدْعُ
أَمْرٌ بِحَيْفَةِ الْقَوْمِ الْأَلَى تَزْدَرِيهِمْ
وَفِي كُلِّ يَوْمٍ نَحْنُ نَخْبُو جِبَاءَنَا
وَنَحْنُ صَبَّخْنَا بِالثَّلَاةِ دَارَكُمْ
وَنَحْنُ مَعْنَا بَيْنَ بَيْتَيْهِ وَعَشَوِي
وَيَوْمَ الْعَمِيمِ قَدْ تَكَفَّتْ سَاعَتَا
أَنَّ أُجْمِرَتْ فِي بَيْتِهَا أُمُّ بَعْضِكُمْ
كَذَبْتُمْ وَبَيْتَ اللَّهِ مَا إِنَّ قَتْلَكُمْ
قال ابن إسحاق : فحدثني عبد الله بن أبي سَلَمَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : وَكَانَكُمْ بَأْسِي
سَفِيَانٌ قَدْ جَاءَكُمْ يَشُدُّ فِي الْعَقْدِ وَيَزِيدُ فِي الْمُدَّةِ .

قال ابن إسحاق : ثُمَّ خَرَجَ بُذَيْلُ بْنُ وَزْعَةَ مَعَ نَعْرِ مِنْ خُرَاعَةَ ، حَتَّى قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَأَحْبَرُوهُ بِمَا أَصِيبَ مِنْهُمْ ، وَظَهَرَهُ قَرِيشُ بَنِي يَكْرٍ عَلَيْهِمْ ، ثُمَّ انْصَرَفُوا رَاجِعِينَ ، حَتَّى
لَقُوا أَبَا سَفِيَانَ بَشِيقَانَ ، قَدْ بَغَتْهُ قَرِيشٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَشُدُّ الْعَقْدَ وَيَزِيدُ فِي الْمُدَّةِ ، وَقَدْ
زَهَبُوا لِلَّذِي صَنَعُوا ، فَلَمَّا لَقِيَ أَبُو سَفِيَانَ بُذَيْلًا قَالَ : مِمَّنْ أَقْبَلْتَ يَا بُذَيْلُ ؟ وَظَنَّ أَنَّهُ قَدْ أَتَى
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ : سَرْتُ مَعَ خُرَاعَةَ فِي هَذَا السَّاحِلِ وَفِي بَطْنِ هَذَا الْوَادِي . قَالَ : فَصَدَّ
أَبُو سَفِيَانَ إِلَى مَتْرَكِ رَاحِلَتِهِ فَأَخَذَ مِنْ نَعْرِهَا فَغَتَّهُ ، فَرَأَى فِيهِ الثَّوْبَ ، فَقَالَ : أَخْلَيْفُ بِاللَّهِ لَقَدْ جَاءَ
بُذَيْلٌ مُحَمَّدًا . ثُمَّ خَرَجَ أَبُو سَفِيَانَ حَتَّى قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ ، فَدَخَلَ عَلَى ابْنَتِهِ أُمِّ
حَبِيبَةَ ، فَلَمَّا ذَهَبَ لِيَجْلِسَ عَلَى فَرَاشِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ طَوَّتَهُ ، فَقَالَ : يَا بَنِيَّةُ ، مَا أَذْرَى أَرِغَيْتِ
بِي مِنْ هَذَا الْعَرَّاشِ أَوْ رِغَيْتِ بِهِ عَنِّي ؟ فَقَالَتْ : هُوَ فَرَّاشُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَأَنْتِ مُشْرِكَةٌ تُجِيسُ ،
لَمْ أَحِبَّ أَنْ تَجْلِسَ عَلَى فَرَّاشِهِ . فَقَالَ : يَا بَنِيَّةُ ، وَاللَّهِ لَقَدْ أَصَابَكَ بِعَدْوِي شَرٌّ . ثُمَّ خَرَجَ فَاتَى

رسول الله ﷺ فكلّمه ، فلم يردّ عليه شيئا ، ثم دعّب إلى أبي بكرٍ مكلمه أن يُكلمه له رسول الله ﷺ ، فقال : ما أنا بفاعل . ثم أتى عمر بن الخطاب فكلّمه ، فقال عمر : أنا أشفعُ لكم إلى رسول الله ﷺ ؟ فوالله لو لم أجد لكم إلا الذرّ لجاهدتكم به . ثم خرج فدخل على علي بن أبي طالب ، وعنده فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، وعندها حسنٌ ، غلامٌ يديّ بين يديهما ، فقال : يا علي ، إنك أمس القوم بي زجما ، وأقرّبهم مني قرابة ، وقد جئت في حاجة ، فلا أزعجك كما جئت حاجتنا ، فاشفع لي إلى رسول الله ﷺ . فقال : وتُحك أبا سفيان ! والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمرٍ ما نستطيع أن نُكلّمه فيه . فالتفت إلى فاطمة فقال : يا بنت محمد ، هل لك أن تأمرى ببيك هذا فيجيز بين الناس ، فيكون سيّد العرب إلى آخر الدهر ؟ فقالت : والله ما بلغ نبي ذلك أن يُجيز بين الناس ، وما يُجيز أحدٌ على النبي ﷺ . فقال : يا أبا الحسن ، إني أرى الأمور قد اشتدت على ، فانصحنى ؟ قال : والله ما أعلم شيئا يُغني عنك ، ولكلّك سيّدٌ هي كنانة ، فقم فأجزي بين الناس ، ثم الحقّ بأرضك . فقال : أو ترى ذلك مُغيّبا عني شيئا ؟ قال : لا والله ما أظن ، ولكن لا أجد لك غير ذلك . فقام أبو سفيان في المسجد ، فقال : أيّها الناس ، إني قد أجزت بين الناس . ثم ركب بعيره فانطلق ، فلما قيم على قريش قالوا : ما وراءك ؟ قال : جئت محمداً فكلّمته ، فوالله ما ردّ علي شيئا ، ثم جئت ابن أبي قحافة ، فوالله ما وجدته فيه حياء ، ثم جئت عمر فوجدته أعذّي العدو ، ثم جئت عليا فوجدته ألين القوم ، وقد أشار علي بأمر صغته ، فوالله ما أدرى هل يُغني عنّا شيئا أم لا ؟ قالوا : بماذا أترك ؟ قال : أترى أن أُجيز بين الناس ففعلت . قالوا : هل أجاز ذلك محمد ؟ قال : لا . قالوا : وتُحك ! ما زادك الرجل على أن يُعب بك ، فما يُغني عنّا ما قلت . فقال : لا والله ما وجدته غير ذلك .

فائدة ذكرها السهيلي ، تكلم علي قول فاطمة في هذا الحديث . وما يُجيز أحدٌ علي رسول الله ﷺ على ما جاء في الحديث : « ويُجيز علي المسلمين أذناهم » . قال : وتجه الجمع بينهما ، بأن المراد بالحديث من يُجيز واحداً أو نفرا يسيرا ، وقول فاطمة فيمن يُجيز عدواً من غزو الإمام إليهم ، فليس له ذلك . قال : كان مشغولاً وإنّ الما جشون بقولان : إن أمان المرأه متوقّف على إجازة الإمام ، لقوله ﷺ : « لا أمان هائي » : « قد أجزنا من أجزيت يا أم هانئ » . قال ويروى هذا عن عمرو بن العاص ، وعالميد بن الوليد ، وقال أبو حنيفة : لا يجرّ أمان العبد

سيرة الرسول ﷺ

وفي قوله عليه الصلاة والسلام: «وَيُجِزُّ عَلَيْهِمْ أَذْيَاهُمْ» ما يقتضي دخول العبد والمرأة. والله أعلم.

وقد رَوَى البيهقي من طريق حنّاد بن سلمة، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قالت بنو كعب:

لَا تُهْمُ لَنَا بِشَيْءٍ مُحَمَّدًا جَلَمَ أَبِيهِ الْأَنْسَاءُ

فَانْصُرْ هَذَاكَ اللَّهُ نَصْرًا أَغْتَدَا وَادْعُ عِبَادَ اللَّهِ بِأَنْوَاعِنَا

وقال موسى بن عتبة في فتح مكة: ثم إن بني ثعلبة من بني الدؤب أغاروا على بني كعب، وهم في المدة التي بين رسول الله ﷺ وبين قريش، وكانت بنو كعب في صلح رسول الله ﷺ، وكانت بنو ثعلبة في صلح قريش، فأعدت بنو بكر بن ثعلبة، وأعانهم قريش بالسلاح والرفيق، واعتزلتهم بنو مذليج، ووفوا بالعهد الذي كانوا عاهدوا عليه رسول الله ﷺ، وفي بني الدؤب رجلان هما سيدهما: سلم بن الأسود، وكثفون بن الأسود، ويذكرون أن من أعانهم صفوان بن أمية، وشيبة بن عثمان، وسهيل بن عمرو، فأعازت بنو الدؤب على بني عمرو، وعائشهم زعموا - نساء وصبيان وضعفاء الرجال، فألقوهم وقتلوهم حتى أدخلوهم إلى دار يزيد بن زفاعة بمكة، فخرج ركب من بني كعب حتى أتوا رسول الله ﷺ، فذكروا له الذي أصابهم، وما كان من قريش عليهم في ذلك، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ارجعوا ففرقوا في البلدان». وخرج أبو سعيان من مكة إلى رسول الله ﷺ، وتحوف الذي كان، فقال: يا محمد، أشد العقدة، وزدنا في المدة. فقال رسول الله ﷺ: «ولذلك قدمت؟ هل كان من حديث قبلكم؟» فقال: معاذ الله، نحن على عهدنا وصلحتنا يوم الحديبية، لا نغير ولا نبدل. فخرج من عند رسول الله ﷺ فأتى أبو بكر فقال: جدّد العقد، وزدنا في المدة. فقال أبو بكر: جوارى هي جوارى رسول الله ﷺ، والله لو وجدت الذر ثقتكم لأغشها عليكم. ثم خرج فأتى عمر بن الخطاب فكلّمه، فقال عمر بن الخطاب: ما كان من حلفتنا بجدينا فأحبته الله، وما كان من متينا فقطعه الله، وما كان من مقطوعنا فلا وصله الله. فقال له أبو سفيان: مجريت من ذي رجم شرا. ثم دخل على عثمان فكلّمه، فقال عثمان: جوارى في جوارى رسول الله ﷺ. ثم أتبع أشرف قريش يكلّمهم، فكلّمهم يقول: عقدنا في عهد رسول الله ﷺ، فلما يحس مما عندهم، دخل على فاطمة بنت رسول الله ﷺ فكلّمها، فقالت: إنما أنا امرأة،

وأما ذلك إلى رسول الله ﷺ . فقال لها : فأمرى أحد ابنتيك . فقالت : إنهما صبيان ، وليس مثلهما نجس . قال : فكلمي عليا . فقالت : أنت فكلفه . فكلّم عليا ، فقال له : يا أبا سفيان ، إنه ليس أحد من أصحاب رسول الله ﷺ يفتات على رسول الله ﷺ بجوار ، وأنت سيّد قريش وأكبرها وأمنها ، فأجز بين عشيرتك . قال صدقت ، وأنا كذلك . فخرج مصاع : ألا إني قد أجزت بين الناس ، ولا والله ما أظن أن يُخيرني أحد . ثم دخل على النبي ﷺ فقال : يا محمد ، إني قد أجزت بين الناس ، ولا والله ما أظن أن يُخيرني أحد ولا يؤدّ جوارى . فقال : « أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة ؟ » فخرج أبو سفيان على ذلك ، فرعّموا - والله أعلم - أن رسول الله ﷺ قال حين أدير أبو سفيان : « اللهم خذ علي أسماعهم وأبصارهم ، فلا يروا إلا بقعة ، ولا يشتموا بها إلا فجأة » . وقدم أبو سفيان مكة ، فقالت له قريش : ما وراءك ؟ هل جئت بكتاب من محمد أو عهد ؟ قال : لا والله ، لقد أتى علي ، وقد تبعفت أصحابه ، فما رأيت قوماً ملبث عليهم أطوع منهم له ، عير أن علي بن أبي طالب قد قال لي : لِمَ تلتبس بجوار الناس على محمد ، ولا تُخبر أنت عليه وعلى قومك ، وأنت سيّد قريش وأكبرها وأحقها أن لا تُخفّر جواره ؟ فقلت بالجوار ، ثم دخلت على محمد ، فذكرت له أنني قد أجزت بين الناس ، وقلت : ما أظن أن تُخبرني . فقال : « أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة ؟ » فقالوا شجيبين له . رضيبت بغير رضا ، وحيثما لا يُغنى عنا ولا عك شيئا ، وإنما أوب بك علي ، فغمر الله ما جوارك بهاجر ، وإن إشفارك عليهم لخير . ثم دخل على امرأته فحدثها الحديث فقالت : تبعثك الله من وافد قوم ، فما جئت بخير . قال . ورأى رسول الله ﷺ سحابتا فقال : « إن هذه السحاب لتبشّر بنصر بني كعب » . فمكث رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يمكث بعدما خرج أبو سفيان ، ثم أخذ من الجهار ، وأمر عائشة أن تُخبره وتُخفي ذلك ، ثم خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد أو إلى بعض حجاجيه ، فدخل أبو بكر على عائشة ، فوجد عندها حنطة تُتسِف وتُنقى ، فقال لها : يا بُنتي ، ماذا تُصنعين هذا الطعام ؟ فسكتت ، فقال : أتريد رسول الله ﷺ أن يفرّج ؟ فصمتت ، فقال : فلعله يريد قريشا ؟ فصمتت . قال : فلعله يريد أهل نجد ؟ فصمتت ، قال : فلعله يريد قريشا ؟ فصمتت . قال : فلعله يريد بني الأصفر ؟ قال : لا . قال : أتريد أهل نجد ؟ قال : لا . قال : فلعله يريد قريشا ؟ قال : نعم . قال أبو

بكر: يا رسول الله، أليس بيئت وبينهم مدة؟ قال: «ألم يكفك ما صنعوا بي كعب؟» قال: «وَأَذِنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي النَّاسِ بِالْعَرَبِ، وَكَتَبَ حَاطِبُ بْنُ أَبِي ثَلَعَةَ إِلَى قُرَيْشٍ، وَأَطَاعَ اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ عَلَى الْكِتَابِ. وَدَكَرَ الْقِصَّةَ كَمَا سَيَأْتِي.»

وقال محمد بن إسحاق: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ وَهِيَ تُغْزِلُ جَنْطَةً، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ أَمَرَكَمُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْجَهَارِ؟ قَالَتْ: نَعَمْ فَتَجَهَّرُ. قَالَ: وَالْيَ أَيْنَ؟ قَالَتْ: مَا مَسَّنِي لِمَا شِئْنَا، عِزَّ أَنَّهُ قَدْ أَمَرَنَا بِالْجَهَارِ. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَعْلَمَ النَّاسَ أَنَّهُ سَائِرٌ إِلَى مَكَّةَ، وَأَمَرَ بِالْجِدِّ وَالْتِهَاتِ، وَقَالَ: «اللَّهُمَّ خُذِ الْعِيُونَ وَالْأَخْيَارَ عَنْ قُرَيْشٍ، حَتَّى يَبْعَثَهَا فِي بِلَادِهَا». فَتَجَهَّرَ النَّاسُ، فَقَالَ حَسَانُ بْنُ خَرَّصٍ النَّاسَ، وَدَكَرُ مُصَابَ خُرَاعَةَ:

عَسَايَ وَلَمْ أَشْهَدْ بِطُحَاءِ مَكَّةَ	رَجَالُ بَنِي كَعْبٍ تَحَرُّ رِقَابِهَا
بِأَيْدِي رَجَالٍ لَمْ يَسْلُوا شِيَوْفَهُمْ	وَقَشَى كَثِيرٌ لَمْ تُجْعَلْ ثِمَابُهَا
أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ تَنَالْتُ نُضْرَتِي	سُهَيْلَ بْنِ عَمْرٍو خُرَّهَا وَعَقَابُهَا
وَصَفْوُونَ عَوْدٌ حَرٌّ مِنْ شَفْرِ اسْتِيهِ	هَذَا أَوَّانُ الْحَرْبِ مُدُّ عِصَابِهَا
فَلَا تَسْأَلُنَا يَا بَنَ أُمِّ سُجَالِيدٍ	إِذَا احْتَلَيْتَ صِرْفًا وَأَغْضَلْ نَابِهَا
وَلَا تَجْرَعُوا مِنْهَا فَإِنَّ سِبْوَفاً	لَهَا وَفَقَّةً بِالْمَوْتِ يُنْتَشِجُ نَابِهَا ^(١)

غزوة حنين

قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أُنْصَبَتْكُمْ ذُرِّيَّتُكُمْ فَلَمْ تَكُنْ مِنْكُمْ شَيْئًا وَمَآقَاتُ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ۝١٥ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ۝١٦ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة ٢٥ - ٢٧].

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ﴾ يعني إلى أن النصر يكون من عند الله وحده.

(١) ما بين المنكوسين من «البداية والنهاية» لابن كثير (ج ٥ - طبعة مخرج)، بتصريف.

وقوله . ﴿مَوَاطِنَ﴾ جمع «موطن» والموطن هو ما استوطنت فيه ، وكل الناس مستوطنون في الأرض ، وكل جماعة ما تحجز مكاناً من الأرض ليكون وطلا لها ، والموطن مكان محدد يعيش فيه من الوطن العام الذي هو الأرض ؛ التي هي موطن البشرية كلها ، والناس مورعون عليها .

والمعنى : أن الحق سبحانه قد نصركم في موطن الحرب : أي مواقعها ، مثل يوم بدر ، ويوم الحديبية ، ويوم بنى النضير ، ويوم الأحزاب ، ويوم فتح مكة ، وكل هذه كانت مواقع نصر من الله للمسلمين ، ولكنه في هذه الآية يخص يوماً واحداً بالذكر بعد الكلام عن الأيام الكثيرة ، فيعد أن نحدث إجمالاً عن المعارك الكثيرة يقول : ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُهُمْ﴾ إذن : فكثرة عدد المؤمنين في يوم حين كان ظرفاً خاصاً ، أما المواطن الأخرى ، مثل يوم بدر فقد كانوا قلة ، ويوم فتح مكة كانوا كثرة ، ولكنهم لم يُعجبوا بكثرتهم ؛ ولم يختالوا بذلك .

إذن ، ففي يوم حين اجتمعت لهم الكثرة مع الإعجاب .

وهذا الإعجاب ظرف ممدود على اليوم نفسه ، وليس معطوفاً على ﴿مَوَاطِنَ﴾ ولكنه جملة مستقلة بنفسها ؛ لأن الكثرة والإعجاب بالكثرة لم تكن في بقية المواطن .

وكلمة : ﴿مَوَاطِنَ﴾ ظرف مكان ، و ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ [التوبة . ٢٥] ظرف زمان ، فكيف جاز أن يعطى ظرف الزمان على ظرف المكان ؟ هذا هو ما يسميه العرب «احتباك» ؛ لأن كل حدث مثل «أكل» و «شرب» و «ضرب» و «ذاكر» ؛ لا بد له من زمان ولا بد له من مكان ، فإذا قلت . أكلت . متى ؟ في الصباح ، أو في الظهر ، أو في العشاء ؟ وأين ؟ في البيت ، أو في الفندق ، أو عند أحد الأصدقاء ؟

إذن . فلا بد بكل حدث من ظرف زمان وظرف مكان ، فإذا راعيت ذلك أخذت الظرفية المطلقة ؛ ظرفية مكان حدوث الفعل ، وظرفية زمان حدوث الفعل . فإذا قلت : أكلت الساعة الثالثة . ولم أسألك أين تم الأكل ؟ أو إذا قلت : أكلت في البيت . ولم أسألك عن موعد الأكل صباحاً ، أو ظهراً أو ليلاً ، يكون الحدث غير كامل الظرفية .

ومعلوم أن الزمان والمكان يشتركان في الظرفية ، ولكنهما يختلفان ، فالمكان ظرف ثابت

لا يتغير ، والزمان دائم التغير ، فهناك الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء . والزمان يدور ، هناك ماض وحاضر ومستقبل ، وهكذا يشترك الزمان والمكان في الظرفية ، ولكن الزمان ظرف متغير ، أما المكان فهو ظرف ثابت .

وجاءت الآية هنا بالاثنتين ، ظرف المكان في قوله تعالى ﴿مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ وظرف الزمان في قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ حُحِّي﴾ فإذا قيل : لم يحصر ظرف الزمان والمكان في كل واحدة ، نقول : لا ، لقد حصر ظرف المكان في ناحية وظرف الزمان في ناحية ثانية ، وقد حذف من الأول ما يدل عليه الثاني ، وحذف من الثاني ما يدل عليه الأول ، فكان المعنى : لقد نصركم الله يوم موطن كذا وكذا وكذا فإذا عطفت عليها يوم حين يكون المعنى : ومواطن يوم حين ، أى : جاء بالاثنتين هنا . وهذا يظهر واضحا في قوله تعالى : ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتِيهِ الْبَقَّةُ فَتَنَّيْلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَخْرَجَ كَافِرَةٌ﴾ [آل عمران : ١٣] فما دامت الأخرى ﴿كَافِرَةٌ﴾ تكون الأولى «مؤمنة» ، ولكن حذف «مؤمنة» لأن ﴿كَافِرَةٌ﴾ تدل عليها ، وما دامت الأولى المؤمنة تقاتل في سبيل الله ، فالفئة الأخرى الكافرة تقاتل في سبيل الشيطان ، وحذفت : تقاتل في سبيل الشيطان ؛ لأن ﴿تَنَزَّلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ تدل عليها . ولذا على المؤمن الذي يستمع إلى كلام الله تعالى أو يقرأه لا بد أن يكون له أذان صاغية وعقل واع حتى يعرف ويتجه إلى أن ما حذف من الأولى يدل عليه الثانية .

إذن : فيكون ظرف الزمان موجودا في واحدة ، وظرف المكان موجودا في واحدة ، وكلاهما يدل على الآخر ، والمثال على ذلك أنه بعد أن انتهت غزوة الأحزاب ، وعاد المسلمون إلى المدينة مجاهدين لم يخلعوا ملابس الحرب ، قال لهم رسول الله ﷺ : « لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة »^(١) .

فانطلق المسلمون دون أن يستريحوا إلى بني قريظة ، وهم اليهود الذين خانوا عهد رسول الله ﷺ وتحالفوا مع الكفار ضد المسلمين ، وبينما الصحابة في طريقهم إلى بني قريظة كادت الشمس تغيب ، فقال بعض الصحابة : إن الشمس مستعيب ولا بد أن نصلي العصر ، فصلوا . وقال الآخرون منهم : إن رسول الله ﷺ طلب منا ألا نصلي العصر إلا في بني قريظة ولم

(١) أخرجه البخاري (٩٤٦) ، ومسلم (١٧٧٠) من حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما

يُصلُّوا حتى وصلوا إلى هناك . إن كلا الفريقين استخدم المطلق ؛ لأن الصلاة تحتاج إلى ظرف زمان وظرف مكان ، فالذى نظر إلى ظرف الزمان قال : الشمس ستغرب ، وصلى ، والذى نظر إلى ظرف المكان الذى حددته رسول الله ﷺ ؛ لم يصل . وأقر رسول الله ﷺ الفريقين على اجتهداهما في : ظرفية الزمان ، وظرفية المكان .

وقوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كُرْهُكُمْ فَلَمْ تُقْنِي عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ حين هو موضع في وادي بين مكة والطائف ، تجتمع فيه الكفار الذين ساءهم فتح المسلمين لمكة ، فأرادوا أن يقوموا بعملية مضادة تضعف قيمة هذا النصر . فاجتمعت قبائل هوازن وثقيف ، واحتاروا مالك بن عوف ليكون قائدهم في هذه المعركة ، واستطاع مالك بن عوف أن يجمع أربعة آلاف مقاتل ، وانضم إليهم عدد من الأعراب المحيطين بهم ، ووضع مالك خطته على أساس أن يخرج الجيش ومعه ثروات المشاركين في الجيش من مال ، وبقر ، وإبل ، وأن يخرج مع الجيش النساء والأطفال ، وذلك حتى يدافع كل واحد منهم عن عرضه وماله فلا يفر من المعركة ، بل يستمر في القتال بشجاعة وعنف ؛ لأنه يدافع عن نسائه وأمواله وأولاده ، وبذلك يكون قد وضع كل العوامس التى تضمن له النصر .

واجتمع الكفار ونزلوا بوادي أسمة « وادى أوطاس » ، وكان فيهم رجل كبير السن ضرير . اسمه « دريد بن الصُّمة » . وكان رئيسا لقبيلة « جشم » . فلما وصل إلى مكان المعركة سأل : بأى أرض نحن ؟ فقالوا : نحن بوادى أوطاس .. فابتسم وقال : لا حزنا ضرر ولا سهلا دهر ، أى أنها أرض مناسبة ليس فيها أحجار مدية ، تتعب الذى يسير عليها ، وليست أرضا رخوة تعرض فيها أقدام من يسير عليها ، من « الحزن » فالحزن هو : الخشونة والعظلة ، و « صرس » هو : التعب أثناء السير ، وأيضا ليست أرضا سهلة منبسطة رملية تغوص فيها الأقدام .

وعندما سمع العجوز بكاء الأطفال وثغاء الشاة ، قال : أسمع بكاء الصبيان وخوار البقر . فقالوا له : إن مالك بن عوف استصحب ذراريه واصطحب كل أمواله ، فقال : أما الأموال فلا بأس ، وأما النساء والذراري فهنا هو الأرعن - أى : لا يفهم فى الحرب - أرسلوه لى ، فأحضروه له . فلما حصر قال : يا مالك ما حملك على هذا ؟ قال : وماذا تريد ؟ قال : ارجع بسائمت وذراريك إلى غلجا دارك ، فإن كان الأمر لك ؛ لحقك من وراءك . وإن كان الأمر

عليك لم تقصح أهلك وفزاريت فقال له مالك . لقد كبرت وذهب علمك وذهب عقلك . وأصر على رأيه ، ثم بدأ مالك بن عوف يرتب الجيش في الشعاب وتحت الأشجار حتى لا يراهم المسلمون عند مجيئهم ، فيقدمون غير متبهرين للحضر ، وحينئذ يتم الهجوم عليهم من كل جهة .

وعندما جاء جيش المسلمين لم ينتهبوا إلى وجود الكفار المختفين عن الأعين ، وحينئذ أعطى مالك بن عوف إشارة البدء بالهجوم ، فخرج الكفار من كل مكان ، وحاجروا المسلمين بهجوم شديد ، قال الراوى : فوالله ما لبث المسلمون أمامهم إلا رمس حلب شاة ، حتى إنه من قسوة المعركة وضربونها وقوة انفاجأة انهزم جيش المسلمين في الساعات الأولى للمعركة ، ووصل بعض الفارين من القتال إلى مكة ولم يبق مع رسول الله ﷺ في ساحة المعركة إلا تسعة بينهم العباس عم رسول الله ﷺ ، وكان ممسكاً بالدابة التي يركبها رسول الله ﷺ ، وعلى بن أبي طالب وكان يعمل الراية ، والفضل بن العباس ، وكان يقف على يمين رسول الله ﷺ ، وأبو سفيان بن الحارث ابن عم رسول الله ﷺ وكان يقف على يساره ، وكان معهم أيمن بن أم أيمن وعدد من الصحابة .

وهنا نتساءل : ماذا حدثت هذه الهزيمة للمسلمين في بداية المعركة ؟ لأنهم عندما خرجوا إلى الحرب قالوا : نحن كثرة ولنا بهزم من قبله . وبذلك ذهبوا إلى الأسباب وتناسوا المسبب ، فأراد الله تعالى أن يعاقبهم عقاباً يحريهم ويغلي من قدر رسول الله ﷺ ، ولما رأى رسول الله ﷺ ما حدث ، قال للعباس - وكان العباس صاحب صوت عال - : « أذُن في الناس » ، فقال العباس بصوت عال : يا معشر الأنصار ، يا أهل سورة البقرة ، يا أهل بيعة الشجرة . فلما سمع الناس نداء العباس ، قالوا : ليك ليك . وكان الذي يقول « ليك » يسمعه من هم وراءه ويقولون مثله ، حتى عاد عدد كبير من المؤمنين إلى القتال ، وحمى القتال واشتد الحرب وصار لها أوار^(١) ، وكان النبي ﷺ يدفع بغلته للأمام ويدعو المسلمين للثبات ويقول : أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب^(٢) .

(١) الأوار الدخان واللهب .

(٢) أخرجه البخاري (٤٣١٦) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه

واطلق جيش المسلمين إلى الصائف يطرد النصارى . واحباً مالك بن عوف قائد المشركين . ثم عاد رسول الله ﷺ بعد ذلك وقسم العنائب ، وكاد تقسيم العنائب أن يحدث فتنة بين المسلمين ؛ لأن الرسول ﷺ أعطى العنائب للمؤلفة قلوبهم ، ونسائر العرب ولم يعط منها الأنصار ، لقد أراد رسول الله ﷺ أن يقارن بين شيئين ، بين سبايا هي أيضاً من متاع الدنيا فيعطى منها المؤلفة قلوبهم وبين حب الله ورسوله فيكون حظ الأنصار منه ، فالأنصار الذين أووه ﷺ في رأيهم يستغفرون بحبهم لرسول الله وقوة إيمانهم بالله عن مثل هذا المتع الديوى ، إلا أنه على الرغم من ذلك شعر بعض من الأنصار بالعصبة ، وتأثر هذا البعض بذلك .

لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش وقبائل العرب ولم يكن في الأنصار منها شيء ، وجد هذا الحى من الأنصار في أنفسهم حتى كثرت فيهم المقالة ، حتى قال قائمهم : لقي رسول الله ﷺ قومه . . فدخل عليه سعد بن عباد فقال : يا رسول الله ، إن هذا الحى قد وحدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفى الذى أصبت . قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظيمة في قبائل العرب ، ولم يكن في هذا الحى من الأنصار شيء .

قال : « فأنى أنت من ذلك يا سعد ؟ » قال : يا رسول الله ، ما أنا إلا امرؤ من قومي . قال : « فاجمع لى قومك في هذا الخطيرة » قال فخرج سعد فجمع الناس في تلك الخطيرة ، قال : فجاء رجال من المهاجرين حرّكهم فدخلوا وجاء آخرون مردهم ، فلما اجتمعوا أثنى سعد فقال قد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار قال : فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بالذى هو له أهل . ثم قال : « يا معشر الأنصار ، ما مقالة بلغتني عنكم وجدة وجدتموها في أنفسكم ، ألم أتكم صلواتاً بهذاكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم » . قالوا : بل الله ورسوله آمن وأفضل .

قال : « ألا تحبوننى يا معشر الأنصار ؟ »

قالوا : وبماذا يحبك يا رسول الله ، ولله ورسوله المثل والمفضل ؟

قال : « أما والله لو شئتم لقتلتم فلصدقتهم وصدقتهم ، أنيتا مكذباً فصدقناك ، ومحدولاً فنصرباك ، وطريقاً فأوباك ، وعائلاً فأغنياك ^(١) .

(١) رواه أحمد في المسند (٧٦/٣) وحسنه الألبان

أى : أن رسول الله ﷺ ذكر لهم ثلاثة أشياء من فضل الإسلام عليهم ، وهى : أنه نقلهم من الضلال إلى الهدى ، ومن الفقر إلى الغنى ، ومن العداوة إلى الأخوة والمحبة .
وعندما تحدث رسول الله ﷺ عن فضل الأنصار على الدعوة ذكر أربع فضائل وهى :
- أن أهل مكة كانوا قد حاولوا قتل الرسول ﷺ فهاجر منها فأواء أهل المدينة .
- وجاء الرسول والمؤمنون إلى المدينة لا يملكون شيئا ، فأعطاهم الأنصار من أموالهم .
- وكان الكفار يحاولون قتل رسول الله ﷺ فأبىه الأنصار .
- وكان رسول الله ﷺ قد حذله قومه من قريش فنصره الأنصار .

عندما سمع الأنصار قول رسول الله ﷺ فى ذكر مفاخرهم . قالوا : لئله لله ولرسوله ،
أى : إنا معشر الأنصار لا نقول هذا الكلام الذى قلته أبداً ؛ لأن حلاوة الإيمان وجزاء الإيمان أكبر من هذا بكثير ، وبهنا لا يكونون هم الدين أعطوا ، بل الإيمان هو الذى أعطاكم .
وعندما قال الأنصار رسول الله ﷺ : بل الله لله ولرسوله ، قال لهم رسول الله عليه الصلاة والسلام : « أوجدتم فى أنفسكم يا معشر الأنصار فى لعاعة من الدنيا »^(١) تألفت بها قومًا ليسلموا ووكلكم إلى إسلامكم ، أهلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله ﷺ فى رحالكم ؟ فالوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرئًا من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار . فما سمعوا هذا القول من رسول الله ﷺ بكوا حتى اخضلت لحاهم وقالوا : رضينا بالله وبرسوله قسمًا وحظًا . وانتهت المسألة .

وهكذا نرى أنه حين تأتى مقارنة بين شيعين ، لابد أن تتفاخر بالشىء الدائم الباقى الذى حصلنا عليه ، أما الشىء الذى ماله إلى ثناء فإن من ليس معه ، يعيش كمن عاش معه ، وهو متاع الدنيا ، تمش معه وتعيش بدونه ، ولكن لا أحد يستغنى عن الإيمان ، [ولكن يمكن أن] نستغنى عن الدنيا نعم ، أما عن الإيمان وعن الله ورسوله فلا .
ربعد أن قسم رسول الله ﷺ الغنائم ، جاءته وفود هوازن وهو بالجرانة . فقالوا : يا محمد ،

(١) أى : بقية السيرة .

إنا أصل وعشيرة ، ممن عبا ، من الله عليك ، فإنه قد نزل بنا من البلاء ما لا يحصى عليك . فقال : « اختاروا بين نساكم وأموالكم وأهلكم » . قالوا : خيرت بن أحسابنا وأموالنا ، نختار آبائنا .

فقال : « أما ما كان لى ولى عبد المطلب فهو لكم ، فإذا صلبت الظهر فقولوا : إنا نستشفع برسول الله ﷺ على المؤمنين ، وبالمؤمنين على رسول الله ﷺ ، فى نساءنا وأبنائنا » . قال : ففعلوا . فقال رسول الله ﷺ : « أما ما كان لى ولى عبد المطلب فهو لكم » ، وقال المهاجرون : ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ . وقالت الأنصار مثل ذلك ، وقال عيينة بن بدر : أما ما كان لى ولىنى نزاره فلا ، وقال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا ، وقال عباس بن مرداس : أما أنا وبنو سليم فلا ، فقال الحيان : كذبت ! بل هو لرسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « يا أيها الناس ، ردوا عليهم نساءهم وأبناءهم ، فمن تمسك بشيء من القىء فله عليها سنة فرائض من أول شيء يفثه الله عليها » . ثم ركب راحته ، وتعلق به الناس ، يقولون : أقسم علينا فيثنا بسا ، حتى ألجئوه إلى سمرة فحطفت رداءه ، فقال : « يا أيها الناس ، ردوا على ردائى ، هو الله لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعم لقسمته بينكم ، ثم لا تلفوننى بخيلاً ولا جباناً ولا كذوباً » ، ثم دنا من بعيره ، فأخذ وبرة من سنامه فجعلها بين أصابعه السبابة والوسطى ، ثم رفعها ، فقال : « يا أيها الناس ، ليس لى من هذا القىء ولا هذه ، إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم ، مردوا الخياط والخفيط ، فإن العلول يكون على أهله يوم القيامة حازراً وناراً وشناراً » . فقام رجل معه كبة من شعر ، فقال : إني أخذت هذه أصلح بها بردعة بعير لى دير ، قال : « أما ما كان لى ولىنى عبد المطلب فهو لك » ، فقال الرجل : يا رسول الله ، أما إذ بلغت ما أرى فلا أرب لى بها ، وبهذا^(١) .

وقد وردت روايات من أن الملائكة نزلت وثبتت المؤمنين ، وألقت الرعب فى قلوب الكافرين وأنزلت المذاب بهم ، والذين آمنوا هم الذين شهدوا بذلك ، لأنهم شاهدوا كائنات جياذ بلق^(٢) ولم يكن عندهم مثلها .

(١) رواه أحمد فى مسنده (١٨٤/٢) ، وقال الشيخ شاكراً (١٢٢٩) إسناده صحيح .

(٢) البلق . سواد وبهاض . والجهاد البلق : هي السواد التي تفتح البهاض إلى أخذها .

وإذا حدثنا القرآن الكريم بأن الملائكة قد برلت وأن هناك من رآهم ، فعلى الإنسان منا أن يقف موقف للمؤس ، وأن يثنى فى القائل وهو صادق فليؤس بما قال ولا يبحث عن الكيفية ، وإن كان منكم من يقف أمام هذه المسألة فعليه ألا يقف وقفة الراض بوجودها ، ولكن وقفة الجاهل لكيفيةها ؛ لأن وجود الشيء مختلف تمامًا عن إدراك كيفية وجوده ،

وهناك أشياء كثيرة فى الكون ، موجودة وتزاول مهمتها ، ونحن لا ندرك كيفية هذا الوجود ، وليس معنى عدم إدراكنا لها أنها غير موجودة . وكل الاكتشافات التى قدمها لنا العلم المعاصر كانت موجودة . لكننا لم نكن ندرك وجودها ولا كيفية عملها .

فالكهرياء مثلاً كانت موجودة فى الكون منذ بداية الخلق ، ولكننا لم نكن ندرك وجودها حتى كشف الله تعالى لنا وجودها فاستخدمناها .

والميكروبات أيضاً كانت موجودة فى الكون تؤدى مهمتها ولم نعرفها ، حتى كشف الله لنا عنها معرفتنا وجودها وكيفية هذا الوجود ، فكل هذه الأشياء كانت موجودة فى كون الله منذ خلقه الله تعالى ، ولكننا لم نكن ندرك وجودها ، وعدم معرفتنا لم ينقص من هذا الوجود شيئاً ؛ ولذلك إذا تحدثت بشيء لا يستطيع عقبك أن يفهمه فلا تكرر وجوده ؛ لأن هناك أشياء لم نكن نعرف عنها شيئاً ، ثم أعطانا الله تعالى العلم فوجدنا أنها تعيش بقوانين مادية محددة . إذن .. فوجود الشيء يختلف تمامًا عن إدراك هذا الوجود .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ مَائِكَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُودًا لَوْ تَرَوْهَا ﴾ [التوبة : ٢٦]

كلمة ﴿ لَوْ تَرَوْهَا ﴾ تعطى العذر لكل من لم ير ، ويكفى أن الله تعالى قال هذا ليكون حقيقة واقعة ، والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَمَا يَمْلِكُ خُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [القدر : ٣١] .

وحين كان يقال لنا . إن لله خلقاً هم الجبر ، كما أن له خلقاً آخرين هم الملائكة ، والجبريون ونحن لا نراهم . كان البعض يقف موقف الاستكار ، كذلك قال لنا رسول الله ﷺ : « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم »^(١) .

(١) أخرجه البخاري فى صحيحه (٢٠٣٥) ، ومسلم (٢١٧٥) عن صفية بنت حيى روى عن النبي ﷺ ، رضى الله تعالى عنها .

وكان بعض الناس يكررون هذا الكلام ويصاعلون : كيف يدخل الشيطان عروق الإنسان ويجرى منها مجرى الدم ؟ ! وعندما تقدمنا في العلم التجريبي واكتشفنا الميكروبات ورأينا من دراستها أنها تخترق الجسم وتدخل إلى الدم في العروق ، هل يحس أحد بالميكروب وهو يحترق جسمه ؟ هل علم أحد بالميكروب ساعة دخوله للجسم ؟ بالطبع لا ، ولكن عندما يتولد ويتكاثر ويبدأ تأثيره يظهر على أجسامنا ونحس به ، وهذا يدل على أن الميكروب بالغ الدقة مبلغاً لا تحس به شعيرات الإحساس المرحودة تحت الجلد . ومن فرط دقته يخترق هذه الشعيرات أو يمر بها ونحن لا ندري عنه شيئاً ، ويدخل إلى الدم ويجرى في العروق ونحن لا نحس بشيء من ذلك ، والدم يجري في عروق يحكمها قانون هو : أن مربع نصف القطر يوزع على الكل ، ومثل ذلك ما يحدث في توزيع المياه ، فنحن نأتي بماسورة رئيسية نصف قطرها ثمانية بوصات ويدخلها إلى قرية ، تكون كمية الصب هي ٨ × ٨ . أي ٦٤ بوصة مربعة ، حينما نأتي لنوزعها على مواسير أخرى فرعية نأخذ منها ماسورة نصف قطرها أربع بوصات ، ومنها نأخذ ماسورة نصف قطرها بوصتان ، ومنها نأخذ ماسورة نصف قطرها بوصة أو نصف بوصة أهم أن مربع أنصاف أقطار المواسير الفرعية يساوي ما تصبه الماسورة الكبيرة . وهكذا عروق الدم ، فالدم يجري في شرايين واسعة وأوردة وشعيرات دقيقة .. ولكن دقة حجم الميكروب تجعله يحترق هذه الشعيرات فلا ينزل منها دم وعندما تضيق هذه الشرايين تحدث الأمراض التي نسمع عنها ، من تراكم الكوليسترول أو حدوث جلطات ، فيتدخل الطب ليوسع الشرايين ؛ لأنها مواسير الدم . وهناك جراحات تجري بأشعة الليزر أو غيرها من الاكتشافات الحديثة تخترق هذه الأشعة الجلد بين الشعيرات ، لأنها أشعة دقيقة جداً فلا تقطع أي شعيرة ولا تسيل أي دماء .

إذن .. فكل ما في داخل الجسم محسوب بإرادة الله تعالى ، ولكل ميكروب خرة حضانة يقضيها داخل الجسم دون أن نحس به ، ثم بعد ذلك يبدأ تأثيره فيظهر المرض وتأخذ عمليات تولد الميكروب في الدم ومقاومة كرات الدم البيضاء له فترة طويلة ، يساها نحن لا نحس ولا ندرك ما يحدث .

فإذا كان الميكروب وهو من مادتك ، أي شيء له كثافة وله حجم محدد ولا تراه إلا بالميكروسكوب لتجد له شكلاً مخيفاً ، وهو يتوالد ويتناسل وله دورة حياة ، إذا كان هذا

الميكروب لا تحس به وهو في داخل جسمك ؛ فما بالك بالشیطان الذي هو مخلوق من مادة أكثر شغافية من مادة الميكروب ، هل يمكن أن تحس به إذا دخل جسمك ؟ لا ، وإذا كان الشيء المادى قد دخل جسمك ولم تحس به ، فما بالك بالمخلوق الذى خلقه الله تعالى من مادة أشف وأخف من الطين ؟ ألا يستطيع أن يدخل ويخرج من ابن آدم مجرى الدم ؟ !

فإذا قال رسول الله ﷺ : « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم » ، فلا تعجب ولا تكذب لأنك لا تحس به . فإله أعطاك فى عالم المادية ما هو أكثر كثافة فى الخلق ويدخل فى جسمك ولا تحس به .

إذن .. فاعلم أثبت لنا أن هناك مخلوقات لا نراها . ولو أننا باستخدام الميكروسكوبات الإلكترونية الحديثة فحصنا كل حلية فى جسم الإنسان فإننا سرى العجب ، سرى فى جلد الإنسان الذى يحسبه ألبس أبازا يخرج منها العرق ، وغير ذلك من تفاصيل باللغة الدقيقة لا تتركها العين ، فإذا حدثنا الله سبحانه وتعالى بأن هناك ملائكة تنزل وتقاتل ، فنحن نصدق ، وقد جعل الحق تبارك وتعالى لنا ما يطعم بشرتنا فقال : ﴿ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّهُ تَرَوْهَا ﴾ ، فإن قال واحد : إنه رآها ، وقال آخر : لم أر شيئاً ، نقول . إن قول الحق : ﴿ لَّهُ تَرَوْهَا ﴾ أى : لم تروها مجتمعين ، فهناك من لحها ، وهناك من لم يرها .

وقال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى : بالقتل أو بالأسر أو بسلب أموالهم ، وقوله تعالى : ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ أى : أن ما لحق بهم من هزيمة كان جزاء لهم على كفرهم . ولكن البعض يتساءل : لماذا لم يزل الجراء وتتم الهزيمة من أول لحظة فى القتال ؟ نقول : إن الله أراد أن يريد عذابهم ، فلو أنه ألحق بهم الهزيمة فى أول لحظة ، لكان ذلك أخف على أنفسهم وأقل عذاباً ، ولكنه أعطاهم أولاً فرحة النصر حتى تأتى الهزيمة أكثر قسوة وأكثر بشاعة ، ويقول الشاعر :

كما أدركت فوماً عطاشاً عماماً فلما رأوها أقشعت وتجلت

فحين تمر سخابة على قوم يعانون من شدة العطش ، هم يحلمون أن تمطر عليهم ، لكن الحلم يتبدد تماماً كالمسجون الذى يعانى من عطش شديد ، فيطلب من السجناء شربة ماء فيقول له السجناء : سأعطيها لك . وفعلاً يذهب السجناء ويحضرون له كوب ماء مثليج فيعطيه له ويمسك المسجون الكوب بيده ونمسه تمتلئ به فرحاً ، وإذا بالسجناء يضربه بشدة على يده

فيستقط الكوب على الأرض ، فيصاب المسجون بصدمة شديدة .

وهذه أبشع طرق التعذيب ، ولو أن السجناء رفض إحضار كوب الماء من أول الأمر لكان ذلك أقل إبلاغا للسجين ، لكن بعد أن يحضر كوب الماء للمسجون ويضعه في يده ثم يحرمه منه فهذا أكثر عذابا .

وهكذا أراد الله أن يزيد من عذاب الكافرين فأعطاهم مقدمات النصر وحلاوته أولا ، ثم جاءت من بعد ذلك مراة الهزيمة لنسلبهم كل شيء وبذلك نجتمع لهم فيجعتان : فيجعة الإيجاب ، وفيجعة السلب .

ثم تأتي لحة الرحمة التي يفر بها الله سبحانه وتعالى كونه كله ، فيفتح سبحانه الباب لكل عاصٍ ليعود إلى طريق الإيمان فيقبله الله ، ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة ٢٧] .

وهذه هي عظيمة الخالق ، الرحيم الرحيم ، فهو يفتح الباب دائما لعباده ، لأنه هو خالق هذا الكون ، وكل من عصي يفتح الله أمامه باب التوبة ، وهذه مسألة منطقية ، لأن الذي يكفر والذي يعصى لا يضر الله شيئا ، ولكنه يضر نفسه .

زوجات النبي ﷺ (١)

١- خديجة رضي الله تعالى عنها :

هي أول من تزوج النبي ﷺ ، روجه إياها أبوها الحويلد بن أسد ، ويقال أبوها عمرو بن الحويلد ، وأصدقها رسول الله ﷺ عشرين نكحة ، فولدت لرسول الله ﷺ ولده كلهم إلا إبراهيم ، وكانت قبله عند أبي هالة بن مالك ، أحد بني أسيّد بن عمرو بن تميم ، حبيب بني عبد الدار ، فولدت له هند بن أبي هالة ، وربيب بنت أبي هالة ، وكانت قبل أبي هالة عند عتيق بن عابد بن عبد الله بن غمر بن مخزوم ، فولدت له عبد الله ، وجارية .

٢- عائشة رضي الله تعالى عنها :

تزوج رسول الله ﷺ عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهما بمكة ، وهي بنت سبع سنين ، وبنى بها بالمدينة وهي بنت تسع سنين أو عشر ، ولم يتزوج رسول الله ﷺ بكراً غيرها ، روجه إياها أبوها أبو بكر ، وأصدقها رسول الله ﷺ أربع مائة درهم .

٣- سودة رضي الله تعالى عنها :

تزوج رسول الله ﷺ سودة بنت ربيعة بن قيس بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن جشل بن عامر بن لؤي ، روجه إياها سلبط بن عمرو ، ويقال أبو حاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن جشل ، وأصدقها رسول الله ﷺ أربع مائة درهم . وكانت قبله عند السكران بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن جشل .

٤- زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها :

وتزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش بن رقيب الأسدية ، روجه إياها أخوها أبو أحمد بن جحش ، وأصدقها رسول الله ﷺ أربع مائة درهم ، وكانت قبله عند زيد بن حارثة ، مولى رسول الله ﷺ فيها أنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنهَا وَطَرًا رَسُولُكَهَا ﴾ [الأحراب : ٣٧]

٥- أم سلمة رضي الله تعالى عنها :

وتزوج رسول الله ﷺ أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومية واسمها هند ، روجه إياها

(١) هذا الباب ليس من كلام الشيخ رحمه الله ، وقد أضفناه لزيادة الفائدة

سلمة بن أبي سلمة ابنتها، وأصدقها رسول الله ﷺ مائة حشوة ليف، وقدرت، وصحفة، ومبشرة، وكانت قبله عند أبي سلمة بن عبد الأسد، واسمه عبد الله، مولدت له سلمة وغير وزب ورؤية.

٦- حفصة رضى الله تعالى عنها :

وتزوج رسول الله ﷺ حفصة بنت عمر بن الخطاب، وزوجها إياها أبوها عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه، وأصدقها رسول الله ﷺ أربعمئة درهم، وكانت قبله عند الخثيم بن خذافة الشهمي.

٧- أم حبة رضى الله تعالى عنها :

تزوج رسول الله ﷺ أم حبيبة، واسمها زملة بنت أبي سفيان بن حرب، زوجها إياها خالد بن سعيد بن العاص، وهما بأرض الحبشة، وأصدقها النجاشي عن رسول الله ﷺ أربعمئة دينار، وهو الذي كان خطبها على رسول الله ﷺ، وكانت قبله عند عبيد الله بن جحش الأسدي.

٨- جويرية بنت الحارث رضى الله تعالى عنها :

وتزوج رسول الله ﷺ لجويرية بنت الحارث بن أبي ضرار الخزاعية، كانت في سبايا بني المصطلق من خزاعة، فوفعت في السهم لثابت بن قيس بن الشماس الأنصاري، فكاتبها على نفسها، فأنت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها، فقال لها هل لك في خير من ذلك؟ قالت وما هو؟ قال : أقصى عنك كتابتك وأتزوجك؟ فقالت : نعم . فتزوجها .

ويقال : لما انصرف رسول الله ﷺ من عروة بن المصطلق ومعه جويرية بنت الحارث، فكان بدات الجيش، دفع لجويرية إلى رجل من الأنصار ودبعة وأمره بالاحتفاظ بها، وقدم رسول الله ﷺ المدينة، فأقبل أبوها الحارث بن أبي ضرار بهداء ابنته، فلما كان بالعقيق نظر إلى الإبل التي جاء بها للعداء، فرغب في بيعها منها، فبيعهما في شعب من شعاب العقيق، ثم أتى النبي ﷺ، فقال : يا محمد، أصبحتم ابنتي، وهذا فدوها، فقال رسول الله ﷺ : فأين البعيران اللذان غيبت بالعقيق في شعب كذا وكذا؟ فقال الحارث : أشهد أن لا إله إلا الله، وأنتك رسول الله صلى الله عليه، فوالله ما أطلع عني ذلك إلا الله تعالى، فأسلم الحارث، وأسلم معه ابناؤه وبنات من قومه، وأرسل إلى البعيرين، فجاء بهما، فهدع الإبل إلى

النبي ﷺ، ودُفعت إليه ابنته مجورية، فأسلمت وحسن إسلامها، فخطبها رسول الله ﷺ إلى أبيها فزوجه إياها، وأصدقها أربعمئة درهم، وكانت قبل رسول الله ﷺ حدة ابن عم لها يقال له عبد الله.

ويقال اشتراها رسول الله ﷺ من ثابت بن قيس، فأعتقها وتزوجها، وأصدقها أربعمئة درهم.

٩- صفية بنت حنن رضي الله تعالى عنها :

وتزوج رسول الله ﷺ صفية بنت حنن بن أخطب، سبأ من نخير، فاصطفاها لنفسه، وأولم رسول الله ﷺ وليمة، ما فيها شحم ولا خم، كان سوقاً وتمراً، وكانت قبله حدة يكناه ابن الربيع بن أبي الحقيق.

١٠- ميمونة بنت الحارث رضي الله تعالى عنها :

وتزوج رسول الله ﷺ ميمونة بنت الحارث بن عزن بن بجير بن هزيم بن زوية بن عبد الله ابن هلال بن عامر بن صعصعة، زوجه إياها العباس بن عبد المطلب، وأصدقها العباس عن رسول الله ﷺ أربعمئة درهم، وكانت قبله عند أبي رهم بن عبد العزى بن أبي قيس بن عبد وُد بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي، ويقال : إنها التي وهبت نفسها للنبي ﷺ، وذلك أن خصبة السبي ﷺ انتهت إليها وهي على يعربها، فقالت : البعير وما عليه لله ولرسوله . فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ وَكَأَنَّهُ تَمْيِمْتُهُ إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾ [الأحراب : ٥٠].

ويقال : إن التي وهبت نفسها للنبي ﷺ زينب بنت جحش، ويقال : أم شريك، غزوة بنت حابر بن وهب من بني منقر بن عمرو بن مغيص بن عامر بن لؤي، ويقال : بل هي امرأة من بني سامة بن لؤي، فأرجأها رسول الله ﷺ.

١١- زينب بنت خزيمة رضي الله تعالى عنها :

وتزوج رسول الله ﷺ زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عمرو بن عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة، وكانت تُسمى أم المساكين، لرحمتها إياهم، ورقتها عليهم، وزوجه إياها قيصبة بن عمرو الهلالي، وأصدقها رسول الله ﷺ أربعمئة درهم، وكانت قبله عند غنيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف، وكانت قبل غنيدة عند مجهم بن عمرو ابن الحارث، وهو ابن عمها.

فهؤلاء اللاتى بنى بهن رسول الله ﷺ إحدى عشرة ، فمات قبله منهن ثنتان : حديجة بنت خويلد ، وزينب بنت جحش ، وتوفى عن تسع . هذا الحديث ، وثنتان لم يدخل بهما : أسماء بنت النعمان الكندية ، وتزوجها فوجد بها يابضا فعتقها وردها إلى أهلها ، وعمرة بنت يزيد الكلابية وكانت حديثة عهد بكفر ، فلما قدمت على رسول الله ﷺ ، استعادت من رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : منيع عائذ الله ، فردها إلى أهلها ، ويقال : إن التى استعادت من رسول الله ﷺ كندية بنت عم لأسماء بنت النعمان ، ويقال : إن رسول الله ﷺ دعاها ، فقالت : إنا قوم نوثى ولا نأبى ، فردها رسول الله ﷺ إلى أهلها .

ابتداء شكوى رسول الله ﷺ

١- زيارته ﷺ لأهل البقيع :

روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، عن أبي مؤييبة ، مولى رسول الله ﷺ ، قال : بعث رسول الله ﷺ من جوف الليل ، فقال يا أبا مؤييبة ، إني قد أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع ، فاطلق معي ، فانطلقت معه ، فلما وقف بين أظهرهم ، قال : السلام عليكم يا أهل المقابر ، ليهنئ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه ، أقبلت العتق كقطع الليل المظلم ، يتبع آخرها أولها ، الآخرة شر من الأولى ، ثم أقبل على ، فقال : يا أبا مؤييبة ، إني قد أتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ، ثم الجنة ، فحيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة . قال . فقلت : بأبي أنت وأمي ، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ، ثم الجنة ، قال : لا والله يا أبا مؤييبة ، لقد اخترت لقاء ربي والجنة . ثم استعصر لأهل البقيع ، ثم انصرف ، فبدأ برسول الله ﷺ وجعه الذى قبضه الله فيه .

٢- تمرضه ﷺ فى بيت عائشة :

عن حميد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت رجع رسول الله ﷺ من البقيع ، فوجدنى وأنا أجد ضداً فى رأسى ، وأنا أقول : وإرأساه ، فقال : بل أنا والله يا عائشة وإرأساه .

قالت : ثم قال : وما صررك لو كنت قبي ، فمئت عليك وكفتك ، وصليت عليك ودهنتك ؟ قال : قلت : والله لكأنى بك ، لو قد فعلت ذلك ، لقد رجعت إلى بيتى ، فأعرست

فيه بعض نسائك ، قالت : فبسم رسول الله ﷺ ، وتنام به وجعه ، وهو يدور على نسائه ، حتى استمر به ، وهو في بيت ميسونة ، فدعا نسائه ، فاستأذنهن في أن يُمرّص في بيتي ، فأيدن له .

خطبة النبي ﷺ وتفضيله أبا بكر ﷺ

خرج رسول الله ﷺ عاصباً رأسه حتى جلس على المنبر ، ثم كان أول ما تكلم به أنه صلى على أصحاب أحد ، واستغفر لهم ، فأكثر الصلاة عليهم ، ثم قال : « إن عبد من عبد الله خيّر الله بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ما عند الله » .

قال : ففهمها أبو بكر وعرف أن نفسه يريد ، فبكى وقال بل نحن لفديك بأنفسنا وأبنائنا .

فقال : « عني ريثك يا أبا بكر » . ثم قال : « انظروا هذه الأبواب اللاقطة في المسجد ، فسدوها إلا بيت أبي بكر ، فإني لا أعم أحدًا كان أفضل في الصحبة عندي بذكره » . وروى أن رسول الله ﷺ قال يومئذ في كلامه هذا : « فإني لو كنت مُتَّحِدًا من العباد خليلاً لانتخدت أبا بكر خليلاً ، ولكن صحبة وإخاء إيمان ، حتى يجمع الله بيننا عنده » .

أمره ﷺ بإنفاذ بعث أسامة

استبطن رسول الله ﷺ الناس في بعث أسامة بن زيد ، وهو في وجهه ، فخرج عاصباً رأسه حتى جلس على المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل ، ثم قال : « أيها الناس ، أنفذوا بعث أسامة ، فلعمري لئن قسم في إمارته لقد قلتم في إمرة أبيه من قبله ، وإنه لخليق للإمارة ، وإن كان أبوه لخليقاً لها » .

ثم نزل رسول الله ﷺ ، وانكمش الناس في جهازهم ، واستعز برسول الله ﷺ وجعه ، فخرج أسامة ، وخرج جيشه معه حتى برلوا الخُوف ، من المدينة على فَوْسَح ، فصرّب به عسكره ، وتنام إليه الناس ، وثقل رسول الله ﷺ ، فأقام أسامة والناس ليطفروا ما الله قاض في رسول الله ﷺ .

وصيته ﷺ بالأنصار

قال رسول الله ﷺ يوم صلى واستعمر لأصحاب أحد، وذكر من أمرهم ما ذكر مع معالته يومئذ « يا معشر المهاجرين، استوطنوا بالأنصار خيرا، فإن الناس يزيدون، وإن الأنصار على هبتها لا تزيد، وأنهم كانوا عيتي التي أوتيت إليها، فأحسنوا إلى محسبهم، وتجاوزوا عن مُسببتهم » .

أبو بكر ﷺ يصلي بالناس أثناء مرض النبي ﷺ

عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : لما استعز برسول الله ﷺ الوجع قال : « مروا أبي بكر فليصل بالناس » . قالت : قلت : يا نبي الله ، إن أبا بكر رجل رقيق ، ضعيف الصوت . كثير اليكاء إذا قرأ القرآن قال : « مروه فليصل بالناس » . قالت : ففدئت بمثل قولي فقال « إنك صواحب يوسف ، فمروه فليصل بالناس » ، قالت : فوالله ما أقول ذلك إلا أني كنت أحب أن يُصرف ذلك من أبي بكر وعرفت أن الناس لا يحبون رجلا قام مقامه أبداً ، وأن الناس سيتشاءمون به في كل حدث كان ، فكنث أحب أن يُصرف ذلك عن أبي بكر .

اليوم الذي قبض الله فيه رسوله ﷺ

لما كان يوم الاثنين الذي قبض الله فيه رسول الله ﷺ ، حَزَّجَ الناس ، وهم يُصلون الصبح ، فرفع الشتر ، وفتح الباب ، فخرج رسول الله ﷺ ، فقام على باب عائشة ، فكاد المسلمون يفتنون في صلاتهم برسول الله ﷺ حين رأوه مرحا به ، وتفرجوا . فأشار إليهم أن اثبتوا على صلاتكم ؛ قال - هبسم رسول الله ﷺ سرورا لما رأى من هبتهم في صلاتهم ، وما رأيت رسول الله ﷺ أحسن هيئة منه تلك الساعة ، قال : ثم رجع وانصرف الناس وهم يرون أن رسول الله ﷺ قد أفرق من وجعه ، فرجع أبو بكر إلى أهله بالشلح .

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها ، قالت : رجع إلي رسول الله ﷺ في ذلك اليوم حين دخل من المسجد ، فاضطجع في حجرى ، فدخل على رجل من آل أبي بكر ، وفي يده سواك أخضر . قالت : فنظر رسول الله ﷺ إليه في يده نظرا عرفت أنه يريد ، قالت : فقلت : يا رسول الله ، أتحب أن أعطيك هذا السواك ؟ قال . نعم ، قالت : فأخذته فمضغته له حتى لبتته ، ثم أعطوته إياه

قالت : فاستن به كأشد ما رأيته يشتتن بسرواه قط ، ثم وضعه ، ووجدت رسول الله ﷺ يشغل في حجرى ، فذهبت أنظر في وجهه ، فإذا بصره قد شحخص ، وهو يقول : بل الرفيق الأعلى من الجنة . قالت : فقلت : تخيرت فاخترت ، والذى بعثك بالحق . قالت : وبص رسول الله ﷺ .

وعنها رضى الله عنها : مات رسول الله ﷺ بين سحرى ونحرى ومى ذؤلتى ، لم أظلم فيه أحدًا فمن سفهى وحدائثه سنى أن رسول الله ﷺ قبض وهو فى حجرى ، ثم وضعت رأسه على وسادة ، وقمت أقدم مع النساء وأضرب وجهى .

موقف عمر بن الخطاب ؓ عقب وفاة النبي ﷺ

عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : لما توفى رسول الله ﷺ قام عمر بن الخطاب ، فقال : إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد توفى ، وإن رسول الله ﷺ ما مات ، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع بعد أن قيل : قد مات ، والله ليرجع رسول الله ﷺ كما رجع موسى ، فليقطع أيدى رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله ﷺ مات .

وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلعه الخير ، وعمر يكلم الناس ، فلم يلتفت إلى شيء حتى دخل على رسول الله ﷺ فى بيت عائشة ، ورسول الله ﷺ مستجى فى ناحية البيت ، عليه ثرد خيرة ، فأقبل حتى كشف عن وجه رسول الله ﷺ ، ثم أقبل عليه فقبله . ثم قال : بأبى أنت وأمى ، أما الموتة التى كتب الله عليك فقد دقتها ، ثم س تصيبك بعدها موتة أبدًا ، ثم رد الثرد على رسول الله ﷺ ، ثم خرج وعمر يكلم الناس ، فقال على رثلك يا عمر ، أنصت ، فأبى إلا أن يتكلم ، فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس ، فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ، إنه من كان بعد محمدًا فإن محمدًا قد مات ، ومن كان بعد الله فإن الله حي لا يموت . قال : ثم تلا هذه الآية : **هُوَ مَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنِّي مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَقْلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَبَّحَرَى اللَّهُ الشَّاهِكِينَ** [آل عمران : ١٤٤] .

قال مواله لكان الناس لم يعموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ ، قال وأخذها الناس عن أبي بكر ، وإنما هي في أفواههم ، وقال : فقال أبو هريرة : قال عمر : والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها ، ففكرت حتى وقعت إلى الأرض ما تحملني رجلاي ، فعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات .

جهاز رسول الله ﷺ ودفنه

١- من تولى غسله ﷺ :

رؤي أن علي بن أبي طالب ، والعباس بن عبد المطلب ، والفضل بن العباس ، وثمان بن العباس ، وأسامة بن زيد ، وشقران مولى رسول الله ﷺ ، هم الذين ولّوا غسله ، وأن أوس بن حنظلة ، أحد بني عوف بن المخرج ، قال لعلي بن أبي طالب . أنشدك الله يا علي وحظًا من رسول الله ﷺ .

وكان أوس من أصحاب رسول الله ﷺ وأهل بدر .

قال : ادخل ، فدخل مجلس ، وحضر غسل رسول الله ﷺ فأمسده علي بن أبي طالب إلى صدره ، وكان العباس والفضل وثمان بقلوبه معه ، وكان أسامة بن زيد وشقران مولا ، هما اللذان يصبان الماء عليه ، وعلي يغسله ، قد أمسده إلى صدره ، وعليه قميصه بذلك به من ورائه ، لا يفضي يده إلى رسول الله ﷺ ، وعلي يقول : بأبي أنت وأمي ، ما أطيبك حيًا وميتًا ، ولم ير من رسول الله ﷺ شيء مما يرمى من الميت .

٢- كيفية غسله ﷺ :

رؤي عن عائشة رضي الله تعالى عنها ، قالت : لما أرادوا غسل رسول الله ﷺ اختلفوا فيه . فقالوا : والله ما ندري ، أنجد رسول الله ﷺ من ثيابه كما مجرد موتانا ، أو نغسله وعليه ثيابه ؟ قالت : فلما اختلفوا ألقى الله عليهم النوم ، حتى ما منهم رجل إلا دقته في صدره ، ثم كلمهم مكلّم من ناحية البيت لا يدرون من هو : أن اغسلوا النبي وعبيه ثيابه ، قالت : فقاموا إلى رسول الله ﷺ ، فغسلوه وعبيه قميصه ، يصبون الماء فوق القميص ، ويدلكونه والقميص دون أيديهم

٣- تكفيه ﷺ :

فلما فرغ من غسل رسول الله ﷺ كُفِّنَ في ثلاث أثواب ، ثوبين صُخاريين وُرد خبره ،
أُدرج فيها إدراجاً .

وعنها رضى الله تعالى عنها أن النبي ﷺ كُفِّنَ في ثلاثة أثواب بيض يمانية ليس فيها قميص ولا عمامة .

فقيل لعائشة : إنهم كانوا يرعمون أنه قد كان كُفِّنَ في حبرة .

فقلت عائشة : قد جاؤوا ببرد برة ، فلم يكفوه^(١) .

وعنها رضى الله تعالى عنها قالت : كُفِّنَ رسول الله ﷺ في ثلاثة أثواب بيض سَخُولية ، من كُرْشَف ، ليس فيها قميص ولا عمامة ، أما الخلة فإنه شُبه على الناس فيها ، أنها اشتريت له ليُكْفَرَ فيها ، فتركت الخلة . وكُفِّنَ في ثلاثة أثواب بيض سَخُولية . فأخذها عبد الله بن أبي بكر . فقال : لأحسب أنها حتى أُكْفَنَ فيها بنفسى . ثم قال : لو رضى عنها الله عز وجل لبقيته لكفه فيها . فباعها وتصدق بتمسها^(٢) .

٤- موضع دفنه والصلاة عليه :

فلما فرغ من جهاز رسول الله ﷺ يوم الثلاثاء ، وضع في سريره في بيته ، وقد كان المسلمون اختطفوا في دفنه . فقا قائل : يدفنه في مسجده ، وقال قائل : يدفنه مع أصحابه ، فقال أبو بكر : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما قبض نبي إلا دُفِنَ حيث يُقبض » .

فوضع فراش رسول الله ﷺ الذي تُوفى عليه ، فحُفِرَ له تحته ، ثم دخل الناس على رسول الله ﷺ يصلون عليه أرسالا ، دخل الرجال ، حتى إذا فرغوا أدخل النساء ، حتى إذا فرغ النساء أدخل الصبيان ، ولم يؤم الناس على رسول الله ﷺ أحد . ثم دُفِنَ رسول الله ﷺ من وسط الليل ليلة الأربعاء ، وروى عن عائشة رضى الله تعالى عنها : جوف الليل من ليلة الأربعاء^(٣) .

(١) روه ابن ماجه (١٤٦٩) ، وصححه الألباني (١١٩٩) .

(٢) أخرجه البخاري (١٢٧١) ، ومسلم (٤٥/٩٤١) .

(٣) روه ابن ماجه (١٦٢٨) ، وضعفه الألباني (٣٥٩) .

وعن أبي بكر رضى الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لن يقبر نبي إلا حيث يموت» ، فأخبروا مراشه واحصروا له تحت فراشه^(١) .

٥- تعليل صلاتهم عليه ﷺ فرادى :

قال ابن ناصر الدين : قال الشافعي رحمة الله تعالى عليه في الصلاة على النبي ﷺ بعير إمام قال : وذلك لعظم أمر رسول الله ﷺ بأبي هو وأمي ، وتنافسهم على ألا يتولى الإمامة في الصلاة عليه أحد . رواه البيهقي في السنن الكبرى .

وقيل إنه كان آخر العهد يرسل الله ﷺ ، فأراد كل واحد منهم أن يأخذ البركة بالصلاة عليه محتقنا به دون أن يكون فيها تابعا لغيره .

٦- حفر قبره الشريف ﷺ :

عن ابن عباس رضى الله تعالى عنه ، قال : لما أرادوا أن يحفروا الرسول الله ﷺ ، وكان أبو عبيدة بن الجراح يقترح كحفر أهل مكة ، وكان أبو طلحة زيد بن سهل هو الذي يحفر لأهل المدينة ، يلحد ، فدعا العباس رجلين ، فقال لأحدهما : اذهب إلى أبي عبيدة بن الجراح ، وللآخر اذهب إلى أبي طلحة ، اللهم خذ لرسول الله ﷺ ، فوجد صاحب أبي طلحة أبا طلحة ، فجاء ، فلحد لرسول الله ﷺ^(٢) .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه أن النبي ﷺ ألحد ونصب عليه اللبن نصبا ، ورفع قبره من الأرض نحوًا من شبر^(٣) .

وعن سفيان الثوري أنه رأى قبر النبي ﷺ مسكًا^(٤) .

٧- كيفية إدخاله ﷺ القبر :

عن بريدة رضى الله تعالى عنه قال : أدخل النبي ﷺ من قبل القبلة وأخذ له لحنا ونصب عليه اللبن نصبا^(٥) .

(١) رواه أحمد في المسند (٧/١) ، وقال الشيخ شاكر : حديث قوي بطرقه ، وإسناده ضعيف لانقطاعه .

(٢) رواه أحمد في مسنده (٨/١) ، وقال الشيخ شاكر : إسناده ضعيف .

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه (٦٦٣٥) ، وقال الأرنؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم .

(٤) أخرجه البخاري (١٣٩٠) .

(٥) رواه السيوطي في السنن (٥٥/٤) ، والطبقات الكبرى لابن سعد (٢/٢٩٤) .

٨- من تولي دفنه ﷺ :

رُوي أن الذين نزلوا في قبر رسول الله ﷺ على بن أبي طالب والفصل بن عباس ، وقثم بن عباس ، وشقران مولى رسول الله ﷺ .

وقد قال أوس بن حنظلة لعلي بن أبي طالب : يا علي ، أُنشدك الله ، وحفظنا من رسول الله ﷺ . فقال له : انزل ، فتزل مع القوم .

وقد كان مولاه شقران حين وضع رسول الله ﷺ في حفرته ربنى عليه قد أخذ قطعة ، وقد كان رسول الله ﷺ يلبسها ويمترشها ، فدفنها في القبر ، وقال : والله لا يلبسها أحدٌ بعدك أبداً . قال : فدفنت مع رسول الله ﷺ (١) .



فاللهم إنا نشهدك بأننا نبينا محمد ﷺ قد أدى الأمانة ،
وبلغ الرسالة ، ونصح الأمة ، وكشف الغمة ،
فاجزه عنا خير الجزاء ،
ولا تحرمنا شفاعته يوم نلقاك ،
وآخر دعوانا أن الحمد
لله رب العالمين .



(١) أخرجه مسلم (٩٦٧/٩٦) عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
● قصة آدم عليه السلام وبدء خلق الإنسان	٧
قصة خلق الإنسان	١٩
الجنة التي دخلها آدم عليه السلام هل هي جنة الخلد .. أم جنة في الدنيا ؟	١٢
هل كان السجود لآدم عليه السلام بأمر الله تعالى ؟	١٥
إبليس .. لم يكن من الملائكة	١٦
غواية الشيطان .. وتوبة آدم عليه السلام	١٩
الحكمة من معصية آدم عليه السلام وتوبته	٢١
العبارة من قصة آدم عليه السلام	٢٤
طرف من قصة إدريس عليه السلام	٢٥
● ذكر قصة نوح عليه السلام	٢٦
عناد قوم نوح وتكذيبهم له	٣٢
نوح عليه السلام يحذر قومه	٣٦
بشرية الرسول ضرورة	٣٨
الطوفان .. وهلاك الكافرين	٤٣
نهاية الطوفان .. وعودة مفومات الحياة	٥١
● ذكر قصة نبي الله هود عليه السلام	٥٣
مهج الأنبياء عليهم السلام واحد ..	٥٧
لماذا اندثرت حضارة عاد ؟	٦٠
سبب وقوع الغضب على قوم هود ؟	٦٦
● ذكر قصة نبي الله صالح عليه السلام	٧٠
كذبت ثمود المرسلين	٧٢
معجزة صالح عليه السلام	٧٤
المؤامرة على نبي الله صالح عليه السلام	٧٦
قوم ثمود في انتظار العذاب	٧٧
بماذا أهلك الله عز وجل ثمود ؟	٧٩

- ٨١ • ذكر قصة نبي الله إبراهيم عليه السلام
- ٨٢ ما المقصود بملة إبراهيم عليه السلام ؟
- ٨٦ إبراهيم عليه السلام وتأملاته في أسرار الكون
- ٩٠ قصة الذي حاج إبراهيم في ربه
- ٩٣ ابتلاء إبراهيم في ولده
- ٩٤ البشرى بإسحاق ويعقوب عليهما السلام
- ٩٦ هجرة إبراهيم عليه السلام إلى مكة المكرمة
- ٩٧ البيت الحرام
- ١٠٠ إبطال دعوى اليهود والنصارى في إبراهيم
- ١٠١ إبراهيم عليه السلام .. وإحياء الموتى ..
- ١٠٣ واتخذ الله إبراهيم خليلًا
- ١٠٦ • قصة بين الله إسماعيل عليه السلام
- ١٠٨ • بين الله إسحاق عليه السلام
- ١١٢ • نبي الله لوط عليه السلام
- ١١٥ منطق أصحاب الفطر المطمومة
- ١١٦ حماية امرأة لوط
- ١١٨ نجاة لوط عليه السلام وأهله، إلا امرأته
- ١٢٠ الملائكة في بيت لوط ..
- ١٢٦ عاقبة المجرمين من قوم لوط
- ١٣٠ • نبي الله شعيب عليه السلام
- ١٣١ شعيب يطلب من قومه عدم الإفساد في الأرض
- ١٣٤ المش أهلك أمة
- ١٣٦ سؤال قوم شعيب
- ١٣٨ إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت
- ١٤١ ولولا رحمتك لرجمناك
- ١٤٤ تهديد الكفار لشعيب والمؤمنين
- ١٤٦ شعيب يحثكم إلى الله تعالى
- ١٤٨ قوم شعيب يستمعون العذاب
- ١٤٩ وأخذت الدين ظلموا الصبيحة

- ١٥٢ .. أصحاب الأيكة ..
- ١٥٤ .. • ذكر قصة نبي الله يعقوب عليه السلام ..
- ١٥٩ .. • ذكر قصة نبي الله يوسف عليه السلام ..
- ١٦٥ .. دروس وعبر من قصة يوسف وإخوته ..
- ١٦٦ .. إيثار يعقوب ليوسف وأخيه ..
- ١٧٤ .. كذب إخوة يوسف ... ودليل كذبهم ..
- ١٧٦ .. يوسف يباع بثمن بخس ..
- ١٧٨ .. يوسف في مصر ..
- ١٨٠ .. امرأة العزيز ، تزود يوسف عن نفسه ..
- ١٨٢ .. كيف همت به وهم بها ؟ ..
- ١٨٥ .. وشهد شاهد من أهلها ..
- ١٨٨ .. مكر النسوة ودهاء امرأة العزيز ..
- ١٩٣ .. ابتلاء يوسف عليه السلام بدخوله السجن ..
- ٢٠٠ .. رؤيا الملك وتأويلها ..
- ٢٠٦ .. الملك يطالب لقاء يوسف ..
- ٢٠٨ .. تمكين الله عز وجل يوسف عليه السلام ..
- ٢١١ .. لقاء يوسف عليه السلام بإخوته ..
- ٢١٦ .. الله ﷻ يحقق ليوسف عليه السلام الأمل الذي تماشى بأن يكون شقيقه معه ..
- ٢٢٣ .. هودة إخوة يوسف إلى أبيهم ..
- ٢٢٧ .. إخوة يوسف يتعرفون عليه ..
- ٢٣٠ .. يعقوب يشم رائحة يوسف ..
- ٢٣١ .. يعقوب وأبناؤه في مصر ..
- ٢٣٦ .. • ذكر قصة نبي الله أيوب عليه السلام ..
- ٢٣٧ .. • ذكر قصة ذو الكفل عليه السلام ..
- ٢٣٩ .. ذكر قصة أصحاب الرس ..
- ٢٤٢ .. ذكر قصة قوم يس ..
- ٢٤٦ .. • ذكر قصة نبي الله يونس عليه السلام ..
- ٢٤٧ .. رحمة الله تعالى ليونس عليه السلام ..
- ٢٤٨ .. إيمان قوم يونس عليه السلام ..

- ٢٥٠ • ذكر قصة نبي الله موسى عليه السلام
- ٢٥٥ منزلة موسى عليه السلام عند الله تعالى
- ٢٥٧ وحى الله إلى أم موسى
- ٢٦٠ عودة موسى عليه السلام إلى أمه
- ٢٦٠ خروج موسى إلى مدين
- ٢٦٢ موسى . وابنتى شعيب
- ٢٦٥ عودة موسى وأهله
- ٢٦٦ وصول موسى إلى الوادى المقدس
- ٢٦٨ معجزات نبي الله موسى عليه السلام
- ٢٦٩ ما أجراه الله على عصا موسى لم يكن سحرًا
- ٢٧١ إيمان الله تعالى لموسى عليه السلام
- ٢٧٢ من معجزات موسى عليه السلام
- ٢٧٥ تدريب موسى على استخدام العصا
- ٢٧٥ واصمم يلك إلى جناحك تخرج بضياء
- ٢٧٦ وزع يده فإذا هى بضياء للنظرين
- ٢٧٨ قيام موسى بدعوة فرعون لإحلاء سيل بنى إسرائيل
- ٢٨٤ المواجهة بين نبي موسى عليه السلام ، وفرعون الطاغية
- ٢٨٨ إتهام موسى عليه السلام بالسحر
- ٢٩٠ محاولة فرعون قلب الدلة على موسى عليه السلام
- ٢٩١ اللقاء الخامس .. يوم الزينة
- ٢٩١ إتهام موسى عليه السلام بالإفساد فى الأرض
- ٢٩٣ المؤامرة على موسى
- ٢٩٨ لحظة التحدى بين الفريقين
- ٢٩٩ إيمان السحرة .. وعقاب فرعون لهم !!
- ٣٠٤ إيثار السحرة للإيمان على العقاب
- ٣٠٥ استكبار فرعون بضر الحق
- ٣٠٦ وقد خاب من افتري
- ٣٠٧ إعداد الله تعالى لآل فرعون
- ٣١١ دعاء موسى على فرعون وماله

- ٣١٤ خروج بنى إسرائيل من مصر
- ٣١٦ نجاة موسى وقومه ... وغرق فرعون ومن معه
- ٣٢٢ فرعون يقدم قومه يوم القيامة إلى النار
- ٣٢٣ موسى في حضرة ربه
- ٣٢٩ السامري .. وصناعة العجل
- ٣٣١ غضب الله على عبدة العجل
- ٣٣٣ إختيار الله تعالى موسى بفتنة قومه
- ٣٣٧ عتاب موسى لأخيه هارون
- ٣٣٨ سكوت الغضب عن موسى
- ٣٣٩ اختلاف بنى إسرائيل على موسى
- ٣٤١ هل كل قوم موسى تقضوا العهود ؟
- ٣٤٢ ذكر قصة موسى والخضر عليهما السلام
- ٣٤٥ قصة موسى ﷺ ، مع قارون
- ٣٤٨ • ذكر قصة نبي الله يوشع ﷺ
- ٣٥١ الآية الربانية لاختيار طالوت
- ٣٥٥ • ذكر قصة نبي الله إلياس ﷺ
- ٣٥٧ • ذكر قصة نبي الله حزقيال ﷺ
- ٣٦٠ • ذكر قصة نبي الله اليسع ﷺ
- ٣٦١ • ذكر قصة نبي الله شمويل ﷺ
- ٣٦٢ • ذكر قصة نبي الله داود ﷺ
- ٣٦٤ زبور داود ﷺ
- ٣٦٦ • ذكر قصة نبي الله سليمان ﷺ
- ٣٦٦ تسخير الريح لسليمان ﷺ
- ٣٦٨ جنود سليمان ﷺ
- ٣٦٩ ما الذى حدث فى وادى النمل ؟
- ٣٧١ لوحة عن هندد سليمان ﷺ
- ٣٧٣ نهأ عظيم جاء به الهدد
- ٣٧٥ رسالة سليمان إلى بلقيس ملكة سبأ
- ٣٧٧ الله أعطى سليمان سرًا من علم الكتاب

- ٣٨٠ سليمان عليه السلام يختبر ذكاء بلقيس
- ٣٨١ إسلام بلقيس مع سليمان لله رب العالمين
- ٣٨٢ حكم داود وسليمان عليهما السلام في قضية الحرث
- ٣٨٣ السحر وملكة سليمان
- ٣٨٥ • ذكر قصة نبي الله إسماعيل بن أمية
- ٣٨٧ • ذكر طرف عن أرميا بن حلقيا من سبط لاوي بن يعقوب
- ٣٨٨ • ذكر خبر عن دانيال عليه السلام
- ٣٩١ • ذكر قصة نبي الله العزيز عليه السلام
- ٣٩٦ دعوى باطلة
- ٣٩٨ • ذكر طرف من قصة نبي الله زكريا عليه السلام
- ٤٠٠ بشارة الملائكة لزكريا عليه السلام
- ٤٠١ تعلم زكريا أن الله يعطى ، وإن عزت الأسباب
- ٤٠٣ لماذا طلب زكريا آية على حمل زوجته ؟
- ٤٠٤ اصطفاء الله تعالى لآل عمران على العالمين
- ٤٠٦ دافع مناجاة امرأة عمران لله تعالى
- ٤٠٨ أمنية امرأة عمران
- ٤٠٩ كفالة زكريا لمريم
- ٤١٠ اصطفاء مريم على نساء العالمين
- ٤١٢ مريم من ذرية إبراهيم عليه السلام
- ٤١٥ شمول المعجزة مريم وعيسى ، عليهما السلام
- ٤١٧ بشارة الملائكة لمريم
- ٤١٩ • ميلاد عيسى عليه السلام حدث عظيم
- ٤٣١ معجزة كلام عيسى عليه السلام في المهد
- ٤٣٣ افتراء اليهود في دهوهم على مريم عليها السلام
- ٤٣٣ تعلم عيسى عليه السلام الكتاب والحكمة
- ٤٣٥ بعض من معجزات عيسى عليه السلام
- ٤٣٧ ما هي شريعة عيسى عليه السلام ؟
- ٤٣٨ دعوة عيسى إلى وحدانية الله
- ٤٤٠ قصة الخوارج مع عيسى عليه السلام

- ٤٤٦ فضل الله ونعمته على عيسى وأمه عليهما السلام
- ٤٥١ ماذا عن مائدة السماء ؟
- ٤٥٧ كان ميلاد عيسى ابن مريم ﷺ ووفاته آية
- ٤٦٤ عيسى ﷺ لم يُصلب ولم يُقتل بل رُفِعَ الله إليه
- ٤٦٧ وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا
- ٤٧٨ عيسى ﷺ ابن الله أم عبد الله ؟
- ٤٨٠ الله سبحانه وتعالى لم يتخذ ولدا
- ٤٨٣ إيمان أهل الكتاب بعيسى ﷺ
- ٤٨٥ إقرار عيسى بعبودته لله تعالى
- ٤٨٩ عيسى ﷺ شهيد على بني إسرائيل
- ٤٩١ تفويض عيسى ﷺ أمر قومه لمشيئة الله تعالى
- ٥٠٣ • • • سيرة الرسول محمد ﷺ
- ٥٠٤ بعثة الرسول محمد ﷺ
- ٥٠٤ وأحوال المشركين في ذلك الوقت
- ٥٠٦ فجر الدعوة ومراحلها
- ٥٠٧ مؤلف قريش من الدعوة
- ٥٠٨ العصية للحق
- ٥٠٩ ما لاقاه النبي ﷺ من أذى في سبيل الدعوة
- ٥١١ أعداء الرسل والمرسلات
- ٥١٣ تعنت الكافرين والمشركين وطلبهم للآيات
- ٥٢٤ الرسول ﷺ مبلغ عن الله
- ٥٢٧ تكذيبهم بالحق
- ٥٢٨ الجهر بالدعوة .. وحماية الله لرسوله ﷺ
- ٥٣١ الهجرة إلى الحبشة
- ٥٣٥ الصبر .. من أهم أسلحة الداعية
- ٥٣٦ هجاءهم للرسول وكرهتهم للحق
- ٥٤٥ وفاة أبي طالب وخديجة وما عناه رسول الله ﷺ بعدهما
- ٥٤٦ تسرية الله عن رسوله برحلة الإسراء والمعراج
- ٥٤٧ من أسباب الهجرة

٥٤٨	هجرة النبي ﷺ والصديق ﷺ
٥٥١	الرسول ﷺ وصاحبه في غار ثور
٥٥٢	اثنان .. الله ثالثهما
٥٥٣	دليل النبي ﷺ في الهجرة
٥٥٣	سراقة بن مالك يتبع أثر رسول الله ﷺ
٥٥٣	غزوة بدر الكبرى
٥٥٨	الملائكة تشهد بدر
٥٥٩	غزوة أحد
٥٦٠	تمحيص المؤمنين
٥٦١	مشاروة النبي ﷺ لأصحابه
٥٦٧	صدق الله تعالى وعده
٥٧٠	سيد الشهداء .. حمزة عم النبي ﷺ
٥٧٠	حزن الرسول ﷺ على حمزة
٥٧٢	(فتح مكة) غزوة الفتح الأعظم
٥٧٨	غزوة حنين
٥٩٠	زوجات النبي ﷺ
٥٩٣	ابتداء شكوى رسول الله ﷺ
٥٩٤	خطبة النبي ﷺ وتفضيله أبا بكر ﷺ
٥٩٤	أمره ﷺ بإنفاد بعث أسامة
٥٩٥	وصيته ﷺ بالأنصار
٥٩٥	أبو بكر ﷺ يصلي بالناس أثناء مرض النبي ﷺ
٥٩٥	اليوم الذي قبض الله فيه رسوله ﷺ
٥٩٦	موقف عمر بن الخطاب ﷺ عقب وفاة النبي ﷺ
٥٩٧	جهاز رسول الله ﷺ ودفته
٦٠١	فهرس الموضوعات